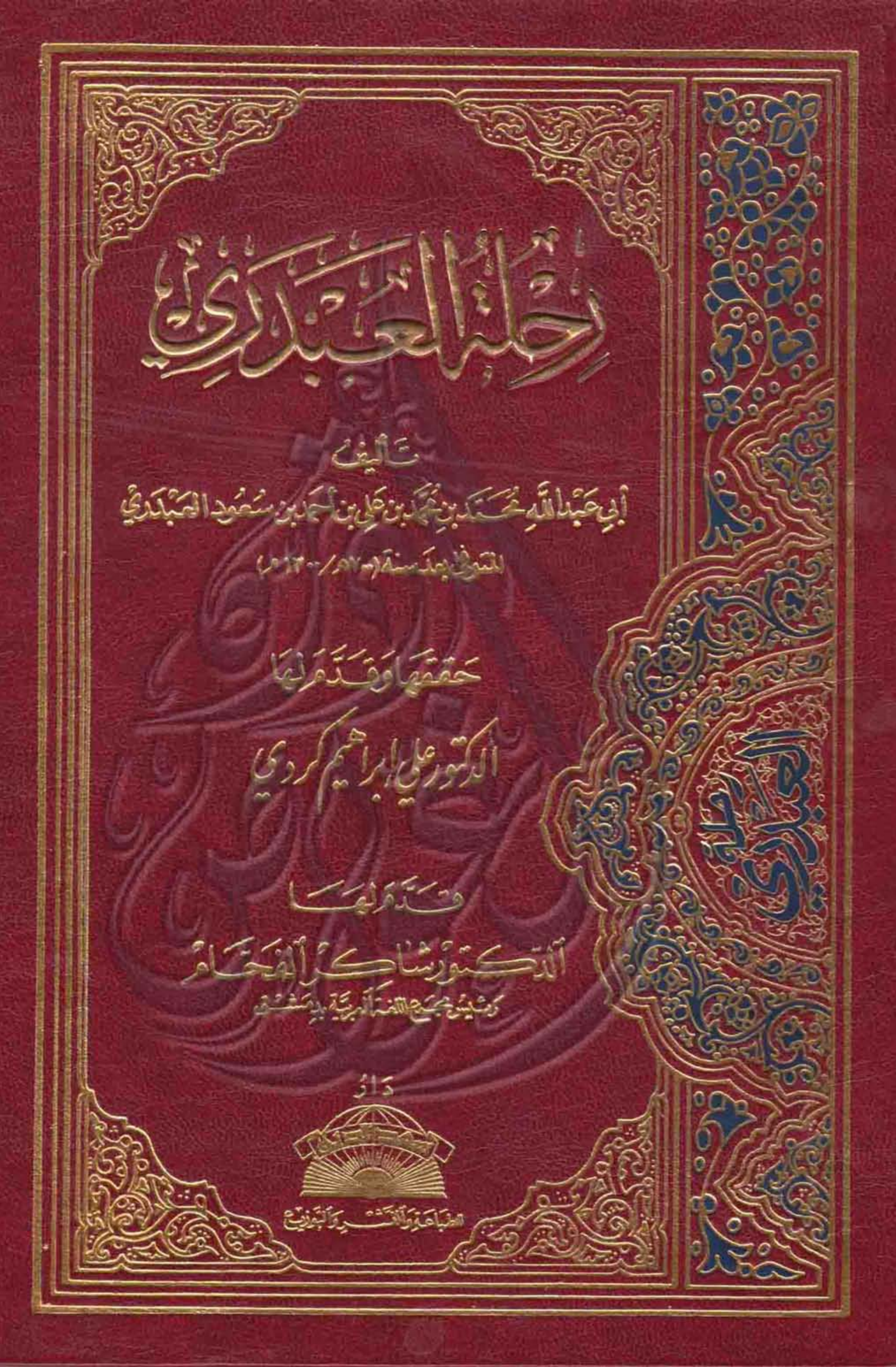


رحلة العبدري
تأليف
أبي عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن سعود العبدري
المتوفى بعد سنة (٧٢٠هـ/١٣٢٠م)
حققها وقدم لها
الدكتور علي إبراهيم كردي
قدم لها
الدكتور شاكر الفحام
رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق
دار
للطباعة والنشر والتوزيع




رحلة العبدري

بسم الله الرحمن الرحيم



الطبعة الثانية
١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

العنوان: رحلة العبدري

المؤلف: أبو عبد الله العبدري

المحقق: د. علي إبراهيم كردي

تقديم: الدكتور شاكر الفحّام

عدد الصفحات: ٧٣٨

قياس الصفحة: ١٧ × ٢٤

موافقة الطباعة: ٢٢٩٠٥ تاريخ ١٩٩٣/١٢/١٦

الطبعة الأولى: ١٩٩٩ عدد النسخ: ١٠٠٠
الطبعة الثانية: ٢٠٠٥ عدد النُّسخ: ١٠٠٠



دمشق - عين الكرش - جادة كرجية حداد
ص ب ٣١٤٣ تليفاكس: ٢٣١٩٦٩٤

رحلة العبدري

تأليف

أبي عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن سعود العبدري

المتوفى بعد سنة (٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م)

حققها وقدم لها

الدكتور علي ابراهيم كردي

قدم لها

الدكتور شاكر الفحام

رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق




بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى والديّ الكريمين ...

اللذين ربّياني صغيرًا

وحملاهمّي كبيرًا

وفاءً، وتقديرًا وعرفانًا

علي



تقديم

الدكتور شاكر الفحّام

تشغل الرِّحلة مكاناً مميّزاً في الثّقافة العربية. فقد تضافرت دواعٍ وأسباب مختلفة حضّت النّاس على الرِّحلة، ويسّرت أمرها، فكثرت الرّحلات وتنوّعت بتنوّع حوافزها ومقاصدها العلميّة والدّينية والسّياسية والاجتماعية والاقتصاديّة وراج أدبُ الرّحلات الّذي استهوى قراءه وأمتعهم بما كان يعرض من المشاهد والآثار المجهولة، والعجائب المشوّقة يصفها وصف معاينة، وبما كان يصوّر من عادات النّاس وأخلاقهم ومشاعرهم تصويراً يبثُّ الحياة والحركة. وحفلت المكتبة العربية بمختلف أنواع الرّحلات، فرحلةٌ تصف الأقاليم والبلاد وماحوت من الغرائب، ورحلة يهفو صاحبها إلى زيارة البيت العتيق، ورحلة مطلبها الأوّل لقاء العلماء ومذاكرتهم والأخذ عنهم، ورابعة للسّفارة وربط أواصر الصّداقة، وخامسة ترتاد المجهول من البقاع حباً للمعرفة، أو سعياً وراء التّجارة والرّبح، أو تطلّعاً إلى نشر الدّين، أو بسط السُّلطان. وتمور صفحات هذه الرّحلات، على تعدّد أغراضها، بالجليل من الفوائد الّتي ترسم جوانب هامة من حياة الشّعوب وطباعها وعاداتها، وتقدم وثائق وشواهد حيّة لما كانت عليه الحضارة العربية في مختلف عصورها.

ولمّا أطلّ العصر الحديث نُشرت جملة من هذه الرّحلات النّفيسة، وأكبّ عليها الباحثون الذّين أفاضوا في الحديث عن مكانة أدب الرّحلة، وما ينطوي عليه من ذخائر، فكشفوا بدراساتهم عن هذا الجانب الهامّ من جوانب الثّقافة العربيّة[1]. ولم يكن بدٌّ من متابعة الطّريق بشقّيه: بذل الجهود وتنسيقها في استكمال نشر تراثنا من الرّحلات مُحقّقاً، وتقديم الدراسات الّتي تجلو هذه الصّفحات الرّوائع، لتحتلّ الرّحلة العربيّة مكانها الصّحيح في تاريخ العلم.

ويندرج مسعى الشّاب الجادّ الواعد علي إبراهيم كردي في هذا السّياق، إذ تصدّى لتحقيق كتاب من أجلّ كتب الرّحلات المغربيّة وهو: رحلة العبدري.

كان المستشرقون أوّل من نوّه في العصر الحديث بقيمة رحلة العبدري: عُني بها المستشرق الفرنسي فانسان في مقال نشره بالجريدة الآسيوية (سنة ١٨٤٥م)، ثم تحدّث عنها بإعجاب بالغ المستشرق الفرنسي شربونو في مقال نشره بالجريدة الآسيوية

---

(١) – من المؤلفات الحديثة في هذا الباب: الرّحالة المسلمون في العصور الوسطى للدكتور زكي محمد حسن، الجغرافية والرحلات عند العرب لنقولا زيادة، الرحلات للدكتور شوقي ضيف، الرحلة والرحالة المسلمون للدكتور أحمد رمضان أحمد، أدب الرحلة عند العرب للدكتور حسني محمود حسين، أدب الرحلة للدكتور حسين نصار، أدب الرحلات للدكتور حسين محمد فهيم.

(سنة ١٨٥٤م) وأتبعه بترجمة بعض فصولها، ووالى كبار المستشرقين الإشارة إليها والإشادة بها[1].

وكان أوّل من قام بنشر الرّحلة العبدريّة الأستاذ أحمد بن جدو (ط قسنطينة - الجزائر)، وقد شاب هذه الطبعة أمران:

أوّلهما: ضعف التّحقيق وما نجم عنه من كثرة التّصحيف والتّحريف في المطبوع، وإهمال تفسير الغامض من الألفاظ والعبارات، وإغفال تخريج الأشعار والأقوال.

والثّاني: سقط في الكلام يبلغ نحو (١٣٨) صفحة من صفحات طبعة رحلة العبدري للأستاذ الفاسي. وقع هذا السقط في ختام الصفحة (٨٨) من الطبعة الجزائرية، وهو يقابل الصفحات (٩٦-٢٣٤) في طبعة الأستاذ محمد الفاسي[2].

وهذه المآخذ جعلت طبعة الأستاذ ابن جدو غير مرضية عند العلماء، وكانت موضع نقد شديد[3]. فانتدب الأستاذ محمد الفاسي لتحقيق الرّحلة وأخرجها تامّة (١٩٦٨- الرباط)، وقد اعتمد في تحقيقها على مخطوطات رحلة العبدري الّتي احتفظت بها خزائن

---

(١) - رحلة العبدري، تح.محمد الفاسي (ص/اح)، تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي(ط٢ . ١٩٨٧م):٢٩٩.

(٢) - أخطأ الأستاذ الفاسي، رحمه الله، إذ ذكر أن بدء النقص في طبعة الجزائر يقع في الصفحة (٩٨) من طبعته (رحلة العبدري، تح. محمد الفاسي، ص٩٨).

(٣) - حوليات الجامعة التونسية، العدد الرابع (سنة١٩٦٧م) ص: ١٧٧ - ١٨٤، العدد التاسع (سنة ١٩٨٢م): ص٢٨١-٢٨٢، رحلة العبدري، تح. محمد الفاسي (ص/أ خ-أ د).

المغرب وهي ثماني مخطوطات، واتكأ منها على اثنتين هما مخطوطتا الخزانة العامة بالرباط، فأكثر من الرجوع اليهما[1]. وقدّم للرحلة بمقدمة جليلة مفيدة استغرقت اثنتين وأربعين صفحة (ص أ-أظ)، وذيّلها بفهارس خمسة (ص٢٨٥-٣٤٥) لم تكن، على فائدتها وشدّة الحاجة إليها، وافية بجميع متطلبات الباحث في الرحلة، فلا فهرس للأشعار، ولافهرس للموضوعات.

عُني الأستاذ الفاسي بتحقيق النّص فأفرغ في ذلك وسعه، ووُفّق في أكثر ماذهب إليه، ولكنّه أقلّ إقلالاً كبيراً من شرح الألفاظ والمعاني الّتي يحسن تفسيرها، وأضرب عن تخريج النُّصوص في مظانّها، وهو أمر له شأنه في الموازنة بين النصوص المقتبسة والنّصوص كما جاءت في أصولها، وأغفل تخريج الأشعار، ولم يعرّف بالأعلام التّاريخيّة والجغرافيّة الّتي تحتاج إلى فضل تعريف وبيان[2].

ويبدو أن الأستاذ الفاسي كان في عجلة من أمره حين أخرج نصّ الرّحلة، يتجلّى ذلك بيّناً في حديثه عن الطّريقة الّتي اختارها في نشر الرّحلة بالتّخفف من التّعريف، موضّحاً «أنّ التّعرض لذلك يتطلّب دراسة خاصة ينبغي أن يشتغل بها الباحثون نظراً لأهمّيتها»[3].

(١) - رحلة العبدري، تح. محمد الفاسي (ص/أ د-أ ر).

(٢) - وانظر كذلك حوليات الجامعة التونسية، العدد التاسع (سنة ١٩٧٢م) ص: ٢٨١-٢٨٦

(٣) - رحلة العبري، تح. محمد الفاسي (ص/أ د-أ ر).

وتهيّأت الأسباب لينهض السّيد علي إبراهيم كردي بتحقيق رحلة العبدري وفق منهج التزمه في ضبط النّصوص وتدقيقها، وتخريجها في مصادرها، وشرح الغريب من الكلم والمعاني، والتّعريف بالأعلام والمواضع، والعناية بتخريج الأحاديث والأشعار والأمثال في مظانّها. وختم التّحقيق بأحدعشر فهرساً كانت وافية بمطالب القارىء والباحث.

ويتراءى في تضاعيف الرّحلة المحققة الجهد الجاهد الّذي بذله المحقّق ليبلغ بالكتاب الغاية التي يرضى عنها، وقد وُفِّق في ذلك، واستكمل أشياء فاتت سابقيه.

لقد تحلّى المحقّق بالصّبر والدّأب في عمله، وأدرك الصِّعاب الّتي يواجهها الباحث، وبيّن أنّ عمله يحتاج الى معاودة لاستدراك أشياء لم يهتد إلى وجهها. إنّه حقّاً من أولئك الّذين جعلوا شعارهم في الحياة: إنّما العلم بالتّعلُّم، ولايزال المرء عالماً ماطلب العلم. وإني لأرجو له مستقبلاً مشرقاً مفعماً بالأمل ليكون في عداد أولئك العلماء الّذين أحبُّوا العربيّة وتبتّلوا في محاريبها، وبذلوا وقدموا ليكشفوا عن وجه الحضارة العربيّة الزّاهرة، وليكون اللّسان العربيّ المبين لغة العلم والحياة، ويعود إلى سابق عهده لساناً عالميا.

الدكتور شاكر الفحام





هذا الكتاب جزء من رسالة جامعيّة نوقشت بين يدي الجمهور بكليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بدمشق يوم الثلاثاء الواقع في ٢٠/ ربيع الآخر ١٤٠٩هـ الموافق في ٢٨/تشرين الثاني/١٩٨٨م، أمام اللجنة المكوّنة من الأساتذة:

الدّكتور محمّد رضوان الداية مشرفاً

الدّكتور شاكر الفحّام عضواً

الدّكتورة أحلام الزّعيم عضواً

وبنتيجتها نال صاحبها درجة الماجستير في الآداب بمرتبة امتياز.



تقدير وعرفان

أتقدّم بالشكر، خالصه وأجزله إلى أستاذي الدكتور محمّد رضوان الدّاية، الذي كان لي خير معين خلال إعداد هذا البحث.

وأقدّم الشكر والامتنان للأستاذ الدكتور شاكر الفحّام الذي حباني بعطفه وتشجيعه، وكانت له أيادٍ بيض على هذا العمل وصاحبه.

وأشكر الصّديق العزيز الدكتور علي أبو زيد على مواكبته هذا العمل منذ بدايته، وتقديمه الملاحظات القيمّة الّتي أفدت منها كثيراً. فلهم مني جزيل الشكر والعرفان.



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

يزخر تراث هذه الأمّة بنفائس الكتب الّتي تحتوي على ضروب من العلم كان لها أثرها في ازدهار الحضارة. وقد آل كثير من هذا التُّراث إلى مُجلّدات تُرصَفُ بها المكتبات، أو يُباهى باقتناء بعضها، ولم يخرج إلى النّاس إلاّ القليل ممّا كتب علماء العرب وخَدَمة حضارتها.

ولمّا كان من الوفاء لهذا التُّراث أن نُخرجَهُ للنّاس مَخْرجاً حَسَناً، ونخدمَهُ خدمة تليق به، سعيت باحثاً في سبيل ذلك، فوجدتني أمام نصّ «**رحلة العَبْدَريّ**»، وراقني طرافة موضوعه، وتميزّه في بابه، ورأيتُ أنّه لمّا يُعْطَ حقّه من العناية والتّحقيق، فرغبتُ في أن أخرجَهُ إخراجاً علمياً أحقّق من خلاله ماأصبو إليه من الإسهام في حركة بَعْث التّراث.

ولايخفى ماالأدب الرّحلة في تراثنا من أهميّة بارزة في مختلف المجالات،وذلك لما تحتويه الرّحلات من فوائد علميّة، وأدبيّة جمّة تعتمد في كثير منها على المشاهدة، والرّواية الشّفويّة، إذ كان بعض الرّحالين النّابهين يقومون بتدوين مشاهدتهم، ومواقفهم من أحوال العالم آنذاك، فيصفون

تجوالهم في الأقطار المختلفة التي يمرّون بها، ولقاءَهم لمشاهير الأدباء والعلماء الّذين قابلوهم في رحلاتهم، وتقييد ماكان يصدر عنهم من شعر وغيره.

والمشهور من الرّحلات بين النّاس رحلة ابن بطوطة ت (٧٧٩هـ/١٣٧٧م) ورحلة ابن جبير ت (٦١٤هـ/١٢١٧م)، ويبدو أنّ السَّبب في شهرتهما لا يعود إلى مضمون هاتين الرّحلتين فحسب، وإنما يعود إلى ظهورهما بين النّاس منذ مُدّة طويلة، وعناية الباحثين - مستشرقين وعرباً - بهما، ومن هنا ذاع صيت الرّحلتين بين النّاس.

ورحلة العَبْدَريّ لا تقلّ أهميّة عن الرّحلتين السّابقتين، إن لم تكن تفوقهما في بعض الجوانب، ولاسيما في جانبها الأدبيّ، لأن العَبْدَريّ صاحب الرّحلة كان أديباً عالماً من علماء المغرب في القرن السّابع الهجريّ، صرف جلّ اهتمامه في رحلته إلى النّاحية العلميّة في البلاد الّتي قطعها بَرّاً من المغرب الأقصى إلى البلاد الحجازية، والقدس، والخليل، فضمّن رحلته تراجم للعلماء الّذين التقاهم في رحلته، وذكر كثيراً من طبائعهم، وعاداتهم، وأخبارهم، وأشعارهم الّتي لم نقف على كثير منها في غير هذه الرّحلة.

١- ترجمة المؤلّف:

صاحب الرّحلة هو أبو عبد الله محمّد بن محمّد بن علي بن أحمد ابن سعود العَبْدَريّ[1]، وينتهي نسبه إلى عبد الدّار بن قُصيّ بن كلاب وإليه نسبته[2].

لم تسعفنا المصادر - حتى الآن - بمعرفه تاريخ ولادة العَبْدَريّ، وتاريخ وفاته، وكلّ مانعرفه أنّه قام برحلته في الخامس والعشرين من ذي القعدة عام ثمانية وثمانين وست مئه، وكان عندها في عنفوان عمره كما قال له شيخه أبوزيدالدّباغ[3].

فإذا افترضنا أنّه كان آنذاك في الخامسة والأربعين. بدليل قوله عن ابن خميس التّلمساني الّذي كان - حين لقيه في تلمسان - في الثّامنة

١- ترجمته في: أعلام الزركلي ٧/٣١-٣٢- الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات للمراكشي ٤/٢٨٧-٣٣٠- تاريخ الأدب الجغرافي لكراتشكوفسكي ١/٣٦٧- تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١/٤٨٢- تاريخ الأدب العربي لفرّوح ٦/٤٠١ تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس لحسين مؤنس ٥١٨- تاريخ الفكر الأندلسي لبالنثيا ٣١٨-٣١٩- الجغرافية والرحلات عند العرب لنقولا زيادة ١٧١-١٨٠- الجغرافيون العرب لمصطفى الشهابي ٨٦-٨٨- جنوة الاقتباس لابن القاضي ٢٨٦-٢٨٨- حوليات الجامعة التونسية العدد الرابع سنة ١٩٦٧ مقال للشاذلي بويحيى- دائرة المعارف الإسلامية بالإنكليزية ١/٩٦- دليل مؤرخ المغرب لابن سودة ٣٨٠- الذيل والتكملة ٨-١/٤٢ مقدمة الدكتور محمد بن شريفة- الرحالة العرب لنقولا زيادة ١١٧-١٢٠- الرحلة والرحاله المسلمون لأحمد رمضان أحمد ٣٤٧-٣٥٣- شجرة النور الزكية لمخلوف ١/٢١٧- فهرس الفهارس للكتاني ٢/٨٠٩، إضافة إلى بعض المقالات المتفرقة في المجلّات.

٢- الأنساب للسّمعاني ٨/٣٤٩-٤ واللّباب في تهذيب الأنساب لابن الأثير ٢/٣١٢.

٣- الرّحلة: ١٦٤.

والثّلاثين من عمره بأنّه «فتيّ السّن»[1] فتكون ولادته حوالي سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) وأغلب الظّنّ أنّ وفاته كانت بعد سنة سبع مئة للهجرة، وهذا قريب ممّا قدّره الدّكتور عمرفرّوخ إذ جعل وفاته سنة (٧٢٠هـ/١٣٢٠)[2].

ولايذكر العَبْدَريّ شيئاً عن دراسته الأولى، ولاتنجدنا المصادر في معرفة بدايات تكوينه الثّقافي، ولا يستبعد أنهّ تتلمذ على والده ـ المعلمّ ـ ودخل الكُتّاب -كما كانت العادة- في بلدته «حاحة» فحفظ القرآن، وتعلمّ على الطّريقة المتّبعة حينئذٍ من التّدرّج في حفظ المتون، وتعلم العمليّات الحسابيّة، ثم ارتقى إلى أن أصبح من الطّلاّب، عندها انتقل إلى مرّاكش الّتي كانت مركزاً علمياً مرموقاً آنذاك، فأخذ عن جلّة من علمائها أمثال محمّد بن علي بن يحيى الشّريف الّذي كان شيخه وشيخ صاحبه ابن عبد الملك المراكشي.[3]

وقد أفاد العَبْدَريّ من كثرة مشايخه، وتَنَوُّعِ ثقافاتهم فأتقن كثيراً من الفنون، ظهرت جليّةً في رحلته الّتي بدا فيها المؤلّف حافظاً للقرآن والحديث، مطّلعاً على الأدب العربي نثره وشعره، وخطبه ورسائله، عارفاً بأيّام العرب وغزواتهم، وفصحاء خطبائهم، وله معرفة بالأسماء والألقاب والكُنى، وأسماء الأماكن، وبمصطلحات علوم الأدب والبلاغة والعروض.

١- الرّحلة: ٥٣ .

٢- تاريخ الأدب العربي: ٦/٤٠١.

٣-الرّحلة: ٣٠٢.

٢- مؤلفاته:

لانعرف حتّى الآن للعَبْدَريّ مؤلَّفاً غير الرّحلة الّتي بين أيدينا غير أنّنا لانُسَلِّم بهذا، ولا نظنّ أنّ علم الرّجل عَقِمَ عن كتاب آخر وهو مَن هو في علمه ومكانته.

ويبدو أنّ غوائل الدّهر قد أتت على ما أنتجه هذا العالم، ولم يسلم لنا سوى الرّحلة. وممّا يعيننا على ما نذهب إليه ويقويه أن البَلويّ أورد في رحلته قصيدة العَبْدَريّ التّائيّة الّتي عارض فيها القاضي عِياضاً في كتابه «الشّفا» ومطلعها[1] : [الكامل]

يَا سَاكِنِي دَار الحبيـبِ عَلَيْكُمُ   مِنِّي ســلامٌ طَيِّبُ النَّفحَـــاتِ

وكذلك فقد أتى العَبْدَريّ ببيتٍ مفرد في رحلته وهو:[2] [الطويل]

شَبَابـيَ والٍ جَاءَ شَيْبِـي بعَزْلِهِ   فقامَ بأعْلَى الرّأسِ أيُّ خطيبِ

وقال قبل إيراده: «وقد كان هذا المعنى عرض لي قديماً فنظمته في بيت من قصيدة» وهذا يعني أنّ ديوان شعره ماخلا بعض الشّذرات منه الّتي وقفنا عليها قد ضاع.

وكذلك أشار الكتّاني صاحب «فهرس الفهارس» إلى أنّه يروي «فهرسة العَبْدَريّ» من طريقين مختلفين[3]، ولا نظنّ أنّه عنى بالفهرسة الرّحلة، لأنّه ضرب من التّأليف يختلف اختلافاً بيّناً عن التّأليف في الرّحلات.

١- تاج المفرق ٢/١٠٩ .

٢-الرّحلة: ١٢٧ .

٣ - فهرس الفهارس ٢/٨٠٩ .

٣- أسباب الرّحلة ومدّتها:

كان وراء رحلة العَبْدَريّ سببان حملاه على المُضيّ فيها:

الأول: سبب دينيّ: وهو القيام بفريضة الحج، وزيارة الأماكن المقدّسة، والاتّصال بالمتصوّفة والصّالحين، وقد صرّح العَبْدَريّ مراراً بأنّه كان ينوي الإقامة بمكّة والمجاورة بها، وبأنّه قد اكترى المنزل وجهّز لوازمه، وصرف الرّكب إلى المغرب، لولا حدوث فتنة هناك أرغمته على الرّحيل عن مكّة[1].

الثّاني: هو رغبته في لقاء العلماء والمشايخ والأخذ عنهم، وكان العبدريّ حريصاً على البحث عن السَّنَد العالي فيما أخذه عن هؤلاء العلماء والمحدّثين، ورأينا العَبْدَريّ في سؤال دائم عن الأحوال العلميّة والثّقافيّة في البلاد التّي مرّ بها؛ فإذا صادف مجموعة من العلماء في بلد من البلاد طرب لذلك وانشرحت نفسه فانطلق لسانه ثناءً وحمداً كما حدث معه في تونس[2]. وإذا لم يجد هذا النّوع من العلماء هَجَا بلسانه الذَّرِب هذه البلاد وأهلها كصنيعه في قابس وطرابُلُس [3].

أمّا مدّة الرّحلة فيبدو أنّها استمرّت أكثر من سنتين، ويذكر البحاثّة حسن حسني عبد الوهاب أنّ العَبْدَريّ زار تونس مرّتين في طريق ذهابه إلى

١- الرّحلة: ٣٩١ .

٢- الرّحلة: ١٠٨ .

٣- الرحلة: ١٨٤ .

الحج سنة (٦٨٨هـ/١٢٨٩م)، وعند رجوعه سنة (٦٩١هـ/١٢٩٢م)[١]. فعلى هذا يكون العَبْدَريّ قد أمضى ثلاث سنوات في رحلته ويؤكّد هذا البَلويّ حين أورد أبياتاً للعَبْدَريّ في رحلته. فقال: «أنشدها في تونس في رجب الفرد سنة (٦٩٠هـ/١٢٩١م)»[٢]. فمن المحتمل إذاً أن يكون العَبْدَريّ قد عاد في هذه السَّنة من الحجاز وأقام في تونس سنة أخرى كما فعل نظيره ابن رُشَيد السَّبتي ت (٧٢١هـ/١٣٢١م) صاحب «ملء العيبة». ويؤكّد هذا الاحتمال ماذكره العَبْدَريّ عن أهل تونس، وكياستهم، وعلمهم، فقد أعجب بعلمائها ومجالسهم العلميّة، ودليل ذلك قوله عند دخوله تونس بعد عودته من الحجاز: «وقد أقمتُ بها مدّة حتّى شفيتُ الحشا العليل، ونقعتُ بوردها الغليل، وقطعت فيها الغدوّ والأصيل، بمجالسة كلّ فاضل جليل، فما أنفصل عن عالم يوضح الحلَك مهما أجاب، إلاّ إلى صالح يحتلب به درّ السَّحاب، ولا أغدو عن مجلس أدب كقطَع الرّياض، إلا إلى محفلِ وَعْظٍ يسقي الخدود بالدَّمع الفيّاض، فقطعتها أيّاماً من غفلات الدّهر مختلسات، وانتظم لي شملُ أنُس طالما مُني بالشّتّات، فلم يبق بها شيخ مذكور إلا رأيته، ولاعلم مشهور إلاّ أتيته»[٣].

فالرّحلة إذاً كانت ذات هدف مزدوج ككثير من الرّحلات الحجازيّة الّتي كان أصحابها يقصدون الدّيار المقدّسة لأداء فريضة الحجّ، ويغتنمون الفرصة ليلتقوا الشّيوخ في المدن الّتي كانوا يمرّون بها، ويأخذون عنهم ما يتيسّر لهم من العلوم المختلفة.

١- مقدمة رحلة التجاني صفحة: يز.
٢- تاج المفرق: ١٠٩/٢ .
٣-الرحلة: ٤٨٩ .

٤- منهج العَبْدَريّ في تأليف الرّحلة :

أوضح العَبْدَريّ في مقدّمة الرّحلة منهجه في تأليفها فقال:[١] «... وبعد فإنّي قاصدٌ بعد استخارة الله سبحانه إلى تقييد ما أمكن تقييده، ورسم ماتيسّر رسمه وتسويده. ممّا سما إليه النّاظر المطرق، في خبر الرّحلة إلى بلاد المشرق، من ذكر بعض أوصاف البلدان، وأحوال من بها من القطّان، حسبما أدركه الحِسّ والعيان، وقام عليه بالمشاهدة شاهد البرهان، من غير تورية ولا تلويح، ولاتقبيح حسن، ولاتحسين قبيح، بلفظ قاصد لا يحجم مُعرّدا، ولا يجمح فيتعدّى المدى، مسطّراً لما رأيته بالعيان، ومقرّراً له بأوضح بيان».

وقد كان العَبْدريّ وفيّاً لهذا المنهج الّذي ارتضاه لرحلته، مطبّقاً له، فقد وصف البلدان وصفاً دقيقاً بمبانيها، وآثارها، وكثيراً ماكان يعّرج على أهلها فيصف عاداتهم وتقاليدهم، ولباسهم، ومستواهم العلمي، ولم يكن متساهلاً في نقد ماكان يراه غير طبيعّي سواء في أخلاق النّاس أو في عاداتهم، وخصوصاً فيما يتعلّق بالنّاحية العلميّة للبلاد الّتي كان يدخلها، كقوله عن طرابلس:[٢] «...ثم وصلنا مدينة طرابُلُس، وهي للجهل مأتم، وما للعلم فيها عرس ...». وقوله عن تلمْسان:[٣] «... وأمّا العلم فقد درس رسمه في أكثر البلاد، وغاضت أنهارُه فازدُحِمَ على الثّماد، فما ظنُّك بها وهي رسمٌ عفا طللُه، ومنهل جَفَّ وشلُه..»

١- الرّحلة: ٢٨ .

٢- الرّحلة: ١٨٤ .

٣- الرّحلة: ٤٩ . وغاض الماء: نقص ـ والثّماد: الحُفَر يكون فيها الماء القليل. والوَشَلُ: الماء القليل يتحلّب من جبل أو صخرة، يقطر منه قليلاً قليلاً.

وهذا ما جعل بعض الباحثين[1] يصف آراءه بالتّطرّف، لأنّ العَبْدَريّ لم يترك بلداً دون أن يوجّه إليه نقده بصراحة، لامداراة فيها ولامواربة.

ولجأ العَبْدَريّ إلى ذكر الأخبار التّي استفادها، والأشعار التّي كان أنشده إيّاهَا العلماء. ونقل بعض المعلومات المهمّة التّي كان يراها تخدم غرضه من الكتب المختلفة لتوضيح مايذهب إليه، وإن لم يشاهدها عياناً على الشّرط الذّي اشترطه على نفسه في مقدمة الرّحلة.

ولقي العَبْدَريّ مجموعة من المحدّثين الذّين سمع منهم كثيراً من الأحاديث الشّريفة، وأثبت بعضها في رحلته، معتنياً بالسَّند العالي عناية كبيرة كما سلف.

أمّا تقسيم الكتاب فلا نكاد نلمح تقسيماً واضحاً له، ولكنّنا نجد فيه بعض الفصول التّي كان كثيراً مايلجأ إلى عقدها عندما يريد الوقوف على ظاهرة، والتّفصيل فيها تفصيلاً يبعد قليلاً عن غرض الرّحلة ومنهجها، مستطرداً في حديثه عن بلد وما يختصّ به، أو عن تاريخه، كما صنع في الحديث عن عجائب مصر ونيلها[2]، والحديث عن بناء المسجد الحرام[3]، والكعبةوأسمائها[4] .

١- مثل د. حسين مؤنس الذي نعت العَبْدَريّ بالتطرف والتعقيد، انظر «تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ٥٢٠».

٢-الرّحلة: ٣١١.

٣-الرّحلة: ٣٨٤.

٤-الرّحلة: ٣٧٦.

وكثيراً ماكان العَبْدَريّ يستطرد إلى بعض الآراء التّي تستوجب منه مناقشة وتوضيحاً، كما صنع في مشاركاته الفقهيّة، ومناقشاته العلميّة[1] .

٥ - مصادره في تاليفها:

تحتوي رحلة العَبْدَريّ معلومات جغرافيّة وتاريخيّة وأدبيّة واجتماعيّة إضافة إلى المعلومات الفقهيّة. لذلك نلاحظ أنّ مصادره متنوعة تنوّعاً كبيراً، ويأتي في أوّلها المشاهدة، ثم الرّواية الشّفويّة، ثم المصنّفات المختلفة التّي نقل منها.

أمّا المشاهدة فقد ظهر أثرها واضحاً في المعلومات الجغرافيّة عن المناطق والبلاد التّي مرّ بها، وخصائصها العمرانية، وتضاريسها، وكان وصفه لها وصف شاهد عيان.

وقد حملت هذه الرّحلة طائفة من المعلومات والقضايا العلميّة التّي أخذها المؤلفّ من صدور العلماء مشافهة، وقيّدها في رحلته، وحوت كثيراً من المعلومات الّتي لانجدها في غير هذه الرّحلة. ومن هاهنا تزداد قيمة الكتاب العلميّة، ويسمو درجة نحو الجودة والفائدة.

أما المصدر الثّالث فهو المصنّفات التّي نقل عنها العَبْدَريّ، وقد لجأ إليها مستعيناً بها على مالم يشاهده، أو شاهده ولكنّه يريد التّوكيد والتّوضيح والاستدلال.

ويمكن أن نصنّف مصادره التّي نقل عنها ضمن الطّوائف التّالية:

١- الرّحلة: ١٥١.

١- المصادر الجغرافيّة والتّاريخيّة: ومنها كتاب « المسالك والممالك » لأبي عُبيد البكري ت (٤٨٧هـ/١٠٩٤م). و«أخبار مكّة» لأبي الوليد الأزرقي ت (٢٥٠هـ/٨٦٥م). و «طبقات الأمم» للقاضي صاعد ت (٤٦٢هـ/١٠٧٠م) و «مروج الذّهب» للمسعودي ت (٣٤٦هـ/٩٥٧م).

٢- كتب الحديث المختلفة: الصّحاح وغيرها، وكتاب «غريب الحديث» لأبي عُبيد القاسم بن سلاّم ت (٢٢٤هـ/٨٣٨م) و«مشارق الأنوار» للقاضي عياض ت (٥٤٤هـ/١١٤٩م).

٣- كتب السّيرة النّبويّة: كسيرة ابن إسحاق ت (١٥١هـ/٧٦٨م)، و«الرّوض الأنُف» لأبي القاسم السُّهيلي ت (٥٨١هـ/١١٨٥م) و «الاكتفاء» لأبي الرّبيع بن سالم الكلاعي ت (٦٣٤هـ/١٢٣٧م)، و «الشمائل» للتّرمذي ت (٢٧٩هـ/٨٩٢م).

٤- كتب الفقه المالكيّ: مثل «المدوّنة» لعبدالرّحمن بن القاسم ت(١٩١هـ/٨٠٧م)، و «العتبيّة» لمحمد بن العُتبي القرطبي ت (٢٥٤هـ/٨٦٨م)، و«التّلقين» للقاضي عبدالوهاب ت (٤٢٢هـ/١٠٣١م).

٥- كتب التّصوّف: ككتاب «التّشوّف» لابن الزّيات ت (٦٢٧هـ/١٢٣٠م)، و «منار العلم» لأبي سعيد الحاحّي المترازيّ.

٦- الدّواوين الشعرية والمجموعات: كـ «ديوان المتنبّي» و «ديوان النّابغة» و «الحماسة» و «يتيمة الدّهر » للثعالبي ت «٤٢٩هـ/١٠٣٨م».

٧- كتب أخرى في القراءات والتراّجم ككتاب «التيّسير» و «المقنع» لأبي عَمرو الداني ت (٤٤٤هـ/١٠٥٣م) وغيرها.

٦- أهميّة الرّحلة:

لم تَنَل رحلة العَبْدريّ مكانتها بين الرّحلات، وأوّل من تنبّه إلى شأنها علماء الاستشراق، الّذين انكبّوا عليها دراسةً وترجمة، وكان «أول من اشتغل بها المستشرق الفرنسي «مانسان» في مقال نشره بالجريدة الآسيويّة، ثم نشر المستشرق «شربونو» بالجريدة الآسيوية كذلك سنة١٨٥٤م مقالاً عنها، أتبعه بترجمة بعض فصولها»[١].

وبقيت هذه الرّحلة حبيسة الرّفوف إلى أن جاء الأستاذ أحمد بن جدّو وحاول أن يخرجها للناس، فطبعها منقوصة غيْر تامّة، وزاد في *سوئها* كثرة الأخطاء، ثم طبعت في المغرب بعناية الدكتور محمّد *الفاسي*، إلاّ أن هذه الطّبعة أيضاً لم تَفِ بحقّ *الرّحلة*، *ولم* تقدّمها للنّاس على شكلها الصّحيح، ويبدو أنّ وقت *الدّكتور* *الفاسي* لم يتّسع لأكثر من ذلك، فدفعها للطّبع بسرعة تحدوه *الرّغبة* في أن يَطّلع عليها جمهور الباحثين والقرّاء، فخرجت الرّحلة يعتورها بعض النّقص، والتّصحيف والتّحريف، وخَلَت -أو كادت- من التّعليقات الضّروريّة لايضاح ما يستغلق فهمه لدى قراءتها.

وممّا يدلّ على أهميّة هذه الرّحلة انتشار نسخها المخطوطة في كثير من مكتبات العالم[٢]. واحتفال المؤرخين بها إذ نقل كثير منهم عنها كالتّنبكتي صاحب «نيل الابتهاج» الّذي أفاد منها أيّما إفادة ونقل كثيراً من التّراجم عنها، وعدّها مصدراً من مصادر كتابه[٣]. ونقل عنها الوزير السرّاج في

١- مقدّمة طبعة الرّباط صفحة ١ج.

٢- حاولنا حصر بعض نسخها المخطوطة في منهج التحقيق.

٣- انظر نيل الابتهاج: ٦٨-١٠٣-١٥٢-١٦٣-١٦٤-٢٠٣-٢٢٢.

كتابه «الحلل السُّندسيّة في الأخبار التّونسيّة» فقرات طويلة في الأوصاف والتّراجم، وعدّها أيضاً من مصادره في تأليف كتابه[1].

وقد اهتدى بها عدد من الرّحالين ونقلوا عنها، واسترشدوا بها، فقد نقل عنها ناسخ رحلة ابن بطوطة فقرات كثيرة[2]، وكذلك شأن الرّحّالة ابن عبد السّلام النّاصري الّذي كان يستحضرها في كلّ مراحل رحلتيه الكبرى والصّغرى، وعبد القادر الجيلاني الإسحاقي[3]، واعتمد العيّاشي عليها في كثير من تدقيقاته إذ نراه يقف كثيراً مع ماذكره العَبْدَريّ محقّقاً ومدقّقاً[4]، وصنع الورثلاني صنيعَه أيضاً في رحلته[5].

ونظراً إلى أهمّيتها فقد قام أبو العبّاس بن قنفذ القُسنطيني ت(٨٠٩هـ/١٤٠٦م) باختصارها بعنوان: «المسافة السّنيّة في اختصار الرّحلة العبدريّة»، ومازال هذا المختصر مخطوطاً.

وبقي العلماء والباحثون حتّى العصر الحاضر يهتمون برحلة العَبْدَريّ، ويقدّرونها، إذ عمد العلامة عبّاس بن إبراهيم المراكشيّ إلى تلخيصها في كتابه الجليل: «الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام» [6].

١- انظر الحلل السّندسيّة: ١/ ٢٤٥-٢٤٦-٢٤٧-٢٥٦-٤٩٩-٥٠٠-٥٦٠-٦٦٧-٦٦٨.

٢- انظر وصف ابن بطوطة والعَبْدَريّ لمنار الإسكندرية، ولعمود السواري، وللنيل، وللأهرام والبرابي، وللمزارات بقرافة مصر، وكذلك وصفها لمدينة الخليل، وتربة لوط، وقبر فاطمة بنت الحسين، وبيت لحم، والمسجد الأقصى وقبّة الصّخرة، ووادي جهنم، ومصعد عيسى عليه السّلام، وقبر رابعة البدوية، ووصف عسقلان.

٣- انظر مقدّمة طبعة الرباط صفحة ط.

٤- رحلة العياشي ١/٩٢و١١٠.

٥- الرّحلة الورثلانية: ١٨٢-٢٢٢-٢٢٣-٢٣٨-٢٣٩-٣٩٢.

٦- الإعلام ٤/٢٨٧-٣٣٠.

وممّا يزيد في أهميّة الرّحلة أنها تُعَدّ وثيقة مهمّة عن الحياة الثّقافيّة في أواخر القرن السّابع الهجري في البلاد التّي مرّ بها العَبْدَريّ، والتقى علماءها فقد أعطانا صاحب الرّحلة فكرة موسّعة عن المستوى الثقافي في هذه البلاد، وعرّفنا بأعلام العلماء، وما كان يُهتَمُّ به من العلوم المختّلفة، كما دلّنا على الكتب التي كانت رائجة آنذاك، وطرائق التّدريس المتّبعة عصرئذ.

وترجم العَبْدَريّ لمجموعة من العلماء الّذين لا نكاد نعثر لهم على صورة واضحة في المصادر المختلفة، فأضاء جوانب من شخصياتهم، وعرّفنا بهم وبطبائعهم، وكانت أوصافه وأحكامه تتّصف بالدّقّة لأنّها صادرة عن شاهد عيان.

كذلك فإنّ هذه الرّحلة تفيد علماء الجغرافية والتّاريخ في دراسة الظّواهر الّتي كانت سائدة آنذاك، كما تفيد مؤرخي الأدب في التأريخ الأدبيّ للأقطار التّي مرّ بها العَبْدَريّ، فهي تضمّ نصوصاً أدبيّة - شعريّة ونثريّة ونقديّة - مهمّة تتفرّد الرّحلة في بعضها، بما يزيد في أهميّة الرحلة ويضعها في مكانها الصّحيح بين كتب الرّحلات المختلفة.

نسخ الكتاب ومنهج التّحقيق

للرّحلة نسخ متعدّدة في المكتبات العامّة والخاصّة، ذكرها الأستاذ محمدّ الفاسي في مقدمة طبعته، وهذه المخطوطات المعروفة هي:

أـ المخطوطات الموجودة في المغرب وهي:

١- مخطوطة خزانة جامع القرويين بفاس ورقمه ج ل٤٠/٥٦٧ .

٢- مخطوط الخزانة العامّة بالرّباط ورقمه د ١٠١٢ .

٣- مخطوط ثانٍ بالخزانة نفسها ورقمه ك ٣٥٦ .

٤- مخطوط الخزانة الملكيّة بالرّباط ورقمه ٢٨١٠.

٥- مخطوطان في الزّاوية الحمزوية بجبال الأطلس المتوسط .

٦- مخطوط في المكتبة الخاصة للأستاذ محمد المختار السّوسي رحمه الله .

٧- مخطوط في المكتبة الخاصة للأستاذ عبد السّلام بن سودة .

ب ـ المخطوطات الموجودة خارج المغرب وهي:

١- مخطوط مكتبة الإسكوريال ورقمه فيها ١٧٣٨ .

٢- مخطوط مكتبة جامعة ليدن بهولاندا ورقمه ٨٠١ .

٣- مخطوط المكتبه الوطنية بتونس ورقمه ١٥٩٥٢ .

٤- مخطوط المكتبه الوطنية بباريس ورقمه ٢٢٨٣ .

٥- مخطوط كان عند المستشرق الفرنسي ألفونس روسو.

٦- مخطوط كان عند المستشرق الفرنسي شربونو.

٧- مخطوط عند المستشرق الفرنسي مارتان.

٨- مخطوط كان يوجد في خزانة جامعة الجزائر ورقمه ٢٠١٧ .

وكنت قد وقفت أثناء وجودي في تونس - بعد أن دفعت الكتاب للطّبع[1]. على ثلاث نسخ خطّية - عدا الّتي اعتمدتها في التّحقيق - وجميعها آلت إلى المكتبة الوطنيّة، وهذا بيان بأرقامها:

٩- مخطوط المكتبة الوطنية رقم ٤٨٣٥ .

١٠- مخطوط في مكتبة العلاّمة حسن حسني عبد الوهاب ورقمها ١٨٦٠٠.

١١- مخطوط المكتبة الأحمدية رقم ٤٤٤١، وهي نسخة عتيقة عدد أوراقها (١٤٢) ورقة، استطعت أن أملأ منها بعض الفراغات الموجودة في بقّية النُّسخ، وأشرت إلى ذلك في موضعه.

وقد تيسّر لي الوقوف على ثلاث نسخ خطّيّة منها اعتمدتها في التحقيق إضافة إلى الطّبعتين اللّتين طُبعتا من قبل، وهذه النُّسخ هي:

١- نسخة باريس: وهي المحفوظة بالمكتبة الوطنيّة بباريس تحت رقم ٢٢٨٣، وعدد أوراقها مئة وإحدى وخمسون ورقة. في كل صفحة بين واحد وعشرين وثلاثة وعشرين سطراً، كتبت بخطّ مغربي واضح جميل، ضبط

١- كنت قد دفعت الكتاب إلى دار الغرب الإسلامي ببيروت لطباعته، وبقي الكتاب حبيس الرفّ مدّة عامين، دون أن تتيسّر طباعته هناك، فآثرت إخراجه في دار سعد الدين بعد أن سحبت الكتاب من الدار المذكورة.

بعضه بالشّكل، وبهامش النُّسخة بعض التّعليقات والتّصويبات ممّا يدلّ على أنها قوبلت على نسخة أخرى.

ويبتدئ كل فصل منها بحروف أكبر من خطّها العادي، ويلتبس منها حرف الضّاد بالظّاء. والنّسخة كاملة إلاّ أن فيها بعض المواضع البيضاء، وهذا البياض نفسه موجود في باقي النُّسخ وفي المطبوع أيضاً.

أما تاريخ النسخ فهو أوائل ذي قعدة من عام خمسة وأربعين وسبع مئة، نقلها النّاسخ من أصل المؤلّف، واعتمدتها أصلاً في التّحقيق ورمزت لها بـ«الأصل».

٢- نسخة تونس: وهي من رصيد المكتبة الأحمديّة بتونس التي آلت مخطوطاتها إلى المكتَبة الوطنيّة، وحفظت فيها تحت رقم ١٥٩٥٢، وعدد أوراقها مئة وإحدى وسبعون ورقة، في كل صفحة بين تسعة عشر واثنين وعشرين سطراً، كتبت بخطّ مغربي جميل واضح، وضبط بعض الحروف بالشّكل، ووضع النّاسخ إطاراً لصفحات الكتاب. أما تاريخ النسخ فهو أواخر محرّم عام سبعة وثمانين ومئة وألف، ورمزت لها بـ «ت».

٣- نُسخة ليدن: وهي المحفوظة بمكتبة جامعتها تحت رقم ٧٢٧ وعدد أوراقها مئة وثماني عشرة ورقة، وعدد أسطر كلّ صفحة بين واحد وعشرين واثنين وعشرين سطراً، وكاتب النّسخة جاهل بأصول الكتابة وقواعدها، إذ كان يسقط الكلمات التي لايعرف قراءتها، لذا فهي ملأى بالتّحريف، وكثيرة السّقط والاضطراب، إضافة إلى أنها بتراء ينقصها من آخرها قرابة سبعة أسطر من النّثر، وقصيدة العَبْدريّ المنظومة. لذلك فقد عمدت إلى استبعادها من المقابلة والمقارنة، ولم أعد إليها إلاّ نادراً للتّأكد والاستئناس.

٤- طبعة الرّباط: «رحلة العَبْدريّ» قام بنشرها الدّكتور محمد الفاسي عام ثمانية وستين وتسع مئة وألف، وأشار في مقدّمته إلى أنه اعتمد نسخ المغرب كلّها.[1] وتقع هذه الطّبعة في أربع وثمانين ومئتي صفحة، إلاّ أنّ هذه الطّبعة لم تَفِ بحقّ الرّحلة، إذ شابها شيء من السّقط، والتّحريف، والتّصحيف، ويبدو أن وقت النّاشر لم يتّسع لأكثر ممّا بذل، وقد ألمح إلى ذلك في مقدّمته وتمنّى أن يقيّض لهذه الرّحلة من يقوم بخدمتها بشكل أفضل إذْ قال: «والتعرّض لذلك بالتّفصيل يتطلبّ دراسة خاصّة ينبغي أن يشتغل بها الباحثون نظراً لأهميّتها»[2] ورمزت لها بـ «ط».

٥- طبعة الجزائر: «الرّحلة المغربيّة»، وقد عني بنشرها الأستاذ أحمد ابن جدّو في الجزائر أوائل السّتينات. وهي طبعة ناقصة تكاد تفي بنصف الرّحلة الأساسيّة، فهي تتوقّف عند وصوله إلى الإسكندريّة ثمّ يعود منها إلى بلده، مع العلم أن النُّسخ الّتي يقول إنّه اعتمدها في التّحقيق كان في مقدّمتها نسخة باريس وهي تامّة، ولانعلم السّبب الّذي حمل النّاشر على بتر هذه الرّحلة.

ولمّا كانت هذه الطّبعة غير صحيحة لم أجعلها مع النُّسخ المعتمدة في المقار نة والنّظر، وربّما عدتُ إليها كلّما أشكل الأمر في بقيّة النّسخ لأفيد ممّا ورد فيها، وكان ذلك على ندرة. وقد يسّر لي الوقوف على هذه الطّبعة أستاذنا الدّكتور شاكر الفحّام الذّي آثرني بها، فأفدتُ منها ومن ملاحظاته القيّمة التّي دوّنها على حواشي هذه الطّبعة.

١- مقدمة طبعة الرّباط صفحة أذ

٢- مقدمة طبعة الرباط صفحة ار

منهج التحقيق

كان منهجي في تحقيق هذا النّص يتوخّى الدّقّة والسّلامة ماأمكن. فكان أن نسخت النّص، وضبطتُ مُشْكِلَه، ثم قارنت النّص في النُّسخ المعتمدة جميعاً وأثبتُّ الفروق التّي وقعت فيها. ولم أتخلّ عن الأصل إلاّ في مواضع يسيرة جدّاً ثبت فيها ضعف رواية الأصل ورجحان رواية النُّسخ الأخرى.

ثم ضبطتُ الآيات الكريمة، والأحاديث الشّريفة، والشّعر، والأمثال ضبطاً كاملاً مستعيناً بما تيسّر لي من المصادر التّي تعينني على ذلك.

وعمدتُ إلى تدقيق النّص بالرّجوع إلى المصادر التّي عاد إليها المؤلف واستطعتُ الوقوف عليها، ثم بالرّجوع إلى المصادر التّي كانت تتحدث عمّا أشار إليه العَبْدريّ.

كذلك فقد شرحت الغريب من الكلمات بالرّجوع إلى لسان العرب والقاموس المحيط، وخرّجت الأحاديث والشّعر والأمثال من مظانّها ماوسعني ذلك.

ووَضَعْتُ عناوين لفقرات الرّحلة ضمن معقوفين لتسهيل الرّجوع إليها.

وقد نَدَّ عني شيء ممّا تقدّم لم أهتَدِ إلى تخريجه أو توثيقه، ولعلّني أوفّق قابل الأيّام في استدراك مافرط منّي.

وصنعتُ آخر التّحقيق الفهارس الفنّية اللازمة الّتي تعين على الرّجوع إلى مافي الكتاب من:

- آيات قرآنيّة
- أحاديث شريفة
- أمثال مأثورة
- أشعار وأراجيز.
- أسماء وأعلام.
- قبائل وجماعات.
- أماكن
- مصطلحات مناسك الحج.
- أقوال.
- لغة.
- موضوعات.

وبعد:

فهذا عملي أقدّمه بعد أن سعيت مااستطعت إلى خدمة هذا النّص، وإخراجه على صورة تحظى بالقبول، غير مُدَّخِرٍ جهداً، ولامُحتَسِبٍ مشقّة، فإنْ أحسنت فَبِفَضْلٍ من الله ، ثم بما قُدِّم اليَّ من سديد الرّأي والتّوجيه، وإن كانت الثّانية فَعَن غير قصد ولا تقصير، وحسبي أنّي أخلصتُ النّيّة، وبذلتُ الجهد، والله من وراء القصد.

علي كردي

دمشق في ١٣/٦/١٩٩٣

الورقة الأولى من نسخة باريس (الأصل)

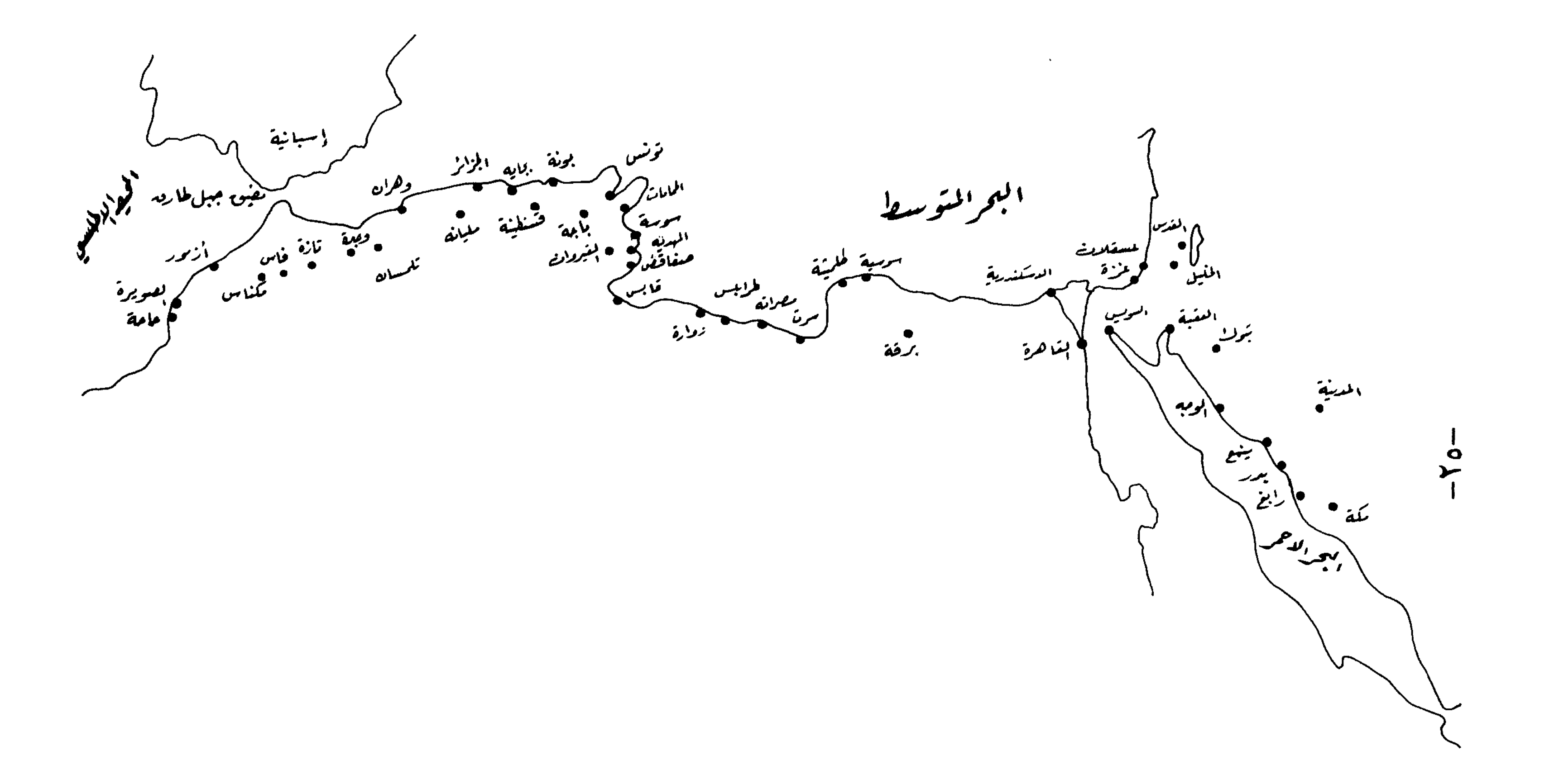


الورقة الأخيرة من نسخة باريس (الأصل)

الورقة الأخيرة من نسخة تونس (ت)



الورقة الأولى من نسخة تونس (ت)



خط سير العبدري في رحلته

النَّصُ المُحَقَّق

رِحلة العَبْدَريّ



بِسمِ اللّهِ الرّحَمن الرّحيم

[مقدّمة المصنّف]

(١اللّهمَّ صَلِّ وسلِّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وتابعيه وأُمَّته١)

يقول العبد المذنب المستغفر الفقير إلى اللّه تعالى مُحمدّ بن محمدّ -أيضاً- بن عليّ بن أحمد بن سُعود[٢] العَبْدَريّ عفا اللّه تعالى عنّا وعنه بِمَنِّه:

أحمَدُ اللّه تعالى حَمْدَ مُعتَرِفٍ بالتّقصير، عائذٍ بوجههِ الأكرم، وجلاله الأعظَم من سوء المصير. وأشهد أن لا إلهَ إلاّ اللّه وحدَه لا شريك له، شهادةً تتكفّل لي بالسّلامة من كلّ ملامة، وتُضيء في ظُلْمَتَيّ[٣] القبر والقيامة وتُنير. وأصلّي وأُسلّم[٤] على سيّدنا محمّد نبيِّه وخيرته وصفوته[٥] البشير النّذير، وعلى آله الأعظمين، وصَحبه الأكرمين، صلاةً تفوتُ العَدَّ والتّقدْير؛ وتكون لي أثرةً باقية، وجُنَّةً واقية، من عذاب السّعير؛ وتمحو من كبير زَلَلي ومسطور خَطَلي وما جرى به قلم التّقدير.

١-١- في ت: صلّى اللّه على سيّدنا محمّد، وفي ط: صلّى اللّه على سيّدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما.

٢- في ط: مسعود.

٣- في ط: ظلمة.

٤- ليست في ط .

٥- في ت وط: صفيّه.

وبعد: فإنِّي قاصدٌ بعدَ استخارةِ الله سبحانَهُ، إلى تقييد ماأمكن تقييده، ورسم ماتيسَّرَ رسمُهُ وتَسويدُه،(١) ممّا سَمَا إليه النّاظرُ المُطرِق، في خبر الرّحلة إلى بلاد المشرق، من ذكر بعض أوصافِ البلدان، وأحوالِ مَن بها من القُطّان، حسبما أدركه الحسُّ والعَيَان، وقام عليه بالمشاهدة شاهدُ البُرهان، من غير تورية ولا تلويح، ولا تقبيح حسن ولاتحسين قبيح، بلفظ قاصد لايُحجِمُ مُعَرِّدا،(٢) ولايجمح فيتعدّى المدى، مسطّراً لما رأيته بالعَيان، ومقرّراً له بأوضح بيان، حتّى يكونَ السّامعُ لذلك كالمُبْصِر، وتلحق فيه السّبّابةُ (٣) الخِنْصِر، فتشفى [به](٤) نفس المتطلّع(٥) المتشوّف، ويقف منه على بُغيته السّائل المتعرّف. وأذكر مع ذلك ما(٦) استفدتُه من خَبر، أو أُنشِدتُهُ مِن دُرر، ماأنظم في أوراقٍ(٧) مُتَبدِّدَهْ، وأعقُل بعقال الخطِّ مُتشرِّدَهْ، وأُثبت في خلال ذلك من نظمي مايتغلغل إليه الكلام، أوتجنح إلى تحصيله ضوامر(٨) الأقلام، وأُضيف إلى ذلك مايضطرّ إليه التّبيان،(٩) فيما قصّر فيه العيان، من نُبَذٍ مذكورة، ونُتَفٍ مشهورة، ونُكَتٍ مرسومةٍ [١/ب] في الكتب مسطورة، تتميماً لغرض التّقييد، وتعميماً لأَرَبِ المُستفيد، حتّى يكونَ التّأليفُ في بابهِ مُغنياً، وعن الافتقارِ إلى غيرهِ مُستغنياً، مثبتاً في كلّ رسمٍ بَعْضَ الأحاديثِ

١- في ط: تسديده.
٢- في الأصل: مفردا، وهو تحريف. والتعريد: الفرار.
٣- في ت: به بالسبابة.
٤- زيادة من ت و ط .
٥- في ت: المتطالع.
٦- في ت و ط : مما .
٧- في ت و ط : ما أضم في الأوراق.
٨- في ت : ضوار، وهو تحريف.
٩- في ت وط: البيان.

التي رَوَيْتُها، والآثارَ التّي وَعَيْتُها، تَبرُّكاً بإثباتها، وتيمُّناً بذكر الفُضَلاء[1] من رُواتِها، وأختمُ ذلك بقصيدة وعظيّة أسردُ فيها الرّحلةَ سَرْداً، وأُبرزها[2] من نَسْجِ فِكري بُرداً.

وربّما حمل الامتعاضُ لحزب الفضائل، على فَرْطِ تحزّبٍ وتألُّفٍ[3] على فئة الرّذائل، فيقع[4] في اللّفظِ إقزاع[5] وإقذاع،[6] ويَرسُمُ في باب همزِهِم تمكين مَدٍّ وإشباع، لاجهلاً بموقع الإغضاء من أخلاق ذوي الآداب، ولا مَيْلاً إلى ماعابَهُ الشّرْعُ من مذمومِ الاغتياب، وإنّما هو لغَرَضٍ صَحيح، لايرمي بسَهمِ التّقبيح، وهو إعطاء ذي الحقّ حقَّهْ، وألاّ تكونَ الفضائلُ لغير أهلها مُستحقّةْ، فيكون الفاضل في الوصف مبخوساً، ويُرَى الناقِصُ في غير مَنْبتهِ مغروساً، وقد يردع المُسيءَ عن إساءَته مايرى ويسمع من مساءته ومن التأديب كلّ ماكفّ المرءَ عن زَلَلِه، و «نيّةُ المؤمنِ أَبْلغُ منْ عَمَلِه» [7]؛ وعلى أنّي - يعلم الله - قلّما أمتعض لنفسي، وأزجر في غَرَضها عَنْسي[8]، وما أغريت قلمي بالانتصاف، ولاأعملتُه في ذكر ذميم الأوصاف، إلا لحُرْمَةٍ منَ الفَضلِ أشلاؤها ممزّعة،[9] أو وظيفة من الشّرع أحكامُها مُضَيّعَة.

١-في ت: الفضل

٢- أبرز الكتاب: نشره وأخرَجَه.

٣- في ط: تألّب.

٤- في الأصل: فيقبح.

٥- في ت و ط : إقذاء. وأقزع له في المنطق: تعدّى في القول القاموس: قزع.

٦- الإقذاع: الرّمي بالفحش.

٧- حديث أخرجه: أبو الشيخ في كتاب الأمثال ٥٤/١، وأورده الهنديّ في كنز العمّال ٤٢٤/٣.

٨- العنس: الناقة القوية.

٩- ممزّعة: مقطعة.

وقد حَدَّثَنا الشَّيخُ الفقيهُ المحدّثُ عالمُ الدّيارِ المصريّةِ تقيُّ الدّين، أبو الفتح، محمّدُ بنُ عليّ بنِ وَهَب القُشَيريّ [1] إملاءً من لفظه بمنزلِهِ من دار الحديثِ الكامليّة[2] بقاعدة مِصْر - مَهَدها الله تعالى - قال: قرأت على الفقيه المفتي أبي مُحمّد عبدالعزيز بن عبد السّلام السُّلميّ، وكانَ من سَلاطين العُلَماء صَليباً[3] في الأمر بالمَعروفِ والنَّهْيِ عن المنكر، عن الحافظ أبي محمّد القاسم بن عليّ بن الحسن بن هِبة الله الشّافعيّ، قراءةً عليه، قال: أخبرنا عليُّ بنُ مُسْلِمِ بنِ محمّد السُّلَمي، قال: أخبرنا أبو الحسن[4] أحمد بن عبدالواحد بن أبي الحَديدِ السُّلَمي، قال: أخبرنا جَدّي أبوبكر محمّدُ بنُ أحمدَ ابنِ عُثْمانَ بنِ أبي الحَديد، قال: أخبرنا أحمدُ هو أبو الفَضْلِ بنُ عَبْدِ الله بنِ نَصْر بن هِلال السُّلَمي، قال: حَدَّثَنا المؤَمَّل هو ابنُ إِهاب، قال: حَدَّثَنا عَبْد [٢/أ] الرَّزَّاق، قال: أخبرنا الثَّوريُّ عن قَيْس بن مُسْلِم عن طارق بنِ شِهاب، قال: أوَّلُ مَنْ قَدَّمَ الخُطْبَةَ مَرْوان،[5] فقام إليهِ رجلٌ فقال: يامروانُ! خالفتَ

١- محمد بن علي بن وهب القشيري: ابن دقيق العيد، قاضٍ محدّث، وُلِدَ بينبُع ٦٢٥هـ، وولي قضاء مصر سنة ٦٩٥هـ واستمرّ بها إلى أن توفّي سنة ٧٠٢هـ بالقاهرة. له تصانيف منها: إحكام الأحكام. ترجمته في الديباج المذهب: ٣٢٤، شذرات الذهب: ٥/٦، الدُّرر الكامنة: ٩١/٤.

٢- دار الحديث الكاملية: بناها الملك الكامل في القاهرة. وكملت عمارتها سنة ٦٢١هـ، وهي ثاني دار للحديث بعد دار الحديث العادلية بدمشق انظر حسن المحاضرة ٢٦٢/٢، خطط المقريزي ٣٧٥/٢.

٣- التصلّب: التشدّد.

٤- في ط: الحسين، وهو تحريف.

٥- مروان بن الحكم، أبو عبد الملك، وَلِدَ بمكة المكرّمة سنة ٢هـ، ونشأ بالطائف، وشهد صفّين مع معاوية، ثمّ ولاّه معاوية المدينةَ المنوّرة، وتوفي بدمشق سنة ٦٥هـ ترجمته في الإصابة ٤٥٥/٣، شذرات الذهب ٧٣/١.

خالفَ اللهُ بِكَ، فقال: يافلانُ! اتركْ ماهنالكَ؛ فقام أبو سعيد الخُدْريّ،[1] فقال: أمّا هذا فقد قَضى ماعليه؛ سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ رأى منكُم[2] مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بيَدِهِ، فَإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ».[3]

وليسَ بمُنكرٍ[4] في هذا الزَّمان قَدْحُ مَنْ يَقْدَح، وإنَّما المُنْكَرُ[5] مَدْحُ مَن يَمْدَح؛ لأنَّ الصِّدْقَ محمودٌ بكلِّ لسانْ، والكَذِبَ مَذْمومٌ من كُلِّ إنسانْ، والأمرُ في ذلك كما أنشدَني الشَّيخُ الأستاذُ الفاضلُ مُحيي الدِّين أبو عبد الله محمّد بن عبدالعزيز المازوني[6] بالإسكندريّة لنفسه:

١- سعد بن مالك بن سنان الخدري الأنصاري الخزرجي، صحابي لازَمَ الرسول ﷺ، وله ١١٧٠ حديثاً، وغزا اثنتي عشرة غزوة. توفي بالمدينة سنة ٧٤هـ ترجمته في الإصابة ٣٢/٢، غربال الزمان:٦٧.

٢- ليست في ت و ط، وهي من لفظ الحديث.

٣- أخرجه مسلم: رقم ٧٨ في الإيمان، باب كون النهي عن المنكر من الإيمان، والترمذيُّ: رقم ٢١٧٣ في الفتن، باب ما جاء في تغيير المنكر باليد، وابن ماجة: رقم ٤٠١٣ في الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأبو داود: رقم ٤٣٤٠ في الملاحم، باب الأمر والنهي، وأحمد بن حنبل: ٣/ ٢٠و٤٩و٥٤، والنسائي: ١١١/٨.

٤- في ت و ط: نكراً.

٥- في ت و ط: النكير.

٦- محمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن عمر، محيي الدين النحوي، المعروف بحافي رأسه، من أئمّة العربية، له نظم، ولد بتلمسان سنة ٦٠٦هـ وتوفي سنة ٦٩١هـ ترجمته في فوات الوفيات ٤٠٩/٣، والوافي بالوفيات ٣٦٤/٣، وشجرة النور الزكية ٢٠١، والبلغة في تاريخ أئمة اللغة ٢٣٠ وجاء في الفوات وشجرة النور أنّ وفاته كانت ٦٨٠هـ. وهذا غير صحيح بدليل لقاء العبدري له سنة ٦٨٨هـ.

[الخفيف]

قُلْ لأهْلِ الزَّمانِ حَاشـاك ممّا أَصْبحـوا فيـهِ مِنْ مَسَاوٍ سَواءَ
مَاعلــى شاعـرٍ هجاكُم مَــلامٌ هــل رآكـمْ أحسنتُـمُ فَـأسَــاءَ
كــانَ مَنْ قد مَضَـى يُعلِّمُنا المَدْ حَ وأنــتــمْ تُعَلِّمـونا الهَـجَــاءَ

وقد تعطَّل في هذا العصر موسم الأفاضل، وتبدّد في كلّ قطر نظام الفضائل، وتفرّق أهلها أيادي سَبا،[1] وصاروا حديثاً في النّاسِ مُستَغْرَبا، فعادوا اسماً بلا مسمّى، وحرفاً مادلّ على معنى، فالمحدّث عنهم في مشرق أو مغرب، كالمحدث عن عَنْقاء مُغرب،[2] ولو طاب المورد لَحَصَلَ الرّيّ، وقديماً قال أبو العَلاء المَعرّي: [3] [الخفيف]

ويقـالُ: «الكِـرامُ» قـولاً ومافي الـْ أَرْضِ إلاّ الشُّخُوصُ والأسْماءُ[4]

وكيف لاتكون الدّنيا على ماأصف وأقول، وعلى وفق المُشَاهَدِ من ذميمِ أوصافها والمنقولِ، وقد صار المُلكُ الذي هو نظام الأمور، وصلاحُ الخاصّة والجمهور، في أكثر الأرض منقوضَ الدَّعائم، مهدومَ [5] القوائم، يدّعيه كلُّ

١- أيادي سبا؛ أي: متفرّقين. وفي المثل: تفرّقوا أيدي سبا؛ أي تفرّقوا تفرُّقاً لا اجتماعَ بعده انظر: الميداني١/٢٧٥.

٢- العنقاء المغرب: طائر خرافي لم يره أحد، قال أبو عبيد: طارت بهم العنقاء المغرب. وفي ثمار القلوب٤٥٠ يقال: أعزّ من العنقاء المغرب.

٣- في اللزوميات: ١/٥٧.

٤- في اللزوميات: وما في العصر

٥- في ت: مهزوم، وفي ط: مصدّع.

غويّ، كالمليكشي[1] وعبدالقويّ؛ رضوا باسم الملك وإن فاتهم معناه، وادّعوه وما لهم منه إلا أسماؤه وكُناه؛ لايأمن بهم طريق، ولايُستَنْقَذُ بهم غريق، ولايُذكر منهم أصيل في المجد عريق؛ لاتندى أكفُّهم بنائل، ولاتصون عن الابتذال وجه فاضل، ولايُنصف بهم [٢/ب] مظلوم، ولايُقْرَعُ[2] بأسيافهم ظَلوم.

أوَليس من الأمر الأمَرِّ الخارج عن كُلِّ قياس، أن المُسَافِرَ عندما يَخْرُجُ من أقطار[3] مدينة فاس،[4] لايزال إلى الإسكنْدَريّة في خوض ظلماء، وخَبْطِ عَشْواء،[5] لايأمنُ على مالِه ولا على نفسه، ولايؤملُ راحةً في غَدِهِ إذلم يَرَها في يومِهِ وأمْسِهِ، يروحُ ويغدو لَحْماً [6] على وَضَم [7]، يُظلمَ ويُجفى ويُهْتَضَم، تتعاطاهُ الأيدي الغاشِمة، وتتهاداهُ الأكفُّ الظّالِمةُ، لامُنْجِدَ لهُ ولامُعين، ولاملجأ يعتصمُ به[8] المِسكينْ؛ يستنجدُ ويستغيثُ، وأنى له المُنجدُ والمُغيثُ؟ ينادي وهو في قَيْدِ المظالِمِ يرسُفُ:[9] ألاناصرٌ يُنجدُ؟ ألاراحمٌ يَرأفُ؟ يتذكّر[10] ملكَ

١- في ط: الملائكشي، ولعلّه أراد منصور صاحب ملكيش الذّي سيذكره العبدري فيما بعد عند وصوله إلى تلمسان.

٢- في ت: يقدح.

٣- في ت: عن أنظار، وهي ليست في ط.

٤- فاس: مدينة مشهورة بالمغرب الأقصى، كانت منذ القديم مهداً للثقافة الإسلامية، وبمدينة فاس جامع القرويين، وهو معهد للعلوم يقصدُه الطلاّب من كل جهة. معجم البلدان ٤/٢٣٠.

٥- أي على غير هدى.

٦- في الأصل: ولحمه وهو تحريف.

٧- الوَضَمُ: كلّ شيء يوضَع عليه اللحم من خشب أو غيره يوقى من الأرض، وفي الحديث: إنَّ النساءَ لحمٌ على وَضَم. الميداني ١/٩١؛ وتركهم لحماً على وضم: أوقع بهم فذلّلهم وأوجعهم.

٨- في ت: إليه.

٩- الرَّسف: مشي المُقيَّد.

١٠- في ت: يذكر.

البِّرين فيقرأ: ﴿ يَاأَسَفَاً عَلَى يُوْسُفَ ﴾[1]: [الطويل]

فَمَنْ مُبْلِغٌ عَلْيَاهُ عَنِّيَ مِنْ نَظْمِي رِسَالَةَ مُسْتَعْدٍ شَكَا ظُلْمَةَ الظُّلْمِ

ضَعِيفِ القُوى أَوْدَتْ بِأَنْضاءِ جِسْمِهِ فَيَافٍ بَرَتْ أَهوالُها مُصْمَتَ العَظْمِ[2]

مَهَامِهُ يُنْضِينَ الفَنِيقَ وَإِنْ قَضَتْ على ابنِ سَبِيلٍ والتِ الجورَ في الحُكْمِ[3]

إذا ضافَهَا ضَيْفٌ قَرَتْهُ بِلَحْمِهِ فَلَمْ يَعْدُها إلاَّ عَرِيّاً مِنَ اللَّحْمِ

٥ - وَخَيَّمَ فيها كُلُّ فَظٍّ إذا رأى بَنِيَّةَ شَخْصٍ لم يُكفكِفْ عنِ الهَدْمِ[4]

يَرى أَنَّ حُكْمَ النَّبْتِ وَالنَّاسِ واحِدٌ فَمَا يَنْثَنِي فيهِمْ عَنِ الخَضْمِ والقَضْمِ[5]

وَيَرْتاحُ لِلْحُجَّاجِ حينَ يَرَاهُمُ كَلَيْثٍ طَوَى مِنْهُ الطَّوى رَاحَ للضَّغْمِ[6]

فَكلُّهُمُ السَّقَّافُ وَهْوَ بِشُؤْمِهِ على قَبْرِهِ كَوْمٌ عَظِيمٌ مِنَ الرَّضْمِ[7]

١- من الآية: ٤٨ من سورة يوسف. وثمّة تورية بين يوسف النبي عليه السلام وملك المغرب يوسف بن يعقوب بن عبد الحقّ المريني من ملوك الدولة المرينية بالمغرب الأقصى؛ تولّى المملكة بعد وفاة أبيه سنة ٦٨٥هـ، وهو أوّل مَنْ هذّب ملك بني مرين وأكسبه رونق الحضارة. توفي في قصره بالمنصورة قربَ تلمسان بعد أن طعنه خصيٌ من مماليكه سنة ٧٠٦هـ انظر جنوة الاقتباس ٥٤٧/٢، والاستقصا ٦٦/٣-٩١.

٢- في ت: أبدت بأنضاء جسمه. والفيافي: جمع فيف: المفازة لاماء فيها، مع الاستواء والسّعة. والمُصْمَتُ: الذي لا جوفَ له.

٣- المهامه: جمع مَهْمَه: المفازة البعيدة لاماءَ فيها ولا أنيس. والفنيق: الجمل الفحل المكرم الذي لا يُهان ولا يُركب.

٤- في ط: بليّة.

٥- الخضم: الأكل بأقصى الأضراس، والقضم: بأدناها.

٦- الطوى: الجوع، والضَّغْمُ: العَضُّ غير النهش.

٧- السّقّاف: رجل من العرب كان يسكن وادي القُرّ في الجزيرة العربية، كان يقطع الطريق على الحُجّاج. وسيترجم له المؤلّف في الصفحة ٣٤١ من الرّحلة. والرّضم: الأكوام من الحجارة.

وَأَعْجَبُ مِـنْ هذا ملوكٌ-بِزَعْمِهِمْ-   وُجـودُهُمُ في الأرضِ شرٌّ مِنَ العُدْمِ
رَضُــوا بأَسـامٍ لا مُحَصَّلَ عندهــا   كطفلٍ يُرَضَّـى بالمُحالِ مِـنَ الـزُّعْمِ
إذا استصْرَخَ المَظْلومُ منْهُمْ مُعظِّماً   فقد طلبَ الفَتْـوى إلى غَيْـرِ ذي عِلْمِ
وإنْ يَشْكُ مُضْطَرّاً إليهمْ فَقَدْ شَكا   إلى غيرِ ذي فَضْـلٍ فتى غَيْرِ ذي فَهْمِ[١]
[٣/أ] ألا لاتُطِلْ شَكوى فَلَسْتَ بِمُشْتَـكٍ   إلى مَلِكِ البرَّين واسكُتْ على رُغْمِ[٢]
فذاكَ الّـذي أفنـى الطُّغـاةَ بسـيفهِ   فَلَـمْ يبْـقَ منْهُمْ مَنْ يُشيـرُ إلى ظُلْمِ
أبادَ همُ حتّى بَدا الغـربُ حضـرةً   مُطَهَّرَةً مِـن كلِّ عيبٍ ومِـنْ وَصْمِ[٣]
بِـذِكراهُ فالْهَجْ تَعْتَصِـمْ بِـسُعُـودِهِ   إذا أنتَ لَمْ تُعْصَمْ بِسَيْفٍ لَهُ يُصمِي[٤]
هو المرءُ يُغني حينَ يُعْطي وإن يَصُلْ   تَقُلْ دُكَّتِ الدّنيا ولم يبقَ مِن رَسْمِ[٥]
إذا احتـالَ مُغتـالٌ لسـمٍّ عـدوِّهِ   فصارمُـهُ الهنديُّ يُغني عَـنِ السُّمِّ
وإن دانَ ذو ضعــفٍ بكَيْـدٍ مُكَتَّمٍ   فبالسَّيف يمحو الكيدَ لكنْ بلا كَلْمِ[٦]

١- في ت و ط : مضطرٌ.

٢- المقصود بملك البرّين: يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني. والبرّان: المغرب والأندلس.

٣- ت و ط: غدا الغرب. والوَصْم: العيب في الحَسَب.

٤- يصمي: يقتلُ، و: يهلك.

٥- في ط: هو البحر.

٦-الكَلْمُ: الجرح.

لَــــهُ صـارمٌ يــرنــو بعينَيْ مُــحَدِّقٍ   إلى كُلِّ مَنْ يخطرْ لَهُ الشَّرُّ في وَهْمِ(١)
أراقَ دِمــاءَ الظّــالمينَ فقــد غَـدَتْ   علـى حلّةِ العلياءِ أبهـى من الـرَّقْمِ(٢)
ترى سيفَهُ في الحـربِ يَهدي ويهتدي   إذا ضلَّ مايُرمى وضَلَّ الّـذي يَـرمي(٣)
إذا رَصَّ فــي أمـرٍ بنـاه عــزيمــةً   فَلا تخشَ مِنْ وَهْيٍ ولاتخشَ مِنْ ثَلْمِ(٤)
يُوافيـك منــه وافيــاً أو مُعـاديـاً   غَمـامٌ يُرَوّي أو حُسـامٌ له يُصمـي
لئِنْ عَذُبَتْ في السَّمْـعِ أمداحُ مَجْدِهِ   فَــإنَّ نَدَاهُ الجَـمَّ مُسْتَعْذَبُ الطَّعْــمِ
وإمّــا حــوى دراً نظـامــي فإنَّهـا   فضائلُه طُرّاً ومالي سـوى النَّظْمِ(٥)
لقـد لَذَّ حتّى قلـتُ إن كنـتُ أبتغـي   ثوابـاً به فَهْـوَ النِّهايَـةُ فـي الظُّلْـمِ
[٣/ب] يُنيل يســاراً مَنْ غـدا الفقـرُ حِلْفَهُ   ويولي افتقـاراً مَـنْ تَموَّلَ بِالغَشْمِ(٦)
ولاغَرْوَ فــي الضِّدَّين أن جُمِعـا بــه   غِنًــى وافتقـارٌ هكـــذا حـالــةُ اليَمِّ
يُقيمُ بِطَبْـعِ الفَـضْلِ أوزانَ نَظْمِـهِ   فَقَدْ صِيْنَ مِنْ كَفٍّ لديهِ وَمِنْ خَرْمِ(٧)
وليس يَعُـدُّ الغُنْــمَ مـالاً يــحـــوزُهُ   إذا عدَّه ذو البخل مِـنْ أعْظَمِ الغُنْمِ

١- في ط: يخطوله الشرّ. وسكنّ الراء فـي يخطر ضـرورة. انظر (ضـرورة الشـعـر لأبي سـعيـد السِّيرافي ١١٩)
٢- الرَّقْم: ضَرْبٌ مُخَطَّطٌ من الوشي.
٣- في ت: وسيفه في الحرب. وبه يختلُّ الوَزن.
٤- وَهْيُ الحائط: إذا ضعف وهَمَّ بالسقوط. والثُّلْمَةُ: الخَلَلُ في الحائط وغيره.
٥- في الأصل ولمّا حوى.
٦- في ت: ينال يساراً. والغَشْمُ: الظُّلْمُ والغصْب.
٧- الكفّ: المنع، والخَرْم: النقص. وهما من مصطلحات العروضيّين؛ فالكفّ في العروض: حذف السابع الساكن، والخرم: ذهاب الفاء من (فعولن) فيبقى (عولن) فينقطع في التقطيع إلى (فَعْلن)، ولا يكون الخَرْم إلاّ في أوّل الجزء من البيت انظر: الوافي للتبريزي: ٢٠٥.

ولكنْ نفوساً قد عَتَتْ وتجبَّرتْ ... فَحَطَّمَها وَطْءَ المقيَّدِ للهَرْمِ(1)
وصَيَّرها مملوكةً بعدَ مُلكها ... وحطَّ عُلاها وهْيَ أَبْعَدُ مِنْ نَجْمِ(2)
وعوَّضَها مِن عِزَّةِ المُلكِ ذِلَّةً ... ومِنْ صحَّةِ الأحوالِ مُنهكةَ السُّقْمِ
إذا حلَّ عزمَ المرءِ حزمٌ بدا له ... رأى الحزمَ كُلَّ الحزمِ في صحّةِ العزمِ
طغى الكُفْرُ حتّى صدّه بجيوشه ... كما صدّ ذو القرنين ياجوج بالردّمِ(3)
بِحُمْرٍ وشُقْرٍ كالدَّنانيرِ لونُها ... وشُهْبٍ كبيضِ الصّحْفِ أو لونُها ينمي(4)
وقد شَرَّدت بالخوف منها عِداتَها ... فلم ترها جمعاءَ إلاَّ مِنَ الدَّهْمِ(5)
فكم بطلٍ حِلْفِ الأباطيل أبطلتْ ... وكم جَرَمَتْ مَنْ قَدْ تَجَرَّمَ بالجُرْمِ(6)
وكم نصبتْ إذ أنصبتْ رفع فاعلٍ ... وألقت على أفعالهِ عاملَ الجَزْمِ
وكم ماردٍ مهما علا انقضَّ نحوَهُ ... شهابٌ مِنَ الفُرسانِ أقصدُ من سَهْمِ
وكم صُفَّ صفٌّ في السَّلاسل منهمُ ... كما صُفَّ في الأرباقِ حاشيةُ البَهْمِ(7)
توزّعهم رَيْبُ الزّمانِ تَوَزُّعاً ... أرى حاسبَ الأعداد كيفيّةَ القَسْمِ

١- الهَرْم : ضَرْبٌ من الحمض فيه ملوحة، وهو أذلّهُ وأشدُّه انبساطا على الأرض واستبطاحاً، وأفاد من قول زهير:

ووطئتنا وَطْأً على حنقٍ ... وَطْءَ المقَيَّد يابس الهَرْم

٢- ضمّن العبدري المثل: أبعد من النجم، وهو في الميداني:١/١١٥.

٣- ذو القرنين: هو الإسكندر الرومي، ويأجوج ومأجوج: قبيلتان، جاءت القراءة فيها بهمز وبغير همز. والرّدم: قيل: السدّ الذي بيننا وبين يأجوج ومأجوج. انظر اللسان: ردم.

٤- المراد بالحمر والشقر والشهب: الخيول.

٥- الدّهم: العدد الكثير.

٦- في ت و ط : حلف الأباطل، وفي ت و: ط: خرمت ... تحرّم، وهو تصحيف. والجُرْم: التعدّي.

٧- الأرباق: جمع ربْق: عروة حبل تجعل في عنق الدّابة أو يدها تمسكها.

فأموالُهـــم للنَّهْـــبِ، والأهْلُ للسبِّـا ... وأرواحُهُمْ للنَّـار والجســمُ للحَطْمِ[١]

كذا يُبْتَنـى المجـدُ الرَّفيعُ وهكـــذا ... تُضَمُّ خِصالُ المَجْدِ فـي نَسَقِ النَّظمِ

فيـا أيُّها السَّـاري المُغِـذُّ لأرضِـهِ ... ليَهْنِكَ أمْنٌ فـي ذَراهُ مِـنَ الظُّلْمِ[٢]

ويَهْنِكَ أنْ تحظـى بقُـرْبِ جَنَـابـهِ ... فتَأمَنَ مِنْ عُرْبٍ هنـاكَ ومِـنْ عُجْمِ

حَنَانَيْكَ أبْلِغْ نحـوه لـي رسـالةً ... تُبَلِّـغُ شـكوى مُسْتَرِمٍّ مِنَ الهَمِّ[٣]

وشـدْ بالّـذي حَبَّرتُـه مِـنْ مَدائـحٍ ... يفوق بهـا الياقـوتَ دُرٌّ مِنَ الكَلْـمِ

مَدَائـحُ يختـالُ الزَّمـان بِـذِكـرِهـا ... صحائحُ ماتُرمى بـزورٍ ولا إثْـمِ[٤]

إذا بـرزت فـي حلبـة الشِّعْرِ برّزتْ ... وحازَ سِـوَاها نَعْتَيِ السُّكْتِ واللَّطْمِ

[٤/أ] كعـابٌ إذا لاحَـتْ سَبَـتْ كُلَّ نـاظرٍ ... فيَسلـو بها عن ذكرِ هندٍ وعن نُعْمِ[٥]

إذا جُلِيَـتْ قـامَ العِيـانُ بِمَدْحِهَـا ... فَأظْهَرَ تفنيـدَ المُشيـرِ إلـى الذَّمِّ

ولَمْ أُلْفِ في مصرٍ ولا الشَّامِ كُفْأَهـا ... فأطْرَقْتُ إطراقَ الشُّجاعِ مِنَ الغَمِّ[٦]

فأبْلِـغْ بهـا ـ نِلْتَ الأمانـي ـ أمـانَةً ... ولا تَظْلِمَنْهـــا بابـتـذالٍ ولا كَتْـمِ

إلى المَلِك السَّامي صُعوداً علـى الوَرى ... ولَيثِهِمُ في الحرب، والغيثِ في السِّلْمِ

إلى مَنْ لَهُ كَـفٌّ إذا المُـزْنُ أخْلَفَتْ ... فما إنْ تَزَالُ الدَّهْرَ ساجمةً تهمي[٧]

١- السَّبْي والسِّباء: الأسر.

٢- في ط: المُغِدّ، بإهمال الدال. وفي الأصل: في داره، وبه يختلّ الوزن. والمُغِذُّ: المُسْرِع.

٣- المُسترِمّ: بالي العظام.

٤- في ط: صحائف ماتُرْمى.

٥- الكَعاب: المرأة حين يبدو ثديُها للنهود.

٦- الشُّجاع: الحيَّة، وفي المثل: أطرق إطراق الشجاع، انظر الميداني: ٤٣١/١.

٧- أسجمت السَّحابة: دام مطرها.

إلى فاضلٍ أعيا الأفاضلَ شَأْوُهُ فمِنْ مثلِه الدُّنيا أصرَّتْ على عُقْمِ
إلى يوسُفٍ سيف الإلهِ الّذي أتى لِحَسْمِ العدا، إنَّ الحُسام مِنَ الحَسْمِ[1]
فَدَامَ ودامت في الصُّعود سُعودُهُ مُنيلاً لِمَنْ يَسْمُو لَهُ كُلُّ ما يُسمِي[2]
مُرَقَّى مُوَقَّى مُستَجاراً مُؤَمَّلاً مُنيراً مُبيراً للظّلامِ وللظُّلْمِ[3]
عليّاً كريمَ السَّعْيِ يُرْجَى ويُتَّقَى مُفيداً مُبيداً في رِضاهُ وفي الرَّغْمِ[4]
مَصونَ العُلا ما ضَمَّ درُّ مديحِهِ ورُصِّع في بدءِ الحديث وفي الخَتْمِ

وهذه الرِّحلة بدأتُ بتقييدها في تِلِمْسَان[5]، ولم يُمكنّي إظهارُها هنالك، وأظهرتُها بعدَ خروجِنا منها، ووقفَ عليها شيوخُنا بمصرَ وغيرِها، وكانَ شيخُنا زَيْنُ الدّين بن المُنَيِّر[6] ـ حفظه الله ـ يستحسنُ ما يقفُ عليه منها، وَقَدْ أكملْتُها ـ والحمدُ لله ـ منتظمةً[7] على نَسَقِها، ومُسْتَنَّةً في سَنَنِها، جارياً مَعها حسبَما جرَت؛ مُستَمليًا لها فيما قدّمَتْ وأخّرَتْ، حتّى استُوفيَ الغَرَضُ المطلوب، وحصلَ المُرَادُ منه والمرغوب؛ وبالله أعتصم وأستعين، وهو خيرُ عَاصِمٍ ومُعين، وإيّاهُ أستهدي الصَّواب، وأستكفي ما يَصِمُ ويَسِمُ بِالعَاب[8]؛ إنّهُ بِنُجْحِ المطَالِبِ كفيل، وَهُوَ حسبُنا ونعمَ الوكيل.

١- المقصود: يوسف بن يعقوب بن عبد الحقّ المريني، وسلفت ترجمته.
٢- في ت و ط : مثيلاً.
٣- البوار: الهلاك.
٤- في ت و ط : مبيراً في رضاه.
٥- تلمسان: مدينتان متجاوتان مسوّرتان، بينهما وبين وهران مرحلة، كانت مركزاً علمياً وحضارياً أيّامَ ملوكها من بني عبد الوادي انظر: معجم البلدان ٤٤/٢.
٦- هو علي بن منصور بن المُنَيّر: فقيه، قاضٍ، محدّث، ولي القضاء بالإسكندرية، له شرح على البخاري في عدّة أسفار، وحواشٍ على شرح ابن البطّال، توفي سنة ٦٩٥هـ انظر حسن المحاضرة ٣١٧/١، والديباج المذهب ٢١٤.
٧- في ط: منظمة.
٨- في ت: العتاب. والعابُ والعَيْبُ: الوَصمة.

[بداية الرحلة]

كانَ سَفَرَنا - تقبَّلَهُ اللّه تعالى - في: الخامس والعشرين من ذي القعْدة، عامَ ثمانية وثمانين وست مِئة، ومَبْدَؤهُ من: حَاحَة[1] - صانها اللّه - وكان طريقنا على بلاد[2] القِبْلة، فَزُرنا[3]، بموضعٍ أنْسَا من أعلى بلاد السُّوس [٤/ب] الأقصى[4]، قبرَ الشيخ الصَّالح أبي حَفْص عُمُر بن هارَون[5]، وهو من كِبار الأولياء، ومن عُظماء الصَّالحين - نفعنا اللّه بهم - ذَكَرَهُ صاحبُ كتاب «التشوُّف»[6] وبالغَ في الثَّناءِ عَلَيْه، وذكره الشَّيخ الفقيهُ[7] الصَّالح أبو سَعيد الحَاحيّ المتْرازيّ في كتْابه «منارِ العلم» أنّه كان يدخل عليهم في الدْرسِ فيقول لهم: «تهنّئكم عبادةُ القُلوبِ والألْسُنْ والأيدي والأعيُن» يعني العلم. وهذا كلامُ مَنْ أُيِّد بالتوفيق، وأُمِدَّ بالتّحقيق. وحَضَرَ معنا زيارةَ قَبْرِه جَماعةٌ مِنَ الصَّالحين؛ ورأينا منْ حُضورِ القلوبِ عندَه ما قَوّى الرَّجاءَ في نَيْل بَرَكَتِه.

١- حاحة: هي إقليم يحدّه من الغرب والشمال المحيط الأطلسي، ومن الجنوب جبال الأطلس، ومن الشرق نهر أسيف نوال، ويشتمل على مدن كثيرة انظر وصف إفريقيا ٩٥/١.

٢- في ت: بلد.

٣- في ت : فمررنا.

٤- بلاد السوس الأقصى: بلاد واسعة، ومدن كثيرة بالمغرب الأقصى، تقع وراء الأطلس إلى جهة الجنوب، انظر وصف إفريقيا: ١١٣/١.

٥- عمر بن هارون الماديدي، عابد من أهل أنسا، اعتزل الناس في الجبل ولم يتزوّج، مات في أعوام التسعين وخمس مئة، انظر التشوّف ٣٤٣.

٦- هو يوسف بن يحيى بن عبيس بن عبد الرحمن التادلي عُرف بابن الزيات، وكتابه (التشوّف إلى رجال التصوّف) كتابٌ في تراجم المتصوّفة نشره أدولف فور بالرباط ١٩٥٨، وطبع طبعة ثانية بالرّباط بتحقيق الباحث أحمد التوفيق.

٧- ليست في ت و ط.

وفي أوَّل سفَرِنا دَخَلْنَا مَسجِداً لصلاةِ الظُّهر، فوجدْنا به ألواحَ صبيانِ المكتب، فنظرنا فيها تَبَرُّكاً بها، فوجدْنا في أوّل لوحٍ منها **﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾**(١) وفي الثّاني **﴿ومَنْ يَتَّقِ اللّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرَاً﴾**(٢) وفي الثّالث **﴿فَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾**(٣) وفي الرّابع **﴿وَقَالُوا الحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾**(٤) وفي الخامس **﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾**(٥) وفي السّادس **﴿قُلْ: لَنْ يُصِيبَنَا إلاَّ مَاكَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا﴾**(٦)؛ فسررنا باتّفاقها على الإشارات إلى البِشارات، وحَمَدْنا اللّه على ذلك.

وبعد ليلتين - أو ثلاث - رأيتُ في المنامِ الفقيهَ القاضي الإمامَ أبا الوَليد البَاجيّ (٧) - رحمه اللّه - فَخطرَ لي أن أقرأَ عليهِ شيئاً من كلامه،

١- سورة الطلاق: ٣.

٢- سورة الطلاق: ٤. وفي ت و ط : **﴿يجعل له مخرجاً﴾** ، وهذا الذي في بقية النسخ من الآية ٢ من سورة الطلاق.

٣- سورة البقرة: ٦٤.

٤- سورة الأعراف: ٤٣.

٥- سورة الإنسان: ٧.

٦- سورة التوبة: ٥١.

٧- هو سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب التجيبي القرطبي: فقيه مالكي، قاضٍ، من حفّاظ الحديث، توفي بألمريّة سنة ٤٧٤هـ له تصانيف منها: المنتقى في شرح موطّأ مالك، وشرح المدوّنة. ترجمته في الصلة ١/٢٠٠، قضاة الأندلس: ٩٥، نفح الطيب ٢/٧٤، وبغية الملتمس ٣٠٢، وترتيب المدارك: ٤/٨٠٢.

فما حَضَرَني[1] إلاّ قولُه:[2] [المتقارب]

إِذَا كُنْـتُ أَعْلَـمُ عِلْماً يَقينـاً ... بِأَنَّ جَمِـيعَ حَياتي كَسَاعَهْ[3]

فَلِـمْ لاَ أَكُـونُ ضَـنيناً بِهَـا ... وَأَجْعَلُهَا فِـي صَلاحٍ وَطَاعَهْ؟

فقرأتُها عليه.

[ذكر أنسا]

وأمّا بلد أُنْسَا - جَبَرَهُ اللّه - فهو بَلَدٌ مُنْفَسِحٌ مُنْشَرِح، في بسيطٍ مليحٍ طيّبِ التُّرْبَة، يُغِلّ كثيراً، وبه ماءٌ جارٍ كثيرٌ، ونخلٌ وبساتينُ، وهو آخر بلادِ السّوسِ من أَعْلاه، متّصلٌ بالجبل مشرفٌ على أرض[4] السّوسِ. وكان فيما مضى مدينةٌ كبيرة، فتوالت عليها الخطوب المُجتاحة، ونزول الأقدارُ المُتاحة، حتّى صارتْ رؤيتُها قذى في المُقْلَتين، وعادتْ بعادةِ[5] [٥/أ] الزّمانِ أثراً بعدَ عَين، فليسَ بها إلاّ رسومٌ حائلة[6]، وطلولٌ ماثلة، خَلَتْ من كلّ قارئٍ ومَقروءٍ عليه[7]، وقاصدٍ ومقصودٍ إليه، بَيْدَ أنَّ بها صُبابةً[8] من أهلِ الدِّين،

١- في ت: بدا لي.

٢- البيتان في: الذّخيرة: ٢/٩٨، وفي الصلة ١/٢٠١، والخريدة - قسم المغرب - ٣/٤٧٣ وبغية الملتمس ٣٠٣، وألف باء - للبلوي - ١/١٥٧، والتشوّف ٣٤٦، ووفيات الأعيان: ٢/٤٠٨، وقلائد العقيان ٢١٦، والمغرب ١/٤٠٤، وترتيب المدارك ٤/٨٠٧، وقضاة الأندلس: ٩٥، والديباج المذهب: ١٢٠، والروْض المعطار: ٧٥، ونفح الطيب ٢/٧٤.

٣- في القلائد والنفح: علم اليقين.

٤- ليست في ط.

٥- في ط: بعاديات.

٦- أحالت الدّار وأحولت وحالت: أتى عليها أحوال

٧- في ط: قارٍ ومقروٍ

٨- الصُّبابة: الجماعة.

وفِرْقةٌ بأخلاق أهل الخير تَدين، على مايتناولُهم من أيدي المُعْتَدين، ويتداولهم من الولاة[1] المُفسدين، كَشَفَ اللّه عنهم تِلْكَ البَلوى، وحَسَم[2] الدَّاءَ الّذي أذبلَ نضارتَهُمْوأنوى.

ثمّ سافرنا منها على بلاد القِبْلة، وهي بلادٌ ماتَ فيها العِلْمُ وَذِكرُه، حتَّى صارت العادَةُ في أكثرِها أنَّهمْ لايتّخذونَ لأولادهم مؤدّباً، ولا تسمعُ في مساجدهِمُ تلاوةً، وإذا طَرَأَ عليهم مَنْ يحفظُ مِنَ[3] القرآن أجروه على الإمامَة[4] ، ويواظِبونَ على الصَّلاة في الجماعَة ، إذْ لا يحفظ مِنْهُمْ أحدٌ[5] ما يصلّي به إلاّ النَّادر، ولكنَّهم في الغاية من حُسْنِ الظَّنِّ بأَهلِ الدِّين وقوّةِ الرَّجاءِ فيهم، وهمْ أهلُ ذِمامٍ[6] واحترامٍ وحِمايةٍ للجارِ وإيواءٍ للغريبِ على ضِدِّ ما علَيه أكثرُ أهلِ الغربِ.

وفي أكثرِ بلادِهمْ حُصونٌ مَجموعةٌ، وأنهار جاريةٌ، وقلّما تَخلو من الحروبِ والفِتَنِ، وربُّما تحاربَ أهلُ الموضِعِ الواحِدِ، فيتقاتلونَ عامّةَ النَّهارِ، فإذا آواهم اللَّيلُ أَوَوا إلى بيوتِهِمْ، لا يهيجُ[7] أحدٌ منهم صاحِبَهُ، وربّما تقاتلوا على السُّقوفِ، وإذا فَرَغوا نَزلوا عنها إلى بيوتِهِمْ، وقد رأيتُ عِندَهُمْ في هذا أُعجوبةً، وهي أنّ أهلَ حُصْنٍ منهم تحاربوا، فأجمعوا رَأْيَهمْ على ألاّيتقاتلوا

١- في ت: ولايات.

٢- حسم: أزال.

٣- ليست في ت و: ط.

٤- في ت: للإمامة.

٥- في ت و: ط: أحدهم.

٦- الذّمام: العهد والأمان والكفالة.

٧- لا يهيج: لا يثير.

في الحُصْنِ احتياطاً عليه من الفَسادِ ـ زعموا ـ وجَعلوا المُعتَرَك خارجَ الحُصنِ إلى مَسافةٍ منه، ونَصبَوا لذلك حُدوداً وأَعْلاَماً؛ فَهُمْ يتقاتلونَ من وَرائِها، فإذا آوَتْهمْ حدودُ الحِصْنِ لمْ يَرْمِ أحدٌ منهم حجراً، و[لو][1] اجتمَعَ بقاتلِ حَميمه[2] لا يعرضُ لَهُ، فإذا خَرَجوا من حَرَمِ الحُصْنِ اشتعلت نارُ الحَرْب بينَهُمْ. هذا دأبهم لا يَغْدرون ولا يَنْقضون، وخافوا فسادَ حِصْنِهم ولم يخافوا فسادَ كَوْنِهم! واستباحوا ما حرّم الله منْ قَتْلِ النَّفس، وامتنعوا من [٥/ب] خَرْم ما شرّعوه بينهم من قانونِ السُّخْف! و «كُلٌّ مُستعمَلٌ ومُيسَّرٌ لِما خُلِقَ لَهُ»[3]. لا جَرَمَ أنّ فيهم آحاداً لابأسَ بهمْ، وخُصوصاً مَنْ جالَ منهم ورأى النَّاسَ. وعامّتهم جاهليّةُ الطِّباعِ، ولكنّ مكارمَ الأخلاقِ عامّةٌ لأكثرهمْ. وقد سمعتُ سيّدي الفقيهَ الجليلَ الفاضلَ أبَا بكر بنَ عبدِ العزيز -رحمه الله- يحكي عن والده الشَّيخ الصّالحِ القُدوةِ أبي محمّد ـ وكانَ دخلَ بلادَ القبلة ـ أنّه كان يقول: «الغَـربُ دُنْيا بلا رِجال، والقِبْلةُ رجالٌ بلا دُنيا» أو كلاماً هـذا معناه؛ وإنّما يعني مكارمَ أخلاقِهم مَعَ أنّ عيشَهم غير مُتَّسعٍ كاتّساعِهِ في الغرْب.

ومازلنا في كَنَفِ لُطْفِ الله تعالى وتحتَ ذَيْلِ عنايته[4] لايَهيجنا أحدٌ إلاردَّهُ الله عنّا خاسِئاً [5] حتّى انفصلْنا عنها في أزيَدَ من ثلاثينَ مرحلةٍ.

١- زيادة من سائر النسخ.

٢- الحميم: القريب.

٣- أخرجه البخاري في كتاب القدر، باب وكان أمر الله قدراً مقدورا، رقم ٦٦٠٥-١١/٤٩٤، ومسلم في القدر باب كيفية الخلق رقم ٢٦٤٩- والترمذي في القدر باب ماجاء في الشقاء والسعادة باب ما جاء في الشقاء والسعادة رقم ٢١٣٧ وفيها بلفظ:«كلٌّ ميسَّرٌ لما خُلِقَ له».

٤- في ت: غايته.

٥- الخاسئ: المطرود، ويكون الخاسئ بمعنى الصاغرِ القميءِ المُبْعَدِ.

[اجتياز المفازة التي على طريق تلمسان]

ولمّا انتهينا إلى المفازة الّتي في طريقِ تِلِمْسان وَجَدْنا طريقَها مُنقطعاً مَخوُفاً،لا تَسلكهُ الجموعُ الوافرة إلاّ على حالِ حَذَرٍ واستعداد. وتلك المفازَةَ[١] -مع قَرْبِها- من أضرّ بقاعِ الأرضِ على المَسافرِ[٢]؛ لأنّ المجاورينَ لها من أوضَعِ خَلْقِ الله، وأشدِّهم أذايةً، لا يَسلَمُ منهمْ صالحٌ ولا طالح، ولا يمكن أن يَجوزَ عليهم إلاّ مُسْتعدٍ يتفادَون من شرّه[٣]، وطلائِعُهمْ أبداً على مَرْقَب لايخلو منها البتّةَ؛ أطلعَ الله عليهم من الآفات مايُسْحِتُهم[٤] جميعاً أصْلاً وفرْعاً، ويَقْطَعُ دابرَهُمْ إفراداً وتَثْنيةً وجَمْعاً، حتّى يكونوا آية للمُعتبرين، وعِبْرَةً للنّاظرين، بعزّةِ الله وقدرتِه، وحَوْلِه وقوّته.

وكنتُ حينئذٍ لاتُمكنني الإقامةُ حتّى أجدَ صُحبةً لغرضٍ كان لي، فأزمعتُ أنْ أتركَ بعضَ الأصحابِ بما كانَ معنا من النَفَقَةِ مُنتظراً للصُّحبَة، وأنصرفُ أنا مُخاطراً بما تَدعو الحاجةُ إلى استصحابِه. فبينما أنا أُوصي مَنْ أردتُ إقامتهُ متنغِّصاً بهذا الحالِ وأُعرِّفُهُ بما يَصنَعُ، إذ وقف علينا جَمَاعَةُ رجالٍ مُتسلِّحين عارفين بالطّرُقِ[٥]، عازمين على اعتسافِ[٦] المَجْهَلِ[٧]، فاَستَرَبْتُ بهم، ثمَّ قَوِيَ في نَفْسي أنّ ذلكَ لُطفٌ من الله تَعالى وغوثٌ أتاحه

١- المفازة: البرّية القفر المهلكة، وسميت بذلك تفاؤلاً؛ من الفوز والنجاة.
٢- في ط: المسافرين.
٣- في ت: شرّهم.
٤- يسحتهم: يستأصلهم.
٥- «عارفين بالطّرق» سقط من ت.
٦- الاعتساف: ركوب الأمر بلا تدبير ولا رويّة.
٧- المجهل: الأرض لا يهتدى بها.

لنا [٦/أ] فسِرْنا مَعَهُمْ، فلمّا وصلْنا إلى مَوْضِعِ تَحقُّقِ (١) الخَوفِ - وهُمْ لايعرفونَ سوى الجادّةِ المَخوفةِ - خَطَرَ لنا أنْ نُخاطِرَ في ركوبِ مَتْنِ الفَلاةِ بلا دَليل؛ وذلك حين غُروبِ الشَّمسِ، ولمّا حَصْحَصَ(٢) الياس، وتحقّق في الرّأي الالتباس، وَصَلَ مِنَ اللُّطيفِ معهودُ الألطاف، وعاد من عَطْفِه علينا انعطاف، فوقَفَ علينا خَمْسَةُ أشخاصٍ أثّر فيهم الدُّؤوبُ، وعلا على ألوانِهم الشُّحوبُ، عانقوا البراري والقِفار، حتّى أخْلَصَتْهُمْ خلوصَ العَسْجَد بالنّار، وتخوّفَهم الخَوْفُ المُطيرُ للوَسَن: [البسيط]

. . . . كما تَخَوَّفَ عودَ النَّبعةِ السَّفَنُ (٣)

فَسَأَلونا(٤) عن الوُجْهَةِ فأخبرناهُمْ، واستدعونا للمُرافَقَةِ فأجَبْناهُمْ. وسَرَوْا(٥) بنا في مَجَاهِلَ يَضِلُّ بها الدَّليلُ، ويذهَلُ فيها الخَليلُ عن الخَليلُ، وفيهم رجلٌ « أدَلُّ مِنْ سُلَيْك المقَانبِ »(٦) و«أمضى من المُرْهفِ القاضب »(٧)

١- في ط: تحقيق.

٢- الحصحصة: الحركة في شيء حتى يستقرّ فيه ويستمكن منه ويثبت.

٣- هو عجز بيت، وصدره: «تَخَوَّفَ السَّيْرُ منها تامكاً قَرِداً» وهو في ديوان ابن مقبل ٤٠٥، وفي السمط: ٧٣٨/٢ نسبه لقعنب بن أمّ صاحب، وغير منسوب في الأمالي: ١١٢/٢، والمخصّص ٢٧٧/١٣، وأمالي الزجاجي ٣٧، وفي الصّحاح، واللسان (خوف - سفن) لابن مقبل. وفي الأساس (خوف) لزهير، وفي التاج (خوف) لذي الرّمّة.
والسَّفَنُ: المِبْرَد، والتامك: السنام المرتفع، والقَرِد: الكثير الوبر.

٤- في ط: فسألوا.

٥- في ط: وصاروا.

٦- لم أجده بهذا اللفظ في كتب الأمثال، والسُّلَيك: هو ابن السلكة، الشاعر الصعلوك، وهو الذي يُضرب به المثل فيقال: أعدى من السليك، وأمضى من سليك المقانب. وانظر: الميداني ٤٧/٢ و٣٢٣/٢ والدرّة ٣٠٥/١ وجمهرة الأمثال ٦٨/٢ والمستقصى ٢٣٨/١، وثمار القلوب ١٠٥، وفي ديوان مجنون ليلى: ٧٦:
لخطّاب ليلى يا لبرثن منكم أدَلُّ وأمضى من سليك المقانب

٧- لم أجده بهذا اللفظ في كتب الأمثال، ويقال: أمضى من السيف، انظر الميداني ٣٢٦/٢.

يُطْبِقُ مَفاصِلَ القفار، وينْصلتُ[١] من المجاهل انصلاتَ المُجَلّي[٢] من النَّقعِ المُثار، كالسَّهمِ مُسَدَّداً إلى غَرَض[٣] الفَلاة، والجارحِ مُنْقَضاً على المَوْمَاة، لايستدلُّ بنجمٍ ينظرُ فيه، ولايَعرفُ نَعْشاً ولابَنيه[٤]، ولا يتّقي أنْ يَسْهو مَعَ مَنْ سَها، فيذكّره سهيلٌ[٥] أوالسُّها[٦]. يتبلَّد[٧] النَّجْمُ فيقفُ وقفةَ الحَيران، ورُبَّما عَنَّ لهُ المَسيرُ فَناءَ كالنَّشْوانِ، وهو يَشُقُّ أديمَ اليهماء[٨]، كما شقّ البدر حِنْدِسَ[٩] الظَّلماء، تحسدُه النّجوم فتلاحظه بطرف كَلِيل، وتُقاربهُ الرّيح فتَتَنَفَّسُ بنَفَسٍ عليل؛ حتّى قطع بنا تلك المفاوزْ، واكتسينا - بحمد الله - بُرودَ الأمنِ بعد تلكَ المعاوز[١٠]، والحمد لله الذّي كلَّتِ الألْسُنُ عَنْ مدى حمده، حمداً يستنفِدُ مدادَهُ[١١] البَحْرُ في مدّه.

[ذكر تلمسان]

ثمّ وصلنا إلى مدينة تلْمسَان، فوجدناها بلداً حلّت به زمانة[١٢] الزّمان، وأخلّت به حوادثُ الحَدَثان[١٣]، فلم تُبْقِ به علالة[١٤]، ولاتُبصر في أرجائه

١- ينصلت: يُسرع في الجري.
٢- المجلّي: الفرس السابق.
٣- الغَرَض: الهدف الذي يُنصَب فيرمى به.
٤- بنات نعش: سبعة كواكب، أربعة منها نعش؛ لأنّها مربَعةٌ وثلاثة بنات نعش.
٥- سهيل: كوكب يمانٍ.
٦- السُّها: كُويكب صغيرٍ خفيّ الضوء في بناتِ نعشٍ الكبرى.
٧- في بقية النسخ: يتبدّل.
٨- في ت وط: البهماء، واليهماء: الفلاة ....
٩- الحِنْدِسُ: الظلمة، وفي الصّحاح: اللّيل الشديد الظلمة.
١٠- المَعوَز: الضيق والشدّة والعسر.
١١- في ط: مداه.
١٢- الزمانَة: الآفة، والعاهة.
١٣- حدثان الدهر: حوادثه ونُوَبُهُ.
١٤- العُلالة من الشيء: بقيّته.

للظّمآن بِلالة[1]. وقد شاهدتُ جمعاً من الحجّاج ينيفونَ على الألفِ وردوها، ووقفوا إلى ملكها[2] فأعطاهم ديناراً واحداً! وأغربُ من هذا ماشاهدتُهُ [٦/ب] من منصور صاحب مَلِيكش[3]، وهو أنّ جماعة من الحجّاج نحو العشرين، وقفوا إليه في محلّته عند بيته، فكلّموه في عشائهم فرحَّب بهم واحتفل في السّلام عليهم، ثمّ أخذ ينادي: ياأهل الدّوّار[4]، هؤلاء ضيفانُ الله، مَنْ يحمل منهم إلى بيتِهِ واحداً؟! وجعل يكرّر ذلك كما يصنع المَدَرونَ [أهل المدر][5]، فلمّا لم يُجِبْهُ أحدٌ ولّى عنهم، ووراءَهُ جَمْعٌ كثيفٌ من الفُرسان، وهو سلطان تلك النّواحي.

وَتِلِمْسَانُ مدينة كبيرة، سهليّة جبليَة، جميلة المنظر، مقسومة باثنتين بينهما سور، ولها جامعٌ عجيبٌ[6] مليح مُتَّسع، وبها أسواقٌ قائمة، وأهلها ذوو لِيانةٍ ولابأسَ بأخلاقهم. وبظاهرِها في سَنَدِ الجبل موضع يُعْرَف بالعُبَّاد[7]، وهو مدفن الصّالحين وأهل الخير، وبه مزاراتٌ كثيرةٌ، ومن أعظمِها وأشهرِها

١- البلالة: الماء.

٢- كان أبوسعيد عثمان بن يغمراس بن زيان ملك تلمسان بين سنتي (٦٨١-٧٠٣هـ). انظر تاريخ الجزائر العام: ٢/٧٣.

٣- مليكش: قبيل من صنهاجة كانت له إيالة ببسيط متيجة قضى عليها بنو مرين لما استولوا على المغرب الأوسط (الذيل والتكملة ٨/٢٧١ حاشية رقم ٣٥٠).

٤- الدوّار لفظة تطلق في المغرب عند الرّحل، حيث يضربون خيامهم على صورة مستديرة، ثمّ عُمِّمت اللفظة فصارت تطلق على القرية. (حاشية الفاسي على المطبوع: ١١).

٥- زيادة من ت و: ط وأهل المدر سكّان البيوت المبنية خلاف أهل الوَبَر وهم سكان الخيام.

٦- ليست في ط.

٧- العُبّاد: قرية على نحو ميل جنوبَ تلمسان، فيها قبور الأولياء التّلمسانيين، وكانت قرية كبيرة ذات مساجد ومدارس وخانات، ثمّ تراجعت عمارتها حتّى اضمحلّت. انظر وصف إفريقيا ٢/١٨٠.

قبرُ الشّيخِ الصّالحِ القدوةِ فردِ زمانه أبي مدْيَن(١) - رضي الله عنه، ورَزَقَنا بركَتَهُ - وعليه رِباطٌ مليحٌ مخدومٌ مقصود، والدّائر بالبلد كلُّهُ مغروسٌ بالكَرْمِ وأنواعِ الثّمارِ، وسورُهُ من(٢) أوثقِ الأسوار وأصحِّها، وبه حمّاماتٌ نظيفةٌ، ومن أحسنِها، وأوسعِها، وأنظفِها، حمّامُ العَالية(٣)، وهو مشهور، قلّ أنْ يُرى له نظير. وهذه المدينة بالجملة ذاتُ منظرٍ ومخبر، وأنظارُها متّسعة، ومبانيها مرتفعة، ولكنّها مساكنُ بلا ساكن، ومنازلُ بغير نازل، ومعاهدُ أقفرَتْ من متعاهد؛ تبكي عليها فتنسكبُ الغمامُ الهُمَّع(٤)، وترثي لها فتندبُ الحَمام الوُقَّع. إنْ نَزَلَ بها مستضيفٌ قَرَتْهُ بوساً، أوحلَّ فيها ضيفٌ كَسَتْهُ من رداء الرَّدى لَبوسا.

وأمّا العلْمُ فقدْ دَرَسَ رسمُهُ في أكثرِ البلاد، وغاضَتْ أنهارُه فازدُحِم على الثّماد(٥). فما ظَنُّكَ بها وهيَ رَسْمٌ عَفا طَلَلُهُ، ومَنْهلٌ جَفَّ وَشَلُه(٦)، وقد حَضَرتُ بها مُدرّساً مذكوراً عندهم يُقرأ عليه باب التّوكيد من «الجُمَل»(٧)

١- هو شعيب بن الحسن الأندلسي: من مشاهير الصوفية، وأصله من الأندلس، أقام بفاس، وسكن بجاية، وتوفي بتلمسان سنة ٥٩٤هـ. له «مفاتيح الغيب لإزالة الرِّيب وستر العيب». ترجمته في عنوان الدراية: ٥٥ ونيل الابتهاج: ١٢٧، وتعريف الخَلَف ٢/١٨٠.

٢- ليست في ط.

٣- بقي هذا الحمّام قائماً إلى أن حوّله الفرنسيون أيام احتلالهم للجزائر إلى مخزن عسكري، ويقع بين ثكنة (المشور) وثكنة (كور مالة) الواقعة أمامها انظر الإعلام بِمَنْ حَلّ مراكش ... ٤/٢٨٩.

٤- همع الماء: سال.

٥- الثماد: الحُفَر يكون فيها الماء القليل، وغاضَ الماء: نقص أو ذهب في الأرض.

٦- الوشل: الماء القليل يتحلّب من جبل أو صخرة، يقطر منه قليلاً قليلاً، ولا يتّصل قَطْرُه.

٧- سقط من ط. وكتاب «الجمل» للزجاجي.

فسمعتُه يقول: «كلا للمذكّرين، وكلتا للمذكّرتين» ! وأعربوا قولَ ابن دُرَيد[1] : [الرّجز]

هُمُ الذّين جَرَّعوا مَنْ مَاحلُوا .... [٧/أ]

بأنّ: هُمْ: مبتدأ، والّذين: مبتدأ ثان، وجرّعوا: خبره، والجملة في موضع خبر الأوّل! وهذا قليل من كثير، وصُبَابةٌ[2] من غَدير! .

وأمّا الفِقْهُ عندهم فطويلُ الاغتراب، يؤوب «إذا ماالقارِظُ العَنَزيُّ آب»[3]، وقد تحاكَمَ إلى قاضيها - إذْ كنتُ بها - متبايعانِ في ذَهَبٍ رديء، فحكم بما قِيلَ في ذلك من يمينِ المُبتاعِ على علْمه، فحلَفَ وبُرِّئَ، ثُمَّ أتى البائعُ بعدَ أيامٍ بمَن شَهِدَ له أنّ صاحبَهُ إنّما دفَعَ لهُ سكَّةَ فاس - وكان الّذي تداعيا فيه من سِكّةِ فاس - فأحضر المبتاعَ ووبّخَهُ بأنّه حلَف إثماً وأنّه قد ظهر كذبه، وحكم عليه بإبدال[4] الذّهب. وإلى هذا انتهى بالعلم وأهلِه الحالُ، وحسبُنا الله وعليه الاتّكال!.

١- ابن دريد محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، من أئمة اللغة والأدب، توفي ببغداد سنة ٣٢١ هـ، من مؤلّفاته: الاشتقاق، والمقصور والممدود، والجمهرة. انظر: المرزباني ٤٢٥، بغية الوعاة ١/١٣. وقولُهُ صدْرُ بيتٍ من مقصورته، عجزه: «أفاوِقَ الضيم ممرّات الحُسا» والمماحلة: العداوة، انظر شرح المقصورة للتّبريزي: ٥٩ .

٢- الصُّبابة: مابقي في الإناء من ماء ونحوه.

٣- المثل في الميداني: ١/٧٥، وفصل المقال: ٤٧٣، والمستقصى ١/١٢٧، وأمثال أبي عُبيد ٣٤٤ وجمهرة الأمثال ١/١٢٣، واللسان (قرظ)، ويُضرَب في امتداد الغيبة. قال بشر بن أبي خازم لابنته عند موته:

فرَجّي الخيرَ وانتظري إيابي ... إذا ما القارظُ العَنَزيُّ آبا

٤- في ط: بدال.

ومع ذلك، فلو انتهت خُطّةُ القضاءِ إلى عُلَيَّان أوماني[1]، لم تكن في الشّناعة كانتهائها إلى العُمراني[2] بحضرة مَرَّاكُش[3]، كلاهما الله! ولا كلأ القاضيَ المذكور حيّاً وميّتاً! فإنّهُ منجنيقُ ظُلم تُرمى به قواعدُ الدِّين، ونفْطُ[4] فسادٍ يضرمُ قلوبَ المُهتدين، وقد وفّق الله لِخَضْدِ[5] شوكتِه، وإخمادِ جَمْرَتِه أميرَ المؤمنين[6] - أيّده الله - فأغمَدَ من جوره سيفاً قاطعاً، وعوّض المسلمينَ من ظلامه ضياءً ساطعا. ومن بعض غرائبهِ الّتي شاهدتها أنّ قوماً ادُّعي عليهم القَتْلُ، وأثْبَتَ المُدَّعي دعواهُ بوثيقةٍ عليها إعلامُه بصحتّها، فاحتجّوا بأنّ لهم مدْفَعاً، فطلب المُدَّعي تثقيفَهم[7] كما يجبُ شَرْعاً؛ فقال له

١- عليّان وماني: مجنونان، من عُقلائهم، ترجم لهما ابنُ حبيب النيسابوري في كتابه«عقلاء المجانين» وممّا رواه عن عُلَيّان: أنّ القاضيَ حفص بن غياث مرَّ في طاق السرّاجين، فإذا عليّان جالس، فلمّا جازه سمعه يقول:«مَن أراد سرور الدنيا وحزن الآخرة فليتمنَّ ما هذا فيه» قال القاضي: فوالله لقد تمنّيتُ لو كنتُ متُّ قبلَ أن أَليَ القضاء، وله أخبار لطيفة. أما مان - كذا في عقلاء المجانين - فله شعرٌ جميل منه هذان البيتان:

فتنفّستُ ثمّ قلتُ لطيفي ... وَيْكَ! لو زُرتَ طيفَها إلماما
حَيِّها بالسلام سرّاً وإلاّ ... منعوها لشقوتي أن تناما

زادهما على قول أبي العتاهية المشهور:

حجبوها عن الرياح لأنّي ... قلت ياريحُ بلِّغيها السلاما

(انظر: عقلاء المجانين: ٨١، ١٢٠).

٢ - العُمراني: هو أبو فارس الفقيه قاضي مراكش في دولة يعقوب بن عبد الحقّ المريني، ذكره ابن أبي زرع في: الذخيرة السنية ٨٦. وفي القرطاس ٢٨٩، ٣٧٥، والإعلام للمراكشي: ٨/٤٠٣.

٣- مراكش: مدينة عظيمة بالمغرب شمال أغمات وعلى اثني عشر ميلاً منها. كانت مركزاً للدولة أيامَ الموحّدين بالمغرب. أوّل مَن اختطّها يوسف بن تاشفين من الملثمين في حدود ٤٧٠هـ انظر الروض المعطار: ٥٤٠.

٤- في بقية النسخ: نفض، والنَّفْطُ: سائل أسود مخضّر زيتي القوام يستنبط من بعض أجواف الأرض، قابل للاشتعال.

٥- الخضد: الكسر.

٦- في ط: المسلمين.

٧- التثقيف: الأخذ.

القاضي: هؤلاءِ كبراءُ النّاسِ وأعيانُهم وممّن لايتغَيَّب. وهذه سُنَّةٌ إسرائيليّة أحياها هذا اللّعينُ، لاحيّاهُ اللّه! ولاصفحَ عنه! فما أعظم جُرْأَتَهُ على اللّه عزَّ وجلّ!

أخبرنا الشّريف الفاضلُ المحدّثُ أبو الحسن عليّ بن أحمد بن عبدالمُحْسن الحُسَيْني الغَرَّافي بثغر الإسكندريّة، عن الشّيخ الصّالح المحدّث أبو الحسن عليّ بن أبي بكر القَلانسيّ ويُعرف بابن رَوزَبة، عن الإمام أبي الوَقْت عبدالأوّل بن عيسى بن شُعيب السِّجْزي، عن أبي الحسن عبدالرّحمن ابن محمّد الدّاودي البوشَنْجي، عن أبي [٧/ب] محمّد عبد اللّه بن أحمد بن حَمَويهْ السَّرْخَسيّ، عن أبي عبد اللّه محمّد بن يوسفُ الفِرَبْرِيّ، عن البُخَاريّ قال: حدثّنا عليّ، حدثنا سُفيان، قال: وجدت في كتاب كان كتبه أيّوبُ بن موسى: عن الزُّهْريّ عن عُروة عن عائشة أمّ المؤمنين أنّ امرأةً من بني مَخْزوم سرقَتْ، فقالوا: مَنْ يكلمّ النبيَّ ﷺ فيها؟ فلم يجترىء أحد أن يكلّمه. فكلّمه أسامة بن زيد(١)، فقال: «إنَّ بني إسرائيل كانوا إذا سَرَقَ فيهم الشَّريفُ تَركوهُ، وإذا سَرَقَ فيهم الضَّعيفُ قَطَعوهُ، لوكانت فاطمة لقطعتُ يَدَها»(٢).

١- أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي الهاشمي، صحابيّ نشأ على الإسلام، وأمّره الرّسول ﷺ قبل بلوغ العشرين. توفّي حوالي عام ٥٤ هـ ودُفِنَ بالمدينة. ترجمته في: الإصابة: ٤٦/١، شذرات الذهب ٥٩/١، غربال الزمن ٥٠.

٢- أخرجه البخاري، رقم ٦٧٨٨ في الحدود، باب كراهية الشفاعة في الحدّ ٨٧/١٢ ورقم ٣٧٣٣ في فضائل الصّحابة، أسامة بن زيد ٧٨/٧- ومسلم: رقم ٨ في الحدود، باب: قطع السارق الشريف وغيره- والترمذي رقم ١٤٣٠ في الحدود، باب، كراهية الشفاعة في الحدود- وأبو داود رقم ٤٣٧٣ في الحدود، باب: الحدّ يُشفع فيه- وابن ماجة، في الحدود، باب الشفاعة في الحدود رقم ٢٥٤٧- وابن حنبل ٣٨٦/٣ و٣٩٥- ٤٠٩/٥- ٣٢٩/٦- والنسائي: ٧٤/٨- والدّارمي، ١٧٣/٢. وفي لفظة بعض اختلاف.

[لقاؤه لابن خميس]

وما رأيتُ بمدينةِ تِلِمْسانَ مَنْ ينتمي إلى العلم، ولامَنْ يتعلَّق منه بسبب، سوى صاحبنا أبي عبد الله محمّد بن عمر بن محمّد بن خَميس(1)، وهو فَتِيُّ السنّ مولده عام خمسين، وله عنايةٌ بالعلم مع قلّة الرّاغب فيه والمُعين عليه، وحظٌّ وافرٌ منَ الأدب، وطبعٌ فاضلٌ في قرض الشِّعْر. وكنتُ أَلْفَيْتُ الشَّيخ الفقيه أباإسحاق إبراهيم بن يَخْلُف التَّنَسيّ(2)، وأخاه أبا الحسن مسافِرَين إلى المشرق وهما من سكّان تِلِمْسان، وليسا منها، فقيهان مشارِكان في العلم مع مروءَة تامّة ودين متين، وأبو إسحاق أسنُّهما وأسناهُما، وهو ذو صلاحٍ وخَيْر. وكان شيخُنا زينُ الدين أبو الحَسن بن المُنَيِّر - حفظه الله - يُثني عليه كثيراً، وسألني عن الغرب، فذكرتُ له قلَّةَ رغبةِ أهلِه في العلم، فقال لي: « أما بلادٌ يكون فيها مثل أبي إسحاق التَّنَسيّ فما خلت من العلم ». وقد أدركتهما بمصر، وكان أبو الحسن لم يحجّ فحجَّ معنا، فلقيت منه خَيِّراً فاضلاً. وقد لازم شيخُنا أبا الفَتْح بمصر مدّةً وأخذ

١- توفي ابن خميس قتيلاً في غرناطة سنة ٧٠٨هـ، وله ديوان شعر سمي «المنتخب النفيس في شعر ابن خميس». ترجمته في الإحاطة: ٥٢٨/٢-٥٦٢، وأزهار الرياض ٣٠١/٢-٣٤٠، والدرر الكامنة ١١٣/٤، وتعريف الخلف:٣٧٥/٢-٣٨٠.

٢- إبراهيم بن يخلف التنسي: فقيه، عالم، إليه انتهت الرئاسة بالمغرب، أخذ عن الناصر المشدالي والإمام القرافي وغيرهما من علماء المشرق والمغرب، له شرح على التلقين للقاضي عبد الوهاب، ذكر صاحب معجم أعلام الجزائر أنّ وفاتَهُ كانت سنة (٦٧٠هـ) ولا يصحّ هذا لأنّ صاحب الرّحلة قابلة في الطريق إلى الحجّ سنة ([illegible] هـ) فوفاته بعد هذا التاريخ

وأخوه أبو الحسين من العلماء الفضلاء لم أقف على وفاته. ترجمته في نيل الابتهاج: ٣٥، والبستان: ٦٦-٦٨ وتعريف الخلف: ١٨/٢، ومعجم أعلام الجزائر٨٥.

عنه كثيراً، ولمّا حجّ رَجَع مع أخيه إلى تِلِمْسان، وكنت حين وردتُها قد أقمتُ بها مدَّةً منتظراً للرَّكب، فكنتُ آنَسُ بابن خَميسٍ وأُكثرُ مجالستَهُ ومفاوضتَهُ، وأعجبني ذهنهُ وحالُه؛ فإنّي وجدته [٨/أ] على حالِ انزواءٍ وتقلّلٍ من الدُّنيا، وفي أوّل ما اجتمعت به رأى في يدي كتاباً فسألني عنه، فقلت: هو[١] كتاب «الشَّمائل»[٢] فاستظرفَ فِعلي في إمساكه، وقال لي: أخبرني الفقيه أبو عبدالله بن حَمدونَ، قال لي: أخبرني الفقيهُ أبوزيد بن القاضي بتونس أنَّ أبا أبا محمّد بن حَوط الله[٣] ورد على أبيه فأنزله بداره، وكان يبيت في سريرهِ ومعهُ خريطةٌ لايُفارقُها، وكانت تفوح منها رائحةُ المِسْك، قال: وكنتُ أهاب أن أسألهُ عمّا فيها، فرقدَ ذات يومٍ فسقطتْ عن السَّريرِ ووقعَ منها كتابُ «شمائل النّبيّ» ﷺ.

وقد أنشدني ابن خميسٍ كثيراً من شعره، فمن ذلك قوله من قصيدة[٤]: [الكامل]

ومِنَ العَجيبةِ أن أُقيمَ بِبَلْدَةٍ   يوماً وأسلمَ مِنْ أذى جُهّالِهَا[٥]

١- ليست في ط.

٢- هو كتاب الشمائل النبوية والخصائل المصطفوية للترمذي المتوفى سنة ٢٧٩هـ، وعليه شروح كثيرة.

٣- هو عبد الله بن سليمان بن داود بن حوط الله الأنصاري: محدّث، حافظ، مقرئ، خطيب، شاعر، نحوي. أدّب أولاد المنصور الموحدّي بمراكش، وولي قضاء إشبيلية وقرطبة وغرناطة له كتاب في تسمية شيوخ البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي لم يتمة. توفي سنة: ٦١٢هـ. ترجمته في برنامج شيوخ الرّعيني ٥٥-٥٦، وشذرات الذهب ٥/٥٠، وشجرة النور ١/١٧٣.

٤- الأبيات في الإحاطة ٢/٥٥٦، وأزهار الرياض ٢/٣٢١.

٥- في الإحاطة والأزهار: ومن العجائب.

شُغِلوا بدنياهُمْ، أمَا شَغَلْتهمُ ... عنّي، فكَم ضيَّعتُ مِن أشغالِهَا
حُجِبوا بجهلهِمُ، فإنْ لاحَتْ لهمْ ... شَمسُ الهُدَى عَشْوا بضَوءِ ذُبالِهَا[1]
وإن انتَسبتُ فإنّني مِنْ دوحةٍ ... تتقيّلُ الأنسابُ بَرْدَ ظِلالِهَا
مِن حِمْيَرٍ مِن ذي رُعينٍ من ذوي ... حَجْرٍ مِنَ العُظَماء مِن أقيالِهَا[2]
وإذا رجعتُ لطينتي معنىً فما ... سلسالُهم بأرقَّ مِنْ صَلصالِهَا[3]

ومن ذلك قوله:[4] [الطويل]

أَنَبْتُ، ولكنْ بعدَ طولِ عتابِ ... وطولِ لَجاجٍ ضاعَ فيهِ شَبابي[5]
ومازلتُ - والعليا تُعنّي غريمَها - ... أُعَلِّلُ نفسي دائماً بِمَتَابِ[6]
وهيهاتَ مِنْ بَعْدِ الشّبابِ وشَرْخِهِ ... يلذُّ طعامي أو يسوغُ شَرابِي
خُدِعْتُ بهذا العَيشِ قبلَ بلائِهِ ... كما يُخْدَعُ الصّادي بلَمْعِ سَرَابِ
5 - تقولُ: هُوَ الشّهْدُ المَشُورُ جَهالَةً ... ولكنّهُ السمُّ المَشوبُ بِصابِ[7]
وما صَحِبَ الدُّنيا كبَكْرٍ وتَغْلبٍ ... ولاككُلَيْبٍ رِيءَ فحلَ ضِرَابِ[8]
إذا كَعَّتِ الأبطالُ عنها تقدَّموا ... أعاريبَ غُرّاً في مُتونِ عِرابِ[9]

١- البيت ساقط من ت، وفي الإحاطة: عَشُوا بضوء.
٢- في ط: ذرى حجر وذورعين: ملك من ملوك حمير والأقيال: جمع قَيْل، وهو الملك من ملوك حمير.
٣- في الأزهار: فما سلساله.
٤- القصيدة في: أزهار الرياض ٢/٣١٧-٣١٩، ونفح الطيب ٥/٣٦٦، وتعريف الخلف: ٣٨١.
٥- في نفح الطيب والأزهار: وفرط لجاج.
٦- في النفح والأزهار: والعلياءُ تُعني غريمها.
٧- في النفح والأزهار: وما هو إلا السمّ شيب بصاب. والصاب: عُصارة شجر مُرّ.
٨- يُشير إلى ماكان من أمر بكر وتغلب ابنَي وائل قبل حرب البسوس وبعدها.
٩- كعّت: جبنت. والخيل العِراب: الأصيلة.

[٨/ب] وإنْ نابَ خَطبٌ أَوْ تَفَاقَمَ مُعضِلٌ   تَلَقَّاهُ منهُمْ كلُّ أَصْيَدَ نابِ
تراءَت لجسّاسٍ مخيلَةُ فُرْصَةٍ   تَأَتَّتْ لهُ في جيئَةٍ وذهابِ(١)
فجاءَ بها شَوْهاءَ تُنْذِرُ قومَها   بتَشْييدِ أَرْجامٍ وَهَدْمِ قبابِ(٢)
وكانَ رُغاءُ السَّقْبِ في قوم صالحٍ   حديثاً فأنساهُ رُغاءَ سَرابِ(٣)
فما تسمعُ الآذانُ في عَرَصاتِهم   سوى نَوْحِ ثَكْلَى أو نعيبِ غُرابِ
وسَلْ عروةَ الرَّحّال عن صدق بأسِهِ   وعن بيتِه في جَعْفَرِ بنِ كلابِ(٤)
وكانتْ على الأَمْلاكِ منهُ وفادةٌ   إذا آبَ منها آبَ غيرَ مآبِ
يُجيرُ على الحيَّيْنِ: قَيْسٍ وَخِنْدِفٍ   بِفَضْلِ يَسارٍ أوبفضلِ خِطابِ
زعامةُ مَرجُوِّ النَّوالِ مؤَمَّلٍ   وعَزْمةُ مَسْموعِ الدُّعاءِ مُجابِ
فَمرَّ يُزَجّيها حَواسِرَ ظُلَّعاً   بما حَمَّلوها من مُنًى ورِغابِ(٥)
إلى فَدَكٍ والموتُ أقربُ غايَةً   وهذا المُنى يأتي بكلِّ عُجابِ(٦)

١- جسّاس بن مرّة: شجاع، شاعر من أمراء العرب في الجاهلية، وهو قاتل كليب وائل، انظر جمهرة الأنساب: ٣٢٥.

٢- في ت: شهواء. والأرجام: الحجارة فوق القبور.

٣- السَّقْبُ: وَلَدُ الناقة. وسراب: قيل، هي الناقة التي رمى ضرعَها كليب وبها ضُرِبَ المثل فقيل: أشأم من سراب.

٤- عروة الرَّحّال: هو عروة بن عتبة بن جعفر بن كلاب، جاهليّ من جلساء الملوك، سمّي بالرَّحّال لأنّه كان كثير الوفادة عليهم. وبسببه هاجت حرب الفجار الثانية بين حَيَّيْ قيس وخندف؛ وذلك أنّه أجار قافلة كان يبعث بها النعمان في كلّ عام إلى عكاظ، فقتله البرّاض بن قيس الكناني واستاق القافلة، فثارت الحرب بين الحيَّيْنِ، تُوفي حوالي سنة ٣٢ق.هـ انظر سمط اللآلي ٦٠٢/١. والعقد الفريد ٢٥٣/٥.

٥- زجّى الشيءَ وأزجاه: دفعه وساقَه، وحسرت الدّابّة: تعبت وكلّت. وظلعت الدابة في مشيها: عرجت.

٦- في النفح: والموت أغرب. وفَدَك: قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان انظر معجم البلدان: ٢٣٨/٤.

تبرَّضَ صَفْوَ العَيشِ حَتَّى استَشفَّهُ   فَراقَ لَـهُ البرّاضُ قَشْبَ حُبـابِ(١)
فأصبحَ فـي تلـكَ المـواطـنِ نُهْزَةً   لِنَبْـشِ ضبـاعٍ أولِنَهْشِ ذِئَـابِ(٢)
وماسَهْمُهُ عنـدَ النِّضَـالِ بأهـزَعٍ   وماسَـيْفُهُ عنـدَ المِصـاعِ بِنَابِ(٣)
ولكنَّهـا الدُّنيـا تَكُرُّ علـى الفَتَـى   وإنْ كانَ مِنهَـا فِـي أعزِّ نِصـابِ
وعادَتُهــا ألاَّ تَـوَسُّـطَ عِنْـدَهـا   فإمَّـا سَمـاءٌ أوتُخــومُ تُــرَابِ
فلا تَرْجُ مِن دُنيـاكَ وِداًّ وإنْ يكُـنْ   فَمَـا هُـوَ إلاَّ مِثْـلُ ظِلِّ سَحَـابِ
وما الحَزْمُ، كُلُّ الحَزْمِ إلاَّ اجتِنابُها   وأَشْقَى الوَرى مَنْ تَصْطَفي وتُحَابي
أَبَيْتُ لها، مادامَ شخصيَ، أنْ تُرى   تَمرُّ بِبَابِـي أو تَطـورُ جَنـابِي(٤)
فكَـمْ عَطَّلَـتْ مِـن أربُعٍ ومَلاعـبٍ   وكَـمْ فرَّقتْ مِن أُسـرةٍ وصِحابِ
وكَمْ عَفَّـرتْ من حَاسِـرٍ ومُدَجَّجٍ   وكَمْ أثْكلَتْ مِنْ مُعْصِرٍ وكَعابِ(٥)
مَثالـبُ مثـلُ الرَّمْـلِ لاتقَلِ انَّهـا   تُعَدُّ فتُحْصيها ضُـروبُ حِسابِ(٦)
إليكُمْ بَنِي الدُّنيا نَصيحـةَ مُشْفِـقٍ   عَلَيْكمْ، بَصيرٍ بالأُمـورِ نِقـابِ(٧)

١- التبرُّض: التبلُّغ بالقليل من العيش. وقشب حباب: سمّ الحيّة. والإشارة إلى قصة عروة الرّحال الذي قتله البرّاض الكناني وجرّ إلى حرب الفجار.
٢- في أزهار الرياض: في تلك المعاطف. وفي ت: لنهس، بالمهملة، وهي لغة، وفي النفح: لنهب.
٣- في ت: بأهزل. والسهم الأهزع: المضطرب والمهتزّ. وفي النفح: عند الصراع. والمصاع: المجالدة والمضاربة.
٤- تطور: تقترب.
٥- المُعْصِرُ: التي بلغت عصرَ شبابها، وأدركت؛ وقيل: هي التي ولدت.
٦- في ت: فتحويها ضروب حساب.
٧- النقاب: الخبير الذي يضع الأمور مواضعها، أو لديه قوّة حدس.

[٩/أ] طَويلِ مِرَاسِ الدَّهْرِ، جَذْلٍ، مُمَاحِكٍ عَريضِ مُجالِ الهَمِّ، حِلْسِ رِكابِ(١)

تأتَّتْ لَـهُ الأَهْـواءُ أَدْهَـمَ سَابِقـاً وغَصَّتْ به الأيَّامُ أَشْـهَبَ كابِ(٢)

ولا تَحسَبوا أَنّي علَى الدَّهْرِ عَاتِبٌ فأعظَـمُ مابي مِنْهُ أَيْسَـرُ مَابِـي

ومَاأَسَـفي إلاَّ شَـبابٌ خَلعْتُـهُ وشَـيْبٌ أبَى إلا نُصولَ خِضـابِ(٣)

٣٥ - وَعُمْرٌ مَضَى لَمْ أَحْـلُ مِنْهُ بطَائِلٍ سِوَى ماخَلا مِـنْ لَوْعَةٍ وتَصَـابِ(٤)

لَيَالـيَ شَيْطانِـي علـى الغَـيِّ قَـادِرٌ وأَعْذَبُ شَيءٍ مِحْنتـي وعَـذابـي(٥)

عَكَسْنا قَضَايانا علـى حُكْـمِ عادِنَا وما عَكْسُها عندَ النُّهى بِصَوابِ(٦)

عَلَى أحْمَدَ المُخْتَارِ أَزْكَـى تَحيَّتي فَتِلْكَ الَّتـي أعتدُّ يَـومَ حِسَـابي(٧)

قلت: هذه القصيدة مهذّبة الألفاظ والمعاني، وألذُّ من نَغَمات المثالث والمثاني، إلاّ أنَّ مقطعها قلِقُ ناب، لايلين ولو مُضِغَ بضرسٍ وناب، ليس يلتئمُ بما قبلَهُ ولا يمتزِج، ولايزال السّمعُ به يقلَقُ وينزعج، وقد زاولتُهُ أن يلتَحِمَ(٨) فأبى، وحاولته كي يلْتَئِمَ(٩) فنَبا. وقوله:

١- في أزهار الرياض: جزل مماحك، والحلسُ: الحريص الملازم.

٢- في ط والنفح والأزهار: له الأهوال.

٣- في ط والنفح والأزهار: نصاب خضاب.

٤- في الأزهار: ماحلا؛ بالمهملة.

٥- في النفح والأزهار وأعذب ما عندي أليم عذابي.

٦- في ت: قضاياه ..... عند النهي بمعاب.

٧- في النفح والأزهار: على المصطفى .... وورد في طبعة الجزائر بيت أخير وهو:

فتلك عتادي أو ثناءٌ أصوغه كدُرِّ سحابٍ أو كدرِّ سخابِ

والسِّخاب قلادةٌ تُتّخذ من القرنفل وغيره، ليس فيها من اللؤلؤ والجوهر شيء.

٨- في ت: ليلتهم، وفي ط: ليلتهم.

٩- في بقية النسخ: ليلتئم.

....   فإمَّا سَماءٌ أَو تخومُ تُرابِ

الوجه فيه: « وإمّا تخوم تراب » بتكرير إمّا بعدَ حرف العطف، وقلّما يؤتى بها غير مكرَّرةٍ إلاّ نادراً، كقول الشّاعر(١):   [السريع]

إمَّا فَتىً نَالَ العُلَا فاشْتَفَـى   أوبَطَلٌ ذاقَ الرَّدَى فاسْتَراحْ

وأنشدني أيضاً لنفسه قصيدة منها قولُه(٢):   [الوافر]

ويابَـرْقاً أَضَـاءَ عَلـى أوَالٍ   يَمانِيّـاً مَتَـى جِنْـتَ الشَّآمـا
أثغرُ أُمـامَةٍ أنْـتَ ابْتِسـامَـاً   أمِ الدُّرُّ الأَوالـيُّ انْتِظَـامـا(٣)
خَفَقْـتَ ببطْـنِ واديهـا لِـواءً   وَلُحْـتَ على ثَنِيَّتِها حُسـامَـا
أمُشْبِهَ قَلْبِيَ المُضْنَى اَحْتِداماً   عَلا مَاذُدْتَ عَنْ جَفْني المنامَا(٤)
٥ - وَلِمْ أسْهَرْتَنـي وَصَدَدْتَ عنِّـي   خَيالاً كانَ يَأْتِيني لِمَـامَـا(٥)
وأَبلَـغُ مِنْـكَ تَأْرِيقـاً لِجَفْنـي   كَلامٌ أَثْخَنَ الأَحْشَا كِلامَـا(٦)
تَعَرَّضَ لي فأيقَظَـتُ القَوافِـي   و «لَوْ تُرِكَ القَطا ليلاً لَناما»(٧)

١- الشاعر هو الشريف الرّضي، والبيت قصيدة في ديوانه: ١/١٩٩.
٢- القصيدة في الإحاطة: ٢/٥٣٠.
٣- في الإحاطة: الدّرّ الأوامي.
٤- في الإحاطة: عن عيني، وسيبيّن المصنّف الوجة في كتابة كلمة (علام) في الصفحة ٦١ وأثبتُّها كما جاءت في جميع النسخ.
٥- في الإحاطة: وطردتُ عنّي.
٦- في الإحاطة: وأبلغَ منه. وكِلامٌ، واحدها كَلْم: الجرح.
٧- في الإحاطة: يوماً لناما، وهو مثل كما في الميداني ٢/١٧٤، وأمثال أبي عبيد ٢٧١، والفاخر، ١٤٥، وجمهرة الأمثال: ٢/١٩٤، والمستقصى ٢/٢٩٦، وفصل المقال ٢٨٤.

[٩/ب] أُضَامُ وَفي يَدي قَلَمي لماذَا أُضَامُ لِغَيْرِ جُرْمٍ أوعَلامَا[1]
بهِ وبِما أُذَلِّقُ مِنْ لِسَاني أفلُّ الصَّارمَ العَضْبَ الهُذَامَا[2]
١٠ - خَليليَّ إنْ قَدَرْتَ فلا تَكِلْني لِدَهْرٍ عَلَّمَ الشُّحَّ الغَمامَا[3]
وَرَدْتُ فَلَمْ أَرِدْ إلاَّ سَرَاباً وَشِمْتُ فَلَمْ أَشِمْ إلاَّ جَهاما[4]

قلت: أنكرَ غيرُ واحدٍ أن يُقال « الشـآم » بالمدّ في غير النَّسب، وليس إنكاره بشيء، وهو ممدود في شعر حَبيب[5]، وقد ردّوه ولم يَروه حجّة، ونسَوا قولَ النَّابغةَ الذُّبياني[6] : [الوافر]

عَلى إثْرِ الأَدلَّةِ والبَغَايَا وَخَفْقِ النَّاجياتِ مِنَ الشَّآمِ[7]

ويروى « من السّآم » بالمهملة، جمع سآمة، والحجّة في الرّواية الأولى.

وكذلك أنكروا تشديد الياء من « اليمانيّ »؛ لأنّ الألف كالعوض من التَّشديد، كما رأوا المدّ - بزعمهم - في شآم عوضاً من تشديد ياء النَّسب. وإذا جاز مدّه في غير النَّسب جاز تشديد الياء مع المدّ. وقد أنشد المُبَرِّدُ على تشديد ياء اليمانيّ مع زيادة الألف:[8] [الطويل]

١- في الإحاطة: وفي يدي قلبي .... أُضام أبا سعيد ......
٢- في الإحاطة: انهزاما، وسيف هذام: قاطع.
٣- في الإحاطة: أعثمانَ بنَ عامر لا تكلني ......
٤- شامَ السحابَ والبرقَ شيماً: نظر إليه أين يقصد وأين يمطر. والجَهام: السحاب الذي لا ماءَ فيه.
٥- حبيب بن أوس الطائي، أبو تمّام، شاعر، أديب، مشهور، متوفّى سنة ٢٣١هـ.
٦- ديوان النابغة الذبياني: ١٦٣.
٧- في الديوان: الأدلّة والرّوايا، وفي ت، وخفق الناشئات.
٨- البيت في الكامل: ١٢٣٧ وهو منسوب لشاعر من تميم، ومعه أبيات خمسة أُخرى.

فَأَرْعدَ مِنْ قَبلِ اللِّقاءِ ابنُ مَعْمرٍ وَأبْرقَ والبَرْقُ اليَمانيُّ خــوَّانُ

وهذا البيت أيضاً شاهدٌ لمن قال: أبرق وأرعد، بالألف، أي: تهدّد، وأصله من الرَّعد والبرق، وقد أنكره بعضهم[1] بالألف، وقال: « إنَّما هو رَعَدَ وبَرَقَ بغير ألف، وكذلك رعدت السّماء وبرقت » والصَّوابُ: أنَّهما لغتان أشهرهما بغير ألف، وعليها قول الشَّاعر:[2] [الكامل]

فَإِذَا حَلَلْـتُ وَدُونَ بَيْتـي سَـاوَةٌ فَابْرِقْ بأَرْضِكَ مابَدَا لكَ وارْعدِ[3]

وقوله: « علامات ذدت » الوجه فيهِ حذفُ الألف؛ لأنَّ «ما» الاستفهامية إذا دخل عليه حرف جرّ حُذِفَ منها الألف؛ لكثرة الاستعمال وفَرْقاً بينها وبين الخبرية، قال تعالى: ﴿فِيْمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْـرَاهَـا﴾[4] وقال جلّ شـأنه: ﴿فِيْمَا هُمْ فِيْهِ مُخْتَلِفُونَ﴾[5]. ولو حذفت الألف منها لصحّ الوزن، وكانَ الجزء معقولاً[6]، ولكنّه [١٠/أ] زحافٌ قبيح، ولو قالَ: صددت أو طردت، أو تنود، أو نحو ذلك، لَسلِمَ من الوجهين معاً، وتخلَّص من الضّرورتين[7] جميعاً، وبالله التوفيق.

١– أنكره المبرّد في الكامل ١٢٣٧، وشَرْح ديوان المتلمّس١٤٨ نقلاً عن الأصمعيّ، واللسان(برق).
٢– الشاعر هو المتلمس، والبيت في ديوانه:١٤٧.
٣– في الد يوان: غاوة، وكلاهما اسم مكان.
٤– سوة النازعات: الآية: ٧٩.
٥– سورة الزمر: الآية:٣٩
٦– العَقْلُ: هو حذف الخامس المتحرّك في مفاعلتن فتصبح: مفاعلن، ويصيب الوافر. انظر المعيار: ٢٦.
٧–في ط: الصورتين.

وأنشدني أيضاً للفقيه الأديب الكاتب الأبرع، أبي بكر مُحَمَّد بن عبيدالله[1] بن داود بن خَطَّاب المُرْسيّ[2] ممّا أنشده إيّاه لنفسه[3]:

[الكامل]

أبْصَرْتُ أبْوابَ المُلوكِ تَغُصُّ بالرْ ـرَاجينَ إدْرَاكَ الغِنى والجَاهِ[4]

مُتَرَقِّبينَ لَها فَمَهْما فُتِّحَتْ خَرُّوا لأذْقَانٍ لَهُمْ وَجِبَاهِ

فأنِفْتُ مِنْ ذاكَ الزِّحامِ وأشفقَتْ نَفْسي عَلى إنضاءِ جِسْمي الوَاهي

ورأيتُ بابَ اللهِ ليسَ عليهِ مِنْ مُتَزَاحِمٍ فقصَدْتُ بابَ اللهِ

وَتَخِذتُهُ مِنْ دُونِهِمْ لي عُدَّةً وأفَقْتُ مِن غَيِّي وطولِ سَفَاهِي[5]

وأنشدني عنه أيضاً، ونقلته من خطّ ابن خطّاب، قال: وممّا نظمتُهُ والتزمتُ فيه حرفَ الرّاء والتّرصيع[6]: [مجزوء الكامل المرفَّل]

اشكُرْ لِرَبِّك وانتظِرْ في إثرِ عُسْرِ الأمْرِ يُسْرا

وَاصبِرْ لِكَرْبِكَ وادّخِرْ في سِتْرِ ضُرِّ الفَقْرِ أجْرا[7]

فالدَّهْرُ يَعْثُرُ بالوَرَى والصَّبْرُ بالأحْرارِ أحْرَى

والوَفْرُ أظْهَرَ مَعْشَرا والفَقْرُ بالأخيار يُغْرَى[8]

١- في ت: عبد الله.

٢- محمد بن داود بن خطّاب الغافقي الأندلسي: كاتب، أديب، عالم بأصول الفقه، له شعر، ولد بمرسية، ورحل إلى تلمسان، وتوفي فيها سنة ٦٣٦هـ، ترجمته في الذيل والتكملة ٦/٣٣٢-٣٣٣، والبستان ٢٢٧.

٣- الأبيات في نفح الطيب ٥/٢٢٢، وتعريف الخلف: ٢/٢٢٠.

٤- في النفح وتعريف الخلف: إدراك العُلا.

٥- في النفح وتعريف الخلف: وجعلته.... وأنفتُ من غيِّي.

٦- الأبيات في نفح الطيب: ٤/٣٣٩ لأبي بكر بن محرز الزّهري.

٧- في ت : واصبر بربّك، وفي النفح: واصبر لربّك.

٨- في ط، وعلى هامش الأصل: والوفر أكرم. وفي ت: والفقر بالأحرار...

قلت: نِظام هذه الأبيات يدلّ على باعٍ في الأدب مديد، وطبعٍ فاضل ومِقْوَلٍ مجيد، وناظمها - رحمه الله - متمكّن الجلالة، معروف الأصالة، لقي جماعةً من الأفاضل، وأخذ عنهم فاضلاً عن فاضل، وقد وقفتُ على بطاقة بخطّه، قَيَّدَ فيها لصاحبنا أبي عبد الله جملةً ممّن لقيه من العلماء والصُّلحاء، ونَصُّها:

[برنامج شيوخ ابن خطاب المرسي]

« يقول محمّد بن عبيد الله بن داود بن خَطّاب الغَافقي - وفّقه الله - : لقيت من الشُّيوخ ببلدتي مُرْسية[1] - أعادها الله تعالى للإسلام - الفقيهَ الأستاذ النّحويّ أبا بكر محمّد بن محمّد المَعَافريّ الشَّهير بالقُرَشيّ، وقرأت العربيّة عليه؛ [١٠/ب] والفقيهَ الأستاذ النَّحْويّ المسنّ أبا عليّ الحسنَ بن عبد الرّحمن الكنانيّ الشَّهير بالرَّفَّاء[2] وقرأتُ عليه «مقامات الحريريّ» ومن شعر المتنبّي، وأكثرَ «الحماسة»[3]؛ والفقيهَ العالِمَ المسنّ أبا بكر محمّد بن مُحْرِزٍ الزُّهريّ[4]، وقرأت عليه أكثر «التّلقين»[5] للقاضي أبي محمّد

١- مُرْسية: مدينة بالأندلس من أعمال تدمير، اختطّها عبدالرّحمن بن الحكم بن هشام بن عبدالرّحمن ابن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان. انظر: الروض المعطار ٥٣٩.

٢- هو حسن بن عبدالرحمن بن محمد الكناني، أستاذ، نحوي، مقرىء، شاعر مطبوع، أخذ القراءات عن أبي محمد الشمُني، وتوفي سنة ٦٣٣هـ، ترجمته في التكملة١/٥٢، بغية الوعاة١/٥١٠ وفيه وفاته ٦٣٥هـ.

٣- هناك أكثر من حماسة، وأشهرها حماسة أبي تمام المتوفى سنة٢٣١هـ، وهي المرادة عند الإطلاق.

٤- محمد بن أحمد بن عبدالواحد الزهري: فقيه، محدّث، عالم لغوي، أصله من بلنسية، واستوطن بجاية، ومات فيها سنة ٦٥٥هـ. له تقييد على التلقين، ترجمته في عنوان الدراية١٤١، وشجرة النور الزكيّة:١٩٤.

٥- هو كتاب التلقين في الفروع، وهو كتاب في الفقه المالكي، انظر كشف الظنون٤٨١.

عبـد الوهّاب[1]، وسمعت عليه دولاً كثيرة من «الموطّأ»، وقرأتُ عليه بلفظي «كتاب الترّمذي» كلّه، وسمعت عليه «سنن أبي داود » بقراءة صاحبنا الفقيه أبي بكر بن حَبيش[2]، وسمعت عليه «السِّيَر» بقراءَة أبي الحسن الرُّومي المعروف ببلدنا بسَحْنون[3]، وأنشدني جملةً مِن نظمه، من ذلك قوله لابنه الأصغر أبي عامر: [الخفيف]

يابُنَـيَّ ولَيْـسَ مثـلـيَ يـسهــو عنـدَ وَعْـظٍ يرويـه مِثْلُكَ عَنْـهُ

أنْتَ ضَيْـفُ الدُّنـا فاقْلِلْ عُيوباً مِن قِراها واخشَ الرَّدى مِن لَدُنْهُ

ولقيتُ الفقيه الإمامَ العالِمَ أبا المُطَرِّف أحمد بن عبد الله بن عَمِيرة المَخْزومـيّ[4] ولا زمتـه مـدّةَ إقـامـتـه بمُرْسية، وقـرأت عليه «التّنقيحـات »[5] للسُّهْرَوَرْدي[6] و« مختصر المستصفى » للقاضي أبي

١- هو عبدالوهاب بن علي بن نصر الثعلبي البغدادي: فقيه مالكي، قاض، له نظم ومعرفة بالأدب، توفي بمصر سنة٤٢٢هـ. له: التلقين، والإفادة، والتلخيص، ترجمته في تاريخ قضاة الأندلس٤٠، ٢٤، وفوات الوفيات ٢/٤١٩، ووفيات ابن قنفذ: ٢٣٣.

٢-هو محمد بن الحسن بن يوسف بن الحسن بن يونس: أديب نحويّ، راوية، برع في النظم والنثر، ولد سنة ٦١٥هـ، وكان حياً سنة ٦٩٠هـ، انظر ملء العيبة ٢/٨٣، ونفح الطيب ٤/٣١٠.

٣- لم أقف على ترجمته.

٤- هو أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين بن عميرة المخزومي: أديب، شاعر، برع في النظم والنثر، دوّنَ شعرَه وإنشاءه في مجلّدين سُمِّيا:« بغية المستطرّف وغنية المتطرّف من كلام إمام الكتابة ابن عميرة أبي المطرّف» توفي بتونس سنة ٦٥٦هـ، ترجمته في الإحاطة: ١/٦٠، وعنوان الدراية: ٢٥٠.

٥- هو كتاب التنقيحات في أصول الفقه. ذكره البغدادي في إيضاح المكنون ٣٣٠.

٦- يحيى بن حبش بن أميرك: فيلسوف نشأ بمراغة من العراق العجمي، وسافر إلى حلب فنُسِبَ إلى انحلال العقيدة فأفتى العلماء بقتله، فخنق في سجنه بقلعة حلب سنة ٥٨٦هـ، من كتبه: هياكل النور، والتنقيحات، ترجمته في وفيات الأعيان ٦/٢٦٨ - الأعلام: ٨/١٤٠.

الوليد بن رُشْد[1] المسمّى بـ « الضّروري »، وقرأت عليه بعض « التّلقين » وكان له عليه كلامٌ حَسَن وتنبيه على مواضع منه لم أرَ مَنْ تفطّنَ لها سواه؛ ولقيت الفقيه القاضي المسنّ أبا عيسى محمّد بن أبي السَّداد[2]، وقرأت عليه بلفظي «شمائل النَّبيّ» ﷺ، و« كتاب مُسْلِم بن الحجّاج » من أوّله إلى آخره، و«كتاب التِّرمذي»، وسمعت بقراءة غيري عليه كثيراً من الكتب، وكان يروي عن الخطيب أبي القاسم بن حُبَيْش[3]؛ ولقيت الفقيه أبابكر بن جَهور الأزْديّ[4]، وسمعت عليه بقراءة أبي القاسم بن نبيل بعضَ « كتاب مُسلم بن الحجّاج » رحمهم الله أجمعين.

وممن لقيته من الرّجال الصُلَحاء بمُرسية - نفع الله [١١/أ] بهم - الفقيهُ أبو العبّاس الطَّرَسُونيّ،[5] كان رحمه الله - أحد الزّهّاد؛ والفقيه أبو عبدالله السّمار المؤدّب، وكان أحدَ الفُضَلاء الزُّهاد؛ والفقيه الخطيب بجامع

١- محمد بن أحمد بن رشد الأندلسي: فيلسوف من أهل قرطبة، صنّف نحو خمسين كتاباً منها فلسفة ابن رشد، والضروري في المنطق، وتهافت التهافت. تُوفّي بمراكش سنة ٥٩٥هـ بعد أن أحرق المنصور الموحّدي بعض كتبه، ترجمته في: قضاة الأندلس، المعجب ٢٤٢و ٣٠٥، شذرات الذهب٢/ ٣٢٠.

٢- محمد بن محمد بن أبي السّداد المرسيّ: قاض، فقيه من أهل مُرْسية، سمع أبا القاسم بن حبيش وغيره، وأجاز له ابن الجد وابن زرقون وابن بونة وغيرهم، توفي سنة ٦٤٢هـ، ترجمته في التكملة١/٣٥٧.

٣- عبدالرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصاري الأندلسي: مؤرخ، عالم بالقراءات وعلوم العربية، من الحُفّاظ، ولي القضاء بجزيرة«شُقر» ثم بِمُرْسية حيث تُوفي فيها سنة ٥٨٤هـ له المغازي. ترجمته في بغية الوعاة٢/ ٨٥، نيل الابتهاج١٦٢.

٤- محمد بن محمد بن يوسف بن أحمد بن جهور الأزدي: أخذ عن الكثيرين من المحدثين، وكان له حظ من النظم والنثر، توفي سنة ٦٢٩هـ. انظر ترجمته في التكملة ١/ ٣٣٨.

٥- أحمد بن محمد بن أحمد الطرسوني، عالم فقيه محدث روى عنه ابن سعيد وغيره، أخذ عنه كثيرون. توفي بنبوط سنة ٦٢٢هـ. ترجمته في الذيل والتكملة١-١/ ٣٩١.

مُرْسية أبو عبد الله بن فَتْح؛ والفقيه الورع أبو عبد الله النَّجَّار، كان شديد الانقباض عن عِشْرَةِ النّاس، وتُؤثَر عنه في الوَرَع أخبارٌ حِسان، رحم الله جميعهم ورضي عنهم. »

انتهى ماوجدته بخطِّ ابن خَطّاب رحمهُ الله.

قلت : لو قال ابن محرز: «أنْتَ ضيفُ الدُّنْيا» لقامَ الوزنُ وسَلِمَ من غَرابةِ هذا الجمع، فإنَّ جَمْعَ الدُّنيا غريبٌ نادر، وقد عابَهُ صاحب اليتيمة[1] على أبي الطَّيِّب المتنبّي في قوله[2] : [الطويل]

أعَزُّ مكانٍ في الدُّنا سَرْجُ سَابحٍ وخَيْرُ جَليسٍ في الزَّمــانِ كِتَابُ

وأنشدني بيتين للشّيخ الأديب الفاضل أبي الطَّيِّب صالح بن شَريف الرُّنْدي[3] – رحمه الله – وقال: أنشدنيهما عنه أبو العبّاس اللَّبْلي[4] الكاتب، وكان لابن خميس فيهما نُقْدٌ لم أرضَهُ فلم يعلَقْ بخاطري، وذكرَهُ لي عن ابن خَطّاب وأنّه لم يرضهُما، وذلك منهما تعسّف بيِّن، وهما قوله: [الكامل]

نَزَعــاتُ رامٍ وهْـيَ نَزْعَــةُ ريمــةٍ شَقّتْ صَميمَ حَشَايَ قَبْلَ أديمي[5]

١- انظر يتيمة الدّهر للثعالبي، باب استكراه التخلّص: ١/١٤٦.

٢- ديوان المتنبي: ١/١٩٣.

٣- هو صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن علي بن شريف الرّندي: شاعر، قاض، من أهل «رندة» بالأندلس تردّد على غرناطة، توفي سنة ٦٨٤هـ له: الوافي في نظم القوافي، ترجمته في الإحاطة ٣/ ٣٦٠-٣٧٦، والذيل والتكملة ٤/ ١٣٧.

٤- هو أحمد بن يوسف بن علي الفهري اللبلي: نحوي، لغوي، راوية، ولد بـ«لبلة» من أعمال إشبيلية سنة ٦١٣هـ، وتوفي بتونس سنة ٦٩١هـ، له تآليف منها: تحفة المجد الصريح في شرح الكتاب الفصيح ترجمته في الديباج المذهب: ٨٠-٨١، شجرة النور الزكية: ١/١٩٨، معجم المؤلفين ٢/٢١٢.

٥- الأديم: الجلد.

سَلَّتْ ظُبا الألحاظِ مُرْهَفَةً علـــى   قلبٍ أرقَّ مِنَ الهَـوى المكتـومِ[1]

وهذا أعذب[2] مايكون من الشِّعْرِ وأرقُّه، وأحسنه لفظاً ومعنى.

وأنشدني أيضاً لابن الرّوميّ متمثِّلاً:[3]   [الكامل]

لِذوي الجِدالِ إذا غَدَوْا لجِدَالِـهِمْ   حُجَجٌ تَضلُّ عن الهُدَى وتَجــورُ

وَهْنٌ كآنيةِ الزُّجاجِ تَصادَمــتْ   فَهَــوَتْ وكلٌّ كاسِــرٌ مكســورُ

والقاتِــلُ المقتــولُ ثَــمَّ؛ لِضَعْفِهِ   ولِوَهْنِــهِ، والآسِــرُ المأْسُــورُ[4]

وأنشدني أيضاً من حِفظِهِ قصيدةً لم أقِفْ عليها تامّةً، وأنشد منها أبو عليّ[5] في «نوادره»[6] أبياتاً ولم ينسبها، وهي قوله: [١١/ب]

[الكامل]

[١١/ب] يلقى السُّيوفَ بوجهه وبنحرهِ[7]   ....

الأربعة الأبيات.

١- في ط: البيتُ الثاني قبل الأول.

٢- في ط: أغرب.

٣- ديوان ابن الرومي: ١١٣٩/٣.

٤- في الديوان: فالقاتل... ولوهيه...

٥- أبو علي القالي: إسماعيل بن القاسم بن عيذون: من أئمة اللغة والأدب، عاشَ بين(٢٨٨-٣٥٦هـ) من تصانيفه: الأمالي والنوادر، والبارع ترجمته في جذوة المقتبس ١٦٤، بغية الملتمس :٢٣١، شذرات الذهب: ١٨/٣.

٦- هي في الأمالي ٤٣/١ وكان يعرف عند الأندلسيين باسم النوادر.

٧- صدر بيت لابن المولى، وعجزه:« ويقيم هامته مقام المغفر». وسترد القصيدة كاملة في الصفحة التالية.

وكذلك أنشدها أبو عُبَيْدْ البَكْرِيّ[1] في كتاب «التّدريب» غير منسوبة إلاّ لإنشاد العُتْبِيّ، ووصلها بأبيات، ونسبها في كتابه «اللآلي»[2] لابن المَوْلى، وهو محمّد بن عبد الله بن مُسْلِم[3] مولى بني عَمْرو بن عوف. قال: وهو من شعراء الدّولتين[4]، وقد رأيتُ أن أُثْبِتَ القصيدةَ هنا بجملتها لِحُسْنِها وإعوازِها، وهي[5]: [الكامل]

[قصيدة ابن المولى]

أنسيمُ ريقِكِ أُخْتَ آلِ العنبرِ هـذا أَمِ استنشاقةٌ من عنبـرِ[6]
ونظـامُ ثَغْـرِكِ مَـا نَرَى أَمْ لَمْعَةٌ مِنْ بارقٍ أَمْ مَعْدِنٌ مِن جَوْهَرِ[7]

١- هو عبد الله بن عبدالعزيز بن محمد البكري الأندلسي، مؤرخ، جغرافي، ثقة علاّمة بالأدب، توفي بقرطبة سنة ٤٨٧هـ. له كتب جليلة منها: المسالك والممالك، ومعجم ما استعجم، وفصل المقال، وغيرها. ترجمته في: الصلة ٢٨٧، بغية الوعاة ٢/٤٩.

٢- هو كتاب: اللآلي في شرح أمالي القالي، لأبي عبيد البكري. طبع بتحقيق عبدالعزيز الميمني -رحمه الله- وسماه سمط اللآلي.

٣- توفي ابن المولى حوالي سنة ١٧٠هـ. له ترجمة في الأغاني: ٣/٢٨٦، ومعجم الشعراء ٣٤٢.

٤- سمط الآلي: ١/١٨٢.

٥- الأبيات ١-٢-٣-٤-٥-٦-٨-٩-١٠-١١-١٤-١٦-١٧-١٨-١٩-٢١-٢٢-٢٤-٢٥-٢٧-٣٤-٣٥ في أنوار الربيع في أنواع البديع: ٤/٢٧-٢٩. منسوبة لحسان بن ثابت، والأبيات: ١-٤-٥-٦-٨-١٨-١٩-٢١-٢٢-٢٤-٢٥ في نهاية الأرب ٣/٢٠٣ لحسان، والأبيات: ١٧-١٨-١٩-٢١-٢٢-٢٤-٢٥- في طراز المجالس للخفاجي/١١٤ دون عزو، والأبيات ١٨-١٩-٢١-٢٢ في أمالي القالي ١/٤٣، والأبيات: ١٨-١٩-٢٠ في وفيات الأعيان ٦/٣٢٥-٣٢٦، والأبيات: ١٧-١٨-١٩-٢١-٢٢-٢٤-٢٥ في زهر الآداب ٤/٩١٤- ٩١٥ منسوبة لأعرابي، والأبيات: ١٨-١٩-٢١-٢٢ في المستطرف ٢٣٦، والبيت ٢٠ في شذرات الذهب ١/٢٧٥.

٦- في أنوار الربيع: هذا أم استنشاقه من مجمر، ورواية البيت في نهاية الأرب:

أنسيم ريحك أم خيار العنبرِ ياهذه أم ريـح مسـك أذفـر

٧- في أنوار الربيع: أبديد ثغرك ماأرى.

أَوْدَعتنـي، وجمالُ وجْهِـك حُـرقَةٌ   ألهبْـتِ جمرتَهـا بطَـرْفٍ أحـوَرِ[1]
قـولي لِطَرْفِكِ أنْ يَـرُدَّ عَـنِ الحَشَـا   لَذَعاتِ نيرانِ الهوى ثمَّ اهجُـري[2]
وَانْهَـيْ جمالَكِ أنْ يُصيبَ مقاتِلـي   فَتُصيبَ قومَكِ سَطْوةٌ من مَعْشري[3]
إنّي مِـنَ القَـومِ الّذيـنَ جيادُهُـمْ   هَبَّتْ على كِسْرَى بريحٍ صَرْصَـرِ(٤)
فَأَثَرْنَ نَقْعَـاً ما انثَنَـتْ أَثْنـاؤُه   حَتَّـى تَشَـتَّتْ فَـوقَ هامَـةِ قَيْصَـرِ
فَسَلَبْنَ تاجَ المُلْكِ غَصْبـاً بالقَنـا   وأجَزْنَ بابَ الدَّرْبِ آلَ الأصفرِ[5]
آبايَ مِـنْ كَهْـلانَ أربـابُ الـورى   وبنـو الملـوكِ عُمومتي مِنْ حِمْيَرِ[6]
ضربـوا بـلادَ الصِّينِ بالبيضِ الّتـي   ضَرَبوا بها كِسْرى صَبيحَةَ « تُسْتَرِ »[7]

١- في أنوار الربيع: أودعتني ببريق ثغرك - وبعده:

ونشرت فرعك فوق متن واضحٍ   وطويتِ كشحك فوق خصر مضمر

٢- في أنوار الربيع: أن يكفّ عن الحشا سطوات. وفي نهاية الأرب: أن يصدّ عن الحشا سطوات نيران الأسى.

٣- في أنوار الربيع: أن ينال مقاتلي فينال قومك، وفي نهاية الأرب: وانهي رُماتَك أن يصبن... فينال قومك.

٤- في أنوار الربيع: طلعت على كسرى، وفي نهاية الأرب: إنّا من النفر الذين جيادهم طلعت. والرّيح الصرّصَر: الشديدةالبرد أو الصوت.

٥-في أنوار الربيع: قسراً بالقنا وأخذت قهراً دربَ آلِ الأصفَر، وفي نهاية الأرب:

وسلبنَ تاجَيْ ملكِ قيصر بالقنا   واجتزنَ باب الدرب لابن الأصفر

٦- في أنوار الربيع: أرباب العلا، وفي نهاية الأرب ثمّة بيتان يليان هذا البيت وهما:

قدنا من اليمن الجياد فما انثنت   حتى حوت بالصين مهجة بعبرِ
ورمت سمـــرقنـداً بكلّ مثقّـف   لهج بأحشاء الفوارس أسمـرِ

٧- تستر: تعريب:«ششتر» المدينة المعروفة بخورستان، ورواية البيت في أنوار الربيع:

صبحت بلاد الهند بالبيض التي   صبحت بها كسرى صبيحة دستر

والأمـنَ مابينَ الشّــآمِ وفـــارسٍ   بالحــارثِ الجَفنــيِّ وابــنِ المُنْذرِ(١)
أولادُ جَفْنَــةَ مَــعْشَــري وكأنَّهـــم   آســادُ غِيــلٍ فــوقَ خَيْلٍ ضُمَّــرِ(٢)
وَطِئَــتْ ببَــدْرٍ مِن قُرَيْــشٍ خَيْلُنَــا   سَاداتِهـا تَحْـتَ القَنَــا المتَكَسِّــرِ
ونَصَرْنَ في الأحْزَابِ حِـزْبَ محمَّدٍ   وكَسَــونَ مؤتَةَ ثَوْبَ مَـوْتٍ أحْمَرِ(٣)
وَطَوَيْنَ يومَ الفَتحِ شِرْكاً ظاهـراً   ونَشــرْنَ أثــوابَ الهُدى في خيبَرِ(٤)
وَطَلَعْــنَ مِنْ أرجـا حُنَيْنٍ شُــزَّبــاً   يحمِلْنَ كُلَّ ســليـلِ حَرْبٍ مُسْعِرِ(٥)
[١٢/أ] مازِنْ يُـرِيدُ إذا الرِّمــاح تشاجَرتْ   درعاً سِوى سِربالِ طيبِ العنصُرِ(٦)
يَلقَــى السُّيــوفَ بوجهِـهِ وبِنَحْــرِهِ   ويقيــمُ هـامتَــه مقــامَ المِغـــفَرِ(٧)
ويَقـولُ للطِّرْفِ: اِصْطَبِرْ لشَبا القَنَا   فَعَقَرْتُ رُكْنَ المجْـدِ إنْ لَـمْ تُعْقَرِ(٨)
وإذَا الفَــوارِسُ عَـدَّدَتْ أبْـطَـالَـهـا   عَــدُّوهُ فــي أبطـالِهــمْ بالخِنْصِــرِ

١- رواية البيت في أنوار الربيع:

ووطئن أرض الشام ثمّ وفارساً   بالحــارث اليمنـــيّ وابن المنـــذرِ

٢- جفنة بن عمرو بن مزيقياء أمير غساني جاهلي، والغيل: موضع الأسد.

٣- الأحزاب: جنود الكفّار من قريش وغطفان وبني قريظة من يهود. ومؤتة: قرية من قرى البلقاء على حدود الشام، وفيها استشهد الأمراء: جعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة- رضي الله عنهم. وفي أنوار الربيع: وكسون مومة.

٤- خيبر: ناحية على ثماني بُرُد من مكة، غزاها النبي ﷺ سنة سبع أو ثمان للهجرة، وكان يسكنها اليهود.

٥- في أنوار الربيع: من رجوى حنين شزّباً، وفي ت و ط : شرّفاً، وخيل شُزّب: أي ضوامر. وحنين: واد قرب مكة.

٦- تشاجرت: تشابكت.

٧- في أنوار الربيع: يلقى الرماح الشاجرات بنحره، وفي نهاية الأرب: بوجهه وبصدره. والمِغفَر: بيضة الحديد على الرأس.

٨- في أنوار الربيع: فهدمت ركن المجد، والطِّرْفُ من الخيل: الكريم العتيق.

وإذا تـأمَّلَ شـخـص ضَيْـفٍ مقبلٍ   متسـربلٍ أثـواب مَحْـلٍ أغبـرِ[١]

أو ما إلـى الكـوماءِ: هـذا طـارقٌ   نحرتنـيَ الأعـداء إن لـم تُنْحَري[٢]

فإذا أردتَ بـأن ترى أُسْـدَ الشَّرى   فَدَعِ الـرِّماحَ لمذحجٍ والأشعرِ[٣]

كم قـد ولـدنا من رئيـسٍ قَسْـوَرٍ   دامـي الأظافـرِ أو ربيـع مُمْطِـرِ[٤]

سَـدِكَتْ أنامِلُـهُ بقائـمِ مُـرْهَـفٍ   فـي يـومِ ملحمـة وذروةِ مِنْبَـرِ[٥]

إن مَـرَّ يـوم لـم يفـد أُكـرومةً   يعلـو الأنـام ببعضها لـم يُعْذَرِ

نحـن الذّيـن نُـذِلُّ أعـنـاقَ العِـدَا   ونُعِـزُّ بالمعـروف ذُلَّ المُـعْسِـرِ[٦]

ولنـا بِيَعْرُبَ بسـطـةٌ مـن مَفْخَرٍ   لايُنكِـرون حضـورهـا فـي مَحْضَرِ

نـرعـى الجِوارَ ولا نجُورُ على الورى   ويبيـتُ فينـا الـوَفْرُ غَيْرَ مُوَفَّرِ[٧]

١- في الأمالي: أثواب عيش أغبر، وفي أنوار الربيع، محل مقتر، وفي طراز المجالس: متسربل سربال محل أغبر.

٢- في ت و ط: الكرماء، والكوماء: المراد بها الناقة الضّخمة السّنام.

٣- في ت: فدع الذمام، وفي ط: فدع المدام. ومذحج والأشعر: جدّ جاهليّان قديمان من كهلان.

٤- في أنوار الربيع: من نجيب قسور، وفي زهر الآداب، وطراز المجالس: كم قد ولدتم .... في الخميس الممطر، وفي نهاية الأرب: من كريم ماجد. والقسور: الأسد.

٥- في طذ: سركت .... يوم الجفان، وفي طراز المجالس: وينشر فائدة وذروة منبر. وفي أنوار الربيع: سلكت انامله .... وينثرِ فائدةٍ وذروة منبر، وفي زهر الآداب: وبنشر فائدة وجنوة منبر. وسدكت: لزمت. وجاء بعد هذا البيت في أنوار الربيع البيتان التاليان:

كم فوق وجه الأرض من ذي ثروةٍ   لولا فواضل رفدنا لم يُذكرِ

لولا صـوارم يعـرب ورماحهـا   لم تسمع الأذان صوت مكبِّرِ

٦- في أنوار الربيع: أعناق القنيا.... قُلَّ المُعْسِرِ.

٧- في ت : الوفد. والوَفْرُ من المال والمتاع: الكثير الواسع.

قَشَرَت قُشَيْراً خيلُنا عن دارهـا   وتحطَّمـت أرمـاحُنـا فـي جَعْفَرِ[١]

دُسنـا تميمـاً فـي قـرارِ ديارِهـا   يـومَ الجِفـار بِكُلِّ طـرْفٍ مُجْفرِ[٢]

نُقـري السَّديـف ضيوفَنا، ورماحُنا   في الرَّوعِ حاضِرَةُ القِرى للأنْسُرِ[٣]

وإذا المنى وردت علـى أمـوالنـا   آبـت محمّلـة جميـل المصـدر

لورامـتِ الجـوزاءُ أن تعلـو علـى   أعلـى ذوائـب مجدنـا لـم تقدرِ[٤]

قَحطـانُ والـدُنـا وهـودٌ جدُّنـا   بهمـا غَنينـا عَـنْ وِلادَةِ قَيْـدَرِ[٥]

قال أبو عبيد البكري في قوله:

يلقى السيوف بوجهه وبنحره   ....البيت:

« مَذهَبُ أكثر الشعراء المدحُ بلبسِ الدّروع[٦]، وكمال السّلاح » وأنشد على ذلك قول النابغة[٧]:   [الكامل]

١- قشير أبو قبيلة، وهو قشير بن كعب بن ربيعة. وجعفر: أبو قبيلة من عامر.

٢- قرار: واحدها قرارة: المطمئن من الأرض، ويوم الجفار: كان بين بني بكر وتميم، وهو ماء لبني تميم بنجد. والطِرف: الكريم من الخيل، ومُجْفَر: عظيم الوسط.

٣- في ط: السريف. والسديف: لحم السنام.

٤- الجوزاء: نجم يقال إنّه يعترض في جوز السماء.

٥- قحطان: أصل العرب القحطانية، وهود ـ عليه السلام: نبيّ عربيّ أرسله الله إلى قوم عاد الأولى، وقيدر جَدُّ عدنان أبو إسماعيل.

ويلي هذا البيت في أنوار الربيع أبيات أربعة هي:

قحطان قومي ما ذكرت فخارهم   إلاّ علوت علـى سـنام المفـخـر

السّابقون إلـى المكـارم والعـلا   والحائزون غداً حيـاضَ الكوثـر

فإذا أردت أن تـرى مسـعـاتنـا   فَصلِ النواظرَ بالسـماك الأزهـر

ثـمّ الصـلاة علـى النبـيّ وآلِهِ   مـالاح بـرق في غَمـام مُمْطِـر

٦- في ط: الدرع.

٧- ديوانه: ١٠٠.

« سَهِكِينَ مِنْ صَدَاٍ الحديد كأنّهم تحت السَّنَوَّرِ جِنَّةُ البقّـارِ[1]

وقال مُسْلم بن الوليد يمدح بعض آل المُهَلَّبِ:[2] [١٢/ب]

[البسيط]

تراه في الأمن في درعٍ مُضاعَفَةٍ لايأمَنُ الدَّهْرَ أن يُدْعى على عَجَلِ

وأنشد على المذهب الآخر قولَ الأعشى:[3] [الكامل]

كُنْتَ المقـدّمَ غيـرَ لابـسِ جُنَّـةٍ بالسَّيف تضربُ مُعلِماً أبطالَها »[4]

[لقاؤه لابن عصام]

وممَّن لقيتُه بتلمسْانَ أبوزكرياء يحيى بن عصام[5]، وهو رجلٌ متقلِّلٌ حَيِيٌ مُتَعَفِّف، له حظٌ من اللُّغة، ويقرِضُ من الشّعرِ مالابأسَ بِه، جاراً لأبي عبدالله بن خَميس فكنت أجتمعُ به عندَهُ كثيراً، وممّا أنشدني لنفسهِ قولُهُ:[6]

[الطويل]

ألا اَعْلَمْ بـأنَّ المـوتَ كأسٌ مـُدارةٌ على كُلِّ مَنْ قَدْ رَاحَ فيها ومَنْ غَدا[7]

١- في ط: الستور. والسُّهكة: الرّائحة الكريهة، والسنوّر: السلاح. والبقّار: موضع منقطع صعب برملٍ عالج قريب من جبلي طيّئ، كانوا يزعمون أنّ فيه جنّاً.

٢- ديوانه: ١٢.

٣- ديوان الأعشى: ٣٣.

٤- انتهت مقالة أبي عبيد: السمط ١٨٢-١٨٣، بتصرُّفٍ يسير.

٥- في ت : عاصم.

٦- البيتان في درّة الحجال: ٢/ ٣٠.

٧- في ط: مرارة.

وَعَضْبُ رُسومِ شيمَ في شيَعِ الوَرى ومارِيْيءَ يوماً بعدَ ماشيمَ مُغْمَدا[1]

وأنشدني أيضاً لنفسه مناقضاً لبعض المعتزِلة[2] في قوله:[3] [الكامل]

لَجَمَاعَةٌ سَمَّتْ هَوَاهُم سُنَّةً وجَمَاعَةٌ حُمُرٌ لعمري مُوْكَفَهْ:[4]
قد شبَّهوا معبودَهم وتخوَّفوا شُنَعَ الوَرى فتستَّروا بالبَلْكَفَهْ[5]

وقال ابنُ عصام:[6] [الكامل]

قُلْ للّذي سَمّى الهداةَ أُولي النُّهى حُمُراً لأنْ سُلِبَ الهُدى والمعرفه
فغدا يُرجِّحُ الاعتزالَ جهالةً ويروقُهُ زُوْرٌ وَشاهُ وزخرفَهْ
الحقُّ أبلجُ واضحٌ لكنَّهُ يُعشي عيونَ أُولي الضَّلالةِ والسَّفَهْ
اخْسَأْ فقولُكَ طائحٌ كهباءَةٍ طاحَتْ بِها هُوجُ الرِّياحِ المُعْصِفَهْ:[7]
سوَّغتَ ذمَّ جماعةٍ سُنِّيَّةٍ قَدْ أحْرَزوا مِنْ كُلِّ فَضْلٍ أشرفَهْ
قطفوا أزاهِرَ كلِّ عِلمٍ نافِعٍ وأتَوا بكلِّ بديعةٍ مُستظرَفَهْ

١- في ت و ط : شيع في شيع الورى، وفي درّة الحجال: شيح.
٢- هو الزمخشري كما في درّة الحجال: ٢/٣٠.
٣- الأبيات في أزهار الرّياض ٣/٢٩٨، وطبقات الشافعية ٩/٩، ودرّة الحجال: ٢/٣٠ و١٨٤، والإعلام للمراكشي ٥/٢٠٦.
٤- في الأزهار ودرّة الحجال: سمُّوا. وفي ط : هواها. والإكاف والوكاف: برذعة الحمار.
٥- في أزهار الرياض والطبقات والإعلام: قد شبهوه بخلقه. وفي درّة الحجال: قد شبهوه بخلقهم. والبلكفة: مصدر مولّد منحوت من قول المتكلمين (بلا كيف) لقول أهل السنة في رؤية الباري تعالى: تجوز رؤيته بلا كيف؛ أي لا تعلم حال تلك الرؤية، ولا وسيلتَها، فراراً من القول بالتشبيه والتجسيم انظر أزهار الرياض: ٣/٢٩٩ حاشية ١.
٦- الأبيات في درّة الحجال: ٢/٣٠-٣٢.
٧- في درّة الحجال: الرياح المعطفة.

قــومٌ هُــمُ قمعــوا الضَّلالَ وحِزبَهُ ... بمقاولٍ حكَّتِ المواضــي المُرهَفَهْ[1]

هُــمْ شيعــةُ الحَــقِّ الّذي مابَعْـدَهُ ... إلاّ مَهــاوٍ فــي الضَّلالَةِ مُتْـلِفَـهْ[2]

آراؤهــم يجلــو البصائـرَ نــورُهــا ... ويُميـطُ أدواءَ القـلـوبِ المـدنَفَهْ[3]

أقصِــرْ فــإنَّ شِــقاقَهم كُفــرٌ فَـلا ... تَـدَعِ الرَّشـادَ لِعُصْبَـةٍ مُتَعَسِّفَـه

مَنْ شَذَّ عن سُنَنِ الجماعة قد غوى ... جاءَت بذا الكُتبُ الصِّحاحُ معـرَّفَهْ

[١٣/أ]

قلت: قد نظم القاضي أبو حَفْص بن عُمَرَ[4] في هذا أيضاً فقال:[5]

[الكامل]

أجعلتُمُ العلمــاءَ حُمْراً مُوكَفَهْ ... هذا لأنَّكُمُ أُولو تلكَ الصِّفَهْ

أجَهِلْتُـمُ صِـفَــةَ الإلـهِ وَفِعلَـهُ ... ونسـبتُمـوه لغيـرهِ بالزُّخرفَـه

وأرَدْتُــمُ تــنـزيهَــهُ فــوقعتُــمُ ... في الشِّركِ والإلحاد والأمر السَّفَهْ

خـالفتُمُ سُنَنَ النَّبــيِّ وصحبِهِ ... وتبعتُمُ في الزَّيغِ أهْـلَ الفلسَفَهْ

١- في ط: قطعوا الضلال ... بمعاول.

٢- في ت: التي ما بعده.

٣- في ت: وتميط أدواءَ.، والمدنفة: المريضة.

٤- عمر بن عبد الله بن عمر السُّلمي: شاعر، من القضاة، أصله من جزيرة شقورة بالأندلس، وولِدَ بأغمات سنة ٥٣٠هـ، سكن مدينة فاس، وولي قضاء تلمسان ثمّ قضاء فاس بعد أبيه، وولي قضاء إشبيلية وغيرها، وبها تُوفي سنة ٦٠٣هـ. ترجمته في الغصون اليانعة: ٩١، والذيل والتكملة ٨-١/٢٢٢، وصلة الصلة ٧٢، وأزهار الرياض ٢/٣٦١، وزاد المسافر ١٤٣، ونفح الطيب: ١/٢٩١و٣/٢٠٩و٤/٢٤١و٤/١٦٢ ونَسَبَهُ خطأً إلى قرطبة، والعلوم والآداب على عهد الموحّدين ١٧٢.

٥- الأبيات في: أزهار الرياض ٣/٣٢٤.

قلت: خفّف القاضي -رحمه الله- «الحُمُرَ»، والتخفيف في «فُعُل» مُطَّرِد إلا فيما يَلْبِس، وهو هنا يَلْبِس ملبس بجمع أحمر، فينبغي ألاّ يخفّف؛ ولم يُقرأ في السَّبع ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾[1] إلاّ بالتثقيل؛ ومن هذه الحجة أنكر المحقّقون[2] إسكان الباء في قولِهِ ﷺ: «اللّـــهُمَّ إنّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الخُبُثِ والخَبائث»[3] لّما كان إسكانُه يلبس بالمفرد، وسيأتي ذكر هذا الحديث إن شاء الله تعالى.

وممّا عرض لي نظمه بمدينة تِلِمْسان ـ جبرها الله ـ قولي: [الطويل]

تَغَرَّبْتُ عَنْ أَهْلـي إليكَ ومالـي ... وأعْرَضْتُ عـن قيـلٍ عَداكَ وقالِ
تماثَلَ في دُنيايَ ـ إذ أنـتَ مطلبي ـ ... مُحِـبٌ لـه شـوقٌ إلَـيَّ وقَـالِ
سَمَـوتُ على قَصْدٍ إليكَ بهمَّةٍ ... ترى عيش كسرى مثل عيـش دلالِ
ولاحَت لـيَ الدُّنيا فأبصرت عمرهـا ... ولو زِيدَ أضعافـاً، كَحَلِّ عِقـالِ
وما عَيْشُهــا إلاّ كَظلٍّ غمـامةٍ ... وما مِلكُهـا إلاّ كطَيْفِ خَيَـالِ
وهل بعدَ أن أسدى إليَّ لطائفاً ... يُقَصِّرُ عـن تبيانهنَّ مَقَالـي
وباشَـرَ قلبـي باليقين مُبـرّداً ... حرارة إشكالٍ أخلَّ بحالـي[4]

١- سورة المدّثّر، الآية: ٥. وقال: أبو حيّان: «قرأ الجمهور حُمُر بضمّ الميم، والأعمش بإسكانها» البحر المحيط ٨/ ٣٨٠.

٢- في حاشية الأصل عبارة: بل أجازوا في شرح العمدة.

٣- أخرجه الترمذي عن أنس في كتاب الطهارة، باب مايقول إذا ادخل الخلاء (حديث رقم ٥). - وموارد الظّمآن للهيثمي: ٦١ـ وسنن البيهقي: ١/ ٩٥ - والمعجم الصغير للطبراني ٢/ ٤٤ ـ وفي الضعفاء الكبير للعقيلي ٣/ ٣٧١. وصحيح ابن حبّان ٢/ ٣٤٢، ومسند أبي يعلي الموصلي ٧/ ١٠، والخُبُث جماعة الخبيث، والخبائث: جمع الخبيثة؛ يريد ذكر ان الشياطين وإناثهم.

٤- في ت: أحَلَّ بحالي.

أرى رافعاً صَوْتـي إلى غيرِ جـاهِهِ … وأبسـط للمخلـوق كـفٌ سـؤالي؟

أبعدَ سُطـوعِ الشَّيـب في لَيْلِ لِمَّتِي … ونَأْيِ ضَلالـي بَعْدَفَـيْءِ ظلالـي[١]

أهيـم بدُنيـا. ما تُسـاوي قُلامَـةً … وأخضَـعُ مُرتـاداً لِنَيْلِ نَـوَالِ ؟[٢]

[١٣/ب] أبـى ذاكَ لي قصدٌ إلى الله صاعدٌ … وعلمٌ سمـا بي فيه نحـو كمـالِ[٣]

فما أنـا نحوَ النَّحـوِ أسمـو بهمَّتي … وفي اللَّغـوِ أخطـار اللُّغـات ببالي[٤]

ولا منطقي بَطَّلْـتُ في عِلْـمِ مَنْطِـقٍ … يُعَدُّ حُسـامـاً فـي مجـالِ جِدالِ[٥]

وليـس كلامـي فـي الكلامِ أقـودُهُ … كما قِيدَ صَعْبٌ للشِّمـاسِ مُـوالِ[٦]

ولا عارضَـتْ عِلْمَ العروض عنايتـي … لأجعلَـهُ قبّـانَ نَظْـمِ لآلِ[٧]

وأحسَبُ تدقيقَ الحسـابِ بَطالَةً … لإبطـالِ وَقْـتٍ لاَيُرَدُّ بحـالِ

ولكنّني مَهْمَـا نَحَـوْتُ تَفَقُّهـاً … خَلَعْتُ عِـذاري مُوضِحـاً لخلالـي

ألا لَسْـتُ أعنـي بالتفقُّهِ ما حَـوَتْ … دفاتـرُ تملـى مِنْ ظُنُـونِ رِجـالِ

ولكنّـه فقـهٌ عَلا عـن تَناقُـضٍ … وَلَيْـسَ لآراءِ الـورى بِمَجَـالِ

تُريـكَ اطّراداً منـه كلُّ قضيّةٍ … أنابيـبَ تبـدو في متـون عـوالِ[٨]

١- اللِّمَّةُ: شعر الرأس المجاوز شحمة الأذن.

٢- في ط: لا تساوي.

٣- في ط: أما ذاك.

٤- في الأصل. فما أنا.

٥- في ط: بطلب، وهو تصحيف.

٦- في ت: للشمال، وهو تحريف، وشمست الدابة والفرس: شردت وجمحت ومنعت ظهرها.

٧- في ت: قفاز، وهو تصحيف.

٨- في ت: أنابيب مدوا.

قضايا جلايا مثلما لاح ساطعٌ | يَصولُ بجنْدِ اللَّيلِ أيَّ صِيالِ
٢٥- قضايا إذا وُفِّقْتَ يشفيك حُكْمُها | وإلاّ فلا تعرضْ لطِبٍّ عُضَالِ
فلستَ لها في الكُتْبِ يوماً مُطالِعاً | ولا سامعاً فيها نِظامَ مقالِ
وفي عَقْلِ ذي القَلْبِ المُتَيَّمِ رقمُها | يبين به عن كلِّ أنوكَ سَالِ[1]
فإن أنتَ لم تُوصِلْ لحال وصالَها | فَدَعني وإيّاها حليفَ وِصالِ[2]

[ذكر مليانة]

وكان رحيلُنا بعدَ المقامِ المطوّل[3] لخمسٍ خلونَ من شهر ربيع الأوّل، فنكبْنا عن طريق المدينة[4] يساراً، وسرنا لاَ نَألُو جِداً وانشماراً[5]. ثمّ وَصلْنا وقد ألقى جَمَلُ الإعياءِ جِرانَه، وغنّى بلبلُ العَناء ألوانَه، إلى البلدة الخصيبة مِلْيانَة[6]، وهي مدينةٌ مجموعةٌ مُخْتَصرة، وليست مع ذلك عم أمّهات المدنِ مُقصَّرة؛ أشرَفَت مِنْ كَثَبٍ على وادي شَلَف، واستشرفت نسيم طرفها من شَرَفْ، في روضة جمّة الأزهار والطُّرَف؛ فرعت في سفح جبل حمى حماها أنْ يُرام، وشرعت في أصل نهر يشفي الهُيَّمَ[7] من الهُيام، شاقَ منظراً، وراقَ

١- الرّقم: الكتابة، والأنوك: الأحمق.
٢- في ت: بحال وصالها.
٣- في ت و ط: الطويل.
٤- في ط: البرية.
٥- في ت: واشتمارا.، والأنشمار والاشتمار: المضيّ والنفوذ.
٦- مليانة: مدينة في آخر إفريقية، بينها وبين تنس أربعة أيام، وهي مدينة رومية قديمة، جدّدها زيري ابن مناد معجم البلدان ١٩٦/٥، ويقول الحسن الوزّان: تقع في قنّة جبل على بعد نحو ٤٠ ميلاً من البحر وصف إفريقية: ٣٤/٢-٣٥.
٧- في بقية النسخ: المقيم.

مخبراً، وشفى الظِّماءَ مَوْرداً ومَصدَراً، يشتهي الناظرُ [١٤/أ] إليه – وهو ريّان – الشُّروغْ، ويقول: لَوْرُشَّ[١] به لأفاقَ المصروغ، كأنَّ حَصْباءَهُ[٢] جمان[٣] والماء من رقّته دُموعْ؛ وبها جامعٌ مليحٌ عجيبْ، يدعو الشّوقُ من رآه فيجيبْ، ولكنَّ الزَّمان قد عوّضه من حُليٍّ عَطَلا،[٤] وأدّى له من حكمة خَطَلاً[٥]، وأبدل هالته السُّها من تلك الأقمار، وكساهُ بعد الحَبْرِ[٦] الأطمار،[٧] وأحلَّ حلاله بعد الأنس بأنسها وحشة العمار؛ فلو صرّحت في الجوى بالجواب، وأفصحت عن[٨] وقوع النوى بالنّوائب النّواب، لأنشَدَت[٩] باستعجال، وقالت[١٠] بارتجال: [الطويل]

شَبَابٌ لَدى عَهْدِ الشَّبيبةِ قد عَسَا ... أُعلِّلُ فيه النَّفس عَلِّيَ أو عَسَى[١١]

لعلّ رُبوعاً من حُلاها عوارياً ... تعود لها تلك المَفاخِرُ مَلْبَسا

لعلَّ نجوماً كُنْتُ هالَةَ بَدْرِها ... ستجلو ظلاماً حلّ أُفقي فألْبَسَا

لعلَّ انتظامَ الشَّمل يرجع ثانياً ... ويعطف بالإحسانِ دَهْرٌ بنا أَسَا

١– في ت: رُقي.

٢– الحصباء: الحصى.

٣– الجُمان: حَبٌ يُتّخذ من الفضة، أمثال اللؤلؤ.

٤– عَطِلَت المرأة: إذا لم يكن عليها حُلي، ولم تلبس الزينة، وخلا جيدها من القلائد.

٥– الخَطَل: الكلام الفاسد الكثير المضطرب.

٦– الحَبْرُ والحِبْرُ: الحُسْنُ البَهاء.

٧– الأطمار: جمع طِمْر؛ وهو الثوب الخَلِق.

٨– في ت: على.

٩– في ت: لشدت باستحال.

١٠– في ت: وأنشدت.

١١– عسا: كبر.

رَمانــي زَمانــي بالنَّوى مــن أحبَّةٍ ... لبَيْنِــهِــمُ عـــادَ الأنيــسُ مُعبَّسا[1]
نأى عُمَرُ الحِبْرُ الإمـامُ بحاضِــري ... فكيــف ألاقــي مِنْ زماني تأنُّسَا[2]
وَقَــدْ حَظِيَتْ أغْماتُ منه بمــا جِدٍ ... تـدرَّعَ مِـن غُرِّ الفَضائـلِ ملْبَسَـا[3]
لقــد هِنْتُ حتَّــى شَطَّ عنِّي مَـزارُهُ ... ونالَــتْ به أغمـاتُ مَجداً مؤسَّسَـا
وكنــــتُ مَقيــلاً للهُــداةِ تَــؤُمُّــهُ ... فَصِرْتُ لأخْلاطِ الغُواةِ مُعَرَّســا[4]
وكنتُ لباغــي الجُـودِ والعِلْـمِ مُلْتَقى ... فإنْ شئت مقراةٌ وإن شئتَ مَدْرَسا
وكمْ كنــتُ للضّرغام والظَّبْيِ مَألفاً ... أُنَسِّيكَ إنْ أبْصَرْتَ خِيساً ومَكْنِسا[5]
أُراغِمُ رَيْــبَ الدَّهْرِ منــه بمـا جِـدٍ ... إذا ضــاقَ خَطْـبٌ أو تَفاقَمَ نَفَّسا
فَجُلِّلْــتُ عـن تلكَ الـجـلالة حلّـــةً ... وعُوِّضْـــتُ مـن تلكَ الأهلَّة حِنْدِسَا
فهـــا أنا أشـــدو إنْ نطقـــتُ تمثُّلاً ... وليلُ هُمومي قَدْدَجَا بي وعَسْعَسَا[6]:

١- في ت: زماني رماني، وفي ط: لبعدهم عاد الأنيس.
٢- هو أبو علي الملياني: عمر بن عبد الجبار .... الملياني: أصله من مليانة، ثار على الحفصيين ودعا لنفسه في مليانة سنة ٦٥٧هـ، ثم فرّ إلى المغرب بعد استيلاء الحفصيين عليها، والتجأ إلى السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني الذي ولاّه على أغمات، توفي سنة ٦٨٦هـ انظر مقدمة تحقيق السفر الثامن من الذيل والتكملة ٦٤-٦٥.
٣- أغمات: مدينة بالمغرب الأقصى، بقرب وادي درعة، بينها وبين نفيس مرحلة؛ وأغمات مدينتان، إحداهما تسمى: أغمات وريكة، والأخرى: أغمات هيلانة، وبينهما ثمانية أميال (ياقوت: ١/٢٢٥) وتقع على نحو ٢٤ ميلاً من مراّكش. وصف إفريقيا: ١/١٣٥.
٤- الغَاوي: الضّال، التّعريس: النزول آخر اللّيل.
٥- في ط: أنيسك. والخِيسُ: موضع الأسد، والمِكْنَس: مدلج الوحش من الظباء والبقر، تستكنّ فيه من الحرّ.
٦- عسعس الليل: أقبل بظلامه.

«وَبُدِّلْتُ قَرْحاً دامِياً بَعْدَ صِحَّةٍ لَعَلَّ منايانا تحوَّلْنَ أبؤُسا»(1)

ومابقي بها مَن لهُ بالعلم أدنى عِناية، ولكنَّا قد استفدنا بها حكاية [١٤/ب] وهي أنَّ بعض الكُتَّاب كان يكتب كتاباً عن أمير، فلمَّا قرأه عليه لم يَرْضَه فمزَّقه، فكتبه ثانيةً، فمزَّقه، فلمّا رأى تعسُّفَهُ أَخَذَ قِرْطاساً ونظم فيه ارتجالاً:(2) [الطويل]

رأيتُكَ تَكْويني بمَيْسِمِ مِنَّةٍ كأنَّكَ أنت اليومَ عِلَّةُ تكويني(3)

وتلوينيَ الحقُّ الَّذي أنا أهْلُهُ وتُمطِلُني فيه بعَذْلٍ وتَلْويني(4)

فَأَقْصِرْ عَنِ العَتْبِ الطَّويل فَبُلْغَةٌ مِنَ العيشِ تكفيني إلى حين تكفيني(5)

ولم آخُذ هذه الحكاية ممَّن أطمئنّ إليه؛ وأُحيل بالعُهْدَةِ فيها عليه، ولكنّني قيَّدْتُها لتُنْظَر، وعَرَضْتُها لِتُخْبَرَ، فإن صحّت فهو الغَرَض، وإلا فكم ظُنَّتْ صحَّةٌ بذي مَرَض.

١- ضمَّن بيتَ امرئ القيس، وهو في ديوانه: ١٠٧.

٢- البيتان ١و٣ في ديوان الإمام الشافعي ١٧٧؛ ووردت الأبيات الثلاثة في ديوان أبي الفتح البستي (٣٢٣) وفي يتيمة الدّهر منسوبة للبستي.

٣- في ديوان الشافعي: «كأنّك كنت الأصل في علّة تكويني» وفي ديوان البستي «... بميسم ذلّةٍ كأنّك قد أصبحت علّة تكويني» ورد الشطر الثاني في اليتيمة كما جاء في ديوان البستي.

٤- البيت الثاني وصدر البيت الثالث ساقطان من ت. وجاءت رواية البيت الثاني في ديوان البستي:

«و تلوينيَ الوعدَ الذي قد وعدتني وتذهب فيه إلى كلّ تلوين»

وفي اليتيمة «.... وتخرجُ في أمري إلى كلّ تلوين».

٥- في ط: فاقصر علي. وجاءت رواية البيت في ديوان البستي هكذا: «فمهلاً ولا تمنُنْ عليَّ فبُلْغَةٌ....» وقد ورد كما في ديوان البستي في اليتيمة، وفي ديوان الشافعي: «فدعني من المنّ الوخيم فلقمة....».

[ذِكر الجزائر]

ثمّ وصلْنا إلى الجزائر، وهي مدينةٌ تستوقف بحُسْنها ناظرَ النّاظر، ويقف على جمالِها خاطرُ الخَاطر[1] قد حازت مَزِيَّتَيْ البرّ والبَحْر، وفضيلَتَيْ السَّهْلِ والوَعر؛ لها منظَرٌ مُعْجِبٌ أنيق، وسُورٌ معجِزٌ وَثيق، وأبوابٌ مُحْكَمَةُ العَمَلِ؛ يَسْرَحُ الطَّرْفُ بها حتّى يَمَلّ، ولكنهَّا قد أقفَرَت مِن المعنى المطلوب، كما: [البسيط]

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوب[2] ....

فلم يبقَ بها مَن هو مِن أهل العِلم مَحسوب، ولا شخص إلى فنٍّ مِن فنونِ المعارف منسوب. وقد دخلتُها سائلاً عن عالمٍ يكشف كُرْبَةً، أوأديبٍ يؤنس غُرْبةً، فكأنّي أسألُ عن الأبلق العقوق[3]، أو أُحاوِلُ تحصيلَ بَيْضِ الأنوق.

[ذكر بجاية]

ثمّ وصلنا إلى مدينة بِجايةَ[4]، مبدأ الاتّفاق[5] والنّهاية، وهي مدينةٌ كبيرة، حصينة شهيرة، برّية بحريّة، سنيّة سرية، وثيقة البنيان، عجيبة الإتقان،

١- خاطر الأولى: ما يخطر بالذهن من رأيٍ أو أمر أو معنى، وخاطر الثانية: المتبختر.

٢- صدر بيت عجزه: «فالقطَبيّات فالذَّنوبُ» وهو مطلع قصيدة عبيد بن الأبرص في ديوانه: ٢٣، وملحوب: اسم ماء لبني أسد، والقطَبيّات: جبل، والذنوب: موضع في ديار أسد.

٣- في المَثَل: «أعزّ من بيض الأنوق، والأبلق العقوق»، والعقوق: الحامل من النوق، والأبلق: من صفات الذكور؛ فكأنّه قال: طلبَ الذَّكرَ الحاملَ انظر الميداني: ٢/٤٣، والأنوق: طائر تبيض إناثه حيث لا يلحق شيءٌ بيضَها. وفي المثل السائر: «كلّفتني بيض الأنوق» يضرب في الرّجل يسأل مالا يكون ومالا يُقدَر عليه انظر الميداني ٢/٤٤، وثمار القلوب ٤٩٤.

٤- بجاية: مدينة على ساحل البحر بين إفريقية والمغرب، في الجزائر اليومَ؛ وأوّل مَن اختطّها الناصرُ ابن علناس بن حماد بن زيري بن منادبن بلكين في حدود ٤٥٧هـ وتسمى «الناصرية» أيضاً باسم مُختطِّها انظر وصف إفريقيا: ٢/٥٠ وماكتبه محقّق كتاب «عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية» الأستاذُ رابح بونار في مقدّمة تحقيقه للكتاب المذكور، صفحة ٣-١١.

٥- في ط: الإتقان.

رفيعةُ المباني، غريبةُ المعاني، موضوعة في سَفْح جَبَلٍ وعر، مقطوعةٌ بنهرٍ ويَحْر، مشرفةٌ عليهما إشرافَ الطّليعة، متحصّنة بهما منيعة؛ فلا مطمع[١] فيها لمحارِب، ولا متّسعَ بها لطاعنٍ وضارب؛ ولها جامعٌ عجيب، منفرد في حُسنه غريب، من الجوامعِ المشهورة، الموصوفةِ المذكورة، وهو مُشْرِفٌ على بَرِّها وبَحْرِها [١٥/أ] وموضوع بين سحرها ونحرها[٢]؛ فهو غايةٌ في الفُرجَةِ والأنس، ينشرحُ الصدْرُ لرؤيتهِ وترتاحُ النّفس؛ وأهلها يواظبون على الصّلاة فيه مواظبةَ رعاية، ولهم في القيام به تهمّمٌ وعناية، فهو بهمْ مأهولٌ عامرْ، يتخلّل أنسُه مسلكَ الأرواح ويخامرْ.

وهذا البلد بقيّة قواعد الإسلام، ومحلّ جلّة[٣] من العُلماء أعلام؛ وله مع حُسْنِ المنظَر طيبُ المخبر، ومع المرأى الرّائق المعنى الفائق، ومِنَ الحصانةِ ووَثاقة البنيانِ ماأزرى بإرَمَ وغُمْدان[٤]؛ ولأهلهِ من حُسْنِ الخَلق والأخلاق، ماأنبأ عن طيب الهواء والماء، والتُّربة والأعراق؛ غير أنّهُ قد اعتراهُ من الغِيَر، ماشمل في هذا الأوان البدوَ والحَضَر؛ وقد غاض بحر العِلْمِ الّذي كان بهِ حتّى عاد وَشَلا[٥]، وعَفا رسمُهُ حتّى صارَ طَلَلا؛ وبه آحادٌ من طَلَبةِ العِلْمِ قد اقتصروا على مطالعة الصُّحف والدّفاتر، وسلكوا في ترك تصحيحِ الرّوايةِ طريقاً لَمْ يرضَه الأعلامُ الأكابر.

١- في ط: طمع.
٢- سَحَرُ كُلِّ شيء: طرفه، ونحره: أوله.
٣- في ط: حلّه.
٤- غمدان: قصر معروف باليمن.
٥- الوَشَلُ: الماء القليل.

[لقاؤه للشّاطِبيّ]

ولم أرَ بها من أهلِ الشِّيمةِ الفُضلى، والطَّريقةِ المُثلى[1]، أمْثَلَ مِن الشَّيخِ،الفقيهِ،الخطيبِ،الصَّالحِ،المُسْنِدِ،الرَّاوية،أبي عبد اللّٰه محمّد بن صالح ابن أحمد الكِنانيّ الشَّاطِبي[2] - حفظه اللّٰه - وهو شيخٌ على سُنَنِ أهلِ الدّين، سالكٌ سَبِيل المهتدين، مقبلٌ على ما يعنيه، مشتغلٌ بعُمْرٍ في طاعة اللّٰه يفنيه؛ دأبُهُ الاقتصار على تجويدِ الكتابِ، والتَّردّدِ ما بينَ بيتهِ والمِحراب. وقد لقيَ من الشَّيوخِ أعلاماً، صَيَّرَهُ لقاؤهم والأخذُ عنهم إماماً؛ وله مع عُلوٍّ الرِّواية حظٌّ وافرٌ من الدّراية، إلى خُلُقٍ لو شابَ ماءَ البحر صار فُراتاً، ودينٍ ألزمَهُ خشوعاً وإخباتا[3]. وقد شاهدتُ له مِن غزارةِ العَبْرَة، ماهو مِن أعظم العِبْرَة.

ولمّا ودّعته قال لي: «إنّك تُوحِشُني بفراقك! وقد أقبل عليكَ قلبي لأوّلِ ما رأيتُكَ». وما كانت مدّةُ إقامتِنا ببِجايةَ إلاّ يومين، قرأت عليه فيهما - مع كثرة [١٥/ب] الشّواغلِ وتسلّطِ الهمومِ الّتي تُخلُّ بعقلِ العاقل - بعضَ كتاب «الموطّأ» رواية يَحيى بن يحيى[4]، وناوَلَني سائرَهُ، وبعض كتابَيْ «التّيسير»[5]

١- استفادَ من التعبير القرآني في سورة طه، ٦٣: (ويذهبا بطريقتكم المثلى).

٢- توفي محمد بن صالح بن أحمد الكناني الشاطبي سنة ٦٩٩هـ، انظر عنوان الدراية: ١٠٤، وفيات ابن قنفذ ٣٣٥، درّة الحجال ٢/١٧-١٨.

٣- الإخبات: الخشوع والتواضع.

٤- هو يحيى بن يحيى بن كثير بن وسلاس، عالم الأندلس في عصره، رحل إلى المشرق، وسمع الموطّأ على الإمام مالك، وعاد إلى الأندلس ونشر فيها مذهب الإمام مالك، توفيّ بقرطبة سنة ٢٣٤هـ. له ترجمة في جذوة المقتبس: ٣٨٢، ترتيب المدارك ٢/٥٣٤، الديباج المذهب ٣٥٠.

٥- هو كتاب التيسير في القراءات السبع، وهو مختصر مشتمل على مذاهب القراء السبعة في الأمصار وما اشتهر من الروايات، وهو مطبوع.

و«المقنع»[1] للإمام أبي عَمْرو الدَّاني[2]، وناولَنيهما، وقرأتُ عليه جميعَ «قصيدةِ الشَّيخِ الإمامِ أبي القاسم، قاسم بن فِيُّرة الرُّعيني الشَّاطِبي[3] في القراءات»، وحدَّثني بها عن الشَّيخ الفقيه الخطيب[4] المقرىء[5] أبي بكر محمَّد بن وضَّاح اللَّخْمي[6] سماعاً عن ناظمها الشَّيخ الفقيه الإمام أبي القاسم المذكور. ووجدت على ظهر أصله من هذه القصيدة تنبيهاً بخطِّه على الاختلاف في كُنيةِ النَّاظم المذكور، هل هي أبو القاسم أو أبو محمَّد؟.

قلت: وهما معاً صحيحتان؛ وأهلُ مِصْرَ لا يعرفونه إلاَّ بأبي القاسم، ولهم نَظَمَ هذه القصيدةَ، وعندهمْ توفي في عقب جمادى الآخرة، عامَ تسعينَ وخمس مئة، ومدفنُهُ بمقبرة البَيْساني، وكان يُكَنَّى في الأندلس بأبي محمَّد، وبه كناَّه جميع شيوخه الأندلسيِّين الَّذين قرأ عليهم، فيما كتبوه له، كأبي

١- هو كتاب المقنع في رسم المصحف، وهو مختصر في معرفة رسوم المصاحف، مع بيان القول في كيفية نقطه وإحكام ضبطه على وجه الإيجاز والاختصار، وهو مطبوع.

٢- هو عثمان بن سعيد بن عثمان: حافظ عالم بعلوم القرآن وتفسيره، من أهل دانية بالأندلس، توفي سنة ٤٤٤هـ. ترجمته في الصلة: ٤٠٥ ـ بغية الملتمس: ٤١١ ـ جذوة المقتبس: ٣٠٥.

٣- قاسم بن فيِّرة بن خلف بن أحمد الرُّعيني الشاطبي: إمام القرَّاء في عصره، كان عالماً بالحديث والتفسير واللغة، توفي بمصر سنة ٥٩٠هـ ومولده بشاطبة سنة ٥٣٨هـ. له «حرز الأماني» وهي قصيدة في القراءات. ترجمته في وفيات ابن قنفذ ٢٩٦، وفيها وفاته سنة ٥٨٩؛ العبر ٣/١٠٢.

٤- ليست في ت.

٥- ليست في ت و ط.

٦- محمد بن ابراهيم بن وضَّاح اللخمي، عالم مقرىء أديب، من أهل غرناطة، رحل في طلب العلم والحجِّ، نزل جزيرة شقر من أعمال بلنسية، وأقرأ فيها القرآن نحواً من أربعين سنة، توفي سنة٥٨٧هـ. ترجمته في نفح الطيب ٢/١٦٠.

الحسن بن هُذَيل[1] وغيره، وعادة النَّاس إلى الآن مختلفة في تكنيةِ قاسم على الوجهين المذكورَيْن.

وقرأتُ عليه أيضاً بعض كتاب «الشَّمائل» للتِّرْمِذي، وبعض كتاب «رياضة المتعلّمين» للحافظ أبي نُعيم[2]، وناولني سائرهما، وناولني «المفردات» لأبي عمرو، وكتاب «فضل قيام اللَّيْل» وكتاب «فضل تلاوة القرآن» للإمام أبي بكر الآجُرّي[3]، وأجازني[4] إجازةً عامّة، وكتب بذلك خطّ يده، وقيّد لي جملة من أسماء شيوخه ومرويّاته، وقد جمع ذلك في «برنامج» له، قرأتُه عليه حين لقيته المرّة الثَّانية حسبما يأتي ذِكرُه إن شاء الله تعالى. وسألته عن مولده فأخبرني أنّه كان في التّاسع والعشرين من ذي قعدة عامَ أربعة عَشَر وستّ مئة. وقرأت عليه حديث كُميل بن زياد[5] عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه من «رياضة المتعلّمين»، وحدَّثني به عن الشّيخ الرّاوية أبي الحسين[6]

١- علي بن محمد بن علي بن هذيل البلنسي: شيخ المقرئين بالأندلس، روى الصحيحين وسنن أبي داود، ولد سنة ٤٧١هـ وتوفي سنة ٥٦٤هـ. ترجمته في بغية الملتمس ٤١٤، والمعجم لابن الأبّار ٢٩٦، والعبر ٣/٤٤.

٢- هو أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني: حافظ، محدث فقيه، له: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، توفي بأصبهان سنة ٤٣٠هـ. ترجمته في ميزان الاعتدال: ١/١١١، ولسان الميزان: ١/٢٠١.

٣- هو محمد بن الحسين بن عبد الله: فقيه شافعي، محدّث، نسبته إلى آجرّ من قرى بغداد، انتقل إلى مكة المكرمة وتوفي فيها سنة ٣٦٠هـ، له تصانيف منها: أخبار عمر بن عبدالعزيز، وأخلاق العلماء، والأربعون حديثاً. ترجمته في وفيات الأعيان ٤/٢٩٢-٢٩٣- شذرات الذهب ٣/٣٥.

٤- تكون الإجازة مشافهة وإذناً باللفظ، أوبالكتابة بحضرة المجاز أو مغيبه، انظر أقسام الإجازة في: الباعث الحثيث لابن كثير ١١٤.

٥- كميل بن زياد بن نُهيك النّخعي: تابعي، ثقة، من أصحاب عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، شهد صفّين مع عليّ، وسكن الكوفة، وروى الحديث، قتله الحجّاج صبراً سنة ٨٢هـ، ومولدهُ سنة ١٢هـ. ترجمته في الإصابة: ٣/٣٠٠، وتهذيب التهذيب: ٨/٤٤٧، والأعلام: ٥/٢٣٤.

٦- في ت : الحسن.

أحمد بن محمّد ابن أحْمد بن السَّرّاج سماعاً عليه [١٦/أ] بقراءة الشّيخ العالم أبي عبد الله القُضَاعي، عن أبي القاسم بن بَشْكُوال بسنده فيها إلى «كُمَيْل» قال: أخذ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بيدي فأخرجني إلى ناحية الجبّانة[١]، فلمّا أصحر[٢] تنفَّس الصُّعداء، ثمّ قال: ياكُمَيل! إنّ هذه القلوب أوعية فخيرُها أوْعاها للخير؛ ياكُمَيل! احفظ عنّي ماأقول: النّاس ثلاثة: عالِمٌ ربّاني؛ ومتعلِّم على سبيل نجاة؛ وهَمَجٌ رَعاعٌ، لكُل ناعقٍ أتباعٌ يَميلون مع كلّ ريح، لم يستضيئُوا بنور العِلْمِ، ولم يلجؤوا إلى رُكْنٍ وَثيق؛ ياكُمَيل! العلم خير من المال، العلم يحرُسك، وأنت تحرسُ المال، والمال تُنْقِصُهُ النَّفَقَةُ، والعلمُ يزكو على الإنفاق؛ ياكُمَيل! محبّة العالِم[٣] دينٌ يُدانُ به، يُكسِبُهُ الطّاعَةَ في حياته، وجميلَ الأُحدوثة بعدَ وفاته، ومنفعة المال تزول بزواله، والعِلْمُ حاكِمٌ والمال محكوم عليه؛ ياكُمَيل! ماتَ خُزّانُ المال، والعُلماء باقُون مابقيَ الدَّهر، أعيانُهم مفقودة، وأمثالُهم في القلوبِ مَوجودة. ثمّ قال، هاإنّ هاهنا علماً – وأشار إلى صدره – لوأصبتُ له حَمَلَةً! بلى، أصَبْتُ لَقِناً غيرَ مأمونٍ يَستَعْمِلُ آلَةَ الدِّين في طَلَبِ الدّنيا، ويستظهر بحجج الله على أوليائه، وَبِنِعَمِ الله على معَاصيه، أومُنقاداً لِحَمَلَةِ العلم لابصيرةَ له في أنحائه، يقدحُ الشّكُّ في قلبه بأوّل عارضٍ من شبهة؛ ألا لا ذا ولاذاك؛ فمَن هو منهوم باللّذّات، سلِس القياد إلى الشّهوات، مُغْرَمٌ بالجمع والادّخار، وليس من دُعاة الدّين أقرب

١– في بقية النسخ: الجبّان. والجبّان والجبّانة بالتشديد: الصحراء، وتسمى بها المقابر، لأنها تكون في الصحراء، تسميةً للشيء بموضعه.

٢– أصحر الرجل: خرج إلى الصحراء.

٣– في ت: العلماء، وفي نهج البلاغة: العلم.

شبهاً به الأنعام. كذلك يموت العلم بموت حامليه[1]. ثم قال: اللَّهمَّ! بلى لاتخلو الأرض من قائم [لك][2] بحجَّةٍ إمّا ظاهراً مشهوراً، وإمّا خافياً مغموراً، لئلَّا تبطل حجج[3] الله وميثاقه؛ وكم وأين أُولئكَ الأقلُّون عدداً،والأعظمون قدراً؟ بهم يحفظ الله حججه حتّى يُودِعَها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقائق الأمور، فباشروا روح اليقين فاستلانوا ماانستَوْعَرَ المُتْرَفون، وأنسُوا بما استوحَشَ منه [١٦/ب] الجاهلون؛ صَحِبوا الدُّنيا بأبدانٍ أرواحُها مُعَلَّقةٌ بالمَلَكوت الأعلى؛ ياكُمَيل! أولئك خلفاء الله في أرضهِ والدُّعاة إلى دينه. هاه هاه شوقاً إليهم وإلى رؤيتهم! واستغفر الله لنا ولهم، انصرف إذا شئت»[4].

وقرأت عليه فيها بسنده إلى عليّ أيضاً، قال: « إنَّ مِن حقِّ العالمِ ألاّ تُكثِرَ عليه السُّؤال، ولا تعنته[5] في الجواب، ولاتلحّ عليه إذا كسل، ولا تأخذ بثوبه إذا نَهَض، ولا تُشير إليه بيدك، ولا تُفْشِيَنَّ له سِرّاً، ولا تغتابنَّ عنده أحداً، ولا تَطْلبنَّ عثرته، فإن زلَّ انتظرت أوبتَهُ، وقبلت مَعْذِرَته[6]، وأن تُوَقِّره وتُعَظِّمه لله، ولاتمشي أمامه، وإن كانت له حاجة سبقْت القومَ إلى خدمته، ولاتَتَبرَّمَنَّ طول صُحبته، فإنَّما هو بمنزلة النَّخلةِ تنتظر ماسقط عليكَ منها منفعة، وإذا جئت فسلِّم على القوم وخُصَّهُ بالتَّحية، واحفظه شاهداً وغائباً. وليكن ذلك كلّه لله، فإنَّ العالم أعظم أجراً من الصَّائم القائم المجاهد في

١- في ت: حامله

٢- ليست في الأصل.

٣- في ت: حجّة الله.

٤- ورد قول عليّ رضي الله عنه في نهج البلاغة ٤٩٥ وفي شرحه لابن أبي الحديد ٥/٤٣٤.

٥- أعْنَتَهُ: سأله عن شيء أراد به اللَّبسَ والمشقة عليه.

٦- في ط: معذورته.

سبيل الله. وإذا مات العالم انثلمت في الإسلام ثُلمة[1] إلى يوم القيامة لا يسدّها إلاّ خلف مثله، وطالب العلم تشيّعه الملائكة من السّماء».

وقرأت عليه فيها بسنده إلى الحارث الأعور[2] عن عليّ أيضاً قال: قيل لرسول الله ﷺ: إنّ أمّتك ستُفْتَتَن من بعدك، فسُئل رسول الله ﷺ: ما المخرج من ذلك؟ قال: «كتاب الله الذّي ﴿لا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[3] مَنِ ابْتغى العِلْمَ في غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللّه، ومَن وَلِيَ هذا الأمرَ من جبّار فحكم بغيره قصمه اللّه؛ هو الذِّكْرُ الحكيم، والنُّور المبين، والصِّراط المستقيم؛ فيه خبر ماقبلكم، ونبأ مابعدكم، وحكم ما بينكم؛ وهو الفصل ليس بالهزل؛ وهو الذّي سمعته الجنّ فلم تَتَناهَ أن ﴿قَالُوا إنّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً. يَهْدِي إلَى الرُّشْدِ﴾[4] لا يُخلِقُ على طول الرّدّ، ولا تنقَضي عِبَرُه، ولاتفنى عجائبُهُ»[5] ثمّ قال للحارث: خذها ياأعور.

وأنشدني ـ حفظه الله ـ لنفسه:[6] [الطّويل]

[١٧/أ] أرى العُمْرَ يَفْنـى والرَّجاءُ طويلُ ... ولَيْسَ إلى قُرْبِ الحَبِيبِ سَبيلُ
حَباهُ إلهُ الخَلْقِ أَحْسَنَ سيرةٍ ... فَما الصَّبْرُ عَنْ ذَاكَ الجَمالِ جَميلُ[7]

١- الثُّلمه: الخلل في الحائط وغيره.

٢- هو الحارث بن عبد الله بن كعب بن أسد بن نخلة الهمداني: فقيه كان له قول في الفتيا، وكان صاحبَ عليّ كرّم الله وجهه انظر ابن أبي الحديد: ٢٢٧/٥.

٣- سورة فصّلت:٤٢.

٤- سورة الجنّ: ١و٢.

٥- أخرجه الترمذي في ثواب القرآن، باب فضل القرآن، رقم ٢٩٠٨، وأبو نعيم في الحلية ٢٥٣/٥، والدّارمي: ٤٣٥/٢، والشفا لعياض: ٣٩٢/١، والمصنف لابن أبي شيبة: ٤٨٢/١٠.

٦- الأبيات في درّة الحجال: ١٨/٢، ونفح الطيب: ٣٤٠/٤، وأنس الساري والسارب: ١٢٤.

٧- في درّة الحجال: إله العرش، وقد ضمّن الشاعر أوائل الأبيات اسم أحمد ﷺ.

مَتـى يَشْتَفــي قَلْبـي بِلَثْمِ تُــرابِــهِ وَيَسْمَــحُ دَهْــرٌ بالمَــزَارِ بَخيـلُ؟
دَلَّــتْ عَليـهِ فــي أوائلِ أسْطُــري فــذاكَ نبــيٌّ مُصْطــفى وَرَســولُ

وأنشدني أيضاً قال: أنشدني الشَّيخ الفقيه الخطيب أبو محمَّد عبد الله ابن عبد الرّحمن بن عبد الله، هو ابنُ بُرْطُلُه[1]، لنفسه:[2] [مخلّع البسيط]

أسْلَمَنــي للبِلــى وَحيــداً مَنْ هُوَ في مُلْكِهِ وَحيدُ[3]
قَضــى عليَّ الفنــاءَ حَتْماً فَلَــمْ يَكُنْ عَنْهُ لِــي مَحيدُ
وَكَيْــفَ يَبْقى غَريــقُ تُرْبٍ بَــدْأَتُــهُ أوَّلاً صَــعيــدُ[4]
يُــعيــدُهُ آخِــراً إلَيْــهِ مَــنْ نَعْتُهُ المُبْدِئُ المُعيدُ[5]

وأنشدني كذلك له أيضاً:[6] [الطويل]

أيا نَاظِـراً نَحْوِي تَرَحَّـمْ لِرَاحِـلٍ أَتَتْهُ المَنَايـا فــي ثيـابِ مُقيــمِ[7]
فَلَمْ يَلْتَمِسْ زاداً سِوى حُسْنِ ظَنِّهِ وَمَنْ يَبْتَغـي زاداً لِـدارِ كـريمِ؟[8]

١- عبد الله بن عبدالرحمن بن عبد الله بن موسى بن سليمان الأزدي : فقيه مالكي، قاض، محدّث، من أهل مرسية، انتقل إلى المغرب الأوسط، فسكن بجاية، وتوفي بتونس سنة ٦٦١هـ. ترجمته في:عنوان الدّراية: ١٠٩، وفيات ابن قنفذ: ٣٣٠، شجرة النور: ١/١٩٦ وفيها: عبدالحق بن برطلة.
٢- الأبيات في الإحاطة: ٤/١٩٨، وعنوان الدراية: ١٠٩.
٣- في الإحاطة: أسلمني للبلاء، وفي ط: للبلاد.
٤- في العنوان: بذاته، والإحاطة: فذاته، والصّعيد: التُّراب.
٥- الشطر الأوّل في الإحاطة: يعيد أحواله إليه، والمبدىء المعيد: من أسمائه تعالى.
٦- البيتان في عنوان الدراية: ١٠٩
٧- في عنوان الدّراية: ياناظراً.
٨- في عنوان الدّراية: ومَنْ يرتضي.... لقصد كريم.

قلتُ:[1] وأظنُّ هذا الشِّعر مأخوذاً من قول الآخر[2]: [السريع]

قَالَتْ لِـيَ النَّفْسُ: أتـاكَ الرَّدى ... وَأَنْتَ فِي بَحْرِ الخَطايـا مُقيـمْ

ومَا انْتَقَيْتَ الزّادَ، قُلْتُ: ارْعَوي ... هَلْ يُحْمَلُ الزَّادُ لِدارِ الكريمْ؟[3]

وأنشدني كذلك له أيضاً:[4] [مخلّع البسيط]

دُنْياكَ مَهْمَا اعْتَبَرْتَ فِيها ... كجيفَةٍ عُرْضَةِ انْتِهـابِ[5]

إنْ شِئْتَها فَاحْتَمِلْ أذَاهَـا ... واصْبِرْ عَلى خُلْطَةِ الكِلابِ

قلت: وكأنَّ هذا أيضاً مأخوذ من قول الآخر، أخبرنا به الشَّريف أبو الحسن علي بن أحمد إجازةً عن الشّيخ أبي الحسن محمّد بن أحمد بن القَطيعي المؤرّخ، عن الإمام أبي الفَرَج بن الجَوْزي[6] ممّا أنشده في صفة الدّنيا[7]: [١٧/ب] [الطويل]

١- ليس في ط .

٢- الشاعر هو أبو الحجّاج يوسف المنصفي، وهو زاهد مشهور سكن سبتة، والبيتان في: المغرب: ٣٥٤/٢ وتحفة القادم ٨٤، ورايات المبرّزين ٢٤٣، والتشوّف: ٤٢٦، والنفح: ١٨١/١ .

٣- في المغرب والنفح والرايات والتحفة: فما ادّخرتَ الزاد. وفي التّشوّف: ومانخرت. وفي المغرب والنفح والرايات والتحفة: قلتُ: أقصري- وفي الرايات: هل يحمل الزاد لباب الكريم.

٤- البيتان في عنوان الدراية: ١٠٦ دون نسبة، وفي الكتيبة الكامنة: ٣٣لإبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن أبي العاص التنوخي. وفي درّة الحجال:١٨/٢ منسوبة خطأً للعبدري صاحب الرحلة.

٥- البيت في عنوان الدراية:

دنياك مهما اعتبرت جيفة ... قد عرضت فرصة انتهاب

وفي درّة الحجال: دنياي مهما اغتررت... النهاب. وفي الكتيبة الكامنة: واصبر عليها مع الكلاب.

٦- عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي: مؤرخ محدِّث، توفي ببغداد سنة ٥٩٧هـ، له: الأذكياء وأخبارهم، ومناقب عمر بن عبدالعزيز. ترجمته في: غربال الزمان: ٤٨٤- شذرات الذهب: ٣٢٩/٤- وفيات ابن قنفذ: ٣٠١ ، وفيه وفاته سنة ٥٥٩هـ.

٧- البيتان للشافعي في ديوانه: ٣٤، ومطلع البيت الأوّل فيه: وماهي إلاّ جيفة...

وَهَلْ هِـيَ إلاّ جِيفَةٌ مُسْتَحِيلَةٌ عَلَيْهـا كِلابٌ هَمُّهُنَّ اجتذابُها

فإنْ تَجْتَنِبْها كُنْتَ سِلْماً لأهْلِهَا وإنْ تجتذبْهـا نازَعَتْكَ كِلابُهـا

وأمّا ضبط هذا الاسم فقد قيَّدتُه على شَيخنا أبي عبد الله: بُرْطُلَة، بتاء التَّأنيث المنقلبة هاءً في الوقف، وبضمّ الباء والطاء، وقيّده الفقيه أبو الحسن ابن رَزين[1] بضمّ اللاّم وهاء ساكنة، وقال هكذا ثبت عنه؛ وهو من أهل مُرْسية ، علم من أعلامها وعالم من علمائها، خطبَ بها وببِجاية بِخُطَبٍ بليغةٍ من إنشائه، وولي القضاء بمواضع من عَمَلِ تُونِس ، وبها استقرّ أخيراً، بعد أَسْرٍ نالَهُ مرَّتين، وحجّ ثمّ رجع إلى تُونِس فتوفي بها عام أحد وستّين وستّ مئة.

وقرأت عليه أيضاً أوّلَ قصيدة أبي عبد الله بن أبي الخِصال[2]، الّتي سمّاها: « معراج المناقب[3] » وناولنيها، وحدّثني بها عن ابن السَرَّاج قراءة عن أَبَوَيْ القاسم: ابن بَشْكُوال وابن غالب الشَرَّاط، سَماعاً عليهما، بقراءة خاله أبي بكر محمّد بن خير، عن ناظمها المذكور، وأوّلها:[4] [الطويل]

إليكَ! فَهَمِّـي والفـؤادُ بِيَثْـربِ وَإنْ عَاقَني عنْ مَطْلَعِ الوَحيِ مَغْرِبي

١- هو علي بن محمد بن أبي القاسم بن رزين التونسي: فقيه محدّث، له رواية واسعة، له فهرسة جمع بها أسماء شيوخه. توفي بتونس سنة: ٦٩٢هـ، ترجمته في برنامج الوادي آشي: ٦٥- فهرس الفهارس: ١/٤٤١.

٢- هو محمد بن مسعود بن طيب بن فرج بن خلصة الغافقي: وزير أندلسي، شاعر أديب، توفي بقرطبة سنة ٥٤٠هـ. له رسائل وشعر قام بتحقيقها الدكتور محمد رضوان الدايّة.انظر خريدة القصر قسم المغرب ٣/٤٤٩.

٣- اسمها كاملاً: معراج المناقب ومنهاج الحسب الثاقب في نسب رسول الله ﷺ ومعجزاته ومناقب أصحابه، وتقع في واحد وعشرين ومئة بيت انظر برنامج الوادي آشي ٢٢٤.

٤- القصيدة كاملةً في رسائل أبي الخصال وشعره: ٦٢٧-٦٣٧.

[ذكر بني ورار]

ثمّ وصلنا إلى بني ورار، ثم إلى مِيلَة[1]، فلَم نرَ إلا رسوماً بحوادث الدّهر مُحيلة؛ يقتصر في وصفهما[2] مَنْ أراد أن يُعمل بيانه، على ماتقدّم من وصف مِليانَة، وكلتاهما على شكل مدينة، ليست بثمينة ولامتينة؛ عمل البلى فيهما وفي السكّان، وأدخل الجَميع في خبر كان؛ وفي كلتيهما عين تَسُحُّ، وعُنْصر[3] يجود ولا يشحّ؛ وبنو ورار أعمر المحلَّيْن، وعَيْنُها أغزر العَينيْن، تسقي البلد نهلاً وعللا[4]، وتفيض عليه غللاً يشفي غُلَلا[5]؛ وعَينُ ميلة في داخل البلد، ليست بفيض ولا ثَمَد[6]، وقد طُوِيَت[7] طيّاً بديع الإحكام، وبنيت بنياناً يدلّ على فرط اَعتناء واهتمام[8]، تقف [١٨/أ] عليه النّواظر وقوف استغراب، وتصفه الألسنة على جهة الإغراب[9]، وكفى ببلدٍ خلاءً وفناءً ألاّيحوي ما يُوصَفُ إلاّ ماءً وبناءً.

[ذكر قسنطينة]

ثمّ وصلنا الى البلد الذي نَشّفت الخطوب معينَه، وأبَتِ الأقدار أن تكون له مُعِينة؛ بَلَدِ الوضع العجيب، والموضع الخَصيب، مدينةِ

١- ميلة: مدينة صغيرة تقع في الجزائر اليوم، وتبعد عن قسنطينة ٤٠ كم إلى الشمال الغربي منها الروض المعطار: ٥٦٨- وصف إفريقيا: ٢/٦٠.

٢- في بقية النسخ: وصفها.

٣- العنصر: الأصل، وفي الحديث:«يرجع كلُّ ماء إلى عُنْصُرِه».

٤- في ط: علاّ، والعلّ والعلل: الشربة الثانية.

٥- غلل الأولى بمعنى: الماء، وغلل الثانية بمعنى: شدّة العطش.

٦- الثَّمْدُ والثَّمَد: الماء القليل الذي لامادَّ له.

٧- طويت: عرشت بالحجارة والآجرّ.

٨- في ت: الاعتناء والاهتمام.

٩- في ط: الاغتراب.

قُسَنْطينة[1]، جبر الله صدعَها، وكفاها من نوائبِ الدَّهر ماواصَلَ قَرْعَها؛ وهي مدينةٌ عجيبةٌ حَصينة، غير أنَّها لخطوبِ الدَّهرِ مُستكينة؛ قد ذَبلَتْ ببوارحِ الغِيَرِ،وفوادحِ الضُّرر رياضُها، ونضبت بسهائم الآفاتِ،وعظائمِ المُلِمَّات حِياضُها، حتَّى صارت كالحسناءِ لبستْ أسمالا، والكريمِ فقد مالا، والبطل أثخنته الجراحة حتّى لم يُطِق احتمالا؛ فهي تُريَ الحوادث لمحاً باصرا[2]، وتنادي بلسان الحال: « ذُلٌّ لَوْ أجِدُ ناصِراً »[3] [الخفيف]

مَنْ رَأَيْتَ المَنُونَ خَلَّدْنَ أَمْ مَنْ ذَا لَدَيْهِ مِنْ أَنْ يُضامَ خَفيرُ[4]

وبها للأوائل آثارٌ عجيبة، ومَبانٍ متقنةُ الوَضع غريبة، وأكثرها من حجر منحوت، يعجِزُ الوَصفَ إتقانُهُ ويفوت؛ وقد دارَ بها وادٍ شديدُ الوعر، بَعيد القَعْر، أحاط بها كما يحيط السّوار بالمِعْصَم، وَمَنَعَها[5] كما يمنعُ النِّيقُ[6] الأعصم[7]؛ ولكن سهام الدّهر لاتقيها الجُنَن[8]، ولا تَمْنَعُ منها القُنَن[9]؛ ورِيبُ المنون وصرفُ الزَّمن، قد أعْيَتِ الحيلةُ فيها مَنْ ومَن.

١- قسنطينة، مدينة كبيرة من مشاهير بلاد إفريقية، بناها الرومان على جبل شاهق.انظر وصف إفريقية: ٢/٥٥-٥٦.

٢- إشارة إلى المثل: لأرينك لمحاً باصرا. وهو في الميداني ٢/١٧٧.

٣- المثل في: أمثال الضبي: ١١٨، وأمثال أبي عبيد ٢٦٨، والمستقصى: ٢/٨٦، والميداني: ١/٢٨٠.

٤-البيت لعديّ بن زيد في ديوانه: ٨٧، وروايته فيه: مَنْ ذا عليه.

٥- في ت و ط: ومنعاها.

٦- في الأصل و ط: النّوق، والنيق أرفع موضع بالجبل.

٧- الأعصم: الوعل.

٨- الجُنَن: جمع جنّة: الدّرْعُ.

٩-القُنَن: أعالي الجبال.

[لقاؤه لابن باديس]

ولم أرَ بها مَنْ ينتمي إلى طَلَب، ولا مَنْ له في فنّ من فنون العلم[١] أرَب، سوى الشّيخ أبي عليّ حَسن بن بلقاسم بن باديس[٢]، وهكذا قيَّد لي اسمَ أبيه بخطّه مخلوطاً[٣]، وقال لي: إنّه اسم وكنية؛ وهو شيخ من أهل العلم يَذْكُرُ فقهاً ومسائلَ، ذو سَمْتٍ وهيئة ووقار؛ وليس في البلد مَن يُذكر بعلمٍ سواه البتّة؛ وليست[٤] له بالرّواية عناية، ولم يروِ إلاّ «الموطّأ» وحدَه، فإنّه قد قرأه على الشّيخ الفقيه المحدّث أبي يَعْقوب [١٨/ب] يوسف بن موسى الغماري الحسّاني[٥] حين خطر على قُسَنْطِينة راجعاً من المشرق، فأقام عندهم مدّةً لتوالي الأمطار، فقرأه عليه وهو إذ ذاك كبير، وفارقه وهو عنده مجهول، وما عرف مَنْ هو حتّى عَرّفْتُهُ به حين رأيتُ خطَّهُ الّذي كتبه له[٦] على «الموطّأ»، وقد قرأت عليه صَدْراً منه، وحدّثني به عنه، وسمعته يقول: سمعت الشّيخ الصّالح الحاجّ المُسنّ حَسَناً الحلفاوي يقول، «عمِّرت خمساً وثمانين سنة، ماتمّ لي بها سرور قَطُّ إلاّ ثلاثة أيّام: يومَ دخولي مكّة، ويومَ وقوفي بعرَفة، ويوم دخولي مدينةَ رسول الله ﷺ» وسمعته أيضاً يقول: وقع

١- في ت و ط : المعارف.

٢- في بقية النسخ: بادس، ولم أقف على وفاته، وكان لقاء العبدري له في أواخر القرن السابع. وقد نقل صاحب: نيل الابتهاج: ١٠٣-١٠٤ ترجمتَه من الرّحلة، وكذلك فعل صاحب: تعريف الخلف: ١٢٦/١.

٣- في ت و ط : مخطوطاً.

٤- ليس في ت و ط .

٥- يوسف بن موسى الغماري الحسّاني: فقيه محدّث، رحل إلى المشرق وأخذ عن أبي الوقت عبدالأوّل بن عيسى السجزي. صنّف كتابين على رسالة الشيخ أبي زيد، سمّاهما: الإفادة الصغرى، والكبرى. توفي أواخر المئة السّابعة. ترجمته في درّة الحجال: ٣/٣٤٤- ٣٤٥ .

٦- ليست في: ت و ط .

الكلام بين يدي الفقيه الإمام أبي الحسن اللَّخْميّ(1) في حُكْمِ السَّفرِ إلى الحجّ مع فَساد الطَّريق، وهلَ الأوْلى تركُهُ احتياطاً على النَّفس، أو الاستسلام في التَّوجُّه إليه؟ وكان اللَّخْميّ مائلاً إلى ترجيح التَّرك. قال: وكان في المجلسِ رجلٌ واعظٌ، فقال له: يافقيهُ! تسمعُ ماأقول؟ قال: نعم؛ فأنشَدَ:(2) [البسيط]

إن كانَ سَفْكُ دَمي أَقْصى مُرادِهِمُ فَمَا غَلَتْ نَظْرَةٌ مِنْهُمْ بسفْكِ دَمـي(3)

فاستحسَنَ كُلُّ مَنْ حَضَرَ منزعه، وانفصل المجلس على أنَّ الأوْلى هُو تَحَمُّلُ الخَطَر في التَّوجُّه، والإعراض عن تلك العوائق. وسألته عن الأديب أبي عليّ حسن بن علي بن عمر(4) القُسَنْطيني المعروف بابن الفَكون، فذكرلي أنّه أدركه وهو طفل صغير، ولم يحفظ له مولداً ولاوفاة. ورُمتُ أنْ أجِدَ مَنْ أروي عنهُ قصيدتَهُ المشهورةَ في رِحلتِه من قُسَنْطينة إلى مَرّاكُش فلم أجِدْهُ، فقيدتُّها هنالكَ غيرَ مرويّة؛ وكان القُسَنْطينيّ كتب بها إلى أبي البَدْر بن مَردنيش وهو بقُسَنْطينة، وهي هذه:(5) [الوافر]

1- هو علي بن محمّد الربعيّ المعروف باللخمي. فقيه مالكي، قيرواني الأصل سكن سفاقس، وتوفي بها سنة ٤٧٨هـ، له مصنّفات منها «التبصرة» وهو تعليق على «المدوّنة» في فقه المالكية، أورد فيه آراء خرج بها عن المذهب. ترجمته في: الديباج:٢٠٣ وفيه وفاته سنة ٤٩٨هـ وفيات ابن قنفذ: ٢٥٨ - الرحلة الورثيلانية ٤٣٠ - شجرة النور الزكية:١١٧.

2- تمثّل بهذا البيت التجيبيّ لِبَيَانِ أنَّ الأجر يكون على قدر المشقّة انظر مستفاد الرحلة والاغتراب:٢١٦، وهو في رحلة القلصادي:٩٨، والتشوّف:١٤٣و٢٠٨، ونفح الطّيب:٥/٤٢٧، ونَيْل الابتهاج:٢٩٦، وأزهار الرياض:٤/٢٢٤ وهما فيه منسوبان لأبي الطيّب الواعظ، وكان معاصراً لِلَّخميّ.

3- في رحلة القلصادي والنفح: مرادكم... منكم

4- في ط : ابن محمد وهو خطأ ناتج عن تصحيف، وهو شاعر مجيد، ناثر، من أهل قسنطينة، رحل إلى مراكش، ومدح خليفة بني عبدالمؤمن، لم أقف على وفاته؛ وإن كنت أُرَجّح أنّها كانت في أوائل القرن السابع الهجري. ترجمته في: عنوان الدراية: ٢٨٠-٢٨٦، ودرة الحجال:١/٢٣٦، ونفح الطيب:٢/٤٨٣، وجذوة الاقتباس:١٨٤ .

5 - القصيدة في: أزهار الرياض:٤/٣٠٤-٣٠٧ ماعدا الأبيات من ٢إلى٦، ونفح الطيب:٢/٤٨٣-٤٨٤، وتعريف الخلف:٢/١٣١-١٣٢، والإعلام للمراكشي:٣/١٣٨-١٤٠، ودرّة الحجال:١/٢٣٦-٢٣٨ عدا الأبيات من ٢ إلى٦ وجذوة الاقتباس١٨٤-١٨٦.

[قصيدة ابن الفكون]

أَلا قُـلْ للسَّـريِّ ابـنِ السَّريِّ   أبـي البَـدْرِ الجَوادِ الأَرْيحـيِّ

أَيَا مَعْنـى السِّيـادَةِ والمَعَالـي   ويـا بحـرَ النَّدى بَـدْرَ النَّـدِيِّ

[١٩/أ] أَمَـا وَبِحَقِّـكَ المُبْـدِي جَـلالاً   وَمَـا قَدْ حُزْتَ مِن حَسَـبٍ عَلِيِّ

وَمَا بَيْنـي وبينَـك مِـنْ ذِمـامٍ   ومـا أُوتيـتَ مِـنْ خُلُقٍ رَضِيِّ

لقـد رَمَـتِ العُيونُ سِهامَ غُنْجٍ   وليـسَ سِـوى فُؤادِي مِنْ رَمِـيِّ

فَحَسْبُـكَ نَـارُ قَلْبِي مِـنْ سَعيرٍ   وَحَسْبُكَ دَمْعُ عَيْني مِنْ أَتِيِّ(١)

وَكُنْـتُ أَظُـنُّ أنَّ النَّـاسَ طُـرّاً   سِـوى زيدٍ وَعَمْـروٍ غيـرُ شَيِّ

فَلَمَّا جِئْـتُ مِيْلَةَ خَيْـرَ دَارٍ   أَمـالَتْنِـي بِكُلِّ رَشـاً أَبِيِّ(٢)

وَكَـمْ أَوْرَتْ ظِبـاءُ بَنـي وَرارٍ   أُوارَ الشَّوقِ بالرِّيـقِ الشَّهـيِّ(٣)

وَجِئْـتُ بِجَايَـةً فَجلَـتْ بُـدوراً   يَضيـقُ بِوَصْفِها حَرْفُ الرَّوِيِّ

وَفـي أرضِ الجَزائِرِ هَـامَ قَلْبي   بِمَعْسُـولِ المَراشِـفِ كَـوْثَرِيِّ

وَفـي مِليانـةٍ قَـدْ ذُبتُ شَوْقاً   بِلِينِ العِطفِ والقَلْـبِ القَسِيِّ(٤)

وَفي تَنَسٍ نَسيتُ جَميلَ صَبْرِي   وَهِمْتُ بِكُلِّ ذِي وَجْهٍ وَضِـيِّ(٥)

١- في ت :نار وجدي. والأتيّ: السّيلُ.

٢- رشا: أصله بالهمز، وهو الغزال.

٣- في درّة الحجال: بني فزار.

٤-في درّة الحجال قد همت شوقاً.

٥- تنس: مدينة بقرب ملَيانة، بينها وبين البحر ميلان، وهي مسوّرة حصينة. وبعضها على جبل وقد أحاط به السور، وبعضها في سهل الأرض.انظر الروض المعطار:١٣٨.

وَفي مَازُونـةٍ مـازِلـتُ صَبّـاً　　بِوَسْنـانِ المحاجِـرِ لَوْذَعِيٍّ(1)
وفي وَهرانَ قَدْ أمسَـيْتُ رَهنـاً　　لِظَامِي الخصـرِ ذِي رِدفٍ رَوِيٍّ(2)
وأبـدَتْ لي تِلِمْسـانٌ بـدوراً　　جَلَبْـنَ الشَّـوقَ للقَلْـبِ الخَليِّ
ولَمَّا جِئـتُ وَجْدَةَ هِمْـتُ وَجداً　　بمُنْخَنِـثِ المَعَاطِـفِ معنـويٍّ(3)
وحَـلَّ رَشَا الرِّباطِ رِشا رِباطي　　وتَيَّمَنـي بِطَـرْفٍ بابلـيٍّ(4)
وَأَطْلَـعَ قُطرُ فاسٍ لي شُمُـوساً　　مَغَارِبُهـنَّ في قلْبِ الشَّجيِّ(5)
وَمَا مِكْنـاسَـةُ إلاّ كِنَـاسٌ　　لأحوى الطَّرْفِ ذِي حُسْنٍ سَنِيٍّ(6)
وإنْ تَسْلا عَنَ اَرضٍ سَلا فَفيها　　ظبـاءٌ صائـداتٌ للـكمـيٍّ(7)
وَفـي مراكُشٍ ياوَيْـحَ قَلْبـي　　«أتى الوَادِي فَطَمَّ على القَرِيِّ»(8)

1- مازونة: مدينة جزائرية بالقرب من مستغانم، وهي على ستة أميال من البحر.انظر الروض المعطار: 521.وقال الوزان: على بُعْد نحو 40 ميلاً من البحر انظر وصف إفريقيا: 2/36.

2- في ط لضامر وبها لايستقيم الوزن. ووهران: مدينة جزائرية على ساحل البحر، بينها وبين تلمسان 140 ميلاً.انظر وصف إفريقيا 2/30.

3- وجدة: مدينة بالمغرب، بينها وبين تلمسان ثلاث مراحل، وتبعد عن البحر المتوسط 40 ميلاً جنوباً. انظر وصف إفريقيا: 2/12. والانخناث: التثنّي.

4- المقصود بها تازة، وتدعى رباط تازة، وهي غير رباط الفتح التي أسّست بعدها بعدّة قرون، واتخذها الفرنسيون عاصمة لهم بعد احتلالهم المغرب.انظر حاشية الفاسي: 40.

5- في ت : قلبي الشجيِّ.

6- مكناسة: مدينة بالمغرب في بلاد البربر، وهي مدينتان صغيرتان، اختطّ إحداهما يوسف بن تاشفين ملك المغرب من الملثّمين، والأخرى قديمة، وأكثر شجرها الزيتون، وسميت لذلك مكناسة الزيتون.انظر ياقوت: 5/181. والأحوى: شديد الخضرة، المائل إلى السواد. والرواية في درّة الحجال: لأحورَ ذي جمالٍ يوسفيٍّ.

7- في ت والنفح والجذوة: تسألْ.

8- القريّ: مسيل الماء من الربوة إلى الروضة، وهو مَثَل، كما في الميداني: 1/159، والرواية فيه جرى الوادي فطمَّ على القريِّ .

بُدورٌ بَلْ شُمُوسٌ بَلْ صَبَاحٌ … بَهِيٌّ فـي بَهِـيٍّ فـي بَهِيٍّ[١]
أَتَحْـنَ مَصَارِعَ العُشَّاقِ لمَّا … سَعَيْنَ بِهِ فكَمْ مَيْتٍ وحَيِّ[٢]
بقامَةِ كلِّ أَسْمَرَ سَمْهَرِيٍّ … وَمُقْلَةِ كُلِّ أَبْيَضَ مَشْرَفِيِّ[٣]
[١٩/ب] إذا أَنْسَوْنِيَ الوُلْدانَ حُسْناً … أَنَسِّيهِم هَوَى غَيْلانَ مَيِّ[٤]
فَها أنا قَدْ تَخِذْتُ الغَرْبَ داراً … وأُدْعَى اليَومَ بالمَرَّاكُشِيِّ
على أنَّ اشْتِياقِي نَحْوَ زَيْدٍ … كَشَوْقِي نَحْوَ عَمْرٍو بالسَّوِيِّ[٥]
تَقَسَّمَنِي الهَوى شَرْقاً وَغَرْباً … فَيَا لَلمَشْرِقيِّ المغربيِّ[٦]
فَلِي قَلْبٌ بأرضِ الشَّرْقِ عَانٍ … وَجِسْمٌ حَلَّ بالغربِ القَصِيِّ[٧]
فهذا بالغُدُوِّ يَهيمُ غَرْباً … وذاكَ يَهيمُ شَرْقاً بالعَشِيِّ
ولولا اللهُ مِتُّ هَوىً ووجداً … وكَمْ للهِ مِنْ لُطفٍ خَفِيِّ[٨]

قلت : قال أهل اللغة[٩]: الغُنْجُ والغُنُجُ: الدَّلُّ وحسن الشَّكل؛ فقوله:

لقد رمت العيونُ سهام غُنْجٍ … ....

١- في جذوة الاقتباس: بل ظباءٌ.
٢- في النفح: أبحن.
٣- السمهريّ: الرمح الصلّيب العود.
٤- المقصود بغيلان : ذو الرمة الشاعر المشهور. ولعلّه أراد بالولدان الذين وصفهم الله تعالى في قوله: ﴿يطوف عليهم ولدان مخلّدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثورا﴾. الإنسان: ١٩.
والرواية في درة الحجال: إذا أنسيتني حسناً فإنّي...
٥- في الأصل: كشوقك وهو تحريف.
٦- في درّة الحجال: تقاسمني.
٧- العاني: الأسير.
٨- في نفح الطيب: فلولا. وفي النفح والجذوة: هوىً وشوقاً.
٩- انظر في اللسان: غنج.

غيرُ مُلائم، وقائله لايسلم مِن لائم، ولا يحسن في الأدب خِطابُ ذوي الرّتب بمثل قوله:

فحسبُكَ نارُ قلبي من سعيرِ ....

وإذا نُعي على أبي الطَّيِّبِ قوله:(١) [الطويل]

كَفَى بِكَ دَاءً أنْ تَرَى المَوْتَ شَافيا ....

وقوله:(٢) [الطويل]

إِذَا مَالَبِسْتَ الدَّهْرَ مُسْتَمْتِعاً بِهِ تَخَرَّقْتَ وَالمَلْبُوسُ لَمْ يَتَخَرَّقِ

وقد علم أنَّ المُخاطَبَ بذلك غيرُ الممدوح، فما الظَّنُّ بهذا وقبلهُ(٣)

أما وبِحقِّكَ المُبدي جلالاً .... البيتين؟

وقوله:

.... بوسنانِ المحاجرِ لَوْذَعِيٍّ

موضوعٌ في غير موضعه، فإنَّ الوَسَنَ إنَّما يُوصَفُ به الجفنُ والعينُ والطَّرف وماجرى مجراه، كما قال عَديّ بن الرِّقاع (٤): [الكامل]

١- صدر بيت للمتنبيّ، وعجزه:«وحَسْبُ المنايا أن يَكُنّ أمانيا» ديوانه: ٤/٢٨١.

٢- ديوان المتنبيّ: ٢/٣٠٧.

٣- في بقية النسخ: وقوله.

٤- هو عَديّ بن زيد بن مالك بن عديّ بن الرِّقاع، من عاملة: شاعر كبير من أهالي دمشق توفي سنة ٩٥هـ، ترجمته في الأغاني ٩/٣٠٧. والبيت من قصيدة في ديوانه ١٢٢.

وَسْنَانُ أَقْصَدَهُ النُّعاسُ فَرَنَّقَتْ   في عينِـهِ سِـنَةٌ وليسَ بنائِـمِ

وأفرطوا حتّى جعلوه مَرَضاً، فقال النَّابغة:[1]   [الكامل]

نَظَرَت إليكَ بحاجـةٍ لَمْ تَقْضِها   نَظَرَ السَّقيمِ إلى وُجُوهِ العُوَّدِ[2]

وتبعه جرير فقال:[3]   [البسيط]

إنَّ العُيونَ التَّي في طَرْفِها مَرَضٌ   قَتَلْنـنـا ثُمَّ لَـمْ يُحيِيـنَ قَتْلانَـا

[٢٠/أ] وأمّا المحاجِر فمَا وَصَفَها أَحَدٌ بالوَسَنِ فيما أعلم.

وترتيبُ اللَّوْذَعيِّ مع وصفِ المحاجِرِ، كترتيب الدَّلِّ مع الشَّنَب[4]، والتَّحاكم في ذلك إلى كثير؛ وقولهُ« معنوي » بعد: مُنْخَنث المعاطف، أبعدُ مِنْ هَذا؛ ولقد استَرَبْتُ به حتّى ظَنَنْتُ أنَّهُ مُصحَّف، ولا أتبرأ فيه من تصحيف. وذِكرُ الانخناث في المعاطف ليسَ بدونِ هذا في القُبح، فإنَّ اللَّفْظَ وإن كانَ له أَصلٌ في اللُّغةِ في اللِّين والتَّثَنِّي، فقد رفعه كثرة[5] الاستعمال في وجه آخر، وإنَّما جرَت عادة الشُّعراء في وصف المعاطف بذكر التَّثنّي واللِّين والانْعِطاف لا[6] بالانخناث.

١- ديوانه: ٣٥.

٢- في الديوان: المريض.

٣- ديوانه: ١٦٣/١

٤- الشَّنب: جمال الثغر وصفاء الأسنان. ويشير العبدريّ هنا إلى قصة الكميت بن زيد عندما أنشد نُصيباً فاستمع له فكان فيما أنشده:

وقد رأينا بها حوراً منعّمةً   بيضاً تكامل فيها الدَّلُّ والشَّنَبُ

فثنى نصيب خنصره فقال له الكميت :ماتصنع؟ قال: أُحصي خطاكَ. تباعدتَ في قولك: تكامل فيها الدّلّ والشّنب هلاّ قلت كما قال ذو الرمة:

لمياءُ في شفتيها حوّةٌ لَعَسٌ   وفي اللّثاثِ وفي أنيابها شنبُ

انظر الأغاني: ٣٤٨/١ حاشية٣.

٥- في ط: كثير

٦- قوله: لا ، ليس في بقية النسخ.

وقوله: « رشا رباطي » لفظ مختل[1] جاف، ماجلبه إلاَّ التّجنيس، وإذا وجد الرِّشاء والرِّباط فما بقي إلاّ الضّرب؛ وأيّ رقّة مع هذه الألفاظ الجافية؟ ولو قال: رشا ارتباطي لكان أقرب مع بعده؛ لأنّه أراد التّماسك والتّثبّت، فالارتباط به أليق.

وقوله: « مَغَارِبُهنّ في قلبِ الشّجيِّ » خارجٌ عن اعتدال الكلام؛ فإنّه أراد بما ذكر من غروبهنّ في القلوب اشتمالَها على حُبِّهنَّ، وليس إذا غرب حبّهنّ في القلوب فقد غربن فيها؛ ولايحسن أن يُقال: « مطالعهنَّ [2] قطرفاس، ومغرب حبّهن قلب الشجيّ »، وإنّما يحسن أن يذكر في غروبهنّ[3] مايغيّبهنّ عن النّواظرِ كالخدور[4] ونحوها، وبذلك جرت عادة الشّعراء، وهو مستعمل كثير، نحو قوله: [الكامل]

قَمَرٌ إِذَا اسْتَخْجَلْتَهُ بِعِتابِهِ ... لبسَ الغُروبَ وَلَمْ يَعُدْ لِطُلُوعِ

ونحو منه قول أبي الطَّيِّب:[5] [الكامل]

بِأَبي الشُّموسُ الجَانِحَاتُ غَوارِبَا ... .

فهذا الرَّجل لم يُخالف مُبْدِعا، ولم يوالف مُتْبِعا.

١- في الأصل: محتمل، وهو تصحيف.
٢- في ط : مطلعهنّ.
٣- زاد في ت : غروبهنّ في القلوب.
٤- في ط: كالخدود.
٥- صدر بيت، عجزه: «اللابسات من الحرير جلاببا» وهو مطلع قصيدة للمتنبيّ في مدح علي بن منصور الحاجب: في ديوانه ١/١٢٢.

وقوله: « بُدورٌ بل شُموسٌ بل صَباحٌ » نزولٌ مفرط، وعكس للرُّتبة؛ فإنَّ الشّمس أشهر من الصَّباح وأَنْوَر، والانتقال عن التّشبيه بالأعلى إلى الأدنى أشبه بالذَّمّ منه [٢٠/ب] بالمدح، ولاسيّما مع الإضراب.

وقوله: « بهيٌّ في بهيٍّ في بهيٍّ» غير منطبق على صدر البيت، ولاملائم له، ولو قال: « بدورٌ في خدور في قصور » لجاءَ عليه عجز البيت أَلْيَقَ مِنْ العقد بجيد الحسناء، وأوفق من الجَوْد(١) للرَّوضة الغنّاء.

وقوله: « إذا أَنْسَوْنِيَ الولدانَ حُسناً » ضعيف ساقط؛ لأنَّ التَّشبيه والتَّمثيل(٢) يجب أن يكونا في كلّ صنعة بما تعارَفَهُ أَهلُها واشتهر عندهم، هذا على تقدير التقّييد في الولدان، فكيف واللّفظ بهم مطلَقٌ(٣)، يدخل تحتَهُ كُلُّ مايُسَمَّى وَلَدا.

وقوله: « فهذا بالغدوّ يهيم غرْباً » كلامٌ غيرُ مُحصّل؛ فإنَّ الجسم العَرِيَّ من القلب لايهيم، وإنَّما يهيم القلب؛ وليست الباء هنا ظرفية بمعنى «في»؛ لأنَّ الهيمان لايتخيَّرُ الأوقات، وما أَضعف حبّاً لايهيج(٤) إلاّ مرّةً في اليوم، وإنَّما هي للإلصاق؛ أي: هذا يشتاق في وقت الغروب إلى الغدوّ، وذلك في وقت الشُّروق إلى العشّي، شوقاً من هذا إلى الشّرق، ومن ذاك إلى الغَرْب؛ وهو معنىً حَسَنٌ لو ساعَدَهُ اللَّفظ.

١- الجَوْد: المطر الغزير.

٢- في ت : التمثيل والتشبيه.

٣- بدا للمصنّف أن لفظ «الولدان» بهم مطلق، غير أنهّ يبدو لي أنّ الشاعر أراد الولدانَ المخلّدين الذين ورد ذكرهم في الآية الكريمة رقم (١٩) من سورة الإنسان.

٤- في ط : يهيم.

[ذكر بونة]

ثمّ وصلنا إلى مدينة بُونَة[1]، فوجدناها بلدة بطوارقِ الغيَرِ مَغبونَة، مبسوطة البسيطِ ولكنَّها بزحف النَّوائب مطويّة مخبونة[2]؛ تلاحظ من كَثَبٍ فُحوصاً[3] ممتدّة، وتُراعي من البحر جَزْرَه ومَدَّه؛ تَغارُ لَها العيونُ من جَوْرِ النَّوائب، وتأسى لها النُّفوسُ مِن الأسهُمِ الصَّوائب. وقد أزعجَ السَّفرُ عن حُلولِها، فلمْ أقْضِ وَطَراً من دُخولها. ومِن أَغرب المسموعات أنّا صادَفْنا - وقتَ المرورِ بها - زُوَيْرقاً[4] للنَّصارى، لاتبلغ عمارتُه عشرينَ شخصاً، وقد حَصَروا البلدَ حتّى قَطعوا عنه الدُّخول والخروجَ، وأسروا مِنَ البَرِّ أشخاصاً فأمسكوهُمْ للفِداء بمرسى البلد، وتركناهم ناظرينَ في فدائهم. ومِن مولانا اللَّطيف الخبير نسألُ اللُّطف بنا في أحكام [٢١/أ] المقادير.

[ذكر خولان]

ثمّ مررنا على قرية خُولان، ولم يعرّج عليها من صَحْبنا إنسانٌ، ولم أرَ بها مايُتَعَرَّضُ له بِبَيَان[5]، ولا يُعْمَل فيه قلمٌ ولا لسان، سوى أنَّ فِناءَها رَحب المسرح، وبسيطها أبسط من غيره وأشرح، ولكنّ أيدي الخطوبِ قد زوَته[6] فانْزَوى، وأظمأتْ أهلَها وهم شُرَّعٌ في الماء الرَّوى.

١- بونة: مدينة جزائرية على ساحل البحر المتوسط، وتُعرَفُ اليوم بعنّابة، تبعد ١٢٠ ميلاً شرق قسنطينة.انظر وصف إفريقيا: ٢/ ٦١.

٢- تورية بمصطلحات العروض «البحر البسيط» و«الزحافات» و«الطيّ» و«الخبن». والطيّ في العروض حذفُ الرابع من مستفعلن ومفعولات. ويكون في البسيط والرجز والمنسرح انظر الوافي للخطيب التبريزي: ٢٠٦ . والخبن: حذف الثاني الساكن انظر الوافي: ٢٠٦ . ومخبونة هنا بمعنى: مقلّصة.

٣- الفَحص: مااستوى من الأرض.

٤- في ت و ط : زورقاً.

٥- في ت : ببنان.

٦- زوى الشيء: جمعه وقبضه.

[ذكر باجه]

ثمّ وصلنا إلى مدينة باجة[١]، وهي مدينة جرّعها الدّهر أُجاجَه[٢]؛ قد هتكتها الأيدي العاديَة؛ وفتكتْ فيها الخطوبُ المتماديِة، حتّى صارت وهي حاضرة بادية؛ فخشوعُها لائحٌ وضراعتُها بادية؛ وقد حُدِّثْتُ بها أنَّ أهلَها لايُفارقونَ السُّور خوفاً من العُربانِ، وأنهُّم يستعدّونَ لدَفْنِ الجنائزِ كما يُسْتَعَدُّ[٣] ليوم الضِّراب والطِّعان. ولم نُقِمْ[٤] بها إلاّ ظلَّ نَهار، فلم أَختبر لذلك حالَها حقيقَةَ الاختبار.

[لقاؤه لأبي علي الطَّبْلِيّ]

وما رأيتُ بها مَن له إلى العِلْم انتماء، أو لهِمّته نحوَ المعارفِ ارتماء[٥]، سوى الأديبِ النَّحْويّ أبي عليّ حسين بن محمّد الطَّبْلي؛ بالطَّاء والباء السَّاكنة بواحدة؛ وهو رجلٌ له مِقْوَلٌ منقاد، وذهن مشتعلٌ وَقّاد، حَسَنُ الخُلُقِ مقبولُ الصّورة، ولكنَّ هّمته فيما رأيتُ على علم العربيّةِ مقصورة، وقد جمع أكثر مؤلّفاتِها، واحتفلَ في تحصيلِ مُصنّفاتِها، فاجتمع له من[٦] ذلك مادلَّ على نُبْله، وأعانَه على تسديد نَبْلِه؛ سألتُه عن نسبته المتقدّمة فقال لي: هو لقبٌ جرى علينا قديماً واشتُهِرْنا به. وقد قرأت عليه بعض كتاب «المُقَرّب»[٧] في

١- باجة: بلد بإفريقية كثيرة القمح، بينها وبين تنس يومان. تبعد ٢٥ ميلاً عن البحر المتوسط و ٦٥ ميلاً عن تونس. انظر وصف إفريقيا: ٦٦/٢ .

٢- الأجاج: الماء الشديد الملوحة.

٣- في ت و ط : يستعدّون.

٤-في ط : أقم.

٥- في ت : ارتقاء.

٦- في ت : في ذلك.

٧- طبع الكتاب في بغداد بتحقيق أحمد عبدالستار الجواري وعبد الله الجبوري.

النَّحو، وحدَّثني بجميعه قراءة على مؤلِّفه الشَّيخ الأستاذ النَّحْوي أبي الحَسَن عليّ بن مؤمن بن محمَّد بن عليّ بن أحمد بن محمَّد بن أحمد بن عمر بن عبد الله بن مَنْظور بن عُصفور الحَضْرَميّ الإشْبيليّ، وقيَّد لي هذا النَّسبَ بخطِّه، وذكرلي أنَّ ابن عُصفور أملاه عليه، وأنَّ مولده عام السَّيْل بإشْبيلية[1] [٢١/ب] سنة سبع وتسعين وخمس مئة، قال: وتوفي بثغر تونِس ـ كلأه الله ـ يوم السَّبت، الرَّابع والعشرين من ذي قعدة عام تسعة وستِّين وستِّ مئة.

وحدَّثني عنه بكتابه الكبير في «شرح الجمل» إجازةً،وحدَّثني به وبغيره من تواليفه إجازةً عنه شيخُنا الفقيه المحصِّل الرَّاوية أبوزيد عبد الرَّحمن بن محمَّد الأُسَيْديّ[2] بالقَيْرَوان[3] وأفادني أبو عليّ المذكورُ حكايةً عن أبي محمَّد الحَريريّ لم يذكر لها سنداً، وهي أنَّ رجلاً طلب منه إعارة كتاب كان يمسكه كثيراً للمطالَعة فأنشده ارتجالاً[4]: [الطويل]

١- إشبيلية: مدينة كبيرة بالأندلس، تسمّى حمص أيضاً، وبينها وبين قرطبة ثمانون ميلاً، وبها كان بنو عباد. انظر الروض المعطار: ٥٨ .

٢-عبدالرحمن بن محمد بن علي الأنصاري من ولد أسيد بن حضير:مؤرخ، باحث، فقيه، من أهالي القيروان، له نظم جيِّد، ولد سنة ٦٠٥هـ وتوفي سنة ٦٩٩هـ ، أشهر تصانيفه: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان. ترجمته في معالم الإيمان: ٨٩/٤ - شجرة النور الزكية: ١٩٣/١، وفيها عبدالرحمن بن عبدالسلام الأسيدي .

٣- القيروان: مدينة عظيمة بإفريقية بناها عقبة بن نافع الفهري سنة ٥١هـ . انظر ذكر بناء القيروان في معالم الإيمان: ٥/١-٣٠، والبيان المُغرب: ١٩/١-٢٠، وانظر كتاب القيروان للدكتور منجي الكعبي..

٤- البيتان في محاضرات الأدباء: ٥٥/١، وطبقات الشافعية للسبكي:٣١/٣ وفيها منسوبان لأبي العباس بن سريج ومعهما بيت ثالث هو:

جموعٌ لأصناف العلوم بأسرها فأخلق به ألاّ يُفارِقَـهُ كُمّـي

سَميرُ فُؤادي مُنْذُ عِشْــرينَ حِجّةً وَصَيْقَلُ ذهْني والمُفَرِّجُ مِنْ هَمِّي[1]
قبيــحٌ عَلَــى مِثْلِــي إعــارَةُ مِثْلِهِ وآيتُــــهُ ألاّ يُــفــارِقَهُ كُمِّــي[2]

وقد ذكّرتني هذه الحكاية حكايةً أخرى عن الحَريريّ حكاها لي الفقيه القاضي الحاجّ أبو أميّة الدّلائي[3] - رحمه الله - رأيتُ تقييدَها بهذا الموضع، و«الحديثُ شُجون»[4]، وهي أنّ رجلاً رحل إليه ليقرأ عليه، فلمّا جاءه سأله عن قصده، فأخبره، فقال مرتجلاً[5]: [البسيط]

مَا أنْـتَ أوّلُ سَــــارٍ غَـرّهُ قَـمَـرٌ وَرَائدٌ خَدَعَتْــهُ خُضْـرَةُ الدِّمَــنِ[6]
فَارْكُضْ برِجْلِكَ مصراً إنَّني رَجُــلٌ شِبْهُ المعيديّ فاسْمَع بي ولاتَرَنــي[7]

١- في الطبقات والمحاضرات: لصيق فؤادي.. وصَيْقل من الصِّقال: الجلاء والصقل.

٢- في الطبقات: عزيز على مثلي، وفي المحاضرات: يعز على مثلي، ورواية الشطر الثاني في الطبقات: لما فيه من علم لطيف ومن نظم.

٣- أبو أمية الدلائي: فقيه، قاض، تولّى قضاء فاس ليعقوب بن عبدالحق المريني، له ذكر في روض القرطاس ٢٩٨، وجذوة الاقتباس: ٥٥٧/٢، ونسبته إلى دلاية بالأندلس.

٤- المثل في أمثال الضبيّ: ٤٧، وفيه: إنّ الحديث لذو شجون، وفي فصل المقال: ٦٧- والميداني ١٣٣/١- والفاخر: ٤٧ ، وجمهرة الأمثال: ٣٧٧/١- والوسيط: ٣٧ .

٥- البيتان في وفيات الأعيان: ٦٦/٤-٦٧- غربال الزمان: ٤٠٩- معاهد التنصيص: ٢٧٥/٣- تاريخ ابن الوردي: ٤٧/٢- مرآة الجنان: ٢١٦/٣- البداية والنهاية: ١٩٢/١٢ وتمثال الأمثال: ٣٩٥/١.

٦- في المصادر السابقة:«ورائد أعجبته». الدِّمَنُ: البَعَرُ، وكذلك ما اختلط من البعر والطين عند الحوض فتلبّد؛ وفيه إشارة إلى الحديث المعروف.

٧- في المصادر السابقة:«فاختر لنفسك غيري إنّني رجل مثل المعيدي...» وهذه إشارة للمثل: أن تسمعَ بالمعيديّ خير من أن تراه، وسَيردُ في الصفحة التالية مُخَرّجاً ومُصِرَ الفَرَسُ: استُخرجَ جَرْيُهُ.

قلت: خفّف[1] الدّال من المُعيديّ، وهو الأشهرُ، والأصل فيه التّثقيلُ، وإنّما خُفِّفَت لكثرةِ الاستعمالِ، قال أبوعُبيد: « وكان الكِسائيّ[2] يرى التّشديد في الدّال »[3] وقال: إنّما هو تصغيرُ رَجُلٍ منسوبٍ إلى مَعدّ، ولم أسمعْ هذا من غيره، والمثل « أنْ تَسمعَ بالمُعَيديِّ خَيْرٌ من أن تَراهُ »[4]، قال أبوعبيد: «العامّة لاتذكر أنْ »[5] ثمّ ذَكَرَ الاختلافَ فيمنْ قالَهُ وفيمن قيلَ فيهِ.

[ذكر تونس]

ثمّ وصلنا إلى مدينة تُونِس[6] مطمحُ الآمالِ ومَصابُ كلّ برق، ومحطّ الرّحال من الغرب والشّرق، ملتقى الرّكاب والفُلْك، وناظمة فضائل البرّيْنِ في سِلك، فإنْ شئت أصحرتَ في موكِب، وإن شئت [٢٢/أ] أبحرتَ في مَرْكِب، كأنّها مَلِكٌ والأرباضُ لها إكليل، وأرجاؤها رَوْضةٌ باكَرْتها ريحٌ بَليل[7]؛ إن وردتَ مواردَها نَقَعْتَ غليلا، وإن ردت فرائدَها شَفيتَ حَشاً عليلا؛ جُليت بها

١- في ت و ط : خفّفت .

٢- هو علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي: إمام في اللّغة والنحو والقراءة، توفّي بالرّيّ سنة ١٨٩هـ له تصانيف، منها: معاني القرآن ـ الحروف ـ النوادر . انظر الأعلام: ٢٨٣/٤.

٣- أمثال أبي عبيد: ٩٧.

٤- ورد المثل في: أمثال أبي عبيد: ٩٧، والمستقصى ٣٧٠/١، وفصل المقال: ١٣٥. ويروى: تسمعَ .... ويُستشهَدُ به على حَذف (أن) مع بقاء عملها شذوذاً، وهذ رواية المفضل الضّبّيّ: ٥٥، والفاخر: ٦٠، وجمهرة الأمثال: ٢٦٦/١ وفيه: ... لا أن تراه، وتمثال الأمثال: ٣٩٥/١، والميداني: ١٢٩/١ ويُضرب لمن خبره خير من مَرآه

٥- أمثال أبي عبيد: ٩٧.

٦- تونس: مدينة كبيرة بإفريقية على ساحل البحر، وهي عاصمة تونس اليوم ، انظر وصف إفريقيا ٧٠/٢.

٧- البليل: ريح باردة مع ندى، ولا تُجمَع.

عُروس الغروس، وحليت[1] بها على ممرّ الحُروس[2] الطُّروس[3]؛ لاتنشد بها ضالّةٌ من العلم إلاّ وجدتَها، ولاتلتمسُ بها بغيةٌ معوزةٌ إلاّ استفدتَها؛ وأهلُها مابين عالمٍ كالعَلَم، رافعٍ بينَ أهلِه للعلْمِ ومُعَطّلٍ حدَّ الظُّبا بحدِّ القَلَم، ومسلّمٍ على ربعٍ بذي سلَم، شاكٍ مِنْ وَجدهِ فَرْطَ الأَلَم؛ فاقت بحُسنِ مغانيها وإتقانِ مبانيها[4] غيرَها من المدنِ وطالتْ، وسطَت بنخوتها،وانتخت بسطوتِها على قواعدِ الشّرق والغرب وصالتْ، وترجَمَ حُسنُها البهيجُ وعَرْفُها[5] الأريجُ عن مَعناها، ولو نطقت لقالت: [الطويل]

أنَا الغادةُ الحَسْناءُ فَاقَ جمالُها فَآلَتْ: يَميناً لاخُطِبْتُ على زَوْجِ[6]
إذا الغانياتُ ارْتَدْنَ وَصْلَ بُعُولَةٍ فَمابي-ولافخرٌ-إلى الزَّوْجِ مِن حَوْجِ[7]
أُغادِي إذَا ماشِئتُ ظَبْياً بِقَفْرَةٍ وأطرُقُ نُونَ اليَمِّ في ظُلَمِ المَوْجِ[8]
وَفِيٌّ لِمَكْدودِ الحَجيجِ اسْتِراحَةٌ فَهُمْ يَرِدُونِي الدَّهْرَ فَوْجاً على فَوْجِ
وإنِّيَ إلى البَيْتِ العتيقِ كَسُلَّمٍ بِهِ يَرْتَقِي مَنْ في الحَضيضِ إلى الأوْجِ[9]

١- في ط: حلت.
٢- الحُرْس: الدّهر.
٣- الطِّرْس: الصّحيفة التي مُحِيَت ثُمّ كُتِبَتْ.
٤- في ط: فاقت بحسن معانيها واتقان مغانيها.
٥- العَرْفُ: الرائحة الطيبة.
٦- في ط: فقالت يميناً ... وآلت: أقسمت.
٧- في ت: فما لي.
٨- في ت: نوء. والنون: الحوت.
٩- في ت: على البيت العتيق.

وهذه المدينة - كلأها الله - من المدن العجيبة الغريبةِ، وهي في غاية الاتّساعِ ونهاية الإتقان، والرُّخامُ بها كثير [1]، وأكثر أبوابِ ديارِها معمولٌ به عضائدَ وعُتُباً، وجُلّ مبانيها في حجر منحوتٍ مُحْكَمُ العَمَل، ولها أبوابٌ عديدة، وعندَ كلِّ بابٍ منها رَبَضٌ[2] مُتّسعٌ على قدر البلد المستقلّ، ولواتّفق أن يكونَ بها ماءٌ جارٍ لكانت معدومةَ النَّظيرِ شرقاً وغرباً، ولكنْ ماؤها قليلٌ؛ وفي ديارها مصانعُ لماءِ المطرِ، وهو المستعملُ عندَهُمْ.

وأمّا السَّاقيةُ المجلوبةُ من ناحيةِ زَغوانَ [3] [٢٢/ب] فقد استأثرَ بها قصرُ السُّلطانِ [4] وجِنانُه إلاّ رَشْحاً يسيراً سُرِّبَ إلى ساقية [5] جامعِ الزَّيتونة، يتسرّبُ [6] منها في أنابيبَ من رصاصٍ، ويَستقي منها الغُرباءُ ومَن ليس في دارِهِ ماءٌ، ويكثُرُ عليها الازدحامُ [7].

[جامع الزَّيتونة]

وهذا الجامع من أحسنِ الجوامعِ وأتقنِها وأكثرِها إشراقاً، ودائرُهُ مُسَقّفٌ ووسطُهُ فضاءٌ قد نُصبَتْ فيه أعمدةٌ من خَشَبٍ على قَدَرِ ارتفاعِ

١- في ت و ط: كثير بها.

٢- رَبَض المدينة: ما حولها.

٣- زغوان: جبل بالقرب من تونس في الجانب القبلي منها، ياقوت: ٣/١٤٤ وهي اليوم بلدة قرب مدينة تونس.

٤- المقصود بالسّلطان: أبو حفص عمر بن أبي زكريا الحفصي الذي حكم تونس بين سنتي٦٨٣و٦٩٤هـ.

٥- في ت: سقاية.

٦- في ت و ط : يترشف.

٧- في ط : الزّحام.

الجُدُر، وشُدَّت إليها حبالٌ متينةٌ في حلَقٍ من حديد مُثبتة فيها وفي السُّقوف شداً مُحْكَماً، فإذا كان يوم الجمعة نُشِرَت عليها شُقَق [1] الكَتَّان المطبّقة الموصولة حتّى تُظَلِّلَ جميعَ الفضاءِ؛ ذلك دأبُهم فيها حتّى ينصرمَ [2] فصلُ الصّيفِ.

وأمّا السّاقيةُ المذكورةُ فهي من جُملةِ غرائبِ الدُّنيا، وهي قديمةٌ من عَمَلِ الرّومِ، مجلوبةٌ من جبالٍ بجنوبي [3] تونِسَ، على مَسيرةِ يومينِ أونحوِها في أَوْعارٍ وأوديةٍ منقطعةٍ وجبالٍ وآكامٍ [4]، فإذا انتهوا بها إلى جَبَلٍ أو تلٍّ خَرَقوه وسربوا الماء فيه، وإذا انتهوا إلى وادٍ أو وَهْدٍ بَنَوْه قناطر بعضها فوق بعض، حتّى يستوي مع مجرى السّاقية بصخر منحوت أتقن ما يكون من البناء،وأغربه وأوثقه،حتّى ينسرب[5] الماء منها في مُسْتَوٍ معتدل، واتّصلت هذه السّاقيةُ بهذا العمل، حتّى دارتْ من وراءِ تُونِس إلى الغرب وانتهتْ إلى قَرْطاجَنّة[6]، وبينَها وبينَ تُونس اثنا عَشَرَ ميلاً، وهي من أعجبِ مُدنِ الأرضِ وأغربِها؛ لما[7] يحكى عنها في فَرط الاعتناءِ وغرابةِ الصَّنْعَةِ، وحسبُك أنَّ هذه السّاقيةَ من جُملةِ الاعتناءِ بها.

وأمَّا الرُّخام فمنها يُجلَب إلى كلّ موضع بإفريقيَةَ قَديماً وحَديثاً، ولايفنيه ذلك منها، وهي الآن داثرةٌ لاأنيسَ بها؛ وأهل تُونِسَ يخرجون إليها

١- الشُّقَّة: قطعة من الثياب مستطيلة أو نصف ثوب.

٢- في ت و ط : ينصرف.

٣- في ت و ط: بجنوب.

٤- الآكام: جمع أكمة: التلّ من القُفّ، وهو حجر واحد.

٥- في ط: يتسرّب.

٦- قرطاجنة: مدينة بإفريقية بينها وبين تونس عشرة أميال أو نحوها. انظر ياقوت: ٣٢٣/٤.

٧- في ط: فيما.

تفرّجاً وتعبُّداً، والقناطرُ من تُونِسَ إليها مُعطّلة، وهذه القنطرةُ تُعرف عندهم بالحَنايا(1)، وهو ممّا يقصرّ(2) عنها الوَصف(2) لفرط إتقانِها وغرابتِها؛ ويُذكر أنَّ الرّومَ أقاموا في تدبيرِها والنَّظرِ في وَضْعِها أربع مئة سنة [23/أ] وهذا بعيد.

وأمّا أبوعُبَيد البَكريّ فحكى « أنّ عملها فرغ حتّى استوى فيها الماء في أربعين سنةٍ »(3) وهذا يُشْبِهُ مَعَ الاعتناء التّامّ،والأداة الكاملة،والقُوَّة الوافرة. وقد كان بعض الأمراء - وهو أخو القائمْ بها الآن - احتاج إلى إصلاحِ بعض الحنايا بها ممّا يلي تُونِس ليوصلِ الماء إليها - إذ كانت معطّلة قبلَهُ - فأقام في عَمَلِها مُجتهداً بأقصى مايمكنه أعواماً عديدة، ولمْ يمكنْهُ ردّ ذلك على ماكانَ عليه، ولا مايقربُ منه، بل اقتنع بتسديده كيف ماأمكن مع قلّتهِ وتفاهتهِ بالإضافةِ إلى غيره.

ومازالت مدينة تُونِس - كلأها الله - دارَ مُلْكٍ وضخامةٍ، وهي الآن دار مملكة إفريقية على ضَعْفِ المملكة بها، وانتهائِها إلى حدِّ التَّلاشي، ومع ذلك فقد أربَتْ على البلادِ في كلِّ فضيلةٍ، وما رأيت لأهلِها نظيراً شرقاً وغَرْباً، شيماً فاضلة، وخِلالاً حميدة، (4)ومعاشرة جميلة(4)، وقد كان الأخلقُ بمن شاهَد أخلاقَهم أن يُطنِبَ في وَصفِهم، ويُضْربَ عَمَّن لم يمحضْهُم الودادَ

1- الحنايا: جمع حنيّة، وهي القوس.

(2-2) في ط: الوصف عنه.

3- المغرب في وصف إفريقية والمَغرب: 42.

(4-4) سقط من ت.

وينصفهم [1]؛ إذ ذاكَ من بعضِ واجِبِهِم، وأقلِّ مراتبهم،ولكنّ الزَّمان لايُعين على توفيةِ الحقوقِ، ولايتعمّد بالفراغِ إلاّ أهلَ العقوقِ، وناهيك من بلدٍ [2] لايستوحشُ به غَريب، ولايُعدمُ فيه كلُّ فاضلٍ أديب؛ يبدَؤون مَنْ طَرَأَ عليهم بالمداخلة، ويخطبونَ منْهُ لفضلِ طباعهم المواصلَة، فهو منهم بين أهلٍ مُشْفق، ورفيقٍ مُرْفق؛ وقد كان بعضُ أخيارِ طَلَبَتها وحسبائهم [3] لازَمَني مدّةَ الإقامة بها وتَرَكَ لأجْلي مُهمَّاتِ أُموره، وعرّفَني بِفُضلائها، وكان لاينفَصلُ عنّي عامَّةَ النَّهار، وكثيراً ماكنتُ أمرُّ بمَنْ لايعرفُني مِن أهلِها، فأسأله عن الطَّريقِ إلى ناحيةٍ منها، فيقومُ من حانوته ماشياً بين يديَّ يسألُ الناسَ عن الطَّريق، ويدلُّ بي، وهذا من أغرب مايسمع من جميل الأخلاق ﴿وَذَلك فَضْلُ اللَّه يُؤْتِيه مَنْ يَشَاءُ﴾[4]. ولولا أنّي دخلتُها لَحَكَمْتُ بأنَّ العِلْمَ في أُفُقِ الغَرْبِ قد [٢٣/ب] مُحِيَ رَسْمُه،(٥ ونُسيَ اسمُه ٥)، وضاع حظُّهُ وقسمُه، ولكنْ قَضى الله بأنّ الأرضَ لاتخلو من قائمٍ له بِحُجَّة، يرى سبيل الحقّ ويُوضح المَحَجَّه [6]، ومامِن فنٍّ من فنون العلمِ إلاّ وجدتَ بتونِسَ به قائماً، ولا موردٍ من مواردِ المعارفِ إلاّ رأيتَ بها حوْلَهُ وارداً وحائماً [7].

١- في ط: يصفهم.

٢- في ت و ط: ببلد.

٣- في ت: وحسبانهم.

٤- من الآية ٥٧ من سورة الحديد.

(٥-٥) - سقط من ت وط.

٦- المحَجَّة: الطريق المستقيم.

٧- في ط: وقائماً، وهو تصحيف. وحَوَمَانُ الطائر: دورانه حول الماء.

وبها من أهل الرّواية والدِّراية عَدَدٌ وافر، يجلو الفخارُ بهم عن مُحياً سافر، وينير عِلْمُهُمْ وقد: [الكامل]

---- --- ---- ----- أَلْقَتْ ذُكاءُ يَمِيْنَهَا في كَافِرِ[١]

ولكنَّهُ لم يُقْضَ لي حين ورودها أن أقضيَ الوَطَرَ مِن لقاءِ جميع مذكورها ومعدودها[٢]،بسبب وظائف السَّفر ولوازمِه، واقتصار مُغْرَبِهِ على أعمال جوَازمِه.

[لقاؤه لابن هارون]

وكان حكمُ السَّفر حينئذٍ قد استمرّ وتمادى، فلم ألقَ بها من أهل العلم إلاّ آحادا، منهم الشّيخ الفقيه الأديب[٣] الفاضل المسند المسنّ أبو محمّد عبدالله بن محمّد بن هارون الطّائي القُرْطُبيّ[٤]، وهو شيخ وطيء الأكناف، ليّنُ الجانبِ لقاصديه، له روايةٌ عاليةٌ لِكِبَر سنِّه، أدرك جملةً من أفاضلِ العلماء وروى عنهم، منهم الشّيخ الفقيه الخطيب المقرىء جَدُّهُ لأمّه[٥] أبو

١- عجز بيت لثعلبة بن صعير المازني يصف الظليم والنعامة ورواحهما إلى بيضهما عند غروب الشمس، وصدره: «فَتَذَكَّرا ثَقَلاً رثيداً بعدَمَا .....». وذُكاء: اسم للشمس. و«ألقت يمينها في كافر»: بدأت في المغيب. والبيت في المفضليّات: ١٣٠، والأمالي: ٢/١٤٥، ونضرة الإغريض: ١٣٦، واللسان «ثقل» و«كفر»، والتاج «رثد».

٢- في ت: ومحدودها.

٣- في ت: الأديب الفقيه.

٤- توفي أبو محمد بن هارون سنة ٧٠٢هـ، انظر برنامج الوادي آشي: ٥١-٥٢ .

٥- في الأصل: الإمام.

جعفر أحمد بن محمّد بن إبراهيم بن خلصة الحِمْيَريّ، والقاضي أبو القاسم أحمد بن يَزيد بن بقيّ[1]، وَصَحِبَ أبا القاسم ابن الطَّيْلسان[2]، وأخذ عنه كثيراً، وأخذ عن جماعة من أهلِ الأندلس بها وبالعُدْوةِ، وقد جَمَعَ أسماءَهم في «برنامجٍ» له،قرأته عليه حين لقيتهُ ثانية حسبما يأتي ذِكرهُ إن شاء الله تعالى. لقيتهُ حين وردت تونسَ فقرأت عليه بعض«الموطّأ»رواية يحيى بن يحيى، وناولني سائره، وحدّثني به عن الشَّيخ الفقيه القاضي أبي القاسم بن بقيّ قراءةً عليه لبعضه، وسماعاً عليه[3] لسائرِه بأسانيدِه المعروفة. وقرأت عليه بعض كتاب «التَّيسير» للإمام أبي عَمرو المُقرىء، وناولني سائِرَهُ؛ وسمعتُ عليه دُولاً من «صحيح مسلم » وقد سمع جميعَه [4] على القاضي أبي القاسم بن بَقيّ، وناولني « فهرستَهُ »[٢٤/أ] وفهرستَيْ جَدِّه أبي جعفر والقاضي أبي القاسم بن بقيّ تخريج ابن الطَّيْلسان، وحدّثني بهما وبما تَضَمَنَّتاه عنهما، وأجازَني في كلِّ ماتَصِحُّ روايتُه عنه إجازةً عامّة، وكذلك أجاز ولدي مُحمّداً – وفّقه الله – وكتب لي بذلك خطَّ يَدِهِ.

١- أحمد بن يزيد بن بقي: عالم، قاض، كاتب، شاعر، من أهل قرطبة، جمع شعره في ديوان، توفي بقرطبة سنة ٦٢٥هـ وله كتاب في الآيات المتشابهات. له ترجمة في قضاة الأندلس: ١١٧، وبرنامج شيوخ الرعيني: ٥٠، وشجرة النور الزكية ١٧٨/١.

٢- هو القاسم بن محمد بن أحمد الأوسي القرطبي: عالم بالقراءات، باحث من أهل قرطبة، رحل عنها لمّا أخذها الإفرنج وأقام بمالقة خطيباً حتى توفي فيها سنة ٦٤٢هـ، ومولده سنة ٥٧٥هـ، من كتبه: الجواهر المفصلات في المسلسلات، وأخبار صلحاء الأندلس، ترجمته في بغية الوعاة ٢٦١/٢ ـ برنامج شيوخ الرُّعيني: ٢٧ ـ شجرة النور الزكية: ١٨٢/١.

٣- ليست في ت.

٤- في ت: سمعه.

ولقيتُهُ مرّةً ثانيةً في رُجوعي من المشرقِ فقرأت عليه أشياءَ يأتي ذكرُها في موضعهِ إن شاءَ الله من هذه الرّحلة.

[لقاؤه لأبي جعفر اللّبْليّ]

ومنهم الشّيخُ الأستاذُ النّحْويُّ الأديبُ الفاضلُ المحدّثُ الرّاويةُ أبوجعفر أحمد بن يوسف الفِهْريّ اللّبْليّ[١]، وهو شيخ مُسنٌّ قويُّ الرّجاءِ، حَسَنُ الظَنّ بأهل الدِّين، سَريعُ العَبْرَةِ؛ رحلَ قديماً إلى المشرقِ فحجَّ، ولقي جماعةً من الأئمّة بالإسكندريّة ومصرَ والشّامِ والحجازِ؛ وله « برنامجان » كبيرٌ وصغيرٌ[٢] في أسماءِ شيوخه، وعدّةُ تواليفَ، منها « شرحُ الفصيح » و «شرحُ أبياتِ الجُمل » وغير ذلك. لقيتُهُ وجالستُه أيّاماً فقرأت عليه جُملةً صالحةً من أوّلِ كتاب « الموطّأ » رواية يَحيى بن يحيى، وجميعَ كتابِ «الجامع» من آخِرِهِ، وناولني سائرَهُ مِراراً، وحدّثني بجميعِهِ بأسانيدهِ المرسومةِ في برنامَجِه، وقرأتُ عليه جُملة من قصيدة الشّيخ الإمام أبي القاسم الشّاطبيّ[٣] في القراءات، وحدّثني بها عن صِهْرِ أبي القاسم المذكور زوجِ ابنته كمال الدّين

١- توفي بتونس سنة ٦٩١هـ. انظر الديباج المذهب: ٨٠-٨١- عنوان الدراية: ٣٠٠.

٢- في ت: صغير وكبير.

٣- هو القاسم بن فيرّة بن خلف بن أحمد الرّعيني الشّاطبي: إمام القراءة في عصره، كان ضريراً، ولد بشاطبة سنة ٥٣٨هـ وقرأ ببلده وببلنسية، ثمّ رحل للحجّ فسمع من أبي طاهر السلَفي بالإسكندرية، وزار القدس بعد فتحها على يد صلاح الدين الأيوبي، ثمّ رجع إلى القاهرة فأقام بالمدرسة الفاضلية إلى أن مات سنة ٥٩٠هـ. له الشاطبية، ترجمته في نكت الهميان ٢٢٨-٢٢٩، وشذرات الذهب: ٣٠١/٤-٣٠٣، ووفيات ابن قنفذ: ٢٩٦ وفيها وفاته سنة ٥٨٩ هـ، والديباج المذهب: ٢٢٤.

أبي الحسن عليّ بن شُجاع بن سالم[1] قراءةً منه عليه بمصرَ عن ناظمِها المذكورِ، وسمعت عليه مجالسَ من كتابِ « التَّيسير » للإمام أبي عَمرو المُقرِىء، ومن كتاب «الشَّمائل» للتِّرمذي، وقرأت عليه بعضَهُ، وناولني إيّاهما وأجازني عموماً [2] في كلّ ماروَاه وألَّفهُ وكلٍّ ماتَصحِّ لي[3] روايتُه عنه من منثورٍ ومنظومٍ إجازةً عَامَّةً، وأجاز ولدي مُحمّداً - وفّقه الله - وكتب لي بذلك خَطَّ يدِهِ حسبما سطّرتُهُ؛ وسمعتُ عليه أرجوزتَه المسمّاة بـ« العقيدة » وماضمّ إليها من نثر، وكان قد أخذ يحفّظُها صبيانَ المكاتبِ [4] رغبة في نشرِها (٥والانتفاعِ بها٥) ، وحملني حتّى سمعتُها منهم [٢٤/ب] بمحضَرِهِ، وحَرَّضَني على نشرِها رجاءَ الانتفاعِ بذلك؛ نفعَهُ الله وإيايّ، وأخلصَ نيّتنا في طَلَبِ العِلْمِ لوجهِهِ الكريمِ بِمَنِّهِ.

[لقاؤه لابن هريرة]

ومنهم الفقيهُ الأديبُ الفاضلُ نوالعناية والتَهمُّمِ صاحبُنا ووليُّنا في الله أبو عبد الله محمّد بن عبدالمُعْطي بن محمّد النَّفزيّ، شُهر بابن هُريرة -حفظه الله- لقيتُ منه خَيِّراً فاضلاً ذا مروءَةٍ وأخلاقٍ جميلةً، وله عنايةٌ

١- علي بن شجاع بن سالم: مقرئ شافعيّ ضرير، روى بالإجازة العامة عن السلفي، وكان مشاركاً في فنون العلم، قرأ عليه جماعةمن العلماء كالدمياطي، توفي سنة ٦٦١هـ . ترجمته في العبر ٥/٢٦٦ نكت الهميان: ٢١٢، حسن المحاضرة ١/٥٠١ .

٢- ليست في ت و ط .

٣- ليست في ت و ط .

٤- في ط: المكتب.

(٥-٥) في ت وط: رجاء الانتفاع بها.

بالتَّاريخِ وحظٌّ من الأدب، ومشاركةٌ في غيرِ فَنٍّ، أفادَنا وأفَدْناه، وجالستُه كثيراً، وناولني كتابَهُ الَّذي جمعه في « وفيات المشاهير من أهل كلّ فنٍّ وموالدهم ونُتَفٍ من أخبارهم » وأسمعني مواضعَ منه، وأجازني سائرَه، وهو كتاب مفيد لولا أنّه لم يُرَتَّب على ماينبغي، وقرأتُ عليه قصيدةَ الشّيخ الفقيه[1] العالم الصّالح [2]أبي محمّد عبد الله بن الشّيخ الفقيه الصّالح[2]. أبي زكرياء يحيى بن عليّ الشّقراطِسيّ التَّوزَريّ، وحدّثني بها عن شيخِهِ الفقيهِ القاضي[3] أبي عبدالله محمّد بن علي[4] بن محمّد بن علي[4] التّوزريّ الشّهير بالمصريّ، قراءةً منه عليهِ، عن الشّيخِ الفقيه أبي عبد الله محمّد بن أبي يحيى الطُّولَقي[5]، عن الشّيخِ الفقيهِ القاضي أبي عمرو عثمان بن أبي القاسم عبد الرّحمن بن حَجّاج، عن الشّيخ أبي محمّد عبدالعزيز[6] بن عمر بن حَمَادي بفتح الحاء وتخفيف الميم وآخره ياء قبلها دال مكسورة، عن الفقيه الخطيب المحدّث أبي القاسم عبدالرّحمن بن محمّد[7] بن أحمد النَّفْطِيِّ عُرِف بابن الإمام وبابن الصّائغ، عن الشّيخ الإمام أبي عبد الله محمّد بن يَخْلُف بن واطّاس بطاء مشدّدة، عن ناظمها المذكور؛ وذكر لي عن شيخه أبي عبد الله

١- ليست في ت وط.

(٢-٢) سقط من بقية النسخ، وهذا يوقع في اللبس؛ لأنّ ناظم القصيدة الشقراطسية هو أبو محمد عبد الله بن يحيى بن علي الشقراطسي انظر: وفيات ابن قنفذ: ٢٥٣- شجرة النور الزكية: ١/١١٧ .

٣- في ط: المقرئ.

(٤-٤) سقط من ت و ط .

٥- نسبة إلى طَوْلَقة بالقرب من الزاب.

٦- في ط: عبد الله .

٧- في ط: محمد بن محمد،

المصري المذكور أنَّ شَقراطس قصر قديم من قصور قَفصَةَ[1]، وأنّه والى البحث عن وفاة الشُّقراطِسيّ حتّى أخبره مَنْ وثق به [2] أنّها كانت في يوم الثّلاثاء لثمان خلون من ربيع الأوّل سنة ستّ وستّين وأربع مئة. [٢٥/أ] وقد رأيت أن أُثبت القصيدة هنا [3] بجملتها بحول الله تعالى، وهي هذه :[4]

[البسيط]

[القصيدة الشُّقراطسيَّة]

الحَمْدُ للهِ منّا باعثِ الرُّسُـلِ هـدى بأحمدَ منّاً أحمدَ السُّبُلِ[5]
خَيْرِ البَريّةِ مِنْ بَدْوٍ ومـن حَضَرٍ وَأكرمِ الخلْقِ مِنْ حَافٍ وَمُنْتَعِـلِ[6]
تَوراةُ مُوسى أَتَتْ عَنْـهُ فَصَدَّقَها إنجيلُ عيسى بحقٍّ غيرِ مُفْتَعِلِ
أخبارُ أحْبارِ أهْلِ الكُتْبِ قَدْ وردَتْ عمّا رأوا ورووا في الأعْصُرِ الأُوَلِ

١- قفصة: بلدة في طرف إفريقية من ناحية المغرب، بينها وبين القيروان ثلاثة أيّام انظر ياقوت: ٣٨٢/٤.

٢- في ت يثق بخبره.

٣- ليست في ط.

٤- القصيدة بتمامها في نهاية الأرب: ٣٤٧/١٨-٣٥٩، والمجموعة النبهانية: ١٩٨/٣-٢١١، والأبيات: ٥-٦-٧-٨ في تاريخ الخميس: ٢٠٢/١، والأبيات من ٨٦ إلى ١١٤ في شرح الزرقاني على المواهب اللدنية: ٣٢٨/٢-٣٣٢، والأبيات من ٨٦ إلى ١٠٦ في المواهب اللدنية: ١٥٦/١، والبيت ٢٢ في ٦٢/١ ومن ٥١ إلى ٥٥ في ٥٠/١، والأبيات من ٣٩ إلى ٤٦ في ٢٣٩/١، والأبيات من ٢٧ إلى ٣٣ في ٢٨٦/١ والبيت الثالث في: ٦٤/٢.، وقد استعنت بحواشي القصيدة في نهاية الأرب.

٥- مَنّاً: تفضّلاً وإحساناً، وأحمد السبل: الإسلام.

٦- الحافي والمنتعل: جميع الخلق.

ضـاءَتْ بِمـولِدِه الآفـاقُ واتَّصلَـتْ   بُشْرى الهواتفِ بالإشـراقِ والطَّفَلِ(١)
وَصَرْحُ كِسْرى تَداعـى مِـنْ قَواعِدِهِ   وانقَضَّ مُنكَسِـرَ الأرْجـاءِ ذا مَيَلِ(٢)
وَنَـارُ فَـارِسَ لَمْ تُوقَدْ، ومـا خَمِدَتْ   مُذْ أَلْـفِ عـامٍ ونَهْرُ القَومِ لم يَسِلِ
وَمَنْطِـقُ الذِّئْـبِ بالتَّصديقِ مُعجزَةٌ   مَـعَ الذِّرَاعِ وَنُطْقُ العَيْـرِ والجَمَـلِ
خَرَّتْ لِمَبْعَثِهِ الأَوْثَـانُ، وانْبَعَثَتْ   ثَواقِـبُ الشُّهبِ تَرْمي الجِنَّ بالشُّعَلِ
وفـي دُعـائِكَ بالأشْجـارِ حينَ أَتَتْ   تَمْشي بأمـرِكَ في أغْصَانِها الذُّلُلِ(٣)
وَقُـلْتَ عُودي فَعَادَتْ في مَنَابِتِهـا   تلكَ العُـروقُ بإذْنِ اللهِ لَـمْ تَمِـلِ
والسَّرحُ بالشَّامِ لَمَّـا جِئتَها سَجَـدَتْ   شُـمُّ الذَّوائِبِ مِنْ أفْنانِها الخُضُـلِ(٤)
والجِـذْعُ حَـنَّ لأنْ فارقتَـهُ أسَفـاً   حَنينَ ثَكْلـى شَجَتْهـا لَوْعَةُ الثُّكَلِ(٥)
مـاصَبْرُ مَنْ صَارَ مِنْ عينٍ علـى أثَرٍ   وحالُ مَنْ حالَ عنْ حالٍ إلـى عَطِلِ(٦)
حَنَّـى فَمـاتَ سُكوناً ثُمَّ مـاتَ لَدُنْ   حنَّى حَنينـاً فَأضْحـى غايَـةَ المَثَلِ
والشَّـاةُ لَمَّا مَسَحْتَ الكفُّ منكَ على   جَهْـدِ الهُزالِ بأوصـالٍ لَهـا قُحُـلِ(٧)

١- في نهاية الأرب: لمولده. والطَّفَل: العشيّ.

٢- في نهاية الأرب: وانقاض.

٣- في نهاية الأرب: تسعى بأمرك في أغصانها الخضل.

٤- السَّرحُ: الشجر العظيم. شمّ الذوائب: مرتفعات الأغصان التي في أطرافها. الخضل: الناعمة.

٥- شجتها: أحزنتها.

٦- في ت: ما ضرّ، وفي ط: إلى أثر .... عن حلي. في الأصل: إلى حلل.

٧- في ط: نحل، وقُحُل: يابسة.

سَحَّتْ بدرّةِ شكْرى الضَّرْعِ حافلةً   فـروَّتِ الرَّكْـبَ بعـدَ النَّهْلِ بالعَلَلِ(1)
وآيـةُ الغَـارِ إذ وُقِّيـتَ فـي حُجُبٍ   مِن كلِّ رجْسٍ لِرِجْسِ الكُفْرِ مُنْتَحِلِ(2)
وقالَ صاحبُـكَ الصِّدِّيقُ: كيفَ بنـا   ونحـنُ منهُـمْ بمَـرْأى النّاظرِ العَجِلِ
٢٠ - فَـقُلْـتَ: لاتَحْــزَنِ إنَّ اللهَ ثالثُنـا   وكُنْـتَ في حُجْبِ سِتْرٍ مِنْهُ مُنْسَدِلِ
[٢٥/ب] حُمَّـتْ لديـكَ حَمامُ الوَحْـشِ جَاثمةً   كَيْـداً لكـلِّ غَـويِّ القَلْبِ مُخْتَبَـلِ(3)
والعَنكبوتُ أجـادَتْ نَسْجَ حُلَّتِها   فمـا يُخَـالُ خِلالَ النَّسْجِ مِنْ خَلَلِ(4)
قالـوا: وجـاءَت إليهِ سَـرْحةٌ سَتَرَتْ   وَجْـهَ النَّبـيِّ بأغْصَـانٍ لهـا هُدُلِ(5)
وَفـي سُـراقَةَ آيـاتٌ مُبيِّنـةٌ   إذْ سَاخَتِ الحِجْرُ في وَحلٍ بلا وَحَلِ(6)
٢٥ - عـرَجْـتَ تَخترقُ السبْعَ الطِّباقَ إلى   مَقـامِ زُلْفَـى كريـمٍ قُمْتَ فيـهِ عَلِ
عَـن قابِ قَوْسـينِ أوأدْنَى هَبَطْتَ ولَمْ   تَسْتَكْمِـلِ اللَّيْلَ بَيْـنَ المَـرِّ والقَفَلِ(7)
دعـوتَ للخَلْـقِ عـامَ المَحْلِ مُبتهلاً   أفديـكَ بالخَلْـقِ مِـنْ داعٍ ومُبْتَهِـلِ

١- في نهاية الأرب: ودرّت بشكر الضرع. سحّت: صبّت صبّاً متتابعاً. وشاة شكرى الضرع: مُمتلئته. وحافلة: لم تُحلب حتى امتلأ ضرعها. النَّهل: الشرب الأوّل والعَلَل: الثاني.

٢- منتحل: مُعتَقَد؛ أي: معتقد لرجس الكفّار.

٣- في ت و ط: حامت. جاثمة: ملتزمة للمكان. الكيد: الخداع. مختبل: مخلّ العقل.

٤- في نهاية الأرب: حوك حلتها.

٥- السَّرْح: شجر كبار يُستَظَلّ به.

٦- في ط: في رجل. وسراقة: هو ابن مالك، وكان دليلَ المشركين في اقتصاص أثر النبي ﷺ حين هاجر، ثمّ أسلم بعد حُنَين. ساخت: دخلت وغابت قوائمها. الحِجْرُ: أنثى الخيل، جُرّد من التاء لأنّه من الأوصاف الخاصّة. الوحل: الطين الرقيق.

٧- قاب: قدر. المرّ: الذهاب. القفل: الرجوع.

صعَّـدتَ كَفَّيْـكَ إذ كفَّ الغَمامُ فَمـا   صَوَّبْتَ إلاَّ بِصَوْبِ الواكفِ الهَطِلِ[1]
أراقَ بالأرضِ ثَجّـاً صَـــوْبُ ريقتِـهِ   فَحَلَّ بالرَّوضِ نَسْجـاً رائقَ الحُلَلِ [2]
زُهْرٌ مِـن النُّور حلَّتْ روضَ أرضِهِـمِ   زَهراً مِن النُّور ضافي النَّبْتِ مُكْتَهِلِ[3]
مِن كلِّ غُصْنٍ نَضيرٍ مُـورقٍ خَضِرٍ   وكُلِّ نَـورٍ نَضيـدٍ مُونِـقٍ خَضِـــلِ
تحيَّةٌ أحيَـتِ الأحيــاءَ مِـــنْ مُضَرَ   بَعْدَ المضـرَّةِ تَـرْوي السُّبْلَ بالسُّبَلِ[4]
دامَتْ على الأَرْضِ سَبْعَاً غيرَ مُقْلعةٍ   لـولا دُعـاؤكَ بالإقـلاعِ لَـمْ تَزُلِ [5]
ويَـومَ زَوْرِكَ بـالـزَّوراءِ إذ صَـــدَروا   مِـنْ يُمْنِ كَفِّكَ عَـنْ أُعجوبةٍ مَثَلِ[6]
والمـاءُ ينبـعُ جـــوداً مِـنْ أنامِلِهَا   وسْــطَ الإنـاءِ بـلانَهْرٍ ولاوَشَــلِ[7]
حتّـى تَوَضَّأَ منـهُ القومُ واغْتَرَفـوا   وهُـمْ ثَـلاثُ مئينٍ جَمْـعُ مُحتَفِـلِ
أشبعتَ بالصَّـاعِ ألفاً مُرْمِلينَ كمـا   رَوَّيْتَ أَلْفاً ونِصْفَ الألْـفِ مِن سَمَلِ[8]

١- صعّدت: رفعت. كفّ: امتنع. الصوب: النازل .الواكف: القاطر.

٢- في نهاية الأرب: صوب ريّقه. الثجّ: الاندفاق. الريق من كل شيء: أفضله. حلّ: نزل. نسْجاً: ناسجاً. رائق: معجب ـ الحلل: جمع حلة؛ يريد: النبات مختلف الألوان.

٣- زُهر : بيض مضيئة، جمع أزهر. مكتهل : بلغ منتهاه.

٤- السُّبل: الطُّرق. والسَّبل: المطر.

٥- في ت و ط: غير مقلقة.

٦- الزور: الزائر، يُستعمل في الواحد وغيره؛ أي: يوم جاءك الزائرون بالزوراء، والزوراء: موضع بالمدينة نبع فيه الماء من بين أصابعه ﷺ فتوضّأ جميع أصحابه وصدروا بعد الورود. واليُمن: البركة.

٧- الضمير في «أناملها» لليد الشريفة. والوشل: القليل من الماء.

٨- السمل: القليل من الماء يبقى في أسفل الإناء، المرملين: الذين نفد زادهم وافتقروا.

وعَـادَ ماشَبِــعَ الألْـفُ الجيـاعُ بِهِ   كمـا بَدَوا فيه لَـم يَنْقُصْ ولَمْ يَحُلِ(١)

أعْجَـزْتَ بالوَحْيِ أربـابَ البلاغةِ في   عَصْـرِ البَيانِ فَضلَّتْ أوْجُهُ الحِيَلِ(٢)

سـألْتَهُمْ سُورةً فـي مِثْلِ حِكمَتِهِ   فتَلَّهُمْ عَنْهُ حَيْـنُ العَجْـزِ حينَ تُلِي(٣)

فَـرَامَ رِجْـسٌ كَـذوبٌ أنْ يُعارِضَـهُ   بِسُخْفِ إفْكٍ لـم يُحْسِنْ ولَـمْ يُطِلِ(٤)

مُـثَبَّــجٌ بِـرَكيـكِ الإفْـكِ مُلْتَبِـسٌ   مُلَجْلَــجٌ بِرَدِيٍّ الــزُّورِ والخَطَـلِ(٥)

يَمُجُّ أوَّلَ حَرْفٍ سَمْـعُ سَـامعِهِ   ويَـعْتَريـهِ كَلالُ العَجْـزِ والمَلَـلِ(٦)

[٢٦/أ] كأنَّـهُ منطِـقُ الوَرهـاءِ شَذَّبَهُ   لَبْسٌ مِنَ الخَبْلِ أو مَسٌّ مِنَ الخَبَلَ(٧)

أمَـرَّتِ البئرُ بَلْ غـارَتْ لِمَجَّتِهِ   فيها، وأعْمَـى بصيـرَ العَيْنِ بالثُّفَلِ(٨)

وأيْبَـسَ الضَّرْعَ مِنْهـا شُؤْمُ راحتِـهِ   مِنْ بَعْدِ إرسالِ رسـلٍ منهُ مُنْهَمِلِ(٩)

١- في ط: ما أشبع.

٢- في نهاية الأرب: أصحاب البلاغة.

٣- تلّهم: صرعهم. والحَين: الهلاك.

٤- في نهاية الأرب: ورام بعيٍّ غيٍّ. والرِّجس: القذر، وهو مسيلمة الكذاب. والعيّ: العجز والانقطاع عن الكلام، وهو ضدّ الفصَاحة. والغيّ: الضلال. ويطلّ: من طال، أي: امتدّ أو استظهر على القرآن.

٥- في نهاية الأرب: ملجلج بِزَرِيٍّ. مثبجٌ: مضطرب فاسد. ملجلج: متردّد في الكلام غير مفصح. والزريّ: الحقير. والزور: الكذب. والخطل: المنطق الفاحش المضطرب.

٦- في نهاية الأرب: منه سامعه. يمجّ: يطرح ويلقي.

٧- الورهاء: المرأة الحمقاء تتكلّم بما لا يُفهَم. شذّبه: فرّقه وقطّعهُ. الخَبْل: الفَساد. والخَبَل: الجنون.

٨- في نهاية الأرب: واغورّت لمجتّه. أمرّت البئر: صارت ذات مرارة بعد العذوبة.

٩- في نهاية الأرب: من بعد إرساله بالرسل منهمل.

بَرِئْــتَ مــنْ دينِ قــومٍ لاقِوامُ لهُــمْ   عُقولُهمْ من وَثَاقِ الغَــيِّ فــي عَقَلِ[١]
يستخبــرونَ خفــيَّ الغيــبِ من حَجَرٍ   صَلْدٍ، ويَرْجُونَ غَوْثَ النَّصرِ مــن هُبَلِ[٢]
نالــوا أَذًى منــكَ لولا حِلْمُ خَالِقِهــمْ   وحُجَّــةُ اللهِ بالأعْـذارِ لــم تُنَلِ[٣]
واستَضْعَفوا أَهْلَ دينِ اللهِ فاصْطَبروا   لِكُلِّ مُعْضِـلِ خَطْـبٍ فــادحٍ جَلَلِ[٤]
لاقَــى بــلالٌ بَلاءً مِــنْ أُميَّةَ قَدْ   أحلَّهُ الصَّبْرُ فيهِ أكْـرَمَ النُّزُلِ[٥]
إذْ أجْهَـدوهُ بِضَنْـكِ الأَسْرِ وَهْوَ على   شَدائدِ الأَزْلِ ثَبْـتُ الأَزْرِ لَـمْ يَزَلِ[٦]
ألقَوْهُ بَطْحَــاً بِرَمضــاءِ البِطاحِ وقَــدْ   عالُــوا عليــهِ صُخُــوراً جمَّةَ الثِّقَلِ[٧]
يوحِّــدُ اللهَ إخلاصَــاً وقَــدْ ظَهَـرَتْ   بِظهــرِه كَنُـدُوبِ الطَّلِّ فــي الطَّلَلِ[٨]
إنْ قُــدَّ ظَهْــرُ وَلِيِّ اللهِ مِــنْ دُبُــرٍ   قَدْ قُدَّ قَلبُ عدوِّ اللهِ مِنْ قُبُلِ[٩]

١- في نهاية الأرب: في غلل. قوام الأمر: نظامه وعماده وملاكه. عقل: جمع عقال وهو الحبل الذي يعقل البعيرَ.

٢- هبل: أعظم أصنام قريش في الجاهلية.

٣- في نهاية الأرب: بالإنذار لم تنل.

٤- في ت و ط : منه على كلّ خطب. معضل: شديد. فادح: يقال أمرٌ فادح إذا أثقله وبهظه وعجز عنه. الجَلَل: العظيم.

٥- بلال: هو ابن رباح، مؤذّن رسول الله ﷺ ورضي عن صحبه.

٦- أجهدوه: حمّلوه فوق طاقته من العذاب. والضّنك: الضيق. والأزل: الحبس والتضييق. والأزر: القوة. والثبت: ثابت القلب.

٧- الرمضاء: الأرض الشديدة الحرارة بالشمس. والبطاح: الأودية. عالوا: أعلَوا. جمة: كثيرة.

٨- في نهاية الأرب: فوحّد الله. الندوب: الآثار. الطلّ: المطر الخفيف. الطلل: ما شخص من آثار الديار على وجه الأرض.

٩- قُدَّ: قُطِعَ بالتعذيب.

نَفَرْتَ في نَفَرٍ لَمْ ترضَ أنفسُهُمْ   إذْ نَافَروا الرِّجْسَ إلاّ القُدْسَ مِنْ نَفَلِ[1]
بأنفُسٍ بُدِّلَتْ في الخُلْدِ إذْ بَذَلَتْ   عَنْ صِدْقٍ بَذْلٍ بِبَدْرٍ أكْرَمَ البَدَلِ
مِنْ كُلِّ مُهْتَصِرٍ للهِ مُنْتَصِرٍ   بالبِيضِ مُخْتَصِرٍ بالسُّمْرِ مُعْتَقِلِ[2]
يمشِي إلى الموتِ عَالي الكَعْبِ مُعْتَقِلاً   أظْمَى الكُعوبِ كَمَشْيِ الكَاعِبِ الفُضُلِ[3]
٦٠ - قَدْ قاتلُوا دونَكَ الأقيالَ عَنْ جَلَدٍ   وجالَدوا بجِلادِ البِيضِ والجَدَلِ[4]
وَصَلْتَهُمْ وقَطَعْتَ الأقربينَ معاً   فِي اللهِ لولاهُ لم تقطَعْ ولم تَصِلِ
وجاءَ جِبريلُ في جُنْدٍ له عُدَدٌ   لَمْ تبتذلْها أكُفُّ الخَلْقِ بالعَمَلِ[5]
بيضٌ مِنَ العَوْنِ لَمْ تُستَلَّ مِنْ غُمُدٍ   خَيْلٌ مِنَ الكَوْنِ لم تُستَنَّ في طِيَلِ[6]
أحْبِبْ بِخَيْلٍ مِنَ التَّكْوينِ قَدْ جُبِلَتْ   بجانبٍ عَنْ جَنابِ الحقِّ مُعتَزِلِ[7]

١- نافروا الرِّجس: جانبوا الأوثان والشرك. القدس: الجنّة. النفل: الغنائم.

٢- في نهاية الأرب: بالرمح معتقل. مهتصر: كاسر للأقران. اختصر الشيء: مسكه بيده. السمر: الرماح. المعتقل: الذي جعل رمحه بين ساقه وركابه.

٣- عالي الكعب: وصف بالشرف والظفر. أظمى الكعوب: أسمر الرماح. والكاعب: الجارية الناهد. الفضل: المتفضلة في ثوب واحد من غير قناع.

٤- في نهاية الأرب: جالدوا بجلاء. والأقيال: الملوك. الجلاد: المضاربة؛ أي: جمعوا بين حجّة اللسان والمضاربة بالسيوف.

٥- في نهاية الأرب: لهم عدد.

٦- بيض: سيوف. من العون: من عون الله. الكون: قوله تعالى: كن فيكون. لم تُستنّ: لم تمرح. في طيل: في حبل، لأنّ الدابة تطول فيه وتمتدّ في المرعى.

٧- في نهاية الأرب: قد جُنبت. من التكوين: تكوين الله تعالى.

أَعْمَيتَ جَيشاً بكفٍّ مِنْ حصًى فَجَثَوا   وعُقِّلُوا عَـن حِـراكِ النَّقْلِ بالنُّقَـلِ(١)
وَدَعْوةٌ بفِنـاءِ البَيْـتِ صَـادِقَةٌ   غَدا أميَّةُ مِنْهـا شَـرَّ مُنْخَزِلِ(٢)
[٢٦/ب] غَـادرْتَ جَهْـلَ أبـي جَهْلٍ بمجهلَةٍ   وشَـابَ شَيْبةُ قَبلَ الوَقتِ مِنْ وَجَلِ(٣)
وعُتْبَـةُ الشَّـرِّ لـم يُعْتَـبْ فَتَعْطِفَـهُ   منكَ العواطِفُ قبلَ الحَيْنِ في مَهَلِ(٤)
وعُقبـةُ الغُمْـرُ عُقبـاهُ لشَقوتِهِ   إنْ ظلَّ مِنْ غَمَراتِ الخِزْيِ فـي ظُلَلِ(٥)
وكلُّ أشْـرَسَ عاتِـي القَلْبِ مُنْقَلِـبٍ   جَـعَلْتَـهُ بِقَليبِ البئرِ كالجُعَلِ(٦)
وجَـاثـمٍ بِمَثَـارِ النَّقعِ مُشْتَغِلٍ   بجاحمٍ مِن أُوَارِ الثُّكلِ مُشْـتَعِـلِ(٧)
عَــقَـدْتَ بالخِزْيِ فـي عِطْفَيْ مُقَلَّدِهِ   طَـوْقَ الحَمَـامَةِ باقٍ غيـرَ مُنْتَقِلِ(٨)

١- في نهاية الأرب: وعُطِّلوا. جثا: قعد على ركبتيه. النُّقَل: الحجارة؛ أي: رماهم عليه الصلاة والسلام بحصى فنزلت عليهم حجارة عطّلت حركتهم.

٢- فناء البيت: السعة التي أمامه، والمراد: البيت الحرام. انخزل: انقطع. أمية: هو ابن خلف الجمحي.

٣- في نهاية الأرب، قبل الموت. مجهلة: أمر حمله على الجهل. وشيبة: هو ابن ربيعة بن عبد شمس، قتل على الوثينة.

٤- في نهاية الأرب: قبل الفوت. وعتبة: هو ابن ربيعة بن عبد شمس.

٥- في نهاية الأرب: قد ظلّ من غمرات الغيِّ. والغمر: الجاهل الذي لم يجرِّب الأمور. وعقبة: هو ابن أبان بن ذكوان ابن أمية. غمرات: شدائد.

٦- في ط ونهاية الأرب: أشوس. والأشرس: عسر الأخلاق شديد الخلاف. العاتي: الذي بلغ الغاية في القسوة. المنقلب: المنصرف عن الحقّ. القليب: البئر. الجعل: دويبة سوداء تكون في المواضع النديّة.

٧- في نهاية الأرب: أوار النار.

٨- في نهاية الأرب: مقلدهم.

أمْسَـــى خليلَ صَغـــارٍ بَعْـدَ نَخْوَتِهِ   بالأمسِ فـــي خُيَلاءِ الخَيْلِ والخَوَلِ(١)

دامٍ يُديمُ زَفيـراً فِـــي جـوانِحِهِ   جُنْحٌ مِنَ الشَّكِّ لم يَجْنَحْ ولَمْ يَمِلِ(٢)

يُقادُ فـــي القِـدِّ خَنْقـاً مُشْرَباً حَنَقاً   يمشِي به الذُّعْرُ مَشْيَ الشَّـارِبِ الثَّمِلِ(٣)

أوْصَـــالُهُ مِـــنْ صَليلِ الغُلِّ في عِلَلٍ   وقلبُهُ مِـــن غليـــلِ الغِـلِّ فـــي غُلَلِ(٤)

يظلُّ يَحْجِـلُ سَاجِي الطَّرْفِ خافِضَهُ   لمسكةِ الحِجْلِ لامِنْ مَسْكَةِ الحُجُـلِ(٥)

أرَحْتَ بالسَّيفِ ظَهْرَ الأرضِ من نَفَرٍ   أزَحْـتَ بالصِّدْقِ منهُـمْ كـاذِبَ العِلَلِ

تركْتَ بالكُفْـــرِ صَدْعَـــاً غيـرَ مُلتئمٍ   وآبَ عنـكَ بِقَرْحٍ غيـــرِ مُنْـدَمِـــلِ(٦)

وأفْلَتَ السَّيْـفُ مِنهـمْ كلَّ ذي أسَفٍ   على الحِمـامِ حَمـاهُ أجَـلُ الأجَلِ(٧)

قَـدْ أعْتَقَتْهُ عِتـاقُ الخَيْلِ وَهْـوَ يَـرى   بـهِ إلـى رِقِّ مَـوْتٍ رِقَّـــةَ الغَـــزَلِ

١- الصَّغار: الذلّ والهوان. النَّخوة: العظمة والتكبّر. الخيلاء: الكبـرو الإعجـاب. الخَوَل: الخَدَم والحَشَم.

٢- في ت : جوانبه. دامٍ : يسيل دمهُ. الزفير: تنفُّس الصعداء.

٣- في ت : القيد. والقدّ: السير. مشرباً : أدخل به حتى خالطه. الحنق: الغيظ. الذعر: الفزع. الثمل: السكران؛ أي يتمايل في مشيه خوفاً.

٤- الغُلّ: القيد. العِلل: جمع علّة وهي المرض. الغِلّ: الحقد. وغليله: حرارته والتهابه.

٥- في نهاية الأرب: بمسكة الحجل. يحجل: يقفز في الحجل وهو القَيْد. الحُجل: الحجال: وهي قباب العروس تزيّن بالستور، يقول: إنمّا سجا طرفه من ذلّة الأسر لا كما تسجو ألحاظ النساء من لزوم الحجاب.

٦- في نهاية الأرب: وآب منك.

٧- أفلت السيف: حملهم السيف على الهرب. والحِمام: الموت. الآجل: المتأخّر. الأجل: أمد العمر.

فكَـمْ ببكَّةَ مِـــنْ بَـاكٍ وبَـاكيـــةٍ ... بفَيْضِ سَـجْلٍ مِن الآماقِ مُنْسَجلِ(١)

وكاسِــفِ البالِ بالي الصَّبرِ جُدْتَ لهُ ... بِوابِــلٍ مِــنْ وَبالِ الخِـزْيِ مُتَّصِلِ(٢)

فُــؤادُهُ مِــنْ سَعيــرِ الغَيْظِ في غُلَلٍ ... وَعَيْنُهُ مِـــن غزيرِ الدَّمْـــعِ فـــي غَلَلِ

قَد أسْعَرَتْ منهُ صَدْراً غيرَ مُصطبِرٍ ... وحَمَّلَـتْ منـهُ صَبْراً غيـرَ مُحْتَـمَلِ(٣)

ويَــومَ مكَّةَ إذْ أشْــرَفْتَ فـــي أُممٍ ... تضيقُ عنها فِجاجُ الوَعْــثِ والسَّهَلِ(٤)

خَوافِــقٍ ضَــاقَ ذَرْعُ الخَافِقَيْنِ بهــا ... في قاتِــمٍ مِنْ عَجاجِ الخَيْلِ والإِبِلِ(٥)

وجَحْفَـلٍ قَــذَفِ الأرجاءِ ذي لَجَــبٍ ... عَرَمرمٍ كَزُهاءِ السَّيْــلِ مُنْسَحِـــلِ(٦)

وأنتَ - صلَّى عليــكَ اللّهُ - تَقْدُمُهمْ ... فِـــي بَهْوِ إشْرَاقِ نُورٍ منْكَ مُكْتَمِـــلِ

يُنيرُ فَوْقَ أغرِّ الوَجْــهِ مُنْتَجَــبٍ ... مُتَوَّجٍ بعزيـزِ النَّصْــرِ مُقْتَبِلِ(٧)

١- في نهاية الأرب: بمكة. السجل: الدّلو العظيمة المملوءة ماءً. الآماق: أطراف الأعين التي يخرج منها الدمع. منسجل: منصبٌ.

٢- كاسف البال: متغيرٌ الحال سيئُها. بلي الصبر: فني. وبالُ الخزي: مضرّته وأذاه وثقله. وقوله «جُدْتَ» تهكّم، كقوله تعالى: ﴿فبشّرهم بعذابٍ أليم﴾.

٣- في نهاية الأرب: قلباً غير محتمل.

٤- في نهاية الأرب: فجاج الوَعر. الفجاج: الطرق الواسعة بين الجبال. الوعث: المكان الذي تغوص فيه الأقدام.

٥- خوافق: ألوية وبنود. الخافقان: أفقا المشرق والمغرب؛ أي: ضاق وسعهما بها. القاتم: المغبرّ الأسود.

٦- في ط نهاية الأرب: كزهاء اللّيل منسدل. الجَحْفَل: الجيش العظيم. قذف: متباعد الأرجاء والنواحي. اللّجب: اشتباك الأصوات. عرمرم: كثير. زهاء: قدر. منسحل: منصبٌ.

٧- الأغرّ: الأبيض المنير. المنتجب: المُتَخَيَّر.

[٢٧/أ] تسمو أمامَ جنــودِ اللهِ مُرتَدِياً ... ثَوْبَ الوَقــارِ لأمرِ اللهِ مُمْتَثِـلِ
خَشَعْتَ تَحْتَ بَهاءِ العزِّ حينَ سَـمَتْ ... بِكَ المَهابــةُ فِعْلَ الخاضِعِ الوَجِلِ(١)
وقَدْ تَباشَرَ أمــلاكُ السَّماءِ بما ... مُلِّكْتَ إذ نِلْتَ منــهُ غايةَ الأمَلِ
والأرضُ ترجُـفُ مِن زَهْوٍ ومِن فَرَقٍ ... والجوُّ يَزْهَــرُ إشْرَاقاً مِـن الجَذَلِ(٢)
والخيــلُ تَخْتــالُ زَهْــواً في أعِنَّتِهـا ... والعِيسُ تَنْثالُ رَهْواً في ثُنَى الجُدُلِ(٣)
لولا الَّـذي خَطَّـتِ الأقلامُ مِـنْ قَدَرٍ ... وسَابـقٍ مِـن قَضـاءٍ غَيْرِ ذي حِـوَلِ
أهَلَّ ثَهْـلانُ بالتَّهليـلِ مِــنَ طَــرَبٍ ... وذابَ يَذْبُـلُ تهليــلاً مِـنَ الذُّبُـلِ(٤)
المُلْكُ للهِ! هــذا عِزُّ مَــنْ عُقِدَتْ ... له النُّبُوَّةُ فوقَ العرشِ فـي الأزلِ
شَعَبْتَ صَدْعَ قُرَيشٍ بَعْدَما قَذَفَـتْ ... بِهِمْ شَعُوبُ شِعـابِ السَّهْلِ والقُلَلِ(٥)
قَالُـوا: محمَّــدُ قَــد زارَتْ كَتَائِبُــهُ ... كالأُسْدِ تَزْأَرُ في أنيابِهــا العُصُلِ(٦)
فَوَيــلُ مكَّــةَ مِــنْ آثــارِ وَطْأَتِــهِ ... ووَيْـلُ أُمِّ قُرَيشٍ مِـن جَوَى الهَبَـلِ(٧)

١- في نهاية الأرب: لواء العزّ.
٢- في ت: ومن فرح .... وفيها: والحقّ يزهر.
٣- في نهاية الأرب: تختال ميلاً. تختال: تتبختر. العيس: الإبل. تنثال: تنصبّ من كلّ جهة. الرّهو: ضرب من السير. الجدل: جمع جديل، وهو الزمام.
٤- في ط: لَهَلّ ثهلان. وفي نهاية الأرب: تكبيراً من الذبل. ثهلان ويذبل: جبلان. والذبل: الرماح النوابل. التهليل: الأوّل يعني قوله: لا إله إلاّ الله، والثاني يعني: الجبن والفزع.
٥- في ت: بعدما صدعت. شعبت: جمعت، وهو من الأضداد. الصدع: الشقّ. شعوب: من أسماء الموت. القلل: أعالي الجبال.
٦- في نهاية الأرب: قد حلّت كتائبه. الكتائب: جمع كتيبة: الطائفة من الجند. تزأر: تصيح في غضب. العَصَل في الناب: اعوجاجه وشدّته.
٧- الجوى: الحزن. الهبل: الثكل.

فَجُدْتَ عفْـواً بِفَضْلِ العفْوِ منـكَ ولَمْ تُلْمِـمْ ولابأليـمِ اللَّـوْمِ والعَـذَلِ(١)
أَضْرَبْتَ بالصَّفْحِ صفْحاً عَن طَوائِلِهِمْ طَوْلاً أَطالَ مَقيلَ النَّـومِ فـي المُقَلِ(٢)
رَحِمتَ واشِـجَ أَرْحـامٍ أُتيـحَ لَهَا تَحْتَ الوَشيجِ نَشيجُ الرَّوعِ والوَجَلِ(٣)
١٠٥ - عَاذوا بِظِلٍّ كريـمِ العَفْـوِ ذي لَطَفٍ مُبَارَكِ الـوَجْهِ بالتَّوفيـقِ مُشْتَمِـلِ(٤)
أَزْكَـى الخَليقَةِ أخْـلَاقاً وأطْهَـرُهـا وأَكْرَمُ النَّاسِ صَفْحَـاً عَنْ ذَوي الزَّلَلِ(٥)
زانَ الخُشـوعَ وَقـارٌ مِنْهُ فـي خَفَرٍ أرقَّ مِـنْ خَفَرِ العَـذراءِ فـي الكِلَلِ(٦)
وطُفْـتَ بالبيـتِ مَحْبـوَراً وطافَ بـهِ مَـنْ كـانَ عنهُ قُبَيْلَ الفَتْـحِ في شُغُلِ
والكُفْرُ فـي ظُلُماتِ الخِزْيِ مُرْتَكِسٌ ثاوٍ بمنزلةِ البَهْمُـوتِ مِـنْ زُحَـلِ(٧)
١١٠ - حَجَزْتَ بالأمنِ أقطارَ الحِجازِ مَعـاً ومِلْتَ بالخَوْفِ عَنْ خَيْفٍ وعن مَلَلِ(٨)

١- في ط: تلم.

٢- في الأصل: في النقل، وهو تصحيف. طوائل: جمع طائلة: العداوة. طولاً: مناً وتفضلاً. المقيل: النوم وقت الهاجرة؛ والمعنى: إنّ صفحك منحهم راحةَ النوْم.

٣- واشج أرحام: الرحم المشتبكة. الوشيج: اشتباك القرابة. النشيج: الغصّة بالبكاء في الحلق من غير انتحاب. الوجل: الخوف.

٤- في ت: عاذوا بفضل. مبارك الوجه: أي ثبت فيه الخير الإلهي وهو رسول الله ﷺ.

٥- في نهاية الأرب: أزكى البرية ... وأكثر الناس.

٦- خفر: حياء. الكل: جمع كلّة، وهي الستر الرّقيق يُخاط كالبيت يُتَوَقّى فيه من البعوض.

٧- في ت: المبهوت من وجل. الركس: قلب الشيء على رأسه وردّ أوّله على آخره. البهموت: الحوت الذي يزعمون أنّه يحمل الثورَ الحاملَ الأرضَ وزُحَل: أعلى النجوم السيارة؛ يريد: أنّ الكفر في غاية السفل.

٨- في ت: وملت بالخيف. الخيف: منىً، وخيفُ بني كنانة الذي نزل فيه النبي عليه السلام عامَ حجّه. ملل: موضع بين مكة والمدينة، وتنكير الخيف مع علميته للضرورة.

وحَـلَّ أمْنٌ ويُمْـنٌ مِنـكَ فـي يَمَنٍ   لمَّا أجابَـتْ إلى الإيمـانِ عَنْ عَجَلِ
وأَصْبَـحَ الدِّينُ قَـدْ حُفَّـتْ جوانِبُهُ   بعزَّةِ النَّصْـرِ واسْتَولَى علـى المِلَلِ(١)
قَدْ طاعَ مُنحرفٌ مِنْهُـمْ لمُعتَرِفٍ   وانقادَ مُنْعَـدِلٌ مِنْهُـم لِمُعْتَدِلِ
[٢٧/ب] أَحْبِبْ بِخَلَّةِ أَهْلِ الحَقِّ في الخُلَلِ   وعِـزٌّ دَولتِـهِ الغرّاءِ فـي الدُّوَلِ
أَمَّ اليمامَةَ يـومٌ منـهُ مُصْطَلَمٌ   وحلَّ بالشَّـامِ شُؤمٌ غيـرُ مُرتَحِلِ(٢)
تعرَّقَـتْ منـهُ أَعْـراقُ العِـراقِ ولَمْ   يُتْـرَك منَ التُّرْكِ عَظْمٌ غيرُ مُنْتَثِلِ(٣)
لَـمْ يَبْقَ للفُـرْسِ ليثٌ غيـرُ مفتَرِسٍ   ولا مِـنَ الحُبْشِ جيشٌ غيرُ مُنْجَفِلِ(٤)
ولا مِـنَ الصِّينِ صَوْتٌ غيرُ مُبْتَـذَلٍ   ولامِنَ الرُّومِ مَـرمىً غيـرُ مُنْتَضَلِ(٥)
ولامِـنَ النوُّبِ جِـذْمٌ غيرُ مُنْجَـذِمٍ   ولا مِــنَ الزِّنجِ جِـذْلٌ غيرُ مُنْجَذِلِ(٦)
وَسُلَّ بالغربِ غربُ السَّيفِ إذ شَـرِقَتْ   بالشَّرقِ قبلُ صدورُ البِيضِ والأَسَلِ(٧)

١- في نهاية الأرب: واستعلى على الملل.

٢- في الأصل: بمصطلم، وبها لا يستقيم الوزن مصطلم: مستأصل بالهلاك؛ يشير إلى القضاء على الكذّاب مسيلمة وقومه؛ أي: لازمها الشؤم حتى قضى على ممالكها وعمّها الإسلام.

٣- في نهاية الأرب: عظماً. تعرّقت: أخذ ماعليها من اللحم. الأعراق: جمع عرق: العظم، وهذا مثل، إشارة إلى استباحة الإسلام لكنوزها وممالكها. منتثل: مستخرج.

٤- انجفل: انهزم.

٥- منتضل: مرتمىً، يقال: تناضلوا؛ إذا تراموا بالنبال.

٦- الجذم: الأصل. منجذم: منقطع. الجذل: الأصل أيضاً. منجذل: منقطع.

٧- الغرب: المغرب. غرب السيف: حدّه. شرقت: غصّت؛ يريد أنّ المسلمين لمّا فرغوا من فتح بلاد الشرق ورويت منها سيوفهم ورماحهم حتى شرقت بدماء أهل الشرك قصدوا نحو المغرب ففتحوا بلاده.

وَنِيلَ بالسَّيْفِ سَيْفُ النِّيلِ واتَّصلَتْ   دَعْوى الجُنودِ فَكُلٌّ بالجِلادِ صلَي[1]
وعادَ كلُّ عدوٍّ عزَّ جانبُهُ   قَدْ عاذَ مِنْكَ بِبَذْلٍ مِنْهُ مُبتذلِ
بِذِمَّةِ اللّهِ والإيمانِ مُتَّصِلٌ   أو من شَبا النَّصْلِ بالأموالِ مُنتصلِ[2]
ياصَفْوَةَ اللّهِ قدْ أَصْفيتُ فيكَ صَفاً   صَفْوُ الوِدادِ بلا شَوبٍ ولادَخلِ[3]
١٢٥ - أَلَسْتَ أَكْرَمَ مَنْ يَمشِي على قَدَمٍ   مِنَ البريّةِ فَوْقَ السَّهْلِ والجَبَلِ
وأزلَفَ الخَلْقِ عندَ اللّهِ مَنْزِلَةً   إذْ قيلَ في مَشْهَدِ الأشْهَادِ والرُّسُلِ
قُمْ يامحمَّدُ واشفَعْ في العِبادِ وقُلْ   تُسْمَعْ، وسَلْ تُعْطَ واشفع عائداً وسَلِ[4]
والكوثرُ الحوضُ يَرْوي النَّاسَ من ظَمأٍ   بَرْحٍ وَيُنْقَعُ منهُ لاعِجُ الغُلَلِ[5]
أَصْفَى مِنَ الثَّلجِ إشراقاً، مَذاقتُهُ   أَحْلَى مِنَ اللَّبَنِ المضروبِ بالعَسَلِ
١٣٠ - نحلتُكَ الوُدَّ علِّي إذ نَحلْتُكَهُ   أَجْنِي بِحُبِّكَ منهُ أَفْضَلَ النَّحَلِ[6]
فَمَا بِجلدِي لنُضْجِ النَّارِ مِن جَلَدٍ   ولالِقَلبي بِهَوْلِ الحَشْرِ مِنْ قِبَلِ[7]

١- سيف: شاطئ. النيل: نهر مصر. الجلاد: المضاربة.

٢- الذمّة: الأمان؛ أي ما بذله لنجاته من القتل، إمّا إيماناً بالله عن طواعية وإمّا جزيةً.

٣- في نهاية الأرب: قد صافيت فيك صفا. وصفاء بالمد، قصره للضرورة. الشوب: الخلط. الدّخل: الدغل والفساد.

٤- في ت و ط : فاشفع.

٥- في ت و ط : فيه لاعج. برح: شديد. ينقع: يسكن. لاعج: شديد الحرارة. الغلل: جمع غلّة: شدة العطش.

٦- في نهاية الأرب: أجني بفضلك منك. نحل: أعطى، والنحلة: العطية.

٧- في ط ونهاية الأرب: فما لجلدي بنضج.

يا خَالِقَ الخَلْقِ لا تُخْلِقْ بما اجتَـرمَتْ يَدَايَ وَجْهِيَ مِـنْ حُوبٍ ومِنْ زَلَلِ(١)
وَاصْحَبْ وصَـلِّ وواصِلْ كلَّ صَالِحةٍ علـى صَفِيِّكَ في الإصْباحِ والأُصُلِ

قلت: قد أبدع هذا النَّاظم - رحمه الله - فيما نظم، وشرّف هذه القصيدة بقصده الجميل وعظّم، فَرَاقَتْ معنىً ومنظراً، وشاقَتْ حِسّاً(٢) ومخبرا، فهي كما وصفها أبو عبد الله المصريّ حين(٣) قال: يَئِسَتْ من [٢٨/أ] معارضتها الأطماع، وانعقد على تفضيلها الإجماع، فطبقت أرجاء الأرض، وأشرقت منها في الطُّول والعرض. على أنَّه - رحمه الله - قد أكثر فيها لأجل الصّناعة التَّصَنُّعْ، وتكلّف منها ماهو بعيدُ(٤) المرامِ شديدُ التمنّعْ. واعترض في كلّ معنى عَرَض، وربّما أغرق(٥) النَّزْعَ فخالفَ الغرض، كقوله:

فويل مكَّة من آثار وطأته .... البيت

وقولَه:

.... وحلَّ بالشَّام شؤمٌ غير مرتحل

وما جرى هذا المجرى من كلامه - رحمه الله - ولكنّ قصيدتَهُ بالجملةِ قد حلّت من البلاغة في حصن(٦) مُمنع، وجلت « وجهاً زهاه(٧)

١- في ت: اجترحت يداي. خلق: بلي. الحوب: الذنب والإثم.
٢- في الأصل: حسناً، وهو تصحيف.
٣- في ت: حيث.
٤- في ت: بديع.
٥- في الأصل: أخرق. وأغرق النازع في القوس: أي استوفى مدّها. ويضرب مثلاً للغلّو والإفراط.
٦- في ت: يفاع.
٧- في ت: جلاه.

الحُسْنُ أن يتقنّع »[1]؛ فإن أنكرت من وصفها قولاً، أوسمعت في مدحها تخصيص لولا، أخْرَدَت [2] متأمّلة، وأنشدَت متمثّلة [3] : [السريع]

ماسَلِـمَ البَـدْرُ عَلَـى حُسْـنِهِ كلاّ ولا الظَّبْيُ الَّذي يُوصَـفُ[4]

البـــدرُ فيـــهِ كَلَـــفٌ ظاهِـــرٌ والظَّبيُ فيه خَـنَسٌ يُعْـــرَفُ[5]

[تخميسات الشّقراطسيّة]

وقد أُولِعَ النَّاسُ بها كلَّ الولوع، واستحسنوا من محاسنها كلّ مفرّق ومجموع، وعنوا بها شرحاً وتخميساً، وغَنَوا بها معهداً أنيسا، فخمَّسها وشرحها أبوعبد الله المصريّ، وقد قرأتُ تخميسه على صاحبنا الفقيه أبي عبد الله بن هُريرة، وحدّثني به عنه قراءةً وأوّله: [البسيط]

ابدأْ بِحَمْدِ الَّذي أعْطَى ولَـمْ تَسَـلِ وَذُدْ بِـهِ رَيْـبَ رَيْنِ الأيْنِ والكَسَـلِ[6]

فالحمدُ أحْلَى جنىً مِن طَيِّبِ العَسَلِ الحمـــدُ لله مِنّـــا باعِـــثِ الرُّسُلِ

هَـدَى بأحمـــدَ منَّا أحمـــدَالسبُـــلِ

١- مأخوذ من قول عمر بن أبي ربيعة في ديوانه ٢٢٨:

فلمّا تواقفنا وسلّمت أشرقت وجوهٌ زهاها الحُسْنُ أن تتقنّعا.

٢- أخردت: أطالت السكوت.

٣- البيتان في تحفة العروس للتّجاني: ١١٩، والمستطرف: ٨٠، وتهذيب ابن عساكر: ٢٥٢/٤.

٤- في المستطرف: ما سلم الظبي على حسنه كلاّ ولا الظبي الذي يُوصَـفُ

٥- في المستطرف والتهذيب: الظّبي فيه خَنَسٌ بيّنٌ.

وفي المستطرف: فيه كلف يعرف. وفي التهذيب: نكتة تُعرف.

٦- الرَّيْنُ: الغلبة، والأينُ: الإعياء والتّعب.

وهو تخميس لابأس به، ووسَمَهُ بـ «سِمْط الهدي في الفخر المحمّدي».

وخمّسها الفقيه الأديب الأفضل القاضي أبو عمرو عُثمان بن عَتيق(1) المعروف بابن عَريهة، وقيدّه صاحبنا أبوعبد الله: عريهة بالتّاء، وهو من المشاهير بإفريقية، وشعره مجموع، ووقفت عليه بخطّه، وأكثره قعقعة ماترسل بغيث مزناً، وكما قيل: « جَعْجَعَةٌ ولاأرى طِحْناً » (2) وقد قرأت تخميسَهُ على شيخٍ [28/ب] من أصحابهِ يُعْرَف بأبي إسحاق التِّلْمْساني (3)، وحدّثني به عنه قراءةً، وأوّلُه: [البسيط]

اِربعْ مِنَ العَلَمِ الأسْنَى عَلى طَلَلِ ... فكَمْ ضَحيتَ ولَمْ تفزعْ إلى طَلَلِ

وإنْ عَشَوْتَ إلى نارِ الهُدى فَقُلِ ... الحَمْـدُ للهِ منّـا باعـثِ الرُّسُلِ

هَدَى بأحمـدَ مَنَّـا أحمـدَ السُّبُلِ

1- هو عثمان بن عتيق بن عثمان القيسي المهدوي المعروف بابن عريبة (كما في شجرة النور) كان حافظاً للحديث مقدّماً في علوم الأدب، فحلاً من فحول الشعراء، ولد بالمهدية سنة 600 هـ وتوفي سنة 659 هـ. له ديوان شعر وتصانيف مفيدة منها: «فوائد الكلم النبوية على صاحبها أزكى التحيّة» وكتاب «الزهرة في مسند العشرة»: ترجمته في رحلة التّجاني: 275-280، وشجرة النور: 189 .

2- المثل: أسمع جعجعة ولا أرى طِحناً. وهو في أمثال أبي عبيد 321- فصل المقال 448- جمهرة الأمثال: 1/154- المستقصى: 1/172- اللسان- جعع- طحن.

3- هو إبراهيم بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى الأنصاري التلمساني المالكي: فقيه، أديب، شاعر، له منظومات في السِّيَر وأمداح النبي عليه السلام، وله مقالات في العُروض وأرجوزة في الفرائض. ولد سنة 609هـ بتلمسان وتوفي بسبتة سنة 690هـ. ترجمة في: الإحاطة 1/326-329، ودرّة الحجال: 1/177 وفيه وفاته سنة 697 بسبطة، والديباج المذهب 90-91.

وخمّسها أيضاً الفقيه الأديب الفاضل[1] الأوحَد أبو بكر محمّد بن الحسن بن يوسف بن حَبيش - رحمه الله - وهو من المتقنين المجوّدين وذوي الفضائل المبرّزين، واعتنى بها اعتناءً تاماً، وتصرّفَ فيها على أوجهٍ كثيرة من تخميسٍ وغيرِه، وكرّر تخميسها ثلاثَ مرات، وسمّاها « القُرَبُ الثّلاث » حدّثني بها كلّها عنه صاحبُنا الفقيه أبوعبد الله بن هُرَيرة إجازةً ومناولةً في أصلِه بخطّه الّذي قرأه عليه؛ وقد علقَ بحفظي مطلع أوّل تخميس منها، وهو قوله: [البسيط]

عَزْلُ الشّبابِ قَضَى أنَّ المشيبَ وَلي فما التّغَزُّلُ مِنْ قَوْلي ولا عَمَلي
حَمْدُ الإلهِ ومَدْحُ المصْطَفى أمَلي الحمدُ للهِ مِنّا باعث الرُّسُلِ

ومَن تأمّل هذه البداية وتمكُّنها ومناسبة هذه الأقسام [للبيت] [2] رأى قدر التّفاوُت فيما بين هذا النّظم والّذي قبله.

أمّا تمكُّنها: فلأنّه لمّا جرت عادة الشّعراء بالافتتاح بالتغزُّل، وطّأ بالافتتاحِ بغيره، بما ذكر من [أنّ][3] الوقتِ اللّائقَ به التّغزّل هو عَصْرُ الشّباب، وأنَّ اللاّئق بعصر الشّيب هو ذكرُ الله والإقبالُ على الحمدِ لهُ، وأحسَنَ الاستعارةَ في ذكر الولاية والعَزْل؛ ولمّا رأى أنّ البيتَ متضمنٌ لمعنيين: حمدُ الله تعالى، ومَدْحُ رسوله ﷺ، وطّأ لهما معاً في القسم الّذي

١- ليست في ط .
٢-زيادة من ت و ط .
٣- زيادة من ت و ط.

قَبْلَهُ، حتَّى جاءت الأقسامُ والبيتُ في غايةِ التَّناسبِ كأنَّها نَظْمُ رَجُلٍ واحد. وما ذكر من الولاية والعَزْلِ في الشَّباب والشَّيب استعارة حسنة واقعة موقعَها.

وقد كان هذا المعنى عَرَضَ لي قديماً فنظمتُهُ في بيتٍ من قصيدة، وزدتُ فيه معنًى آخر وهو أنّ الشَّيْبَ لما وَلِيَ قام بأعلى الرّأسِ خَطيباً؛ لما كان من شأن الوالي الخِطْبَة والصعودَ لها على المنبر، وحَسُنَ أن يُسْتَعَارَ ذلكَ للشَّيبِ لمّا كان نذيراً زاجراً، فقلت في ذلك: [الطويل]

[٢٩/أ]

شَبَابيَ وَالٍ جَاءَ شَيْبي بعَـزْلِهِ فَقَامَ بَأَعْلى الرَّأسِ أيُّ خَطيبِ

وقرأت أيضاً على صاحبِنا أبي عبد الله[١] تخميسَ أبي عبد الله المصريِّ لقصيدة الشَّيخِ الفقيهِ العالمِ الصَّالحِ الأوحد أبي الفضل يوسف بن محمّد المعروف بابن النَّحْويّ [٢]، وقد وسمه بـ « عُجالةِ الرّوِيّة في تسميط القصيدةِ النَّحْويّةِ »، وهي قصيدةٌ مشهورة تسمى، « أمّ الفَرَجِ ».

١- المقصود به: أبو عبد الله بن هريرة.

٢- هو يوسف بن محمدبن يوسف التّوزري الأصل، التّلمساني، أبو الفضل، ناظم المنفرجة التي مطلعها:

اشتدي أزمةُ تنفرجي قـد آذن لَيْلُـكِ بالبَلَــجِ

كان فقيهاً يميل إلى الاجتهاد من أهل تلمسان، أصله من توزر، وسكن سجلماسة وتوفي بقلعة بني حمّاد قرب بجاية عام ٥١٣هـ. ومولده سنة ٤٣٣هـ. ترجمته في البستان: ٢٩٩، جذوة الاقتباس ٣٤٦، نيل الابتهاج: ٣٤٩، عنوان الدراية: ٢٧٢ . شجرة النور الزكية: ١٢٦/١.

قال أبوعبد الله المصري: كان منشئُها - رحمه الله - أنشأها عند شدَّةٍ هالت، فاقشعت[1] بفضل الله للحينِ وزالَتْ، وعادت الحالُ إلى أحسنِ ماكانت عليه وآلت، لرؤيا رآها الباغي عليه، قَطَعَ بها وروِّعَ بسببها، فكُفَّتْ يَدُهُ العادية، ورُدَّت غائلته[2] البادية، فهي لهذه المزيّة مِن أوثقِ العدّة، وأوفق أسباب الفَرَجِ بعد الشدّة، وكان بعضُ الشُّيوخِ يحضُّ على حِفْظِها، وأَخْذِ النَّفْسِ منها بحظّها.

قلت: فرأيت أن أُثبت القصيدة بتخميسها، لما وُصف من بسطِها لمقبوضِ الوَحْشةِ وتأنيسها، نظراً إلى الأمْرِ المقصود والمعنى المُعْتَبر، وإغضاءً عن اللَّفظِ فَعَيْبُهُ في مثل هذا مُغْتَفر، وقد قرأتُها بتخميسها على صاحبنا أبي عبد الله، وحدّثني بها عن مخمّسها المذكور قراءةً عن الأديبِ أبي عبد الله محمّد بن يونس بن عبدالرّحمن الهِنْتاني التُّونسيّ قراءةً بها عليه؛ عن الفقيه أبي العبّاس أحمد بن عليّ بن أبي بكر الحِمْيَريّ القَلْعيّ - يُعْرَف بالبَلاَّطي - عن الفقيه الإمام أبي محمّد عبد الله بن مَيمون بن محمّد الغَنَّام القَلْعيّ، عن الفقيه الإمام الصَّالح أبي عبد الله محمّد بن عبد [3] المُعْطي بن عبد الله[3] الأَذْنيّ - بالذال المعجمة والنون ويُعْرَف بابن الرَّمَّاح - عن أبي الفضل ابن النَّحْويّ رحمه الله، ونقلت هذا السَّنَد من خطّ أبي عبد الله المصري مُخَمِّسِها، فقال: [المتدارك]

١- في ت: فاقشعها.
٢- الغائلة: الداهية.
(٣-٣)- سقط من ت.

[تخميس المنفرجة لأبي عبد الله المصري]

[٢٩/ب]

يامَنْ يَشْكو أَلَمَ الحَـرَجِ وَيَرَى عُسْراً قُرْبَ الفَرَجِ[١]

أَبْشِرْ بِشَـذا فَـرَجٍ أرِجِ اشْـتَـدّي أزمَـةُ تَنْفَرِجـي

قَـد آذنَ لَيْلُكِ بالبَلَـجِ[٢]

وارتَحْ للـرَّوحِ فَـلا حَرَجُ فَمَرَاقـي الُّلطْفِ لَهَـا دُرُجُ

ومَعانِـي الضِّيقِ لها فُرجُ وظَـلامُ اللَّيـلِ لَهُ سُـرُجُ

حتَّى يغشاهُ أبو السُّرُجِ[٣]

اليأسُ لِذي البَلْوى خَطَـرُ والبَأسُ مَعَ النُّعمى بَطَرُ[٤]

والقَلْـبُ لَـهُ أبـداً وَطَـرُ وسَحابُ الخيرِ لها مَطَرُ[٥]

فـإذا جـاءَ الإبَّانُ تَجي[٦]

والغافِـلُ عَـنْ هـذا هَمَلُ والنَّفـسُ تَمَلَّكَهـا الأمَلُ[٧]

ومَـلاكُ الخيرِ هُـوَ العَمَلُ وفَـوائـدُ مَولانـا جُمَلُ[٨]

لِشُـروحِ الأنْفُـسِ والمُهَجِ[٩]

١- في ت : ويرى عسري.

٢- أبلجت الشمس: أضاءت. والبلوج: الإشراق.

٣- أبو السُّرُج: الشمس.

٤- في ط: واليأس مع النعمى .....

٥- الوطر: الحاجة.

٦- الإبّان: الوقت والحين. وحذفت همزة تجيء للروي. وهو ممّا يجوز عند الضرورة في الشعر.

٧- الهمل: الضالّ.

٨- في ط: «ملاك». دون واو، وبها لا يستقيم الوزن. جُمَل: كثيرة.

٩- المهج: جمع مهجة، وهي الروح. لشروح الأنفس: لشرح الصدور.

عمَّ الأكوانَ ندًى وجَداً فعَلا الآفاقَ شُموسُ هُدًى[1]
وَرِياضُ الجُودِ تَصُدُّ صَدًى ولهَا أرَجٌ مُحْيٍ أبَداً[2]
فاقصدْ مَحْيا ذاكَ الأرَجِ[3]

للهِ نَسيمُ حَياً أحْيَا ومَسيرُ طَريقٍ ما أعْيَا[4]
فالزمْهُ، فَرُبَّتَما أغْيَا ولَرُبَّتَما فَاضَ المَحْيَا[5]
ببُحورِ الموجِ منَ اللُّجَجِ[6]

ذو العَقْلِ يقومُ بسيِّدِهِ ومُسَدِّدِهِ ومُؤيِّدِهِ[7]
ومُصرِّفِهِ ومُرَدِّدِهِ والخَلْقُ جَميعاً في يَدِهِ
فَذَوُو سعَةٍ وَذَوُو حَرَجِ[8]

وَنِزاعُهُمُ ونُزوعُهُمُ وقَناعتُهُمْ وقُنوعُهُمُ
وسُلُوُّهُمُ وولُوعُهُمُ ونُزولُهُمُ وطُلوعُهُمُ
فإلى دَرَكٍ وعلى دَرَجِ[9]

١- الجدا: العطاء.
٢- الأرج: الرائحة الطيبة.
٣- المحيا: المكان الذي يحيا فيه.
٤- الحيا: المطر والخصب.
٥- فاض المحيا: كثر ماؤه. والمراد خيره.
٦- اللُّجَجُ: جمع لجّة وهي معظم الماء.
٧- في ت: يقوم لسيِّده.
٨- ذوو حرج: ذوو ضيق، من قولهم: حرج عليه أي ضيق عليه.
٩- في ت: وإلى حرج. الدَّرك: أسفل كل شيء. درج: درجات للصعود.

ومَطالعُهـمْ ومَـراقِبُهُـمْ وطَـوالعُهُـمْ وثَواقِبُهُـمْ
[٣٠/أ] ومَثالبُهـمْ ومَنـاقِبُهُـمْ ومَعائشُهُـمْ وعَواقِبُهُـمْ(١)
لَيْسَتْ في المَشْيِ على عِوَجِ
نَفْسٌ عَـدلَتْ نَفْـسٌ ظَلَمتْ نَفْـسٌ سلِمَـتْ نَفْسٌ أَلِمتْ
نَفْسٌ جَهِلَـتْ نَفَسٌ عَلِمَـتْ حِكَمٌ نُسِجَتْ بِيَدٍ حَكَمَـتْ(٢)
ثُمَّ انْتَسِجَتْ بالمُنْتَسَـجِ(٣)
هَذي دَخَلَتْ هذي خَرَجَتْ هَذي بَقِيَـتْ هـذي دَرَجَت
هَذي سَلفتْ هَذي عَرَجَتْ فإذا اقتَصَدَتْ ثمَّ انعرَجَتْ(٤)
فَبِمُقْتَصِـدٍ وبِمُنْعَـرِجِ(٥)
خاضَـتْ بَحْـراً فيهِ لُجَجُ صَدَّتْ قوماً لَمَّا انتهجُوا(٦)
وَهَدتْ قَوْماً فِيها ابتَهجُوا شَهِدَتْ بَعَجَائِبِها حُجَـجُ(٧)
قامَتْ بالأَمرِ عَلَى الحِجَجِ(٨)

١- المثالب: العيوب. والمناقب: الخصال الجيّدة.
٢- حكم جمع حكمة. نسجت هنا بمعنى قدرت.
٣- انتسجت: بمعنى نفذت بالكاف والنون: كن فيكون. المنتسج: استعارة تصريحية لقدرته تعالى.
٤- اقتصدت: اعتدلت. انعَرجَت: مالت.
٥- المراد بقوله: فبمقتصد وبمنعرج: أي بمُدَبّر يدبّر أمرها.
٦- في ط: لها انتهجوا. وانتهج الطريق: استبانَهُ وسلكه.
٧- في ط: فيها انتهجوا. حُجَجٌ، بضمّ الحاء: جمع حجّة أي البرهان أو الدليل.
٨- الحِجَج، بكسر الحاء: جمع حجة أي السنة.

اقـرَعْ بابَـيْ أمَـلٍ ورجَا　　واسلُكْ هَولاً واركَبْ لُجَجَا
فَرَجـاءُ اللهِ هُـدًى ونَجَـا　　ورِضاً بقضاءِ اللهِ حِجـى(١)

فَعَلَـى مَرْكـوزَتِهِ فَعُجِ(٢)

احفَظْ أنْفاسَـكَ كَالسُّعَـدا　　واحذَرْ أنْ تَذْهَبَ عنكَ سُدَى(٣)
وأنْعَـمْ بالّلائـحِ حيـنَ بَـدا　　وإذا انفتَحَتْ أبوابُ هُـدى

فاعجَـل لِخَزائِنِهـا ولِجِ(٤)

وتَـوَخَّ بقَصْـدِكَ آيتَهـا　　وارفَـعْ بالهِـمَّةِ رايتَهَـا
وأنْهَضْ كـي تُدْرِكَ غايتَها　　وإذا حاولْـتَ نِهَايتَهَـا

فاحذَرْ إذْ ذاكَ مِنَ العَرَجِ(٥)

أُتركْ أمْـراً يُجْنيـكَ أذًى　　والزَمْ ذِكْراً يجزيكَ غِـذًا(٦)
واهجُرْ هُجْراً وهَوًى وبَـذَا　　لتكـونَ مِـنَ السُّبَّاقِ إذا(٧)

ماجِئْتَ إلـى تلكَ الفُرَجِ(٨)

١- الحجى: العقل.

٢- عاج على الشيء: عرّج عليه ومال إليه.

٣- في ط: كالصعدا.

٤- لج: فعل أمر من ولَجَ: أي دَخَل.

٥- العَرَج: الميل عن الطريق المستقيم.

٦- في ط: يجديك غدا.

٧- البَذاء: الفحش.

٨- الفُرَج: المتّسع.

[٣٠/ب] بُرْهـانُ الحَـقِّ وحُجَّـتُـهُ   ولِسَانُ الصِّدقِ ولهجتُـهُ(١)
وطَريـقُ الرُّشْـدِ ونَهجَتُـهُ   فَهناكَ العَيْـشُ وبَهْجَتُـهُ(٢)

فَلِـمُبْتَهِـجٍ ولِمُنْتَهِـجِ(٣)

نَفْـسٌ رَضيَـتْ باللهِ جَدَتْ   شَـكَرتْ نعماً مهما شَكِـدَتْ(٤)
وكَذلكَ إنْ بَخُلَتْ جَحَـدَتْ   فَهِجِ الأعمالَ إذا رَكَـدَتْ(٥)

فـإذا ماهِجْـتَ إذاً تَهِـجِ

نَفْـسٌ كَثُفَــتْ فَزُجاَجَتُها   خَبُثَتْ بالهَجْرِ مُجَاجَتُهَا(٦)
وَبَدَتْ فـي الذَّنبِ لَجَاجَتُهَا   وَمَعاصِي اللهِ سَمَاجَتُهَا(٧)

تَزْدانُ لِذي الخُلُقِ السَّمِـجِ(٨)

عَرِّجْ عَنْ ساحِ مَسَاحَتِهَـا   واقبضْ راحاً عَنْ رَاحَتِها(٩)
فَلِتقـوى اللهِ وراحَتِـهَـا   ولطاعَتِـهِ وصَبَـاحَتِهَـا(١٠)

أنــوارُ صَبـاحٍ مُنْبَلِـجِ(١١)

١- في ت: وبهجته.
٢- في ط: فهناء العيش.
٣- رواية الشطر في ت: فلمنتهجٍ وبمنتهج. والمنتهج: الذي استبان طريقه وسلكه.
٤- في ت: بالله حدت، وفي ط: شكرت، جدَت: بلغت الغاية، وشكِدت: أُعطيت من الشكْد: الإعطاء.
٥- هج : فعل أمر من هاج الشيء بمعنى تحرّك وثار.
٦- المجاجة: العصارة.
٧- السَمَاجة: القبح.
٨- في ت: تزداد. وفي الأصل رُسمت باءً إلى جانب (لِذي)؛ فتُقرأ أيضاً: (بذي).
٩- كذا في ت و ط ، وفي الأصل: ولطاعته وصباحتها، كررها في البيتين، وهو سهو.
١٠- صباحتها: إشراقها وجمالها.
١١- منبلج: مشرق ومنير.

فادخُلْ في مَنْسَبِ مَنْصبِهَا		واسلُكْ في مَسْلَكِ مَكْسَبِهَا
واسْمكْ في مَطْلَعِ مَطلبِهَـا		مَنْ يخطِبْ حُورَ الخُلْدِ بِـها

يَظْفَـرْ بالحُـورِ وبالغُنُجِ[1]

يامَــنْ بالحُسْنِ هَوًى عَلِقا		جرِّدْ عَزمـاً وانْفِ العُلَقَا[2]
حُـوراً عِينـاً تَهْـوَى عَلَقـا		فَكُنِ المَرْضيَّ لَهَا بِتُقَـى[3]

تَرْضَاهُ هوًى وتكونُ نَجِـي[4]

بمَعاصِــي اللّهِ القَلْبُ أذِي		وبطَــاعتهِ عُوفِـي وغُذِي[5]
فيهَــا فِــي كلِّ حُـلاكَ خُذِ		واتْــلُ القُــرآنَ بقلــبٍ ذي

حُزْنٍ وبصوتٍ فيـهِ شَجِ[6]

فحِجَــابُ النَّفــسِ وآفَتُهَـا		عُجْــبٌ توليــه سُلافَتُهَا[7]
وأمَــانُ الطُّــرْقِ مَخَافَتُهَا		وصَــلاةُ اللَّيلِ مسـافَتُهَـا

فَاذهَبْ فيها بالفَهْمِ وَجِـي[8]	[٣١/أ]

١- الغُنُج: الدلال.

٢- في ط: المعلقا. والعُلَق: المشاغل.

٣- عَلِقَ: أحبَّ.

٤- كذا في المنفرجة. يريد: نَجِيّاً، لكنّه خَفَّفَ وسكّن ضرورةً.

٥- غُذي: أُطعَم.

٦- شجٍ: حزين.

٧- السُّلافة من كل شيء: خالِصُه.

٨- أصلها وجيء: من الجيئة، وحذفت الهمزة للضرورة الشعرية.

واعمـــرْ بالذِّكرِ مَحانِيهــا		واقطفْ بالفِكْرِ مَجانيها(١)
وآلزَم ماعِشْـــتَ مَغانيهــا		وتــأمَّلْهــَــا ومَعــانِيهَــا
تأتِ الفِــرْدوسَ وتَفتــرجِ

وآلهَــجْ بلطائفِ مَحجرِهــا		وأَبْهَجْ بطرائفِ مَتْجَرِهـا(٢)
وبِمُبَــرِّدِهــا ومُهَجَّرِهـــا		واشرَبْ تَسنيمَ مُفَجَّرِهـا(٣)
لامُمْتَزِجــاً وَبِمُمْتَــزِجِ(٤)

مامِنْ خَلْقٍ أَنْشَــاهُ سُدًى		كُلٌّ بالأَمْــرِ بَــدَا وغَــدَا
أَعْمَـى مَن شَا أزلاً وهَدى		مُـدحَ العقلُ الآتيهِ هُــدَى
وهَوًى مُتَولٌّ عنــهُ هُجي(٥)

هَـــذا بَحْـــرٌ وإفاضَـــتُهُ		ماغَضَّـــتْ منه إغاضَتَهُ(٦)
والصَّعــــبُ تُقَدَّمُ راضَتُــهُ		وكِتــابُ اللهِ رياضَــتُــهُ(٧)
لِعُقــولِ الخَلْــقِ بِمُنْــدَرِجِ

١- في حاشية الأصل: «لعلَّه: معانيها».
٢- المَحْجَرُ: ما حول القرية.
٣- تسنيم: ماء في الجنّة.
٤- أفاد من قوله تعالى في سورة المطففين ٢٧: ﴿ومزاجه من تسنيم. عيناً يشرب بها المقربون﴾.
٥- مُتَولٍّ عنه: منصرف والضمير يعود على العقل. هُجي: من الهجاء.
٦- في ط: عنه.
٧- الصَّعب: نقيض الذلول.

أَسْبـابُ الخَوفِ حُـداتُهُـمُ وأُولـو التَّثبيـطِ عُـداتُهُـمُ
ولَـهُ لاتكـمُـلُ ذاتُهُـمُ وخِيـارُ الخَلـقِ هُـداتُهُـمُ
وَسِواهم مِنْ هَـمَجِ الهَمَجِ[1]

جَنِّـبْ عَبْـداً جَهْـلاً غَفَلاَ واتـرِكْ بـدراً إمَّا أفَـلا[2]
وحُـزِ الإقـدامَ تَحُزْ نَفَلا فإذا كُنْـتَ المِقْدامَ فَلا[3]
تجزَعْ في الحَربِ مِنَ الرَّهَجِ[4]

وَارقُـبْ بَرْقَـاً للسِّـرِّ بَـدا وامـدُدْ لكريـمِ الوَعْدِ يَدَا
واعمُـرْ أوقاتَكَ مُجتهِـدا وإذا أَبْصَرْتَ مَنـارَ هُدَى
فاظْهَـرْ فرداً فَوْقَ الثَّبَجِ[5]

للهِ جِـبـاهُ قَـدْ سَجَـدَتْ في جنحِ اللَّيلِ وَماهَجَدَتْ[6]
أَضْناها الشَّوْقُ وماوَجَدَتْ وإذا اشْتَاقَتْ نَفْسٌ وَجَدَتْ[7]
[٣١/ب] أَلَماً بالشَّـوْقِ المُعْتَلِـجِ[8]

١- الهمج: الرعاع من الناس.

٢- أفل: غاب.

٣- في ط: المقدم، والنَّفَلُ: الغنيمة والهبة.

٤- في ت وط: الهرج. والرَّهجُ: غبار الحرب.

٥- ثبج الرمل: معظمة، وما غلظ من وسطه، وقال الشيخ الأنصاري «الثَّبج: أي الوسط أو المعظم من منار الهدى» انظر طبقات الشافعيّة الكبرى ٥٨/٨ حاشية٩

٦- هجد: نام.

٧- وجد: شكا.

٨- المعتلج: المتكاثر.

أَهْــواءُ النَّفــسِ مُمَـاحِكَةٌ وَرِياضُ الأُنْسِ مُـلاحِكَةٌ(١)
وَشُموسُ الفَضْلِ مُضـاحِكَةٌ وَثَنايا الحَسْنـا ضـاحِكَةٌ(٢)
وَتَمامُ الضِّحْكِ عَلَى الفلَـجِ(٣)

وَبُروقُ الرَّحمةِ قَـدْ لَمَعَـتْ وغُيوثُ النِّعمةِ قد هَمَعَـتْ(٤)
ومَعانِي الحِكْمةِ قد جمعَتْ وعِيابُ الأسرارِ اَجْتَمَعَـتْ(٥)
بأَمانَتِها تَحْـتَ الشُّـرَجِ(٦)

شَمِّـرْ بطـريقِـكَ لاحِبِـهِ واسلُكْ قَصْداً بِمَصَاعِبِهِ(٧)
فالقَصْدُ هُـدًى لِمصـاحِبِهِ والرِّفْـقُ يَـدومُ لِصـاحِبِهِ
والخُرْقُ يَصيرُ إلى الهَرَجِ(٨)

واقمَعْ شَـهواتِـكَ بالزُّهْـدِ واكحُلْ أجفانَكَ بالسُّهْـدِ
وَصِلِ الصَّلَواتِ لِمَنْ يَهدي صَلَواتُ اللّهِ على المهدي الْ(٩)
هـادِي النَّاسَ إلـى النُّهُجِ(١٠)

١- المماحكة: الملاجّة في الكلام، والملاحكة: شدة التئام الشيء بالشيء.
٢- ثنايا الإنسان: هي أربعة أسنان في مقدّم فيه، ثنتان من فوق وثنتان من أسفل.
٣- فلج الأسنان: تباعد ما بينها. وهو حسن فيها.
٤- في ت: بروج الرحمة. وهمعت: نزلت.
٥- عياب: جمع عيبة، وهي وعاء من جلد تُصان فيه الأمتعة كالثياب.
٦- الشُّرَج: العُرى.
٧- اللحب واللّاحب: الطريق الواضح.
٨- الخرُق: الحمق. والهَرج في الحديث: التخليط فيه.
٩- في ط: المهتدي، وبها لا يستقيم الوزن.
١٠- النُّهُج: الطريق المستقيم الواضح.

وإمـــامِ الخَلْـــقِ وخِيـرَتِهِ ووَســــيلـتِهِ وذَخيــرَتِــــهِ
وعلى خُلْصَــانِ عَشيرَتِــهِ وأبـــي بَكْــرٍ في سِــيرَتِهِ

ولِســانِ مَقــالتِهِ اللَّهِجِ(1)

الشَّاهرِ سَـيفَ صَـرامَتِهِ وَمُجهِّـزِ جيشٍ عَرَامَتِـهِ(2)
لمسَــيْلمـةٍ ويمـــامَتِــهِ وأبـي حَفْصٍ وكَــرامَتِـهِ(3)

في قِصَّةِ سـارِيةِ الخُلُجِ(4)

قالِـي الدُّنيـا ذي الطِّمْرَيْنِ ومُزيـلِ الرَّيْبِ مَعَ الرَّيْـنِ(5)
ومُذيـــقِ الكُفْــرِ المُــرَّيْـنِ وأبـي عَمروٍ ذِي النُّورَينِ آلـ(6)

ـمُسْتَهدي المُسْتَحْيِي البَهِجِ

[٣٢/أ] قال الشَّيخ أبو عبد الله - رحمه الله -: هذا النَّظم على أنَّ الشَّـطرَ النُّونُ، وهـو الَّذي تسبق إليه الظُّنون؛ وأمَّا على أنَّ الشَّـطـرَ اللاّمُ - وهـو الَّذي يرتضيه الأعلام - فيكون الرَّصف والنِّظام، والوصف الَّذي يقتضيه الإعظام: [المتدارك]

١- اللهجة واللَّهَجَةُ: جرس الكلام.
٢- العَرَام: الشدة والقوّة.
٣- مسيلمة الكذاب، كان في اليمامة. وأبو حفص: عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
٤- هو سارية بن زُنيم بن عبد الله بن جابر الكناني: صحابيّ من الشعراء القادة الفاتحين، جعله عمر أميراً على جيشٍ وسيّره إلى بلاد فارس سنة ٢٣ هـ ففتح بلاداً، وهو المعنيُّ بقول عمر: ياسارية الجبلَ الجبل. توفي سنة ٣٠هـ انظر الإصابة: ٢/٢-٣ وأضاف سارية إلى الخُلُج، بضم الخاء واللام: قوم من العرب من عدوان.طبقات الشافعية الكبرى ٥٩/٨ ، حاشية٥ .
٥- الرَّين: الصدأ.
٦- أبو عمرو: عثمان بن عفان رضي الله عنه.

المنعِمِ فــي اللأوا المُـجْمِـلْ　　　والمُعْمِلِ للشُّـورى المُكْمِلْ(١)
والقامــعِ للشِّـرْكِ المحْمِـلْ　　　وأبي عمروٍ ذي النُّورينِ الـْ
ـمُسْتَهدي المُستحيي البَهِجِ
جلّى عن جَيْشِ العُسْرِ أذَى　　　وحَمى عَنْ عَينِ الحقِّ قَـذى
وأضَـاعَيْنَاً رَمَقَـتْ وقَـذَى　　　وأبي حَسَنٍ في العِلْمِ إذا(٢)
وافَى بسحَائِبِــهِ الخُلُــجِ(٣)
بــدرٌ يلتـــاحُ بِهــالَتِــهِ　　　وَيُــدِلُّ بنــورِ دلالَتِــهِ
وغُيــومِ عُلــومِ مَقــالتِــهِ　　　تَزهـــو الدُّنـيـا بجلالَتِــهِ
ومحــبٌّ فيــه بذاكَ حُجــي
وعلــى باقي تلكَ العَشَــرهْ　　　وذوي الرِّضوانِ لدى الشَّجَرَهْ
ولُيــوثِ صحــابَتِهِ الخيَرَهْ　　　ونُجــومِ هِدايـتِهِ البَرَرَهْ(٤)
أهلِ الإخلاصِ مَعَ الثُّلُجِ(٥)

زاد المصريّ رحمه الله :

ربِّي هَــبْ لـي عِلْماً يُعْلي　　　يَشْفي ظَمَئي ويقي عَمَلِي(٦)
ويُحَقِّقُ فــي الزُّلفى أمَلِــي　　　وارْحمِ النَّحويَّ معَ ابنِ عَلي
بِجَلالِ عُلاكَ منَ الـوَهَــجِ

١- في ط: اللأواء، وبه لا يستقيم الوزن. واللأواء: ضيق العيش وشدّته.
٢- كذا في ت ، وفي الأصل و ط : وأخاعينٍ، ولا وجه له. وقوله: وأبي عطف على ماتقدّم في الأبيات السابقة.
٣- السحابة الخلوج: الكثيرةُ الماء شَديْدَةُ البرق.
٤- في ت وط: هوايته.
٥- الثُّلُجُ: الفَرِحونَ بالأخبار.
٦- في ت: عملاً يعلي.

قلت: وفي كثير من هذا التَّخميس مقال، وليس لبعض أقسامه بالبيت اتّصال، وأمّا ماخمّس به أوّلاً قوله:

------ ----- ------ وأبي عمرٍ وذي النُّورَيْنِ الْـ

فَغَلَطٌ لاشكَّ فيه؛ لأنّه يؤدّي إلى قطع همزة « المستهدي »، وبقطعها ينكسر [٣٢/ب] البيت لزيادة حرفين على وزن الخبب، وأظن أنّه نبّه على هذا ولم يَفُتْهُ علماً، فلذلك بقي على اعتقاد صحّة الوجه الأوّل.

وأما قوله:

------ ----- ----- صَلواتُ اللّهِ على المَهدي الْـ

وأظنّه خفّف فيه الياء وقطع الهمزة بعدها ليتأتّى له التَّخميس؛ لأنّ الأقسام تبنى على التَّرنُّم كحرف الرّويّ، وذلك موجبٌ للمدِّ والإدغامُ يمنَعُه، ولو بنى الأقسام على الياء المشدّدة كما هي في عروض البيت لَزَادَ حرفاً في أوّل القسم الرّابع ضرورةً؛ لأنّ حركةَ الياء تكونُ إذاً في كلّ قسم مَعدودةً من الّذي بعدهُ لإدماج البيت؛ فإذا عُدَّتْ من [١] القسم الرّابع - وقد قام وزنُهُ - كانت زائدةً وانكسر الوزن ضرورةً، وباللّه التَّوفيق.

وقرأتُ أيضاً على صاحبنا أبي عبد اللّه بعضَ كتابِ « المُذْهبة في الحلي والشِّيَات »[٢] ثم قرأت عليه جميعَها في المرّة الثّانية حسبما يأتي ذكرُه إنْ شاء اللّه؛ وحدّثني بها عن الشّيخ الفقيه العالم أبي الجَيْشِ محمّد بن إبراهيم بن أحمد الأنصاري قراءةً، وعن أبي إسحاق إبراهيم بن محمّد الأزْديني - بياءٍ ونون بعد الدّال - كلاهما عن ناظمها الشّيخ الفقيه القاضي أبي عبد اللّه محمّد بن عيسى بن أصبغ بن المُناصِف [٣]- رحمه اللّه -.

١- في ط: في.

٢- هي أرجوزة تحتوي على ألف بيت مزدوجة، قرأها الوادي آشي على أبي عبد الله اللبيدي. انظر برنامج الوادي آشي ٣٠٤، كما قرأها التّجيبي على أبي عبد الله بن صالح، انظر برنامج التّجيبي ٢٨٣.

٣- هو محمد بن عيسى بن محمد بن أصبغ الأزدي: أديب، عالم من أهل قرطبة، استوطن إفريقية، وانتفع به كثيرون. ولد سنة ٥٦٣هـ وتوفي سنة ٦٢٠هـ، له مؤلفات منها: «الإنجاد في أحكام الجهاد» و«المذهبة» و«المعقبة» و«الدرّة» في الفقه وأصوله، انظر ترجمته في: برنامج شيوخ الرّعيني ١٢٨-١٢٩، المغرب ١/١٠٥.

[مشاركات فقهيّة]

وقد رأيتُ أن أقيّدَ هنا شيئاً ممّا وقعَ كلامي فيه بمدينةِ تُونِس كلأها الله تعالى، مستعيناً بالله ومُستهدياً له. فمن ذلك أنَّ بعضَ أصحابِنا من طَلَبَتِها - حفظَهمْ الله - حكى لي عن الفقيهِ الزّاهدِ المتصوّفِ[1] أبي محمَّد المُرْجاني[2] أنه سُئل في مجلسه عن سبب فرار الشَّيطان من الأذان دون الصّلاة، وشأنها أعظم. ثم أجاب عن هذا بأجوبة منها أنّه يفرُّ من الأذان لئلاَّ يشهد به للمؤذّن، إذلايسمعه[3] شيء إلا شهد له يوم القيامة. قلت: كأنّه من فرط حَسَدِه يروغ عن الشّهادة له، وإن علم أنّه مُسْتَغْنٍ عنها، كما ترى الحسود يتلكّأ في الشَّهادة لمن حَسَدَه [٣٣/أ] بفضيلة أوحقّ، وإن كان في غنى عن شهادته لقيام غيره بها. ولكنَّ هذا الجوابَ يُرَدُّ [عليه][4] مثل السّؤال الأوّل، وهو لِمَ خُصّ الأذان بشهادة كلِّ شيء سمعه دون الصَّلاة؟. فكأنَّه سُئل: لِمَ خُصّ[5] الأذان بفِرار الشّيطان منه؟ فقال: لأنّه خُصَّ بشهادة الأشياء له، ومنها أنّ الأذان بمثابة دعاء الملك لخاصّته لحضور سرّ، وإذا دعا الدّاعي تميّزت خاصّة الملك من غيرهم. قلت: وهذا جواب غير مُحصّل، فإنّ التّمييز إنّما يكون عند حضور السرِّ، فكأنّ فرار الشّيطان من الصّلاة أنسب

١- ليست في ت.

٢- هو عبد الله بن محمد العرشي المرجاني، فقيه، واعظ، صوفي، قدم مصر ووعظ بها واشتهر في البلاد. ومات بتونس سنة ٦٦٩هـ وامتُحِن وأفتى العلماء بتكفيره ولم يؤثر فيه فعملوا عليه الحيلة وقتلوه. ترجمته في وفيات ابن قنفذ ٣٣٥- طبقات الشعراني ٢٠٣/١- شذرات الذهب ٤٥١/٥.

٣- في ط: لا يسميه.

٤- من ت و ط .

٥- في ت و ط: يُخَصُّ.

لهذا المعنى إذ هي السرّ الّذي دعي إلى حضوره، وقد سمّاها النّبيُّ ﷺ مناجاة فقال: «إنّ المُصَلِّي يُناجي ربَّهُ فلينظرْ بِما يُناجيهِ بهِ»[١].

ومنها أنّه يَفرّ من الأذان ويُرسَلُ على المُصلّي ليقع اختبار المخلص من غيره. قلت: وهذا قاصر جداً فإنّه لم يزد على ما في الحديث من تسلّطه في الصّلاة، وعدم تسلّطه في الأذان، ولم يُجب عن السّؤال بشيء. وهذه الأجوبة على وَهْيها أمثل ما حُكي لي عنه.

وقد كنت أجبتُ النّاقل عنه حين أورد السّؤال عليّ، قبل أن يذكر أجوبته، بأنّه يمكن أن يقال: إنّ طاعةَ الله بالجملة محاربةٌ للشّيطان، وجهادٌ له، والعدوّ إنّما يفرّ عند كشف الغِطاء وبلوغ الغاية في المجاهرة بالعداوة، وليس في العبارات[٢] أبلغ في هذا المعنى من الأذان وقد عرضت هذا الوجه على الشّيخ الفقيه الصّالح أبي محمّد عبد الله بن عبدالسّيّد بمدينة أطْرابُلُس[٣] فاستحسنه وقال لي: إنّ هذا يؤكّده قوله ﷺ: « سَاعتانِ تُفتحُ لَهُما أبوابُ السَّماءِ، وقلَّ داعٍ تُرَدُّ عليهِ دَعْوتُهُ؛ حَضْرةُ النّداءِ للصّلاةِ، والصَّفُّ في سبيلِ اللهِ[٤] » يعني أنّهما ساعتا جهاد.

---

١ – أخرجه ابن حنبل في مسنده ٣٤٤/٤ ومالك في الموطأ ٦٣ والبيهقي في سُننه ١٢/٣ وكنز العمال ٥٢٩/٧.

٢ – في ط : العبادات.

٣ – أطرابُلُس: مدينة ليبية على شاطئ البحر. انظر ياقوت ٢١٧/١ .

٤ – الحديث في الطبراني الكبير ٤٠/٦ و ١٥٩– البيهقي ٤١١/١– الجامع الصغير ٣٠/٢– كنز العمال ١٠١/٢– فيض القدير ٨١/٤.

وأجابَ عن هذا بعضُ أصحابِنا بأنّ المؤذِّن داعٍ للخيرِ، والشّيطان داعٍ إلى الشرِّ، والضِّدّان لايجتمعان، وهذا مليح رشيق، وفي مثل هذا [٣٣/ب] المجال مُتّسَعٌ للكلام وبالله التّوفيق.

وأمّا تخصيص الأذان بالشّهادة له[١] فيمكن أن يقال: إنّ ذلك لأنّه دعاء إلى الله، وإقامة حجّة على عباده، فاحتيج إلى الشّهادة على التّبليغ [٢]كما احتيج[٢] إليها للفصل بين المتحاكمين، فهذه الشّهادة كشهادة الأمّة يوم القيامة بتبليغ الأنبياء إلى الأمم على ماجاء في الحديث، والله أعلم.

ومن ذلك أن سائلاً سأل عن قوله تعالى ﴿ **أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا** [٣]**فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى**﴾[٤] وقال: لِمَ كرّر لفظ إحداهما[٣]؟ والأليقُ بالإيجازِ أن يُضمرَ فيكونُ اللّفظُ : فتذكّرُها الأخرى. وأجبتُ إذ ذاكَ بجوابٍ غيرِ مخلصٍ حسبما حضَرني، ولم يكنْ لمن حَضَر فيه جوابٌ، ثمّ مَنَّ اللّه جلّ وعَلا بفَهْم المعنى في ذلك وهو بديع فيما أرى والله أعلم، وهو أنَّ إعادة لفظ «إحداهما» لتعادل الكلامِ، وتوازنِ الألفاظِ في التّركيب، وتماثلِ أقسامِ الكلامِ فيما اشتملت عليه من المفرداتِ وهو المعنى، في التّرصيع، ولكنّ هذا أبلغُ وأبدعُ لأنَّ التّرصيعَ توازن الألفاظ من حيث صيغَتُها، وهذا من حيثُ تركيبُها

---

١ - ليست في ت.
٢-٢- سقط من ت و ط .
٣-٣- سقط من ت .
٤ - البقرة: ٢٨٢.

وكأنّه ترصيع معنويّ وقلّما يوجد إلاّ في نادر من الكلامِ، وقد استغربَ أبو الفتح بن جنّي[1] ماحُكي عن المتنبّي في قوله:[2] [الطويل]

وَقَدْ عادَتِ الأجْفَانُ قَرْحاً مِنَ البُكـا وَعَادتْ بَهاراً في الخُدودِ الشّقائِقُ[3]

قال: سألته هل هو قَرْحَى ممال أو قرحاً مُنَوّن؟ فقال لي: قرحاً مُنَوّن، ألاترى أنَّ بعده: وعادت بهاراً. قال: يعني أن بَهاراً جمع بَهارة[4]، وقرحاً جمع قرحة. ثم أطنب في الثّناء على المتنبّي واستغراب[5] فطنته لأجل هذا.

وبيان ماذكرت في الآية أنّها متضمّنة لقسمين: قسم الضّلال وقسم التّذكير، فأسند الفعل الثّاني إلى ظاهرٍ حسب إسناد الأوّل ولم يوصل بضمير مفعول، لكوْن الأوّل لازماً، فأتى بالثّاني على صورته من التَّجَرُّد [٣٤/أ] عن المفعول، ثمَّ أتى به أخيراً بعد اعتدال الكلام، وحصول التّماثل في تركيبه، ولو قيل:إنَّ المفعول حُذف لكان أبلغ في المعنى المذكور، وتكون الأخرى بدلاً أو نَعْتاً على جهة البيان، كأنّه قال: «إن كانَ ضلال من إحداهما، كان تذكير من الأخرى»، وقدّمَ على الأخرى لفظ إحداهما ليسْنِدَ الفعلَ الثّاني إلى مثل[6] ما أسند إليه الأوّل لفظاً ومعنىً والله أعلم.

---

١ – هو عثمان بن جنّي الموصلي من أئمة الأدب والنحو، ولد في الموصل، وقرأ على أبي علي الفارسي وصحبه أربعين عاماً. توفي سنة ٣٩٢هـ في بغداد. له ترجمة في بغية الوعاة ٢/١٣٢ - إنباه الرواة ٢/٣٣٥ـ البلغة ١٣٧.

٢ – ديوانه ٢/٣٤٢.

٣ – في الديوان: وقد صات، وصار.

٤ – أنظر كلام ابن جني فيما نقله عنه العُكبري في شرح الديوان ٢/٣٤٢.

٥ – في ط: واستغرب.

٦ – ليست في ط.

ولمّا وقع السّؤالُ في هذا عَرَضَ لي سؤالٌ في قوله تعالى في هذه الآية: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ﴾[1] وهو أنَّ الضّميرَ في: «يكونا» للرّجلين لأنَّ الشّهيدين قُيِّدا بأنّهما من الرّجال، فكأنَّ الكلام: فإن لم يكن الرّجلان رجلين وهذا محال. ولما سألت عن هذا لم يجب عنه أحد، ثم أجابوا بعد ذلك بأجوبة غير مرضية، منها ما قال الفارسي[2] في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ﴾[3] أنَّ الخبر هنا أفاد العدد المجرَّد من الصِّفة، وهذا ضعيف؛ إذ وضع فيه لفظ الرّجلين موضع لفظ الاثنين، وهو تجوّز بعيد.

والصِّفة الّتي ذكر الفارسيّ التَّجرّد منها هي الرّجوليَّة أو الأنوثيَّة أو غيرهما من الصّفات، فكيف يكون لفظ موضوع لصفتها دالاً على نفيها؟ وأيضاً فإنّ جواب الفارسيّ فيه نظر، وذلك أنَّه لم يزد على أنَّ جعل نفسَ السّؤال جواباً، كأنَّه قيل له: لِمَ ذكر العدد وهو متضمِّن الضّمير فقال: لأنَّه يفيد العدد المجرّد فلم يزد إلا لفظ التَّجَرُّد.

وممَّا أجابوا به أنّ «رجلين» منصوب على الحال المبيّنة، و« كان » تامّة وهذا أظرف من الأوّل فإنَّه سئل عن وجه النَّظم،وأسلوب البلاغة،ونفي مالايليق بها من الحشو، فأجاب بالإعراب، ولم يجب عن السّؤال بشيء،

---

١ – سورة البقرة: ٢٨٢.

٢ – الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي الأصل، أحد أئمة العربية. دخل بغداد سنة ٣٠٧هـ وقدم حلب سنة ٣٤١هـ، وأقام مدة عند سيف الدولة، ثم عاد إلى فارس وتوفي سنة ٣٧٧هـ. ترجمته في إنباه الرواة ١/٢٧٣، بغية الوعاة ١/٤٩٦، البلغة ٥٣ وفيها وفاته سنة ٣٧٦هـ، شذرات الذهب ٣/٨٨.

٣ –سورة النساء: ١٧٦.

والّذي يُرَدُّ عليه وهو حال، ومازدنا[1] إلاّ التّكليف[2] في جعله حالاً. والّذي يظهر لي من الجواب في هذا هو أن « شهيدين » لمّا صحّ أن يطلق على المرأتين بمعنى شخصين شهيدين قيّده تعالى بقوله: ﴿من رجالكم﴾[3]، ثم أعاد الضّمير في قوله: ﴿فإن لم يكونا﴾ [٣٤/ب] على الشّهيدين المطلقين، وكان عوده عليهما أبلغ ليكون نفي الصّفة عنهما كما كان إثباتها لهما، فيكون الشّرط موجباً ومنفيّاً عن الشّهيدين المطلقين؛ لأنّ قوله ﴿من رجالكم﴾ كالشّرط، كأنّه قال: إن كانا رجلين، وفي النّظم على هذا الأسلوب من الارتباط وتعانق الكلام، وجريه على نمط واحد مالاخفاء به، كما أنّ في ضدّه من الاختلاف والتّزايل[4]، والتّدابر والتّخاذل مايُذهِبُ رونق الكلام، ويُبْلي جدّة[5] الفصاحة وبالله التّوفيق.

والّذي يظهر لي أيضاً من الجواب في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ﴾[6]. هو أنّ الضّمير[7] هنا وضع موضع الظّاهر اختصاراً[8] لبيان المعنى، بدليل أنّه لم يتقدّمه مايعود عليه لفظاً، فكأنّه قال: فإن كان الوارث اثنتين، ثم وضع ضمير الاثنتين موضع الوارث الّذي هو جنس لمّا كان المراد به الاثنين؛ وأيضاً فإنّ الإخبار عن الوارث-وإن كان جنساً- باثنتين فيه تفاوتٌ ما، لكونه مفرد اللّفظ؛ فكان الألْيق بحسن النّظم والأجرى[9] على

---

١ - في ت: زادنا.
٢ - في ت: التكلّف.
٣ - البقرة: ٢٨٢.
٤ - ليست في ت.
٥ - في ت: جودة.
٦ - سورة النساء: ١٧٦.
٧ - في ت و ط: المضمر.
٨ - في ت: انتصاراً وهو تصحيف.
٩ - في ت: والجري.

منهج الإيجاز أن يوضع المضمر[1] موضع الظّاهر، ثم يجري الخبر على مَنْ حُدِّث عنه، وهو الوارث، فيجري الكلام في طريقه، مع الإيجاز في وضع المضمر موضع الظّاهر، والسّلامة من تفاوت اللّفظ في الإخبار عن لفظ مفرد بمثنّى؛ وهذا - لعمر الله - ممّا لايُنال إلاّ بالتّأييد الإلهيّ، والعصمة الرّبانيّة.

ونظير هذا ممّا وضع[2] فيه اسم موضع غيره إيجازاً،ثم جرى الكلام مجراه في الحديث عمّن هُوَله، وإن لم يذكر قولُهُ تعالى﴿ **وكمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بأسُنا بَيَاتاً أوْهُمْ قائِلون**﴾[3]. فعاد هذا الضّمير والخبر على أهل القرية الّذين أقيمت القرية في الذِّكر[4] مقامهم، فجرى[5] الكلامُ مجراه مع حصول الإيجاز في وضع القرية مَوضعِ أَهْلِها، وفُهِم المعنى من غير كلفةٍ، وهذه الغاية في البيان يقصر عن مداها شأو الإنسان وبالله التّوفيق.[٣٥/أ]

[ذكر القيروان]

ثم وصلنا إلى مدينة القيروان، فدخلتها مُجِداًّ في البحث غيرَ وان[6]، فلم أر إلاّ رسوماً مَحَتْها يد الزّمان، وآثاراً يقال عنها: كانَ وكان، والأحياءُ من أهلها جفاةُ الطّباع، مالهم في رقّة الحضارة باع، ولافي معنى من

١ - في ت: الضمير.

٢ - في ت: وقع.

٣ - سورة الأعراف: ٤.

٤ - «في الذكر»: سقط من ت.

٥ - في ت: لجري.

٦ - الونى: التّعَبُ والفترة.

المعاني الإنسانيَّة انطباع، خَفَتَ نَفَسُ العلمِ بينَهم فلم يبقَ به رمق[1]، وكسدتْ سوقُ المعارفِ بينهم فياسُخْنَةَ[2] عَيْنٍ مَنْ رَمَق[3].

والمدينة نفسُها ليسَ لها بَرٌّ ولابحر، ولاسحر ولانحر، وضعت في سَبَخَةٍ[4] قرعا، لاماء بها ولامرعى، ولاتنبتُ أصْلاً ولا تقلُّ فَرْعا، وما كان حالُها في القديم إلا آيٌ من آيات هذا الدِّين القويم؛ إذ أسَّسها المخلصون من أهله، المتمسّكون بِحَبْلِه، السّالكون لحَزْنِه[5] وسَهْلِه، أهل الصّرائم[6] النّافذة الماضية، والصّوارم القاضبة القاضية، والهِمَم الغَالبة العالية، فرسان[7] الحراب والمحراب[8]، وليوث الطّعان والضّراب، رضي الله عنهم ماساح في الدّوِّ[9] فَدْفَدُ[10]، ولاح في الجو فَرْقَدُ، وقد كان شأنُ القيروانِ في غابر الأزمان بحيث لايجهلُهُ إنسان، ولايحصّله لسان. حسبكَ ببلدٍ وُضِعَتْ الأوضاعُ في فَضْلِهِ، ومُلِئَتْ الأسماعُ من وصف[11] وابلِهِ وطَلِّهِ، مأوى العُلماءِ

---

١ – الرَّمَقُ: بقية الحياة.

٢ – سَخُنَتْ العين: ضد قرّت.

٣ – الرَّمَقُ: إدامة النظر.

٤ – السَّبخة: أرض ذات ملح ونزّ.

٥ – الحزن: ماغلظ من الأرض.

٦ – في ت و ط: الغرائم، والصريمة: العزيمة على الشيء وقطع الأمر.

٧ – في ت: فلسان، وهو تصحيف.

٨ – ليست في ت.

٩ – الدّو: الفلاة الواسعة.

١٠ – فدفد الرجل: إذا عدا هارباً من سبع أو عدو. التاج: فدّ.

١١ – ليست في ت.

والصُّلحاء في حياتهم، وكِفاتُهم[1] بعد وفاتهم. بلدٌ يناظر به إقليم، ومتى ذُكِرَ علماؤه فليْسَ إلاّ التّسليم، ولكنّها الأيّام إذا أعطت أخذت، وكلما عَطَتْ[2] نَبَذَتْ، لاتلوي على متعذّر[3]، ولاتعرف فضل المعذر على المعذر، إن سالمت مالَسَتْ[4]، وإن هادنت[5] داهنت. وإن رافقت فارقت، ومهما حلَتْ ماحلَتْ، ﴿لاتُبْقي وَلاَ تَذَرُ﴾[6] فليكن العاقل منها على حذر[7]: [البسيط]

لاتَطمئنَّ إلى حَظٍّ حَظِيتَ بِهِ ... ولاتَقُلْ باغْتِرَارٍ: صَحَّ لِي وثَبَتْ

فمَا اللّيالي وإنْ أعطَتْ مقادتَها ... إلاّ عِدا المرْءِ مَهما استَمكَنَتْ وثَبَتْ[8]

ولم أرَ بالقيروان مايؤرِّخ ولاما[9] يتهمّم بذكره سوى جامعِها ومقبرتِها.

---

١ – الكِفاتُ: الموضع الذي يُضَمّ فيه الشيء ويقبض. وكِفاتُ الأرض: ظهرها للأحياء، وبطنُها للأموات وهو المقصود هنا؛ وقد استفاد من الآية ٢٥ من سورة المرسلات﴿ألم نجعلِ الأرض كفاتا . أحياءً وأمواتا﴾.

٢ – في الأصل: أعطت، وفي ت: عضت، وأثبتُّ ما جاء في ط وهو الصواب؛ وعَطا الشيءَ: تَنَاوَله.

٣ – في ت : مُعذِر.

٤ – في ت : سلمت، وفي ط : سالمت .

٥ – في ط: هادت، وفي ت : هدنت .

٦ – سورة المدثر، من الآية: ٢٨.

٧ – البيتان في الحلل السندسية ٢٤٦/١ دون نسبة.

٨ – في ت: أعطت صداقتها

٩ – ما: ليست في ت.

[جامع القَيْرَوان]

أما جامعُها: فهو من الجوامعِ الكبارِ، المتقنة الرَّائقَة المشرقة الأنيسة، ووسطه [٣٥/ب] فضاء مُتّسعٌ، وكان المؤسِّسُ له، والمقيمُ لقبلته الرَّجل الصَّالح عُقْبَةُ بنُ نافعِ الفِهْري[١]، المعروف بالمُستجاب، مع جماعة من الصَّحابةِ والتَّابعينَ، وهم المؤسِّسون لمدينة القيروان.

ويحكى أنَّه لمّا أمرهم ببنائها قالوا له: إنَّك أمرتنا أن نبني في شُعَبٍ[٢] وغياض، ونحن نخاف من السِّباع والهوام، فمضى معهم حتَّى وقف عليها وقال: أيَّتها السِّباع والهوام؛ إنّا أصحاب رسول الله ﷺ أردنا أن ننزل هـهنا، فارحلْنَ عنّا. فرأى النّاس عَجَباً؛ رأوا الأسوَد تحملُ أشبالَها، والذّئاب تحملُ أجراءَها، والحيّاتِ تحملُ أولادَها حتَّى ارتحلن جميعاً.

ويقال: إنّه قد مرّ عليها أربعون سنة لم يُرَ[٣] فيها حيّة لدعوته رضي الله عنه، فلمّا بنوها طافَ حولها عُقبة وأصحابُه ودَعَوا الله لها[٤] وأسَّسوا مسجدها، وأقام عقبة قِبْلَتَها (٥بروَيا رآها[٦]، وقد سألت إمام جامعها ومن حضر معه عن سَمْتِ قِبْلَتِه٥) فلم أجد أحداً منهم يعرفه، ولم أبتْ به فأتعرَّفَ

١ - عقبة بن نافع الفهري: قائد، فاتح، ولاه عمرو بن العاص إفريقية ففتح كثيراً من البلدان حتى وصل إلى البحر المحيط، قتله الفرنجة في تهودة مع مجموعة من جنوده سنة ٦٣هـ. انظر ترجمته في رياض النفوس ١/٦٢- البيان المغرب ١/١٩-٣٢- الاستقصا ١/٣٦-٣٨ .

٢ - في ت: شعاب، وفي ط: شعراء.

٣ - في ت مما : تُرى.

٤ - ليست في ت و ط .

(٥-٥) - سقطت من ت.

٦ - ذكر أبو زيد الدباغ تفصيل ذلك فقال: «اختلف الناس في قبلة هذا المسجد، فاغتمّ عقبة لذلك ودعا الله عز وجل فأتاه آت في منامه وقال له: إذا أصبحت فاحمل لواءك على عاتقك، => => =>

ذلك بالنّجوم إلاّ أنّهُ قويَ عندي[1] بالحَدْسِ[2] أنّها كما قيلَ إلى المُنقَلب الشّتَويّ أو بمَيْلٍ يَسيرٍ إلى الجَنوبِ، ودخلنا به بيتَ الكتب فأُخرِجَتْ لنا مصاحفُ كثيرةٌ بخطٍّ مشرقيّ، ومنها ماكُتب كلّه بالذّهب. وفيها كتبٌ مُحبَّسةٌ قديمةُ التّاريخِ من عَهْدِ سَحنونَ[3] وقبلَهُ، منها: موطّأُ ابن القاسم[4] وغيره. ورأيت بها مصحفاً كاملاً مضموماً[5] بين لوحين مجلّدين غيرَ منقوطٍ

=> => فإنك تسمع بين يديك تكبيراً لا يسمعه أحد من المؤمنين غيرك، فالموضع الذي يقطع عنك التكبير فيه فهو مصلاّك وهو محراب مسجدك، فاستيقظ من نومه وهو في المسجد ومعه أشراف قريش فتوضأ، فلما طلع الفجر صلى ركعتين فإذا بالتكبير بين يديه فقال لمن حوله: أتسمعون شيئاً؟ قالوا: لا، فعلم أن الأمر من عند الله، فأخذ اللواء وجعله على عاتقه وأقبل يتبع التكبير حتى وصل إلى موضع المحراب، فانقطع التكبير، فركز لواءه وقال هذا محرابكم. فاقتدى به جميع مساجد المغرب». معالم الإيمان ١/٩- وانظر: البيان المغرب ١/٢٠-٢١ .

١ - ليس في ط.

٢ - الحَدْسُ: الظنّ والتخمين.

٣ - هو عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي: قاضٍ، فقيه، انتهت إليه رياسة العلم بالمغرب. ولد سنة ١٦٠هـ بالقيروان، وتتلمذ على خير علمائها. كان زاهداً لا يهاب سلطاناً في حق يقوله. ولي القضاء بالقيروان سنة ٢٣٤هـ واستمر إلى أن مات سنة ٢٤٠هـ. ترجمته في قضاة الأندلس ٢٨- وفيات ابن قنفذ ١٧٤- الديباج المذهب ١٦٠- معالم الإيمان ٢/٤٩ .

٤ - عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة العتقي المصري: فقيه جمع بين الزهد والعلم. تفقه بالإمام مالك ونظرائه، ولد بمصر سنة ١٣٢هـ، وتوفي بها سنة ١٩١هـ. له «المدوّنة» في الفقه المالكي. ترجمته في: وفيات الأعيان ٣/١٢٩- الديباج المذهب ١٤٦- شجرة النور الزكية ١/٥٨- وفيات ابن قنفذ ١٥٠.

٥ - ط: مضموناً.

ولامَشكولٍ، وخطّه مشرقيٌّ بَيِّنٌ جداً، مليح، وطولُهُ شِبرانِ ونصف في عَرْضِ شبرٍ ونِصْفٍ، وذكروا أنّه الّذي بعثَهُ عثمان - رضي الله عنه - إلى المغرب وأنّه بخطّ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما والله أعلم.

[مقبرة القيروان]

وأما مقبرتُها فهي من المزاراتِ العظيمةِ الشّريفة، وفيها من الأفاضل وأخيار الأمّة ما يقصُرُ عنه الوصفُ، وبها قبر أبي زَمْعَةَ البَلَوِيّ[1] صاحب رسول الله ﷺ، وقبره مشهور بها، وكذلك قبر الشّيخ [الوليّ][2] الفقيه العالم أبي الحسن عليّ بن محمّد القابِسيّ[3] رحمه الله. [٣٦/أ]

وأمّا قبر الشّيخ [الفقيه العالم][4] أبي محمّد عبد الله بن أبي زَيْد - رحمه الله - فهو بداره داخل البلد[5]، وفي بيت منه على يسار الدّاخل،

---

١ - أبو زمعة البلوي: صحابي ممن بايع النبي ﷺ بيعة الرضوان تحت الشجرة. نزل بمصر وغزا إفريقية مع معاوية بن حديج، ومات هناك بعد سنة ٣٤هـ، ودفن بأرض القيروان قبل بنائها. ترجمته في: الإصابة ٧٧/٤- الاستيعاب ٨١/٤- رياض النفوس ٥٤/١-٥٥ معالم الإيمان ١٠/١.

٢ - زيادة من ت.

٣ - هو علي بن محمد بن خلف المعافري القيرواني: فقيه مالكي، كان حافظاً للحديث وعلله ورجاله، من أهل القيروان، رحل إلى المشرق سنة ٣٥٢هـ وعاد إلى القيروان ٣٥٧هـ، تولى الفتيا مُكرهاً، توفي سنة ٤٠٣هـ بها بعد أن عمي في كبره. ترجمته في: معالم الإيمان ١٦٨/٣- نكت الهميان ٢١٧- الديباج المذهب ١٩٩- وفيات ابن قنفذ ٢٢٧ .

٤ - زيادة من ط.

٥ - هو عبد الله بن عبد الرحمن أبي زيد النّفزاوي: فقيه مالكي، نسبته إلى نَفْزَة مدينة جنوب تونس، ولد في القيروان سنة ٣١٠هـ، كان يلقب بقطب المذهب وبمالك الأصغر. توفي سنة ٣٨٦هـ، له تصانيف أشهرها «الرسالة» وهي خلاصة الفقه المالكي. ترجمته في: الديباج المذهب ١٣٦- معالم الإيمان ١٣٥/٣ وفيات ابن قنفذ ٢٢١ .

وقد زُرتهُ ودخلت البيت فوجدت فيه عدّة قبور، وسألت العجوز القيّمة على الدّار عن قبره فأخبرتني أنّه الّذي في وسط البيت المقابل للباب، فنظرت تاريخه فوجدته لِغيْره، ثم أتيت الّذي على يسار الباب، وعليه دكّان مبني، فقرأت في حجر من رُخام عند رجليه أنّه قبر الشّيخ أبي محمّد وأنّ وفاته كانت ليلة الجمعة الثّامن والعشرين أو الثّامن عشر من شعبان[1] -الشكّ منّي- سنة ستّ وثمانين وثلاث مئة، فعرّفْتُ الشّيخ الفقيه المحصِّل أبا زَيْد عبدَالرّحمن بن محمّد بما قالت العجوز، وبما وجدت من التّاريخ فقال لي: طرأ في ذلك مشكل، وذلك أنّه كان فيما مضى قد احتيج إلى تجديد السّقف، واستقبحوا الهَدْمَ عليهم فأُخْرِجَتْ توابيتهم إلى بيتٍ آخر، فلما أُصْلِحَ السّقفُ وأرادوا ردَّ التّوابيتِ أشكلت عليهم، وكان الشّيخُ أبو محمّد مدفوناً قُبالةَ الباب كما ذكرتِ العجوزُ، فلما أعيد دَفْنُهم غلب على ظنون أكثر النّاس أنّه دفن على اليسار حيث الدّكان والتّاريخ.

[لقاؤه للدّبّاغ]

وقد بذلت وُسْعي إذ دخلتُ القيروان في البحثِ عمّن بها من أهلِ العلمِ، فلم أجدْ بها من يُعتبر وجودُهُ، ولايَسَعُ جَهلَهُ، سوى هذا الشّيخِ الفقيهِ المحدّث، الرّاويةِ المتفنّنِ، أبي زَيْد عبدالرّحمن بن محمّد بن عليّ بن عبد الله الأنصاريّ الأُسَيْدي من ولد أُسَيد بن حُضَير[2] رضي الله عنه، ويعرف

---

١ - يبدو أنّ التاريخ الثاني هو الأقرب للصّواب، ولكن يوم الجمعة يوافق السابع عشر من شعبان -وليس الثامن عشر- من سنة ست وثمانين وثلاث مئة.

٢ - أُسيد بن الحضير بن سماك بن عتيك الأوسي: صحابي، كان شريفاً في الجاهلية والإسلام، شهد العقبة الثانية، وكان أحد النقباء الاثني عشر، شهد أحداً والخندق. وفي الحديث: «نعم الرجل أسيد بن حضير» توفي في المدينة سنة ٢٠هـ. ترجمته في: الإصابة ٦٤/١- صفة الصفوة ٥٠٢/٣- طبقات ابن سعد ٦٠٣/٣-٦٠٧.

بالدبّاغ. لقيتُهُ يومَ وَرَدْنا[1] القيروانَ فرأيتُ شيخاً ذكيّاً حَصيفاً ذا سَمْتٍ[2] وهيئة وسكونٍ ظاهر، مُحبّاً لأهل العلم، حَسَنَ الرَّجاءِ برَّ اللّقاءِ، لم يؤثّر الكِبَر في جسمه على علوّ سنّه ولاتَغَيَّر شيءٌ من ذِهْنِه وحواسه، سألْتُهُ عن مولده فقال لي: سنةَ خمس وستّ مئة. وهو - حفظه الله - من أهلِ التّهمّمِ والعِنايةِ بالعلم، مع عَدَمِ[3] المعتني به والطّالبِ له، موطّأ الأكناف، ليّنِ الجانبِ، جميلِ العِشْرة، على سَنَن [٣٦/ب] المشايخ من أهل العِلْمِ والفَضْل، أوْحدَ وقتهِ روايةً ودرايةً، لقيتُ من بِرِّه وحُسْنِ خُلُقِه، ورِقّةِ شمائِلِه مالم إِخَلْ مثلَهُ باقياً، وماوجودُهُ بالقَيْروانِ في هذا الأوان إلاّ من جملة بَركاتِ سلَفِ أهلِه، وقد نيّف شيوخه على الثّمانين، وله «برنامج» ضَمّ فيه أسماءَهم وماروى عنهم، وقد قرأت عليه بعضَهُ، وأجازني في كلٍّ ماتضمّنه، وماشذّ عنه من رواياته إجازةً عامة، وكذلك أجاز ولدي محمّداً - وفّقه الله - وكتب لي بذلكَ خطَّ يدِه، وقال لي مراراً: إذا قضى الله حاجتك وحَججتَ، فلا تُقمْ في البلاد فإنّي كثيرُ الشّفَقَةِ على ولدك، وقد أوقع الله حبَّهُ في قلبي منذ ذكرتَهُ لي.

ومن عجيب أخلاقه أنّي قلّما طلبتُ جُزْءاً لأنقل منه إلاّ وهبهُ لي، وقد أعطاني أكثر من عشرة أجزاءٍ من فوائده وفوائد شيوخهِ وفهارسِهِمْ، وقال لي: أنت أولى بها منّي، فإنّي شيخٌ على الوداع، وأنت في عنفوان عمركَ، ومن حين[4] رأيتك انْغَرَزَ حبُّك في قلبي.

---

١ - في ت: ورودنا.

٢ - الحصيف: الكامل ذو الرأي الجيد. والسَّمْتُ: حسن النحو في مذهب الدين، والسَّمْتُ: هيئة أهل الخير.

٣ - في ط: قلّة.

٤ - ليست في ت.

وله مجموعاتٌ وتواليفُ، ونَظْمٌ جيّد كثير، ومُشاركةٌ في العلوم: نقليِّها وعقليِّها وألفّ كتاباً حَسَناً مفيداً في طبقات من دخل القَيْروان من الفضلاء منذ دخلها الإسلام إلى زمانِهِ، وهو كبيرٌ في مجلّدين وسمّاه: «معالمَ الإيمان وروضاتُ الرّضوانِ في مناقبِ المشهورينَ من صُلَحاءِ القَيروان»[1]. وقد ذكر لي شيخُنا[2] الفقيهُ العالمُ إمامُ ديارِ مصر أبو الفتح محمّد بن عليّ بن وَهَب القُشَيْريّ أنّه كان[3] كلّف الفقيه الأوحد الفاضل[4] أبا العبّاس الغماريّ التُّونِسي[5] - رحمه الله - استنساخَ هذا الكتابِ له حين صدر من المشرقِ، وأنّه لمّا وصلَ إلى تُونِس اعتنى باستنساخِهِ لهُ حتّى كَمُلَ، ثم اعتنى بتصحيحِهِ ومقابلتِهِ، فلمّا فرغَ منهُ توفيَ فبيع في تَرِكَتِهِ، وأثنى على مؤلّفه المذكور كما ينبغي؛ وقد[6] حدَّثني به مناولةً. وسألته لِمَ لمْ يذكر فيه أبا الحَسَن اللّخْميّ فقال لي: [7]لم يثبتْ عندي أنَّهُ دخلَ القيروانَ، وسألته عن تاريخ وفاته فقال لي[7]: [٣٧/أ] توفي سنة ثمانٍ وسبعين وأربع مئةٍ، وذكر لي أنّه

---

١ - طبع غير مرة مع زيادات عليه لابن ناجي، وسمي «بمعالم الإيمان في معرفة أهل القيروان» ونسبه البغدادي لابن ناجي القيرواني. انظر إيضاح المكنون ٤/٥٠٤.

٢ - في ت: شيخي.

٣ - ليست في ت.

٤ - في ت: الأفضل.

٥ - هو أحمد بن عيسى بن عبد الرحمن الغُماري: قاضٍ، أديب، فقيه، مشارك في عدّة علوم من أهل بجاية، تعلم بها وبمصر، وعاد فسكن تونس وتولى القضاء، توفي بتونس سنة ٦٨٢هـ. ترجمته في: عنوان الدراية ١١٢-١١٣، نيل الابتهاج ٦٣، تعريف الخلف ٧٤/٢، معجم أعلام الجزائر ٢٥١ وفيه وفاته سنة ٨٦٢ وهو خطأ.

٦ - ليست في ت و ط.

(٧-٧) - سقط من ت.

قرأ ذلكَ في حَجَرٍ عند رأسهِ بمدينةِ سَفاقُس[1] - حرسها الله - وناولني «صَحيحيْ البُخاريّ ومُسْلم» في أصله منهما، وقرأت عليه بعضَ الأحاديثِ الثُّنائيّة الإسناد من حديثِ مالكٍ - رضي الله عنه - من تخريجهِ وبعض أحاديثهِ التُّساعيّة[2] من تأليفهِ وانتقائهِ وناولني سائرَهُما، وناولني أجزاءَ من عَوالي حديثِهِ، وحديثِ شيوخهِ، وناولَني «الأحاديثَ الأربعين في عموم رحمة الله لسائرِ المؤمنين» من تأليفه.

وحدَّثني - حفظه الله - بحديث عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ: «الرَّاحِمونَ يرحمُهُم الرَّحمنُ، ارحَمُوا مَنْ في الأَرضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ في السَّماءِ[3]». وهو أوَّل حديث سمعته منه عن الفقيه أبي عبد الله محمَّد بن إبراهيم بن عثمان الحنفيّ سمع منه بالمَهْديّة[4] عام ثمانية وعشرين بسنده مُسلسلاً، وبحديث أنَس بن مالك[5] رضي الله عنه قال: « صَافحتُ بكفّي هَذهِ كفَّ رسول الله ﷺ، فما مَسَسْتُ خزّاً ولاحَريراً ألينَ من كَفٍّ

---

١ - سَفاقُس: مدينة بتونس على ساحل البحر بينها وبين قابس ثلاثة أيام. انظر ياقوت ٢٢٣/٣ .

٢ - الأحاديث التساعية التي يكون في سندها تسعة رجال. من الراوي إلى الرسول ﷺ .

٣ - أخرجه الترمذي برقم ١٩٢٥ في البر والصلة باب في رحمة الناس، وأبو داود رقم ٤٩٤١ في الأدب ـ باب الرحمة، وهو في جامع الأصول ٥١٥/٤، والأسماء والصفات للبيهقي ٤٢٣.

٤ - المهدية: مدينة بساحل إفريقية بناها عبيد الله العبيدي الخارج على بني الأغلب وسماها المهدية نسبة إلى نفسه، وكان ابتداء بنيانها سنة ٣٠٠هـ وبينها وبين القيروان ستون ميلاً، ويحيطها البحر من جهاتها.

٥ - أنس بن مالك الأنصاري الخزرجي: صاحب رسول الله وخادمه، توفي سنة ٩٣هـ. له ٢٢٨٦ حديثاً، ترجمته في الإصابة ٨٤/١، والاستيعاب ٤٤/١.

رسولِ الله ﷺ[1]» بسنده مُسلسلاً بالمصافحة. وبحديث عبدِ الله بنِ مَسعود[2] في التَّشهّد مُسلسلاً بأخذ اليدِ إليه قال:« أَخَذَ رسولُ الله ﷺ بيدي فعلَّمني التَّشهُّدَ: التَّحيَّاتُ للهِ والصَّلَواتُ والطَّيِّباتُ، السَّلامُ عليكَ أيُّها النَّبيُّ ورحمةُ اللهِ وبَرَكاتُهُ، السَّلامُ علينا وعلى عبادِ اللهِ الصَّالحينَ، أشـهدُ أنْ لاإلهَ إلاّ الله وأشهدُ أنّ محمداً عَبدُهُ ورَسولُهُ[3]».

وفيه عن إبراهيم بن سَعيد الجَوْهَري[4]، رواية عن الحسين بن عليّ الجُعْفي[5] أنَّ هارون الرَّشيد قدم مكّة، فجلس عند الأسطوانة الحمراء، ثم قال للفضْلِ بن الرَّبيعِ[6]: بلغني أنّ الحسين بن علي الجُعْفيّ حاجّ فانظر أين

---

١ - الكامل لابن عدي ٢٧٣٨/٧.

٢ - عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، صحابي من أهل مكة، توفي في خلافة عثمان بالمدينة سنة ٣٢هـ، له ٨٤٨ حديثاً. ترجمته في الإصابة ٣٦٠/٢ .

٣ - أخرجه البخاري في الأذان، باب التشهد رقم ٨٣٥- ٣٢٠/٢، وفي العمل في الصلاة، باب من سمى قوماً أو سلم في الصلاة رقم ١٢٠٢-٧٦/٣، وفي الاستئذان، باب السلام اسم من أسماء الله رقم ٦٣٢٠-١٣/١١، وباب الأخذ باليد رقم ٦٢٦٥-٥٦/١١، وفي الدعوات باب الدعاء في الصلاة رقم ٦٣٢٨-١٣١/١١، ومسلم في الصلاة باب التشهد في الصلاة رقم ٥٥ و٦٠ و٦٢، وأبو داود في الصلاة، باب التشهد رقم ٩٦٨، والترمذي في الصلاة باب ٢١٥ رقم ٢٩٠، وابن ماجة في إقامة الصلاة باب ماجاء في التشهّد رقم ٨٩٩، والنكاح باب خطبة النكاح /١٨٩٢، وابن حنبل ٢٩٢/١- ٣٧٦- ٣٨٢- ٤٠٨- ٤١٣- ٤١٤- ٤٢٢- ٤٢٣ .

٤ - إبراهيم بن سعيد الجوهري: من أعلام رجال الحديث من أهل بغداد، له المسند في الحديث، توفي سنة ٢٤٧هـ ترجمته في شذرات الذهب ١١٣/٢- غربال الزمان ٢٣٠.

٥ - الحسين بن علي الجعفي: مولاهم، حافظ للحديث، مقرئ من أفاضلهم، كان زاهداً عابداً، توفي سنة ٢٠٣هـ ترجمته في شذرات الذهب ٢٥/٢ غربال الزمان ١٨٨ .

٦ - الفضل بن الربيع: وزير، أديب، حازم، كان من خصوم البرامكة. توفي بطوس سنة ٢٠٨هـ. ترجمته في البداية والنهاية ٢٦٣/١٠- شذرات الذهب ٢٠/٢- غربال الزمان ١٩٨.

هو حتَّى آتيه، فقال له رجلٌ: هو ذاك يصلِّي عند المقام. فقال الفضل: أنا آتيك به ياأمير المؤمنين؛ فإنَّه أحَقُّ أن يأتيكَ. فجاءَ الفضلُ فوقَفَ عليهِ فقالَ له: إنَّ أميرَ المؤمنينَ [٣٧/ب] عزَمَ على إتيانِكَ. فسلَّم الحسين ثمَّ قال له: أنا أحقّ أن آتيه. قال: فانهض بنا. فجاء معه فاعتنقه هارون وسلَّم عليه وأجلسه إلى جنبه على مقعده ثم أقبل عليه هارون وسأله عن حالِهِ وسفرِهِ، قال: ثم تنحَّى عنه حتَّى صار بين يديهِ وضربَ بيده إلى قلم وقرْطاس، ثم قال له: تُملي عليَّ حديثَ عبد الله بن مسعود في التَّشهّد. فقال: أخبرنا[1] الحسَن بن الحرِّ، قال: أخذ القاسم بن مُخَيْمِرَةَ[2] بيدي وقال: أخذ علْقمة بن قَيْس بيدي وقال: أخذ عبد الله بيدي.. وذكر الحديث، فقال له هارون: أخذ بيدك الحَسَن بن الحرّ؟ قال: نعم. قال: فتأخذ بيدي كما أخذ بيدك؟ قال: فأخذ يَدَه في يدِه، قال: فترك هارون يده وجعل يُقَبِّل يَدَ نفسهِ، وقال: بأبي يَدٌ صافحَتْ كفَّ رسول الله ﷺ.

وحدَّثني أيضاً وهو آخذ بيدي بسنده مسلسلاً إلى أبي الرَّبيع الزَّهْرَاني قال: حدَّثنا مالك وهو آخذ بيدي: [3]حدَّثنا نافع وهو آخذ بيدي[3] قال[4]: حدَّثني ابن عبَّاس وهو آخذ بيدي، قال: قال لي رسول الله ﷺ وهو آخذ بيدي[4]: «مَنْ أَخَذَ بيدِ مَكروبٍ أخذَ اللهُ بيدهِ[5]».

---

١ - في ت و ط: أخبرني.

٢ - في ت و ط: عُميرة. والصحيح المذكور، وهو من رجال الحديث الكوفيين توفي سنة ١٠٠هـ. انظر طبقات الحفَّاظ للسيوطي: ٥٤ .

(٣-٣) - سقط من ت و ط .

(٤-٤) - سقط من ت.

٥ - لم أقف له تخريج.

وهذه الأحاديث كلُّها من مسلسلات الإمام أبي الحسن عليّ بن المُفَضَّل المَقْدِسيّ[1] رحمه الله، وشيخنا الفقيه أبو زيد يرويها عن الفقيه المحدّث الرّاوية أبي عمرو عُثمان بن سفيان بن عثمان التّميميّ التُّونسيّ[2] عُرِفَ بابنِ شقر، ويقال ابن الشّقر، معرّفاً،عن الإمام أبي الحسن المقدسيٍّ المذكور، وقد ذكر في هذا أيضاً نحو ماتقدّم، عن الرُّشيد، وهذه المسلسلات قرأتُها كلّها على الفقيه الصّالح أبي العبّاس أحمد بن موسى البَطَرْنيّ[3]، وسلسلتُها معه، وحدّثني بها عن ابن[4] شقر المذكور قراءة وسيأتي ذكر ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.

وأنشدني شيخنا أبو زيد وأعطانيهِ في ورقة بخطِّه، قال: أنشدنا[5] الفقيه المحدّث أبو المكارم وأبو بكر محمّد بن أبي أحمد يوسف بن موسى، هو ابن مُسدي بسين ودال مهملتين المُهلّبي، وكتبه لي بخطّه قال: أنشدني القاضي أبو الحسن عليّ بن عبدالله بن محمّد بن يوسُف الأنصاري، هو

---

١ - علي بن المفضل بن مفرج بن حاتم اللّخمي المقدسي الاسكندراني: فقيه مالكي، من حفاظ الحديث، له تصانيف وشعر، توفي بالقاهرة. سنة ٦١١هـ . ترجمته في: شذرات الذهب٥/٤٧- طبقات السيوطي ٤٩٢- غربال الزمان ٤٩٤- وفيات الأعيان ٣/٢٩٠ .

٢ - عثمان بن سفيان بن عثمان التميمي التونسي: إمام، فقيه، محدث، راوية، أخذ عن ابن جبير وأبي الحسن المقدسي وأخذ عنه جماعة منهم ابن الدباغ، وأبو العباس البطرني. لم أقف على وفاته. ترجمته في شجرة النور ١/١٦٨ .

٣ - أحمد بن موسى الأنصاري الشهير بالبطرني: مقرئ، راوية، مسند، عالم من أهل تونس توفي سنة ٧١٠هـ . انظر برنامج الوادي آشي ٦٦-٦٧، درة الحجال ١/٣٩ .

٤ - في الأصل: أبي شقر، وهو تصحيف.

٥ - في ت و ط: أنشدني.

ابن قُطرال بثغر شَاطِبة(١)، وكتبه لي بخطّه قال:(٢ أنشدنا أبو الحَجّاج يوسف ابن محمَّد [٣٨/أ] هو ابن الشَّيخ البَلَويّ، وكتبه لي بخطّه، قال٢) ابن مُسْدي: وقرأت على أبي عبدالله محمَّد بن أحمد التَّمَيمي قال: أنشدنا أبو محمّد عبدالله بن أبي الفَضْل القاضي بثغر الإسكندريّة، وكتبه لنا بخطّه(٣) قال: أنشدنا أبو عبدالله محمّد بن صَدَقة بن سليمان، وكتبه لي بخطّه قال: أنشدنا(٤) محمد بن إبراهيم البَكْريّ، وكتبه لي بخطّ يده، قال: أنشدنا أبو عبدالله محمَّد بن إبراهيم بن قاسم(٥) الطّلّيطِليّ وكتبه لي بخطه، قال: أنشدنا محمَّد بن شدّاد بن الحدّاد وكتبه لي بخطّه، قال: أنشدنا أبو عبدالله محمّد بن إبراهيم بن موسى(٦) بطلّبِيرة(٧) لنفسه، وكتبه لي بخطّه(٨): [الوافر]

---

١ - شاطبة: مدينة كبيرة قديمة شرقي الأندلس وقرطبة-انظر الروض لامعطار ٣٣٧.

(٢-٢) - سقط من ت.

٣ - ليس في ت.

(٤-٤) سقط من ت.

٥ - «ابن قاسم» ليس في ت و ط .

٦ - محمد بن إبراهيم بن موسى بن عبد السلام بن شق الليل: فقيه، عالم، حافظ للحديث والفقه، من أهل الرواية والدراية والمشاركة بالعلوم، أديب شاعر، كثير التصنيف في الحديث، توفي بطلبيرة سنة ٤٥٥هـ. ترجمته في نفح الطيب ٥٣/٢-٥٤- بغية الملتمس ٥٧ .

٧ - طلّبِيرة: مدينة كبيرة بالأندلس، فيها قلعة حصينة، بينها وبين طليطلة سبعون ميلاً، وتقع على نهر تاجُة. انظر الروض المعطار: ٣٩٥ .

٨ - الأبيات في برنامج الرعيني ١٨- التكملة لابن الأبار ١٣٧/١، والذيل والتكملة ١٦٩/٤، وهي في التشوف ١٣١ ونيل الابتهاج ٧٩ والنفح ٣٤٢/٤ والحلل السندسية ٢٥٣/١ وتعريف الخلف ٤٧/١ و١٥٣ دون عزو.

رَأيْتُ الانقباضَ أجلَّ شَيءٍ وأدْعَى في الأمورِ إلى السَّلامَهْ

فَهَذا الخَلْقُ سَالمهُمْ ودَعْهُم فَخُلْطَتُهمْ تَقودُ إلى النَّدامَهْ

ولاتُعْنَ بشَيٍ غَيْرِ شَيءٍ يقودُ إلى خَلاصِكَ في القيامَهْ[(١)]

وأنشدني أيضاً قال: أنشدني أبو عمرو بن الشُّقر عن أبي الحَسَنِ المَقْدِسيّ عن الإمام أبي الطَّاهر أحمد بن محمَّد بن أحمد السِّلَفي، عن الخطيب أبي زكريا يَحيَى بن عليّ التِّبريزيّ، عن أبي الحَسَن علي بن محمّد الفالّي[(٢)] لنفسه وهو بالفاء أخت القاف واللاّم المشدَّدة، كذا وجدته بخط ابن شقر، ومنه نقلت السَّنَدَ والشِّعر[(٣)]: [الطويل]

تصَدَّرَ للتَّدريسِ كُلُّ مُهَوَّسٍ بَليدٍ تَسَمَّى بالفَقيهِ المُدَرِّسِ

فحَقٌّ لأهْلِ العِلْمِ أنْ يَتَمثَّلُوا ببيْتٍ قَديمٍ شَاعَ في كلِّ مَجلسِ[(٤)]

«لَقَدْ هَزَلَتْ حتَّى أَبَانَ هُزَالُها كُلاَهَا وَحتَّى استامُها كلُّ مُفلسِ»[(٥)]

---

١ - في التشوف: ولا تعبأ.

٢ - علي بن محمد الفالّي كان مؤدباً أصله من فالّة، انتقل إلى البصرة، واستوطن بغداد، وكان له معرفة بالأدب والشعر، توفي سنة ٤٤٨هـ. ترجمته في معجم الأدباء ٢٢٦/١٢ .

٣ - الأبيات في معجم الأدباء ٢٦٨/٩-٢٦٩، ٢٦٦/١٢-٢٢٧ منسوبة للفالي- المنتظم ١٧٤/٨- بغية الوعاة ٥٣٣/١ منسوبة للحسين بن سعد الآمدي- وخطط المقريزي ٣٨٠/٢ دون نسبة- والحلل السندسية ٢٥٣/١.

٤ - في ت والحلل: بشعر قديم. وفي معجم الأدباء: يسمّى.

٥ - في معجم الأدباء: بدا من هزالها - سامها.

وانشدني أيضاً قال: أنشدني أبو عمرو بن الشَّقر، قال: أنشدني الفقيه الزَّاهد المنقطع إلى الله سبحانه أبو الحُسين محمَّد بن أحمد بن جُبير[١] الكِنانيّ بالإسكندريّة لنفسه[٢]: [المنسرح]

تَأَنَّ في الأمر لاتَكُنْ عَجلاً فمَنْ تأنَّى أصَابَ أَوْ كَادَا
وكُنْ بحَبْلِ الإلهِ مُعْتَصِماً تأمَنْ بهِ بَغْيَ كُلِّ مَنْ كَادَا
فَكَمْ رَجَاهُ فَنَالَ بُغْيَتَهُ عَبْدٌ مُسيءٌ بنَفْسِهِ كَادَا
[٣٨/ب] ومَنْ تَطُلْ صُحْبةُ الزَّمانِ لهُ يَلْقَ خُطوباً بهِ وأَنْكادا

[٣]وبنحوهِ له[٣]:[٤] [المتقارب]

صُنِ العَقْلَ عن لَحْظَةٍ في هَوًى فإنَّ البَصيرةَ طَوْعُ البَصَرْ
وغُضَّ الجفونَ على عِفَّةٍ فإنَّ زناءَ العُيونِ النَّظَرْ

وبنحوه له[٥]: [٦] [الطويل]

---

١ - محمد بن أحمد بن جبير الكناني: رحالة أديب ولد في بلنسية، ونزل بشاطبة وبرع في الأدب ونظم الشعر الرقيق، رحل إلى المشرق ثلاث مرات. مات في الإسكندرية في رحلته الثالثة سنة ٦١٤هـ. له رحلة معروفة، وديوان شعر. ترجمته في جنوة الاقتباس ١٧٢- الإحاطة ٢/٢٣٠- شذرات الذهب ٥/٦٠- نفح الطيب ٢/٣٨١- الذيل والتكملة ٥/٥٩٥- زاد المسافر ١١٤ .

٢ - الأبيات في: شجرة النور ١٦٨- الحلل السندسية ١/٢٥٤.

(٣-٣) - سقط من ت.

٤ - الحلل السندسية ١/٢٥٤.

٥ - سقط من ت.

٦ - البيتان في الذيل والتكملة ٥/٦١٣- نفح الطيب ٢/٤٩١- نيل الابتهاج ٦٧-٢٣٥- الحلل السندسية١/٢٥٤.

مِـنَ اللهِ فاسْـألْ كُلَّ أمْرٍ تـريـدُهُ   فما يَملكُ الإنسانُ نَفْعـاً ولاضُرًا[1]
وَلاتَتَـواضَـعْ للـوُلاَةِ فـإنَّهُـمْ   مِنَ الكِبْرِ في حَالٍ تموجُ بهم سُكْرا
وإيَّـاكَ أنْ تَرْضَـى بتَقْبيـلِ رَاحَةٍ   فَقَدْ قيلَ فيها: إنَّها السَّجْدَةُ الصُّغْرَى[2]

قلت: قوله:«ولا تتواضع للولاة...البيت» ينظر إلى قول الأوّل:[3] [الخفيف]

قُلْ لنَصْرٍ والمرءُ فـي دَولةِ السُّلْـ   طانِ أعْمَى مادامَ يُدْعى أميرا[4]
فـإذا زالـتِ الـولايـةُ عَنْـهُ   واستوى والرِّجالَ عادَ بَصِيرَا[5]

وفي نحو منه قول منصور الفقيه[6]: [المتقارب]

إذَا عُـزِلَ المـرْءُ وَالَيْتُـهُ   وَعِنْدَ الوِلايةِ أسْتَكْبِرُ[7]
لأنَّ الـوُلاةَ لَـهُمْ نَـبْـوَةٌ   ونَفْسي على الذُّلِّ لاتَصْبِرُ[8]

---

١ – في الذيل والتكملة: كل شيء تريده.

٢ – النفح: فقد قيل عنها.

٣ – البيتان في نهاية الأرب للفرزدق ٣/٧٥ ولم أجدهما في المطبوع من ديوانه ـ سمط اللآلي ٤٥٢/١ ـ ابن أبي الحديد ٤٤٨/٥– الجليس الصالح ٦٢/٢– بهجة المجالس ٣٤٣/١– الحلل السندسية ٢٥٤/١، التمثيل والمحاضرة ٧٠.

٤ – في ابن أبي الحديد: يا أبي وهب والمرء ....

٥ – ت: وإذ زالت.

٦ – هو منصور بن إسماعيل التميمي: فقيه شافعي ضرير، شاعر هجاء مات بمصر سنة ٣٠٦هـ. ترجمته في معجم الشعراء ٢٨٠– معجم الأدباء ١٩/١٨٥– شذرات الذهب ٣٤٩/٢، والبيتان في الذيل على الروضتين ٢٣٤ لأبي طاهر السلفي ـ زهر الآداب ٨٨٣/٣– الحلل السندسية ٢٥٥/١ حماسة الظرفاء ١٥٤/١– التمثيل والمحاضرة ١٥٠.

٨ – في ت وحماسة الظرفاء وزهر الآداب: واصلته. وفي الذيل على الروضتين: يوافيته.

٩ – في الزهر والذيل والحماسة: لأن المولّى. وفي الحماسة والزهر: لهم نخوة. وفي الذيل: له صولة.

ونَهْيُه عن التّواضع للولاة حكم شرعيّ؛ قال ﷺ:«مَنْ تَواضَعَ لِغَنيٍّ ذَهَبَ ثُلُثا دِينِهِ»[1]. وأرى هذا الحديث مبنيّاً على الحديث الآخر وهو قوله ﷺ:«ثَلاثٌ من كُنَّ فيهِ وَجَدَ حَلاوةَ الإيمانِ: أَنْ يكونَ اللهُ ورَسولُهُ أحبَّ إليهِ مِمَّا سِواهُما، وأَنْ يُحبَّ المرءَ لايُحِبُّهُ إلَّا للهِ، وأَنْ يكرهَ أَنْ يَعودَ في الكُفرِ بعد أَنْ أَنقَذَهُ اللهُ منهُ كما يَكرهُ أنْ يُقذَفَ في النَّارِ»[2].

فكان[3] من تواضع لغنيّ لأجل غناه، قد سقطت عنه الخصلتان الأوليان، إذ صار الغنى أحبّ الأشياء إليه، وأحبَّ المرء لغير الله، وإذا سقطت الخصلتان من الثّلاث فقد ذهب الثّلثان، فهذا وجه تخصيصهما والله أعلم.

وأنشدني لابن جُبَير بمثل السَّند[4]:[٣٩/أ] [الخفيف]

أيُّها المُستطيلُ بالبَغْيِ أقْصِرْ ... رُبَّما طَأطَأَ الزَّمانُ الرُّؤوسَا
وتَذكَّرْ قَولَ الإلهِ تَعالَى ... ﴿إنَّ قارونَ كانَ مِن قَوْمِ موسى﴾[5]

---

١ - هو خبر موقوف على ابن مسعود من قوله، انظر أسنى المطالب ٢٨٩، وكشف الخفاء ٣١٦/٢ وتمييز الطيّب من الخبيث ١٨٢، والموضوعات لابن الجوزي ١٣٩/٣.

٢ - أخرجه البخاري: في الإيمان، حلاوة الإيمان ١٦-١/٦٠- من كره أن يعود في الكفر ٢١-٧٢/١: الإكراه، من اختار الضرب والقتل على الكفر ٦٩٤١-٣١٥/١٢. ومسلم: في الإيمان، بيان خصال الإيمان ٦٧. والترمذي: في الإيمان، ثلاث من كن فيه ٢٦٢٦. والنسائي: ٩٤/٨-٩٦-٩٧. وابن ماجه: الفتن، الصبر على البلاء ٤٠٣٣. الجامع لشعب الإيمان: ٣٤٠/٢-٥٣٥/٣.

٣ - في ت و ط : فصار.

٤ - البيتان في نفح الطيب ٤٩٢/٢- الحلل السندسية٢٥٥/١.

٥ - اقتباس للآية ٧٦ من سورة القصص.

وأنشدني (١ له أيضاً ١) بمثله وقد أظلَّهُ عيد الأضحى بطَندةَ (٢) قرية بمقربة من مصر (٣): [الطويل]

شهدْنا صلاةَ العيدِ في أرضِ غُربةٍ بأَحْوازِ مِصْـرٍ والأَحِبَّةُ قَدْ بَانُوا (٤)
فَقلتُ لِخلّـي في النَّوَى: جُـدْ بدَمْعَةٍ فَليسَ لنَـا إلاَّ المَـدامِـعُ قُربـانُ (٥)

وأنشدني أيضاً قال: أنشدني بعض أصحاب أبي عمرو عثمان بن حسن (٦) وهو ابن دِحْية المعروف بابن الجُمَيِّل عنه، قال: ولا أدري هل هو له أو تَمثَّلَ به (٧): [الطويل]

ألاَ إنَّ هَـذا الـدَّهْرَ يـومٌ ولَيْلَـةٌ يَكرّانِ مِن سَبْتٍ عَليكَ إلى سَبْتِ (٨)
فقُـلْ لِـجَديـدِ العَيْشِ لابُدَّ بِلَـى وقُلْ لاجتماعِ الشَّملِ لابدَّ مِن شَتّ (٩)

(١-١) سقط من ط.

٢ - طندة: مدينة كبيرة فيها الحمامات والفنادق الكبيرة والأسواق، هي غير مسوَّرة، وبينها وبين ساحل محلة المحروم ثلاثة أميال، وبينها وبين النيل من ناحية المشرق ميلان. انظر جغرافية مصر للبكري ٨٦.

٣ - المقصود بها القاهرة.

٤ - البيتان في نفح الطيب ٢/٤٩٢، والحلل السندسية ١/٤٥٥.

٥ - النفح: جد بمديع.

٦ - عثمان بن الحسن بن علي بن دحية الكلبي: حافظ، مؤرخ تولى مشيخة دار الحديث الكاملية بعد أخيه أبي الخطاب بن دحية، توفي سنة ٦٣٤هـ بالقاهرة. انظر بغية الوعاة ٢/١٣٣.

٧ - البيتان في ديوان علي بن أبي طالب ٢٦، ونسبهما التجيبي في مستفاد الرحلة والاغتراب ٤٠٤ لابن المعتز ولم أجدهما في المطبوع من ديوانه، وفي النفح ٥/١١٨ دون نسبة، وفي الكشكول ٣/١٩ دون نسبة، وفي الحلل السندسية ١/٢٥٦.

٨ - في الديوان والنفح: ألم تَرَ أن الدهر - وفي الديوان والكشكول: من سبت جديد إلى سبت.

٩ - في الديوان والكشكول: لجديد الثوب.

وأنشدني – حفظه الله – عند المودعة:[1] [الخفيف]

إنْ نَعِشْ نَجْتَمِعْ وإلاّ فَما أشْـ ـغلَ مَن ماتَ عَن جَميعِ الأنامِ[2]

وهذا البيت يأتي ذكره ومن أنشده عند المودعة في موضعه إن شاء الله.

وقد نظمت بالقَيْروان قصيدة بعثت بها إلى ولدي محمّد – وفّقه الله – وكان شيخي زين الدّين بن المُنَيِّر – حفظه الله – يستحسنها كثيراً، وسمعها منّي شيخنا الشّريف الحسيب الفقيه الفاضل أبو الحسن عليّ بن أحمد الغَرّافي[3] وقيّدَها بخطّه، وكتب عليها سماعه، فرأيت إثباتها في هذا الرّسم، إذ هو أليق المواضع بها بحول الله تعالى وهي هذه: [الوافر]

[قصيدة العبدري لابنه]

أَصِخْ سَمْعاً أُوَصِّكَ يابُنَيٍّ وَصيّةَ وَالِدٍ بَرٍّ حَفيٍّ

جَرى القَدَرُ المتَاحُ لنا بِبَيْنٍ قَضاءٌ جاءَ مِن مَلِكٍ عَلِيٍّ[4]

وَقَدْ فَتَّتْ نَواكُمْ في فُؤادِي وأشْجَتْ بالأسَى قَلْبَ الخَليٍّ

وَأَبْدلَتِ المَاقِي عَنْ كَرَاهَا دُموعاً فيضُها مِثْلُ الأَتيِّ[5]

---

١ – البيت في الحلل السندسية ٢٥٦/١ – تاريخ بغداد ٣٨٤/٢ دون.

٢ – في تاريخ بغدا: نلتقي.

٣ – علي بن أحمد بن عبد المحسن الحسيني الغَرّافي: عالم محدث، مسند، عابد، ولد سنة ٦٢٨هـ وتوفي بالإسكندرية سنة ٧٠٤هـ. أخذ عنه مجموعة من المغاربة والرّحالة. انظر ملء العيبة ٥٣/٣، شذرات الذهب ١٠/٦.

٤ – في ت و ط: المتيح.

٥ – ط: الأماقي، والأتيُّ: السّيل.

وَلَــولا أنَّ حُكْــمَ البَيْنِ حَتْمٌ   يمرُّ علــى المُطاوعِ والأبــيِّ
[٣٩/ب] لَعاجَلَني الأسَى بِقَضاءِ نَحْبِي   وَوَافَتْني النَّوى بِرَدًى وَحِيِّ(١)
ولكـــنْ كلُّ جَمْــعٍ لافتــراقٍ   ونَشْــرُ العَيْــشِ آخِـرُهُ لِطيٌّ
فمُرَّ علـــى المقَابِرِ باعْتِبــارٍ   وسَــلْ تُنْبِئْكَ عـن حيٍّ فَحَيِّ
وَقَدْ شَاهَدْتُ في الدُّنيا أمُوراً   مُحَرِّضَـةً علـى نَهْجِ التَّقيِّ(٢)
أمالَكَ فــي تَقَلُّبِهـا اعْتِبـارٌ   يُبيِّنُ قُبْحَهـا مِـن غيــرِ عَيٍّ
أَلَمْ تَرَ ما حَبَتْكَ وأنْــتَ طِفْلٌ   فنونَ أذًى هَمى مِثْلَ الحبيِّ(٣)
وَذي جَدٍّ أحلَّكَ مـن حَشَـاهُ   محلَّ بِشَــارةٍ بَعْـدَ النَّعــيِّ
وَتَرْكِ مَنـــازلٍ وثِقَــافِ عَـمٍّ   بكُمْ بَـرٍّ ونائــيِ أبٍ حَفــيٍّ
وذاكَ وإنْ أذابَـكَ غَيْرُ بِـدْعٍ   فَهذَا دأبُهــا مَـــع كـلِّ حَيِّ
فكُنْ باللهِ منهـا مُستعيضَــاً   كَفَى عِوَضاً بهِ مِنْ كـلِّ شَيِّ(٤)
وَكُنْ مُتَعَفِّفـاً عَنْهـا عَيـوفَـاً   وإنْ أعطَتْكَ قَصْدَكَ دونَ لَيِّ(٥)
ولاتأسَــفْ لفُرقَتِهـا فَفيـهـا   وِصالُ تواصلِ العَيْشِ الهَنـيِّ
هِيَ الطَّلَلُ المُحيلُ ومابَكـاهَا   سوى غاوٍ يَهيمُ بوصْلِ غيِّ(٦)

---

١ – ط: لعالجني، ت: لعالجني القضاء.
٢ – ت: نهي التقي.
٣ – الحبيّ: سحاب فوق سحاب، وهمى: سال .
٤ – ت: مستعيناً.
٥ – الليّ: المطل.
٦ – رجل غاوٍ وغوٍ وغيّان: ضال، والغيّ الضلال.

يُبَكّي فــي منــازلَ مُقفــراتٍ ... ضَــلالٌ سـنَّهُ غَيْلانُ مــيٍّ[١]

ومازَالَــت تَرُدُّ الرَّفْعَ خَفْضــاً ... وتَرمـــي بالسِّنادِ إلــى رَوِيِّ

سَرابٌ إنْ نَـظَرْتَ تَقُلْ شَـرابٌ ... ولَــمْ يَظْـفــر فَـتًـى مِنْهُ بِرَيِّ

فلاتَــكُ يابنـــيَّ بهــا وَلُــوعاً ... وإنْ أَبْـدَتْ مطــاوعَةَ الأبيِّ[٢]

هيَ العصْيانُ شِيْمتُهـا ولكنْ ... تغرُّ الـغرَّ نـادرَةَ الـعَصـيِّ[٣]

وكُــنْ باللّٰه ذاثِقَــةٍ تـقيّـــاً ... ولاتَغْبطْ بنـــيَّ سِـــوى تَقــيٍّ

ونَــلْ بالزُّهْدِ مَرْتَبَةَ المَعالـــي ... فَلَمْ يَزْهَدْ سِوى عَالٍ سَرِيٍّ[٤]

وَلَيْـــسَ سِـــواهُ للأرْواحِ روحٌ ... يَتيهُ بِـــهِ الفَقيـــرُ عَلى الغَنيِّ

فَـشُـدَّ بـهِ يديكَ وكُنْ ضَـنيناً ... بوَجهِـكَ أنْ تُعرّضَــهُ لِكَيِّ[٥]

ولاتَبْــذلْهُ للأطْمَـــاعِ يَوْمَـــاً ... فَتخدشَهُ بِذا الخُلُقِ الدَّنــيِّ[٦]

[٤٠/أ] وباعِدْ ماستَطعْتَ حَليفَ دُنيا ... تعلَّقَ حَبْلَهــا مِــنْ فَرْطِ غَــيِّ

ولايَغــررْكَ أنْ أبْــدَى خَيــالاً ... إلى قُرْبٍ يصيــرُ غَيْرَ شَــيِّ[٧]

فَحَظُّكمَــا مِـنَ الدُّنْيَا بَـــلاغٌ ... إلى لَحْدٍ يُسوِّي كـلَّ حَــيِّ[٨]

---

١ – غيلان هو ذو الرمة الشاعر المعروف، صاحب ميّ.

٢ – الوَلُوع: المتعلّق. والأبيّ: مصدر أبى: امتنَعَ.

٣ – الغرّ: الغافل. وندر الرّجل إذا مات، يريد: قاتلة العصيّ.

٤ – السرْو: المروءة والشرف، والسريّ: السيد الشريف.

٥ – الكي: حرق الجلد بحديدة أو نحوها.

٦ – الدنّي: الخسيس.

٧ – ت: اختيالاً.

٨ – اللُّحْدُ: الشق الذي يكون في جانب القبر موضع الميت لأنه قد أُميل عن وسطٍ إلى جانبه.

بُنيَّ يَسوؤني أنْ اراكَ عَبْداً ... لغيرِ الواحدِ الصَّمَدِ العَليِّ

فكُنْ عَبْداً لهُ مِنْ غيرِ شِرْكٍ ... وإلاّ تَأْتِ بالأمْرِ الفَرِيِّ(١)

بُنيَّ تَسوؤني منكَ المَعاصِي ... فلا عَمَرَتْ حِلالُك يابُنَيِّ(٢)

قبيحٌ أنْ أكونَ عَصيتُ ربِّي ... وتَقْفو إثْرَ والدِكَ العَصِيِّ

يَمرُّ المُشْتَهى كالبَرْقِ خَطْفاً ... ويترُكُ حَسْرَةَ الأمَدِ القَصِيِّ

تَزَيَّنْ بالحَياءِ فليسَ وَصْفٌ ... يزانُ بِهِ الفَتَى مثلَ الحَيِيِّ

وجانِبْ مايقودُ إليهِ طَبْعٌ ... يُرى طَبْعاً على الثَّوْبِ النَّقيِّ(٣)

وكُنْ بالعِلمِ ذا لَهَجٍ فإنِّي ... أجزتُكَ واستَجزْتُ بكُلِّ حَيِّ(٤)

لكي تَرْوي الحديثَ حديثَ سِنٍّ ... لأشياخٍ ذوي فَهْمٍ سَنيِّ(٥)

مَصابيحِ الدُّجُنَّةِ لو تَراهُمْ ... رأيتَ بُدورَ كلِّ دُجاً دَجيِّ(٦)

لقيتَهُم وأنتَ هناكَ ثاوٍ ... فيا للشُّكْرِ للسَّعْدِ القَويِّ

مَحضتُكَ يابُنَيَّ النُّصحَ منِّي ... وحَقُّ النُّصْحِ للوَلَدِ الرَّضِيِّ

وإنْ مَدَّ البَقاءُ إلى لِقاءٍ ... كسَوْتُكَ مايزينُكَ في النَّديِّ(٧)

فتَرْفُلَ في حُلَى حُلَلٍ تَسامَى ... إليها كُلُّ حَبْرٍ ألمَعيِّ(٨)

---

١ – الفريةُ: الكذب.
٢ – الحلال: البيوت مجتمعة.
٣ – الطَّبْعُ: الدَّنَس.
٤ – لَهِجَ بالأمر: أولع به واعتاده. وفي ت: كل حيّ.
٥ – السَّنيّ: الرفيع.
٦ – الدُّجنَّة: الظلمة، والدُّجا: سواد الليل مع غيم.
٧ – النَّديّ: المجلس ما داموا مجتمعين فيه.
٨ – الحبر: العالم، الألمعي: الداهي الذي يتظنن الأمور فلا يخطئ.

وَأَرْجُو ذاكَ مِـنْ إِنْعـامِ رَبِّي | إِلَهِـي مالِكي ثِقَتـي وَلِيـي
وأقرأُ مِـن سَلامِـي كُلَّ زادٍ | عليكَ يفـوحُ بالمِسْكِ الـذَّكيِّ
وأقـرأ ضعْفَهُ فـي كلِّ حِينٍ | بِلاَ أَمْرٍ علـى خِلٍّ وَفـيِّ[1]
يروحُ صَباً جَرَتْ ويفوحُ رَوْضاً | بَكى الوَسْميُّ فيه مع الوَلْيِ[2]
٥٠ - وباكَرَه النَّسيـمُ غَـداةَ صَحْوٍ | فَنشَّـرَ نَشْرَهُ مِـن بَعْدِ طَيٍّ
ومِنْ ذِي العَرْشِ أسألُ أنْ يُوالـي | لَكُمْ صَوْنَ الغُدوِّ مـع العَشيِّ

[ذكر قابس]

[٤٠/ب] ثم وصلنا إلى مدينة قابس[3]، ذات المخبر[4] الخبيث، والمُحيّا العابس. هواء وخيم، ولؤم طبع وخِيم[5] وتضييع المصلّيات والمساجد، وقلة اعتناء بكل راكع وساجد، مغانيهم[6] إلى النُّجوم عالية، ومعانيهم[7] أسفل التُّخوم هاوية، إلى عفونات تخبو لقُربها المصابيح، وتنحو بالنُّحول كلَّ وجه صبيح[8]، تفسد الأذهان[9] والألوان، وتضرم للمزاج[10] المعتدل نارَ الحرب

١ - في ت و ط: أمَدٍ.
٢ - في ت: الوسيم، والوسميّ: مطر أول الربيع، والوليّ: مطر يأتي بعد الوسميّ.
٣ - قابس: مدينة تونسيّة على ساحل البحر بين طرابلس وسفاقس بناها الرومان في داخل الخليج. انظر ياقوت ٤/٢٨٩ وصف إفريقية ٢/٩١- رحلة التجاني ٨٦.
٤ - في ت و ط: المنظر.
٥ - الخِيمُ: الأصل أو الشيمة والطبيعة والخلق والسَّجيّة، يريد وسوء خيم.
٦ - في ت: معانيهم، والمغاني: المنازل التي كان بها أهلوها.
٧ - في ت: معاليهم.
٨ - الوجه الصبيح: الوضيء.
٩ - في ط: الألوان والأذهان.
١٠ - في ت: للمجاز.

العَوان[1]. تنصب عليه مجانيق الطَّوى[2]، فتقذفه بجلاميد الخَوَى[3]، وترميه بسهام الرَّوائح المُنْكرَة، عن قسيّ الأهوية المُغَيِّرة، بأكفّ الأبخرة المُكدرّة، فما تلبثُ أنْ تحطّ علاه، وتبيح[4] للأسقام[5] حماه، تنصبُّ حواليه أنهارٌ تشتعل بها في حَشا الظمآن نار، ودارت بها غابةٌ من نخيل، وقد طَلّسمَتْ[6] ثمرتها بكفّ كلّ بخيل، فلو أتاها جَبلة بن الأيْهم[7]، أوحلّ حماها إبراهيم بن أدْهم[8] لم تُنَلْ إلابِرُقية الدِّينار والدّرهم، على أنَّ الهواءَ العَفِنَ قد مَنَعها الجُفوف، فليس لها على الخَزَيز[9] والغُثاء[10] شفوف، لأنّه إذا أُفردتْ عن أشجارها القطوف، بدت العُفونةُ بها تطوف.

---

١ – حَرْبٌ عوان: كان قبلها حرب، أي الحرب المترددة.

٢ – الطوى: الجوعْ.

٣ – الخوى خلو البطن من الطعام.

٤ – في ط: تهيج.

٥ – في ط: للأسهام.

٦ – في ط: طلمست، وطلسمت: نقش عليها نقوش بكيفيّات خاصّة لردّ الأذى.

٧ – جبْلة بن الأيهم بن جبلة الغساني: آخر ملوك الغساسنة ببلاد الشام، أسلم وارتد وخرج إلى بلاد الروم، ولم يزل بالقسطنطينية عند هرقل حت مات حوالي ٢٠هـ. ترجمته في العقد الفريد ٢/٥٦–٦٢، نشوة الطرب ١/٢٠٥، نهاية الأرب ٣١١/١٥ .

٨ – إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد بن جابر التميمي البلخي: زاهد مشهور، كان من الأشراف، وكان أبوه كثير المال والخدم، تفقه ورحل إلى بغداد، وجال في العراق والشام والحجاز، وأخذ عن كثير من العلماء، وأرجح الروايات في وفاته أنها كانت في سوفنق «حصن من بلاد الروم» سنة ١٦١هـ. ترجمته في سير أعلام النبلاء ٣٨٧/٧ـ فوات الوفيات ١٣/١.

٩ – الخزيز: العوسج الجاف جداً.

١٠ – الغُثَاء: الزبد والقذر.

وأما العلم عندهم فقد ركدت ريحه، والجهل لديهم[1] لايؤسى جريحه، عامٌ لايتطرَّق إليه الخصوص، وظاهر جاء على وفق النّصوص. وهذا حكم استفدته من العيَان، ونتيجة الاختبار لهم والامتحان، نعم بها آحاد الفضلاء الصلّحاء. كالشّعرة البيضاء في اللِّمّة[2] السّوداء، يستمطر بهم المزن إذا لم يُسْبِل سَبَلَهُ[3]، والنّادر لاحكم له.

وقد حضرت بجامعها شيخاً يُشار إليه، ويُعَوَّلُ في نوازل المسائل عليه، وحواليه جماعة من أعيانها، وأهل الخطط من سكّانها، فقُرئ عليه في المرابحة من «التّلقين» باب استُبهِمَ عليه فيه وجه الصّواب، فخبطوا فيه خبط عشواء، وأتوا أثناءَه بكلّ شوهاء[4] وشنعاء. فممّا جرى لهم في مسألة الغلط في الثّمن بالزّيادة أو النّقص أنَّ اعتبار القيمة فيها لتختبر صحّة قول البائع أو المشتري [٤١/أ]، وهذا كلام لايتحصّل في الذّهن فضلاً عن صحّته وفساده، وقالوا: إنّ القيمة لمّا اعتبرت بالثّمن كان المعتبر إذاً هو الثّمن، ثمَّ نقضوا هذا الهراء[5] بأنّ القيمة يضرب عليها الرّبح وقالوا: إنّ الثّمن يعتبر دون ربح، وهذا هُراء[6] أشدّ من الأوّل، وماكفاهم ذلك حتّى أخذوا في تحقيق ذلك من ألفاظ الكتاب، بتنزيلها على وجوه الإعراب، وبعد مجاراة[7] طويلة، ومماراة[8] ليست بقليلة، وقفتهم على ماأملوا من تلك القبائح، الّتي لم يَغْدُ

---

١ – ت: عندهم.

٢ – اللّمّة: شعر الرأس.

٣ – السّبل: المطر.

٤ – الشوهاء: القبيحة.

٥ – الهُراءُ: المنطق الفاسد الذي لا نظام له.

٦ – في ط: هذيان.

٧ – في ت: محاورة.

٨ – المماراة: المعارضة.

بمثلها غادٍ ولاراح رائح، واستبان لهم لمّا لاح في ليل خبطهم نهار، أنَّ بنيانَهم كان على﴿ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾[1]، ولولا ماأتوقّع من جدال المماحِك[2] لم أشِنْ وجوه الأوراق بهذه المضاحك، ولم أُخلّدْ لها ذكراً في كتاب، بل أطويها[3] ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكِتَابِ﴾[4].

ثم قطعنا بريّة المراحل الحُمر، وهي بيداء تغري بالرّواحل الضُّمر. على أنّها أقلُّ البراري غرراً[5]، وأخفُّها مؤونةً وضَرَراً، ماؤها مورود، قلّما يغبّ[6] الورود، ولكن معالمها دوارس، ومسالكها طوامس[7]، للرّمال المنهالة والرّياح الرّوامس[8].

ومنها إلى قريتَيْ زوارة[9] وزواغة[10]، ذوي الأنفس الخبيثة والقلوب الزّواغة[11]، معتقدات شنيعة، وأعمال ﴿كَسَرَابٍ بِقِيْعَةٍ﴾[12] ومذاهب سوء رديّة، وضمائر شرّ عمر منهم كل طويّة، إن استنام إليهم حاجّ لم

---

١ – سورة التوبة/١٠٩.

٢ – رجل مماحك: لجوج.

٣ – في ط: طويتها.

٤ – سورة الأنبياء، من الآية: ١٠٤.

٥ – الغرر: الخطر.

٦ – الغِبُّ: أن تشرب يوماً، ويوماً لا، أي ورد يوم، وظمأ آخر.

٧ – الطوامس: جمع طامس، وهو البعيد الذي لا يتبين من بُعد. وطمس الطريق: درس وامّحى أثره.

٨ – الرياح الروامس: التي تنتقل التراب من بلد إلى آخر، وبينها أيام. والروامس: الرياح التي تثير التراب وتدفن الآثار.

٩ – زوارة: بلدة ذات نخل وأشجار، أهلها من الخوارج، تقع على ساحل البحر، بينهاوبين زواغة ستة أميال. رحلة التجاني ٢١٠ ، وقال الوزان: تبعد عن جربة شرقاً مسافة ٥٠ ميلاً. وصف إفريقيا ٩٦/٢ .

١٠ – زواغة: من بلاد إفريقية، وسميت بزواغة قبيلة من البربر، فيها نخل.انظر رحلة التجاني٢١١ .

١١ – في ط: الرّواغة.

١٢ – سورة النور: ٣٩.

يوقظهُ إلاّبرد ماء التّقديس، ودويّ أصوات النّواقيس، أو استأمَنَ إليهم داجٍ لم يَرُعْهُ إلا تلفيق المعاذير عن إساءة رعي الخنازير؛ لأنّهم يبيعونهم[1] من النّصارى بأبخَسِ الثّمن، ويعتقدون ذلك حَقّاً [لازماً][2] تنتفي عنه الظّنن، قطع الله دابرهم، وخَضَدَ[3] أصاغرهم وأكابرهم، ولا أخلاهم من قارعة تجتاحهم قرعاً، وتُسحِتُهم[4] أصلاً وفرعاً.

ثم خطرنا على قرية زنزور[5]، ولم أخبرها فلا أحدِّث عنها بزور، إلاأنَّ[6] مظهرها[7] معجب مونق، وشجرها مخصب مورق، ولاأدري [٤١/ب] هل مخبرها موافق،أوهي ذات وجهين كالمنافق.

[ذكر طرابلس]

ثم وصلنا إلى مدينة أُطرابُلُس، وهي للجهل مأتم ومالعلم بها عُرس، أقفرتْ ظاهراً وباطناً، وذمّها الخبير بها سائراً وقاطناً، تلمع لقاصدها لَمَعَانُ البرق الخُلَّب[8]، وتريه ظاهراً مشرقاً والباطن قد قطبّ، اكتنفها البحر والقفر، واستولى عليها من عربان البرّ ونصارى البحر النِّفاق والكفر، وتفرقّت عنها الفضائل تَفرُّقَ الحجيج يوم النَّفْرِ[9]، لاترى بها شَجَراً ولاثَمَرا، ولاتخوضُ في

١ – في ط: يبيعونها.
٢ – زيادة من ط.
٣ – في ط: حصد، وخَضَدُ البَدَن: تكسُّره وتوجّعه.
٤ – سحت: استأصل.
٥ – زنزور: قرية قريبة من البحر على بعد نحو ١٢ ميلاً من طرابلس. انظر وصف إفريقيا ١١٠/٢ .
٦– في ط: لأن.
٧ – في ت: منظرها.
٨ – برق خُلّب: لاغيث فيه، وفي المثل: إنما هو كبرق الخلب. انظر الميداني ١٨/١ .
٩ – النَّفْرُ: التّفرّق.

أرجائها حَوْضاً ولانَهْرا، ولاتجتلي روضاً يحوي نَوْراً ولازهرا، بل هي «أَقْفَرُ مِن جَوْفِ حِمَار»[1] وأهلُها «سَواسِيَةٌ كأسْنَانِ الحِمَارِ[2]»، ليس على ناشئٍ منهم فضلٌ لذي شَيْبَة[3]، ولا لذي الفضل منهم[4] هَيْبَة، ترى أجساماً حاضرة والعقول في عقل غيابات الغَيبة، ملابس يلبسها ليَلْبِسَ بها من ملابس العيوب العَيبة، إلى بُخل لومازجَ ماءَ البحرِ جَمَد، أوخالطَ الهواءَ سكن في آذارَ وركد. وخُلُقٍ يضيقُ به مُتَّسع الفضاءِ، ونَزَقٍ يحقّ له في ذَمّهم كشف الغطاء. وأذهانٍ أربَتْ في الضّيقِ على الخاتم، سواء لديها[5] من حارب ومن سالم: [السريع]

كأنَّهمْ مِن ضيقِ أفهامِهِمْ لَمْ يَخْرُجُوا بَعْدُ إِلَى العَالَمِ

فسبحان من خلقهم[6] وأهل تُونِس في طرفي نقيض، أولئك في الأوج وأُولاءِ في الحضيض.

---

١ – في المثل: أخلى من جوف حمار، وهو رجل من عاد يقال له حمار بن مويلع. وجوفه واد خصيب، وفيه من كل الثمرات، فخرج بنوه يتصيدون، فأصابتهم صاعقة فهلكوا، فكفر وقال: لا أعبد مَن فعل هذا ببنيّ، ودعا قومه إلى الكفر فمن عصاه قتله، فأهلكه الله تعالى وأخرب واديه، انظر ثمار القلوب٨٤ والميداني ١/٢٥٧ .

٢ – المثل في أمثال أبي عبيد ١٣٢، وجمهرة الأمثال ١/٥٢٢، ومجمع الأمثال للميداني ١/٣٢٩، والمستقصى ٢/١٢٣ وفصل المقال ١٩٦، واللسان سوا.

٣ – إشارة إلى قول كثير في ديوانه ٣٨٤:

سَواءٌ كأسنانِ الحمارِ فلا ترى لذي شَيْبَةٍ منهم على ناشيء فضلا

٤ – في ط: بينهم.

٥ – في ت: لديهم.

٦ – في ت و ط: جعلهم.

ولم أرَ بها مايروقُ العيونَ[١]، وسَماعَنْ أن يقوم بالدُّون،سوى جامعِها ومدرستِها، فإنّ لهما من حُسْنِ الصّورة نصيباً، ومن إتقان الصَّنعة سَهْماً مصيباً. وما رأيت في الغرب مثل مدرستها المذكورة، لولا أنّ محاسنها مقصورة على الصّورة، فما يشبُّ[٢] بها للعلم طفل، ولايحجّ صرورة[٣]: [الطويل]

وَمَا الحُسْنُ في وَجْهِ الفَتَى شَرَفَاً لَهُ إذَا لَمْ يَكُنْ في فِعلِهِ والخَلائِقِ[٤]

[لقاؤه لابن عبد السَّيِّد]

وقد حضرتُ بها تدريسَ الشَّيخِ المُسنِ القاضي الخطيبِ أبي محمّد عبدالله بن عبدالسَّيِّد، وهو بيتُ قصيدتهم، وكَبْشُ[٥] كتيبتهم [٤٢/أ] وواسطةُ قلادتِهم، وأنْفُ سيادتِهم، ذو سمْتٍ ووقار، وقد أثَّر الكِبَرُ في جسمه، كثير المواظبة للمسجد والذِّكْرِ، خَيِّرٌ في دينه، وماكنت آتيه بعدما رأيته إلا بقصد الدّعاء؛ لأنّه ضَيِّق الخُلُق، ليِّن النظر، وفي لسانه حُبْسَةٌ لايكاد يفهم معها، وقد استفرغتُ جهدي وقت إقرائه في تفهّم مايقول،فما فهمتُهُ إلا بعد مدّة، وأظنُّهُ لاروايةَ لهُ؛ فإنّي سألتُهُ عن ذلك فأبهم جوابهُ وتنمّر[٦]، وحاولت مداخلته فصدّني عن ذلك بشكاستِهِ[٧] وجهامةِ لقائه. وما أبعد جميع[٨] أحوالِه من

---

١ - في ت: للعيون.
٢ - في ت: يشيب.
٣ - رجل صرورة: لم يحج قط.
٤ - للمتنبي في مدح سيف الدولة. الديوان ٢/٣٢٠ .
٥ - كبش الكتبة: قائدها.
٦ - تنمرّ: غضب.
٧ - الشكِس: العسر الخلق.
٨ - ليست في ت و ط .

أحوالِ شيخنا الفقيه القاضي الأوحد الإمام، قاضي الجماعة بحضرةِ مَرَّاكُش - كلأها الله - أبي عبدالله محمّد بن عليّ بن يحيى الشَّريف(١) قدسَ الله تربته، وآنسَ في قبره غربتَه؛ فإنّه كان - والله - زين الدّنيا والدّين، وهو كما قال القائل: [الطويل]

أقامُــوا بظَهْرِ الأرضِ فَاخْضرَّ عُودُهـــا وَصَارُوا ببَطْنِ الأرْضِ فاسْتَوْحَشَ الظَّهْرُ

وتالله إنَّ فَقْدَ مثله ليُهوّن الرَّزايا، وإنّه لحقيق بما قال أحمد بن المُعذَّل(٢) في ابن الماجَشون:(٣) «ماذكرتُ أنّ الأرض تأكل لسانَ عبدالملك إلاهانت الدّنيا في عيني»(٤).

وقد سألت الشَّيخ أبا محمّد بن عبدالسَّيّد عن أشياء ماقام فيها ولاقعد، وماستفدت منه في العلم فائدة سوى ماتقدَّم تسيطره في قوله ﷺ:« إذا نُوديَ للصَّلاةِ أدبرَ الشَّيطانُ»(٥).

---

١ - محمد بن علي بن يحيى الشريف: قاضي الجماعة بمراكش: فقيه، محدِّث، كان يميل إلى الاجتهاد، وله مشاركة في الأصول والكلام والمنطق والحساب. توفي بمراكش سنة ٦٨٢هـ. ترجمته في الإعلام للمراكشي ٢٨١/٤، الذيل والتكملة مقدمة السِّفر الثامن ١٦-١٧ .

٢ - أحمد بن المعدل بن غيلان العبدي البصري: فقيه مالكي صحب عبد الملك بن الماجشون، كان له عدّة مصنفات، وتفقه عليه جماعة من كبار المالكية توفي سنة ٢٤٠هـ. ترجمته في: ترتيب المدارك ٥٥٠/٢- الديباج المذهب ٣٠- شذرات الذهب ٩٥/٢- شجرة النور ٦٤.

٣ - عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله التيمي بالولاء: فقيه مالكي من الفصحاء، انتفع به كثيرون، دارت الفتيا عليه في زمانه. وفي وفيات الأعيان ثلاثة أقوال في وفاته: ٢١٢هـ و٢١٣هـ و٢١٤هـ ترجمته في: نكت الهميان ١٩٧- ابن قنفذ ١٦٢- وفيات الأعيان ١٦٦/٣ .

٤ - القول في: ترتيب المدارك ٣٦١/٢- نكت الهميان ١٩٧- وفيات الأعيان ١٦٦/٣- سير أعلام النبلاء ٣٦٠/١٠.

٥ - أخرجه البخاري في الأذان، فضل التأذين رقم ٦٠٨—٨٤/٢؛ العمل في الصلاة، يذكر الرجل الشيء في الصلاة رقم ١٢٣٢-٨٩/٣: السهو، إذا لم يدرِ كم صلى رقم ١٢٣١- ١٠٣/٣: بدء الخلق، صفة إبليس وجنوده رقم ٣٢٨٥ - ٣٣٧/٦. ومسلم في الصلاة، فضل الأذان وهرب => =>

ولمّا حضرت تدريسه مرَّ لهم في دولة التَّفسير قوله تعالى: ﴿ وإنْ يُكَذِّبوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الذَينَ مِن قَبْلِهِم جَاءتْهُم رُسُلُهمْ بالبَيِّناتِ وبالزُّبُرِ وبِالكِتابِ المُنيرِ﴾[1]، فسألتُه: ماالكتاب المنير الَّذي أراد هنا؟ فأجاب: بأنّه جِنسٌ، وهو بمعنى الزُّبُر قبله بإجماعٍ من المُفسّرين. فقلت له: لِمَ كرَّر؟ فقال: للتّأكيد. وجَمَدَ على ذلك، ولايُفهم هنا للتّأكيد معنى. ولوقال: كرّر لما تضمّنه من المدح كما تُعطَف النّعوت بعضها على بعضٍ لكانَ أشبَه، ولكنَّ تكرارَ الباء يُشعر بالفَصلِ؛ لأنَّ فَائدة تكرارِ العامل بعد حرف العطف إشعارٌ بقوّة [٤٢/ب] الفصل بين الأوّل والثّاني، وعدم التَّجوّز في عطف الشَّيء على نفسه،([2]والله أعلم[2]).

ثمّ مرّ لهم بعدها قوله تعالى: ﴿وغَرَابيبُ سودٌ﴾[3] وهي من الآيات الَّتي صَدِئتْ فيها الأذهان الصّقيلة، وعادت بها أسنّةُ الألسنة[4] مفلولة الشَّبا كليلة؛ وذلك أنَّ المنهج في كلامهم تقديم المتبوع على التَّابع فيقولون: أبيض ناصع، وأصفر فاقع، وأحمر قانٍ، وأسود حالك،وغربيب. ولايقولون: ناصع أبيض، ولافاقع أصفر، ولاقانٍ أحمر؛ لأنَّ التَّابع[5] فيه معنى زيادة الوصف فلو قدّم كان ذِكْرُ المتبوع بعده عياً، إلاَّ أن يكون المعنى[6] أوجب تقديمه. فلمّا

=> => الشيطان رقم ١٩. وأبو داود في الصلاة، رفع الصوت بالأذان رقم ٥١٦. وابن حنبل: ٢/٣١٣، ٤٦٠- ٥٢٢. والنسائي: ٢/٢١ و٣/٣١. والدارمي: ١/٢٧٣- والموطأ: ٥٧.

١ - سورة فاطر: ٢٥.

(٢-٢)- سقط من ت.

٣ - سورة فاطر: ٢٧.

٤ - في ت: ألسنة الأسنة.

٥ - في ت: التبع.

٦ - في ت و ط : بمعنى.

قَرَعْتُ أسماعهم بهذا سكتوا ولم يجد أحدٌ منهم جواباً. وكان الشّيخ قد ذكر ما قال بعضهم، وأظنّه القاضي أبا محمّد بن عطيّة[1] أنّه من فصيح الكلام فلم أقنع بذلك، وقرّرته على ماتقدّم فسكت.

ومن جملة العجائب أنَّ شيخاً ممّن حضر إقراءه أراد أن يحتجَّ عنه لما كلّمته، فقال لي: إنّما ذكر السّود؛ لأنّه قد يكون في الغِربان ما فيه بياض، وقد رأيته في بلاد المشرق، فلم يفهم من الآية - وقد حضر تفسيرها - شيئاً إلاّ أنّ الغربيب هو الغُراب!.

وقد ظهر لي في الآية الأولى وجهان أردتُ أن أثبتهما مستخيراً لله عزّ وجلّ:

أحدهما: إنَّ قوله تعالى: ﴿جَاءَتْهُم﴾ يعود فيه الضّمير على المكذّبين للنّبيّ ﷺ، وعلى الّذين من قبلهم فيكون النّبيّ ﷺ داخلاً في الرّسل المذكورين[2]، والكتاب المنير: القرآن. وقوله: ﴿ثمَّ أخذتُ الّذينَ كفَروا﴾[3] معطوف على قوله: ﴿فقَد كَذَّبَ الّذينَ مِنْ قبلِهِمْ﴾[4] أي: كذّبوا، ثم أخذتهم لقيام الحجّة عليهم بالبيّنات وبالزّبر، وبالكتاب المنير، وجاء تقديم قيام

---

١ - عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي الغرناطي، مفسّر، فقيه، قاض، عارف بالحديث، له مشاركة في علوم اللغة والأدب والشعر. ولد سنة ٤٨١هـ، وتوفي سنة ٥٤٢هـ. له تصانيف منها: «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» طبعته وزارة الأوقاف في فاس، وفهرس بأسماء شيوخه. ترجمته في: الصلة ٣٨٦/٢- قضاة الأندلس ١٠٩- معجم ابن الأبار ٢٦٩- بغية الملتمس ٣٨٩.

٢ - في ت: المكذبين.

٣ - سورة فاطر: ٢٦.

٤ - سورة فاطر: ٢٥.

الحجّة قبل العطف اعتراضاً للتّهمُّمِ به، وهو من أرقّ وجوه البلاغة كما قال(1): [الوافر]

فَإِنَّـكَ إِنْ أَفُتْـكَ يَفُتْـكَ منِّـي – فلا تُسْبَقْ بِهِ – عِلْقٌ نفيسُ(2)

[٤٣/أ] وكما قال حَسَّان رضي الله عنه(3): [البسيط]

فَإِنَّ فـي حَرْبِهِـم فاتْرُكْ عَداوتَهـم شَرّاً يُخَاضُ عليهِ الصّابُ والسَّلَعُ(4)

وأرى مثلَ هذا في آيةِ آل عمران، وهي قوله تعالى: ﴿**فإنْ كذَّبوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ**﴾(5) الآية. وقوله: ﴿**جاؤوا**﴾ انصراف من المخاطبة إلى الغيبة، كأنَّه قال: جاء هؤلاء المذكورون(6)، فيكون النَّبيّ ﷺ داخلاً في الضَّمير، وهو في موضع جاءتهم بالبيّنات وبالزُّبُر وبالكتاب المنير، فأقامَ الإخبارَ عن الغائبِ مقامَ الخطابِ كما قال: ﴿**حتّى إذا كُنتمْ في الفُلْك وجَرَيْنَ بِهِمْ بِريحٍ طَيِّبةٍ**﴾(7)، وفيها(8) وجهٌ من التَّفخيمِ والتَّعجّب، كما أنَّ المخاطبَ إذا استعظمَ الأمرَ رجعَ إلى الغيبة؛ ليَعمَّ الإخبارُ به جميعَ النَّاسِ، وهذا موجودٌ في الآيتين، ومن ذلك قولُ النَّابغة الذُّبيانيّ(9): [البسيط]

---

١ – البيت في حلية المحاضرة ٥٧، معاهدة التّنصيص ٣٦٤/١ دون عزو.
٢ – العِلْقُ: النفيس من كل شيء يتعلّق به القلب.
٣ – ديوانه ٢٥٠.
٤ – الصاب والسلع: شجرمر.
٥ – سورة آل عمران: ١٨٤.
٦ – في ط: المذكورين وفيها خطأ نحوي.
٧ – سورة يونس: ٢٢.
٨ – بقية النسخ: وفيه.
٩ – ديوانه: ٢ وهو مطلع اعتذارية له.

يادارَ مَيَّةَ بالعَـلْيَـاءِ فَالسَّـنَدِ   أقْوَتْ وطَالَ عَليها سَالِفُ الأبدِ

والوجه الاخر: أن يكون المعنى على حذف مضاف كأنَّه قال: ويخبر الكتاب المنير يعني: القرآن، فيكون مثل قوله: ﴿ ومُبَشّراً لرسولٍ ياتي مِنْ بَعدِي اسْمُهُ احْمَدُ﴾[1] وهذا وَجْهٌ حَسَنٌ قريب، وكان شيخنا زين الدين أبو الحَسَن المالكيّ الإسْكَنْدَريّ قد استحسنه حين عرضته عليه والحمد لله.

وأما الآية الأخرى وهي قوله تعالى: ﴿وغَرابيبُ سُود﴾ فَحَسْبُكَ به[2] إشكالاً أنَّ فحولَ المفسّرين [3] أحجموا عن [3] القول فيه، وقصّروا عمّا يتُمُّ الغرضَ ويوفّيه، والَّذي ظهر لي في ذلك بعد طولِ تأمّل، وفرطِ قَلَقٍ فيه وتململ، أنَّ الموجبَ لتقديم الغرابيبِ هو تناسبُ الكَلِم، وتماثلُ نَسَقِ الألفاظ، وجَرَيانها على نمط متساوي التَّركيب، وهو معنى قلّما يوجدُ في غيرِ الكتابِ العزيز حسبما تقدّم في قوله تعالى: ﴿فَتذكِّرُ إحْداهُما الأُخْرَى﴾. وذلك أنَّه لمّا تقدّم ذكرُ البيضِ والحُمُرِ دونَ إتباع كان الألْيَقُ بحُسنِ النَّسَق، وترتيب النِّظام أن تكون السّودُ كذلك، ولكنّهُ لما كانَ في السّودِ هنا زيادةُ [٤٣/ب] الوصفِ كان الأليقُ بالمعنى أن تتبع بما يقتضي ذلك وهو الغرابيبُ فتقابل حَظُّ اللفظ وحظُّ المعنى، فوفّي الحَظّان معاً، وكمل الغرضان[4] جميعاً، ولم يُطّرح أحدهما للآخر، فيقعَ النَّقصُ من جهة المُطَّرَح، وذلك بتقديم الغرابيب

---

١ – سورة الصف: ٦.

٢ – في ت و ط : منها.

(٣–٣) – في ت: أجدّوا علي.

٤ – في الأصل: الغرض.

على السّودِ، فوفّى لفظُ الغرابيبِ حَظَّ المعنى في زيادة الوصف، ووفى ذكر السُّود مفرداً من الإتباع حظَّ اللّفظِ؛ إذ جاء مجرَّداً على صورة البيض والحُمر فاتّسقَت الألفاظ كما ينبغي، وتمّ المعنى كما يجب، ولم يخلّ بواحد من الوجهين، ولم يقتصر على الغرابيب، وإن كانت متضمّنةً لمعنى السُّود؛ لئلّا تتنافر الألفاظ، فإن ضمّ الغرابيب إلى البيض والحُمر، ولَزّهما في قرن واحد: [البسيط]

كابنِ اللّبونِ إذا مالُزَّ في قَرَنٍ[1] ——— ——— ———

وذلك غيرُ مناسبٍ لتلاؤمِ الألفاظِ وتشاكلِها وجريِها في سَنَنِ الاتّفاقِ، وبذكر السُّودِ وقعَ[2] الالتئامُ، واتّسقَ نَسَقُ النِّظامِ وجاءَ اللّفظُ والمعنى في دَرَجةِ التّمام، وهذا - لعَمْرُ الله - من العجائب التّي تكلُّ دونها العقولُ، ويعيا بها اللَّسِنُ[3] فلا يدري مايقولُ، والحمد لله على حُسْنِ عونه.

ومرّ لهم في دولة«الموطّأ» حديث ابن عمر رضي الله عنه في«مَنْ نَسيَ صَلاةً[4] فلم يذكُرْها إلاّ وهو وراءَ الإمامِ[5]» فقال في الكلام عليه: سمعت

---

١ - صدر بيت لجرير، وعجزه: لم يستطع صَوْلَةَ البُزْل القناعيس. ديوانه: ١/١٢٨ . ورواية الديوان: وابن اللبون. وهو ما أوفى على ثلاث سنين، لُزَّ: رُبِطَ، القَرن: الحبل الذي يُشَدُّ به البعيران ونحوهما فيُقرنان معاً.

٢ - في بقية النسخ: يقع.

٣ - اللَّسِنُ: الفصيح.

٤ - في ت: الصلاة.

٥ - أخرجه شيرويه في فردوس الأخبار ٤/٩٥ - وهو في مجمع الزوائد ١/٣٢٤ بخلاف في اللفظ - والبيهقي ٢٠/٢٢١ - وكنز العمال ٧/٥٤١.

الإمام فخرَ الدّين أبا عليّ بن رَشيق[1] بمصر يقول في تعليل قطع الصّلاة إذا ذُكرت فيها صلاة أخرى، إنّما ذلك لقوله ﷺ:« من نَامَ عَن صَلاةٍ أونَسيَها فَلْيُصَلّها إذا ذكرَها، فإنَّ ذلكَ وَقْتُ لَها »[2].

قال: فعيّن[3] النّبي ﷺ وقت الذّكر للفائتة فوجب أن يقطع الّتي هو[4] فيها. فقلت له: هذا عامٌّ محتمل للتّخصيص بمن ذكرها في غير صلاة، فأمّا من ذَكَرَها في الصّلاةِ فخارج عن هذا العموم بدليلِ قولهِ تعالى: ﴿وَلاتُبْطِلُوا أعْمالكُمْ﴾[5]. كما خرجَ عَنْهُ من ذكرها في أوقاتِ النَّهْي عندَ من يرى ذلكَ من العلماء.

ثم إنَّ هذا التّعْليلِ لايأتي على مذهب مالك - رحمه الله -لأنّه لايرى القَطْعَ واجباً بدليلِ أنّ من صلّى صلواتٍ وهو [٤٤/أ] ذاكرٌ لصلاةٍ فإنّه لايَعيدُ منها إلاّ مابقيَ وقتُهُ، وبدليل أنَّ الإمامَ إذا ذكر صلاة ثم قطع فقد أبطل على مَنْ خَلْفَهُ، ولوكان القطعُ واجباً لصحّت صلاة مَن خلْفَهُ؛ لأنّهُ مغلوبٌ على القَطْعِ، كما إذا ذكر أنّه جُنُبٌ، ولكنَّ القطع في ذلك استحباب، فكأنّ الإمامَ متعمدٌ له[6]، فلذلك أبطلَ على من خَلْفَهُ، وكنت أذكر هذا المعنى

---

١ - هو الحسين بن عتيق بن رشيق: فقيه مالكي، عالم، كانت عليه مدار الفتيا بالديار المصرية عاش بين سنتي ٥٤٧-٦٣٢هـ ترجمته في: حسن المحاضرة ٤٥٥/١- الديباج المذهب ١٠٥- شجرة النور الزكية ١٦٦/١ وفيها الحسين بن رشيق.

٢ - هو في ابن ماجة: الصلاة، من نام عن الصلاة أو نسيها رقم ٦٩٦- ابن حنبل: ١٠٠/٣ و٢٨٢ عن أنس- مجمع الزوائد ٣٢٢/١ بخلاف في اللفظ- ابن عدي في الكامل ٢٥٨/٣- فردوس الأخبار ٩٥/٤.

٣ - في ت: يعني.

٤ - ليست في ط.

٥ - سورة محمد: ٣٣.

٦ - ليست في ت.

من كلام الشّيخ الإمام أبي الحَسَن اللَّخْميّ على المسألة، فلمّا فرغت من كلامي هذا سكتوا، ولم يجدوا جواباً. وهذا وماأشبهه إنّما أثبتُّهُ تنبيهاً على ضعف العلم في هذا الأوان، وقلّة الرّاغب فيه، لاأنيّ معجب فيه بنفسي ويعلم الله أنَّ معتقدي أنّ أدَلَّ دليلٍ على فناء العلم، وامّحاء رسومه[1]، هو كلامي وكلام أمثالي فيه، فإنّه ماأوجبه إلاعَدَمُ عُلماءِ التّحقيق، وحسبنا الله وبه التّوفيق.

والّذي أرى في الحديث الّذي استدلَّ به ابن رشيق أنّه يقصرُ على مثلِ الصُّورَةِ التي وَرَدَ فيها، وهي صلاةُ النّبي ﷺ الصُّبْحُ يومَ الوادي بعدَ طلوعِ الشّمس، لامن حيث أنّه وارد في صورة، فإنَّ معتقدي أنّ اللّفظ إذا كان مستقلّاً بنفسهِ اعتبر بما يجب له، ولم يُقصر على الصّورة الّتي ورد فيها، ولكن من حيث قام الدّليل، إنَّ ذلك هو المراد، وذلك أنّ حَمْلَهُ على العموم يؤدّي إلى باطلٍ مُتَّفقٍ على بُطلانِهِ، وهو أنَّ من ذكر صلاتين فأكثر لايؤدّيهما أبداً، لأنّه كلّما وقف في صلاة ذكرَ فيها أخرى فتبطلُ عليه، فالتّخصيص في مثل هذا ضربة لازم[2]، والله أعلم.

[قبّة باب البحر]

ولم أرَ بأطرابُلُسَ أثَر عنايةٍ، سوى ماتقدَّمَ ذكرُهُ، إلاَّ قبّةً ببابِ اَلبَحْرِ من بناء الأوائلِ، في غايةِ الإتقانِ، ونهايةِ الأحكامِ، مَبْنِيَّةً من صخور[3] منحوتةٍ في

---

١ - في ت و ط: رسمه.

٢ - في ط: لازب. وكلاهما صحيح.

٣ - في ت: صخر.

نهايةِ العظَمِ، منقوشةٍ بأحسنِ النَّقشِ، مرصوفة بأعجب الرَّصْفِ، متماثلةِ المقدارِ عُلَويِّها وسُفليِّها، ولاملاط[1] بين الصُّخورِ من طين ولاغيره، ومن العجبِ ترتيب تلك الصُّخور [٤٤/ب] ورصفها في الأساس فَضْلاً عن رَفْعِها إلى السَّقف ورَصْفِها هناك مع إفراط عظمها، وفي مقعد القبّة صخرةٌ مستديرةٌ منقوشةٌ، يحارُ النَّاظرُ في حُسن وَضْعِها، وعلى القُبَّةِ قُبَّةٌ أخرى عالية، ومبانٍ مرتفعة، ورأيت للقبّة السُّفلى باباً مسدوداً، وعليه من خارجهِ صورةُ أسَدين قد اكتنفاهُ مُصَوَّرينِ من تلكَ الصّخورِ بأبدعِ صنعةٍ، وأغربِها، وهما متقابلانِ على البابِ، وفي كلٍّ واحد منهما صورةُ لجام قد أمسكَ بعِنانه شَخصٌ واقفٌ وراءَه، وقد منعهُ به أشدَّ المنع، ولعلَّ ذلك كان لمعنى تعطّل وجُهل سرِّهُ، والله أعلم.

[قصر الجَمّ]

والَّذي في بلاد إفريقيَةَ من عجائبِ البناء، وآثارِ الاعتناء أمرٌ يضيقُ عنه الوصفُ، منها قصرُ الجَمّ[2]، وسيأتي ذكرُهُ إنْ شاءَ الله، ومنها قصرٌ يُعرَفُ بالمنارةِ غربيِ القَيْروانِ، على مرحلةٍ منه، مبنيٌّ من صخور منحوتة، موضوع على الاستدارة[3] كأنَّه مخروط من عود، وهو من فرط إتقانه كأنَّه حجر واحد، وفي أعلاه طوق ناتىء من تلك الصّخور على هيئة طَنَف[4] قدْ نُحتَ ورقّقَتْ أطرافُه حتَّى تجردّت[5]، وعُرِّض من الأصلِ فأتت لذلك جميلةَ المنظرِ.

---

١ – الملاط: الطين الذي يجعل بين ساقي البناء، ويملط بين الحائط.

٢ – قصر الجم: هو أعظم قصور إفريقية وأشهرها، شكله مستدير، وارتفاعه في الهواء مائة ذراع، وذكر البكري أن تكسير دائرته في الأرض ميل. ويقال: إن الكاهنة حصرها عدوّها في هذا الحصن فحفرت منه سرباً نفذت به إلى سلقطة. انظر: رحلة التجاني: ٥٧، الحلل السندسية ٣٠٦/١.

٣ – ليست في ت.

٤ – الطّنَف: هو ما أشرف خارجاً من البناء.

٥ – في ط: حددت.

وفي أعلى القَصْرِ من كل جهة صخورٌ بارزةٌ من البُنيانِ عظيمةٌ، قد نُحتتْ مستديرةً، وحُفرت فيها مَجارٍ للماءِ من السّطح فصارتْ ميازيبَ مُتّسعَةَ المجاري في غايةِ الإحكام وجمالِ المنظر.

وقد دلّتْ آثارُ تلكَ البُلدان على ضخامةِ مملكتِها في غابرِ الزّمانِ، على ضدٍّ ماهي عليه الآن، فإنّها شديدةُ الإهمالِ، غيرُ سديدةِ الأحوالِ، طامسةُ المسالكْ، دامسةٌ كالليْلِ الحالكْ، عمرانها خرابْ، وغُدرانُها سرابْ، وعنوانُها يبابْ[1]، يكلُّ عن وصفِ فَنائِها لسانُ المنطيق[2]، ويضيق في ميدانِ تبيانِ خلائِها عنانُ التّلفيق، حلت بها الآفات والمحن، وشفى منها الدّهر على عقد لها من حقود وإحَنْ[3]، لايسلكها إلا مُخاطر، ولايعدمُ من عُربانِها إيلامَ خاطر [٤٥/آ] قد استوى لديهم الصّالح والطّالح، واتّفق في مذاقِهم لكفرهم ونفاقهم كل عذب ومالح. اتخذوا أَخْذَ الحاجِ خلقاً ودَيناً واعتقدوا إهلاكَهُ ملّةً وديناً، فمالُه عندهم طعمةٌ[4] أحلى من مالِ اليتيم في فِيْ[5] الوليِّ الفاجرِ اللّئيم، ومن حديث إخوانِ الصّفاءِ[6]، ومن الوعد على ثِقةِ الوفاءِ، لبسوا أسمال[7] المعاوز،

---

١ – اليباب: المكان الخالي، القفر.

٢ – في ط: النطيق.

٣ – الإحَن: جمع إحنة: الحقد في الصدر.

٤ – في ت: طلعة.

٥ – ليست في ط و ت، وفي الثانية بمعنى فم.

٦ – إخوان الصفا: جماعة من فلاسفة المسلمين من أهل القرن الثالث ببغداد، اتحدوا على أن يوفقوا بين العقائد الإسلامية والحقائق الفلسفية المعروفة في ذلك العهد فكتبوا في ذلك خمسين مقالة سمّوها «تحفة أخوان الصفا». انظر دائرة معارف القرن العشرين ١٠٦/١ .

٧ – في ت: أشمال.

وألفوا خِلالَ المفاوز(١)، فهمْ بها أغنى عن الماء من ضَبّ(٢)، وأصبُّ إلى صَبّ الفواقر على فقر المسافر(٣) من صَبّ، على كل مرقبٍ منهم عُقاب يرقبُ الضيفان ليقريهم أمرَّ عقاب، فما يمرُّ بتلك المسالكِ سالك، ولايخطر على تلك المعابرْ عابر، ولايرد في تلك المناهل ناهل،إلا انقضّوا عليه انقضاض الصُّقورِ على البُغاث(٤)، وانكدروا(٥) عليه بحيث لايغاث من استغاث، فمزقوا أشلاءَهُ تمزيق الدهر للأحرار، وعاشوا فيه عيثَ أُوَيْسٍ(٦) في ثُلّةٍ(٧) وأسامة(٨) في صُوار(٩)، لاأمِنَ لهم من عوادي الدَّهرِ رَبْرَب(١٠)، ولاعَذُبَ لهم من موارد الآمال مَشرب، ولارحَلَ عنهم يومٌ حتَّى يَستخلف عليهم نكبة، ولاوردت عليهم ساعة إلا بتحفة عطبة(١١)، حتَّى يصيروا عبرة للبادي والحاضر، وأحدوثة المقيم والمسافر، بحول الإله(١٢) الَّذي يُسبّحهُ(١٣) الضَّبُ والنُّون(١٤)، وأمره بين الكاف والنُّون.

---

١ - المفاوز: واحدها مفازة: الصحراء الواسعة التي لا ماء فيها.

٢ - في المثل: لا أفعله حتَّى يرد الضبّ الماء، ولا يكون كذا حتى يحنّ الضبُّ في إثر الإبل الصادرة، وهذا لا يكون لأن الضبّ لا يرد. انظر مجمع الأمثال ٢/٢٢٦ واللسان: ضبب.

٣ - في ت و ط: المسافرين.

٤ - البُغاث: مالا يصيد من الطير.

٥ - في ط: انكدوا، وانكدروا: انقضّوا.

٦ - في ت: أوس، والأوس: الذئب وتصغيره أويس: قال أسماء بن خارجة:

في كل يوم من نؤاله ... ضِغثٌ يزيدُ على إبالهْ
فلأحشأنَّك مشقصاً ... أوساً، أُوَيْسَ من الهَبالَهْ

والهبالة اسم ناقته، وأويس: تصغير أوس وهو الذئب. وقيل: افترس له شاة فقال: لأضعَنَّ في حشاك مشقصاً ياأويس من غنيمتك التي غنمتها من غنمي.

٧ - الثلة: جماعة الغنم. وفي المثل: عاث فيهم عَيْثَ الذئاب يلتبسنَ بالغنم. انظر مجمع الأمثال ٢/٣٩.

٨ - أسامة: من أسماء الأسد.

٩ - الصِّوار والصُّوار: القطيع من البقر.

١٠ - الرَّبربُ: القطيع من بقر الوحش.

١١ - العطبة: الهلاك.

١٢ - في ت و ط : الله.

١٣ - في ط: يسبح له.

١٤ - النون: الحوت.

فصل

[حكم السفر]

وقد رأيت أن أثبت في هذا الفصل ماأعتقد أنّه الفصل في حكم السَّفر بهذه البلاد، لقضاء فريضة الله على العباد، فأقول: (1)إنَّ المرء إن كان(1) عَريَّ الفؤادِ من أُوارِ(2) الهوى، خَليَّ الأحشاءِ من نار الجوى،(3) ساكنَ البال والبَلْبَال(4)، مُنفسحَ المجال عن الأوْجال(5)، صاحيَ اللُّبِّ سليمَ الحَشَا، ثابتَ(6) الذِّهْنِ قعد أومشى. فمهما أجرى السُّؤالَ في هذا المجال، وسأل عن حكم الارتحال، مع هذه الأحوال، أُجيبَ بقوله: ألاصلّوا في الرِّحال. وأمّا من لِقلْبه اشتغالٌ باشتعال، وغرامٌ باضطرام، والتدامٌ(7) في احتدام، وتطرّقٌ إلى تحرّق، وتألّقٌ(8) من تملّق [45/ب]، واضطراب لاقتراب، وافتراقٌ لاجتماع، وإغراقٌ في انخلاع، شرب من كأس الحبِّ حتّى ارتوى، وذوى بدنُهُ من خوف النّوى، وهام بذكر حَاجِرِ(9) واللِّوى(10)، نقل عن نسيم الصَّبا حديثَ نَجْدٍ(11) وروى،

(1-1) - في ط: إن كان المرءُ.

2 - الأُوار: شدة لفح النار ووهجها.

3 - الجوَى: الحرقة، وشدة الوجد من عشق أو حزن.

4 - البَلْبَالُ: شدّة الهَمّ والوسواس.

5 - الأوجال: المخاوف.

6 - في ط: ثبت.

7 - الالتدام: الاضطراب.

8 - في ت و ط: في تملّق. والتملّق: التودّد والتلطّف.

9 - حاجر: منزل من منازل الحاج في البادية، وهو موضع في ديار تميم.انظر معجم ما استعجم 416.

10 - اللّوى: هو في الأصل منقطع الرملة، وهو موضع بعينه قد أكثر الشعراء من ذكره. وهو وادٍ من أودية بني سليم. انظر ياقوت 5/23 .

11- النَّجْدُ: ماغلظ من الأرض وأشرف. وكل ما ارتفع من تهامة في الجزيرة العربية فهو نجد.

فحوى من عِلْم الصّبابةِ ماحوى، واشتمل على أسرارٍ عليها انطوى، وأخذها مشافهةً عن معلّم الطّوى، سَرَت في جسْمه حُمَيّا[1] راح الرَّاح[2]، وغَنَّت على أفنان قلبه أطيار الارتياح، وهَبَّ له نسيمُ وَصْلٍ اهتزَّ له وارتاح، كما يهتزّ الغصن اللَّدْنُ في كفاحِ الرّياح. فهو مع الأوجالِ والجوى بمنزل، وعن حكم السّؤال والجواب بمعْزِل،لا يصغي أذناً إلى نَصيح، ولايلقي أُذُناً إلى لاحٍ[3] يصيح. يخاطب وغيرَ المخاطَبِ عَنى، وينظر وإلى غير المنظور رَنا. يشدو مُترنّماً، ويترنّم مدندناً[4]: [البسيط]

لَمْ يُحْبِبِ القلْبُ حُبّاً مِثْلَ حُبِّكُمُ ولَمْ تَرَ العَيْنُ شَيْئاً دونَكُمْ حَسَنا

فهذا حكمهُ حُكْمه، وأمرهُ أمْرُه[5]، وإلزامُهُ التزامه[6]. لايمتثل إلاّ مابه الحُبّ أمر، ولا يسكن إلاّ ماسكن الهوى وعَمَر، فإن صحا مرّة فخوطِبَ قال: أنا ضيف عمرو[7]. وإن حُذّرَ بأمر أو خَوِّفَ بزيد أوعمرو، قال وهو مشتعل الأحشاء[8] بالجمر: دعوني فلا خوف، و«لاحُرَّ بِوَادِي عَوْف»[9]:[10] [الكامل]

---

١ – الحُمَيّا: بلوغ الخمر من شاربها. ودبيب الشراب.
٢ – الراح: الخمر.
٣ – اللاحي: العاذل.
٤ – الدندنة: الغناء بصوت خافت.
٥ – ليست في ط.
٦ – ليست في ط.
٧ – أراد عمرو بن العاص.
٨ – في ت: الحشا.
٩ – المثل في أمثال أبي فيد ٧٣، والجمهرة ٢/٤٠٦ والميداني ٢/٢٣٦، وأمثال أبي عبيد ٩٤، والمستقصى ١/٤٣٧و، ٢/٢٦٢، وفصل المقال ١٢٩ – ١٣٠، والفاخر ٢٣٦. ويقال ذلك لرجل يسود قومه فلا ينازعه أحد منهم سيادته وهو عوف بن محلّم بن ذهل بن شيبان.
١٠ – البيتان للمتنبي وهما في ديوانه ١/٣–٤. وفي الديوان البيت الثاني قبل الأول.

فَوَمَنْ أُحبُّ لأعْصيَنّكَ في الهوَى قَسَمـاً بـهِ وبحُسْنِه وبَهائِـهِ[1]
القَلْبُ أعْلَـمُ ياعَـذولُ بـدائِـهِ وأحَـقُّ منْـكَ بجَفْنِـهِ وبمَـائِـهِ[2]

[ذكر مصراتة]

ثم مررنا على بلد مصْراتَة[3]، وهو بلد لم يَحوِ إلا جُفاتَه، وشأنه أحقر من أن يعمل فيه الواصف مِقْوَلَه أو أداتَه. على أنّه ذو قرى ظاهرة، ومناظرُ عندَ ظهورِها باهرة، تخيل الحسن إذا نظرت، وتحيلُهُ إذا اعتبرت: [المتقارب]

مَسَاكِـنُ غَصَّـتْ بِسكّانِهَا وَلكِنْ تَـراهُـنَّ كالغَامِـرِ[4]
يظُنُّ بهـا الحُسْـنَ ذو غِـرَّةٍ ومَا حُسْنُ دَارٍ بِلاَ عَامِرِ[5]

[٤٦/أ] ثم جُبْنا[6] البرِّيّة الرَّديّة، زَدّيكَ معدن كل أذيّة، سِباخٌ[7] تدهش النّواظر، وتُذهِلُ[8] بفَرط ماتهولُ[9] الخواطِر[10]، ومياهٌ تحلُّ قِوى الأجسام

١- في ط: دع من أحب.
٢- في ت: برأيه.
٣- مصراته: مدينة من مدن طرابلس الكبيرة، وهي ذات أهمية تجارية منذ القديم تقع شرقي مدينة طرابلس على نحو ١٩٠كم. تاريخ طرابلس الغرب ١٢٩ حاشية رقم ٢. وقال الوزان: تقع على شاطئ المتوسط وتبعد ١٠٠ميل عن طرابلس. وصف افريقيا ٢/١١١ .
٤- الغامر من الأرض: الخراب. وهو خلاف العامر.
٥- غرّ الرجل: جهل الأمور وغفل عنها .
٦- في ت: جئنا . وجُبْتُ الشيء: إذا قطعته، وجاب البرية:قطعها سيراً واجتازها .
٧- السِّباخُ: الأراضي ذات نزّ وملح، لا تكاد تنبت.
٨- تذهل: تُنْسي.
٩- تهول: تُفزع.
١٠- الخواطر: واحدها خاطر. وهو ما يخطر بالذهن من رأي أو أمر.

وتثير كامنَ الأسقام، وتنفذ كما تنفذ السِّهام. مايعدوها من أفلَتَها إلاّنضْوا(١)، لايقلّ(٢) من شدّة النُّحول عضوا . وبعد طول التَّعنّي بهذا المَهْمَه المَرْت(٣)، لاح لنا في البَيْداء قُصيرات سُرْت(٤)، ولسانُ حالِها يقولُ لنزيلها: أقويتُ وأقفرت، فإنْ عَدَلْتَ عَدَلْت، وإن كنت ماجُرتَ فقد جُرت: [الطويل]

لِيَ اِسْـمٌ وَلَكِنْ لاَ مُسَمّــى وراءَهُ فَلاَ تَغْتَرِرْ إنْ كُنْتَ ذا فِطنةٍ باسْمِي

فَكَمْ طَارَ في الآفَاقِ صِيتٌ مشَهّرٌ لمَنْ مالَهُ في صَالحِ الفِعْل مِنْ قِسْـمِ

[ذكر سرت]

وهذا الاسمُ يطلَقُ على عِدّةِ قصورٍ بينـها مَسافة، أولها يُسَمّى الشُّبَيْكة، وهي أعمرها في هذا الوقت، وآخرُها يسمّى المَديَّة(٥). وأكثر مايُطلَقُ اسم سُرْت عليها، وحكمـها كلُّها حكمُ القِفار،قلّما يعمُرها إلاّ الأعرابُ،ومن ليسَ به عبرة. وقد ذكر البَكْريّ في مسالكه:«أنَّ سُرْتَ مدينةٌ كبيرة على ساحل البحر لها نخلٌ وبساتينٌ»(٦). وذكر نحو ذلك في أجْدابِية(٧) وبينـهما نـحوٌ من عشر مراحل(٨)، ولاوجود لشيء ممَّا ذكر إلاّ أن يكون ممّا غَبَر ودثَر، وأظنّه سمعَ

١- النِّضوُ: المهزول.
٢- لا يقلُّ: لا يحمل.
٣- المَهْمهُ: المفازة البعيدة، والمَرْتُ: الذي لا نبت فيه.
٤- سُرْت: مدينة ليبية على ساحل البحر المتوسط بين برقة وطرابلس الغرب بينها وبين طرابلس مئتا ميل وثلاثون ميلاً. انظر ياقوت ٢٠٦/٣ .
٥- تبعد ٨٠ ميلاً عن البحر المتوسط.. انظر وصف إفريقيا ٤١/٢ .
٦ - المغرب في ذكر إفريقية والمغرب ٦ .
٧- أجدابية: مدينة كبيرة قديمة في حيِّز برقة تبعد أربعة أميال عن البحر. انظر الروض المعطار ١١-١٢.
٨- المغرب: في ذكر إفريقية والمغرب ١٢ .

بوجود التّمر بها، فَظَنّ أنّ بها نَخْلاً، والتَّمْرُ إليها(1) مجلوبٌ من بلاد أَوْجَلَة(2)، وهو جلُّ عيشِهِمْ بها، ومِمَّا أنشده البكريّ في سُرْت:(3)

[السريع]

ياسُـرْتُ لاسُرَّتْ بـكِ الأَنْفُسُ ... لِسَانُ مَدْحِي فِيكـمُ أَخْــرَسُ

أَلْبِستُــمُ القُبْــحَ فَـلا مَنْظَـرٌ ... يَــروقُ مِنكُـمْ، لاَ، وَلاَ مَلْبسُ

بَخَسْتُمُ فــي كُـلِّ أُكْــرُومَــةٍ ... وفي فَعَالِ القُبْحِ لَمْ تَبْخَسُوا(4)

ثم سرنا من سُرْت سَيْرَ من خاف يداً(5) عادية، أو أُسداً ضارِيةً أن تنوشه، مقتحمينْ لقُحَم(6) الخطر، ومرتكبين لمرْكَبِ الغَرَرِ(7)، في برّيتَيْ سِنانة ومنْهوشة، وهما من القِفارِ المُعَنّية، وكل راحةٍ فيهما [46/ب] عن المسافر مولّية، لامعهدَ بهما ولاأنيس، ولامَحطّ للرِّحال عن ظهر(8) العيس. مَجَرُّ جيوشٍ وغارات، ومقرُّ نوائبَ وملمّات. ماؤهُما وَشَل زعاق(9)، ولِصُّهُما بطلٌ لايُطاق.

1- ليست في ط.

2- قال البكري: أوجلة مدينة عامرة كثيرة النخل، وأوجلة اسم الناحية، واسم المدينة أرزاقية، وأوجلة قرى كثيرة فيها نخل وشجر كثير وفواكه. وبمدينتها مساجد وأسواق، المغرب 12. وقال الوزان: ناحية مسكونة في صحراء ليبيا على بعد 450 ميلاً من النيل. انظر وصف افريقيا 2/109 .

3- الأبيات في المغرب في ذكر إفريقية والمغرب 6، ومعجم البلدان 3/207.

4- عجز البيت في المغرب: وفي الخنا واللؤم لم تبخسوا. والبَخْسُ: النقص.

5- ليست في ط.

6- القُحَمُ: الأمور العظام التي لا يركبها كل أحد .

7- الغَرَرُ: التعريض للهلكة.

8- في ط: ظهور.

9- وشل زعاق: أي قليل مرّ. لا يطاق شربه من أجوجته.

[ذكر برقة]

وبعدَ مكابدة الأَيْن(١)، ومعاينة الحَيْن، ومقاساة غَصّةٍ وحُرْقة، والسلو عن ألم وداع وفرقة، وصلنا إلى القَفْر القواءِ أرضِ بَرْقَة(٢). فوجدنا بريّةً هي أمُّ البراري والقِفار،(٣والموماة المومئةَ بالإقلال(٤) من وِصال الأسفارِ٣)، يَستعذِبُ عذابَها المُنْفَضُ(٥) من الحجّاج، كما استعذب الظّمآنُ المورَدَ الأُجَاج، امتدّت وطالت، واشتدت وهالَتْ، واربَدَّت(٦) وحالَت، ولو أنشدت لقالت:

[الطويل]

أنَا الغُولُ غَالَتْ مَنْ يَطورُ فَنَاءَها ... وَتَخْدَعُ بالأَلْطافِ طَوْراً وبالبِرِّ(٧)

فَإِنْ أَكَلُوا بُرّي شَرِبْتُ نُفوسَهُمْ ... وَكَمْ بَيْنَ نَفْسِ المَرْءِ في الغَدْرِ والبِرِّ(٨)

سكنها(٩) من الأعراب كلُّ فظٍّ غليظ، يُحْرِجُ بجفائه الأحنفَ(١٠) ويغيظ، حتّى تكادُ منهُ النَّفْسُ تَغيظ(١١)، لاجَرَمَ(١٢) إنّهم يُقْرونَ النّزيلَ، ويوالون

١- الأَيْنُ: الإعياء والتعب.

٢- برقة: مدينة ليبيّة قديمة بين الاسكندرية وإفريقية بينها وبين البحر ستة أميال. انظر ياقوت ١/٣٨٨.

(٣-٣) - على هامش الأصل: والمهامه التي يحار فيها أرباب الأسفار.

٤- في ط: بالإحلال.

٥- المُنْفَضُ: المتفرّق.

٦- اربَدَّت: تغيّرت.

٧- في ت و ط: إذا الغول، وغالت: أهلكت. يطور: يقرب.

٨- البُرّ: حبّ القمح، والبِرّ: الخير والإحسان.

٩- في ط: سكانها.

١٠- الأحنف بن قيس سيد تميم وأحد العظماء الفاتحين، يضرب به المثل في الحلم، توفي سنة٧٢هـ. له ترجمة في طبقات ابن سعد ٧ ، وفيات الأعيان ٢/٤٩٩ .

١١- في ت: تفيض ، وكلاهما بالمعنى نفسه.

١٢- لا جَرَم: أتت هنا بمعنى حقاً.

المُنْفَضُّ بالجميل، ولامُعترِضَ[1] للحاجِّ عندهم، وإن كان فهوَ قليلٌ، والشأنُ عندهم في التّبايعِ المعاوضةُ بالمبيعات[2]، والتّبادلُ في المثمونات، لايجري بينهم فيها[3] دينارٌ ولادرهَم، وبابُ التّعامُلِ بهما عندهم مُبهم. وقد ساومَ أحدُ الحُجّاج بعضَهم بجمَلٍ يُعطيه به بِكْراً[4] وزيادةً دينارين. فقال له: لاأُدخلُ خيمَتي مالمْ يدخلْ قطُّ خيمةَ أبي ولاجدّي. وهذا حالُهم في العينين يجهلونَ بهما أثمانَ الأشياء، ويستعملون نساءَهم في البيع والشّراء، فلا يتوصّلُ الحاج إلى شراءِ القوتِ إلاّ بعَرْضٍ مبتذلٍ، وحالٍ ممقوتٍ.

ومن العَجَبِ عندَهُمْ أنّ كلَّ امرأةٍ لابُدَّ لها من خِرْقةٍ تُسدِلُها على وجهها ويُسَمّونها البُرْقُع، وهي تتخلّل النّاسَ مكشوفةَ الرأسِ والأطرافِ، حافيةَ القدمينِ، لاتهتمُّ بسترِ ماسوى وجهِها، كأنّ ليس لها عَورةٌ سواه، فلاتزال تلكَ الخِرْقَةُ عُرضة [٤٧/أ] للاتّساخِ، ومرصداً لعارضِ الأوساخِ. لاتُصان فتُماط[5] عن ذقن، ولاتُنزَع فتُماص[6] من دَرَن[7]، حتّى تصيرَ أوسخَ من عِرْضِ اللّئيم وأقبحَ من وجهِ الشّيطانِ الرّجيم. فتفاجِىءُ العيونُ من ذلك أشوهَ[8] منظر يُرى، وتسمع الآذانُ من وصفِها أقبحَ حديثٍ جرى.

١- في ت: متعرّض.
٢- في ط: في المبيعات والمعاوضة: المبادلة.
٣- ليست في ط.
٤- البكْرُ: ولد الناقة.
٥- تُماطُ: تزال، تنحّى.
٦- ماص الثوب يموصه: غسله.
٧- الدرن: الوسخ.
٨- في ط: بأشوه.

وما رأيت في أرض بَرْقة مع اتّساعها مايَحلى بعين الرّامق، وتعلق به مِقّة الوامِق[1]، سوى مسكنٍ رأيتُه في خلاء من الأرض بين الرّجل المشقوق وقصر الصّفاقِنة[2] منقور[3] في حجر صلّدٍ[4] بأصْلِ جبَلٍ، على صورةِ دار رائقة، وعلى بابِها صفَةٌ، ولها بناءٌ مليحٌ نُقِرَ فيه عن يمينٍ وشمال صورُ بيوتٍ لم يتمَّ عملُها. وإذا دخلتَ من بابِ الدّار ألفيتَ قبّةً مليحةً متّسعةً مرتفعةَ السَّمْكِ، مربّعةً منقوشةً بأبدعِ النّقْشِ. وفيها مَصاطبُ قد دارت بها حتّى اتصلّتْ بالباب، وقُبالة البابِ بابٌ آخر يُطلع منه على دَرَجٍ إلى بيتٍ آخر كبيرٍ، وجميع ذلك منحوتٌ في حَجَر صلّدٍ يفوتُ الوصفَ إتقانُه، فسبحانَ من يرثُ الأرضَ ومن عليها وإليه المرجِعُ والمصير[5]. وقد رأيت نحو هذا في موضعٍ آخر من أرض بَرْقة حالَ الرُّجوعِ، وسيأتي ذكرُه إن شاء الله تعالى

فصل

[لمحة تاريخية]

وبَرْقةُ مدينة قديمةٌ من بناءِ الرُّومِ، وكان اسمُها عندَهم أنْطابُلُس. قال البَكْريّ «ومعناها بِلُغَةِ الرُّومِ الإغريقيةِ خمسُ مُدن[6]، ومعنى أطْرابُلُس ثلاثُ مدن»[7]. وليس الآن هنالك مدينةٌ تسمّى بَرْقة، ولامدينةٌ مذكورة إلاّ طَلّميثة،

١- الوامق: المُحبّ.

٢- في ت و ط: الصماقبة.

٣- ليست في ط.

٤- الصلّد: الصلْبُ الأملس.

٥- [illegible] من قوله تعالى في سورة مريم [illegible] ﴿إنا نحن نرث الارض ومن عليها وإلينا يرجعون﴾

٦- في ت و ط [illegible]. والقول في المغرب [illegible] ذكر إفريقية والمغرب ٤

٧- المغرب في ذكر إفريقية والمغرب ٦-٧.

وهي قديمةٌ، ولست أدري أهي بَرْقة فغيّر اسمها ثانياً إلى طُلَميثة كما غيّر أولاً إلى بَرْقة، أم هي غيرها.

وبَرْقةُ الآن عند النَّاس اسمُ أرضٍ لا اسمُ مدينةٍ، والمغاربةُ يسمّون بها ماردَّتَ عينَ أقيان[1] من غربي أجْدَابية إلى الإسكندريّة، وذلك نحوٌ من أربعينَ مرحلةٍ. وأما عَرَب[2] تلك الأرضِ فإنّي رأيتُهم لايسمّون بها إلاّ ماردَّ الحَصَوي شرقاً إلى أرض بَرْنيق غرباً، وهو حدٌّ[3] الغابة، وماحاذاها من السّاحل ومن القِبْلة، ويسمون ماردُّ الحَصَوي إلى العَقَبة [٤٧/ب] الكبيرة البطنان، ومنها إلى الإسكندريّةِ لايذكرونَ إلاّ العَقبتين، وذلكَ مسيرةُ عَشَرةِ أيامٍ.

فصل

[فصاحة عرب برقة]

وعَرَبُ بَرْقَةٍ اليومَ من أفصحِ عربٍ رأيناه[4]، وعربُ الحجازِ أيضاً فصحاء،ولكنَّ عربَ بَرقةَ لم يكثُر ورود النَّاس عليهم، فلم يختلطْ كلامهم بغيره[5]، وهم إلى الآن على عربيّتهم[6]، لم يَفْسدْ من كلامِهم إلاّ القليل، ولايُخلّون من الإعراب إلاّ بما لاقدرَ له بالإضافةِ إلى مايُعربون.

١- في ت: أقيار.

٢- ليست في ت.

٣- ليست في ط.

٤- في ط: رأيناهم.

٥- في ت: بغيرهم.

٦- في ط: عروبتهم.

وقد سألتُ بدوياً وجدْته[1] يسقي إبله في الحَصَوي عن ماءٍ يقال له: أبوشمال، هل نمرٌ[2] عليه؟ وذكرته بالواو في موضع الخَفْضِ على عادة أهل الغرب. فقال لي: نعم تَطوْون أباشمال. وأثبت النُّون في الفعل، ونصب المفعول، وليس في الغرب عربيٌّ ولاحضريٌّ يفعل ذلك.

ومرَرْنا[3] بأطفالٍ منهمْ يلعبونَ، فقال لنا واحدٌ منهم: ياحجّاج أمعكُمْ[4] شيءٌ تَبيعونَهْ؟ وأثبتَ النُّونَ، وسكَّنَ الهاءَ للوقفِ.

ورأيت أعرابياً منهمْ قَدْ ألحّت عليه امرأةٌ[5] تسألُهُ من طعامٍ مَعَهُ[6] فقال لها: والله ماتنوقينهْ. فأتى بضمير المخاطبة على وجهه، وأثبت النُّون، وسكّن الهاء.

وسمعت[7] شخصاً ينشدُ في الرُّكب مكتري[8] راحلة ويقول: من يكري زاملة[9]؟ فسمعه بَدويٌّ فقال له[10]: أعندك الزَّاملة؟ فقال: نعم. قال: فلا تَقُل من يكري؟ وقُلْ: من يستكري؟.

١- في ت: لقيته.

٢- في ت: مرّ.

٣- في ت: ومررت.

٤- في ت و ط: معكم.

٥- في ت: امرأته.

٦- ليست في ت.

٧- في ط: ورأيت.

٨- المكتري: المستأجر.

٩- الزاملة: الدابة التي يحمل عليها من الإبل وغيرها.

١٠- ليست في ط.

وذكر لي بعض أصحابنا مِمَّنْ حَجَّ معنا، أنَّ شخصاً شَرِبَ من زَمْزَم فقال: في هذا الماء رائحة الحَبَل، وحَرَّكَ الباءَ على عادة[1] أهل الغرب، يعني الرِّشاءَ المُستَقى[2] به، فسمعَهُ أعرابيٌّ، فقالَ له: ومن أين جاءت رائحةُ الحَبَلِ إلى الماء؟ فأشار له إلى الرِّشاءِ. فقال له: قلِ الحَبْل، ولاتقل: الحَبَل.

وأمَّا نادرُ ألفاظِ اللُّغةِ وما جرتْ عادةُ أهل الغريب بتفسيره، فهم حتَّى الآن يتحاورونَ به على سَجِيَّتهم. فمن ذلك أنَّ شخصاً منهم وقف عَلَيَّ بموضع نزولي من محلّة الركب، وكانت التُّرْعة[3] منهُ بعيدةً، فقال لي: ياسيِّدي! تدعني أظهر يعني أخرُج.[٤٨/أ] .

وسألت شخصاً منهم عن[4] الطَّريق، فقال لي: إذا ظَهَرْتُمْ من الغابةِ فخذوا[5] صوبَ كذ . يعني إذا خرجتم منها. وهذا اللَّفظُ قد أكثر فيه أهل الغريب في تفسير قول عُروة بن الزُّبير[6] رضي الله عنه:« ولقد حدَّثتني عائشةُ زوج النَّبيِّ ﷺ أن رسول الله ﷺ كانَ يُصلِّي العَصْرَ والشَّمسُ في حُجرتها قبل أن تظهَرَ[7]». وأتَوا عليه بشواهدَ وأمثال.

١- في ت: لغة

٢- في ت: المستسقى

٣- التُّرَعَةُ: مقام الشاربة من الحوض، والتُّرعَةُ: فم الجدول ينفجر من النهر.

٤- في ت و ط: على.

٥- في ط: فخذ.

٦- عروة بن الزبير بن العوام أحد الفقهاء السبعة في المدينة لم يشارك في الفتن، توفي بالمدينة سنة ٩٤هـ له ترجمة في غربال الزمان ٨٣ وشذرات الذهب ١/١٠٣.

٧- أخرجه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة، باب مواقيت الصلاة وفضلها رقم ٥٢٢، ٢/٦.

وسمعتُ صبياً منهم ينادي في الرُّكب: ياحجّاج[1] من يشتري الصَّفيفَ؟ فلم يفهم عنه أكثر النّاس. فقلتُ له: اللّحمُ معَك؟ فقال: نعم. وأبرز لحمَ ظبيٍ مقدّد. وهذا اللّفظ قد ذكره مالك رضي الله عنه في الموطّأ وتهمّم بتفسيره، فقال بإثر الحديث: قال مالك [2]-رحمه الله-[2] والصَّفيفُ: القديدُ»[3].

وسألت شخصاً عن ماء هل هو مَعين[4]؟ فقال لي: هو ماء غِرّ[5]. وهذا اللّفظ فسّره أبوعُبَيد في غريبه[6].

وسمعت آخر - وقد ازدحم النّاس في مضيق - وهو يقول: تنحّوا[7] عن الدّرب. وما يتكلمونَ به من الغريب أكثر من أن يُحصر[8] وبالله التّوفيق.

فصل

[من برقة إلى الإسكندريّة]

وممّا يلي الإسكندريّةَ من هذه الأرضِ العَقَبَةُ الكَبيرةُ، وبينها وبين الإسكندريّةِ عشرة أيّام، ثم العَقَبَةُ الصغيرةُ، وبينها وبين الكبيرةِ ستّةُ أيّام، ومنها إلى الإسكندريّةِ أربعةٌ، وكلتاهما خَلاءٌ لاساكنَ بها ولا مسكنَ. وأكثرُ

١- في ط: أحجاّج.
٢- ٢- ليست في ط.
٣- جاء في الموطأ ٢٤٠ عن هشام بن عروة عن أبيه: أنّ الزبير بن العوام كان يتزود صفيف الظباء وهو مُحرِم. قال مالك: والصفيف: القديد.
٤- الماء المعين: العذب الغزير، الجاري على وجه الأرض.
٥- غرّ الماء: نضب وقلّ.
٦- انظر غريب الحديث ١٢٨/٢، و١٧٥/٣ وفيه الغرار: النقصان.
٧- في ت: انتحوا.
٨- في ت. يحصى.

مواضعِ هذه الأرضِ هكذا؛ أسامٍ بلا مُسمّيات. وهي بَرِّيَّةٌ واحدةٌ ممتدّةٌ إلى الإسكندريّةِ، وفي آخرِها المَوماةُ المُضنيةُ[1] المؤذية، أوْحشُ المراحل على الرّاحلِ قَفْرُ لوبية، أرض تستوحشُ منها - لنكارتها - القلوبُ، ويُنسى - مع رؤيتها - كلّ خَطْبٍ ينوب، فَقُرْبُها[2] كَرْبٌ من أعظم الكروب، ونَوبتُها على المُسافرِ من نوائبِ الدّهْرِ وهي ضروب: [الطويل]

وَلَوْلا حَبيبٌ حُبُّهُ أضْرَمَ الحَشَا ... يُصرِّفُني شَوْقِي إلَيْهِ كَمَا يَشَا

[٤٨/ب] أهيمُ بهِ حَيّاً وَمَيْتاً وَإنَّني ... لأضْمرُ من حُبّيهِ أضعافَ مافَشَا[3]

تُرنِّحُني في ذكرهِ أريحَيَّةٌ ... كما اهتزَّ غُصْنٌ للنَّسيم إذَا نَشَا[4]

تَركْتُ إليهِ دُونَ مَنْ أحِبَّةً ... تَصَدَّعَ إذْ فَارَقْتُهُمْ منّي الحَشَا

لَمَا بِتُّ في أكنافِها لَيْلةً وَلاَ ... خَشِيتُ هَجيراً لافِحاً أنْ يُعطِّشَا[5]

[ذكر الإسكندريّة]

وبعد حِفْظِ مادلَّ عليه هذا العُنوانُ، واتصالُ التُّخْمَةِ[6] بتلك الألوانِ، مَنَّ اللهُ سبحانَهُ بمفارقةِ تلكَ البرّيّة، والوصول إلى مواصلَة ثغرِ الإسكندريّةِ[7]. مدينة الحصانَةِ والوثاقة، وبلد[8] الإشراق اللاّمعِ والطّلاقة، وطلاوةِ المنظرِ

١- الضنا: المرض والهزل.

٢- في ط: قفرُ بها.

٣- فَشَا: ظهر.

٤- الأريحيَّةُ: الارتياح للكرم والمعروف. نَشا: انتشرت رائحتُهُ.

٥- الهجير: هو نصف النّهار عند اشتداد الحرّ.

٦- التُّخَمُ: المعالم يهتدى بها في الطريق.

٧- انظر ما جاء في بناء الإسكندرية في مروج الذهب: ١/ ٣٧٠ وجغرافية مصر للبكري ٩٩، وخطط المقريزي ١/ ١٤٤ .

٨- في ت: وبلاد.

وحلاوة المذاقة. كَلَّ عنهَا ظُفْرُ الزّمانِ ونابُه، وملَّ منها جَيْشُ الحدثانِ وأحزابُه. فلم تَبْدُ عليها للزّمان ضراعة. ولاوَكستْ[1] لها في معاملاته سلعةٌ ولابضاعة. ولا وقفت له موقف ذلٍّ يوماً ولاساعةً. بل ثَبّتَتْ لحزْبِه[2] ثبوتَ البطل، وصابَرَتْ كيدَهُ حتّى اضمحلَّ سحْرُه وبَطَل، ولم تُصْغِ أُذناً إلى مايوعد به من الخَنا والخَطَل[3]. فهي واقفةٌ وقوفَ الأطواد[4]، ساميةٌ بطَرْفٍ غيرِ كليلٍ، وجيدٍ غير منآد[5]. آخذةٌ[6] من الكُفْرِ وأهلِهِ بالمُخَنَّق[7]، حتّى أبدلتهم من الصّافي المُروّق الكدر المرنّق[8]، فسامروا الأسفَ مسامرةَ النّدى للمُحلّق[9]. ودَجا عليهم ليلُ [هَمٍّ][10] ادلهمَّ بعد نهارِ سُرور تألّق، واضطرم عليهم الأسى واحتَدمَ فحالفوا النّدمَ، وقالوا: عَوْضُ لايتفرّق[11]. مدينةٌ فسيحةُ الميدان، صحيحةُ الأركان، مليحةُ البُنيان، تُسفرُ عن مُحيًا جميلِ المنظر، وتَرْنو بطَرْفٍ ساجٍ[12] أحور. وتَبْسِمُ عن ثَغْرٍ كالأقحوانِ إذا نَوّر، كأنّهُ لمْ يغِبْ عنها

١- الوَكْسُ: اتضاع الثمن في البيع.

٢- في ت: لحربه. وينظر المصنّف إلى موقف موسى من حزب فرعون حين قال: {ماجئتم بِهِ السّحر إن الله سيبطله} سورة يونس ٨١.

٣- الخَنَا: الفحش في الكلام والخطل: الكلام الفاسد.

٤- الأطوَاد: جمع طود وهو الجبل.

٥- منآد: معوجّ.

٦- في ت: وأخذت.

٧- في ط: بالخنق، والمُخَنّقُ: موضعُ الخَنْقِ من العُنُق.

٨- الرنق: تراب في الماء من القذى ونحوه، والمُرَنّق: المُكَر.

٩- هو المُحلّقُ الكلبي ممدوح الأعشى الذي قال فيه:

تُشَبُّ لمقرورَيْن يصطليانها ... وبات على النّار النّدى والمُحلّقُ

وكان الأعشى سبباً في تزويج بناته انظر الأغاني ٩/١١٣-١١٤ .

١٠- من ت وط.

١١- أفاد من قول الأعشى في ديوانه ٢٢٥

رضيعَيْ لِبانِ ثَدْيِ أُمّ تحالفا ... بأسحَمَ داجٍ عَوْضُ لا نتفرّقُ

أي لا نتفرّق أبداً.

١٢- طرف ساج: فاتر.

شخصُ الإسكندر[1]، بما ساس فيها من عجائب مبانيها ودبّر، ناهيك بمدينة كلُّها عجب، قد ستَر حُسْنُها حُسْنَ [٤٩/أ] غيرها وحَجب، ووُفّيَ فيها الإتقان حقّه كما وجب، وقد أغنى عن [٤٩/أ] تسطير وصفها ما سطره الأعلام، [2]وضُرِبَ به الأمثالُ على المهارقِ بالأقلام[2].

ومن جُملةِ إبداعها وإغرابها مارأيتُ من إتقانِ أبوابِها. وذلكَ أنَّ عضائدَها وعتَبَها-مع إفراط طولِ الأبواب-كلّها من حِجارةٍ منحوتة، يُتَعَجَّبُ من حُسْنِها وإتقانِها، وكلُّ عضادَةٍ منها حجرٌ واحدٌ، وكذلكَ كلُّ عَتَبةٍ وأُسكُفَّة[3]، ولاأعجبَ من وَضْعِها هنالكَ مع إفراط عِظَمِها،ولمْ يغيِّر طولُ الزّمانِ شيئاً من ذلك، ولا أثَّر فيهِ، بل بقي بجدّته ورونقه. وأمّا مصاريعُها[4] فهيَ غايةٌ في الإحكام،مُلَبَّسةٌ بالحديدِ ظَهْراً وبَطْناً بأدقِّ مايكون من الصَّنْعَةِ وأحسنه وأتقنه.

[عمود السّواري]

ومن أغربِ مارأيت[5] بها عمودٌ من رُخامٍ بظاهرها يُعرَفُ بعمودِ السّواري[6]. وهو حجرٌ واحدٌ مستديرٌ عالٍ جداً على قَدَرِ الصّومعةِ المرتفعة، وهو يبدو من بعيدٍ بارزاً في غابةٍ من النَّخيلِ مرتفعاً عنها، وقد أقيمَ على حجارةٍ منحوتة مُربَّعةٍ[7] على قَدْرِ الدّكاكين العِظام، علُوُّها أزيدُ من قامتين،

١- هو الإسكندر الأول ذو القرنين الرّومي باني الإسكندرية.
(٢-٢) - في ت و ط: وضربت به على المهارق الأقلام.
٣- الأُسكُفّة والأسكوفة: عتبة الباب التي يوطأ عليها.
٤- المصاريع: الأبواب.
٥- في ط: مارأيته.
٦- انظر ما قيل في عمود السواري في خطط المقريزي ١/١٥٩.
٧- في ط: مرتفعة.

ولايعلمُ كيفَ أُقيمَ عليها، ولا كيف ثُبّتَ (١ هناكَ مع الرِّياحِ والعواصفِ، وهو ممّا لايمكنُ تحريكُهُ البتّةَ فضلاً عن إقامَتِهِ هنالك١).

[منار الإسكندريّة]

وأمّا المنار(٢) فقد كَتَبَ النّاسُ فيه وسطّروا مافيه الكفاية، وقد دخلته وتأمّلْتُه وما وصلتُ إلى أعلاه إلاّ بعد جَهْدٍ، ولا يَظْهر لهُ من خارجٍ فَرْطُ علّو. وهو خارجُ المدينةِ على أزيدَ من ثلاثةِ أميالٍ وعلى تلٍّ(٣) مرتفع بشمالِ البَلَدِ، وقد أحاطَ به البحرُ شرقاً وغرباً حتّى تاكل حَجَرُه من النّاحيتين، فَدُعّم منها ببناءٍ وثيقٍ اتّصَلَ إلى أعلاهُ وزيد دَعْماً بدكاكينَ(٤) متّسعةٍ وثيقةٍ،وُضِعَ أساسُها في البحرِ،ورُفِعَتْ عنهُ نحوَ ثلاثِ قاماتٍ.

وبابُ المنارِ مرتفعٌ عن الأرضِ نحوَ أربعِ قاماتٍ، وبُني إليه بُنيانٌ حتّى حاذاهُ، ولمْ يتّصِل به، ووُضِعَتْ عليهِ ألواحٌ يُمْشى عليها إلى البابِ، فإنْ أُزيلت لم يوصَلْ إليه [٤٩/ب] وفوق البابِ من داخلٍ موضعٌ متّسعٌ لحراسةِ البابِ، يقعدُ فيه الحارسُ وينامُ فيه، وفي داخل المنارِ عدّةُ بيوتٍ رأيتُها مغلقةً. وسعةُ الممرّ فيه ستةُ أشبارٍ وفي غِلَظِ الحائطِ عشرة أشبار(٥)، ذرعته من أعلاه.

(١-١) - سقط من ت.

٢- انظر ما قيل في بناء منار الإسكندرية في مروج الذهب ٣٧٥/١، وجغرافية مصر للبكري ١٠٤ وخطط المقريزي ١٥٥/١.

٣- ليست في ط.

٤- الدُّكان: المصطبة.

٥- في جغرافية مصر للبكري ١١٠: غلظ الحائط ثمانية أشبار.

وسعةُ المنارِ من رُكنٍ إلى رُكن مئة وأربعون شبراً، وفي أعلاه جامورٌ(١) كبيرٌ عليه آخر دونَهُ، وفوقَ الأعلى قبّةٌ مليحةٌ يُطّلَعُ إليها في دَرَجٍ مُشْرَعة إلى النّواحي،ولها محرابٌ للصّلاةِ.

ومن الإسكندريّة إلى المنار بَرٌّ مُتّصل أحاطَ به البحرُ حتّى اتّصل بسور البَلَد، فلا يمكِنُ الوصولُ إلى المنار في البر(٢) إلاّ من البَلَدِ وفي هذا البرِّ مقابرُ الإسكندريّة، وفيها من المزاراتِ وقبورِ العلماءِ والصّالحينَ مالا يُعدّ كثرةً.

وفي ماسطّر النّاسُ من وصْف الإسكندريّة ومنارِها، وما ذكروا من عجائب آثارِها ماهو الغايةُ في إتقانِ الوَصْفِ وإجادتِهِ، وما يغني عن تكلّفِ إعادتهِ، بَيْدَ أنّها الآن بلدٌ زادتْ صورتُهُ على معناه،واستأثر بالفضائل مغناه، فهو كجِسْمٍ حَسَنٍ لاروحَ فيه، أوبُرْدٍ مُفَوّفٍ(٣) خلا من مُلتحفيه، أوغِمْدٍ مرقّشٍ(٤) اندَقّ الصّارمُ الّذي كان يُخفيه. أكثرُ أهلها رُعاعٌ(٥)، ضَرَرٌ بلا انتفاعٍ، مع سوء أخلاقٍ، ومرارةِ مذاق، وقلوبٌ ربّاها الضِّغْنُ(٦) تربيةَ الأولاد، وجفاها الخير والصّلاح لِما عَمَرها من الشّرّ والفَساد، الخَيْرُ فيهم فِعْلٌ لايتصرّف، والغريبُ بينهم نَكِرَةٌ لاتتعرّف، إنْ رأوهُ زادوا الوجوهَ جَهامةً،

١- الجامور: كلمة مولدة تطلق على كرة من النّحاس وتجعل في أعلى المآذن وعلى رأس الخيام الرفيعة،حاشية طبعة الرباط صفحة ٩٢.
٢- في ط: البحر وهذا خطأ واضح.
٣- بردٌ مفوّف: أي رقيق موشّى.
٤- مرقّش: منقط.
٥- رعاع الناس: سقّاطهم وسفِلَتهم.
٦- الضِّغْنُ: الحقد.

ونكّروا[١] منها ماقد نكّرته الدَّمامةُ والذّمامة[٢]، وجَمْجَموا[٣] قولاً رَماهُ اللُّكَنُ[٤] عن قوسِ العُجمةِ سهامَه، الحَسَدُ فيهم مضطرمُ النيران، قد أفسَدَ أمزجتهم فحالت الألوان. فإن سمعوا بفاضل فهو يَومُ بُحْرانٍ[٥]، أخرسَهم العِيُّ فعانوا بالصّمات، فإن سُئلوا سكتوا لاعن كِبْرٍ ولاعن إخبات[٦]، ومنهم من أضناه الحَسَد فالسكوت منه [٥٠/أ] سُبات. تمالؤوا على كلّ وصفٍ شانَ ومازان، وتواطؤوا[٧] على تطفيف المكيالِ والميزان. فإنْ عاملَهُمْ غريب، لم يلقَ منهم إلاّ مايريب، يتّخذونَهُ هَدَفاً ولِكُلٍّ منْهمْ فيه سهمٌ مُصيب، حتّى يخرجَ من مالهِ بغيرِ نصيبْ. لاتُرجى منهم فَيْئَةٌ[٨] إنابـةٌ[٩]، ولا تُلفى فيهم فئةُ رأفةٍ ولاعصابة، ولاينفع الغريب في معاملَتهم أن يقول: لاخِلابة[١٠]. حسبك ببلَد أربى في الحُسن على البلاد، ولهُ منَ الفضيلةِ كلُّ طارفٍ وتِلاد[١١]، وليس به من أهل الفضل إلاّ آحاد، قلّوا عَدَداً واتّحدوا كلّ الاتّحاد. فهم فيهم أقلُّ من التّوفيق، غرباءُ بينهم في كل معنًى وطريق.

١- نكّروا: غيرّوا.

٢- الدّمامة: القبح، والذّمامة: سوء الأخلاق.

٣- الجمجمة: أن لا يبين كلامه من غير عيّ.

٤- اللُّكَنُ: عجمة في اللسان وعيّ.

٥- في الأصل: يوم بحران، وفي اللسان «بحره»: والأطبّاء يسمّون التغيرّ الذي يحدث للعليل دفعة في الأمراض الحادّة: بُحراناً، يقولون: هذا يومُ بُحرانٍ بالإضافة.

٦- الإخبات: التواضع.

٧- في ت و ط: تواصوا.

٨- الفـيء على ذي الرحم: العطف عليه والرجوع إليه بالبر.

٩- الإنابة: الرجوع إلى الله بالتوبة.

١٠- لا خِلاَبة: لا خداع.

١١- الطارف: المستحدث، والتّلاد: القديم.

[اعتراض الحجَّاج]

ومن الأمر المُستغرب، والحال الَّذي أفْصَحَ عن قلَّةِ دينهِمْ وأعْرَب، أنّهم يعترضونَ الحجّاج، ويَجرعونَهُمْ من بَحْرِ الإهانةِ المِلْحَ الأُجاج، ويأخذونَ على وَفْدِهِم الطّرقَ والفِجاج[1]، يبحثونَ عمّا بأيديهم من مال، ويأمرون بتفتيشِ النّساءِ والرِّجال. وقد رأيتُ من ذلك يومَ وردنا عليهم ماالشتدَّ له عَجَبي، وجعلَ الانفصالَ عنهم غايةَ أرَبي، وذلكَ أنَّه لمّا وَصَلَ إليها[2] الرَّكْبُ جاءت شِرْذِمَةٌ[3] من الحَرَس - لاحَرَسَ اللهُ مُهجتَهمْ الخسيسة، ولاأعدم منهم لأُسْدِ الآفات فريسة - فمدّوا في الحجّاج أيديهم، وفتّشوا الرّجالَ والنِّساء وألزموهم أنواعاً من المظالم، وأذاقوهم ألواناً من الهَوان، ثم استحلفوهم وراء ذلك كلّه.

وما رأيتُ هذهِ العادةَ الذّميمة، والشِّيمة اللّئيمة، في بَلَدٍ من البلاد، ولا رأيتُ في النّاسِ أقسى قلوباً، ولاأقلَّ مروءةً وحَياءً، ولاأكثرَ إعراضاً عن الله سبحانَه، وجفاءً لأهل دينهِ من أهل هذا البَلَد[4]، نعوذ بالله من الخِذْلان، فلو شاء لاعتَدلَ المائلُ وانتبهَ الوَسنان. وكنت إذ[5] رأيت فِعْلَ المذكورين ظننت أنَّ ذلك أمرٌ أحدثوه، حتّى حدّثني نورالدّين، أبوعبدالله بن [زين][6] الدِّين أبي الحَسَن يحيى بن الشَّيخ وجيه الدّين أبي علي منصور بن عبد [٥٠/ب] العزيز

١- الفجاج: جمع فَجّ: الطريق الواسع بين جبلين.

٢- في ت: لها.

٣- الشِّرْذِمَةُ: الجماعة من الناس القليلة.

٤- في ت: هذه البلدة.

٥- في ت: إذا.

٦- من ت و ط.

ابن حَباسة الإسكندريّ بمدرسةِ جَدّهِ المذكورِ[1] حكايةً اقتضتْ أنَّ لهم في هذه الفضائحِ سلَفاً غير صالحٍ. وذلك أنّه حدّثني إملاءً من كتابه قال: حدّثني الشَّيخُ [2]الصَّالحُ أبو العبَّاس أحمد بن عمر بن محمّد السَّبْتيّ الحِمْيري بثغرِ الإسكندريّةِ سنة اثنتين وستّين وستِّ مئة، قال: حدَّثني الشَّيخُ[2] الإمامُ المحدّثُ أبو الحسين محمّد بن أحمد بنُ جُبَير الكِنانيّ بثغر[3] الإسكندريّةِ سنة إحدى عشرةَ وستّ مئة أنَّه ورد الإسكندريّةَ في رَكْبٍ عظيمٍ من المغاربةِ برسْمِ الحجِّ، فأمرَ النَّاظرُ على البَلَدِ بمدّ اليد فيهم للتَّفتيش، والبحثِ عمّا بأيديهمْ، فَفُتِّش الرّجال والنّساء، وهُتكتْ حُرْمَةُ الحُرَم، ولم يكنْ فيهم إبقاءً على أحد. قال:«فلما جاءَتْني النّوبةُ – وكانَتْ معي حُرَمٌ – ذكرتُهم باللّه،ووعظتُهمْ فلم يَعْرجوا على قولي، ولاالتفتوا إلى كلامي، وفَتَّشوني كما فتّشوا غيري»[4]. فاستخرت اللّه تعالى،ونظمت هذه القصيدة ناصحاً لأمير المسلمين صلاح الدِّين يوسف بن أيّوب[5] ومذكّراً له باللّه في حقوق المسلمين ومادحاً له فقلت:[6] [المتقارب]

١- ليست في ط.

(٢-٢) – سقط من ت.

٣- ليست في ت.

٤- رحلة ابن جبير ١٣.

٥- صلاح الدين يوسف بن أيوب: من أشهر ملوك الإسلام، قائد صد الفرنج حين هاجموا مصر واستقل بملكها، وكان أعظم انتصار له يوم حطين. وافتتاح القدس سنه ٥٨٣هـ، توفي بدمشق سنة ٥٨٩هـ انظر النجوم الزاهرة ٦/٣-٦٣ .

٦- القصيدة في الذيل والتكملة ٥/٥٩٨-٦٠١ . وفي نفح الطيب ٢/٣٨٣ أبيات خمسة متفرقة منها .

[قصيدة ابن جُبَيْر في مدح صلاح الدِّين]

أَطَلَّتْ على أُفقِكَ الزّاهِرِ ... سُعودٌ مِنَ الفَلَكِ الدّائرِ
فأبشِرْ فإنَّ رِقابَ العِدا ... تُمَدُّ إلى سَيْفِكَ الباتِرِ
وعمّا قَليلٍ يَحُلُّ الرَّدى ... بكُنْدِهِمُ النّاكِثِ الغادِرِ(١)
وخِصْبُ الوَرَى يومَ تَسْقِي الثَّرى ... سَحائبُ مِنْ دَمِها الهَامِرِ
فكَمْ لكَ مِنْ فَتكةٍ فيهِمُ ... حَكَتْ فَتْكَةَ الأسَدِ الخَادِرِ(٢)
كَسَرْتَ صليبَهُم عَنْوَةً ... فَلِلَّهِ دَرُّكَ مِنْ كاسِرِ
وغَيَّرْتَ آثارَهُمْ كُلَّها ... فليسَ لَهَا الدَّهرَ مِنْ جابِرِ
وأمْضَيْتَ جِدَّكَ في غَزْوِهِمْ ... فَتَعْساً لِجَدِّهِمِ العاثِرِ(٣)
فأدْبَرَ مُلْكُهُمُ بالشّآمِ ... وَوَلّى كأمْسِهِمُ الدّابِرِ
جُنُودُكَ بالرُّعْبِ مَنصورةٌ ... فَناجِزْ مَتَى شِئْتَ أوْصابِرِ(٤)
[٥١/أ] فكلُّهُمُ غارِقٌ هالِكٌ ... بِتَيّارِ عَسْكَرِكَ الزّاخِرِ(٥)

١- في ت: بكيدهم، والكند: هو مايسمى الكونت وهو من ألقاب الشرف عند النصارى.

٢- في ت: الحاذر، والأسد الخادر: المقيم في عرينه، الداخل في الخِدْر.

٣- الجِدُّ الأولى بكسر الجيم: الاجتهاد في العمل، بينما الَجدُّ الثانية بفتح الجيم: الحظ والرزق.

٤- الرعب: الفزع والخوف، وفي الحديث «نُصِرْتُ بالرُّعب مسيرةَ شَهْر». ناجَزَ: قاتل. صابَرَه: غلبه في الصبر.

٥- في الذيل والتكملة: غَرِقٌ.

ثـــأرْتَ لِدينِ الهُدَى فـي العِدَا   فـأثَــركَ اللّهُ مِـــنْ ثَــائِــرِ

وَقُمْتَ بِــنــصْرِ إلَهَ الــوَرَى   فَسَمَّـــاكَ بالمَلِـكِ النَّاصِـرِ[1]

وجـاهَــدْتَ مُجْتَهِـداً صَابِـراً   فلِلّـــهِ دَرُّكَ مِـــنْ صَابِـــرِ

تَبيــتُ المُلــوكُ علــى فُرشِـهـــا   وتــــرفُلُ في الزَّرَدِ السَّابري[2]

وَتُؤْثِرُ جَاهِدَ عَيْشِ الجِهَادِ   عَلَى طِيبِ عَيْشِهِمُ النَّاضِـرِ[3]

وتُسْهِرُ جَـــفْـنَكَ فـــي حَقِّ مَنْ   سيُرضِيـكَ فـي جَفنِكَ السَّاهِرِ

فَتَحْتَ المُقـــدَّسَ مِــنْ أَرْضِـــهِ   فعادَتْ إلــى وَصْفِها الطَّاهِرِ[4]

وَجِئْــتَ إلى قُدْسِهِ المُرتَضَـــى   فَخَلَّـصـــتَهُ مِنْ يَدِ الـكَـافِــرِ

وَأَعْلَيْــتَ فيـــهِ مَنَـارَ الهُـــدَى   وَأَحْيَيــتَ مِنْ رَسْمِهِ الدَّاثِـــرِ

لَكُمْ ذَخَرَ اللّهُ هَذي الفُتــوحَ   مِنَ الزَّمَـــنِ الأَوّلِ الغَـــابِـرِ[5]

وخَصَّكَ مِنْ بَــعْــدِ مـــازُرْتَهُ   بِهـــا لاصْطِنَاعِكَ فــي الآخِـــرِ

مَحــبَّتَكُمْ أُلْقِيَتْ فــي النُّفــوسِ   بِذِكــرٍ لَكُمْ في الـوَرَى طَائِـرِ

فَـكَـمْ لَهُمُ عِنـدَ ذِكْـرِ المُلُوكِ   بِمِثْلِكَ مِـــن مَثَلٍ سَــائِـــرِ

١- الملك الناصر: صلاح الدين الأيوبي.

٢- منسوب إلى سابور. والأصل فيها: الدّروع السابرية.

٣- في الأصل: جاهد جيش وهو تصحيف.

٤- المقدّس: المراد بها مدينة بيت المقدس.

٥- في ت: لكم ذكر الله هذا الفتوح.

رَفَعْتَ مَـغَـارِمَ أَرْضِ الحِـجَـازِ ... بإنْعَامِكَ الشَّـامِـلِ الهَـامِـرِ(1)
فَكَمْ لكَ بـالشَّرقِ مِنْ حَـامِـدٍ ... وَكَمْ لَكَ بـالـغَـرْبِ مِنْ شَـاكِرِ
وَكَمْ بالدُّعَاءِ لكُـمْ كُـلَّ عَـامٍ ... بِمكَّةَ مِــنْ مُعْلِنٍ جَـاهِــرِ
وَقَدْ بَقِيَتْ حِـسْبَةٌ فـي الظُّـلومِ ... وَتِلْــكَ الذَّخيـرةُ للذَّاخِــرِ(2)
يُعَنِّفُ حُـجَّاجَ بـيـتِ الإلـهِ ... وَيَسْطو بـهـمْ سَطْوَةَ الجائـرِ(3)
ويكْشِــفُ عَمّـا بـأيْدِيهِــمُ ... وَنـاهيـكَ مِنْ مَوْقِفٍ صَـاغِرِ
وَقَــدْ أُوقِـفوا بـعـدَما كُوشِـفوا ... كـأنَّهُمُ فــي يــدِ الآسِــرِ(4)
ويلْــزمهُــمْ حَلِفــاً باطِــلاً ... وَعُقْبـى الـيَمـينِ عَلـى الفَاجِـرِ
وَإِنْ عَرَضَتْ بَـيْـنَـهُـمْ حُرْمَـةٌ ... فليْسَ لَهـا عَنْهُ مِــنْ سَـاتِــرِ
أَليْـــسَ يَـخـافُ غَـداً عَرْضَهُ ... علـى المَلِكِ القـادِرِ القَـاهِــرِ [51/ب]
وَلَيْـسَ عَلــى حُرَمِ المُسْـلمينَ ... بِتِلْكَ المَشَــاهِـدِ مِنْ غَـائـرِ(5)
وَلاَ حَـاضِرٌ نَـافِــعٌ زَجْــرُه ... فَيـا ذِلَّةَ الحَـاضِــرِ الزَّاجِـرِ
أَلاَ نَاصِــحٌ مُبْلِغٌ نُصْــحَهُ ... إِلــى المَلِكِ النَّاصِرِ الظَّافِــرِ(6)

1- في نفح الطيب: مكس الحجاز، الشامل العامر.
وورد في طبعة الجزائر ونفح الطيب 2/383 البيتان التاليان بعد هذا البيت.
وأمّنت أكناف تلك البلاد ... فهان السَّبيل على العابر
وسحب أياديك فيّاضـة ... على وارد وعلى صـادر
2- في الذيل والتكملة: وكم بقيت.
3- التعنيف: الأخذ بالشدّة.
4- في الذيل والتكملة: وقفوا ـ في ت: كشفوا.
5- الغائر: الغيور.
6- يريد صلاح الدين الأيوبي.

ظَلُومٌ تَضَمَّن مالَ الزَّكاةِ ... لَقَد تَعِسَتْ صَفْقَةُ الخَاسِرِ
يُسِرُّ الخِيانَةَ في باطِنٍ ... ويُبْدِي النَّصيحةَ في الظَّاهرِ(1)
فَأوْقِعْ بهِ حَادِثاً إنَّهُ ... يُقَبِّحُ أُحْدوثَةَ الذَّاكِرِ
فمَا للمَناكِرِ مِنْ زَاجِرٍ ... سِوَاكَ وبالعُرفِ مِن آمِرِ
وحَاشَاك إنْ لمْ تُزِلْ رَسْمَهَا ... فَمَالكَ في النَّاسِ مِنْ عَاذِرِ
وَرَفْعُكَ أمْثَالَها مُوسِعٌ ... رِدَاءَ فَخَارِكَ للنَّاشِرِ
وآثارُكَ الغُرُّ تَبْقَى بِها ... وتِلْك المَآثِرُ لِلآثِرِ
نَذَرْتُ النَّصيحةَ في حَقّكمْ ... وحَقُّ الوَفاءُ عَلَى النَّاذِرِ
وَحُبُّكَ أنْطَقَني بالقَريضِ ... وَمَا أبْتَغي صِلَةَ الشَّاعِرِ
ولاَ كانَ فِيما مَضَى مَكْسَبي ... وَبِئسَ البِضَاعَةُ للتَّاجِرِ
إذا الشِّعرِ صَارَ شِعارَ الفَتى ... فَناهِيكَ مِنْ لَقَبٍ شَاهِرِ
وَإنْ كَانَ نَظْمِي لَهُ نَادِراً ... فَقَدْ قِيلَ: لاحُكْمَ للنَّادرِ
وَلكنَّها خَطَرَاتُ الهَوى ... تعِنُّ فتَغْلبُ بالخَاطِرِ(2)
وَأمّا وقَدْ زَارَ تِلْكَ العُلَا ... فَقَدْ فَازَ بالشَّرَفِ البَاهِرِ
وإنْ كانَ مِنْكَ قَبولٌ لَهُ ... فَتِلْكَ الكَرامَةُ لِلزَّائِرِ
وَيَكْفِيهِ سَمْعُكَ مِنْ سَامِعٍ ... وَيَكْفِيهِ لَحْظُكَ مِنْ نَاظِرِ(3)
ويُزهى عَلى الرَّوضِ غِبُّ الحَيا ... بِما حازَ مِنْ ذِكْرِكَ العَاطِرِ(4)

١- في الذيل والتكملة: ظاهر.
٢- في ت و ط: فتلعب بالخاطر - وفي الذيل والتكملة: فتغلب للخاطر.
٣- سمعك: ليست في ط.
٤- الحيا: المطر. وغِبُّ الحيا: بعدَ نزوله.

قُلت: هكذا حدّثني أبوعبدالله بهذه الحكاية، وكذا وقعت في كتابه منشورة،لم يذكر فيه إلاّ ماأثبتّه،وبالله [٥٢/أ] تعالى التَّوفيق.

وأنشدني أبوعبدالله أيضاً عن أبي العبّاس المذكور عن ابن جُبَيْر قصيدة نظمها ارتجالاً، حين تراءت له مدينة رسول الله ﷺ [١]. وهي هذه:[٢]

[المتقارب]

أَقُولُ وآنسْــــتُ باللَّيـلِ نَــارَا   لَعَلَّ سراجَ الـهُدى قَــــدْ أَنَارَا

وإلاَّ فَمـا بالُ أُفـقِ الدُّجــــا   كأنّ سَنا البَرْقِ فيـه اسْتَطارَا

ونَـحْنُ مِـنَ الـلَّيلِ فـي حِنْدِسٍ   فَمَا بــالُــهُ قَد تَجَلَّى نَهَــارَا

وَهَذا الـنَّسـيمُ شذَا المِسكِ قَدْ   أُعـيـرَ أَمِ المِسْكُ مِنْهُ اسْتَعـارَا

وكَانَــــــتْ رَوَاحِلُنَــا تَشْتَكي   وَجاً فَلَقَدْ سَابَقَتْنــــا ابْتِدارَا[٣]

وَكُنَّا شكَــوْنا عَنــاءَ الـسُّرَى   فَعُدْنَا نُبـارِي سِرَاعَ المِهَارَى[٤]

١- هنا بدأ النقص في طبعة الجزائر ويستمر حتى نهاية الصفحة

٢- القصيدة في الإحاطة ٢/٢٣٥-٢٣٦، وفي الذيل والتكملة ٥/٦٠٢ وفي جذوة الاقتباس ١/٢٧٨-٢٧٩ ، وفي نفح الطيب ٢/٤٨٧ الأبيات الثلاثة الأولى.

٣- في الجذوة: وجاهاً فقد سبقتنا ابتدارا.

في الإحاطة والذيل: فقد سابقتنا ـ والوجا: الحفا، أو أن يشتكي البعير باطن خفه، والفرس باطن حافره.

٤- السُّرى: السَّير بالليل. المهارى: كرام الإبل.

أَظُنُّ النُّفوسَ قَدْ اسْتَشْعَرَتْ ... بُلُوغَ هَوًى تَخِذَتْهُ شِعَارَا
تَباشِيرُ صُبْحِ السُّرَى آذَنَتْ ... بأنَّ الحَبيبَ تَدانى مَزَارا[١]
جَرَى ذِكْرُ طَيْبَةَ مَابَيْنَنا ... فَلاَ قَلْبَ في الرَّكْبِ إلاَّ وطَارَا[٢]
حَنيناً إلى أحْمَدَ المصْطفى ... وَشَوْقاً يُهيجُ الضُّلُوعَ اسْتِعارَا
وَلاَحَ لنا أُحُدٌ مُشْرِقاً ... بِنُورٍ منَ الشُّهَداءِ اسْتَنَارَا[٣]
فَمِنْ أجْلِ ذَلكَ ظَلَّ الدُّجَى ... يَحُلُّ عُقُودَ النُّجومِ انْتِثَارَا
وَمِنْ ذَلِكَ الشَّرْفِ طابَ النَّسيمُ ... نَشْراً وعمَّ الجَنابَ انْتِشارَا[٤]
وَمِنْ طَرَبِ الرَّكبِ حثَّ الخُطا ... إلَيْها ونادَى البِدَارَ البِدَارَا
ولَمَّا حَلَلْنا فِناءَ الرَّسولِ ... نَزَلْنَا بأكْرَمَ خَلْقٍ جِوارَا[٥]
وَحِينَ دنَوْنا لِفَرْضِ السَّلامِ ... قَصَرْنَا الخُطا وَلَزِمْنا الوَقَارَا
فَمانُرسِلُ اللَّحْظَ إلاَّ اخْتِلاساً ... ولاَ نَرْفَعُ الطَّرْفَ إلاَّ انْكِسَارَا[٦]
ولانُظْهِرُ الوجدَ إلَّا اكْتِتَاماً ... ولانَلْفُظُ القَولَ إلاّ سِرَارَا
سِوَى أنَّنَا لَمْ نُطِقْ أعْيُناً ... بِأدْمُعِها غَلَبَتْنا انفِجَارَا

١- في الإحاطة والذيل: بشائر.

٢- طيبة: هي مدينة رسول الله ﷺ .

٣- في الإحاطه: استعارا، وأُحُد: جبل شمال المدينة، وعنده كانت غزوة أحد.

٤- في ت و ط : الشرب وفي الذيل والتكملة: الترب - وفي جنوة الاقتباس انتثارا. والبيت بكامله غير موجود في الإحاطة.

٥- في الإحاطة: مجد جوارا.

٦- في الإحاطة: نرجع الطرف.

٢٠- وقفْنا بِرَوْضَتِهِ للسَّلامِ نُعيدُ السَّلامَ عَلَيْهِ مِرَارًا(١)

[٥٢/ب] ولَولاَ مَهَابتُهُ في النُّفوسِ لَثَمْنَا الثَّرَى ولَزِمْنَا الجِدارَا(٢)

قَضَيْنَا بِعُمرتِنَا حِجَّنَا وَبالعُمْرَتَيْنِ خَتَمْنَا اعْتِمارا(٣)

إليكَ إليكَ نَبيَّ الهُدَى ركِبْنَا البِحارَ وجُبْنَا القِفارَا(٤)

وَفارَقْتُ أهْلِي ولاَ مِنَّة ورُبَّ كَلامٍ يَجُرُّ اعْتِذارَا

٢٥- وكيفَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ بِهِ نؤمِّلُ للسيِّئاتِ اغْتِفَارَا(٥)

دَعاني إليكَ هَوىً كامِنٌ أثارَ مِنَ الشَّوقِ ماقَدْ أثَارَا

فَنَادَيْتُ لبَّيكَ دَاعي الهُدَى وَهَلْ كُنتُ عَنْكَ أطيقُ اصْطِبارًا(٦)

فَرَضَيتُ نَفْسي بِحُكْمِ الهَوى عليَّ، وقلْتُ: رَضيتُ اخْتِيارًا(٧)

أخوضُ الدُّجا وأروضُ السُّرى ولانُطعَمُ النَّومَ إلاّ غِرارا(٨)

٣٠- وَلَوْ كنتُ لاأسْتَطيعُ السَّبيلَ لَطِرْتُ ولَمَّا أُصادفْ مَطَارًا(٩)

وَأجْدَر مَنْ نَالَ مِنْكَ الرِّضَا مُحِبٌّ ثَراكَ على البُعدِ زارا(١٠)

١- في الإحاطة: بروضة دار السلام - عليها مرارا.

٢- في الإحاطة: والتزمنا الجدارا.

٣- في الإحاطة والجذوة: بزورته، والذيل والتكملة: بزورتنا - وفي الذيل والتكملة: وبالعمرين. والعمران: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

٤- في الإحاطة والجذوة: ركبت البحار وجبت القفارا.

٥- في ت و ط: نمن.

٦- في الإحاطة: فناديتك. وفي ت و ط: داعي الهوى - في الإحاطة: وماكنت.

٧- في ت و ط وجذوة الاقتباس: ووطنت نفسي. في الذيل والتكملة: لحكم الهوى.

٨- في الإحاطة والذيل والتكملة والجذوة: أطعم.

٩- في الإحاطة والذيل والتكملة: ولولم أصادف.

١٠- في ط وجذوة الاقتباس: ثواك.

عسى لَحظَةٌ مِنْكَ لِي فِي غَدٍ ... تُمهِّدُ لي في الجِنانِ القرارَا
فَمَا ضَلَّ مَنْ بِهُداكَ اهْتَدَى ... ولاَذَلَّ مَنْ بِذُرَاكَ اسْتَجَارَا[1]
[عَلَيكَ سَلامٌ كَزَهْرِ الرُّبَا ... يفيحُ عَشِيّاً بِهَا وابْتِكَارَا][2]

وأنشدني أيضاً بمثله: [مجزوء الوافر]

أمَا فِي الدَّهْرِ مُعْتَبَرُ ... ففيهِ الصَّفْوُ والكَدَرُ
فَسَلْنِي عَنْ تَقَلُّبِهِ ... «فَعند جُهينةَ الخَبَرُ»[3]
صَحِبنَاهُ إلى أجَلٍ ... نُرَاقِبُهُ ونَحْتَذِرُ
فياعَجَباً لِمُرتَحِلٍ ... وَلاَ يَدْرِي مَتَى السَّفَرُ

وأنشدني إملاءً من كتابه أيضاً، عن أبي العبّاس المذكور عن الشَّيخ أبي عبدالله بن شَيْبَة الأندلسيّ، ولم يُسَمِّ قائله:[4] [متقارب]

وإنّي لأكْرَهُ مِنْ شِيمَتِي ... زِيارَةَ حَيٍّ بِلا مَنفَعهْ[5]
وَلاَ أحمَدُ القَوْلَ مِنْ قائِلٍ ... إذَا لَمْ يكُنْ فِعلُهُ مُتبعَهْ[6]
ومَنْ ضَاقَ ذَرْعاً بإكْرَامِنَا ... فَلَسْنَا نَضيقُ بأنْ نَقْطَعَهْ

١- في الإحاطة: بمسراك اهتدى، وجذوة الاقتباس: ولاضلَّ من بذراك.

٢- البيت ليس في الأصل و ط، وأضفناه من ت.

٣- إشارة إلى المثل: «عند جهينة الخبر اليقين». انظر: الميداني ٣/٢ وفصل المقال ٢٩٥، وأمثال أبي عبيد ٢٠١-المستقصى ١٦٩/٢- والجمهرة ٤٤/٢، والفاخر ١٢٦- وتمثال الأمثال ٤٧٤، والوسيط ١٢٠ ويروى: عند جفينة.

٤- الأبيات لأبي بشر الفارسي الحافظ في يتيمة الدهر ١٦٠/٣.

٥- في ط: أكره. وفي اليتيمة: وإني لا أكره.

٦- في اليتيمة: فعله معه.

وأخبرني أيضاً إنشاداً عن الشَّيخ الفقيه العالم أبي السَّرايا عامر بن الوتّار المالكي، إجازة عن ابن جُبَيْر المذكور إجازة لنفسه: [الطويل]

إلَى اللهِ أشْكوُ ماتُكِنُّ الجَوانِـحُ تَقَاطعَتِ الأرْحَامُ حَتَّى الجَوارِحُ
فَلَسْتَ تَـرَى إلاَّ قُلوباً وألْسُـنَـاً مُخالِفَةً هَذي لِهذي كواشِـحُ[1]
فلِلْقلبِ عقــدٌ واللِّســانُ بِنُطْقِهِ يُخالِفُــهُ والفِعْـلُ لِلكُلِّ فَاضِـحُ

قال الفقيه أبو السَّرايا: أخذه - والله أعلم - من قول الحَسَن رضي الله عنه:[٥٣/أ]«ألْسُنٌ تَصِفُ، وقلوبٌ تَعْرِفُ، وأعمالٌ تخالِفُ».

وأخبرني عنه أيضاً إملاء من كتابه، قال:أخبرني الشَّيخ الصَّالح عبدالله الحَرْمولي[2] الفِرْيابيّ، قال: سُئِلَ فقهاء الثَّغر[3]، هل لضَرْبِ صبيانِ المكتب حدّ؟ فاختلفوا في تحديدِهِ وأجابَ الفقيهُ أبو الطَّاهر إسماعيل بن عَوْفٍ الزُّهْري[4] قال:«الضَّرْبُ للصِّبيانِ كالغيث للنَّباتِ».

١- الكاشح: العدوّ المبغض.

٢- في ت: الحرملي.

٣- في ت: الشرع.

٤- هو إسماعيل بن مكي بن عيسى بن عوف الزهري: فقيه، مالكي، متكلّم، من أهل الإسكندريّة ولد سنة ٤٨٥هـ وتوفي في سنة ٥٨١هـ. من آثاره: التذكرة في أصول الدين و شرح على التهذيب لأبي سعيد البرادعي. له ترجمة في الديباج ٩٥-٩٦ وحسن المحاضرة ١/٤٥٢-٤٥٣ .

١- في ت : الشكر الجميل.

وأنشدني أيضاً، قال: أنشدني الشَّيخ الصَّالح أبوعبدالله بن النُّعمانِ لبعض شيوخه: [الطويل]

تواضَــعْ إذا نِلْـتَ العَلاءَ تَـزِدْ عُلاً وتَكْتَسبِ الشُّكْرَ الجزيلَ مِنَ الوَرَى[1]
فَلَــنْ يَشـــكُرَ الغَيْثُ الرَّفيــعُ مَحلُّهُ قرينَ الثُّريَّــا أوْيَصيــرَ إلَــى الثَّرَى

قلت: قد جَمَحَ[2] القلم في هذا الفصلِ بِحَسَب استطراد القول، فقطعَ عمّا كنت فيه من ذكرِ[3] أهل الإسكندريَّة، ووَصْفِ بعضِ أحوالِهمْ الرَّديّة، وهي أكثر من أن يَحْصُرُهَا بيانٌ، أويحيطَ بها خَبَرٌ ولاعيان، لكنّها نَفْثَةُ مصدور، ولَفْظَةٌ جرى بها المقدور. وبودّي لولم أرَ إلاّ حَسَناً فأذكرَه، ولم ألقَ إلاّ مَشكوراً فأشكرَه. ولو كان القبيح يجمل بغير أوصافه، والنَّاقص يكمل بذِكْرِ أسلافه. لكان أهلُ الإسكندريَّةِ أجملَ النَّاسِ حُسْنا، وأكملَهمْ في كلّ معنى، بوجود بعض الأفرادِ فيهمْ، وسُكنى الآحاد[4] المبرّزين في العلم والدِّين بمغانيهم. ولكن الموتى إذا جاورهم الأحياء[5]، لم يحصلْ لهم بمجاورتهم الإحياء[5]، بل: [الكامل]

----- ----- ---- بِضدِّها تَتَبَيّنُ الأشياءُ[6]

٢- في ت و ط : جمع.
٣- ليست في ت.
٤- في ت: آحاد.
٥- في ط: الأحيا.
٦- عجز بيت للمتنبّي وصدره: - ونَذيمَهُمْ وبهم عَرفْنا فَضلَهُ -
وهو في ديوانه ٢٢/١. والرواية فيه وبِضدّها.

وقد رأيت بها أفراداً من أَهْلِ الفَضْلِ عِلْماً وديناً، وددتُ لومُنحت في ذكر فضلهم قلباً حافظاً، ولساناً مُبيناً، فمنهم من استكتمني اسمَه، وعاهدني[1] على ألاّ أذكر رسمَه؛ عَمَلاً على منهج زُهده، ومحجّة تقواه، وصَوْناً للأخوّة أن يشوبَها حظٌّ لغير الله، على أنّي لوسمّيته وحليّته، لقصّرَ بي كلُّ ماروَيتُهُ وروّيتُهُ[2]، وكيف يوفي اللِّسانُ - وإن أطنبَ في شكره - حَقَّ من يُستنزل القَطْرُ بذكره. نفعَهُ الله وإيّاي [٥٣/ب] بجميل قَصْدِه، وتغمّدَ كلاًّ منّا برحمةٍ تولّيه الصّفحَ عن سهوهِ وعمده، وأوزعني شكر مامنحني من إقباله عليَّ بحبِّه، وأفاضَ عليّ من بركاته وأنوار قلْبِه.

[لقاؤه لابن المُنَيِّر]

ومنهم الشَّيخُ الجليلُ الفاضلُ، الفقيهُ العالمُ الكاملُ، الرَّئيسُ الأوحدُ، القاضي العادلُ[3]، شرفُ الفقهاءِ والمفتين، واسطةُ قلادةِ المدرّسين. صدرُ البُلغاءِ ورأسُ الكُتّابِ والنّاظمين. وحيدُ العلماءِ وفخرُ[4] المُصَنِّفين، ذو المآثرِ السّنية، والمفاخر العليّة، زين الدّين أبو الحَسَن عليّ بن محمّد بن منصور المالكيّ[5]، يعرف بابن المُنَيِّر، حفظ الله مَجادَتَه، ومكّن سعادته. لقيت منه بحرَ عِلْمٍ تفيضُ أمواجُه، وغيثَ سماحٍ لايغيض ثَجّاجُه[6]. له تصرّفٌ في

١- في ت و ط : وعاقدني.

٢- ليست في ط.

٣ - في ت: العدل.

٤- في ت و ط: وبحر.

٥ - توفي زين الدين بن المنير في ذي الحجة سنة ٦٩٥هـ، انظر شجرة النور الزكية ١/١٨٨.

٦- مطر ثَجّاج: مصبوب سائل.

صنوفِ العلمِ وفنونِه، وتحقّقٍ بتمييز أبكارِه وعُوْنِه[١]. وتسلّطٍ بثاقبِ ذِهْنِه على استنباط عيونه،ومارأيتُ أحداً اجتمع له من حُسنِ الحفظ، وجودة اللّفْظ، وذكاء الفَهْمِ ماجتمعَ لهُ. ولارئيساً جَعَلَ العلْمَ قيدَ هِمّتِه كما جَعَلَه. وقد استظهر دواوينَ من العلمِ في صِغَره، ولم يتغير حفْظُهُ لها في زمانِ كِبَره، وقد مُنح من حُسنِ الخُلُق وجميلِ العِشْرة وكمالِ الإنصاف، مايعيا ببعضِ أوصافِه اللِّسنُ الوصّاف، ومايكلُّ دونَ شأوِه طَرَفُ[٢] البيانِ، مع[٣] ماخصَّ بِه من طلاقَةِ الوَجْهِ واليد واللِّسان.

وله على التّآليف حُسْنُ اقتدار، وفي إجادة التّصنيف مَكِنَةٌ[٤] تدلُّ على أنّه لراية المجد ذو ابتدار. بدأ على«البُخاريّ» شرحاً مؤسِّس المباني، محقّق المعاني. زانه حسن العبارة في التّصريح والإشارة. إن قضى اللّه له بالتّمام كان مفتاحاً يعوّل في حلّ[٥] مُشكلاتِ المشروحِ عليه. ومِصباحاً يلجأ في إزاحة ظلام الشُّكوك إليه. قرأت عليه بعضهُ، وسمعت منهُ مواضعَ قَصْدَ قراءتها عليّ، وأجازني ما نَجَزَ منه، وما سينجز إن شاء اللّه تعالى.

١- الأبكار: ج بكر وهي الجارية لم تُفتضّ، واستخدم المصنف اللفظة على المجاز والمراد بالمعنى: العلوم التي لم تطرق.

العون: ج: عوان وهي التي لها زوج، والمعنى المجاز لها أن هذا الشيخ له معرفة. بمختلف صنوف العلم.

٢- في ت: صرف. وفي ط: طرفان.

٣- ليست في ط.

٤- المَكِنَةُ: التمكُّن.

٥- في ت و ط: كل.

وقد كان - حفظه الله - استصحب سفْراً من هذا [٥٤/أ] التَّأليفِ في سَفَره إلى الحجّ فوقف عليه الشَّيخُ الصَّالحُ رئيسُ العلماءِ بمكّةَ - شرّفها الله - مُحبُّ الدِّين الطَّبَري[١]. فاستحسنه وكتب على ظهره مانصُّه: «نظرَ فيه العبدُ الفقيرُ إلى رأفة[٢] مولاه. في سرّه ونجواه، المحبّ أحمدُ بنُ عبدالله بنِ محمّد الطَّبَريّ المَكي[٣] مستضيئاً بفرائده، مُستفيداً من فوائده، متيمّناً بنظره مستسعداً بأثره[٤]، متبرّكاً برؤياه، حرسَ الله مَجْدَ مؤلِّفِهِ وتولاّه، فألفاه رياضاً أرِيْضَةً[٥] ودرراً منيرة، وشمساً بازغةً، وبراهينَ لحجج أهل الزَّيغ[٦] دامغة، ومعاني لطيفة، وأحكاماً منيفة، وموردا لكلّ ظمآنَ لهفان، ومصدراً للبيانِ والتبّيان، وصادراً عن ضبطٍ وإتقان، وواردا من التَّحقيقِ موردَ الإيقان، نَفعَ اللّه بهِ مفيدَهُ والمستفيد، وعمّر بإفادتهِ أقطارَ الوجود، وعَطَّرَ بذكاءِ شُهرته الآفاق، ونوّر بذُكاءِ أنواره مواطن الإشراق، ماتناسقت الظُّلَمُ والأنوار، وفي الوَقْتِ عن استيفاء مَدْحهِ شُغُلٌ شاغل، وماعسى أن[٧] يقولَ القائل، ومحاسنُه أظهرُ من أنْ تُشْهَر، وأبْيَنُ من أن تُنْشَر، والحمدُ لله على نوالهِ، وصلواتُه على سيّدنا[٨] محمّدٍ وآله».

١- أحمد بن عبد الله بن محمد الطبري: حافظ للحديث، فقيه شافعي من أهل مكة ولد فيها سنة ٦١٥هـ وكان شيخ الحرم بمكة توفي سنة ٦٩٤هـ له تصانيف منها: السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين. والرياض النضرة في مناقب العشرة. والأحكام في ستة مجلدات. ترجمته في العقد الثمين ٣/٦١-٧٢، طبقات الشافعية للسبكي ٨/١٨ وفيها مولده ٦١٠. غربال الزمان ٥٧١، شذرات الذهب ٥/٤٢٥.

٢- في ط: رحمة.

٣- في الأصل: المالكي وهو تصحيف.

٤- في ت: بنظره.

٥- رياضاً أريضة: زكيّة كثيرة العشب.

٦- الزَّيغ: الميل عن الحق.

٧- ليست في ط.

٨- ليست في ت.

قلت: كلام مثل هذا الرَّجُلِ يُطوى على غرّه، ويحوى لما يجب من برِّه، وقد راجعتُ شيخَنا زينَ الدِّين في مواضعَ منه، فقال لي: مثل هذا ينقل تبّركاً بقائله، ولقد أجاد مالك بن أنس رضي اللّه عنه في قوله:«من النَّاس مَنْ لاتُذكَرُ عيوبُهُ». وما أراد بذلك - واللّه أعلم - إلاّ قادةَ أهل الدِّين، وفضلاءَ المسلمين، والفاضل مَنْ عُدَّت سقطاته وباللّه التَّوفيق.

ووقف عليه أيضاً[١] الشَّيخُ الفقيهُ العالمُ[٢] قدوةُ المُدرّسين بديارِ مِصْرَ، علمُ الدِّين، سبط الإمامِ أبي إسحاق العِراقيّ[٣] فكتبَ عليه مانصّه:« وقف على كثيرٍ من هذا التَّصنيف المُنيف[٤]، والتَّأليفِ الشّريفِ، الفقير إلى اللّه عبدالكريم بن عليّ الأنصاريّ[٥]، فوجده قد اتّقدَ في مِشكاةِ النُّبوّة [٥٤/ب] مصباحُه، وأسفرَ في دُجا المشكلاتِ صباحُه، وكشفَ ظلماتِ الشُّبهاتِ بيانُهُ وإيضاحُه، وتأمّل[٦] فيه من الفوائد[٧] المُستجادة، والمباحث المُستفادة، مالايُطمع[٨] بعده في الزيّادة، وجلا عن القلوب عَمايتَها[٩]، وبلغَ في تحقيقِ المعاني غايتَها: [الطويل]

١- ليست في ط.

٢- ليست في ت.

٣- في ت: الغرافي وهو تحريف.

٤- ليست في ط. والمُنيف: الشريف.

٥- هو عبد الكريم بن علي بن عمر الأنصاري: مفسّر، فقية، أصله من وادي آش بالأندلس، ومولده بمصر سنة ٦٢٣هـ. ووفاته فيها سنة ٧٠٤هـ عمي في أواخر حياته، له مختصر في أصول الفقه، ومختصر في تفسير القرآن. ترجمته في نكت الهميان ١٩٥- الدرر الكامنة ٢/٣٩٩- ملء العيبة٥/٢٣٥.

٦- في ط: تأصل.

٧- في ط: فوائده.

٨- في ت و ط: مطمع.

٩- العماية: الجهل.

وكَانَ ابـنُ بَطّالٍ تَصَـــدَّى لمِثْـلِ مَـا
تَصَدَّى لَهُ قَاضي القُضَاةِ مِنَ الشَّرْحِ[1]

فَأَجْهَدَ فِي شَـرْحِ البُخَـارِيِّ نَفْسَـهُ
وَأَظْهَر تَحْقيقـاً وبَالَــغَ فــي النُّصْــحِ

فَلمَّــا سَمَــا زَيْنُ الأنَــامِ لنَيْـلِ مــا
تقاصَرَ عَنْهُ الشَّارِحُونَ مَـعَ الكَدْحِ[2]

فأوضَــحَ أَسْــرَارَ الشَّريعـةِ ظَافِـرَاً
على إثْرِ هذا السَّعْـيِ بالأجْرِ والنَّجْـحِ

وفَـــازَ بتَحْقيــقٍ وحُسْــنِ تَـصــرُّفٍ
وَشَقَّ ظَلامَ الجَهْلِ عَـنْ فَلَقِ الصُّبْـحِ

تَعيَّــنَ أنْ يُــعْنَــى الأنَــامُ بِــهِ وَأَنْ
يُكَافُـوهُ بالتَّعظيــمِ والشُّـكْرِ والمَــدْحِ

وأنْ يجعلــوهُ رأسَ مــالِ عـلومِـهِمْ
لِيَظْفَـرَ مَــنْ يَبْغِي التِّجـارةَ بـالرِّبْـحِ

كُتِبَ سابع ربيع الأوّل سنة ثمانٍ وثمانين وستِّ مئة.»

قلتُ: لوعوّض من حرف في، حرف من في قوله: قد اتّقد في مِشْكاةِ النّبوةِ مصباحُه. لكان أَلْيَقَ بالأدبِ[3]، وأبعدَ عن الاشتراكِ والله الموفّق.

١- علي بن عبد الملك بن بطال: عالم بالحديث من أهل قرطبة. له شرح على البخاري توفي سنة ٤٤٩هـ. ترجمته في شذرات الذهب ٢٨٣/٣.

٢- في ت: زين الإمام.

٣- في ط: بالآداب.

وقد كان الفقيهُ الأوحدُ ناصرُ الدِّين أبو العبَّاس أحمدُ بنُ محمّدٍ[1]، أخو شيخنا المذكور،جرَّدَ من جامعِ البخاريِّ أربعَ مئةِ ترجمةٍ مشكلة،فتكلَّم عليها وحلَّ إشكالها. ووضع شيخُنا هذا الكتابَ عليه شَرْحاً مُوعِباً شافياً، وسمعته يذكر تآليفَ أخيه المذكور، وقال: إنّه تكلّم على أربع مئة ترجمة مُشكلة، ولايعدم فيما[2] تخلص من تآليفنا هذا[3] أربعة آلاف ترجمة كلّها مشكل.

وقرأت عليه«الأربعين حديثاً البلدانيّة»[4] للإمام الحافظ أبي طاهر أحمد ابن محمّد السِّلَفي[5] رضي الله عنه في مَجْلِسٍ واحد. وحدَّثني بها عن الشّيخ جمال الدِّين أبي الفضل يوسف بن عبد المعطي بن نجا المَخيليِّ قراءةً منه عليه عن مؤلِّفها المذكور [٥٥/أ] وقرأت عليه صدراً من«الموطَّأ»[6] رواية يحيى بن يحيى وناولني سائرَهُ في أصلي، وحدّثني بجميعهِ عن الشَّيخ الرّاوية العلاّمة أبي عبدالله محمَّد بن أبي الفضل السُّلميِّ المُرْسيِّ، شرف الدِّين، سماعاً عليه بأسانيده.

١- أحمد بن محمد بن منصور بن أبي القاسم الجذامي الإسكندري: فقيه مالكي، إمام، قاض، مقرئ، مفسّر، أخذ عن مجموعة من العلماء منهم جمال الدين بن الحاجب، وأخذ عنه جماعة. له مصنفات منها تفسير سمّاه: البحر الكبير في نخب التفسير، والانتصاف من الكشّاف، له شعر لطيف، مولده سنة ٦٢٠هـ ووفاته سنة ٦٨٣هـ ترجمته في الوافي بالوفيات ١٢٨/٨- فوات الوفيات ١٤٩/١ - الديباج المذهب ٧١ ، شذرات الذهب ٣٨١/٥ ، شجرة النور الزكية ١٨٨/١.

٢- في ت : ما تخلص.

٣- ليست في ت .

٤- جمع فيه أربعين حديثاً من أربعين شيخاً في أربعين مدينة أبان بها عن رحلة واسعة وأظهر فيها رتبة عالية.انظر كشف الظنون ٥٤ .

٥- هو أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم سِلَفَة الأصبهاني: حافظ، فقيه ولد بأصبهان سنة ٤٧٨هـ ورحل في طلب الحديث، واستقر بالقاهرة وبها توفي سنة ٥٧٦هـ له معجم السفر ومعجم مشيخة أصبهان وغيره. ترجمته في وفيات الأعيان ١٠٥/١- أزهار الرياض ١٦٧/٣- شذرات الذهب ٢٥٥/٤- غاية النهاية ١٠٢/١.

٦- في ط: صدر الموطأ.

وقرأتُ عليهِ بعضَ الجزءِ الثّاني من«مختصرِ الفقيه الإمام العالم أبي عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر بن الحاجب[1]» - رضي الله عنه - في الفقه على مذهب مالك، وأجازني سائره عن مؤلِّفه المذكور، وهو ممّا استظهَرهُ حفظاً وإتقاناً.

وسمعت من لفظهِ قصيدتَهُ النّبويّة التي نظمَها في سفره إلى الحجاز، ثم كتبها،وقرأتها عليه، وهي من حُرّ القصائد، ومن جملةِ إنصافه -حفظه الله- أنّي راجعتُهُ منها في ألفاظٍ قليلةٍ رأيت غيرَها أقْعَدَ بالمعنى منها[2]، فاستحسنَ ماذكرتهُ، وأذِنَ لي في إصلاحها على مارأيت، وأنا إنْ شاء الله أثبت القصيدة هنا بجملتها وهي هذه: [الطويل]

[القصيدة النُّبويَّة لابن المُنَيِّر]

أجب دَعْوَةَ الرَّحْمَنِ ياصَاحِ تَسْعَدِ وَبَادِرْ لِفَرْضِ الحجِّ غَيْرَ مُفنَّد[3]

ولُذْ بالمَتابِ الآنَ وَازْدَدْ مِنَ التُّقَى فَإنَّ اتّقاءَ اللهِ خَيْرُ التَّزَوُّدِ

ودَعْ خَاطِرَ التَّسويفِ والخَوفَ جَانِباً وسلِّمْ لأمرِ اللهِ أمرَكَ في غَدِ

١- هو مختصر في فروع المالكية استخرجه من ستين كتاباً في فقه المالكية. انظر كشف الظنون ١٦٢٥، وصاحبه هو عثمان بن عمر بن أبي بكر بن الحاجب: فقيه مالكي، من كبار العلماء بالعربية. ولد في إسنا من صعيد مصر سنه: ٥٧٠هـ ومات بالإسكندرية سنة ٦٤٦هـ. من تصانيفه الكافية في النحو والشافية في الصرف. ترجمته في وفيات الأعيان ٢٤٨/٣. والديباج المذهب ١٨٩- شجرة النور الزكية ١٦٧/١.

٢- ليست في ط.

٣- التَّفنيد: اللوم وتضعيف الرأي.

فَكَمْ ذي صَدًى مَابَيْنَ أَهْلٍ ومَنْهلٍ ... وريّانِ ماءٍ بينَ قفْرٍ وفَدْفَدِ[١]

وكَمْ قاطِنٍ في مَوْطِنٍ غَيْرِ آمِنٍ ... وَراكِبِ أَخْطارٍ يَفوزُ بمَقْصِدِ

وكمْ ذي سُرًى سَرَّى سُرَاه هُمومَهُ ... وأعقَبَهُ مَرْآهُ قبرَ مُحمَّدِ[٢]

أيادٍ لأَيْدي العِيسِ إنْ تَبْدُ يَثْرِبٌ ... وكمْ مِنّةٍ فيها عَليٍّ وكمْ يَدِ

تُبَلِّغُنا مَثْواكَ ياسَيِّدَ الوَرَى ... وتُشْهِدُنا مِنْهُ مَقَرَّ التَعَبُّدِ

فَنَمْحُوا خَطَايَانا بِدَمْعِ إنَابَةٍ ... ونَظفرُ بالغُفرانِ والعَفْوِ في غَدِ[٣]

ونُنشدُ والآفَاقُ تَبْكِي مَسَّرةً ... وخَاطِرُنا بالشَّوقِ كالمتوقّدِ[٤]

عَلَيْكَ سَلامُ اللهِ ياخَيْرَ مُرسَلٍ ... عَلَيْكَ سَلامُ اللهِ ياخَيرَ مُرشِدِ

عَلَيْكَ سَلامُ اللهِ ياخيرَ مَنْ هَدَى ... عَلَيْكَ سلامُ اللهِ من كلِّ مُهتدِ

[٥٥/ب] عَلَيْكَ سَلامُ اللهِ من كلِّ عالِمٍ ... عليكَ سلامُ اللهِ من كلّ مُقتَدِ[٥]

عَلَيْكَ سَلامُ اللهِ من كلِّ عابدٍ ... عليكَ سلامُ اللهِ في كلِّ معْبدِ

عَلَيْكَ سَلامُ اللهِ في كلِّ مَجْلسٍ ... عليكَ سلامُ اللهِ في كلِّ مَسْجِدِ

عَلَيْكَ سَلامُ اللهِ مِن كلِّ قارنٍ ... عليكَ سلامُ اللهِ مِنْ كلِّ مُفردِ[٦]

عليْكَ سَلامُ اللهِ مِن كلِّ وافدٍ ... تجرّدَ للإحْرَامِ حقَّ التَّجرُّدِ[٧]

١- الصّدى: العطش، والفدفد: الفلاة الواسعة لا نبت فيها.

٢- السُّرى: السير ليلاً، وسرّى: كشف وأزال.

٣- الإنابة: التوبة ولزوم الطاعة.

٤- في الأصل: وتنشد والآماق.

٥- في الأصل: من كل مهتد.

٦- القران: الجمع بين الحج والعمرة في الإحرام.

٧- الوافد: الحاجّ، الإحرام: نية الدخول في الحج والعمرة. انظر القاموس الفقهي ٨٥.

عَليكَ سَـلامُ اللهِ مِــنْ كُلِّ شيِّـقٍ ... وشَـيِّقَةٍ فـي خِدْرِهَــا كـالمُصَفَّدِ[1]
عَليكَ سَـلامُ اللهِ عَــن سَلَـفٍ لنـا ... وعَن وَلَـــدٍ يَتْلــو كَطَيْــرٍ مُـــغَرِّدِ
عَليكَ سَـلامُ اللهِ فـي كُـلِّ مَصْدَرٍ ... عليـــك سلامُ اللهِ فــي كـلِّ مَوردِ
وصَلَّى عَليكَ الحقُّ جَلَّ جَلالُـهُ ... مَـــعَ المَلإِ الأعْلــى صَلاةَ مُمَجِّدِ
وصَلَّى عليك الرُّسْلُ في الخُلْدِ كلُّهمْ ... وصَلَّى عـليكَ الآنَ كـــلُّ مُوحِّدِ
وأوْلى ضَجيعَيْكَ الرِّضَا عَنْهما مَعاً ... وأتبِـعَـهُ أزْكَى سَـــلامٍ مُجدِّدِ[2]
وحــيَّاكَ يـامَثْوى الـرِّسَالَةِ والـهُدَى ... وحَيَّاكَ يامَـثْـوَى لأَصْـحابِ أَحْمَدِ
مَنازِلُ كـانَ الـوَحْيُ ينـزلُ بينَهـا ... ويعْهدُ فيـها الخيرَ في كُلِّ مَعْهدِ
مَنــازِلُ فيـهـا أظهــرَ اللهُ دينَــهُ ... وَأَخْمَدَ دينَ الـكُـفْـــرِ حَـدُّ المُهَنَّدِ
أوَاهِلُ مِـــنْ آلِ النَّبـيِّ وَصَحْبِـهِ ... أئِــمَّةُ ديــنِ اللهِ فـاقتَـدِ تَـهْتَـدِ[3]
هُـمُ وَرِثـــوا عِلْمَ النَّبـيِّ وعَايَنـوا ... لَهُ مُـعـجِـزاتٍ فُتْنَ حَصْرَ المُعَدِّدِ[4]
وَهُــــمْ نَصَروا حِزْبَ الإلَهِ وأرْعَدوا ... فَـرائِصَ أُسْدٍ بالسِّنَــانِ المُحدَّدِ[5]
فكَمْ بَطَلٍ قَدْ أسْكَنـوا الـرُّعْبَ قَلْبَهُ ... وكَمْ أسَدٍ أذْروهُ عَــنْ ظَهْرِ أجْرَدِ[6]
فَإِمَّــــا لِقَتْــلٍ أوصَغــــارٍ مُؤَبَّدٍ ... وإمَّا لإِسْلامٍ وَعِزٍّ وسُـــــــؤدَدِ[7]

١- شيق: مشتاق للزيارة.
٢- ضجيعا رسول الله هما أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب.
٣- في ط: وأهْلَ.
٤- في ت: دين النبي ـ حصر التعدّد.
٥- في ت: فرائس. والفرائض: جمع فريصة: لحمة بين الجنب والكتف ترتعد من الخوف.
٦- أذرى: ألقى. فرس أجْرد: سابق.
٧- في ط: لصغار وبها لا يستقيم الوزن.

وَقَــدْ أَسْـدَلَ البَدْرُ المُنِيــرُ حِجابَهُ   وَأَظْهَــرَ فينا فَرقَداً بعــدَ فَرْقَدِ(1)
وَمَا غَـيَّبَ الـبَدْرَ المنيـرَ حِجـابُهُ   لأنَّ لَهُ نُوراً بــهِ الــدَّهْرَ نَهْتَــدي
قَصَدْنـاهُ نَسْـتَشْفِي بِطـيـبِ تُرابِهِ   ونَحْظَى بِمَرْآنَا مَقــامَ التَّهـجُّدِ(2)
٣٥- فَنُطْرِقُ إجْلالاً ونَخْضَــعُ هَيْبَــةً   ونُدْرِكُ أَنْـوارَاً بـأَعْظَمِ مَشْهَــدِ
[٥٦/أ] وَنَسْجُــدُ فـيــهِ بَيْنَ قَبْرٍ وَمِنْبَرٍ   فَنَرْتاحَ في رَوْضِ الجِنانِ المُخلَّدِ(3)
فـأَجْــرُ صَلاةٍ فِيهِ كالأَلْفِ في سوا   هُ فاغْنَمْ وأَكْثِرْ من رُكوعِكَ واسْجُدِ(4)
وَحافِظْ على الوَقْتِ الَّذي قَدْ مُنِحْتَهُ   ولاتُخْلِهِ مِنْ طَاعَةِ اللهِ واجْهَــدِ
وَقُمْ خَاضِعــاً للهِ واسْأَلْهُ عفـوَهُ   سُؤالَ مُلِحٍّ فــي الدُّعـاءِ مُــرَدِّدِ
٤٠- وَقُلْ يَارَســولَ اللهِ جِئْتُكَ تائِبَــاً   وَمِـنْ تَوبَتي قَصْدٌ لبـابِكَ سَيِّدي(5)
وحُبُّكَ ديـنــي، ثـمَّ حُبُّكَ مَذْهَبــي   وحُبُّكَ أَحْلَــى مِنْ قِرانٍ بِمَوْلِدِ(6)
وَلَوْلاكَ مـاسِرْنـا بتَيـهـاءَ مَجْهَــلٍ   ولـولاكَ مــابِتْنا بـطَرْفٍ مُسَهَّدِ(7)
وَلَوْلاكَ مـاجُبْنــا بـقَـفْـرٍ ومَهْمَــهٍ   ولولاكَ ماجِئنــا كَجَيشٍ مُجرَّدِ(8)
وَلَوْلاكَ مـااسْتَحْلَـى الأُجـاجَ مُنَعَّمٌ   ولــولاك عَافَ المَرْءُ مَنْ لَـمْ يُعَوَّدِ(9)

١- الفرقد: النجم.
٢- التهجّد: صلاة الليل.
٣- في ط: أرض الجنان.
٤- إشارة إلى الحديث الشريف: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام» سنن ابن ماجة ١/٤٥٠.
٥- في ت: قصدي لبابك.
٦- في ت: قراري بمولد.
٧- التيهاء: المفازة لا علامة فيها يهتدى بها، والمجهل: الأرض لا يهتدى فيها.
٨- في ت: ولولاك ما جبنا بقفر. والمهمه: المفازة البعيدة.
٩- في ط: مالم، والأجاج: الشديد المرارة أو الملوحة.

وقَدْ أدنَّـي قَيْدُ الـذُّنـوبِ وَأَسْرُهـــا   فـكُنْ مُنْقذي مِنْ أسْرِ ذَنْبٍ مُقَيِّدِ[1]
وإِنِّيَ مِـنْ وَفْــدٍ أتـَـاكَ مَحبَّــةً   وهَاجَرَ يَرْجُو الأمْنَ يــومَ الــتَّوَعُّدِ
أَحِـنُّ حَـنـينَ الجِذْعِ شَوْقــاً لِقُبْلَةٍ   بِأَخْمصِكَ الأعْلى ومَوطِئكَ النَّدِي[2]
وأســألُ منْ قَبلِ المَـماتِ شَفَاعـةً   فأسعِفْ وكُنْ في ماسَألتُكَ مُسْعِدي
ومَنْ يَسـألِ المَوْلَـى بجــاهِ مُحمَّدٍ   يَقيناً تكُنْ منهُ الإجابةُ فـي اليـدِ
كـذا جاءَ في الأخبـارِ عَنْهُ مُحرَّراً   فكُنْ واثقـاً بالنَّقْلِ فيـــه وأسْنِــدِ
فـأعْظِمْ بـآيــاتٍ لَـــهُ وخَــوارِقٍ   وباهـرِ إعـجـــازٍ وفخـــرٍ مُخَلَّــدِ
وَعِـــزٍّ اصْطِفـاءٍ واقْتِــرابٍ مَحَبَّةٍ   وَرَفْعِ لواءِ الحَمْدِ في خيـرِ مَشْهَــدِ
إذا قيل: قُلْ تُسْمَعْ، وسَلْ تُعْطَ ماتشا   ءُ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فاشْكُرِ اللّهَ واحمَدِ
وزوِّدْ بمـدْحـي كُلَّ من جــاءَ زائِراً   وردِّدهُ فـــي سَمْـــعِ البَطِـيءِ المُقيّدِ
وكرِّرْ ســؤالَ اللّهِ عَفْـواً بجاهِــهِ   وصَـلِّ عليـــهِ آخـراً ثــــمَّ مَجِّــدِ

وأنشدني – حفظه اللّه – لأخيه الفقيه العالم أبي العبّاس أحمد[3] – رحمه اللّه – ممّا كتبَ إليه مُلغزاً:[4] [المتقارب]

١– في ط: وقد آذاني وبها لا يستقيم وزن وأدّه الأمر: أثقله وعظم عليه.

٢– إشارة إلى حنين الجذع الذي كان رسول اللّه ﷺ يخطب بجواره فلما صنع المنبر وتحول إليه الرسول ﷺ حن إليه، فلما التزمه النبي سكن وهدأ.

٣– ليست في ت و ط .

٤– ألغز بلفظة: آء وهو ضرب من الشجر واحدته: آءة ، انظر الصحاح: آء .

أبِنْ مُسْرِعاً لَفْظَةً سُطِّرَتْ مُقطَّعةً مِن جَميعِ النَّواحِي
[٥٦/ب] وَأَشْكالُ أحْرُفِها بالسَّواءِ وأَلقابُها حَسَبُ الاصْطِلاحِ
تُشَاكِلُ آحادُهَا الأَلِفَيْنِ وتُذكرهُمْ بالقُدودِ المِلاحِ
ثُلاثيَّةٌ ذاتُ حَرْفٍ فأصْغِ فإنَّ المُلاحِي قَليلُ الفَلاحِ
ومُعتلَّةُ الوَسْطِ ليستْ تَصِحُّ وأوّلُ قائمةٍ في الصِّحاحِ(١)
ولو طَلَبَ الأصْمَعيُّ نَظيراً لها لَمْ يفُزْ قِدْحُهُ في القِداحِ(٢)

قال: فقلت مُجيباً له: [المتقارب]

أيا مَنْ تفرَّد في عَصْرِه وجلَّت مُجاراتُهُ عَن تَلاحِ
عَنَيْتَ نباتاً لَهُ مَغْرَسٌ بأوّلِ تَرْجَمةٍ في الصِّحاحِ
وأَهْديتَ دُرّاً ليشْهدَ أنَّ بِصدرِكَ بحرُ النَّدى والسَّماحِ
وبالغْتَ في صَوْنِهِ غيرةً بلفظٍ يُهابُ كَحدِّ السِّلاحِ
٥- وَقَدْ أذْهَبَ العَبْدُ إشكالَهُ كما أذْهَبَ اللّيْلَ ضوءُ الصَّباحِ
فإن فَازَ قِدْحِي فأنتَ الإمامُ وحَيْعلْتَ قُدْماً لنَا بالفَلاحِ(٣)
وقَدْ سُطِّرَتْ نحوهَا لَفْظَةٌ مقطَّعةٌ من جميعِ النَّواحِي
تَرى شَكْلَ أحْرُفِها واحداً إذا أنْتَ جرَّدتَها بالتِماحِ
وتزدادُ في النُّطْقِ حَرْفاً خفيّاً وقُدْماً بَدَتْ في صُدورِ الصَّباحِ

١- في ت و ط: وفعتلّة اللفنا.
٢- عجز البيت ساقط من ت، والأصمعي: عبد الملك بن قريب العالم باللّغة المتوفّى بالبصرة سنة ٢١٦هـ.
٣- في ط: فاز مدحي.

١٠- وإنْ خفِيتْ عَن غبيٍّ فكَمْ يمكنُّها منْ نُحورِ المِلاحِ
فيا أيُّها الحَبرُ زِدْنا فقَدْ تميّزَ صَدْرُكَ بالانشراحِ[1]
ومَنْ رامَ شأوَك يَوماً كَمنْ نَوى أنْ يطيرَ بغيرِ جَناحِ

ولما تأمّلت اللّغزين استبان لي المراد منهما، ثم انزعجْتُ للسَّفر فلمّا استقرَّ بي القرار بقاعدة مصر، كتبتُ إليه في ذلك قصيدة وبعثتُ بها إليه، وقد[2] زِدْتُ فيها بعد ذلك أبياتاً وهي هذه: [المتقارب]

أيا فاضلاً قَدْ سَما للسَّماحِ فلم يُصغِ أذناً إلى قَوْلِ لاحِ
هَنيئاً لكَ المجدُ منْ فاضِلٍ هَدَى مَنْ نَحاهُ طَريقَ الفَلاحِ
[٥٧/أ] سَما صِنْوُكَ الفَذُّ في عِلمِه إلى غايةٍ وَاثِقاً بالنَّجاحِ
فأدركَها سَامِياً عالِياً وخُصِّصَ فيها بفَوْزِ القِداحِ[3]
٥ - وأجريتَ منْ خَلْفِهِ ثانِياً عِنانَ جَوادٍ عظيمِ المَراحِ
فأدركتَه فَائِزاً حائِزاً بِما قَدْ مُنحتَ كريمَ امْتِدَاحِ
فأوضحْتَ لُغزاً دَجا ليلُهُ ومُذْ لاحَ أزْرى بضَوْءِ الصَّباحِ
وذلكَ لَفْظٌ لَهُ أحرُفٌ غرائبُ في خِفيةٍ واتِّضاحِ
فأوَّلُها لا يُرى شكلُهُ وثالِثُها، وَهُما في الصِّحاحِ[4]

١- في ت و ط: تمكن صدرك.
٢- ليست في ط.
٣- في ط: بفوز الفلاح.
٤- أراد أن الحرفين صحيحان ليسا من أحرف العلة.

هـــمـــا يُذكَرانِ ولايُبْصَرانِ ... كَعَنقاءِ مُغربةٍ فـي النَّـواحِ[1]
وَأعْجِبْ بِشَـيءٍ لـه صحَّـةٌ ... عديمِ الوجـودِ لِعَيْنِ التماحِ
وثـانــي الحُروفِ يُرى ظَاهراً ... وعِلّتهُ مالَـها مِـنْ بَـراحِ
وكيفَ بـذي صِحَّةٍ قـد خَـفي ... ضـنًى وعليلٍ بـدا كالصِّحاحِ
ومَـنْ شـاءَ إبـرازَها لفظَةً ... بِغَـيْرِ ارْتيـاءٍ وَغيرِ انْـتِزَاحِ
فَشِـعْرُ زُهيرٍ لـها مَسْـرَحٌ ... أنَاخَـتْ بِبعضِ القوافي المِلاحِ[2]
وَمِـنْ عَجَبٍ إِنَّـها إنْ تُـزَدْ ... بِحَرْفٍ عَدَتْ عَنْ طَريقِ انْشِرَاحِ[3]
وأولَـئِكَ في الحينِ تَعْبيسـةٌ ... تُريكَ مُحـيّاً بغيرِ سَـماحِ
وسـاءَ المَذاقُ ونـاءَ الشِّقاقُ ... وحـقَّ الفِـراقُ بغيرِ انْفِسَـاحِ
ومَـهْـما حذفْـتَ أخيرَ الحـروفِ ... فَـقَـدْ فُهْتَ حَقّاً بلَـفْظِ افْـتِتـاحِ
وإنْ زِدْتَـهُ الحـذفَ مِـن أوَّلٍ ... فحـرفُ قبيـحٌ سليلُ القِباحِ
وَإنْ زِدْتَ محـذوفَـها آخراً ... فَحـذْفُ يـزينُ نُحـورَ المِلاحِ[4]
وإنْ شِـئتَ تبيانَـهُ فائـتِـنْ ... بِقَلْبِ افتتاحٍ تفُـزْ باقْتراحِ[5]

وفي نسخة أخرى زيادة هذه الأبيات:

وَأخْـفَـيْـتُـمُ اللُّـغزَ في لفظةٍ ... تَكلّ الشَّبا مِنْ رؤوسِ الرِّماحِ
أشـرتُـمْ إليـها بأوْصـافِـها ... لمـن هُوَ مِنْ سَكْرَةِ الجَهْلِ صاحِ

١– عنقاء مغرب: طائر خرافي انظر: ثمار القلوب ٤٥٠.

٢– المقصود قول زهير بن أبي سلمى في ديوانه يصف الظليم:

أصكَّ مُصلَّم الأذنين، أجنى ... له بالسِّـيِّ تَنُّومٌ وآءُ

٣– في ت : من طريق انشراح.

٤– في ت و ط: فشيء يزين.

٥– البيت ساقط من ت.

[٥٧/ب] وَقَدْ سُطِّرتْ لَفْظَةٌ مِثْلُها سَواءٌ فَزِدْها بِفَرْطِ ارتياحِ
وقُلْ: هِيَ مَقْلوبُ ما سَطِّرَتْ أَنامِلُنا ما بِهِ مِنْ تَلاحِ
وفي غَرْبِنا لَفْظَةٌ صُرِّفَتْ مُشَهَّرَةٌ كاشْتِهارِ الصَّباحِ
وَلكنَّها فَظَّةٌ جَهْمَةٌ إذَا أَقْبَلَتْ قُوبِلَتْ بالصِّياحِ(١)
وتألفُ أَشْكالَهَا في القِباحِ وَمَا عرَّجَتْ بالوجوهِ الصِّباحِ
وإنْ صُحِّفَ اللَّفْظُ مِنْ لُغْزِكُمْ بَدَتْ سمجةٌ حَقُّها في اطِّراحِ
وَأُخْرى عَلَى شَرْطِكُمْ قَدْ أتَتْ تُزادُ إِلَيْهِنَّ وَفْقَ اقْتِراحِ

انتهت الزيادة.

فخُذْ من مُقِرٍّ بفرطِ القُصورِ يفرُّ إلى العَجْزِ خوفَ النِّطاحِ
صَفيٌّ لِعَلْياكُمُ ذي وِدادٍ كما قدْ علمتَ كليمَ النَّواحِ
فسامِحْ مُحِبّاً صَفا وِدُّهُ وصُنْهُ بِصَفْحِكَ عن لَحْوِ لاحِ(٢)
وَأَقْرأ مِنّي عَليكُمْ سَلاماً كريمَ الغُدوِّ كريمَ الرَّواحِ

وأنشدني أيضاً قال: أنشدني أخي المرحوم ناصر الدِّين المذكور لنفسه:

[الرَّجز]

يَاسَائِلَ الخِبْرَةِ مِنْ مُنَجِّمِ مِنَ الوَرَى لاَ تَسْأَلِ الغُيُوبْ
إنْ قُلْتَ: صَادَفَ الصَّوابَ مَرَّةً قُلْتُ: نَعَمْ، قَدْ يَصْدُقُ الكَذوبْ(٣)

١- في ط: قلبت.

٢- عن قول لاح.

٣- في ط: إذا قلت: وبها لا يستقيم الوزن.

وسمعتُ منه - حفظه الله - فصلاً من كلام أخيه الفقيه[1] الأوحد، الأكمل، وحيد عصره ناصر الدِّين المذكور - رحمه الله - في ذكر [بعض][2] مناهل الحجّ، رأيت إثباته في هذا الموضع، إذ هو ممّا يليق بالمقصود، ونقلته من خطّ أخيه ناصر الدِّين المذكور - قدّس الله روحه، وبرّد ضريحه - وهذه نسخته:

[بعض رسالة ناصرالدِّين بن المنيِّر في مناهل الحجِّ]

«ولقد تجد النُّفوس إلى تلك القفارِ أُنساً كأنّها أوطان، وكأنَّ لأشواقها[3] على القلوب سلطان، وإنَّ لتلكَ الثَّنيّات صَبَاحةً، وإنَّ لمياهها[4] - وإن كانت مَلِحَةً - في القلوب ملاحةً:[٥٨/أ] [الطويل]

يقولون: مِلْحٌ، مــاءُ فَلْجَةَ آجِـنٌ   نَعمْ هُوَ مَمْلُوحٌ إِلَى القَلْبِ طَيِّبُ

وحيّا الله الوَجْهَ وإن كانت عليهِ تلك الواقعة، فما أحْسَنَهُ إذا لَمَحَهُ الفِكر[5] وإن كانت عليهِ السّيوفُ لامعة. ولله منزلةُ الحَوْراءِ وإن كانت عينُها مالحة، فإنَّها لأحسَنُ من العين الحوراء، وكذلك العَرْجاءُ تسبقُ إلى القلوبِ بالشّوقِ على[6] عَرَجِها، وعلى ضيقِ مَدْخلها ومَخْرَجِها. ولعمري إنَّها تضاهي

١- ليست في ط.

٢- من ت.

٣- في ت: لإشراقها.

٤- في ت: لمياه هذه الثنيات.

٥- في ت: النظر.

٦- في ت: إلى عرجها.

المسكَ بـأرَجِها، وتباهي المنابِرَ بدَرَجِها، ومَنْ أثنى على الدَّهناء[1] فما داهَنَ، ولاذكر إلاّ الحقَّ من محاسنِها وماحاسَنَ. وكم مِنْ حَنينٍ إلى حُنَيْنٍ، وما كان البَلَدَ في الأمن إلا بَدْرٌ فإنّها قُرَّة العين، ولله رملتُها البيضاءُ مقترنةً بالصَّفراء، فإنَّهما لأزهى من البيضاءِ والصّفراء، ومَنْ وصلَ إلى الجُحْفَة[2]، فقد حَصلَ على التُّحفة، ويعجبني التَّشويق إلى عقبة السَّوِيق، وَيَحْضُرُ في خُلَيص الإخلاص[3]، ويتدرّج من المدرج إلى فُرْجَة الخلاص، ويشتدّ الظَّهر عند مَرِّ الظَّهران[4]، ويتمتَّع عنده بنغماتِ أهل التَّمتُّع والقِران، وتعيش النَّفس عند مساجد عائشة[5] وتطير هناكَ القلوب الطَّائرة الطَّائشة، ولله حُسْن الثَّنيّة إذا ابتسمت، وجلالة مفرق الطُّرق إذا انقسمت، والعدولُ إلى طريق باب بني شَيْبَة، بالفوز الَّذي ليس بعده خيبة. وهنالك تنثلُ الجَعْبَة، عند الإشراف على الكعبة، فلا يبقى كامنٌ إلاّ ظهر، ولاسرٌّ إلا اشتهر وانتشر، ولاطرفٌ إلاّ انبهت، ولاقلب إلاّ انبهر[6]، ولا شملٌ إلاّ انتظم، ولادمع إلاّ انتثر:[7] [الخفيف]

١- الدهناء: رمال في طريق اليمامة إلى مكة، لا يعرف طولها، وأما عرضها فثلاث ليال، ويقال في المثل: أوسع من الدهناء. انظر ياقوت ٢/٤٩٢ .

٢- الجحفة: كانت قرية على طريق المدينة من مكة على أربع مراحل، وهي ميقات أهل مصر والشام إن لم يمروا على المدينة، ويقول حمد الجاسر: درست الجحفة ولم يبق سوى أطلالها ومسجد حديث بني فيها وتقع بقرب بلدة رابغ شرقها بميل نحو الجنوب بما يقارب الـ ١٥كم، انظر المناسك ٤١٥ .

٣- خُلَيص: حصن بين مكة والمدينة. انظر ياقوت ٢/٣٨٧ .

٤- مَرُّ الظّهرانِ: موضع على الطريق بين مكة والمدينة، قال ياقوت على مرحلة من مكة. انظر ياقوت: ٥/ ١٠٤ .

٥- مسجد عائشة وهو بعد الشجرة بميلين وهو دون مكة بأربعة أميال، وبينه وبين أنصاب الحرم غلوة. انظر رحلة القلصادي حاشية رقم ٢١٨، والغلوة قدر رمية بسهم.

٦- في ت و ط: انبهم.

٧- البيت في المستطرف ١٦٠، وفي أنس الساري والسارب ٩٧ دون عزو.

هَـذِهِ دَارُهُـــمْ وَأَنْتَ مُحِـبٌّ مَابَقَاءُ الدُّمُوعِ فِي الآمَاقِ[1]

قلت: والفقيه الإمام أبو الحَسَن زين الدِّين ممّا يُسَرُّ العاقلُ بمعرفته، ويُطنبُ القائلُ في صفَتِهِ. ولولا اتّقاءً فيما يتطرّق إلى الكلام من الهوى، لبالَغْتُ فأبلغتُ بريدَ القلب مانوى، على أنّه قد ترجَمَ[٥٨/ب] عن كماله عَدَمُ أضرابِهِ في القُطْرِ وأشكالِهِ، لاأخلى الله الأرضَ من مثلِهِ[2]، ولاأعدَمَهُ من إحسانه ثَجَّاجَ وبلِهِ، بمنّه وجودِهِ وفَضْلِهِ.

[لقاؤه للغرّافي]

ولقيتُ بالإسكندريّة سيدي الشَّيخَ الأجلَّ، الرَّاويةَ، المحدّثَ، الشَّريفَ، الأوحدَ، ذا الحَسَبِ الباهر، والشَّرفَ الظَّاهر، والأخلاقَ المُعربةَ عن الكمال، والعِزّةِ الفاضلةِ الَّتي تدلُّ عليه من غير سؤال، سليلَ بيتِ النُّبوَّة، وحليفَ الفضلِ الظّاهر والمروّة، تاجَ الدِّين، أبا الحَسَن ، عليَّ بنَ الشَّيخ الفقيهِ العالمِ المحدّثِ أبي العبّاس أحمد بن عبدالمُحْسن الحُسَيني الغَرَّافي[3]، حفظَ اللهُ عليه مامنحَهُ من الفضائل؛ وماأقام له على صحّة كمالِهِ من الدَّلائل؛ لقيتُهُ فرأيتُ منهُ فضلاً لوتجسَّدَ لملأ الفضاء؛ وعقلاً سلبَ النّيقَ[4] الرّكانةَ[5] والمُرهَفُ المضاءَ، وبشْراً لو كان في وجهِ الدَّهْرِ لم تُخْشَ[6] نوائبُه؛ وأريحيّةً علويّةً[7]

١- في أنس الساري: ما احتباس الدموع.

٢- في ت: أمثاله.

٣- توفي تاج الدين الغرّافي سنة ٧٠٤هـ انظر شذرات الذهب ٦/١١ .

٤- النّيق: الجبل الطويل.

٥- في ط: الدكانة، والركانة: السكون والوقار.

٦- في ت و ط: لم يُخشَ.

٧- في ط: نبوية.

لوحلّت في هَرِمِ لاهتزّت من الشَّبابِ ذَوائبُه؛ وتواضُعاً أسكنَه مُهَجَ القلوب، وأحلّه منها مَحَلّ الغرض المطلوب. له روايةٌ عاليةٌ متّسعة ببغداد والعراق ومصر، وله رحلةٌ إلى الحجاز حجٌّ فيها. وقد جمعَ أسماءَ شيوخِهِ في«برنامجٍ» له، وهو شيخٌ مفيد مُمتعُ المجالسةِ، كثير(١) التَّواضعِ، مُتفنِّن في العلم، متين الدِّين، قويّ الرّجاءِ في أهله، حَسَن الظّنِ بهم، سُنّي المُعتَقدِ، شافعيّ المذهب، خيرٌ كلُّهُ، نفعهُ اللهُ ونفعَ به، سألته عن معنى نسبته: الغرّافي، فقال لي: غَرّافُ موضع بالعراقِ وكان موضعَنا فَنُسبْنا إليه.

قرأت عليه«ثلاثيّاتِ البُخاريّ»(٢) وكتبتُها من أصلِهِ، وحدّثني بها عن الشَّيخِ الصَّالحِ أبي الحَسن عليّ بنِ أبي بكر بن عبدالله بن رَوْزَبَةَ القَلانسيّ سماعاً لجميع«البُخاريِّ» عليه، عن أبي الوَقت عبدالأوّل بن عيسى بن شُعيب السِّجْزيّ سماعاً عليه عن أبي الحسن بن عبدالرَّحمن بن محمّد بن المُظَفّر الدَّاوديّ البوشَنجْيّ عن أبي[٥٩/أ] محمَّد عبدالله بن أحمد بن حَمَويه السَّرخسيّ عن أبي عبدالله محمَّد بن يوسف بن مَطر الفِرَبْريِّ عن البُخاريّ.

وقرأت عليه أحاديثَ إسماعيلَ بن جعفرَ من جزء أبي صالح محمّد بن أبي الأزْهر المكيّ، عرف بابن زنبور(٣)، وكتبتها من أصله، وسمعت من لفظه حديث عبدالله بن عمرو:«الرَّاحِمونَ يَرحمُهمْ الرَّحْمَنُ»(٤)، وهو أوّلُ حديث

١- في ط: كبير.

٢- والمراد به ما اتصل إلى رسول الله ﷺ من الحديث بثلاثة رواة، وتنحصر الثلاثيات في صحيح البخاري في اثنين وعشرين حديثاً الغالب عن مكي بن إبراهيم وهو ممن حدثه عن التابعين وهم في الطبقة الأولى من شيوخه. انظر كشف الظنون ٥٢٢ .

٣- في ت: زيتون.

٤- هو أول حديث أخرجه الترمذي، رقم ١٩٢٤ في البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين، وأبو داود رقم ٤٩٤١ ، في الأدب، باب في الرحمة. وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

سمعتُه منه بسنده مُسَلْسَلاً، (١وحديثَ القلَمِ واللّوحِ، حدّثني به ويده على كتفي بسنده مسلسلاً١)، وحديثَ الإيمانِ بالقَدَرِ، حدّثني به مُسَلْسَلاً وأخذ بلحيته وقال:«آمنتُ بالقَدَرِ خَيْرِه وشَرِّه، حلوِه ومُرِّه»[٢]. وكتبت هذه الأحاديث من أصلِه وأسانيد الأجزاء مُقَيدةٌ فيها والحمد لله.

وحدّثني رضي الله عنه إملاءً بلفظه من كتابه، قال: أخبرني أبي -رحمه الله - قال: أنا أبو المُظَفّر عبد الرّحيم بن أبي سعد[٣] السّمعانيّ قال: أنا[٤] تاجُ الإسلام السّمعانيّ، قال:أنا أبو نصر واضح بن عبد الله الأَصْبَهانيّ قال: أنا أبو عبد الله محمّد بن عبدالواحد الحافظ، سمعت أبا القاسم الفضل ابن محمد شيرمَردان سمعت أبا بكر محمّد بن محمّد بن سليمان يقول: سمعت أبا العبّاس بن سعيد يقول: سمعت أبا خليفة يقول: كان السّبب في أن لم يسمع القَعْنَبيّ[٥] من شُعْبَة[٦] غير هذا الحديث، أنّه وافى البَصْرَة[٧] نحو شُعْبَةَ ليسمعَ منه، وبكّرَ فصادفَ المجلسَ قد انقضى، وقد انصرف شُعْبَةُ إلى منزله، فحمله الشَّرَهُ على أن سأل عن منزل شُعْبَةَ،فأُرشِدَ إليه،فوجد البابَ مفتوحاً، فدخلَ من غير استئذان،فصادف شُعْبَة جالساً على البالوعةِ يبولُ، فقال:

١-١- سقط من ت.

٢- أورده علاء الدين الهندي في كنز العمال ١/٥٢ و٣/١٦/٢٢.

٣- في ت و ط: سعيد.

٤- أنا تعني: أخبرنا.

٥- القعنبي: عبد الله بن سلمة بن قعنبْ الحارثي: راوية، محدّث، روى عنه البخاري ومسلم وأهل السنن الأربعة توفي سنة ٢٢١هـ. ترجمته في شذرات الذهب ٢/٤٩، غربال الزمان ٢١٠.

٦- شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي: شيخ البصرة، من أئمة رجال الحديث. كان عالماً بالأدب والشعر. له «الغرائب» في الحديث. توفي سنة ١٦٠هـ. ترجمته في غربال الزمان ١٤٩- شذرات الذهب ١/٢٤٧.

٧- البصرة: مدينة بالعراق بنيت في خلافة عمر سنة ١٤هـ. انظر ياقوت ١/٤٣٠- الروض المعطار ١٠٥.

السّلامُ عليكم، رجلٌ غريبٌ قدِمْتُ من بلد بعيد لتحدِّثني بحديث رسول الله ﷺ . فاستعظم شُعْبَةُ ذلك فقال: ياهذا دخلتَ منزلي بغيرِ إذن، وتكلّمني على مثل هذا الحال، تأخّرْ عنّي حتّى أُصلح من شأني، فقال: إنيّ أخشى الفَوتَ، فقال: تخشى الفوتَ بقدر[1] ماأُصلحُ من شأني؟، فأكثر عليه الإلحاحَ، قال: وشُعْبَةُ يخاطبُهُ وذَكَرُه في يده يستبرىء[٥٩/ب] فلمَّا أكثرَ قال: اكتب: حدّثنا[2] منصور بن المعتمر عن رِبْعيّ بن حِراش[3] عن أبي مسعود البَدْريّ رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ «إنّ ممَّا أدركَ النَّاسُ من كلامِ النُّبُوَّةِ الأولى إذا لَمْ تَستَحِ فاصْنَعْ ماشِئْتَ»[4]. ثم قال: والله لاأحدّثُكَ بغيرِهذا الحديث، ولا حَدّثْتُ قوماً تكونُ فيهم.

قُلتُ: وقد جمع الإمام أبو الحسن عليّ بن المُفَضَّل المَقْدسيّ جزءاً صغيراً في هذا الحديث، وذكر فيه أنَّ شُعبةَ عَتَبَ على القَعْنَبيّ أن تركه بالبَصْرَة، ورحل إلى مالك، فلمّا ألحَّ عليه القَعْنَبيّ حدّثه بهذا الحديث وحلَفَ لايحدّثُهُ بغيره، قال: وقيلَ إنّ القَعْنَبيّ حلَفَ عليهِ لَتحدّثني، فحدّثُهُ بهذا الحديثِ ثم حلَفَ لاحدّثتك[5] بغيره. وقرأت هذا بخطِّ ابن المفضّل المذكور وأخبرني به جماعةٌ عن ابن[6] الشُّقر عنه.

١- في ت و ط: بمقدار.

٢- في ط: حديث.

٣- ليست في ط.

٤- أخرجه البخاري في الأدب باب إذا لم تستح فاصنع ما شئت رقم ٦١٢٠- ٥٢٣/١٠ وفي الأدب- باب الحياء رقم ٤٧٩٧ وابن ماجة ١٤٠٠/٢ وابن حنبل ٢٧٣/٥ والبيهقي ١٩٢/١٠.

٥- في ت. ثم قال: لا أحدّثك بغيره.

٦- أبي لبست في ت، وفي ط: أبي الشقر وهو تصحيف.

وأنشدني - حفظه الله تعالى - قال: أنشدنا شيخنا الفقيه أبو عبد الله محمَّد بن سعيد بن الدُّبَيْثي[1] ببغداد ولم يُسَمِّ قائله:[2] [الكامل]

عِلْمُ الحَديثِ فَضيلةٌ تَحصيلُها ... بالسَّعيِ والتَّطوافِ في الأمْصَارِ
فإذَا أرَدْتَ حُصُولَها بِإجازةٍ ... فَقدِ استَعضْتَ الصُّفْرَ بالدِّينارِ

وأنشدني عنه أيضاً قال:أنشدنا أبو العبَّاس أحمد بن منصور الكازَرُوني قال: أنشدنا شيخ الشّيوخ أبو البركات إسماعيل بن أبي سعد النَّيسَابوريّ قال: أنشدنا أبوالقاسم عليّ بن محمّد الكوفيّ، قال: أنشدنا أبو زكرياءَ يحيى بن إبراهيم قال: أنشدني والدي، (3قال: أنشدني3) أبو الحسن عبدالعزيز بن الحسين البغداديّ، أنشدني أبو بكر بن بشَّار لنفسه: [الطويل]

سيعلمُ مَنْ لايَتَّقي اللهَ رَبَّهُ ... إذا برزَتْ يومَ الحِسابِ الفَضَائحُ
ومَنْ لمْ يُقدِّمْ صَالِحاً لمْ يكُنْ لَهُ ... مكانٌ لَعَمْرِي في القِيامَةِ صَالِحُ
فَقُلْ لِخَليعٍ صَائحٍ في نَشاطَةٍ ... تَذكَّرْ إذا صَاحَتْ عَلَيْكَ الصَّوائِحُ[4]
فَكَمْ مَلِكٍ قَدْ باتَ بالمُلْكِ قائِماً ... فأصْبَحَ قدْ قامَتْ عليهِ النَّوائحُ

١- محمد بن سعيد بن الدبيثي: مؤرخ من حفاظ الحديث، من أهل واسط نسبته إلى دبيثا من نواحي واسط، ولد سنة ٥٥٨هـ وتوفي ببغداد سنة ٦٣٧هـ. له ذيل على تاريخ السمعاني الذي جعله ذيلاً لتاريخ بغداد للخطيب في أربعة مجلدات وله تاريخ واسط. ترجمته في وفيات الأعيان ٣٩٤/٤- ٣٩٥- الوافي بالوفيات ١٠٢/٣- غربال الزمان ٥١٥ .

٢- البيتان في ملء العَيْبة: ٥٥/٣- و٣١/٤ب، ودرّة الحجال ٢١٥/٢، والإعلام للمراكشي ١٩٤/٥ دون عزو.

٣-٣-: سقط من ت.

٤- في ت و ط: لخليع صالح.

وأنشدني أيضاً قال: أنشدني الشَّريف علاء الدِّين أبو الحَسَن[٦٠/أ] عليّ بن محمَّد الحُسَينيّ الموسُويّ الطُّوسيّ، المعروف بدفتر خوان العادلي[١] نفسه من قصيدة: [السريع]

لَعلَّها ياصَاحِ أنْ تَنجَلي إذَا بَدَا ضَوءُ الصَّباحِ الجَلي

كُلُّ حُظوظِ النَّاسِ في مُسْتَوى وحَظُّنا يَعْلُو إلى أسْفَلِ

مِنْ أمِّنا نَرْجُو وِدَاداً وَقَدْ طَلَّقَها قُدماً أبُونا عَلي

وأنشدني له أيضاً: [الطويل]

جِنَانٌ إذا لاحَ الصَّباحُ تَنَسَّمَتْ بِطِيبِ شَذاً يُثْنِي عَلَيْهَا بِآلاَءِ[٢]

وَأشْبَهَتِ الأسْحَارَ طِيباً ظِلالُها فَجالَ خَيالُ الغُصْنِ فِي مُقْلَةِ المَاءِ

وأنشدني له[٣] أيضاً مُلغزاً في الطَّير: [الطويل]

وخُرْسٍ إذا ما الشَّمسُ وَلَّتْ فإنْ تَعُدْ فَسَاجِعَةٌ في أيْكِها تَتَرَنَّمُ

وإنْ قَيَّدَ اللَّيلُ البَهيمُ لحُونَها فَلا تَتَعَجَّبْ إنَّما اللَّيلُ أدْهَمُ[٤]

١- علي بن محمد الحسيني الموسوي الطوسي: أديب، شاعر، كان حياً سنة ٦٥٤هـ. له مؤلفات منها ألف جارية وجارية. انظر أعيان الشيعة ٣٠٨/٨ .

٢- في ت : بلالاء، والآلاء: النِّعَمُ.

٣- ليست في ت و ط.

٤- الدُّهمة: السواد.

وأنشدني له أيضاً: [الطويل]

بِعَشْرٍ يُنَالُ العِلْمُ: قُوتٌ وصِحَّةٌ وحِفْظٌ، وفَهْمٌ ثَاقِبٌ في التَّعَلُّمِ
وَدَرْسٌ،وَحِرصٌ، واغْترابٌ،وهِمَّةٌ وشَرْخُ شَبابٍ، واجتهادُ مُعلِّمِ

وأنشدني له أيضاً: [المتقارب]

مَتَى يَجْمَعِ المرْءُ كُلَّ العُلُومِ فَيَدْرِي بِهَا كُلَّ مايَجْهَلُ
وإنْ أنْفَقَ العُمرَ في بَعْضِها فَفِي أيِّ حِينٍ بِهِ يَعْمَلُ

(1)وأنشدني أيضاً قال: أنشدني أبو الحسن عليُّ بنُ موسى بنِ سعيدٍ العَنْسيّ(2) الأنْدَلسيّ المؤرّخ لنفسه(1):(3) [الطويل]

إذَا مَاغُرابُ البَيْنِ صاحَ فقُلْ له برِفْقٍ: رَمَاكَ اللهُ ياطَيْرُ بالبُعْدِ(4)
لأنْتَ عَلَى العُشّاقِ أقْبحُ مَنْظَراً وأكرَهُ في الأبْصَارِ مِنْ ظُلمةِ اللَّحْدِ
تَصيحُ بنَوحٍ ثمَّ تَعْثُر ماشِياً وَتَبْرُزُ فِي ثَوْبٍ منَ الحُزنِ مُسْوَدِّ

(1-1) – في ط: وأنشدني لنفسه. وهذا يعني أن البيتين لتاج الدين الغرافي وهذا غير صحيح.
2- علي بن موسى بن سعيد العَنْسي: ابن سعيد، مؤرخ أندلسي من الشعراء العلماء بالأدب نشأ واشتهر بغرناطة وقام برحلة طويلة إلى المشرق. توفي بتونس سنة ٦٨٥هـ ومولده سنة ٦١٠هـ. له تآليف كثيرة منها: المغرب في حلى المغرب،المرقصات والمطربات،والغصون اليانعة في محاسن شعراء المئة السابعة، والقدح المعلّى. له ترجمة في النفح ٢/٢٦٢- بغية الوعاة ٢/٢٠٩- فوات الوفيات ٣/١٠٣.
3- الأبيات في رايات المبرزين ١٨- ونفح الطيب ٢/٢٦٧- والمستطرف ٢/٣٢٩.
4- في الرايات والنفح والمستطرف: ترفّق.

وأنشدني له أيضاً:[1][٦٠/ب] [المنسرح]

كأنّما النّهرُ صَفْحَةٌ كُتبتْ أَسْطُرُهَا والنَّسيمُ مُنْشِئُهَا

لَمَّا أبانتْ عن حُسنِ مَنظرِهِ مَالَتْ عليهِ الغُصونُ تَقْرؤهَا

وأنشدني أيضاً قال: أنشدني نجيبُ الدِّين أبو [٢]الفتح نصرُ اللّه بنُ أبي[٢] العِزّ الشَّيْبانيّ قال: أنشدنا الشّريف أبو هاشم أحمد بن محمَّد الهاشميّ الحَلَبيّ لنفسهِ بحَلَب: [الكامل]

مَنْ وَدَّ أنّ عَدوَّهُ أعْمى فَلِي وِدٌّ بأنَّ لَهُ عُيوناً أَرْبَعَا

لِيَرى كَمالِي بِاثْنَتَينِ وَنَقْصَهُ بالأُخْرَيَيْنِ فَلا يَزالُ مُروَّعا[٣]

وأنشدني أيضاً قال: أنشدنا الإمامُ أبوسالم محمَّد بن طَلْحةَ النُّصَيْبينيّ[٤] في كتابه إليّ لنفسهِ:[٥] [الكامل]

لا تَرْكَنَنَّ إلى مَقَالِ مُنَجِّمٍ وَكِلِ الأُمورَ إلى الإلهِ وسَلِّمِ

وَاعْلَمْ بأنَّكَ إنْ نَسبْتَ لِكَوكبٍ تَدْبيرَ حَادِثةٍ فلَسْتَ بمُسْلِمِ

١- البيتان في نفح الطيب ٢/٢٧١- المغرب في حلى المغرب ٢/١٠٢ و١٧٣- تعريف الخلف ١/١٥ حسن المحاضرة ٢/٣٩٣- المقتطف من أزاهر الطرف ١٠٨- اختصار القدح المعلّى ٢- رايات المبرزين ١٧٤- مطالع البدور ١/١٢٥- ١٢٦- بغية الوعاة ٢/٢١٠- طراز المجالس ٢١٢- الإعلام للمراكشي ٩/١٥٩.

٢-٢- سقط من ط.

٣- في ط: موزّعاً.

٤- محمد بن طلحة النّصيبيني: من الأدباء الكتّاب. ولد بالعمرية من قرى نصيبين سنة ٥٨٢هـ. وَلِيَ الوزارة بدمشق. ثم تركها وزهد. توفي بحلب ٦٩٢هـ. له: «العقد الفريد للملك السعيد» و«مطالب السّول في مناقب آل الرسول». ترجمته في شذرات الذهب ٥/٢٥٩- غربال الزمان ٥٢٧.

٥- البيتان في ملء العيبة ٣/٥٥، وشذرات الذهب ٥/٢٦٠ دون عزو.

وأنشدني أيضاً، قال: أنشـدني بعضُ المصريّينَ لنفسهِ يصفُ فوّارةً:(١) [السّريع]

فَوّارَةٌ تُشْـبِهُ في لَوْنِها   سبيكَةً مِنْ فِضّةٍ خالِصَهْ(٢)
تُلهيكَ بالحُسْنِ فَقَدْ أصْبحتْ   جَارِيَـةً مُلهِيَةً راقصَـهْ

قال: وأنشدني بعضهم أيضاً لنفسه: [السريع]

يامَادِحاً أَمْراً وَلَمْ يأتِهِ   ولَمْ يَنَلْ منهُ ولاجـرَّبَـهْ(٣)
لاتَغبطِ الكَاتِبَ في عَيْشِهِ   فإنَّهُ المسـكينُ ذو المَتْرَبَهْ(٤)

وله أيضاً في القلم: [مخلّع البسيط]

وفارسٍ بالظَّلامِ سَـارٍ   وَدَمْعُـهُ في سُـرَاهُ جَارِ
تَرَاهُ في السَّيْرِ مُشْمَعِلاًّ   يسـيرُ باللَّيلِ في النَّـهارِ(٥)

وأنشدني أيضاً قال: أنشدني الإمامُ ناصرُ الدِّين أبو العبَّاس أحمدُ بن منصور الإسكندريّ الجُذاميّ من نظمه:(٦)[٦١/أ] [البسيط]

الشِّعْرُ قِسْمان: مَغْسُولٌ ومَغْسُولُ   تَدَاوَلا السَّـمعَ والثَّاني هو السُّولُ
أُرِدُّهُ أَبَداً إلاّ إذَا شَـفَعَتْ   فيهِ المحاسِـنُ عِنْدِي فَهْوَ مَقْبُولُ

١- الشاعر هو وجيه الدين المناوي، والبيتان في حسن المحاضرة ٣٩٧/٢ ومطالع البدور ٣٨/١.
٢- في حسن المحاضرة: فوّارة تحسب من حُسنها.
٣- كذا في سائر النسخ «يامادحاً أمراً» وأظن فيه تصحيفاً عن: يامادحاً مَرْءاً .....إلخ.
٤- في ط: ذو المرتبة. والمتربة: المسكنة والفاقة.
٥- مشمعلاًّ: مسرعاً.
٦- البيتان في ملء العيبة ٥٥/٣.

وأنشدني أيضاً لناصر الدِّين المذكور رحمه الله:[1] [الكامل]

لاتحسَبَنَّ الشِّعرَ فَضْلاً بَارِعاً مَاالشِّعرُ إلاَّ مِحْنَةٌ وخَبَالُ

الَهْجُو قَذْفٌ، والرِّثَاءُ نِيَاحَةٌ والعَتْبُ ضِغْنٌ، والمديحُ سُؤَالُ

وأنشدني له أيضاً يَرْثي الفقيهَ الجليلَ الورعَ الصَّالحَ أبا عمروٍ عُثمانَ ابنَ عُمَرَ بنَ أبي بكرْ بن يُونس المعروف بابنِ الحاجِب -رحمه الله-، وكانت وفاته بالإسكندريّة سنة ستٍّ وأربعينَ وستِّ مئةٍ، ومولده بإسْنا[2] من صَعيدِ مِصْرَ سنة سبعين وخمس مئة، وأمر بكتب هذه الأبيات على قبره:[3]

[الطويل]

ألاَ أيُّها المُختالُ في مُطْرَفِ العُمْرِ هَلُمَّ إلى قَبْرِ الفقيهِ أبي عَمروِ

تَرَ العِلْمَ، والآدابَ، والفضلَ، والتُّقى وَنَيْلَ المنى، والعِزَّ جُمِّعْنَ في قَبْرِ[4]

وَتَدْعُو لَهُ الرَّحْمَنَ دَعوَةَ صَالحٍ تُكافَى بهَا فـي مِثْلِ مَنْزِلِهِ القَفْرِ[5]

١- البيتان في ملء العيبة ٣/٥٥ لابن المنيّر، وهما في رفع الأصر ١٢٠ وشذرات الذهب ٧/١٦ منسوبان للقاضي إسماعيل بن إبراهيم بن محمد بن علي بن موسى البلبيسي المتوفى سنة ٨٠٢هـ، وهذا غير صحيح.

٢- إسنا: بلدة على الضفة الإفريقية للنيل على بعد ٤٩٦ ميلاً من القاهر على طريق النهر. انظر وصف إفريقيا ٢/٢٤٠ .

٣- الأبيات في الديباج المذهب ١٩١- الطالع السعيد ٣٥٦.

٤- في الديباج والطالع السعيد: غُيِّبْنَ في قبر.

٥- في الديباج: دعوة رحمة ـ يكافى. والبيت الثالث غير موجود في الطالع السعيد وهناك بيت آخر هو:

وتوقِنَ أن لا بُدَّ ترجعُ مرّةً إلى صدفِ الأجداثِ مكنونةُ الدُّرِّ

وأخبرني - حفظه الله - عن أبي عبد الله بنِ الدُّبَيثيِّ، أنّ أصْلَ سِلَفَة (1يعني جَدّ السِّلَفي1)، أنَّه كانت إحدى شَفَتيه عريضةً مفروقةً، فكأنّ له ثلاثَ شفاه، فقيل له بالفارسيَّة: سي لبه، أي: ذو ثلاثِ شفاه. ثم عُرِّبَ فقيل: سِلفة، ثم نُسِبَ الحافظ بَعْدَ قدومِهِ إلى مِصْرَ فقيلَ: السِّلَفي. قالَ: ومولدُ الحافظِ السِّلَفي سنةَ ثمان وسبعين وأربع مئة. وتوفي ليلة الجمعة الخامس من ربيع الآخر سنة ستّ وسبعين وخمس مئة.

وقرأتُ عليه بعضَ كتابِ «فتح الوصيد في شَرْحِ القَصيد» للشَّيخ الإمام علم الدّينِ أبي الحَسَن عَليِّ بن محمَّد[2] بن عبدِ الصَّمَدِ السَّخاويِّ، وجميع القصيدِ المشروحِ، وحدّثني بهما جميعاً عن السَّخاويِّ المذكورِ سَماعاً عليه[3] عن ناظِمِه أبي القاسم وأبي محمّد قاسم بن فِيّرة الرُّعَيْنيِّ الشَّاطِبيِّ رضي الله عنه، وأخبرني أنَّ وفاة [٦١/ب] السَّخاوي بدمشقَ في جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين وستِّ مئةٍ[4] ومولِدُه تقديراً سنةَ ثمانٍ أوتسعٍ وخمسين وخمسِ مئةٍ. وسألتُه عن نَسَبِهِ فقال: هو منسوبٌ إلى بَلْدَة سَخا[5] من ريفِ مِصْرَ وأنشَدَني لهُ ممّا يحملهُ عنه[6] إجازةً قال: وهي ممَّا[7] أَمَرَ أن يُكتَبَ في أواخر قصائدهِ النَّبويَّةِ الَّتي نظمها معارضاً للمعلَّقاتِ السَّبْعِ: [الكامل]

١-١- ليس في ط.

٢- ليس في ت و ط.

٣- ليس في ت و ط.

٤- في ط: « ...أن وفاة السخاوي بدمشق في جمادى الأخرة سنة تسع وخمسين وخمس مئة». وهذا خطأ لأن التاريخ السالف هو تاريخ مولد السخاوي.

٥- في ت و ط: سخاوة، وسخاكورة بمصر انظر ياقوت ١٩٦/٣ .

٦- في ت: منه.

٧- في ت: فيما.

العَفْوُ شَأنُكُمْ وعادتُكُمْ		يامَوْرِدَ الإحْسَانِ والفَضْلِ
دُومُوا على كَـرَمٍ يليقُ بكمْ		ودعوا مُجازاتِي عَلَى فِعْلي
أنَا واقفٌ بالبابِ مُعتذِراً		أرجو مقالةَ سَيِّدِ الرُّسُلِ:
مُتَشفِّعٌ بي كانَ يَمْدَحُني		ويُحبُّني فارْعَوْهُ مِنْ أجْلي(١)

وأخبرني أن الخليفة المُسْتنصرَ(٢) آخر ملوك بني العبّاس ببغداد، استدعى منه إجازة، فكتب له هذه القصيدة وهي: [الطويل]

[قصيدة السّخاوي في خلفاء بني العبّاس]

سَلامٌ على مَعْنَى الخِلافَةِ والهُدَى		وحيثُ أقامَ الدِّينُ والفَضْلُ والعِلْمُ
على سَادَةِ الإسلامِ شَرْقاً ومَغْرِباً		قضاءٌ من اللهِ الَّذي حُكمُهُ الحُكمُ
قَضَى لِبَنِي العبَّاسِ أنْ تَعْلو الوَرَى		فَطاعَتُهم فَرْضٌ على خَلْقِه حَتْمُ
بَنِي عَمِّ خَيْرِ العَالَمينَ ومَنْ بهِ		مَناقبُهمْ تَعْلُو، وَجَدُّهُمْ يَسْمُو
٥ - دَعَا فَسَقَى اللهُ الوَرَى بإجَابةٍ		لِيَعلَمَ ماأعْطاهُ مَنْ عِنْدَهُ فَهْمُ(٣)
ولايَرزقُ الإيمَانَ مَنْ لا يُحِبُّهُ		كذا جاءَنا، والمُصْطَفَى قَوْلُه جَزْمُ
وَقُلْ قَدْ أذانِي مَنْ أذاهُ وإنَّما		أبُو المَرْءِ في القُرْبى يُمَاثِلُهُ العَمُّ(٤)

١- البيت ساقط من ط.

٢- المستنصر: هو عبد الله بن الظاهر بن الناصر توفي سنة ٦٣٩هـ.

٣- في ط: من عندهم.

٤- في ت و ط: وقال قد.

وأُعطِيَ في النَّسلِ الشَّريفِ خُلافَةَ النْـ ـنُبُوَّة إنْ قَرْمٌ مَضَى حَازَها قَرْمُ(١)

فـهُمْ كَنُجـومِ الأَخْذِ إنْ مَالَ غارِباً لُدَّته إكْليـلُـهَا طَـلَعَ النَّجْـمُ(٢)

أنَارَ بِهـا الـسَّـفَّاحُ كُلَّ دِجـنَّةٍ وَقَامَ بهَا المنصورُ فابيضَّتِ الدُّهْمُ(٣)

فَمَـهديُّهمْ فالـهَاد ثمَّ الرَّشيـدُ فالـ أَمينُ فَـمَـأمـونٌ لَهُ الـعَفْوُ والحِلْمُ

ومُعْتَصِـمٌ مَعْ وَاثِـقٌ مُتَـوكِّلٌ وَمُنْتَصِرٌ والمُسْتَعِينُ الـذُّرَى الـشُّمُّ

[٦٢/أ] ومُعْتَـزُّهُـمْ والمُهْتَدي ثُمَّ بَعْدَهُ بِمُعْتَضِدٍ تَسْطُو وَمُعْتَمِدٌ تَسْمُو(٤)

وبالمُكْتَفِـي يَتْلوهُ مُـقْـتَـدِرٌ كَما إلى القَاهِرِ الرَّاضِي كَذا العَدُّ يَنْضمُّ

كـذلِكَ مُسْتَكْفٍ أَتَى بَعْـدَ مُتَّقٍ وبَعْدَ مُطيعٍ طَائعٌ للعِدَا الرَّغمُ(٥)

وقَادِرُهَا مَـعْ قَـائـمٍ ثـمَّ مُقْتَدٍ ومُسْتَظْهِرٍ يَتلوهُ مُسْتَرْشِدٌ شَهْمُ

وراشِـدُهُمْ والمُقْتَفِـي ثُمَّ أَنْجَدَتْ بمُسْـتَنجِدٍ والمُسْتَضِـيءِ وَقَدْ تَمُّوا

بنـاصِرِهِمْ والظَّاهِـرِ العَفِّ وابنِه فـعمَّ الـبَرايا عَدْلُهُ وانْتَفَى الـظُّلْمُ

إمامُ الوَرَى المُسْتَنْصِرُ، الأيدُ الَّذي بِنُصْـرَةِ ديـنِ اللهِ يُعْنَـى ويَهْتَمُّ

فَمِنْ يَدِهِ نَارٌ تَجِـيشُ لَدَى الـوَغى وأَيْـديهِ جنَّاتٌ تَجِـيءُ بِهَا السِّلْمُ

ومِـنْـهُ لإِدْواءِ الـعُـفَـاةِ دَواؤُها ومنْهُ لِمُرَّادِ العُتَـاةِ الدُّنَى السُّمُّ(٦)

١- رواية الشطر الثاني في ت: إن قوم مضوا حازها قوم.

٢- في ت: نجوم الأفق، ونجوم الأَخْذ: منازل القمر، ويقال: هي نجوم الأنوار.

٣- يعدّد الشاعر خلفاء بني العباس بدءاً من السّفاح وحتى المستنصر، انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٥٦-٤٦٤ .

٤- أورد الشاعر في قصيدته المعتضد قبل المعتمد، مع أن المعتمد ولي الخلافة قبل المعتضد.

٥- في ط: طالع وهو تصحيف.

٦- العفاة جمع العافي وهو الضيف ـ والعتاة جمع عاتي وهو الجبار المتمرّد.

وكـــمْ فَضٍّ مِنْ خُتَمٍ عن المالِ بَاذِلاً ... وكَمْ في الدَّياجِي حِيْنَ يَتْلو لَهُ ختمُ
أجَزْتُ لـــهُ - دَامَتْ قَواعِدُ مَجْدِهِ ... مُشَــيَّدَةً لانَقْضَ يُخْشَى ولا هَدْمُ-
جَـمــيـعَ الَّذي أَلَّفْتُه وَنَقَلْـتُهُ ... وَمَا قُلْتُهُ مِمَّا تَضَمَّنَهُ نَظْمُ
ولِلسَّـيِّدَيْنِ المَاجِدَينِ تَسَـامَيا ... ولازالَ فـي كَسْبِ العُلا لَهُمَا الغُنْمُ
لَهُمْ ذاكَ إِنْ شَـاؤوهُ والرَّأيُ رأيُـهمْ ... وَلِي شَرَفٌ فيهِ إِذَا مَاهُمُ هَمُّوا

وأنشدني له أيضاً قصيدته الّتي سمّاها«ذات الشِّفافي في مدح المصطفى» ﷺ ، وحدَّثني بها عنه سماعاً وهي هذه:[1] [الكامل]

[القصيدة النّبويّة للسّخاوي]

قِـفْ بالمَديـنَـةِ زَائِـراً ومُسَــلِّماً ... وَاشْكُرْ صَنيعَ الدَّمْعِ فيها أنْ هَمَى[2]
فَهِيَ المَنَازِلُ لَمْ تَزَلْ تَشْـتَاقُــهَا ... أبَداً وَكُنْـتَ بِـهَا المُعَنَّى المُغـرَمَا[3]
أَلْصِــقْ بِتُرْبَتِهَا الـفُؤادَ فَكَمْ شَفَتْ ... دَاءً دَفيـنـاً قَدْ أذَابَ المُسْــقَمَا[4]
عَجَبـاً لِصَـبٍّ عَايَنَـتْـهَا عَيْنُهُ ... فَوَعى الجَوابَ أَواسْتَطاعَ تَكَلُّما[5]
هَــذا هُو الحَرَمُ الشَّريفُ فَقِفْ بِهِ ... وَاقْرَ الـسَّلاَمَ عَلَى الرَّسُولِ مُتَمِّمَا

١- الأبيات ١-٢-٢-٣-٤-٥-٨-٩-١٠-١١-١٢-١٤-في مرآة الزمان ٨/٥٠٣.
٢- همى الدمع: سال.
٣- المُعنىّ: المتعب.
٤- في مرآة الزمان: والزق، وأسقما، والمسقم: المريض.
٥- في مرآة الزمان: فوعى الحوادث واستطاع تكلّما.

وَقلِ السَّلَامُ عَلَيْكَ يَامَنْ أَنْقَذَ الضْـ   ـضُلَّالَ مِنْ ظُلَمِ الجَهَالَةِ والْـعَمَى
يَاسَـيِّدَ الـهَادِيـنَ يَاخَيْرَ الـوَرَى   حَسَـبـاً وَأَوْسَـعَهُمْ نَدًى وَتَكَـرُّمَا
[٦٢/ب] يَاخَاتَمَ الرُّسُـلِ الكِرَامِ ومَنْ لَهُ الْـ   آيَاتُ تَحْكِي فِي السَّمَـاءِ الأَنْجُمَا
وَلَـهُ انْشِقَـاقُ الـبَدْرِ وَالجِذْعُ الَّذي   أَبْدَى حَنينـاً، والجَـمَادُ تَكلَّمَا(١)
وَالمـاءُ يَنْبُعُ فـي الإِنَاءِ ومَنْ دَعَـا   زُمَراً إلى النَّزْرِ اليَسِيرِ فَأَطْعَمَا(٢)
ودَعَـا بِأشْـجَارِ الفَـلَاةِ فَأَقْبَلَتْ   وَغَدا عَلَى الحَجَرِ الأَصَمِّ فَسلَّمَا(٣)
وَعَلاَ عَلَى مَتْنِ الـبُرَاقِ مُشَـرَّفَاً   وَسَرَا إلى أَعْلَى السَّمَـاءِ مُعَظَّمَا(٤)
يَاصَاحِبَ الوَجْهِ الـبَهِيِّ كَأنَّمـا الْـ   ـقَمَرُ المُنيرُ إليْهِ في النُّـورِ انْتَمى
يَاصَاحِبَ الخُلُقِ الرَّضِيِّ فَمـا يُرى   إلاَّ رَحِيـماً مُغْضِـياً أو مُنعِـمَا
يَاصَاحِبَ القَدِّ الرَّشِيقِ فإنْ مَشَى   بَـينَ الرِّجالِ عَلاَ عَلَى مَنْ قَدْ سَمَا
يَامطلعَ الإِيمـانِ نُـوراً مُشْـرِقـاً   يَمْحـو مِنَ الكُفْـرَانِ لَيْلاً مُظْلِما
صَـلَّى عَلَيْكَ اللهُ مَاانْهَلَّ الحَيَا   فَكَسَا الرِّيَاضَ مُفَوَّفاً ومُنَمْنَمَا(٥)
وَعَلَيكَ مِنْ رَبِّي السَّلَامُ مُضَاعَفاً   مَارَدَّدَتْ وُرْقُ الحَمَـامِ تَـرَنُّـمَا
وَأَتَتْ إِلَـيْكَ الـيَعْمَلَاتُ مَشُـوقَـةً   تَطْوِي المَهامِهَ وَالـقِفَارَ عَلَى الظَّمَا(٦)
وَعَلَـى أَبي بَكْـرٍ خَلِيفَتِكَ الَّذِي   لِلْحَـقِّ قَامَ مُثَـقِّفـاً وَمُقَـوِّمَا(٧)

١- يعدّد الشاعر بعض معجزات النبي ﷺ.
٢- في مرآة الزمان: إلى الزاد اليسير.
٣- في مرآة الزمان: وأتى على حجر أصمّ فسلّما.
٤- في ط: وسما.
٥- في مرآة الزمان: مقوّياً ومقيماً، والمُفَوَّف: المزركش، والمنمنم: المرقوم الموشى.
٦- اليَعْمَلاتُ: جمع اليَعْمَلَة: وهي الناقة السريعة.
٧- التثقيف: تقويم الاعوجاج، والتقويم: التعديل.

وَغَـدا بِأعْبَاءِ الخِـلافَةِ نَاهِضَـاً　　لاَعَـاجِـزاً فِيـهـا وَلاَ مُتَلَـوِّمَا
وَعَلَى سَـبِيـلِ اللهِ أنْفَـقَ مَالَـهُ　　حَتَّـى تخلَّـلَ بالعَـبَـاءةِ مُـعْـدِمَا(١)
سَـمَّاهُ بالصِّـدِّيق صِدْقُ يَقينِه　　سَبَقَ الرِّجَالَ إلى النَّجـاةِ فَأسْلَمَا
وَغَدا بَديـلَ المُصْطَفَى مُتَمَسِّكاً　　وَعَلَى أوَامِـرِه يَـشُـدُّ مُصـمِّمَا
وَأنيسُهُ فـي الـغَارِ حَيْثُ يَقُولُ:لاَ　　تَحْـزَنْ فَإنَّ اللَّهَ أَمْنَعُ مَنْ حَمَى(٢)
وَضَجِيعُهُ فـي قَـبْرِهِ وَرَفِيقُـهُ　　يَوْمَ الـقِيـامَةِ فِي الجِنَانِ مُنَعَّمـا
وَعَلَـى أمِيـرِ المُؤمِنينَ مُنَكِّسُ الْـ　　أصْنَامِ حِينَ غَدا عَلَيْهَـا مُسلِّمَا(٣)
عُـمَـرُ الَّذي للدِّينِ كانَ مُـؤيِّـداً　　وَلِـمَـنْ يُعَانِـدُهُ مُذِلاً، مُـرْغِـمَا
فِـي الحَقِّ فَـظٌّ لَيِّنٌ مُـتَـعـاظِـمٌ　　يَـجْـفُـو القَوِيّ لَهُ ويُدْني الأيِّمـا(٤)
سَلِسُ القِيادِ لِمَايَرى فيهِ رِضا الرَّ　　رَحْمَنِ، صَعْبٌ حِينَ يَخْشَى المَأْثَما(٥) [٦٣/أ]
فَتَحَ الـفُتُوحَ وشَـادَ للدِّينِ العُـلاَ　　وَغَـدا بِهِ رَبْعُ الضَّلاَلِ مُـهَـدَّمَـا(٦)
وَعَلى ابنِ عَفَّانَ الَّذي اسْتَحْيَتْ لأجْـ　　ـلِ وَقَارِهِ مِنْهُ مَلائِكَةُ السَّـمَـا(٧)
القَانِتِ، العَفِّ الصَّبُورِ أحَاطَتِ الْـ　　ـبَلْوَى فَأذْعَنَ لِلْقَضَاءِ مُسَـلِّمَا(٨)

١- العُدم: الفقر.

٢- في ت: أكرم من حمى، واستفادَ من قوله تعالى في سورة التوبة ٤٠ :

﴿ إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾

٣- منكس الأصنام: هو عمر بن الخطاب.

٤- في ط: فضٌ - والأيِّم: التي لا زوج لها.

٥- في ت و ط : لمن يرى - يخشى المأثما.

٦- في ط: رفع الضلال.

٧- منه ليست في ت و ط ، ودونها لا يستقيم الوزن.

٨- في ط: العفو، وقَنَتَ: أطاع.

عُثْمانَ ذِي النُّورَيْنِ صِهْرِ المُصْطَفَى ... زَوْجِ ابـنَتَيْـهِ غَدا بِذَاكَ مُكَرَّمَا
الجَامِعِ القُـرآنَ والحَـبْـرِ الَّذِي ... فِـي كَفِّهِ نَطَـقَ الجَمـادُ فَافْهَمَا
جَعَلَ الـنَّبِـيُّ المُصْطَفَى يَدَهُ لَهُ ... عَنْ كَفِّهِ بَدَلاً إِلَى أَنْ يَقْدُمَا[1]
وَعَلِيُّ أبي الحَسَنِ الإمامِ المُرْتَضَى ... ذِي الفَخْرِ والنَّسَبِ الكَرِيمِ المُنْتَمَى
زَوْجِ البَتُولِ، أَخِي الرَّسُولِ، فَتَى الوَغَى ... مَافَـرَّ قَـطُّ ولاَ تأخَـرَّ مُحْـجِمَا[2]
حَقّاً وقَالَ المُصْطَـفَى: مَنْ كُنْتُ مَوْ ... لاَهُ فَمَـوْلاَهُ عَلِـيٌّ مُعْـلِـمَا[3]
يـارَبِّ وَالِ وَلِيَّـهُ ونَصِـيـرَهُ ... أَبَـداً وعَـادِ عَـدُوَّه أنَّـى ارْتَـمَى
مَنْ كانَ في الأحْكَامِ أَقْضَاهُم وبالْـ ... ـعِلْمِ المَصُونِ عَنِ الـبَرِيَةِ أَعْلَمَا[4]
وَبَنُوهُ والصَّحبُ الكِرامُ جَمِيـعُهُمْ ... والتَّابِعونَ لِمَنْ خَـلاَ وتَـقَـدَّما
وَعَلَى ابْنَةِ الـصِّدِّيـقِ عَائِشَةَ الَّتِـي ... فِـي شَأْنِهـا نَزَلَ الـكِتَابُ مُعَظِّمَا
وَجَمِـيـعِ أَزْواجِ النَّبِـيِّ وَآلِهِ ... صَـلَّى عَلَيْهِمْ رَبُّنَا وتَرَحَّمـا
يَاسَـيِّدَ الأبْرارِ جِئْتُكَ أشْـتَكِي ... أَلَمـاً أَلَمَّ وَحَادِثاً قَـدْ أَظْلَمَا
رانَتْ علَى قَلْبِي الذُّنُوبُ فَلَمْ يَعِ الذِّ ... كْرَى وَقَدْ بَلَغَ الزُّبا سَـيْلٌ طَمَا[5]
وَبِذَا الجَنَابِ أَعُوذُ يَاخَيْرَ الـوَرَى ... إِذْ زُرْتُهُ مِنْ أَنْ أَزُورَ جَهَـنَّـمَا
وَلَقَدْ وَقَفْتُ بِسَاحَةِ المَوْلَـى الَّذِي ... وَسِـعَ الأَنَامَ نَدًى وَجَادَ فَعَمَّمَا[6]

١- في ط: عن فكّه. وهو تصحيف.
٢- أحجم عن الأمر: نكص وجَبُن.
٣- في ط: وبجم، وموضع هذا البيت بياض في ت.
٤- في ت: من البرية.
٥- هذا البيت والأبيات الثلاثة التي تليه ساقطة من ط. رانَ الذنب على القلب: غلب. والمثل بلغ السيل الزبا في مجمع الأمثال للميداني ٩١/١.
٦- في ط: وجاء فعمّما، وفي ت: معمّما. وعمّ: شمل.

يَاسَـيِّدي والـوَفْـدُ مُنقـلِـبٌ غَـداً ... بِمَ يَرْجِعُ المِسْكـينُ مُنْقَلِبـاً بِمَ؟[1]

إنّـي أتيتُكَ تَـائِـباً مُـتَـنـصِّــلاً ... مُسْـتَـغْـفِـراً مِنْ زَلّتي مُتَنَدِّما

يَاذَا الجَلالِ ارْحَمْ بِحَقِّ المُصْطَفَى الْـ ... ـعَبْدَ الْفَقِـيـرَ المُسْتَجِـيـرَالمُجْرِمَا

وَامْنُنْ عَلَيْهِ بِـــتَوْبَةٍ تَمْحُو بِهَا ... مَاكَانَ مِنْهُ وَمَا جَنَاهُ وَقَدَّمَا

وَاغْفِرْ لِمُنْـشِـــدِهَا عَلِيٍّ ذَنْبَهُ ... وَاغْفِرْ لِمُنشِئِـهَا عَلـيٍّ وارْحَـمَا [٦٣/ب]

فَبِمَدْحِ أحْمَدَ يَرْتَجُـونَ شَفَاعَةً ... ذَا مُنْشِداً فَرَحَـاً، وذَاكَ مُنَظِّمَا[2]

وَاغْفِرْ لِمُستَمِعٍ دَعَا لَهُمَا فَمَا ... أَجْدَى دُعَاءَ المُؤْمِـنـِينَ وَأَكْرَمَا

وأنشدني لبعضهم ولم يُسَمِّهِ: [الكامل]

اقْرَأْ - هُدِيــتَ - كِتَابَ رَبِّكَ تَهْتَدِ ... فَالحقُّ فـيهِ وَفِي حَدِيثِ مُحـمَّدِ

حَازَا عُلُومـاً جَمّةً فَالـزَمْـهُـمـا ... وَاقْنَعْ بِحِفْظِهِمَا حَيـاتَكَ تَرْشُدِ

اللّهُ يَعْلَمُ أنَّـنـي لَكَ نَـاصِـحٌ ... فَاقْبَـلْ مَقَـالَـةَ ناصِـحٍ مُتَـودِّدِ

وأنشدني أيضاً في معناه لبعضهم: [البسيط]

مَاالعِلْمُ إلاّ كتابُ اللهِ أوْ أثَرٌ ... تَجْلو بِنُورِ هُدَاهُ كُلَّ مُلْتَبِسِ[3]

نُـورٌ لِمُـقْـتَـبِـسٍ، خَيْرٌ لِمُلْـتَبِـسٍ ... حِمًى لِمُحْـتَـرِسٍ، نُعمى لِمبـتئِسِ

فَاعْكفْ بِبَابِهِـمـا على طِـلابِهِما ... تَحـوِ الـغِنـى بِهـمَا عَنْ كُلِّ مُلْتَمِسِ

١- في ت: ياسيّداً، وفي ط: والوفد منقلت.

٢- في ت و ط : يرجو ان.

٣- في ط: تخلق بنور.

وَرِدْ بِقَلْبِكَ عَذْباً مِنْ حِيَاضِهِمَا تَغْسِلْ بِمَاءِ الهُدَى مَافِيهِ مِنْ دَنَسِ[1]
وَاقْفُ النَّبِيَّ وَأَتْبَاعَ النَّبِيِّ وكُنْ مِنْ هَدْيِهِمْ أَبَداً تَرْنُو إِلَى قَبَسِ[2]
وَاقْصِدْ مُجَالِسَهِمْ وَاحْفَظْ مَجَالِسَهُمْ وَانْدُبْ مَدَارِسَهُمْ بِالأَرْبُعِ الدُّرُسِ
وَاسْلُكْ طَرِيقَهُم، وَاصْحَبْ فَرِيقَهُمُ تَكُنْ رَفِيقَهُمُ فِي حَضْرَةِ القُدُسِ
تِلْكَ السَّعَادَةُ إِنْ تُلْمِمِ بِسَاحَتِهَا فحُطَّ رَحْلَكَ قَدْ عُوفِيتَ مِنْ تَعَسِ

وأنشدني أيضاً قال: أنشدني بعض أشياخي ولم يُسمّه: [البسيط]

سَوادُ شَعْرِكَ مَلْبوسٌ تَدُلُّ بِهِ أَنَّ السَّوادَ يُغَطّي كُلَّ مُلْتَبِسِ
فَوقِّرِ الشَّيْبَ عَنْ عَيْبٍ يُدَنِّسُهُ إِنَّ البَياضَ قَليلُ الحَمْلِ للدَّنَسِ[3]

وأنشدني أيضاً قال: أنشدنا[4] الإمام المؤرِّخ أبو الحَسن محمَّد بن القَطيعيّ ببغداد، قال: أنشدنا فارس المنبر أبو الفرج عبدالرَّحمن بن الجوزيّ قال: أنشدنا محمَّد بن عبدالباقي الأنصاريّ:[5] [الخفيف]

١- في ت و ط: مافيك من دنس.
٢- في ط: ترقى إلى قبس. اقفُ: اتبع.
٣- ينظر إلى بيت الشافعي في ديوانه ١٠٨:
احفظ لشيبك من عيب يُدَنِّسُهُ إن البياض قليل الحمل للدنس
٤- في ت و ط: أنشدني.
٥- البيتان منسوبان في وفيات الأعيان ٤/٤٥١. والوافي بالوفيات ٤/١٤٣ ومعجم الأدباء ١٨/٢٥٩- ومرآة الزمان ٨/١٠. للشاعر محمد بن علي بن الحسن بن أبي الصقر، وهو فقيه شافعي توفي سنة ٤٩٨هـ. له ترجمة في طبقات الشافعية للإسنوي ٢/٤٠ إضافة إلى المصادر السابقة.

عِلَّةٌ سُمِّيتْ ثَمانينَ عَامًا   مَنَعَتْني لِلأَصْدِقَاءِ القِيَامَا
فإذا عُمِّروا تَمهَّدَ عُذْرِي   عِندَهمْ في الَّذِي ذَكَرْتُ وَقَامَا[1] [٦٤/أ]

قال: وأنشدنا ابن القَطيعيّ أيضاً، قال: أنشدنا عمر[2] بن عليّ الدِّمَشْقيّ في كتابه، قال: أنشدنا أبو حامد[3] محمَّد بن عبدالرَّحيم الأندلسيّ لنفسه: [الرمل]

تَكْتُبُ العِلْمَ وتُلقي في سَفَط   ثُمَّ لاَ تَحْفَظُ، لاتُفْلِحُ قَطّ
إنَّما يُفْلِحُ مَنْ يحفظُ مِنْ   بَعْدِ فَهْمٍ وتَوَقٍّ مِن غَلَطْ

قلت: لم يُسْمع في[4] كلامِ العَربِ إدخالَ قطّ على الفعل المضارع، وإنّما يدخلونه على الفعل الماضي، فيقولون[5]: لم أفعل هذا قطّ. وذلك أن «لم» تُصيِّرُ الفعل في المعنى ماضياً، ولايقولون: لاأفعله قطّ، لأن «قطّ» مشتقّة من قَطَّ يَقطُّ، أي: يقطع، فمعناه: لم أفعلْهُ في كلّ مامضى من الزّمانِ وانقطعَ، وهذا اللّفظُ تغلَط فيه الخاصّةُ والعامّةُ من أهل المشرقِ،وقد رأيتُ إنكارَه لبعضهم وأظنّه أبا محمّد الحَريريّ في كتابه «درّة الغوّاص»[6] وذكر في معناه ماذكرته سواء،والله الموفق.

١- في بقية المصادر: بالذي.
٢- في ط: عمرو.
٣- ليست في ط.
٤- في ت: من.
٥- في ط: فيقول.
٦- هو كما ظن المؤلف، والكلام على «قط» في درة الغواص ١٣-١٤ .

وأنشدني أيضاً قال: أنشدنا أبو القاسم عبدُالرَّحمن بنُ عبدالمجيد الصَّفراويّ في كتابه، قال: أنشدنا أبو الفداء الموصليّ في مَجلسِ وَعْظِه:[1]

[الخفيف]

كُلُّ أَمْرٍ إذا تَفكَّرْتَ فيهِ ... وتأمَّلْتَهُ رأيتَ طَريفَا[2]

كُنتُ أَمْشي عَلى اثْنَتَينِ قَوِيّاً ... صِرْتُ أَمْشي عَلى ثَلاثٍ ضَعيفا

وأنشدني أيضاً قال: أنشدني بعض المغاربة ولم يُسمِّه:[3] [مخلع البسيط]

خَانَتْ عُهُودِي يَدِي وَرِجْلِي ... فَلَيْسَ خَطْوٌ ولَيْسَ خَطُّ

كَلٌّ على كُلِّ مَنْ يَراني ... أَشَالُ كالثِّقْلِ أَوْ أُحَطُّ[4]

وأنشدني أيضاً قال: أنشدنا الشَّيخُ الأديبُ الفقيهُ أبو عمرو بن الحاجِبِ لنفسه:[5] [الخفيف]

إنْ تَغيبُوا عَنِ العُيونِ فَأَنْتُمْ ... في قُلُوبٍ حُضورُكُمْ مُسْتَمِرُّ[6]

مِثْلَما تَثْبُتُ الحَقَائِقُ في الذِّهْـ ... ـنِ وَفِي خَارِجٍ لَها مُسْتَقَرُّ[7] [٦٤/ب]

١- البيتان لمحمد بن علي بن الحسن الواسطي المعروف بابن أبي الصقر قالهما عندما طعن في السِّنّ وكبر. وهما في طبقات الشافعية للإسنوي ٢/١٤١- وطبقات السبكي ٤/١٩٢ ووفيات الأعيان ٤/٤٥٠- والوافي ٤/١٤٣- ومعجم الأدباء ١٨/٢٥٨.

٢- في وفيات الأعيان والوافي: كل أمري، وفي طبقات السبكي كل مرءٍ، وفي المصادر السابقة: رأيت ظريفا.

٣- البيتان في ألف باء للبلوي ٢/٤٣٠ دون عزو.

٤- في ألف باء: من يليني. والكَلُّ: الذي يعتمد على غيره في المشي.

٥- البيتان في البلغة ١٤٠ والطالع السعيد ٣٥٦.

٦- في البلغة: في فؤادي.

٧- في البلغة: مثلما قامت - وفي الخارج.

وأنشدني للبُحتريّ:(١) [الطويل]

ظَعَنْتَ فَلَمْ أُصْبِحْ لِظَعْنِكَ نَادِماً رَضِيتُ بِأَنْ تَنْأَى وتَرْجِعَ سَالِمَا

وَمَاذَاكَ إلاَّ لاعْتِنَاقِكَ ظاعِنَاً وَأُخْرَى انْتِظاراً لاعْتِنَاقِكَ قادِمَا

رَضِيتُ بِتَسْلِيمٍ وغَيْبَةِ أَشْهُرٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لي فِي مَقامِكَ رَاحِما(٢)

ولمّا عزمْتُ على السَّفرِ، قالَ لي: أتعلم(٣) أنيّ بِتُّ البارحةَ مهموماً؟ قلت: لماذا؟ قال: لأجلِ فِرَاقِكَ. وقيّد اسمي ونَسبي في برنامَجِ شيوخِهِ، وقيّد عني أبياتاً من شِعري وكتب بخطّهِ جميعَ القصيدةِ الّتي كتبتُ بها إلى ولدي محمّدٍ - وفّقه الله - من القَيْروان، وبالغ في استحسانِها، وسَمِعَ مني القصيدَ الحجازيَّ الّذي قلتُه في طريقِ الحجِّ.

ولمّا ودّعني في مُنْصَرَفِي إلى الحجازِ أخذ بيدي وقال لي: استودعُ اللّه دينَكَ، وأمانتَكَ، وخواتمَ عملِكَ ثلاثَ مرّاتٍ. ثم قال لي: رُدَّ عليَّ مثلَها ففعلتُ، وأنشدني مودّعاً باكياً في انصرافي عنه إلى الغرب:(٤) [الوافر]

أُوَدِّعُكُمْ وأُودِعُكُمْ جِنَانِي وَأَنْثُرُ عَبْرَتِي نَثْرَ الجُمانِ(٥)

وَقَلْبِي لاَيُرِيدُ لَكُمْ فِرَاقاً وَلَكِنْ هكَذا فِعْلُ الزَّمانِ(٦)

١- عبارة وأنشدني البحتري ساقطة من ط، والأبيات لم أقف عليها في المطبوع من ديوان البحتري.
٢- في ط: رغبة أشهراً. وهو تصحيف واضح.
٣- ليست في ط.
٤- البيتان لابن دقيق العيد في ديوانه ١٨٥، وهما في النجوم الزاهرة ٥/٢٢٨ والوافي بالوفيات ٥/١١٢ منسوبان لمحمد بن نصر بن منصور بن سعد القاضي المتوفى سنة ٥١٨هـ.
٥- في الديوان أودعكم حياتي، وانثر دمعتي.
٦- في الديوان و ت و ط : ولكن هكذا حكم الزمان.

ولقيتُ بالإسكندريَّةِ أشخاصاً عرّفني بهم سيدي الشّريفُ المذكورُ، وذكر أنّ لهم إسناداً، واستجازَهم لي فأجازوني، وكتبوا لي خطَّهُمْ بذلك، ولم أسمعْ منهم شيئاً لانحفازي للسّفر، وإجازتُهم كلُّها عامّة، وكان الشّيخ أبو الحَسَنْ المذكورُ هو الّذي دارَ بي عليهم، وقيّد لي بعض مسموعاتِهِم، شكر الله اهتبالَهُ[1]، وأنعمَ بالَهُ بمنِّه وكرَمِه.

[لقاؤه لمحيي الدِّين المازونيّ]

وممّن لقيت بها الشّيخُ الأديبُ المُسنُّ أستاذُ العربيَّة في وقته أبوعبد الله محمّد بن عبد الله بن عبدالعزيز الزّنّاتي، ويُعَرفُ بمحيي الدِّينِ المازونيّ فأنشدني لنفسه[2] [الطويل]

ومُعْتَقِدٍ أنَّ الرِّياسَةَ في الكِبْرِ ... فَأصْبَحَ مَمْقُوتاً بهِ وهْوَ لاَ يَدْرِي [٦٥/أ]

يَجُرُّ ذُيُولَ العُجْبِ طَالِبُ رِفْعَةٍ ... ألاَ فَاعْجَبُوا مِنْ طَالِبِ الرَّفْعِ بالجَرِّ[3]

وأنشدني أيضاً لنفسه:[4] [الطويل]

عَتَبْتُ عَلَى الدُّنْيَا لِتَقْدِيمِ ناقِصٍ ... وَتَأْخيرِ ذِي فَضْلٍ، فقالتْ: خذِ العُذْرَا[5]

بَنُو النَّقْصِ أبْنَائي، وَكُلُّ فَضِيلَةٍ ... فَأَرْبَابُها أبْنَاءُ ضَرَّتِيَ الأُخْرَى[6]

١- الاهتبال: العناية والتوفر وفرط الاهتمام وهي من ألفاظ المغاربة والأندلسيين.

٢- البيتان في البلغة ٢٣١- فوات الوفيات ٣/ ٤١٠- الوافي بالوفيات ٣/٣٦٥- بغية الوعاة ١/١٣٨- غرر الخصائص الواضحة ٦٨.

٣- في ت: ذيول العز، وفي الوافي والفوات: ذيول الكبر ـ وفي الغُرَر: ذيول الفخر.

٤- البيتان في: الديباج المذهب ٦٧ ونيل الابتهاج على هامش الديباج ٢٣٥.

٥- في ط و ت والديباج والنيل لتقديم جاهل، وفي الديباج: وتأخير ذي علم.

٦- نيل الابتهاج والديباج: ذوو الجهل.

وأنشدني لنفسه أيضاً: [البسيط]

مَالِي أُذَكِّرُ بِالأَوْرَاقِ فِي نَسَقِ فَمَا انْتَفَعْتُ بِتَذْكِيرِي وَلاَ مَلَقِي[1]
وَصِرْتُ من سُوءِ حِفْظِي إذْ أذَكِّرُكُمْ كَأَنَّني أَبْعَثُ النِّسْيَانَ في الوَرَقِ[2]

وأيضاً:[3] [الطويل]

إِذَا مااللَّيَالي جَاوَرَتْكَ بِسَاقِطٍ وَقَدْرُكَ مَرْفُوعٌ فَعَنْهُ تَرَحَّلِ[4]
أَلَمْ تَرَ مَالاَقَاهُ في جَنْبِ جَارِهِ «كَبيرُ أناسٍ في بِجادٍ مُزَمَّلِ»[5]

يعني الخَفْضَ على الجوار، [6]وهذا المعنى الّذي ابتكره[6] حَسَنٌ جداً. وقد سألته: هل رآه لغيره؟ فقال لي: لم أرَهُ لأحَدٍ.

وأنشدني لنفسه أيضاً:[7] [الخفيف]

قُلْ لأهْلِ الزَّمَانِ حَاشَاكَ مِمَّا أَصْبَحوا فيهِ مِنْ مَساوٍ سَواءَ
مَاعلى شاعرٍ هَجاكُمْ مَلاَمٌ هَلْ رآكمْ أحسنتمُ فأساءَ؟
كانَ مَنْ قَدْ مضى يُعلِّمُنَا المَدْ حَ وَأَنْتُمْ تُعَلِّمونَا الهِجَاءَ

١- الملَق: التودّد والتلطّف.
٢- في ت و ط: سوء خطّي.
٣- البيتان في البلغة ٢٣١، وفي النفح ١٩٠/٥ دون نسبة.
٤- في ت والبلغة: جاورتك بناقص.
٥- في البلغة: كثير التأسي في بجاد مُزّمل. والبِجادُ: كساءٌ مخطط من أكسية العرب. وقد ضمن الشاعر شطر بيت امرئ القيس وصدره: «كأن أبانا في أفانين ودقِهِ» وهو من معلقته.
(٦-٦) - في ت و ط: وهذا معنى ابتكره.
٧- سلفت الأبيات في الصفحة ٣٢ من الرحلة.

وأيضاً:[1] [الكامل]

أمُعَلّمي حُسْنَ التصبُّرِ بالجَفَا — فَثَنَى فُؤاداً منكَ لَمْ يكُ يَنْثَني[2]

لابُدَّ مِنْ أَجْرٍ لكُلِّ مُعلِّمٍ — ولَكَ السُّلوُّ ثَوابُ ماعَلَّمْتَني

وأيضاً في أهل الإسكندريّة:[3] [الكامل]

يامُنْكِراً مِنْ بُخْلِ أَهْلِ الثَّغْرِ مَا — عَرَفَ الوَرَى أنكرْتَ مالايُنكَرُ[4]

إنْ كانَ قَدْ صَحَّتْ نَتانَةُ أَهْلِهِ — فَمِنَ الثُّغورِ كما عَلِمْتَ الأَبْخَرُ[5]

وأيضاً: [الخفيف]

أَهْلَ ذا الثَّغْرِ خَيْرُ شَيءٍ يَزينُ — فيهِ أَنْ تُفْقَدُوا وأَلاَّ تَكُونُوا

جِئْتُمُ لِلزَّمانِ عَوْناً عَلَيْنا — وَمَضَى مَنْ عَلَى الزَّمَانِ يُعينُ [٦٥/ب]

وأنشدني أيضاً لنفسه في منار الإسكندريّة: [البسيط]

إنْ كُنْتَ تُحْسِنُ تَشبيهَ المَنارِ فقُلْ — كَمَا أقُولُ وَصِفْها مثلَما أصِفُ

طَالتْ فَطَاوَلَتِ الأَرْضُ السَّماءَ بِها — لَوْلَمْ تَقِفْ جَازَتْ الجَوْزاءَ لاتَقِفُ[6]

كَأنَّها غَادَةٌ قامَتْ عَلَى شَرَفٍ — تَأتِي الجَوارِي إلَيْها ثُمَّ تنصَرِفُ

١- البيتان في الوافي بالوفيات ٣/٣٦٥ وفوات الوفيات ٣/٤١٠.

٢- في الوافي والفوات: ومعلمي الصبر الجميل بهجره ـ منه لم يك ينثني.

٣- البيتان في البلغة ٢٣١ ـ والوافي ٣/٣٦٥- والفوات ٣/٤١٠.

٤- في البلغة: علم الورى.

٥- في البلغة والوافي والفوات: أقصر فقد صحّت نتانة أهله. والبخر: الرائحة المتغيره من الفم.

٦- في ت: ولم تقف حاجة الجوزاء.

وأنشدني أيضاً لنفسه في المنار بيتاً مفرداً وهو: [الطويل]

كأنَّ الجَـواري والمنَارَةُ غَادَةٌ ... جَوارٍ وُقُوفٌ عِنْدَهَا وجَوارِي

وأنشدني أيضاً لنفسه: [البسيط]

لامَتْ على سَرَفي فـي الجُودِ، قُلْتُ لَها: ... ياهَذهِ! سَرَفي فِي الجُودِ مِنْ شِيَمي

وَحُسْـنُ ظَنِّـيَ بالرَّحمنِ يَحْمِلُني ... عَلـى الَّـذي أتعَـاطَـاهُ مِـنَ الكَـرَمِ

فـلا وَجَـدْتُ سِـوى مَـالٍ أجـودُ بـهِ ... ولاعَـدِمْـتُ يَـداً تَـصْـبُـو إلى عَـدَمِ

وأنشدني أيضاً لغَيْرِهِ في أهلِ الإسكندريةِ:[1] [الكامل]

يَاسَاكِنِي الإسْكَندريَّةَ فِيكُمُ ... بَاتَ النَّـزيلُ بِلَيْلَةِ المَلْسُوعِ[2]

تَقْرُونَهُ بالإسْطِقسَّاتِ الَّتي ... هِيَ أَصلُ كُلِّ مُؤلَّفٍ مَجْموعِ

بِهَوائِهَا، وَبِمَائِهَا، وتُـرابِهَا ... وَالنَّارِ في أَحْشَائِهِ بالجُوعِ[3]

١- الأبيات في النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ٣٣٢ منسوبة للشاعر جلال الدين مكرم بن أبي الحسن بن أحمد بن أبي القاسم بن حَبَقة الخزرجي.

٢- في النجوم الزاهرة: عندكم.

٣- في النجوم الزاهرة: بترابها وهوائها وبمائها.

وأنشدني أيضاً لغيره في البحر:[1] [مخلع البسيط]

البَحْرُ مُرٌّ المَذَاقِ صَعْبٌ لاَرَجِعَتْ حَاجَتِي إلَيْهِ[2]
ألَيْسَ مَاءٌ، وَنَحْنُ طِينٌ فَما عَسَى صَبْرُنَا عَلَيْهِ[3]؟

وأخبرني أنّ مولده سنة ستّ وستّ مئة.

[البيع بالإشارة]

ومما قَضى كلامي فيه بالإسكندريةِ مسألةُ البيع بالإشارة. كنت في أوّلِ يوم اجتمعتُ فيه بالفقيه زين الدِّين ـ حفظه الله – ألفيتُ شيخاً من طَلَبَةِ الشّافعيةِ يقرأ عليه كتاباً من كُتُبِهِمْ، فقرأ هذه المسألةَ، وأنّه لاينعقدُ بها إلاّ ممّن يتعذّرُ عليه الكلامُ كالأخرسِ، فقلتُ له: إنْ كان هذا لأنَّ الإشارةَ عندكم محتملَةٌ، فقولوا: لاينعقدُ إلاّ بالنَّصِّ الّذي لايتطرّق إليه احتمالٌ البتّة [٦٦/أ] وهو يَعزُّ وجودهُ، مع أنّكم لاتقولونَ به، فرامَ الجواب ولم يأتِ بشيء. وزيّف الفقيهُ جوابَه. ثم أجاب أيضاً بأنّه إنّما انعقدَ في حقِّ الأخرس للضّرورةِ إلى بيعهِ وشرائه، ولايمكنُ إلاّ بالإشارة، فقلتُ له: إن كانت الإشارةُ لاتدلّ، فمن أينَ عرَفْنَا قَبولَهُ أو ردَّهُ؟. وإن كانتْ تدلُّ فلِمَ منعتمْ البيعَ بها في غيرِ الأخرسِ؟ وقد دلّت كما دلّ النُّطْقُ، فإن دلّت، دلّتْ في الأخرسِ وغيرِه، وإن لم تدلّ لم يَلزم حكماً بها[4]،وكيف يلزم إخراجَ مالٍ عن ملكه بغير دلالةٍ على التزامه لذلك؟ هذا مالا معنى له.

١– الشاعر هو ابن رشيق القيرواني، والبيتان في ديوانه ٢٢٦ ومعاهد التنصيص ٣/٩٠.

٢– رواية الديوان هي:

البحر صعبُ المرام مرٌّ لا جُعِلَتْ حاجتي إليه

٣– عسى: ليست في ت. وبدونها لا يستقيم الوزن.

٤– في ت: حكم بها.

وقولهم: لايمكن البيعُ من الأخرسِ إلاّ بالإشارةِ إقرارٌ منهم بأنّ لها دلالةً، ونَقْضٌ لقولهم في غير الأخرسِ، ثم أجاب الفقيهُ زين الدِّين عن[1] الوجه الأوّل، وهو النَّقضُ بإيجاب البيع باللّفظ الظّاهر بأنّ الأحكام تُبنى على الظّاهر، وليست الإشارة في الظهّور كاللّفظ. هذا معنى كلامه، وهو غيرُ مُقْنِعٍ، فإنّ الكلامَ إنَّما هو في الإشارةِ الظّاهرةِ الدّلالةِ، وقد تكونُ أظهرَ في الدّلالةِ من اللّفظِ، فلا فرقَ بينهما كما ذهب إليه مالك - رحمه الله - والله أعلم.

([2]والأليقُ بالصّواب على مذهب الشّافعيّ[3] في كون الإشارة لاتدلّ عنده في غير الأخرس أن يلحق الأخرس بالسَّفيه فيولّى عليه من يتولّى النَّظر في مصالحه، فيبيع عليه ويشتري لتعذّر توصلّه إلى مصالحه، وهو المعنى الموجب للولاية على السّفيه، ولكنّهم لم يقولوا ذلك، وتناقضوا فيما ذهبوا إليه والله أعلم.[2])

وسألت الفقيهَ زينَ الدِّين عن معنى قولِ ابن الحاجب: وفي تقديرِ موافقِ صفة الماء مخالفاً نَظَرٌ. فقال: معناه أنَّ المائعَ الّذي يُضيفَ الماءَ وهو على صفةِ الماء بحيث لا يغيِّره، هل يُعتبرُ عَدَمُ تغييرهِ للماء؟ فيقالُ: إنَّ الماءَ باقٍ على أصلِه، أو يُقدَّر مخالِفاً للصِّفَةِ بحيثُ يُغيِّرُ الماءَ، فتؤثِّر[4] في سَلْب[5]

١- في ت: على.

٢-٢- سقط من ت.

٣- أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العبّاس بن عثمان بن شافع الهاشمي. أحد الأئمة الأربعة. ولد في غزة سنة ١٥٠هـ وتوفي سنة ٢٠٤هـ. ترجمته في طبقات الشافعية للسبكي ١/٢٩٣ ومابعد، المحمدّون من الشعراء ١٩٢ .

٤- في ط: فيؤثر.

٥- في ت: سبب.

التَّطهيرِ إضافةُ الماءِ بالمقدار الَّذي يغيِّره لو كان مخالِفاً، فيه نظر. قلت: وهذا تفسيرٌ جَيدٌ مناسب لما تقدَّم [٦٦/ب] من كلام المؤلِّفِ على الماءِ المضاف، ويَحتملُ وَجْهاً آخر وهو التَّشكّك في الماءِ،هل هو ماءٌ مُطلق أو غيره ممَّا [هو][1] على صفته؛ فإذا وجَدْنا مائعاً هو على صِفَةَ الماءِ المُطلَقِ ولم نقطع بأنّهُ ماءٌ مطْلقٌ، وجوّزنا أن يكونَ مائعاً آخرَ، فهل يحمل على الماءِ أو على غيرهِ فيه نظر؟ وقد عرضنا[2] عليه هذا الوجه، فقال: يحتمل، قلت: وهذا الوجه لم أقِف فيه على نصّ والأظهرُ في الوجه الأوَّل أنّ التَّقديرَ المذكورَ لابدَّ منه، فإن حصَلَ في الماء من المائع الَّذي على صِفَتِهِ مايغيِّرُه لوكان مخالفاً سَلَبَهُ التَّطهيرَ، ولو كان ذلك لايؤثِّر لبقاء الماءِ على صِفَتِهِ، لصحَّ الوضوءُ بنقطةِ ماءٍ صُبَّ عليه قنطارٌ من مائعَ آخر على صفتهِ. وقد روى أشْهَب عن مالك في«العُتَبيّة»[3] المنعَ في أخذ المتوضىء الماء بفيهِ لغسل يديه. وأشار البَاجيّ في تعليله إلى ماذكرنا. وروى موسى بن مُعاوية عن ابن القاسم جوازَهُ، واعتبر بعدم ظهورِ الإضافةِ مع أنَّ الغالب أنَّ الرِّيقَ يُضيفهُ، والأظهر في الوجه الثَّاني حملَهُ على الماءِ المطلقِ حَمْلاً على الغالبِ، واعتباراً بالأكثر لأنَّ الغالب أنّ المائِعَ الَّذي على صفة الماء هو ماء مطلق، وتجويز غير ذلك تشكّك[4] ووسوسةٌ لم تُبْنَ على أمارة، فلا تؤثر كما لو تحقّق أنَّه ماء مطلق

١- زيادة من ت.

٢- في ت: عرضت.

٣- منسوبة إلى مصنّفها فقيه الأندلس محمد بن أحمد بن عبد العزيز العتبي القرطبي المتوفى سنة ٢٤٥هـ واسمها كاملاً: «المستخرجة العتبية على الموطأ» وهي مسائل في مذهب الإمام مالك. انظر كشف الظنون ١١٢٤.

٤- في ط: تشكيك.

وَشاكٌ هل وقعتْ فيه نَجاسة، وإن كانت هناك أمارة وَجَبَ اعتبارها، مثل[1] أن يوجد المائع في إناء لم تجر العادة باستعماله في الماء المطلق، أو يوجد مطيّناً عليه أو نحو ذلك،والله أعلم.

وسألته عن ظروف الماء إذا حالت رائحتها، وكنتُ سُئلت عنها في الطّريق، وكثيراً مايتّفق فيها ذلك، فقال: إنّ ذلك من باب تغييرِ الماءِ لطولِ المَكْثِ فينبغي ألاّ يؤثرَ ولاسيما مع الضّرورة في الأسْفارِ إليها. قلت: وينبغي أن ينظر فإن كان التّغيُّر لمجرّد[2] طول المَكْث، أو[3] لأجلِ المياهِ المتغيّرة التي لها حُكمُ التّطهيرِ وجب ألاّ يؤثر، وإن كان لنقص في عمل الظّرْف [٦٧/أ] ودِباغه، فالتّغيّر[4] إذاً من عفونة الجلد فوجب أن يؤثّرَ،وقلّما يخفى التّميزُ بينهما، فإن خفيَ وأشكلَ فمحلُّ نظر، وينبغي أن يلحقَ بالماءِ الّذي يُسميه أصحابُنا المشكوكَ،فيجمع بينه وبين التّيمّمَ على رأي من يرى ذلك منهُمْ،والله أعلم.

[ذكر القاهرة]

ثمّ وصلنا إلى قاعدةِ الدِّيارِ المصريةِ، ومدينةِ المملكة بالبلادِ المشرقيّة، فوجدناها مُعيديّةَ[5] المعنى ببعضِ مارأينا بها وسمِعْنا. وهي مدينةٌ كبيرةٌ

١- في ت: حدّ.

٢- في ط: بمجردّ.

٣- في ت: إلى أجل.

٤- في ت و ط: فالتغيير.

٥- في ت و ط : معدية. وهي إشارة للمثل: تسمع بالمُعيدي خيرٌ من أن تراه. انظر أمثال أبي عبيد ٩٧ والمستقصى ١/ ٣٧٠، والميداني ١/ ١٢٩ .

القُطْر، وساكنُها يحاكي عددَ[1] الرَّمْل والقَطْر، وهي مع ذلكَ تصغُرُ عن أنْ يُسَطَّرَ ذكرُها في سَطْر. تريكَ صورةَ ليلى[2] في عينِ ابنِ الحُمَيِّر[3]، وتُسفرُ لك خيرتُها عن وَجْهِ كُثيّر[4]، وتبلّد الذَّكيُّ النّحْرير[5] [وتُحيّر].[6] وتكدّرُ الذِّهْنَ الصَّقيلَ وتغيّر، وتنفي بأذاها وقذاها كلَّ فاضلٍ خيّر. فإن[7] نظرتَ إلى صورتِها ذكرتَ قولَ القائل:[8] [الوافر]

بُغاثُ الطَّيْرِ أطْولُها رِقاباً ... ولَمْ تَطُلِ البُزاةُ ولاَ الصُّقورُ[9]

وإن تأوّلتَ إلى مَغْناها ذكرتَ قولَهُ:

وَقَدْ عَظُمَ البَعيرُ بغيْرِ لُبٍّ ... فلَمْ يَستَغْنِ بالعِظَمِ البَعيرُ

وإن تأمّلتَ إفراطَ عِمارتِها ذكرتَ قولَهُ:

خَشَاشُ الطَّيرِ أكثرُها فِرَاخاً ... وأمُّ الصَّقْرِ مِقْلاَةٌ نَزورُ[10]

١- في ت و ط: عديد.

٢- هي ليلى الأخيليّة الشاعرة محبوبة توبة بن الحمير.

٣- توبة بن الحمير عاشق الأخيليّة، وقصّتهما معروفة ومذكورة في كتب الأدب.

٤- هو كثيرّ عزّة. وكان دميم الوجه.

٥- النحرير: الحاذق، الماهر العاقل المجرّب.

٦- زيادة من ت و ط.

٧- في ت و ط: فإذا.

٨- الأبيات الثلاثة من قصيدة في ديوان كثير عزّة ٥٢٩-٥٣٠، وهي من القصائد التي اختلف العلماء في عَزْوها، انظر تخريجها ثمّة.

٩- بغاث الطير: مالا يصيد، ولايرغب في صيده.

١٠- خشاش الطير: شرار الطيرو مالا يصيد، النزور من الإناث: القليلة الأولاد.

[هجاء أهل القاهرة]

وحسبُها شرًّاً أنها جُرَيْنٌ لِحُثالةِ[1] العباد، ووعاءٌ لنُفايةِ البلاد، ومُستقرٌّ لكلٍّ من يسعى في الأرض بالفَسَاد، من أصناف أهل الشّقاق والنّفاق[2]، والعناد والإلْحاد. استولى الحسدُ على قلوبهم، واستوى الغشّ في جيوبهم؛ فنارُ الحَسَدِ مضطرمَةٌ في الجوانحِ، وسُمُّ[3] الغُشّ ممزوج في عَسَلِ النّصائح. خَرَجَتْ عمارتُها عن الحدِّ المعروف، وزادت كثيراً على القدر المألوف: [الوافر]

ومـا الُّلجَجُ الـمِـلاحُ بِمـُرْوِيـاتٍ ... ويُلْفَى الرِّيُّ في النُّطَفِ العِذَابِ[4] [٦٧/ب]

فهي سوقٌ ينصب بها الشَّيطانُ رايته، ويُجري إليها غايتَه، ويُري فيها لأتباعِهِ -وهم أهلُها- آيتَه. أطبقوا[5] على سوءِ الأخلاق، وتوافقوا على رَفْضِ الوِفاق، وتراضعوا لِبانَ اللُّؤمِ، وتحالفوا لاوُجِدَ منا افتراق[6] فجوادُهُمْ «أبخلُ من الحُباحِبِ»[7] وشُجاعُهُمْ: «أَجْبَنُ مِن صَافرِ الجَنادِبِ»[8] وعالِمُهم: «أَجْهَلُ مِنْ

١- جُرَيْن: تصغير جرن. والحُثالَةُ: الرديءُ من كل شيء، وحثالةُ الناس: رُذالُهم وشرارُهم.

٢- ليست في ط .

٣- في ت و ط: سهم.

٤- النُّطْفَةُ: الماء الصافي قلّ أو كثر.

٥- في ت: طبعوا.

٦- أفاد من قول الأعشى في ديوانه ٢٢٥ :

رضيعَيْ لِبانِ ثَدْيِ أمٍّ تحالفا ... بأسحمَ داجٍ عَوْضُ لا نتفرّقُ

٧- في ت: نار الحباحب، ويقال أبخل من أبي حباحب، وهو رجل من العرب كان لا يوقد إلاّ ناراً صغيرة لئلا يراها ضيف. انظر الدّرّة الفاخرة ٩٠/١- جمهرة الأمثال ٢٤٦/١ والمستقصى ١١/١ واللسان والتاج حبحب.

٨- هو في الدّره ١١١/١، أمثال أبي عبيد ٣٧١- الجمهرة ٢٢٥/١، الميداني ١٨٤/١، المستقصى ٤٤/١، تمثال الأمثال ١٢٠/١. فصل المقال ٤٩٩، اللسان والتاج صفر. وفيها أجبن من صافر. ويقال: إنه لأجبن من صافر. قال أبو عبيد: هو ما صفر من الطير، ولا يكون الصّفير في سباع الطير إنما يكون في خشاشها ومايُصاد منها.

فَراش»[1]، ورفيعهم:«أَوْضَعُ من خِشَاش»[2]، ورصينهُم «أَحْيَرُ مِن خدَاش»[3]، وجميلهُم«أَقْبَحُ مِن غُول»[4] وصحيحُهُمْ:«أسْقَمُ مِنْ مَذْبول»[5]، وفصيحُهمْ:«أعْيَا مِن بَاقِل»[6]، وعزيزُهمْ:«أذَلُّ مِن سَائِل»[7] يمشي الكَرَمُ بينهم مُطرقاً ومُقنَّعاً، ويَنفقُ اللُّؤمُ لديهم مفرّقاً ومجمّعاً. مَنْ أظهر منهمْ نُسكاً فأحبولةٌ نَصَبَها للصّيد. ومَنْ تعلَّم عِلْماً فحيلةٌ أدارها[8] للكَيْد. يَسْهر اللَّيالي فلا ينامُ ولايُنيم، ويرتكبُ من مَشاقِّ الاجتهادِ كلَّ عظيم. ويمشي الهُوينى مَشْيَ الوَجي[9] أو السَّقيم، حتَّى يصيبَ وديعةً ليتيم. على السّلطانِ وقفتْ آمالُ العالِمِ منهمْ والمتعلِّم. وعلى اقتناصِ دراهمِه يحومُ الزّاهدُ، والفقيهُ، والمحدّثُ، والمتكلِّم. فمهما لاحَ له برقُ طمعٍ وقف شائماً له لم يَرِم[10]، على ذلكَ نشأ

١- هو في الدرّة ١/١٢١ والجمهرة ١/٣٣٤- والميداني ١/١٨٨ والمستقصى ١/٥٨- وفيها جميعاً أجهل من فراشة. قيل: لأنها تطلب النار فتلقي نفسها فيها. وانظر ثمار القلوب ٥٠٦.

٢- لم أقف عليه في كتب الأمثال، وفي اللسان: الخِشاشُ: الحشرات.

٣- لم أقف عليه في كتب الأمثال ولعله يريد الإشارة إلى البيت:

تكاثرت الظباء على خداش ... فما يدري خداش مايصيد

٤- هو في الدرة الفاخرة ١/٣٥١.

٥- لم أقف عليه في كتب الأمثال، والمذبول: الإنسان الذي ذوى بعد صحة من مرض.

٦- هو في الدّرة ١/٣١١ والجمهرة ٢/٧٢ والمستقصى ١/٢٥٦ والميداني ٢/٤٣ وفي أمثال أبي عبيد ٣٦٨ وفصل المقال ٤٩٦، وفيها: إنه لأعيا من باقل. وانظر اللسان: بقل، وثمار القلوب ١٢٧.

٧- لم أجده مثلاً فيما رجعت إليه من كتب الأمثال. وفي ثمار القلوب ٦٧٤ «ذلّ السؤال» ومن أحسن ماسمعت فيه قول القائل:

يقولُ الناسُ كَسْبٌ فيه عارٌ ... فقلتُ: العارُ في ذُلّ السُّؤال

لنَقْلُ الصخر من قُلَلِ الجبالِ ... أخفّ عليَّ مـن منن الرجـال

٨- في ت و ط: أرادها.

٩- الوجا: الحفا. وقد استفاد من قول الأعشى في ديوانه ٥٥ :

غرّاءُ فرعاءُ مصقولٌ عوارضُهـا ... تمشي الهوينى كما يمشي الوجي الوَحِلُ

١٠- لم يَرِمْ: لم يفارق.

النّاشيءُ منهم، وعليه دَرَجَ الهَرِم. الدُّنيا عندهم جوهر، والآخرةُ عَرض، وآمالهُمْ صحيحةٌ، ودينهم به مرض، وسهم الرّياءِ بينهم يرشقُ كلَّ غَرَض[١].

وقد رأيت فيهم من قلّةِ الحَياءِ، وعَدَمِ التّنزُّهِ عن الخَنا والفُحْشِ. ومن قلّةِ التّستّر عند قضاءِ الحاجةِ والأكلِ ماتقضّيتُ منهُ العَجَب. وأمّا بُغضُهُمْ للغريب، وتمالؤهم على ذلك،فأمرٌ لايحيطُ به علماً إلاّ مَنْ عايَنَهُ، وقد رأيتُهمْ في طريقِ الحجاز إذا سمعوا مهارشةَ شخصٍ منهمْ لغريبٍ[٢] يتجاروْن إليه[٣] من كلِّ ناحيةٍ كما تصنعُ الكلابُ إذا رأت كلباً غريباً بينَها. ومارأيتُ بالمغربِ الأقصى والأندلسِ على شكاسةِ أخلاقهم، ولا بإفريقيةَ وأرضِ بَرْقة والحِجازِ والشّامِ فريقاً من النّاس أرذلَ أخلاقاً[٦٨/أ]، وأكثر لؤماً وحَسَداً، ومهانةَ نفوسٍ، وأضْغَنَ قلوباً، وأوسخَ أعراضاً، وأشد دَمامَةَ[٤] وخيانَةً،وسَرقَةً وقساوةً، وأجفى للغريبِ من أهلِ هذه المدينةِ المؤسّسة على غيرِ التّقوى. وحَقٌّ لمدينة وضَع أساسَها عَبْدُالزنادقة[٥] غلامُ بني عُبَيْد[٦] – لعنَهم الله – أنْ تجمعَ أخلاقَ العَبيدِ، وأحوالَ الزَّنادقَة[٧]، ناهيكَ من قومٍ جعلوا الخنا شعارَهُمْ، والحَسَدَ المؤرِّث للضّنا[٨] دِثارَهُمْ. فترى الشّيوخَ منهمْ يتهارشونَ في الطّرقات، ويقطعونَ بلَعْنَةِ

١– الغَرَضُ: الهدف الذي ينصب فيرمى إليه.

٢– في ت: بغريب.

٣– ليست في ط.

٤– الدمامة: قبح المنظر.

٥– يقصدبه جوهراً الصقلّي.

٦– بنو عبيد: الفاطميون.

٧– في ط: الزندقة.

٨– الضّنا: المرض والهزال.

أسلافِهِم فسيحَ الأوقات. وقلّما يصدر من صبيانِهم مايصدرُ منهم. ولايُؤثَرُ عن أطفالِهِم مايؤثرُ عنهم، وقدْ قيل فيهم: إنهّم أعقلُ النَّاسِ صِغاراً، وأحمقهُمْ كباراً. حكاه أبوعُبَيْد البَكْرِيّ في كتابه المسالك. وحكى فيه أيضاً أنَّ أبا دُلاَمَةَ[1] جاءَ إلى مِصْرَ ثم رَجعَ فسُئِلَ عنها فقال:«ثُلْثُها كلاب، وثُلْثُها تراب، وثلثها دواب، فقيل له[2]: فأين النَّاس؟ فقال: في الثُّلث الأوّل».

وقلّما ترى[3]من أهلها[3] رجلاً صافيَ اللّونِ إلاّ[4] إن كان من غيرِها. ولا رَجُلاً طَلْقَ اللسانِ. والُّلكْنَةُ فيهم فاشيةٌ، وجمهورهم يجعل القافَ والكافَ همزةً. وقد سمعتُ شخصاً منهم في التَّلبيةِ يقول: لَبَّيْكَ اللّهمَ لَبَّيْكَ،ويجعل كافاتها كلَّها همزاتٍ، فلو سمعتَه سمعتَ كلاماً مُضحكاً.

وأمّا العُقوقُ بينهم فمتعارفٌ، كانَ معنا في طريقِ الحجازِ شخصٌ منهمْ حجَّ بأمِّه، فكان إذا اغتاظ عليها يقولُ لها: لعنَكِ اللّه، ولعنَ الَّذي آواكِ - يعني أباه - وذلك بعد ماحجّ بها. وسمعتُ شخصاً منهمْ ينادي رفيقَهُ في الرَّكْبِ، فلمّا أتاهُ لعنَهُ ولعنَ أباه، وقابلَهُ الآخرُ بمثلِ ذلك، وتهارشا[5] زماناً ثمَّ قعدا يأكلان.

١- أبو دلامة: زند بن الجون الأسدي بالولاء. شاعر مطبوع. نشأ بالكوفة، واتصل بالخلفاء العباسيين، وكان يُتّهم بالزندقة لتهتكه. توفي سنة ١٦١هـ. ترجمته في وفيات الأعيان ٢/٣٢٠- الأغاني ١٠/٢٣٥-٢٧٣ معاهد التنصيص ٢/٢١١- غربال الزمان ١٥٠.

٢- ليست في ط.

٣-٣- سقط من ط.

٤- سقط من ت.

٥- تهارشا: تخاصما وتقاتلا.

[تضييع المساجد]

ومن الغرائبِ عندهم تضييعُ المساجدِ والجوامعِ وإهمالُها، وقلّةُ التَّحفّظ فيها، حتّى تصيرَ مثلَ المزابلِ، وتَسودَّ حُصُرُها وحيطانُها من الأوساخِ. وقد صلّيتُ الجمعة في بعض جوامعها، فرأيت فيه[1] أكواماً من أنواعِ الكُناساتِ. وهم يعتقدونَ [٦٨/ب] نجاسةَ مساجدِهم وجوامِعهم - وهي كذلك - فلا يأتي من مُصلّيهم شخصٌ إلاّ بحصيرٍ أوثوبٍ يصلّي عليه، وقد رأيتُهم يفرشونَ في المحرابِ مايُصلّي عليه الإمامُ، فما أكثرَ جفاءَهم، وماأقلَّ من الله حياءَهم، ولولا لُطفُ الله في تملّك الأتراكِ لهمْ ماأمكنَ المَقامُ بها مُسلماً. ولكنَّ ملوكَهم أهلُ دينٍ، وعقائد سليمةٍ، وشَفَقَةٍ وحَنان على المسلمين، وتفضّلٍ على الفُقراءِ، وحُسْنِ ظنّ بأهلِ الدِّينِ، وهمْ ركنُ الإسلام - نفعهم الله وأحَسَنَ عونَهم - وقد رأيت من خِدمتِهم للرَّكْبِ، واحتياطِهم وصبْرهم، وحُسْنِ محاولتهم، ماتعجّبتُ منهُ، فالحمد لله على تيسيرِ العَوْنِ على طاعتِهِ.

وكان وصولُنا إلى هذه المدينةِ في أُخرياتِ رَمضانَ، فأتممْنا الشَّهرَ بها، وصلّينا معهم صلاةَ العيدِ، وهم يصلّونها[2] في المسَاجِدِ، وبعضُهم في ساحةٍ تحتَ القلْعةِ وسط البَلَد، ولايبرزون لها كما وَرَدَتْ به السُّنّةُ، ولم نَرَ منهم يومئذٍ مَنْ صدرَ منه التَّأنيس بكلمةٍ. وممَّا قلتُ في ذلك: [الطويل]

ذكرْتُ بيَوْمِ الفِطْرِ في مِصْرَ إذْ أتَى ـ وقَوْسُ النَّوى تَرمي الحَشَا أسْهُمَ الكَرْبِ[3]

١- في ت: فيها.
٢- في ط: يصلّون.
٣- النوى البُعد. الكرب: الحزن والغمّ الشديد.

فِرَاخاً نَأى أُنْسِي بِنَأْيِ مَحَلِّهِمْ وصَحْباً كِراماً ضَمَّهُمْ أُفُقُ الغَرْبِ
فأفْطَرْتُ مِنْ قَبْلِ الغُدوِ بَعبْرَةٍ غَنيتُ بِها يَوْمي عَنِ الأَكْلِ والشُّرْبِ

وكنتُ نزلتُ بالمدرسةِ الكامليّة[1] منهَا في علّوٍ مُشرف على السّوق، فكنتُ قلّما أرقدُ إلاّ مُنغصاً لصياحِ الباعَةِ؛ وهم يبيعونَ طولَ اللّيلِ، وقلّما يكونُ طعامُ الشّريفِ منهم والوَضيعِ إلاّ منَ السّوقِ، والضّغطُ على ذلك، والزّحامُ مُتّصل، والطُّرقُ غاصّةٌ بالخَلْقِ، حتّى ترى الماشي فيها مالَهُ همٌّ سوى التّحفّظِ من دَوْسِ الدَّوابِ إيّاهُ، ولايمكنه تأمّلَ شيءٍ في السّوقِ لأن الخلقَ يندفعونَ فيها مثلَ اندفاعِ السّيل. وقد ضاعَتْ لي بها دابّةٌ بسبب الزّحامِ، كان عليها شخصٌ راكباً، فتكاثرَ عليهِ الزِّحامُ حتّى أُسقطَ عنها، واندفعتْ في غِمارِ الخَلْقِ ولم يمكنْهُ التوصّلَ إليها وهو [٦٩/أ] يبصرُها حتّى غابتْ عنه، وكان آخرَ العَهْدِ بها.

وُحُدِّثْتُ أنَّ رسولا من قِبَلِ مَلكِ الرُّومِ - أخزاهم الله - وصلَ إليها في مدّةِ المَلِكِ الظّاهرِ[2]، فأمرَهُمُ الملكُ أَنْ يدوروا بهِ بَعْدَ العصرِ في البَلَد قَصْداً لأنْ يرى إفراطَ[3] عمارةِ البَلَد،فداروا به، فقال لهم: إنَّ بلدكم هذا ضعيفٌ. فقالوا: وكيف ذلكَ؟ أوماترى المخلوقَ الذّي به؟ فقال لهم: إنّ هؤلاءِ جميعاً

١- بناها الملك الكامل وتمّ الانتهاء من عمارتها سنة ٦٢١هـ. انظر خطط المقريزي ٢/٣٧٥ .

٢- الملك الظاهر بيبرس العلائي: فاتح، قائد شهير، تولى سلطنة مصر والشام سنة ٦٥٨. له وقائع مع التتار والإفرنج. توفي بدمشق ٦٧٦هـ ودفن فيها. ترجمته في فوات الوفيات ١/٢٣٥- النجوم الزاهرة ٧/٩٤- بدائع الزهور ١/٣٠٨-٣٤٢- حسن المحاضرة ٢/٩٥ .

٣- ليست في ط.

ماخرجوا إلاّ لشراءِ عشائِهِم من السُّوقِ، ولو كانَ في ديارِهم طعامٌ لاستَغْنوا عنه، ولو تعذَّر السّوقُ عليهم لماتوا جميعاً من الجُوعِ.

ومن المألوفِ عندهم الأكلُ في الأسواق، والطُّرقاتِ، والمحافلِ. والعِرْض عندهم ساقطٌ، وقد شاهدتُ منْ بعضِ أكابرهم، والمشارِ إليه عندَهُمْ في هذا المعنى مالامُنتهى وراءَهُ في القُبْحِ، ونعوذ باللّه من وضاعَةِ الأخلاق.

وقد حدّثنا الشَّيخ [الإمام](1) المعمَّرُ شهابُ الدِّين أبو الهَيْجاءِ غازي بنُ أبي الفَضْلِ بن عبدِالوهابِ الدِّمَشْقِيِّ، قراءةً عليه وأنا أسمعُ، أخبركم الشَّيخُ أبوحفصٍ عُمرُ بنُ محمّدِ بن طَبَرْزَدْ البغداديّ الدارقَزّي(2) المؤدّب بدمشقَ في سَنَة ثلاثٍ وستّ مئة،قال: أخبرنا الشَّيخُ الرَّئيسُ أبو القاسم هبةُ الله بنُ محمَّد بنِ عبدالواحد بن الحُصَين الشَّيباني في سنة خمسٍ وعشرينَ وخمسِ مئة،قال: أخبرنا الشَّيخ أبو طالب محمّدُ بنُ محمّدِ بنِ إبراهيمَ بن غَيلانَ البزَّار، قال: أنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن إبراهيم الشّافعي، قال: نا عبد الله بن إسحاق الخطيب، قال: نا لَوين، نا بقيةَ، حدّثني عُمر بن موسى، حدّثني القاسم مولى ابن يزيد عن أبي أُمامَةَ قال: قال رسول الله ﷺ «الأكْلُ في السُّوقِ دَناءَة»(3).

وحدّثنا الفقيهُ المقرىء تَقيُّ الدِّين أبو محمّدٍ إبراهيمُ بنُ عمرَ بنِ إبراهيمَ الجَعْبَرِيّ - بحَرَمِ الخليل(4) عليه السَّلام قراءةً منّي عليه، قال: أنا

١- زيادة من ت.

٢- نسبة إلى محلّة دار القزّ في بغداد.

٣- أخرجه ابن عدي في الكامل ٥١٢/٢ والبغدادي في تاريخ بغداد ١٦٣/٣ و١٠/١٢٥- وهو في فيض القدير ١٨١/٣ وكنز العمال ٢٦٠/١٥.

٤- الخليل: مدينة شهيرة في فلسطين، تقع إلى جنوب القدس إلى المغرب، وتبعد عنها نحو ٥٩كم. وفيها قبر الخليل عليه السلام في مغارة تحت الأرض، انظر ياقوت ٣٨٧/٢ .

الشَّيخ العالم الصَّالحُ تقيُّ الدِّينِ أبوعبدِ الله محمَّدُ بنُ شِبْلٍ بن عبد الله المقرِيء الضَّرير، قال: أنا [الشَّيخ][1] الشَّريفُ أبوالمكارم محمَّد بنُ عبدِالواحدِ ابنِ أحمدَ بنِ المتوكِّلِ على الله،والشَّيخُ أبو محمَّد [٦٩/ب] عبدُ الرَّحمن بنُ أبي العزِّ محمَّد بن أبي البركاتِ البَزَّار المعروف بابن الخبَّازة،قراءة عليهما وأنا أسمع،قالا: أخبرنا أبو الوَقْتِ عبدُالأوّلِ بن عيسى السِّجزيّ،قال: أنا الإمام أبو إسماعيلَ عبدُ الله بنُ محمَّدِ بنِ عليِّ بنِ مَتّى[2] الأنصاريّ قراءة عليه،قال: أنبأنا بِشْرُ بنُ محمَّد بن عبد الله الأبووَرْديّ الصّوفي، حَدَّثنا أحمد ابنُ محمَّدِ بنِ عليِّ السُّوسيّ[3] بالسّوس،قال: أنا أبو جعفرٍ محمَّد بن محمد المقرِيء[4] بالبَصْرة، نا سَهْلُ بنُ عليِّ بنِ عفير الأنصاريّ، نا إسماعيلُ بن تَوْبَةَ الثَّقفيّ، نا إسماعيلُ بن جَعْفرٍ، قال حدَّثني حميدُ الطَّويلُ عن أنسٍ بن مالكٍ رضي الله عنه، قال:سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «سمعتُ جبريلَ يقول: سمعت ميكائيل يقولُ: سمعتُ إسرافيلَ يقولُ: قال الله عزَّ وجلّ: إنَّ هذا الدِّينَ ارتضيتُهُ لنفسي ولنْ يُصلحَهُ إلاّ السَّخاءُ والخُلُقُ الحَسَن»[5] ورواه عليّ بن سلاَّم متابعاً لإسماعيل بن تَوبةَ وزاد فيه «فأكرِموهُ بِهِما ماصحبْتُموهُ».

١- زيادة من ت.

٢- في ت و ط: مت.

٣- في الأصل: التونسي وهو تحريف.

٤- في ت: المصري.

٥- حديث قدسي أخرجه ابن حبّان في المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين ١٣٤/٢ والهندي في كنز العمال ٢٠/٣، وهو في الاتحافات السنية في الأحاديث القدسية ٥٥.

[عناية أهل القاهرة بالمنطق]

ومن الأمرِ المُنْكَرِ عليهم، والنُّكرِ المألوفِ لديهم، تدارسُهم لعلم الفضول، وتشاغلُهم بالمعقولِ عن المنقول، في إكبابِهِمْ على علمِ المنطق، واعتقادِهِمْ أنَّ من لايُحْسِنُهُ، لايُحسنُ أن يَنْطِق، فليتَ شِعري هل قرأه الشَّافعيُّ ومالك، أو هو أضاء لأبي حَنيفةَ[1] المسالك. وهل عارَكَهُ أحمدُ بن حَنْبل[2]، أوكان الثَّوريُّ[3] على تعلُّمه قد أقبل، وهل استعان به إياسٌ[4] في ذكائه، أو بلغ به عَمرو[5] مابلغ من دَهائه. أو تمرّس به قُسٌّ وسَحبان[6]، ولولاه ماأفصح أحدٌ منهما[7] ولا أبان. أتُرى عقولُ القومِ كليلة. إذ لم تُشْحذُ على مِسَنِّه، أترى فِطنهم عليلة لَمّا لم تكرع[8] في أَجِنه[9] عَجَباً كيف رُوِيَتْ قرائحهُم ولم تمطر بعارض دَجْنه[10]، كلاّ هي أشرفُ من أن تقيّدَ في سِجْنِه. وأشفُّ من أن يستحوذ[11] عليها طارقُ جِنّه. تالله لقد أغْرَقَ القومُ فيما لايَعنيهم، وأظهروا

١- النعمان بن ثابت التّميميّ بالولاء فقيه، صاحب المذهب الحنفي توفي سنة ١٥٠هـ.

٢- أحمد بن حنبل: إمام المذهب الحنبلي، توفي سنة ٢٤١هـ.

٣- هو سفيان بن سعيد بن مسروق: مفسّر محدّث، كان عالم هذه الأمة، وعابدها وزاهدها ولد ونشأ بالكوفة وتنقّل بين المدن إلى أن توفي بالبصرة سنة ١٦١هـ. له تفسير القرآن الكريم، ترجمته في سير أعلام النبلاء: ٧/ ٢٢٩، ومصادرها ثمة .

٤- هو إياس بن معاوية: قاضي البصرة ضرب به المثل في الذكاء والفطنة توفي سنة ١٢٢هـ ترجمته في وفيات الأعيان ١/٢٤٧- ثمار القلوب ٧٢ .

٥- عمرو بن العاص: أحد عظماء العرب ودهاتهم فاتح مصر توفي سنة ٤٣هـ. ترجمته في الإصابة ٣/٢- الاستيعاب ٢/٥٠٢ .

٦- قسّ بن ساعدة الإيادي وسحبان وائل فصيحان من فصحاء العرب يضرب بهم المثل في البلاغة.

٧- في ط: أحدهما.

٨- كرع في الماء: تناوله بفيه من موضعه.

٩- أجِنَ الماءُ: تغيرّ لونه وطعمه ورائحته.

١٠- العارض: ما اعترض في الأفق فسدّه من سحاب وغيره. الدَّجنُ: ظلمة الغيم في اليوم المطير.

١١- يستحوذ: يستولي ويغلب.

الافتقارَ إلى ما لا يُغنيهم، بل يُعنتهم مع[1] السّاعات ويُعنيّهم. والشّيطان ﴿يَعِدُهُمْ ويُمَنّيهم﴾[2] أما إنَّه قد كانَ الآحادُ من أهْلِ العلمْ ينظرونَ فيه غيرَ مجاهرين، ويطالعونه لا متظاهرين، لأنّ أقلَّ آفاته أن يكونَ شغلاً بما لايعني الإنسان، وإظهار حَوْجِه[3] إلى ماأغنى عنه الرّبّ المنّان، والّذي دَعا بعضَ الفضلاءِ إلى مطالعته [٧٠/أ] هو اتّقاءُ شرّه، والحذارِ من غائلته[4] ومَكْرِه، وقد قالَ عُمَرُ رضيَ الله عنهُ:«من لم يعرف الشّرَّ أجْدرُ[5] أنْ يقع فيه».

ونظم هذا بعضهم فقال[6]: [الهزج]

عَرَفْتُ الشّرَّ لاللشّرْ ... رِ لكــنْ لِتَــوَقّيــه

ومَنْ لَمْ يَعْرِفِ الشّرَّ ... مِنْ النَّاسِ يَقَـعْ فيهِ

وأمـا هؤلاء، فـقد جـعلوهُ من أكبر المـهمّات؛ واتّخذوهُ عِدّةً للنّوائب والملمّات؛ فهم يكثرونَ فيه الأوضاع؛ وينفقُ كلُّ منهم في تحصيله العُمرَ المضاع. ويْحَهم! أما سمعوا قول داعي الهُدى لمن أمّه، حين رأى عُمَرَ كتبَ التّوراةَ في لوح فضمّه[7]، فغضبَ وقال مُفهماً للحافظ الواعي:«لو كانَ موسى وعيسى حيّينِ ماوسعَهُما إلاّ اتّباعي»[8] وإذا لم يوسعهُ عذراً في الكتاب الّذي

١- في ط: على.

٢- سورة النساء الآية ١٢٠.

٣- في ط: حوج.

٤- في ط: غوائله.

٥- في ت و ط: كان أجدر.

٦- الشاعر هو أبوفراس الحمداني، والبيتان في ديوانه ٣/٤٣١.

٧- في ط: من فضة.

٨- أخرجه أحمد في مسنده: ٣/٣٣٨، وهو في الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة ٢٩٢.

جاء به موسى نوراً، فما ظنّك بما وضَعَهُ المتخبطّونَ في ظلامِ الشّركِ، وافتروا فيه كَذِباً وزوراً، فيالله[1] للعقولِ المنحرفةِ، غَرِقَتْ في بحور ضلال الفَلْسفة. ولله درّ شيخنا شرف الدِّين الدِّمْياطي[2] فإنَّه مباينٌ لهم في ذلك، مُنزّهٌ لنفسه عن تلكَ المسالكِ، وقد أنشدني في هذا المعنى لنفسه:[3] [الطويل]

وَمَا العِلـمُ إلاّ فـي كِتَـابٍ وسُنَّةٍ ... وَمَا الجَهْلُ إلاّ فِـي كَلامٍ وَمنْطـقِ

وَمَا الخَيْرُ إلاّ في سُكوتٍ بِحِسْبَةٍ ... وَمَا الشَّرُّ إلاّ مِنْ كَلامٍ وَمَنْطقِ[4]

ومن قول الفقيهِ القاضي الأوحدِ فريدِ عصرِه أبي حفص عُمَرَ بنِ عبد اللّهِ بن عُمر السُّلَمي رحمه الله في بعض كلامه:[5]

[خطبة أبي حفص بن عمر]

«عبادَ اللّه! الدّينُ النّصيحةُ[6]، فخذوها محضةً صريحةً، هَدْيُ اللّه هو الهُدى، ومن اتّبع رُسُلَ[7] الله اهتدى ،فإيّاكم والقدماء وما أحدثوا، فإنّهم عن

١- ليست في ت.

٢- عبد المؤمن بن خلف الدمياطي: حافظ للحديث من أكابر فقهاء الشافعية، ولد بدمياط سنة ٦١٣هـ وتنقّل في البلاد وتوفي في القاهرة سنة ٧٠٥هـ. له «معجم» ضمنّه أسماء شيوخه و«كشف المغطى في تبيين الصلاة الوسطى». ترجمته في طبقات لشافعية للسبكي ١٠/٤ ، فوات الوفيات ٤٠٩/٢ - شذرات الذهب ١٢/٦ .

٣- البيتان في مستفاد الرحلة والاغتراب ٧٧.

٤- في ت: سكوت بخشية - وما الشر إلا في كلام ومنطق.

٥- الخطبة بتمامها في الذيل والتكملة ٢٢٧/٨- ٢٢٨.

٦- في الحديث الشريف: إن الدين النصيحة. الشفا ٥٨٢/٢ - وابن عدي ٨١٨/٢ - ومسند أبي يعلى ٢٥٩/٣.

٧- في ت و ط: رسول.

عقولهم حدّثوا؛ أتوا من الافتراء بكلّ أُعجوبة، وقلوبهم عن الأسرار محجوبة. الأنبياء ونورهم، لا الأغبياء[1] وغرورهم، عنهم يُتَلَقّى،وبهم يُدرَك السّول، ﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً. إلاّ مَن ارتضى مِنْ رسول﴾[2] ﴿الدِّيْنَ عندَ اللّهِ الإسلام﴾[3] [٧٠/ب] والعلم كتاب اللّه وسُنّةُ محمّد عليه السّلام. ماضَرَّ من وقف عندهما ماجهل بعدهما، خير نبيّ في خير أمّة ﴿يُزَكِّيهِمْ ويعلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ﴾[4] دلَّهمْ من قربٍ عليه، واختصر لهم الطّريق إليه؛ فما ضرّ تلك النُّفوس الكريمة، والقلوب السّليمة، والألباب العظيمة، ماروي عنها من العلوم القديمة، نقّاهم من الأوضار والأدناس، وقال:﴿كنتمْ خَيْرَ أمّةٍ أُخرِجَتْ للنّاس﴾[5]. كتابهم أعظمُ كتابٍ أُنزل، ونبيّهم أكرم نَبيّ أُرسل. السيِّد الإمام، لبنة التّمام، خير البَريّة على الإطلاق، بُعث ليتمّ مكارمَ الأخلاق[6]، أُنزلَ الكتابُ إليه ﴿مُصدّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ ومُهيْمِناً عَلَيْهِ﴾،[7] هو الشّفاء والرّحمة، وفيه العلم كلّه والحكمة. مُعجزٌ في رَصْفه، عزيزٌ في وصْفِهِ ﴿لايأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ﴾[8]. آياته باهرة قائمة، ومعجزاتُهُ باقيَةٌ دائِمَة. إذْ هي للنُّبوّة والرِّسالة خاتمة. لاتنقضي عجائبه، ولاتنتهي غرائبه. ماذا أقول وقد بَهَرَ

١- في الأصل: الأغنياء.

٢- سورة الجن ٢٦-٢٧.

٣- سورة آل عمران ١٩.

٤- سورة الجمعة ٢.

٥- سورة آل عمران ١١٠.

٦- اقتباس من الحديث الشريف: « إنما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق».

٧- سورة المائدة ٤٨.

٨- سورة فصلت ٤٢.

العقول حسبي. حسبي ﴿قُلْ لَوْ كانَ البَحْرُ مِداداً لكَلِماتِ رَبّي﴾[1]:

[السريع]

هَـــذا كَلامٌ للهُدَى جَــامِـــعُ فاَصْغِ إلَيْهِ أيُّهــا السَّــامِعُ[2]

الشَّرعُ للعَقْلِ هُدًى مَنْ يَصِلْ بَيْنَهُمــا بُرْهَــانُــه قاطِـــعُ

الشَّـــرعُ للعَقْــلِ بِـلا مِـرْيَةٍ كالشَّمسِ للعَيْنِ سَناً طَالِعُ[3]

الشَّـــرْعُ مَتْبُوعٌ بِـــهِ يَهتـدي مَنْ ضلَّ والعَقْلُ هُوَ التَّابِـعُ[4]

لايَهْتدي العَاقِلُ فـي قصْــدِهِ إلاَّ بمَــا سَــنَّ لَهُ الشَّــارِعُ

هَذا كتابُ اللّه يَهــدِي الوَرَى لِكُلِّ عِلْــمٍ نُــورُهُ سَاطِــعُ[5]

مَــعْــرِفَةُ اللّه وآيــاتُـــهُ ومَنْهَجُ الرُّسْــلِ ومَا الرَّابِعُ[6]

والعِلْــمُ والحِكْمَــةُ فــي طَيِّهِ أجْمَعُ وَهوَ المُعْجِزُ الصَّــادِعُ

وَهُوَ مِـــنَ اللّهِ فَمــا فــوقَهُ هَادٍ إلـــى اللّهِ ولا شَـافِــعُ

ومن غيرها:

تَحْتَ لواءِ الشَّرْعِ يمضي الحِجا والشَّـــرْعُ وَالٍ مالَــهُ خـالِـــعُ [٧١/أ]

١- سورة الكهف ١٠٩.

٢- الأبيات في الذيل والتكملة ٢٢٨/٨.

٣- في الذيل والتكملة: سنا ساطع.

٤- في الذيل والتكملة: له تابع.

٥- في الذيل والتكمله: الساطع.

٦- في الذيل والتكملة: وما نهج.

[لقاؤه لشرف الدِّين الدِّمياطيّ]

ولمْ أرَ بهذه المدينة - على كَثْرَةِ الخَلْقِ بها - أمثلَ وأقربَ إلى الإنسانيَّة، وأجملَ معاملةً،من الشَّيخِ الفقيهِ، المحدِّث، الرَّاويةِ، المسندِ، المفتي، الثِّقةِ، الضَّابطِ، شرف الدِّين، ذي الكنيتين أبي محمَّد وأبي أحمدَ عبدالمؤمنِ بنِ خَلَف بنِ أبي الحَسَن الدِّمْياطيّ[1]، المحدِّث بالمدرسة الظَّاهريَّة[2] - حفظَهُ الله - وهو شيخٌ وسيمٌ أبيضُ، ذو صورةٍ مقبولةٍ، وهيئةٍ حَسَنَةٍ، وركانَةٍ، وحُسنِ خُلُقٍ، وسَراوَةِ همَّة[3]، راوية جمَّاعَة، مُقيِّد، ضابط، حافظ،رَحَل في طلب العلم، ولقي من أهلِهِ أعداداً، وجَمَعَ، وألَّفَ، وروى حتَّى صار أوْحَدَ وَقْته في ذلك، وله«معجمٌ»في أسماء شُيوخه، ومن لَقِيَهُ وأخذَ عنهُ في أيّ فنٍّ كان؛ كبيرٌ في أربعة أسفار. وسمعتُه يقول: إنَّهم ينيفونَ على ألفٍ ومئتين وسبعين. فقالَ له بعضُ الحاضرين: وهل كانوا كلُّهم أئمَّةً؟ فقالَ لهم: لولم أكتبْ إلاّ عنِ العُلماءِ الأئمّة ماكتبت عن خمسةٍ. ونشأتُهُ بدِمياطَ، مدينة هي قاعدةُ ريفِ مِصْرَ، وعندها يصبّ بحر النِّيل في البحر الرّومي[4]، وتقييدها: بدالٍ مكسورة وبعدها ميمٌ ساكنة وياءٌ باثنتين تحتها بعدها ألفٌ وطاء، والدَّالُ والطّاءُ مهملتان. وأكثرُ النَّاسِ يُعجِمُ الدَّال منها، وقد سألته عن ذلك فقال: إعجامُها

١- توفي شرف الدين الدمياطي سنة ٧٠٥هـ. انظر شذرات الذهب ١٢/٦.

٢- أمر ببنائها بيبرس سنة ٦٦٠هـ وانتهت عمارتها ٦٦٢هـ، وجعل بها خزانة كتب تشتمل على أمهات الكتب في سائر العلوم. انظر خطط المقريزي ٢/٣٨٧-٣٧٩.

٣- في ط: سمت.

٤- هو البحر الأبيض المتوسط.

خطأ، وقد غَلِطَ في ذلك أبو محمّد الرُّشاطي[1] فوضعها في باب الدَّال المعجمة، وإنّما هي بالمُهْمَلَةِ.

وقد كتبتُ عنه أحاديثَ، وسمعتُ منهُ حديثَ عبدِ الله بنِ عمرو «الرَّاحمُونَ يَرْحَمُهُمْ الرَّحْمَنُ»[2]، وهو أوَّلُ حَديثٍ سمعتُهُ منْهُ، وحدَّثني به بسَنَدِه[3] مُسلسَلاً، وسمعتُ عليهِ جُمْلَةً من سُنَنِ الشَّافعيِّ - رحمَهُ اللَّه - وسمعتُه يقولُ وهو يقرأ عليه: العجَبُ من حديثِ هذا الرَّجلِ أكثرُ ألفاظه مُخالفٌ لما في الصَّحيح، وكان إذا ذكر مالكاً - رحمه الله - وفَّاه حقَّهُ كما يجبُ حتَّى ظننتُ أنّه مالكيٌّ، فسألتُهُ عن مذهبِهِ فقال: شافعيٌّ، وإذا ذكرَهُ قال: ذهبَ الإمامُ مالكٌ إلى كذا. وهكذا يُعرَفُ إنصافُ أهلِ العلمِ.

وقد سألته عن سِنِّه فقال لي: أقبلْ على شأنكَ، فإنّي سألتُ شيخنا بهاءَ الدِّين [٧١/ب] أبا الحَسن عليّ بن أبي الفضائل هِبَة الله بن سلامة[4] بن المُسْلم بن أحمد بن عَليّ الشَّافعيّ عن سِنِّه، فقال [لي][5]: أقبلْ على شأنكَ، فإنّي سألت الإمام شرف الدّين مُفتي العراقين شيخ المذاهب أبا سَعيد عبدالله بن محمَّد بن هِبَة الله بن عليّ بن المُطَهَّر بن أبي عَصرون[6] عن سنّه

١- عبد الله بن علي بن عبد الله اللخمي الأندلسي: عالم بالأنساب والحديث من أهل أوريولة بالأندلس وسكن ألمرية وتعلم بها. له تصانيف منها: «اقتباس الأنوار والتماس الأزهار في أنساب الصحابة ورواة الآثار». استشهد بألمرية عند تغلّب الروم عليها سنة ٥٤٢هـ. ترجمته في الصلة ٢٩٧- المعجم لابن الأبار ٢٢٧- وفيات الأعيان ٣/١٠٦.

٢- تقدم صفحة ١٦٦.

٣- ليست في ط.

٤- ليست في ط.

٥- زيادة من ت.

٦- في ت: عمرون.

فقال: أقبل على شأنك فإنّي سألت القاضي الإمام أباعبدَ الله الحُسين بن نصْر بن محمَّد بن خَميس عن سنّه فقال: أقبل على شأنك، فقد حدّثنا الشّيخ أبو بكر أحمد بن عليّ الطُّرَيْثيثي وسألته عن سنّه،فقال: أقبل على شأنك، حدَّثنا[1] القاضي هنَّاد بن إبراهيم وسألته عن سنّه، فقال: أقبل على شأنكَ، فإنّي سألت أبا الفضل محمّدَ بنَ أحمدِ الجاروديّ عن سنّه، فقال: أقبل على شأنك،فإنّي سألت أبا بكر محمَّد بن عَديّ بن جَزَء[2] المنْقريّ البَصْريّ عن سنّه، فقال لي: أقبل على شأنك، فإنّي سألت أبا أيّوب الهاشميّ عن سنّه، فقال لي: أقبل على شأنك، فإنّي سألت أبا إسماعيل التِّرمذيّ عن سنّه فقال لي: أقبل على شأنك فإنّي سألت الشّافعيّ عن سنّه، فقال لي: أقبل على شأنك، فإنّي سألت مالكَ بن أنس عن سنّه، فقال لي: أقبل على شأنك ثم قال [لي][3]: «لَيْسَ مِنَ المـرُوءَةِ أَنْ يُخـبـرَ الـرَّجُلُ بِسِنِّه»[4] قلت: وفي بعض الروايات:«فإنّه إن كان صغيراً احتُقِرَ، وإن كان كبيراً استُهرِمَ»، وقد يُقال: إنّما ذلك لئلاّ يُكذَّبَ، لأنَّ كثيراً من النّاس لاتوافق صورته سنَّه، فربّما يُظَنُّ به الكِبرُ وهو صَغيرٌ أو بالعكس.

وحدّثني بالحديثِ المعروفِ بحديثِ الفقهاء، لأنّ رُواته كلُّهم فقهاءُ وأئمّةٌ، وهو حديث ابن عمر المشهور: «المتبايعان كلٌّ واحدٍ منْهُما على صاحِبِهِ[5]

١- في ط: أخبرنا

٢- في ت و ط: جزي.

٣- زيادة من ت.

٤- مرآة الزمان ١٠٩/٨

٥- في ت: يفترق.

بالخِيارِ مالمْ يَتَفرَّقا إلاَّ بَيْعَ الخِيَارِ»[1] وذكر الإمامُ السِّلَفي أنَّ أبا الحَسَن عليّ بن محمّد الكياء[2]، شيخه، قال عقيبَ هذا الحديث: «إذا بَدَتْ راياتُ النّصوص في ميادين[3] الكفاح، طاحَتْ أعلامُ المقاييسِ في مدارجِ الرِّياح».
وسَنَدُ الحديثِ مقيدٌ في الجزء الَّذي كتبتُ عنه.

وحدّثني - حفظَهُ اللّٰه - سَماعاً من لَفْظه، قال: أخبرنا الشّيخُ الصَّالحُ أبو الحسن بنُ أبي عبداللّٰه [٧٢/أ] بنِ أبي الحَسَن البَغداديّ الأَزَجيّ بقراءةِ الحافظِ أبي بكر محمَّد بن شيخِنا الحافظِ أبي محمّد عبدالعظيم المُنذريّ قال: أنا أبو بكر محمّد بنُ عُبيد اللّٰه بنِ نَصْرِ بنِ الزَّاغونيّ[4] إجازةً، قال: أنا (٥أبو القاسم عليُّ بنُ أحمد بنِ محمّد البُسْـريّ البِنْدارِ[6] قراءةً عليه وأنا أسـمعُ، قال: أنا٥) أبو طاهرِ محمّد بنُ عبدالرَّحمنِ الذَّهَبيّ المخلص، قال: نا عبدُاللّٰه ابنُ محمّد بنِ عبدِالعزيز، نا داود بنُ رَشيد، نا الفَضْلُ بنُ زياد،قال: نا شَيْبانُ عن الأعْمشَ،عن سليمانَ بن مُسهر،عن خَرَشَة بن الحرِّ، قال: شهِدَ رجلٌ عند عـمرَ بنِ الخـطّابِ - رضـي اللّٰه عنه - بشـهادةٍ فقـالَ لهُ: لستُ أعـرِفُكَ،

١- أخرجه البخاري في البيوع باب البيّعان بالخيار رقم ٢١١١-٣٢٨/٤- ومسلم في البيوع- باب خيار المجلس للمتبايعين رقم ١٥٣١- وأبوداود في البيوع باب في خيار المتبايعين رقم ٣٤٥٤، والترمذي في أبواب البيوع باب ماجاء في البيعين بالخيار رقم ١٢٤٥ بخلاف في اللفظ، والنسائي ٢٤٨/٧ والموطأ ٤٦٦.

٢- علي بن محمد بن علي الطبري: فقيه شافعي مفسّر، درّس ببغداد. توفي سنة ٥٠٤ هـ ترجمته في وفيات الأعيان ٢٨٦/٣ .

٣- في ت و ط: ميدان.

٤- في ت : الزغاوي.

(٥-٥)- سقط من ت بنقلة عين.

٦- في ط: البنداري.

ولايضُرُّكَ ألاّ أعرفَكَ، ايتِ بمَنْ يعرفُكَ، فقال رجلٌ منَ القومِ: أنا أعرِفُهُ. قال: بأيِّ شيءٍ تعرِفُهُ؟ قال: بالعَدالةِ والفَضْلِ. قال: هو جارُكَ الأدنى الَّذي تعرفُ ليلَهُ ونهارَه، ومَدْخلَهُ ومَخْرجَهُ؟ قال: لا. قال: فمعاملُكَ بالدِّينارِ والدِّرْهَمِ اللّذين[1] بهما يُستَدَلُّ على الوَرَعِ؟ قال: لا. قالَ: فرفيقُكَ في السَّفَرِ الَّذي يُسْتَدَلُّ بهِ على مكارمِ الأخلاقِ؟ قال: لا. قال: فلستَ تعرِفُهُ. ثمَّ قالَ للرَّجلِ: ايتِ بمن يعرفكَ.

وأنشدني - حفظَه الله - قال: أنشدني لنفسِهِ شيخُنا العلامّةُ حجَّةُ العَرَبِ أبو الفَضائل الحَسَنُ بنُ محمّدِ بنِ الحَسَنِ العَدويّ العُمَريّ من وَلَدِ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، ويعرف بالصَّغانيِّ، بصاد مُهمَلة وغَيْنٍ مُعجمة، وآخره نون بعدها ياء النّسبة، قال: ومولَدُهُ بلَوْهُور[2] من بلادِ الهِنْدِ، عاشرَ صَفَرٍ سَنَةَ سَبْعٍ وسَبْعينَ وخمسِ مئَةٍ، ووفاتُهُ ببغدادَ في ليلةِ الجمعةِ التَّاسعَ عَشَرَ من شَعْبانَ مِنْ سَنَةِ خَمْسينَ وستِّ مئَةٍ، ودُفِنَ بدارِهِ ببغْدادَ. ثمّ نُقِلَ بوصيّةٍ منهُ إلى مكّةَ، ودُفن مع الفُضَيْلِ بنِ عِيَاض[3] رحمَهُما الله تعالى، وكان شَرَفُ الدِّين الدِّمْياطيّ، يُثْني عليه كثيراً، ويذكر أنّه كانَ إماماً مُقدَّماً في الأدبِ[4] واللّغَةِ، وأنّ لهُ شعراً كثيراً، وتآليف في اللّغَةِ عديدةً مفيدة،

١- في ت و ط: الذي.

٢- لَوْهُور: قال ياقوت: المشهور من اسم هذا البلد لهاور: وهي مدينة عظيمة مشهورة في بلاد الهند. وتقع اليوم في باكستان. واسمها لاهور. انظر معجم البلدان ٥/٢٦-٢٧ .

٣- الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي: شيخ الحرم المكّي، من أكابر العُبّاد والصلحاء. كان ثقة في الحديث. ولد بسمر قند سنة ١٠٥هـ وتوفي بمكة سنة ١٨٧هـ. ترجمته في شذرات الذهب ١/٣١٦- غربال الزمان -١٧٣- طبقات الحفاظ للسيوطي ١١٠- تذكرة الحفاظ ١/٢٤٥.

٤- في ت و ط: الآداب.

وخمَّسَ «مقصورةَ ابنِ دريد[1]» ثمَّ شرحَهَا بتخميسِها شَرْحاً جَيّداً مُفيداً:[2]

[البسيط]

يومٌ بمكّةَ خيرٌ مِنْ مُضـيِّ سَنَـةْ		بِغَيْرِها تَنْقَضِـي باللَّهْوِ أو بِسِنِهْ
فَلا القُلوبُ إلى الأهْـواءِ مائِلَـةٌ		ولاَ النُّفوسُ بِكَسْبِ الإثْمِ مرتَهَنَةْ [٧٢/ب]
ولا الفقيرُ مع الإمْلاَقِ ذو جَـزَعٍ		ولا الغَنيُّ تَحامَى النَّاسَ مااحْتَجَنَهْ[3]
ولايمرُّ علـى مَـنْ لاَطِبـاخَ لَـهُ		أقلُّ مِنْ لَحْظَةٍ لاَيَقْتَنـي حَسَنَـهْ
ولايـذمُّهُـمُ أَوْ مَـنْ يُسَاكِنُهـم		إلاّ القويُّ الَّذي جدَّ العُلا رَسَنَهْ

وأنشدني أيضاً قال: أنشدني الصَّغانيُّ المذكورُ لنفسِهِ:[4] [البسيط]

إِذَا اخْتَبيتُ تِجاهِ الرُّكنِ يُحدِقُ بي		أفاضِلُ النّاسِ مِنْ شَامٍ ومِن يَمَنِ
ذَوُو مَحـابَرِ أعْـدادُ النُّجـومِ وَمَـن		قَدْ آثَرَ السَّفَرَ المُضْني على الوَطَنِ
أظلُّ أُنشِدُهم شِـعْرِي وأُخبِـرُهُمْ		بما سَمِعْتُ مِنَ الآثـارِ والسُّنَـنِ

١- هي قصيدة لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزري إمام اللغة والأدب في عصره، المتوفى ببغداد سنة ٣٢١هـ ويمدح فيها ابن ميكال الشاه وأخاه ويصف سيره إلى فارس ويتشوق إلى البصره وإخوانه بها ومطلعها:

أما ترى رأسي حاكى لونه		طرّة صبحٍ تحت أذيال الدّجا

وعدد أبياتها ٢٢٩. وطبعت غير طبعة مع شروحهما.

٢- الأبيات في مستفاد الرحلة والاغتراب ٢٤٠ .

٣- في ت و ط: مع الأماق ذو جزع.

٤- الشعر في مستفاد الرحلة والاغتراب ٧٩ .

مُوَثِّقاً عَدْلَ أهْليهـا، وأجْـرَحُ مَـنْ ... تكلّموا فيهِ في مَاضٍ مِـنَ الزَّمَنِ

أروي الأحاديثَ عن ثَبْتٍ أخِي ثقةٍ ... أقُولُ: حَدَّثَني شَيْخِـي وَأخْبَرَنِـي

وَأشْبِعُ القولَ في إيضاحِ مُعْضِلِها ... وَحَلِّ مُعظمِها جَرْياً علـى السُّنَنِ

خُطَّتْ عَلَـى جَبْهَةِ الأيّامِ خـالـدةً ... «تلك المكارمُ لاقَعْبَانِ مِنْ لَبَـنِ»[1]

قلت: وقد تقدّم إلى هذا الفقيه أبو مروان الطُّبْنِي[2] في قوله:[3]

[البسيط]

إنِّي إذا حَضَرَتْنِـي ألفُ مَحْبـرةٍ ... يَكْتُبْنَ حَدَّثَني طَـوْراً وأخبَرنِـي[4]

نَـادَتْ بِعَقْوتِـهـا الأقْـلامُ مُعلنَةً ... «هَذِي المفَاخرُ لاقَعْبَانَ مِنْ لبَنِ»[5]

وأنشدني له أيضاً:[6] [الطويل]

١–تضمين صدر بيت أمية بن أبي الصلت في ديوانه ٤٥٩، وعجزه:

« شيبا بماء فعادا بعد أبوالا »

٢– عبد الملك بن زيادة الله الطُّبني: أصله من طُبْنة بإفريقية وهي قاعدة اقليم الزاب: عالم باللغة والحديث، شاعر، توفي سنة ٤٥٧هـ انظر جذوة المقتبس ٢٨٤. . المغرب ١/٩٢، الصلة ١/٣٦١.

٣– الأبيات في جذوة المقتبس ٢٨٥، بغية الملتمس ٣٧٩، الصلة ٣٦١، المغرب ١/٩٣، النفح ٧/٤٩، الذخيرة ١/٥٤٢ .

٤– في الصلة والبغية والجذوة: إذا احتوشتني، وفي المغرب: تقول أخبرني هذا وحدثني، وفي الذخيرة: تقول أنشدني طوراً وأخبرني.

٥– في الصلة والبغية والجذوة والمطمح: بعقوتي، وفي النفح: نادت بمفخري، وفي المغرب: صاحت بعقوتي الأقلام زاهية وفي الذخيرة: ياحبذا ألسن الأقلام ناطقة.

٦– البيتان ١و٢ في مستفاد الرحلة والاغتراب ٧٨ والعقد الثمين ٤/١٧٨.

تَسَرْبَلْـتُ سِـرْبَالَ القَنَـاعَةِ والرِّضا   صَبِيّاً فَكَانَا فِـي الكُهـولَةِ دَيْدَني[1]
وَقَدْ كَانَ يَنْهانِي أَبي - حفَّ بالرِّضَا   وبالعَفْوِ - أَنْ أُولي يَداً مِنْ يَدَيْ دَني
[فمذْ كُنتُ لَمْ أَقْبَلْ يَداً مِنْ يَدَيْ فَتًى   سَنِيٍّ فَهَلْ أَرْضى بِها مِنْ يَدَيْ دَنِـي][2]

وأنشدني أيضاً، قال: أنشدنا الشَّيخُ الأجلُّ، العَدْلُ، الفاضلُ، عزُّ الدِّين أبوالقاسم عبدُ الله بنِ الحَسَنِ بنِ عبدِ الله بن رَواحةَ الأنصاريّ الحَمويّ، قال: أنشدتنا الشَّيخةُ الأديبةُ أمُّ عليٍّ تقيّةُ بنتُ الإمامِ أبي الفَرَجِ غيثِ بنِ عليِّ بنِ عبدِالسَّلامِ الأرْمنازيّ الصُّوريّ[3] لنفسِها بالإسكندريَّة: [الطّويل]

[٧٣/أ] سَلامٌ علـى هِنْدٍ، وإنْ بَعُدَتْ عَنّا   فَقَدْ خلَّفتْ قَلْباً كَئِيباً بِهَا مُضْنَى
يَــظَــلُّ مَدى الأيّامِ يَقْرَعُ سِنَّهُ   ولاغَروَ للمُشْتَاقِ أَنْ يقرَعَ السِّنّا
ويَمْشي على جَمْرِ الغَضَى مُتقلِّباً   وَيَبْكي عَلى أَوْطانِهِ أبداً حُزْنَا[4]
ويرْقَبُ نَجْمـاً لايَغُورُ، وَيـرتجـي   خَيالاً مِنَ الأحْبَابِ يلتبسُ الجَفْنا
٥- تُرى تجمعُ الأيّامُ شَمْلي بِجِلَّقٍ   على رَوضةٍ غَنَّاءَ طيِّبةِ المغنى
وَأَنْهارُ ثَـوْرا، والبَساتينُ حولَها   وأطيارُها يبكينَ شَجْواً ويَنْدبْنا
تمنَّيتُهـــــا داراً أَحُـلُّ بقُرْبِهَا   رَضيتُ ولو كانَتْ منازلُها سِجْنا[5]

١- في ط: تسربَت.

٢- البيت غير موجود في الأصل. وهو في ت و ط.

٣- تقية بنت غيث بن علي بن عبد السلام الأرمنازي: فاضلة، متأدبة، لها شعر جيد جمع في ديوان صغير أصلها من بلدة صور. وولدت بدمشق سنة ٥٠٥هـ. وسكنت الإسكندرية وتوفيت بها سنة ٥٧٩هـ، ترجمتها في أعلام النساء ١/١١٤- النجوم الزاهرة ٦/٩٦- وفيات الأعيان ١/٢٩٧ خريدة القصر: قسم مصر ٢/٢٢١-.

٤- في ت و ط: يمسي.

٥- في ط: تمنّيتمو داراً.

بلادٌ رُباهـا المسْكُ والرَّاحُ مَاؤُهَا   فلو سَيَّرونا في الهَوَى نَحوَها سِرْنا[1]
لأنَّ بـهـا أُخـتـاً عَلَـــيٌّ عزيزةٌ   وقـدْ أَخَذَتْ قَلْبي لدى قُربِها رَهْنا
وأَضْـحَيتُ في دارٍ غَريباً بأرضِها   وَحيداً بلا قَلْبٍ، وماطابَ لي سُكْنى[2]
وَلَـولا نَسيـــمٌ جاءَنـا بنَسيمِهـا   وقُرْبُ الإمامِ الحافظِ الحَبْرِ ماعِشْنـا

تعني الحافظ السِّلَفيّ رحمه الله .

وأنشدني شيخُنا المذكورُ لنفسِهِ:   [البسيط]

سَرَوا بقَلْبي الَّذي قدْمـاً لهُ أَسَرَوا   وخَلَّفوني بنَـارِ الشَّوقِ أستَعِرُ
أهوى نسيمَ الصَّبا هَبَّتْ لنا سَحَراً   في طَيِّهـا خَبَرٌ مَنْ نَشْرُهُمْ عِطرُ
يـاعَاذِلـي لَوْرَأَتْ عَيْنَاكَ حُسْنَهـمُ   عَلِمْتَ أَنِّيَ مـالي عَـنْـهُ مُصْطَبَـرُ
يُقيمني نحوَهُمْ وَجْدي، ويُقعِدُني   إذا نَهضْتُ إلى مغنـاهُمُ القَـدَرُ
أَلِيَّةٌ بَرَّةٌ بالخَيْـفِ خَيْـفِ مِنًـى   وبالحَجيجِ، وَمـاحَجُّوه واَعْتَمَرُوا[3]
مازلتُ بعدَهُـمُ صَبّاً لرؤيتِهِـمْ   لَيْلي بِهِمْ، ونَهـارِي كُلُّهُ فِكَـرُ
قَرَّتْ عُيُونُهُمُ بـالنَّوْمِ فـي دَعَةٍ   ومُقلَتي سَخَنَتْ قَدْ شَفَّها السَّهَرُ
وَأَحْسُدُ العِيسَ إذْ فـازت بقربِهِم   دُوني وقُربُهُمُ المَأْمولُ والوَطَرُ[4]
ياصاحِ إن جزْتَ بالجَرْعاءِ عُجْ بهمُ   واحذَرْ ومن قَدَرٍ لاينفعُ الحَذَرُ[5]

١– في ط: تربها المك.

٢– في ط: في داري، وفي ت: ولا طاب.

٣– الألِيَّة: اليمين.

٤– في ت: وأحسد العين. وفي ط: وأحسد العيش.

٥– اقتباس من الحديث الشريف: «لن ينفع حذر من قدر، ولكن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل فعليكم بالدعاء عباد الله». وقد أخرجه أحمد في مسنده: ٥/١٣٤ من حديث معاذ رضي الله عنه.

١٠- فإن رَمَوكَ بسَهْمِ اللّحظِ مِتَّ جوىً وَلَمْ يُداووكَ إذْ قَتْلاهُمُ هَدرُ[١]

وأنشدني أيضاً لنفسه مشيراً إلى أنّ ماروي عن رسول الله [٧٣/ب] ﷺ من التَّرجيع في القراءة إنّما أوجبه ركوب البعير[٢]: [الطويل]

رَوَيْنا بإسْنادٍ عَنِ ابْنِ مُغَفَّلٍ حَديثاً شَهيراً صحّ منْ علّةِ القدْحِ[٣]
فإنَّ رسُولَ اللّهِ حينَ مَسيرِهِ لثَامنَةٍ وافتْحُهُ فِي غَزْوَةِ الفتْحِ
تَلا خيرَ مَسمُوعٍ بمَتْنِ بَعيرِهِ فَرَجَّعَ فِي الآياتِ من سُورةِ الفَتْحِ[٤]

وأنشدني أيضاً لنفسه:[٥] [البسيط]

عِلْمُ الحَديثِ لَهُ فَضْلٌ وَمَنْقَبَةٌ نالَ العَلاءَ به مَنْ كانَ مُعتنياً
مَاجازَهُ كامِلٌ إلاّ ونقَّصَهُ أوْ حَازَهُ عاطِلٌ إلاّ بهِ حَلِيَا[٦]

وأنشدني أيضاً لنفسه:

وما العلم إلاّ في كتاب وسُنَّةٍ .... البيتين. وقد مضى تقييدهما[٧] والحمد لله .

١- في ط: ولم يدروا ودما قتلاهم هدر.

٢- الأبيات في طبقات الشافعية ١٠/١٢، والأول والثاني في النجوم الزاهرة ٨/٢١٩ ومستفاد الرحلة والاغتراب ٧٦.

٣- هو عبدالله بن مغفل المزني: صحابي من أصحاب الشجرة، سكن المدينة، ثم أرسل إلى البصرة لتفقيه الناس حيث توفي فيها سنة ٥٩ أو٦٠هـ . له ترجمة في الإصابة ٢/٤٦٣، الجمع بين رجال الصحيحين ٢٤٢ .

٤- رواية الشطر الأول في طبقات الشافعية: تلا خير مقروء على خير مرسل.

٥- البيتان في مستفاد الرحلة والاغتراب ٧٦ وفهرس الفهارس ١/٤٠٩.

٦- رواية الشطر الأول في ت: ماحازه ناقص إلاّ وكّمله، وفي ط: إلاّ به عليا .

٧- سلف البيتان في الصفحة ٢٨٦ .

ولمّا استجزتُهُ لي ولولدي محمّدٍ - هداهُ اللّه - ووقفَ على الاستدعاءِ لذلكَ قالَ لي: ألَكَ ولدٌ غيره؟ فقلتُ: نعم، ثلاثةٌ. فقال لي: ولِمَ لمْ تستجزْ لهُمْ جَميعاً؟ فقلتُ: لأنَّهُمْ صغارٌ. وهذا الّذي استجزتُ له قَدْ حَفظَ القرآنَ، فقال لي: أنا أكتبُ لكَ ولهمْ جَميعاً، (حتّى يكونَ من يكتبُ في هذا الاستدعاءِ بَعدَ خطّي يُجيزُكم جَميعاً[1]). فكتبَ الإجازةَ بكُلِّ مايحمِلُ، وكلِّ مالَهُ من تآليفَ وتخريجٍ لي ولجميع الأولاد - وفقّهُمْ اللّه - وكنّى أحد المُحمّدين الآخرين[2] أبا عليٍّ، والآخرَ أبا بكر، وقيّد خطّهُ بذلكَ في الاستدعاءِ. وهو مليحُ الخَطِّ. مارأيتُ بديار مِصْرَ أملَحَ منهُ خَطّاً، وكان يُسائلني عن أشياءَ ويباسِطُني. ولمّا وردتُ مصْرَ راجعاً من الحجاز، وكنت مَريضاً، أنزلني عنده في المدرسة وكان عندَهُ بها طبيبٌ ماهرٌ يحضرُ مواعيدَهُ، فأمرَهُ أن يتفقّدَني بالغَداة[3] والعَشيِّ[4] فكان يفعل ذلك، ولم يقصّرْ في العِلاجِ حتّى استقلّلْتُ، ومَنَّ اللّهُ بالرّاحَةِ لهُ الحمدُ والشُّكرُ كثيراً.

[لقاؤه لابن دقيق العيد]

وممّن لقيتهُ بها الشّيخُ، الفقيهُ المحدّثُ، الأصوليُّ، المتفنّنُ، عالمُ الدِّيارِ المصريّةِ، تقيُّ الدّين أبو الفتحِ محمّدُ [٧٤/أ] بنُ عليِّ بن وَهَبٍ بن مطيعٍ بن أبي الطّاعَة القُشَيْريُّ[5]، ويعرف بابنِ دقيقِ العيد، صاحبُ المدرسةِ الكامليّةِ. لقيت منه حَبْراً [كاملاً عالماً][6] يحقّ له اللّقاء، وبَحْراً من علمٍ لاتكدّره

١- سقط من ط.

٢- ليست في ت و ط.

٣- في ط: بالغدوة.

٤- ليست في ط.

٥- توفي ابن دقيق العيد سنة ٧٠٢هـ. انظر شذرات الذهب ٥/٦ .

٦- زيادة من ت.

الدِّلاء[1]، وطبّاً آسياً يشفي بقولِهِ الدّاءَ العيَاء، له تفنّنٌ في فنون العلوم، وتسلّطٌ عليها بذهْنٍ يردّ المجهولَ إلى المعلوم، وقلّما يُلفَى له في سعَةِ المعارفِ نظير، أو يوجدُ مَنْ يُماثِلُهُ في صِحّةِ البَحْثِ والتّنْقير[2]، ولهُ في البلادِ ذكرٌ شَهير، وصيتٌ مُستطير، وخَطَرٌ خَطير، يَضرِبُ في كُلِّ فنٍّ بِسَهْمٍ مُصيب، ويَحظى منهُ بأوفرِ نصيب، ولقيَ جماعةً منَ الأعلامِ فأخذَ عنهمْ وحَصَّل؛ ومازال يُؤصِّلُ نفسَهُ في المعارفِ حتّى تأصّل. فهو الآنَ قُطْبُ مِصْرَ وَعَلَمُها، لولا وسوسةٌ تَصْحَبُهُ، وأخلاقٌ يجلُّ عنها مَنْصِبُهُ، لوكانت لها صورةٌ كانَتْ أشنعَ الصّوَر؛ أو تُليتْ لهُ سُورةٌ كانَتْ أبدعَ السُّوَر، وكان في أوّلِ أمرِهِ مالكيّاً على رأيِ أبيه، ثم انتقلَ بَعْدُ شَافعيّاً لصورةٍ تسمُح، وقضيّةٍ عن أحكامِ المُروءَةِ تخرُج. وقَدْ ذكرَ لي عَنْهُ بعضُ مَنْ أثِقُ بهِ ممّنْ لهُ به اختصاص، كلاماً في حَقِّ الإمامِ مالكٍ - رضي الله عنه - جارياً على سَنَنِ أخلاقِه، ودالاً على إنهاجِ[3] ثوبِ المروءةِ وإخلاقِه، ومن جُملةِ مايَصْحَبُهُ من الوسواسِ أنّه لايُمَسُّ منه عضو ولا لباس، بل يَقْتَصِرُالواردُ عليهِ على الإشارةِ بالسّلامِ إليهِ، وحطِّ الرّأسِ على العادةِ الذّميمةِ بين يديه.[4]

وقد حدّثني عنه [بعضُ][5] من أثقُ بهِ أنّه يأتي إلى جابيةِ الماءِ في شِدّةِ البَرْدِ، فينغمسُ فيها بثيابهِ لأقلِّ وسوسةٍ تعتريه، حتّى أثّرَ ذلك في ضَعْفِ قوّتهِ، ولاحَ أثره في اختلال صحّته. ورأيتهُ وهو يُملي عليّ من حديثه يَمسك

١- أفاد من قول حسان في ديوانه ١٠ :

لساني صارمٌ لا عيبَ فيه ويحري لا تكدّره الدلاءُ

٢- التنقير: التفتيش.

٣- نهجَ الثوب: إذا بلي.

٤- ذكر التجيبي في مستفاد الرحلة والاغتراب ١٧ أمثلة كثيرة على وسواس ابن دقيق العيد.

٥- زيادة من ت و ط.

الكتابَ بعودين، ولايَمسُّهُ بيده، ويعاني تصفيحه[1] كذلك، فيكابدُ منه شدّةً لَهبُها يُضرِم، وحبلُ الرَّاحةِ لأجلها يُصرَم، ويحلُّ بالكتب[2] منه العذاب المهين والبلاء المبرَم.

وقد أجازني جميعَ ماحدّثَ به من [٧٤/ب] مسموعاته، وجميعَ ماصَدَرَ عنهُ من نَظْمٍ ونثْر، وكذلكَ أجازَ وَلَدي محمّداً - وفقّهُ الله - وقيَّدَ لي بذلك خطَّ يَدِه، وقَيَّد لي بخطّه مولدَه، وذكر أنّه كانَ بيَنْبُعَ[3] من البلادِ الحِجازيَّة في يومِ السَّبتِ الخامسِ والعشرينَ من شَعبان من عام خمسة وعشرينَ وستٍّ مئة. ووقفَ على ماتقيّد من هذه الرِّحْلَةِ واستحسَنَهُ، وأفادني فيها أشياءَ، وقيَّد منها وفاة الشَّقراطِسِيِّ صاحبِ القصيدةِ المشهورة، حسبما تقيّدت في موضعها فيما[4] تقدّم، وذكر لي أنّهُ طالَما بحثَ عنها فلَمْ يَجدْها. وفي أوّلِ مارأيته قال لي: كانَ عندكُم بمرّاكُش رَجُلٌ فاضلٌ، فقلت له: من هو؟ فقال: هو أبو الحَسَنُ بن القطّان[5]، وذكر كتابَهُ «الوَهْمَ والإيهام»[6] وأثنى عليه، وذكرت له

١- في ط: تصفّحه.

٢- في ت و ط: بالكتاب.

٣- يَنْبُعْ: ميناء بين مكة والمدينة، على سبع مراحل من المدينة، وعلى ليلة من جبل رضوى. انظر ياقوت ٥/٤٤٩ .

٤- في ت و ط: ممّا. وتقدّمت وفاة الشقراطسي في الصفحة ١١٩ من الرحلة.

٥- علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي الحميري الفاسي: من حفاظ الحديث ونقدته، ولي قضاء سجلماسة. له تصانيف منها: «بيان الوهم والإيهام» توفي سنة ٦٢٨هـ. ترجمته في سير أعلام النبلاء ٢٢/٣٠٦- الإعلام للمراكشي ٩/٧٥.

٦- هو كتاب: «بيان الوهم والإيهام الواقعين في كتاب الأحكام» انتقد به الأحكام الشرعية الكبرى لأبي محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الأزدي الإشبيلي المعروف بابن الخراط المتوفى سنة ٥٨١هـ.

تعقُّبَ ابنِ المَوّاقِ[1] عليه، وأنّه تركَهُ في مُسوَّدته. فعاني إخراجَهُ صاحبُنا الفقيهُ الأديبُ الأوحدُ أبوعبدُ الله بنُ عبدالملك[2] -حفظَهُ الله تعالى- فقال لي: ومن هذا الرَّجُلُ؟ فعرَّفتُه به وبما حَضَرني من تحليتِه، وما أذكرُ من تقاييده، ومن جُملتها تذييلُهُ[3] على كتابِ «الصِّلة»[4] لابن بَشْكُوال، وأنّه كتابٌ مُتْقَنٌ مفيدٌ، فعجِبَ من ذلكَ وكتبَ ماأمليتُ[5] عليهِ منهُ. (6وسألَني عَن موضِعي فذكرتُ لهُ مَرّاكُش، فقالَ لي: بلادُكم بعيدةٌ وبينَ يومِكُمْ ويومِنا في الطُّلوعِ والغروبِ مقدارُ ساعتينِ،لأنَّ بلادَكُمْ مُوغلةٌ في الغَرْبِ6).

وجرى معه ذِكْرُ أبي القاسم الشّاطبيّ - رحمه الله - صاحب القصيدةِ المَشْهورَةِ، فوصفَهُ بالحفظِ العظيم، وذكر أنَّهُ جَرَتْ مسألةٌ بمحضَرِهِ فذكرَ فيها نصّاً واستحضَرَ كتاباً، فقال لهم: اطلبوها منه في مقدارِ كذا، ومايزالُ يُعيِّنُ لهم موضِعَها[7] حتّى وجدوها على ماذكر، فقالوا له: أتحفَظُ

١- في ت و ط: الموّاز، وهو خطأ. وابن المواّق هو عبد الله محمد بن يحيى بن خلف بن فرج بن صاف: فقيه، حافظ. محدّث، ناقد. له تعقّب على كتاب شيخه أبي الحسن بن القطان الموسوم ببيان الوهم والإيهام الواقعين في كتاب الأحكام. له مؤلفات منها: شيوخ الدارقطني وشرح مقدمة صحيح مسلم. توفي بمراكش سنة ٦٤٢هـ . له ترجمة في الذيل والتكملة ٨/٢٧٢-٢٧٤- الإعلام للمراكشي ٤/٢٣١-٢٣٤ .

٢- هو محمد بن محمد بن سعيد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي: مؤرخ، أديب، قاض، ولي قضاء مراكش مدة، توفي بتلمسان سنة ٧٠٣هـ. من كتبه الذيل والتكملة لكتاب الصلة، وهو يتضمن تراجم أندلسية ومغربية طبع منه أجزاء في بيروت والرّباط. ترجمته في الديباج ٣٣١-٣٣٢-والإعلام للمراكشي ٤/٢٣١- معجم المؤلفين ١١/٢١٩ .

٣- هو كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة. طبعت أجزاء منه.

٤- كتاب تراجم أندلسية طبع غير مرّه.

٥- في ت و ط: أمليته.

(٦-٦)- سقط من ت.

٧- في ت: موضعاً.

الفِقْهَ؟ فقال لهم: إني أحفظ وِقْرَ[1] جَمَلٍ من كُتُبٍ، فقيل له: هلاّ دَرَّسْتَها؟ فقال: ليسَ للعُميانِ إلاّ القرآن. قال: وقال لي صِهْرُهُ أبو الحَسن عليُّ بنُ شُجاعِ بنِ سالم[2] وكانَ أيضاً ضريراً، وأخذَ القِراءَةَ[3] عَنْهُ: أردتُ مرّةً أنْ أقْرأَ شَيْئاً من الأصولِ على ابنِ الورّاق. فسمعَ بذلكَ [٧٥/أ] فاستدعاني فحضرتُ بين يديهِ فأخذ بأُذُني ثم قالَ لي: أتقرأُ الأصولَ؟ فقلتُ: نعم. فمَدَّ بأذْني ثم قالَ لي: من الفضُول أعمى يقرأُ الأصول[4] .

وسمعتُه يقول: دخلَ القاضي الفاضلُ[5] على السُّلطان[6]، وفي يده كتاب زُوِّرَ عليه، وأراد قَتْلَ الَّذي زوّرَه أو قَطْعَ يدِه،[فاستشار القاضي الفاضلَ عمّا يجبُ عليه في ذلك من العُقوبة]،[7] فقال له: عسى أن تكتبَ تحتَ خطّه مثلما كتبَ لأرى هل يُشبه خطُّهُ خطَّك؟ فكتبَ فلمّا فَرَغَ منهُ قال لهُ: إن كان الأوّل مزوّراً عليكم فهذا غير مُزوّر، يعني خَطَّه، فاستحسن السُّلطانُ لُطْفَ احتيالِه،وعَفا عنه وأمضى كتابَهُ.

وقال لي: كانَ بمصرَ شاعرٌ هجّاء، فصنع[8] قصيداً هَجا فيه جميعَ أهْلِ الخُطَطِ في مصر، وبدأ بالسُّلطانِ، فبلغَ ذلكَ إليه، فاستحضَرَ القاضي

١- الوِقْرُ: الثقل يحمل على ظهر أو على رأس.

٢- في الأصل: علي بن سلام بن شجاع.

٣- في ت و ط: القراءات.

٤- الخبر في الذيل والتكملة ٥-٢/٥٤٩-٥٥٠

٥- القاضي الفاضل: هو عبدالرحيم بن علي بن محمد بن الحسن اللخمي: قاضٍ حظي عند السلطان صلاح الدين الأيوبي بمنزلة عظيمة، له رسائل متقنة، مات سنة ٥٩٦هـ. ترجمته في خريدة القصر قسم مصر ٣٥/١- حسن المحاضرة ٥٦٤/١- شذرات الذهب ٣٢٤/٤ .

٦- المقصود صلاح الدين الأيوبي.

٧- زيادة من ت.

٨- في ط: فنظم.

الفاضلَ فسأله عمّا ينبغي من عُقوبتهِ، وكان الشّعرُ في يدهِ، فقال له: انظر إلى هذا الّذي صنَع، فقال له: وما صنع؟ إنّما قال: أنا جائعٌ فأطعموني، فعفا عنه السُّلطان وأمر له بعطاءٍ جَزيل[1].

وأملى عليَّ حديثاً عن شيخه الفقيهِ القاضي أبي عمران مُوسى بنِ زكرياءَ بن إبراهيمَ بن محمّدِ بن صاعدِ الحَصْكَفيّ[2] قال: وكان فَقيهاً حنفيّاً قاضياً[3] [بآمد][4]، مدرّساً بالمدرسة الدَّيْلَميّة[5] من المُعزّية، فقلتُ له: ما المُعزِّيةُ؟ فقال لي: هي مدينةُ القاهرة، بناها المُعزّ العُبَيْديّ[6] - لعنهُ الله - وسمّاها بذلكَ فكان العُلماءُ يتحرّجونَ من ذِكْرِ هذا الاسم، فينسبونها إليه، المُعزّيةُ. قلت: والتّحرّج في ذكر المُعّز أحقُّ، وأرى أن يُقال عنها: قاعدةُ ديارِ مصر أو مدينتُها، أو قَصَبتُها، أو نحو ذلك، ممّا تُعرف به وبالله التّوفيق.

وحدّثني إملاء من كتابه قال: قرأتُ على والدي الفقيهِ مجد الدِّين أبي الحُسَن، وكان مُفتياً متفنّناً، نفعَ الله بهِ في العلْمِ أمّةً من النَّاس، وقرأ عليه أيضاً فيما قرأهُ هو على الإمامِ الحافظِ أبي الحَسَن عليِّ بن المفضّل المَقْدِسيّ قال: أنا الإمامان[7] أبو الطّاهر إسماعيلُ بن مكيّ بن اسماعيلَ

١- في ط: بجائزة عظيمة.

٢- نسبة إلى حصن كيفا وهي مدينة من ديار بكر انظر الأنساب ١٥٤/٤.

٣- ليست في ت.

٤- ليست في الأصل. وآمد: أعظم مدن ديار بكر، وهو بلد قديم حصين، ركين مبني من الحجارة السود على نشز دجلة.

٥- تقع في حي الدّيلم.انظر خطط المقريزي ٣٧٨/٢ .

٦- هو معدّ بن إسماعيل بن القائم بن المهدي عبيد الله الفاطمي العبيدي صاحب مصر وإفريقية تولى الحكم سنة ٣٤١هـ . دخل الإسكندرية سنة ٣٦٢هـ. ودخل القاهرة فأصبحت مقرّ ملك الفاطميين إلى آخر أيامهم. توفي سنة ٣٦٥هـ. انظر اتعاظ الحنفا ١٣٤ .

٧- في الأصل: الإمامين وفيها غلط نحوي.

الزُّهري، وأبو طالب صالحُ بن إسماعيل بن سَنَد الزَّنّاري والمشايخ [٧٥/ب] أبو الحجاجُ يوسفُ بن محمَّد بنُ عليّ القَرويّ، وأبو منصور ظَافر بن عَطيّة ابن قائدِ اللّخْميّ وابو المفضَّل عبدُالمجيد بنُ المُحسنِ بنِ دَليل الكِنْديّ، قالوا: أخبرنا أبو بكر مُحمّد بنُ الوليد بنُ مُحمّد الفِهْريّ، قال: أنا أبو عَليّ عليّ[١] ابن أحمد بن عليّ بن محمّد[٢] التُّسْتَريّ بالبُصْرة، قال: أنا أبو عُمَر القاسم ابنَ جَعْفرِ بنِ عبدالواحدِ العَبّاسي قال: أنا أبو عليّ مُحمَّد بنُ أحمد بن عمرو اللؤلؤيّ، قالَ: أنا أبو داودُ سُليمانُ بن الأشْعَث[٣] السِّجستانيّ، قال: أنا مُسدّد، قال: أنا حمّادَ بن زَيْدٍ وعبدُالوارثِ بنُ عبدِالعزيزِ عن أَنَسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا دخل الخَلاءَ قالَ عن حَمَّاد: «اللَّهُمَّ إنِّي أَعوذُ بكَ»، وقال: عن عبدالوارث «إنيّ أعوذ بالله من الخُبْث والخَبائثِ»[٤]. قال الشَّيخ: هكذا في الأصل الّذي بخطِّ والدي من الخُبْث، بإسكان الباء. وقد عُدَّ ذلك من غَلَط المحدّثين، وله وجْهٌ يصحّ به فسألْتُهُ عنهُ: فقال لي هو إسكانُ العَيْنِ في كلّ ماجاء على «فُعُل» في لسانِ العَرَب. قلتُ: المُنكرُ للإسكانِ هو الإمامُ أبو سُليمان الخطّابي[٥] - رحمه الله - وليس مِمن يُقَعْقَعُ له بالشّنان[٦]، ولا يُقابَلُ تحقيقهُ بزخرفةِ لسان، وذلكَ أنّه إن أُريد

١- ليست في ط.
٢- في ت وط: بحر.
٣- في ط:الأشعب.
٤- سلف تخريج الحديث في الصفحة ، وهو في غريب الحديث لابن سلام ١٩٢/٢.
٥- هو حمد بن محمد بن إبراهيم الخطّابي البُستي: فقيه محدّث من أهل بُست. له شعر وتصانيف منها: «معالم السنن» في شرح سنن أبي داوود «بيان إعجاز القرآن» توفي في بُست سنة ٣٨٨هـ. له ترجمة في إنباه الرواة ١٢٥/١- وفيات ابن قنفذ ٢٢٢- وفي شذرات الذهب ١٢٧/٣.
٦- في الأصل وت بالسّنان، وهو مثل كما في المستقصى ٢٧٤/٢، واللسان: شنّ.

بالخُبْث هنا المصدر من خَبُث، تفاوتَ نَسَقُ الكلام، واضطربَ منهُ نظامُ الانتظام، كما لو قيل: أعوذ بالله من أنْ أكونَ خبيثاً، ومن إناثِ الشَّياطين، وسَماجةُ[1] هذا الوَصْف ممّا لايخفى، وإنْ أُريدَ بالخُبُث جمع خَبيث، وخفّف الخُبث بالضَّم كما زَعَم الشَّيخُ هنا وَجب أن يُمْنَع لأنَّ التّخفيف إنّما يطرّد فيما لايلتبس مثل: عُنُق وأُذن من المُفرد، ورُسُل وسُبُل ونُذُر من الجَمع، ولايطرّد فيما يلتبس مثل: حُمُر وحُصُر فإنَّ التّخفيف في حُمُر يلتبس بجمع أَحْمَر وحمراء، وفي الحُصر بالمفرد. والحَصْر: احتباس النَّجْو،[2] ولذلكَ قُرِيءَ في السَّبع: رُسُلُنا، وسُبُلُنا، ونُذُراً، و ﴿الأُذن بالأذْنِ﴾[3]، كلُّ ذلك بالتَّخفيف، ولم يقرأ في السَّبعِ ﴿كأنهمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَة﴾[4] إلاّ بضمّ الميم. فكذلك ينبغي ألاّ يُخفّفَ الخُبْث إلاّ مَسموعاً من العَرب [٧٦/أ] لئلاّ يلتبس بالمصدر؛ ومن هذا امتناعُهم من إدغامِ مايلتبس إدغامُهُ نحو: وَتِد، وعتد، وشاة زَنْماء وادغموا في هَمَّرش وامَّحى لمّا[5] أمنوا اللّبسَ. والإدغامُ وَجْهٌ من التّخفيف، فهم كما ترى لايخفّفون إلاّ حيثُ يأمنونَ اللّبس وهو هنا غيرُ مأمون. ألا ترى أنَّ أبا عُبيد القاسمَ بنَ سَلاّم، على إمامته، قد فسّر الخبْث هنا بالشَّرِّ لمّا رواه بإسكان الباء[6]، والصّواب ضمُّها كما قال أبو سليمان رحمه الله.

وحدّثني إملاءً بلفظه من كتابه، قال: أنا الحافظُ أبو البقاءُ خالدُ بنُ يُوسُفَ بنِ سَعْدٍ[7] النَّابلسيّ بدمشق، عن الحافظِ ابنِ الحافظِ أبي محمّد

١- السَّماجَةُ: القُبح.

٢- النَّجْو: العَذِرة.

٣- سورة المائدة ٤٥.

٤- سورة المدثّر ٥٠.

٥- في الأصل كما وهو تصحيف.

٦- غريب الحديث ١٩٢/٢

٧- في ت و ط: سعيد. والصواب ماأثبتناه، انظر طبقات الحفاظ للسيوطي ٥٠٧.

القَاسِم بن عليّ بن الحَسَن قراءة عليه، قال: أخبرنا أبو الدُّرِ ياقوتُ بنَ عبدِ الله أيضاً، قال: أنا أبو محمّد عبدُ الله بنُ محمّدٍ الخطيب، قال : أنا محمّدٌ بنُ عبدالرَّحمنِ بنِ العبّاس الذَّهبيٍّ المخلص، قال: أنا أبو القاسم عبدُالله بنِ محمّد، قال: أنا طالوتُ بنُ عَبّاد أبو عُثمانَ الصَّيْرفيّ، قال: أنا فَضّال بنُ جُبَيرْ، قال سمعتُ أبا أُمَامَةَ الباهليَّ يقول: سمعتُ رسولُ الله ﷺ يقول: «اكفلوا لي بِستٍّ أكفلْ لكُمْ بالجنّة: إذا حدّثَ أحدُكُمْ فلا يكذبْ، وإذا اؤتمنَ فلا يَخُنْ. وإذا وَعَدَ فلا يُخلِفْ. غُضُّوا أبْصَارَكُمْ، وكُفُّوا أيْديَكُمْ، واحفَظوا فُروجَكُمْ».(1)

قال الشّيخُ: هذا من العوالي الّتي تسمو هِمَمُ أهلِ الحديث إليها، وتتهافتُ رغبةُ الطَّلَبة عليها، وهو تساعيّ الإسناد. وقال الحافظ أبو محمّد القاسم: فَضّال بن جبير يكنى أبا المُهنّى ويروي عن أبي أمامةَ صدي بن عَجْلانَ نحواً من عشرةِ أحاديث كلّها غيرُ محفوظة والله أعلم.

قلت: ليس العلوّ بكونه تُساعيَّ الإسناد مستغرباً لمثله من الشّيوخ، وقد رأينا مَن يروي الثّمانيّات(2)، وأمّا التُّساعيّاتُ(3) فهي الغالبُ من عُلوّ السَّند في زماننا هذا، وقد جمع شيخنا الفقيه الحافظ الحافل أبو زيد عبد الرحمن ابن محمّد بن محمّد القيروانيّ جزءاً من تساعيّاته وكان – حفظَهُ الله – قد وهبَ لي منها نُسخةً فضاعت بآفةٍ طَرَأَتْ في الطّريق [76/ب] والحمد لله على كلٍّ حال.

1- حديث أخرجه ابن عدي في الكامل 2047/6 ، والطبراني في المعجم الكبير 314/8 والجامع الكبير للسيوطي 13/2 وكنز العمال 94/15.

2- الثمانيات: وهي التي يكون في سندها ثمانية رجال من الراوي إلى الرسول ﷺ .

3- التساعيات : وهي التي يكون في سندها تسعة رجال من الراوي إلى الرسول ﷺ .

(1)وقد وقع لنا هذا الحديث تساعياً: أنا الشَّريف أبو الحَسَن الغَّرافي وأبو الحَسَنْ عليٌّ بنُ محمَّد بن المُنَيِّر عن ابنِ المباركِ ابن الشَّهرزوريِّ عن أبي الحُسين أحمد بن محمَّد بن ...(2) عن أبي القاسم عبد الله بن محمَّد بن إسحاق بن حُبابة عن أبي القاسم عبد الله بن محمَّد بن بنت مَنيع وهو الرَّاوي عن طالوت(1).

وأنشدني شيخُنا أبو الفتح المذكور إملاءً من كتابه، قال: أنشدني الفقيهُ المفتي هارونُ بنُ عبدِ الله بنِ هارونَ بن الحسين بن أحمدَ المَهرانيّ قديماً، قال: أنشدنا الفقيهُ الإمامُ العالمُ أبو الحسن عليٌّ بنُ المُفَضَّلِ بنِ عليٍّ المَقْدِسيّ لنفسه(3): [الكامل]

خَسِرَ الّذي تَرَكَ الصَّلاةَ وخابَا ... وأَبَى مَعَاداً صَالِحاً وَمَآبَا(4)

إنْ كانَ يجْحَدُها فَحَسْبُكَ أنَّهُ ... أمْسَى بِربِّك كَافِراً مُرْتَابا(5)

أو كَان يَتركُها لِنَوْعِ تَكَاسُلٍ ... غَشَّى على وَجْهِ الصَّوابِ حِجَابَا(6)

فالشَّافِعيُّ ومَالكٌ رَأيَا لَهُ ... إنْ لَمْ يَتُبْ حدَّ الحُسَامِ عِقابَا

1-1- سقط من ت.

2- بياض في جميع النسخ بمقدار كلمة. وأظنه ابن السّراج.

3- القصيدة بتمامها في الذيل والتكملة 8-2/436. والأبيات 1-2-3-4-9- في المستطرف 35-36- والأبيات 1-2-3-4-7-8-9-10-11-12 في درّة الحجال 2/185-186 والأبيات 1-2-3-4-7- في الإعلام للمراكشي 5/206-207.

4- في ت: وإيابا.

5- في المستطرف ودرة الحجال: أضحى بربّك.

6- في درة الحجال والإعلام: لفرط تكاسل غطى على وجه.

وَمِنَ الأئمَّـةِ مَـنْ يَقُـولُ بأنَّـهُ   لايَنْتَهي عَنْهُ وإنْ هُـوَ تَـابَا[1]

إيهِ وَمِنْـهُمْ مَنْ يَقُـولُ بِقَتْلِـهِ   كُفْراً ويَقْطَـعُ دُونَهُ الأسْـبَابَا

وأبو حَنيفَـةَ قالَ : يُترَكُ مَـرَّةً   هَـمَـلاً ويُحْبَسُ مَـرَّةً إيجَابَا[2]

والظَّاهِـرُ المَشْـهورُ مِنْ أقْـوالِهِ   تَعْزيرُهُ زَجْـرَاً لَهُ وَعَذابَا[3]

والرَّأيُ عِنْدِي أنْ يـؤدِّبَـهُ الإمَا   مُ بِكُلِّ تَأْديبٍ يَراهُ صَـوابـاً

ويكفُّ عَنْهُ القَتْلَ طُولَ حَياتِـهِ   حَتَّى يُلاقـي في المَآبِ حِسَـابَا

فالأصْلُ عِصْمَتُهُ إلى أنْ يَمْتَطـي   إحْدَى الثَّلاثِ إلى الهَلاكِ رِكابَا[4]

الكُفْـرُ أوْ قَتْلُ المُكافـيءِ عامِداً   أوْ مُحْصَنٌ طَلَبَ الـزِّنَا فأصَـابا[5]

وأنشدني أيضاً قال: أنشدني شهابُ الدِّين أبوعبدِ الله محمّدُ بنُ الشَّيخ أبي محمّد عبدالمنعم بن محمّد الأنصاريِّ[6] لنفسهِ:[7] [الكامل]

١- البيت ساقط من ط.

٢- في درّة الحجال: ويسجن.

٣- رواية البيت في درة الحجال والإعلام:

والشائع المشروح من أقواله   تأديبه زجـراً له وعقـابا

والتعزير: العقوبة مالم تبلغ الحدّ الشرعيَّ.

٤- في درة الحجال: إلى المآل ركابا.

٥- في درة الحجال: فأجابا.

٦- هو محمد بن عبدالمنعم بن محمد ن يوسف بن أحمد اليمني الأنصاري: أديب عالم، شاعر، أخذ عنه ابن رُشَيد توفي سنة ٦٨٥هـ له ترجمة في ملء العيبة ٣/١٩١- ودرّة الحجال ٢/٦.

٧- البيتان في ملء العيبة ٣/٢٠٢ ودرّة الحجال: ٢/٧.

يَاطَالِباً لِلعِزِّ هَاكَ نَصِيحَتي لَفْظاً على المَعْنى البَسيطِ وَجيزَا [٧٧/أ]
مَاالذُّلُّ إلاَّ في مُطاوَعةِ الهَوى فَإذا عَصَيْتَ هَواكَ كُنتَ عَزيزا(١)

وأنشَدني أيضاً: [الكامل]

أَعْرَضْتُ عَن شَيْبٍ أَلَمَّ بعارِضي بُغْضاً فكيفَ أراهُ بَعْدَ شَبابِ
وَهَجَرْتُ مِرْآةً أَرَى شَيْبِي بِها فَرَأَيْتُهُ بالرَّغْمِ فِي أَتْرَابي

وأيضاً له:(٢) [الوافر]

أُلامُ عَلَى الخَلاعةِ إذْ شَبابِي وَرَوْنَقُ جِدَّتي ذَهَبا جَميعَا
ومَنْ ذهبَتْ بجدَّتِهِ اللَّيالِي فلاَ عَجَبٌ إذا أضْحَى خَليعَا

[ومن شعره أيضاً:(٣) [البسيط]

قالَ العَوَاذِلُ: كَمْ هَذا الضَّلالُ بمَنْ تَهوى يَغُرُّكَ مِنهُ المنظَرُ النَّضِرُ
فقلتُ: إنْ كُنْتُ مَغروراً بِطَلْعَتِهِ فَلَسْتُ أوّلَ مَنْ قَدْ غَرَّهُ القمرُ](٤)

وأنشدني أيضاً قال: أنشدني أبو الحَسَن بن عبدالكريم الأنصاريّ لنفسِهِ:

بَعَثْتَ لي رَوضةً بالنَّوْرِ باسِمةً بِرُقْعَةٍ قَدْ غَدَتْ مِنْ طِيبِها عَبِقَهْ
وَكَانَ عَهدِيَ بالبُستَانِ ذا وَرَقٍ حَتّى رأيتُ بِها البُستانَ في وَرَقَهْ

١- «في» ليست في ط ولا يستقيم الوزن دونها.
٢- البيتان في ملء العيبة ٢٠٢/٣- و٥٨/٤ - أ. ودرّة الحجال ٧/٢.
٣- البيتان في ملء العيبة ٢٠٢/٣- ودرّة الحجال ٧/٢.
٤- زيادة من ط.

وأنشدني أيضاً - حفظه الله - لنفسه:(١) [الطويل]

تَمنّيتُ أنَّ الشَّيبَ باشَرَ لِمَّتي وَقَرَّبَ منِّي فِي شَبابِي مَزارَهُ(٢)
لآخُذَ من عَصْرِ الشَّبابِ نَشاطَهُ وآخُذَ مِنْ عَصْرِ المَشيبِ وَقارَهُ

وأيضاً في إصلاح معنى:(٣) [الخفيف]

أنْكَرَتْني لمّا ادَّعيْتُ هَواهَا وأصرَّتْ عَلَى العِنادِ جُحُودا
قُلْتُ: إنَّ الدُّموعَ تَشْهَدُ لي قَا لَتْ صَحيحٌ لكنْ قَذَفْتَ الشُّهودَا

- فصـــل -

[عجائب مصر]

وأمّا أرضُ مصر، ونيلُها، وعجائبُها، واتّساعُها، فأكثرُ من أن يحصرَها كتاب، أو يحيط بها حساب. وقد سَطَّرَ المؤرِّخون من ذلكَ ماأغنى عن ترداده، وشَغلِ القلم بإيراده، وما ظنُّكَ بأرضٍ هي مَسيرةُ شَهْرٍ للمُجِدّ، وطيئةٌ، سهلةٌ، مُغلّةٌ، (٤مابها قريةٌ٤) إلاّ وهي تناظرُ أخرى [٧٧/ب] ولا بستانٌ إلاّ وهو يسامي آخرَ، ولا مدينةٌ إلاّ وهي تُشيرُ إلى أُخْتِها، ماتسافرُ بها إلاّ في عِمارة مُتّصلة، وطُمأنينةٍ من الأرض متأصّلة، والطّرقُ في الصحراء غاصّةٌ بالخَلْقِ،

١- البيتان في ديوان ابن دقيق العيد ١٩٩. ومستفاد الرحلة والاغتراب ٣٥، وطبقات السبكي ٢١٤/٩، وملء العيبة ٣٢٦/٥ والوافي بالوفيات ٢٠١/٤. والطالع السعيد ٥٩٣. وطبقات الشافعية للإسنوي ٢٣١/٢. وشذرات الذهب ٦/٦

٢- في بقية المواضع: عاجل لِمّتي، في صباي.

٣- ديوان ابن دقيق العيد ١٧٢.

(٤-٤)- سقط من ت.

فكأنَّ المسافرَ بها لم يزلْ في مَدينةٍ. [1]وهذا لمن يجوبُها عَرْضاً «[2]لأنَّ عَرْضَها من بَلَدِ أسوانَ الَّتي بأعلى نيلِ مِصْرَ وما سامَتَها من أَرْضِ الصَّعيدِ إلى مدينة رَشيد [و][3] مادانـاها من مساقِط النّيلِ في البحرِ الرّوميِّ وهو نحو ثلاثين مرحلة، وطولُها من أيْلَة [من ساحل الخليج الخارج][4] من بحر الحَبَشة، والزّاب، والعَين[5] إلى بَرْقَةَ الَّتي هي جَنوب البحر الرومي[2]». قال هذا كلّه القاضي أبو القاسم صاعد[6] في طبقات الأقاليم[7]، وذلك أربعون مرحلة[1].

[نيـــل مـصـــر]

ونيلُها من عجائب الدُّنيا عُذوبةً، واتّساعاً، وغلّةً، وانتفاعاً. وقد وُضِعَتْ عليه المدائنَ والقرى، فصار كَسِلْكٍ انتظم دُرراً.

وقد رَوَينا في الصَّحيح أنَّ رسول الله ﷺ في لَيْلَةِ الإسراء وصل إلى سِدْرَةِ المنتهى، فإذا في أصلِها أربعةُ أنهارٍ: نَهْران ظاهرانِ، ونَهْرانِ باطِنانِ، فسألْ عنها جبريلَ عليهِ السَّلامُ، فقالَ لهُ: أمَّا الباطنانِ ففي الجنّة،

١-١- الفقرة بكاملها ساقطة من ت و ط.

٢-٢- الفقرة منقولة من طبقات الأمم ١٠٥- ١٠٦ بخلاف يسير.

٣- من طبقات الأمم.

٤- بياض في سائر النسخ والتكملة من طبقات الأمم ١٠٥.

٥- في طبقات الأمم: الزنج والهند والصين.

٦- هو صاعد بن أحمد بن عبدالرحمن بن صاعد الأندلسي: مؤرخ، قاض، ولي قضاء طليطلة إلى أن توفي سنة ٤٦٢هـ له: طبقات الأمم ومقالات أهل الملل والنحل. ترجمته في الصله ٢٣٦-٢٣٧.

٧- هو كتاب في تاريخ الأمم القديمة طبع غير مرّة.

وأما الظَّاهرانِ فالنِّيلُ والفراتُ»[1] قال البَكْرِيُّ: «وليسَ في الأرض نـهرٌ يسمّى بحراً وَيماً غيره. قال الله تعالى: ﴿ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ ،[2] واليُّم: البحر. فسمّاه بحراً وحقٌّ له ذلك، قال: وليس في الدُّنيا نهرٌ يُزرع عليه مايُزرَعُ على النِّيل، ولا نهرٌ يجبى منه إلاّ جزءٌ ممّا يُجْبى من النِّيل.[3] «وابتداؤه بالتَّنفّس في حَزيرانَ، وهو شهر يُونيه، فإذا انتهت الزِّيادةُ ستّةَ عشرَ ذراعاً تمَّ خَراجُ السُّلطانِ وخِصْبُ النَّاسِ الكافي،[4] وكان المَرعى ناقصاً فأضرَّ بالبهائم، فإذا بلغ سبعةَ عَشَر، فذلك الخِصْبُ العَام، والصَّلاحُ التَّام، فإذا بلغَ ثمانيةَ عشر أضرَّ بالضِّياع، وأعقَبَ الوباءَ بمصرَ. وقد بلغ في خِلافة عمرَ بن عبدالعزيز[5] رضي الله عنه تسعةَ عشرَ ذراعاً[6]» قال ابن حبيب[7]:«وإنْ نقصَ إلى خمسةَ عَشَر ذراعاً، نقصَ من خَراجِ السُّلطانِ ولايُسْتَسقى لذلك، وإن حَطَّ إلى أربعةَ عشر [٧٨/أ] ذراعاً استسقوا، وكانَ الضَّرَرُ الشَّديد»[8] قال: وذكر«أنَّ أرضَ مصْرَ مُصوَّرةٌ في كُتُبِ الأوائلِ وسائرِ المدنِ مادّةً أيديها إليها[9] تستطعمُها».[10]

١- أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب ذكر الملائكة رقم ٣٢٠٧-٦/٣٠٢ والمعراج رقم ٣٨٨٧-٧/٢٠١- ومسلم في كتاب الإيمان باب الإسراء رقم ٢٦٤- وابن حنبل ٤/٢٠٨- والنسائي ١/٢٢٠- والمعجم الصغير للطبراني ٢/١٣١.

٢- سورة القصص من الآية ٧ .

٣- الفقرة منقولة من الجزء الضائع من المسالك والممالك.

٤- في الأصل: الكفاية.

٥- عمر بن عبدالعزيز: «٦١-١٠١هـ» خليفة أموي اشتهر بصلاحه وعدله. انظر ترجمته في الأغاني ٩/٢٥٤. فوات الوفيات ٣/١٣٣ وسيرته لابن كثير.

٦- مروج الذهب ١/٣٤٢، وجغرافية مصر للبكري ١١ .

٧- عبدالملك بن حبيب: يُعدُّ عالم الأندلس وفقيهها في عصره كان عالماً بالتاريخ والأدب، له مصنّفات منها: حروب الإسلام، وطبقات الفقهاء توفي سنة ٢٣٨هـ ترجمته في علماء الأندلس ٢٦٩- الديباج ١٥٤، بغية الملتمس ٣٧٧- ٣٧٨ - مطمح الأنفس ٢٣٣.

٨- مروج الذهب ١/٣٤٢ - ٣٤٣، وجغرافية مصر للبكري ١١ .

٩- ليست في ط.

١٠- جغرافية مصر للبكري ١٢ .

قلت: والنِّيلُ(١) نهرٌ عظيمٌ(٢) متّسعٌ جداً، آخذٌ من الجنوبِ إلى الشّمال، ويفترقُ بعدَ مسافةٍ من فُسطاطِ مِصْرَ على ثلاثةِ أنهارٍ، ولايُدخَلُ واحدٌ منها إلاّ في القواربِ شتاءً وصَيْفاً؛ وقد دَخلْتُهُ من مجمعِ نهرينِ فقرأتُ حِزْباً(٣) من القرآنِ قَبْلِ أن يَقْطَعَ القاربُ إلى الجزيرة(٤) الأخرى، وصورةُ السَّقيِ بهِ أنَّ أهلَ كُلِّ بلدٍ لهم خُلُجٌ(٥) تخرجُ مِنْهُ، فإذا جاءَ مَدٌّ أَتْرَعَها(٦) ففاضت على المزارعِ وسَقَتْها كما تَسقي سائرُ الأنهارِ؛ وقد علموا أين ينتهي سَقْيُ كلِّ مقياسٍ، ومِن غرائبِ صُنْعِ اللهِ،أن مَدَّهُ يبتدىء في معمعان الحَرِّ وشدَّتِه. في الوقتِ الَّذي تفيض(٧) فيه الأنهارُ، وينتهى في الوقتِ الَّذي تمدّ فيه الأنهار؛ ويَفيضُ فيحسرُ الماءَ عن الأرضِ في مبدأ زَمانِ الحرث. وقد حكى البَكْريُّ عن ابن حبيب «أنَّ الله تعالى جعلَ النّيلَ مُعادلاً لأنهارِ الدُّنيا، فحين يبتدئُ بالزِّيادةِ تَنْقُصُ كلُّها، وذلكَ لخمسٍ بقينَ من شَهْرِ يُونية وحينَ يبتدئُ بالنُّقصانِ تزيدُ كلُّها».(٨)

١- انظر ماكتب في النيل وفضائله في خطط المقريزي ١/٥٠-٦٨.

٢- ليست في ط.

٣- الحِزبُ من القرآن: رُبْعُ الجُزْء.

٤- في ط: الجيزة، والجزيرة هي التي تفصل بين الجيزة والمدينة القديمة. انظر وصف إفريقية ٢/٢٤٠- رحلة ابن جبير ٢٩.

٥- الخُلُجُ: واحدها خليج: وهو نهر يُشْتَقُّ من نهرٍ كبيرٍ لينتَفَعَ به.

٦- أترعها: ملأها.

٧- في ط: تفيض.

٨- في جغرافية مصر للبكري ١٠ بخلاف يسير في اللفظ.

[الأهرام والبرابي]

أمّا أهرامُها وبرابيها[1]، فَمبانٍ عجيبةٌ في غايةِ الغَرابةِ مُضمّنةٌ[2] من الحكمةِ وغرائبِ العلومِ ماصارَ أعجوبةً على وَجْهِ الدَّهر. وبين النَّاس تنازع في أوّل من بناها، وفي أيِّ شيء قصد بها، ولهم فيه خوضٌ كثيرٌ لاحاجةَ بنا إليه، وقد ذكر القاضي صاعد صاحب الطَّبقات: «أنَّ جماعةً من العُلماء زعموا أنَّ جميعَ العُلوم الَّتي ظهرت قبل الطُّوفانِ إنّما صارتْ عن هِرْمِسَ الأوّل السَّاكنِ بصعيدِ مصْرَ الأعلى، وهو الَّذي يسمّيه العِبرانيون خَنوخ وهو إدْريس [النبّي][3] عليـه الصَّلاةُ والسَّلام، وأنّه أوّلُ من تكلَّم فـي الجـواهـر العلوية، والحركات[4] النّجوميَّة، وأوّلُ من بنـى الهياكلَ، ومَجَّد اللّٰه تعالى فيهَا، وقالوا: إنّهُ أوَّلُ مَن أنذرَ بالطُّوفانِ، ورأى أنّ آفةً سماويةً تلحقُ الأرضَ من الماءِ أو النَّارِ [٧٨/ب] فـخافَ ذهابَ العِلْمِ ودروسَ الصّنائعِ فـبنى الأهرامَ والبرابي الَّتي في الصَّعيد، وصوَّر فيها جميعَ الصّناعاتِ والآلاتِ، ورسم فيها العُلومَ حِرْصاً منه على تخليدها.»[5].

قال القاضي صاعدُ المذكور: «وكانت دارُ الملكِ والعِلْمِ بِمصرَ في قديم الدّهور[6] مدينةَ مَنْف،[7] وهي على اثني[8] عشرَ ميلاً من الفُسطاطِ. فلمّا

١- البرابي: المعابد. انظر ماكتب عن الأهرام والبرابي في مروج الذهب ١/٣٥٩- ٢٦٣. وبدائع الزهور ١/١٣ ومابعد وخطط المقريزي ١/١١١-١٢٢.

٢- في ت و ط: متضمنة.

٣- زيادة من ت.

٤- في ت: الحركة.

٥- طبقات الأمم ١٠٦-١٠٧ بخلاف يسير

٦- في ت و ط: الدهر.

٧- في الأصل:منوف.ومنف هي منفيس القديمة، وهي قرية ميت رهينة الحالية وقد نسبت الكورة إليها رغم أنا كانت مدينة مندرسة عند الفتح العربي، انظر جغرافية مصر للبكري في حاشية الصفحة ٦٢.

٨- في ط: اثنا وفيها غلط نحوي واضح.

بنى الإسكندرُ مدينةَ الإسكندريّةِ، رَغِبَ النّاسُ في عمارتها، فكانت دارَ العلم[1] والحكمةِ بمصرَ إلى أن تغلّبَ عليها المسلمونَ؛ واختطَّ عمرُو بنُ العاص على نيلِ مصرَ مدينتَه المعروفةِ بفُسطاطِ عمرو؛ فانسربَ[2] أهلُ مصْرَ وغيرُهمْ إليها، فصَارت قاعدةَ مصْرَ إلى يومنا هذا»[3].

قلت: وقد صارت اليومَ المدينةُ الّتي بناها العُبيديونَ قاعدةَ الدّيار المصريةِّ بأسْرِها، ودارُ مُلكها على الإطلاق، فسبحان مَن له المُلْكُ على الحقيقة، وإليه المرجعُ والمَصير، لاربَّ غيرُه.

والأهرامُ[4] مبانٍ من حجارةٍ، صارتْ لإحكامها كالحَجَر الواحد، في غايةِ العُلوّ، متّسعةَ الأسفل، مستديرةَ الشّكل، فكلّما طلعت انخرطت حتّى صارَ أعلاها حاداً على شكل المخروط. وليسَ لها بابٌ ولامَدخلُ ولايُعلَمُ كيفَ بُنيَتْ.

وقد ذكر البَكْريُّ في المَسالكِ، وذكره المسْعوديّ[5]، ومن كتابه نقله البكريُّ: «أنّ أحمدَ بنَ طولون[6] صاحبُ مِصْرَ، استحضرَ من أرض الصّعيد

١- في ت و ط: العلوم.

٢- في ت: فانسرر.

٣- طبقات الأمم: ١٠٨ بخلاف يسير.

٤- انظر ماقيل في الأهرام في خطط المقريزي ١/١١١.

٥- هو علي بن الحسين بن علي: مؤرخ، من أهل بغداد أقام بمصر وتوفي فيها سنة ٣٤٦ هـ. له مروج الذهب، والتنبيه والإشراف. ترجمته في النجوم الزاهرة ٣/٣١٥- طبقات الشافعية للسبكي ٣/٤٥٦، فوات الوفيات ٣/١٢.

٦- أحمد بن طولون: صاحب الديار المصرية، تركي، بنى الجامع المنسوب إليه في القاهرة، ومن آثاره قلعة يافا بفلسطين، ولي إمرة الثغور وإمرة دمشق ثم إمرة مصر ٢٥٤هـ للخليفة المتوكل، توفي بمصر سنة ٢٧٠هـ. له ترجمة في بدائع الزهور ١/١٦١- ١٧٤- المنتظم ٥/٧١- ووفيات الأعيان ١/١٧٣.

شيخاً له مئةٌ وثلاثون سنةً، موصوفاً بالعِلْمِ والحكمةِ، فسأله عنها، فقال: إنَّها بُنيتْ لِحفْظِ جُثَثِ[1] الملوكِ. فقال له: كيف بُنيتْ بتلكَ الحجارةِ العظيمةِ؟ فقال: إنَّهم كانوا يبنونها على مَرَاقٍ أبرزوها من البنيان، فإذا فرغوا نحتوها»[2].

وذكر البكريُّ أيضاً «أن شونيدَ بنَ سهلوقَ ملكُ مِصْرَ قبل الطّوفان رأى رؤيا هالته، وحملتْهُ على بناءِ الأهرام بالصُّخور، وأعمدةِ الحديد، والرَّصاصِ، بأمر المنجّمين لتكون حِفْظاً لجثّته، وجُثثِ أهلِهِ، ومستودعاً للعلومِ من آفةِ الطّوفانِ، واختيرَ لَها مَوْضعٌ بقُربِ النِّيل في الجانبِ الغربيّ [٧٩/١أ] فَلَمَّا فَرَغ منها قالَ لهم: انظروا هل يفْتَحُ منها[3] موضعٌ؟ قالوا: تفتح[4] من الجانبِ الشِّماليّ، وحقّقوا له الموضِعَ، وأنَّ ذلك يكون لأربع[5] آلافِ دورةٍ للشَّمس، وأنَّه يُنْفِقُ في هَدْمِهِ كذا وكذا، فأمرَ أن يُجْعَل في [ذلك][6] الموضعِ ذهبٌ يَزِنُ ماذكروا، وحثَّ على الفراغِ مِنَ الأهرام فَفُرِغَ منها في ستِّين سنةٍ، وكَتَبَ عليها: «بنَيْنا هذه الأهرامَ في ستّينِ سَنَةٍ فليهدمْها من يُريد ذلك في ستّ مئةِ سَنَةٍ، فإنَّ الهَدْمَ أهونُ من البناء»[7].

١- في ط: جثة.
٢- مروج الذهب: ١/ ٣٥٠.
٣- في ت: منه.
٤- في ت و ط: يفتح.
٥- في ت و ط: لأربعة.
٦- زيادة من ت.
٧- خطط المقريزي ١/ ١١٣.

فلمّا كان المأمونُ أراد أن يَهدِمَها، فقال له بعضَ شيوخِ مصرَ: قبيحٌ بمثلك أن يطلُبَ شيئاً لاينالُه، فقال: لابُدَّ أن أعلم عِلمَ[1] ذلك، ثم أمَرَ بفتْحِها[2] من الجانبِ الشِّمالي لقلّة دوامِ الشَّمْس على العمّال. فكانوا يوقدون النّار عند الحجر فإذا احمرَّ رُشَّ عليه الخلّ، ورُمي بالمنجنيقات، حتّى فُتحت الثُّلْمَةُ الّتي يُدْخَلُ منها اليوم. ووجدوا عرضَ الحائط عشرين ذراعاً، وبإزاء النُّقْبِ مالاً، فأمرهم بوزنِه، وبإحصاء ماأُنفقَ على نَقْبِه فوجدوهما سَواء. فعَجِبَ المأمونُ من ذلك[3]. قال: ووجدوا طولَ كلِّ هَرَمٍ[4] من الهَرَمين الكبيرينِ أربعَ مئة ذراعٍ بالمالكيِّ، وهو ذراعٌ ونِصفٌ بذراعِ اليد[5]. ويُقال: ليس على وَجْهِ الأرضِ أرفعُ بناءً منهما، ويذكرُ أنَّ عُمقَهُما في الأرضِ مثلُ ارتفاعِهِما.

والّذي سُطِّر من غرائبِ مصْرَ في أهرامها، وبرابيها، وغيرها أمرٌ يضيقُ عنهُ الوصف. وماكدَّرَ مَعينَها، وبَخَسَ ثمينَها، ونَقّص نَعيمَها، وأعَلَّ سليمَها، إلاّ أهلُها الّذين ينكل[6] الخيرُ عن وجوهِهم وينكص. وينمو الشّرُّ بهم ولا ينْقُص، وبجيرانها[7] تغلو الدّيارُ وترخُص، وخصوصاً أهل تلكَ المدينة المظلمة، التي هي من كُلِّ الفضائلِ مُعْدمة. أخطأهُمْ النّوءُ المحمودُ[8]، وبُعداً لهم كما بَعُدتْ ثمود.[9] وليسَ في أرضِ مِصْرَ من ينتهي في كُلِّ وصفٍ

١- ليست في ت.

٢- في الأصل : يفتح.

٣- خطط المقريزي ١/١١٣.

٤- في ط: واحد.

٥- خطط المقريزي ١/١١٤ ،مستفاد الرحلة والاغتراب ١٦٦.

٦- نكل : نكص.

٧- في سائر النسخ : وبخيراتها.

٨- النَّوْء : النجم.

٩- استفاد من قوله تعالى: ﴿ **ألا بُعداً لثمود** ﴾ هود ٦٨.

مذمومٍ منتهاهم، ولامن يحلّ في القبائح محلّهم ومثواهم. وقد سمعتُ ممَّن جالَ في صعيدِ مِصْرَ وريفِها أنّ أهلَها لابأسَ بهم، وأنَّهُمْ أشبهُ من المذكورين بكثير. ومع ماذكرتُ فقد كادَ المغاربةُ ينيفونَ [٧٩/ب] على أهلِ البلادِ بكثيرٍ[1] لطيبِ الأرضِ وسَعَتِها، وكثرةِ أرزاقها، وربّما تقاتلوا مع أهلِ الموْضعِ فغلبوهم، وقد[2] فشا على لسانِ الصّغير منهم والكبير أنَّ مَغربيّاً يملِكُهمْ لامحالة؛ ويتحدّث بهذا عامتّهم وخاصتُّهم، ويأثُرون[3] ذلكَ عن علماء حُدْثانِهم، وقديماً كانوا في انتظارِ ذلك؛ وقد حكاهُ عنهم ابنُ جبير في رحلته[4]، وذكر عنهمْ أمارات نُصبَتْ بزعمِهِمْ علامةً لذلكَ، والله بغيبهِ أعلم، وهو الملكُ الأعْظم، لاربَّ غيرُهْ، ولايُرجى إلاّ خيرُهْ.

[مزارات مصر]

وفي مِصْرَ من المزاراتِ الشّريفةِ عِدّةٌ وافرة؛ ومن أعظمها تُربةُ رأسِ الحُسينِ رضي الله عنه، عليها رباطٌ في غايةِ الإبداعِ[5] والتّنويهِ، والأبوابُ عليها حِلَقُ الفضّة وصفائحها، وإلى الآنَ يوفّى واجبُ القيامِ بها والإشادَةِ بذكرها، حفظ الله أُمراءَ التُّركِ[6] بمصْرَ، فما أحماهُمْ للدّينِ وأحنّهم[7] على المسلمينَ، وأحبّهُم في الغريبِ، وأفَظّهُمْ في ذاتِ الله تعالى على المُريب. ولم

١- في ت و ط: كثرة.

٢- ليست في ت.

٣- أثر الحديث يأثره : رواه.

٤- رحلة ابن جبير : ٥٦-٥٧.

٥- في ت : الابتداع.

٦- يريد المماليك.

٧- في ت : وأحسنهم، في ط: وأحصنهم.

يتحقّقْ الآنَ عندي كيف نُقِلَ إلى أرضِ[1] مصرَ. وكانَ الدّعيّ [2]ابنُ الدّعيّ[3] عبيدُ الله بنُ زيادٍ[3] بعثَ بهِ إلى مَعْهَدِ[4] العِناد والإلحاد طاغيتِهم يَزيدُ بنُ مُعاوية[5]. لاأخلى الله منه الهاوية، وهو حينئذٍ بدمَشْقَ، وأظنُّ بعضَ العُبَيْدِيين[6] - أمرَ بنقلِهِ إلى عَسْقَلان[7]؛ فإنّي رأيتُ بها رباطاً ليسَ بعَسْقَلانَ عِمارة سواه، وفوق الباب منقوشاً في حجر: إنّ فُلاناً لشخصٍ من العُبيديينِ ولقبُهُ بأمير المؤمنينِ نسيتُ اسمَهُ، أمرَ ببناء هذهِ التّربةِ على رأسِ الحُسينِ بنِ عليّ رضي الله عنه، وفرغَ من بنائها في تاريخِ كذا، وكان حدودَ السّتّين وثلاثِ مئةٍ، ثم أمروا بنقلِهِ أيضاً إلى مدينتِهِمْ بمصرَ فهو الآنَ بها.

وكان الذي حَمَلَهُمْ على التّنويهِ[8] بأهل البيت رضي الله عنهم، تحقيقُ دعواهُم الباطلةِ أنّهم مِنْهُمْ. فإنّه ماتأتّى لهم ماراموا في بدايتهم،قبل استحكامِ أمرِهِم،إلاّ بانتمائِهِم إلى البيتِ الشّريفِ زاده الله جَلالة - فلمّا تمكّنوا جاهروا بكلّ كُفْرٍ، وظاهروا [٨٠/آ] بكل إلحاد، وبقوا مع ذلكَ

١- ليست في بقية النسخ.

٢-٢- ليست في ط.

٣- في ت و ط: عبد الله وهو خطأ. وهو عبيد الله بن زياد أبيه: قائد فاتح، ولي إمارة البصرة، وكانت فاجعة الحسين في أيامه. قتل سنة ٦٧هـ. انظر الأعلام ١٩٣/٤ ، ومصادره ثمّة .

٤- في ت و ط: معدن.

٥- يزيد بن معاوية: ثاني خلفاء الدولة الأموية في الشام تولى بين ٦٠-٦٤هـ. وفي زمنه كانت فاجعة المسلمين بالسبط الشهيد الحسين بن علي. سنة ٦١هـ. ترجمته في الطبري حوادث ٦٤.

٦- يريد الفاطميين.

٧- عسقلان: مدينة على ساحل فلسطين بين غزة وبيت جبرين. انظر ياقوت ١٢٢/٤ .

٨- نوّه به: شهره وعرّفه.

متمسّكينَ بأصلِ دَعواهم في انتسابِهم إلى أهلِ البيتِ، حتَّى أبَادَ اللهُ غضراءهم[1]، ودهَمَ بالفناء دَهْماءَهُم، وقد دلَّ مانالوه[2] من جسيمِ الْمُلكِ كلَّ ذي فِطرَةٍ سليمةٍ، على حَقارةِ الدُّنيا وخساسَتِها و«لو وُزنَتْ عندَ اللهِ جناحَ بعوضة ما سقى منها كافراً جُرْعَةَ ماء»[3]. «إن اللهَ يُعطي الدُّنيا من يحبُّ ومن لايُحبُّ [ولا يعطي الآخرةَ إلاّ لمن يُحّب]»[4] وناهيك بمملكة وصلت مابين الشَّرق والغرب، واستولت على الحجاز واليَمَن، والشّام، وديار رَبيعَةَ[5]، ومِصْرَ وأرض بَرْقة، وإفريقيَّةَ، وانتهتْ إلى سِجِلْماسة[6] وإلى فاسٍ بأقصى المغرب، ودامت نحو مئتي سنة. وآثارُهم إلى الآنَ موجودةٌ، وأسماؤهم مذكورةٌ، وقد رأيتُها في جامعِ القيروانَ، والشّامِ[7] وغيرَهُما، حكمةٌ من الله بالغة[8]، وحجّةٌ لتَوَهُم الخيالَ دامغة. وما أظنّ مؤمناً تبقى له شُبهةٌ مع هذا في حَقارة الدّنيا، ودناءةِ خطرِهَا، وسقوط قَدْرِها عند خالقِها، مانظر إليها منذُ خلَقَها. دارٌ يستطيل بها العدوُّ على الوليّ ويُظَفَّر[9] فيها الأعوجُ على

١- العرب تقول: أباد الله خضراءهم، وقال الأصمعي: «أباد الله غضراءهم»، أي خِصبهم وخيرهم، تهذيب اللغة ٨/٨ «غفر».

٢- في ت و ط: مانالوا.

٣- في ت و ط: ماسُقي منها كافرٌ، وهو حديث أخرجه الترمذي في أبواب الزهد، باب ماجاء في هوان الدنيا على الله عز وجلّ رقم ٢٣٢١ من طريق سهل بن سعد وتفرّد به بقول المحقق.

٤- مابين حاصرتين زيادة من ت، والحديث أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده ٣٨٧/١.

٥- ديارربيعة: تضمّ عدّة كور بين الموصل ورأس العين ونصيبين ودُنيسر والخابور، بين الحيرة والشام انظر مراصد الاطلاع ٥٦٨ وياقوت ٤٩٤/٢ .

٦- سِجِلْماسَة: مدينة في المغرب في منقطع جبل دَرَن، تقع جنوب فاس وبينهما عشرة أيام. انظر مراصد الإطلاع ٦٩٤ .

٧- ليست في ت.

٨- استفاد من الآية الكريمة: ﴿ حكمة بالغة فماتغن النذر ﴾ سورة القمر ٥.

٩- ت و ط: يطفو، وظفر عليه: غَلبه انظر تهذيب اللغة ٣٧٥/١٤ ظفر.

السَّويِّ. طالما أخَّرت كاملاً، وقدّمت ناقصاً، وأكبَتْ[1] جواداً فَرَجعَ على عَقِبَيْه ناكصاً. خَنَقَ فيها النبيَّ عُقبةُ بنُ أبي مُعَيط[2]، وكسَتْهُ كساء نجرانيّاً[3]، والعاصي[4] العاصي يرفُلُ في الرَّيط[5]. أقعدت عَليّاً وأقامت معاوية، وأنهَشتْ حُسيناً[6] الكلابَ العاوية. آذتْ ابنَ عُمَرَ[7] بلا ريبةٍ ولاريب، وأعدّت لعين ثقيف[8] مع كُلِّ عيب. سالَمَتْ الحَكَمَ[9] وليسَ بأهلٍ أن يُسالَم، وحارَبَتْ أبا ذَرٍّ[10] ولا أَرَبَ لهُ في العَالَم. روَّعَتْ مع توحشِّه سُفيان[11]، ورفعت مع تفحّشه مروان[12]. أقعدَتْ مع أشراف الإنس[13] أباقيس، وأقعدَتْ أخسَّ

١- في ت و ط: كبحت.

٢- عقبة بن أبي معيط بن ذكوان بن أمية بن عبد شمس: من مقدمي قريش في الجاهلية، كان شديد الأذى بالمسلمين، أسرَ يوم بدر وقتل ثم صُلب. انظر السيرة لابن هشام ١/٣٠٠-٣٠١ .

٣- إشارة إلى تكفين الرسول ﷺ في ثلاثة أثواب نجرانية، انظر اللسان نمر .

٤- هو ابن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس من أشدّاء قريش في الجاهلية قتل مشركاً في بدر.انظر الأعلام ٣/٢٤٩ .

٥- الريط: هي الملاءة إذا كانت قطعة واحدة، هو كل ثوب لين رفيق.

٦- المقصود به الحسين بن علي بن أبي طالب. رضي الله عنهما.

٧- هو عبد الله بن عمر بن الخطاب . وفي الاستيعاب ٢/٣٣٣ أنّ الحجّاج أرسل رجلاً معه حربة مسمومة فأمرّها على قدم ابن عمر فمرض أياماً ثمّ مات؛ وذلك لأنه قال للحجاج -عندما هدده بالقتل- : إنّك سفيهٌ مُسلّط...

٨- لعين ثقيف هو الحجاج بن يوسف الثقفي.

٩- هو الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس القرشي الأموي: صحابي أسلم يوم الفتح، وكان فيما قيل يفشي أسرار الرسول فنفاه إلى الطائف وأعيد إلى المدينة في خلافة عثمان وهو والد مروان رأس الدولة المروانية. ترجمته في الإصابة ١/٣٤٤،نكت الهميان ١٤٦ .

١٠- هو أبو ذَرّ الغفاري : جُندب بن جنادة صحابي يضرب به المثل في الصدق، كان يحرض الفقراء على مشاركة الأغنياء في أموالهم توفي سنة ٣٢هـ. له ترجمة في الإصابة ٤/٦٣. وحلية الأولياء١/١٥٦-١٧٠.

١١- هو سفيان الثوري: تقدمت ترجمته.

١٢- هو مروان بن الحكم الخليفة الأموي أب عبد الملك شهد صفين مع معاوية توفي سنة ٦٥هـ. له ترجمة في الإصابة ٣/٤٥٥-وأسد الغابة ٤/٣٤٨.

١٣- في ط: الأندلس. ولعله قصد أبا قيس بن رفاعة اليهودي.

البهائمِ مع القَرَنيِّ أُوَيْس[1]، وقديماً أحوجتْ الكليم والخضر حتَّى استطعما[2]، وأغْنَتْ قارون وأراحت عليه نُعما: [البسيط]

وَطَالَما فَتَكت بالدَّارِ عينَ ولَمْ   تَحفَلْ بِجَيْشِهِمُ أنْ كانَ جَرَّارَا [٨٠/ب]

وكَمْ حَليفِ اغْترارٍ خالَها ثِقَةً   لَمْ يُمْسِ إلاّ وغَيْمُ الغَدرِ قَدْ دَارا

ومن غرائبِ العِبَرِ، وطرائفِ الصُّورِ. وطُرَفِ الأعاجيبِ، وتُحَفِ اللّبيبِ ما اتّفقَ في قَتْلِ الحُسينِ رضي اللّه عنه. قتله دَعِيٌّ آلِ حَرْبٍ[3]، وأخذ بثأره كذّابُ ثقيفٍ[4]، ونوّهَ باسمه أعداءُ ملَّةِ جَدّه ﷺ بنو عُبيد، فقاموا بدعْوَتِه، وبالغوا في إكرامِ تُرْبَتِهِ ليُقتَصَّ من قضيةٍ[5] بمثلها، ويُقابَلُ فاسدٌ بمثله، فيقرأ الفَهِمُ الفَهِمُ[6] سورة الصّورة، ويتهجّى اللبيبُ الأريبُ حروفَ تلك الحروب، فيعلمَ أنّ الكُلَّ آلاتٌ مستعملةٌ حسبما اقتضاهُ العلم القديم، ونَبَّأَ[7] عن دقائقه العلم القديم، ويرى ظاهرَ الأسبابِ تعطّلَ أحكامُها في هذه القضيّة الجَلِيَّة[8]؛ فيا عجباً حصل إجماعهم على إملاءِ أساطيرِ الأباطيلِ في مَلاء

١- هو أويس القرني: ناسك أصله من اليمن شهد صفين مع علي ويرجح الكثيرون أنه قتل فيها. له ترجمة في حلية الأولياء ٧٩/٢ وفيه أنه مات في غزوة أذربيجان أيام عمر - وطبقات ابن سعد ١٦١/٦.

٢- إشارة إلى قصة موسى عليه السلام والرجل الصالح في سورة الكهف.

٣- اشترك في قتله جماعة، انظر تفصيل ذلك في تاريخ الطبري ٤٠٠/٥ ومابعدها.

٤- كذّاب ثقيف هو المختار الثقفي الذي ثار على بني أمية توفي سنة ٦٧هـ.له ترجمة في الإصابة ٤٩١/٣ .

٥- في ت و ط: قضيته.

٦- ليست في ت و ط.

٧- في ط: أنباء.

٨- في ت و ط: الجليلة.

الملّة[1]، واختلفوا في العَمَلِ بها فانخرق إجماعهم سَريعاً، لأنّه كانَ مُهَلْهَلَ النَّسْجِ. وعِصْمَةُ الإجماعِ شرعيَّةٌ لاعقليّة. عمل آلُ حربٍ بما ظنّوهُ من رَشادِهِمْ ولم يَعْلَموا أنَّهُم استعملوا في فَسادِهم، ثم استعملَ مثلَهُم في ضدّ صنعهم ليتضّحَ الأمرُ. ولو صحّ الحكمُ للأسباب، لوَلَجوا كلّهم من باب. كان قصدهم واحداً، فجَرت ريح القدر ففرّقت السُّفُن، فرَمتْ بَعْضاً[2] إلى بلادِ العَدوّ، وبَعضاً إلى ساحلٍ من سواحلِ الإسلام احتاج أهله[3] المِيرَةَ[4] فأَمِدّوا بها على رغم الملاّح[5]: [الخفيف]

رُبَّ أمرٍ أتاكَ لاتَحْمَدُ الفِعْـ ـعَالَ فيه وتَحْمَدُ الأفْعالا

«قال الحائطُ للوتد: لِمَ تشقنّي؟ قال: سَلْ من يدقّني»[6] ظفرُ دعيُّ آلِ حَرْبٍ بالحسين في يوم[7] عاشوراءَ، وفيه أنجى اللّه موسى من فرعونَ، و[illegible]انِ سواءً ليبيّنَ أنّ كرامةَ الدُّنيا لايطّردُ لها قياسٌ؛ فلذلكَ عمَّتْ العدوَّ والوليَّ ليسَ لها قدر فلم يُعطَ لَها حُكْمٌ. لمّا لم يكنْ للماء عند وجودِه خَطَر، سقطَ عنه حكم الرِّبا، ولمّا جَرَت الفُلُوس مجرى العَين[8]، منعَ فيها التّفاضل.

1- الملّة: الشريعة والدين.
2- في ت و ط: بعضها.
3- في ت و ط: أهلها.
4- الميرة: الطعام من حَبٍّ وقوت.
5- البيت للمتنبي في ديوانه ٣/١٣٨.
6- المثل في نفح الطيب ٥/٢٩٥.
7- ليست في ت و ط.
8- العين: الذهب.

لم تزل ضمائرُ آلِ حَرْبٍ تَرْشَح سُمَّاً، ماذُكر هَاشميٌّ إلاّ نَضْنَضوا(١) ليلسعوه. [٨١/ب] كانت عداواتُهم علّةَ السَّرطانِ كلّما مُسّتْ بحديدِ الحُدود تقَرَّحَتْ. ظهرت يومَ بَدْرٍ، واستحكمتْ يومَ أُحُدٍ، وانتشرتْ يومَ الأحزابِ، وقُهِرت يومَ الفَتْحِ. فما تحرّكَ منها إلاّ عرق. لقد أصبح مُلك ابنِ أخيك عظيماً(٢)، ومالي ولبني فلان. كما قمعها خوفُ هرَقْل فلم يظهر منها إلاّ تألّمٌ، ونحن منه في مدّةٍ وأنين. لقد « أَمِرَ أَمْرُ ابنِ أبي كَبْشَةَ »(٣) ثمَّ أماتها حَرُّ الخوف، ومَرْهَمُ(٤) الطَّمعِ. فلمّا بَرَدَ الخوفُ وسَقَطَ المرهمُ، وتحرّك بُرْدُ التَّرف، هاجَتْ فعادَت جذعةً(٥) قطعت بالإياس الأمل؛ فطفَتْ في صفّين(٦) والجَمَلِ(٧)، وأعادت الكَرْبَ والبلاء فأجهزت على يزيدَ بكَرْبَلاء(٨) عجباً لها(٩)، مامحّت حتّى مَحَت رسومَهم، ولا اندرست حتّى دَرَسَتْ(١٠) جسومهم، لم يَحيَ مُلكُهم

١- النضنضة: تحريك الحيّة لسانها.

٢- قول أبي سفيان للعبّاس عم النبي صلى الله عليه وسلم،وهو في السيرة النبوية لابن هشام ٤٠٢/٢.

٣-المثل في اللسان كبش «وقد جاء في حديث أبي سفيان وهرقل».، وابن أبي كبشة هو الرسول ﷺ وهي كنية أبيه من الرضاعة،انظر الروض الأنف ٢٢٨/٢.

٤- في ت و ط: ومدهم.

٥- أي جديدة كما بدأت.

٦- صفّين: موضع بقرب الرقة على شاطئ الفرات كانت فيه وقعة صفين بين علي رضي الله عنه ومعاوية سنة ٣٧هـ،انظر وقعة صفين للمنقري.

٧- وقعة الجمل: وهي التي جرت بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعائشة أم المؤمنين ومن قام معها. وكانت سنة ٣٦هـ وانتهت بانتصار علي وجيشه.

٨- كربلاء: موضع في طرف البرية عند الكوفة وفيه قُتل الحسين بن علي رضي الله عنه.انظر ياقوت ٤٤٥/٤.

٩- في ت و ط: منها.

١٠- في ت: أدرست.

بعدها إلاّ أيّاماً قلائل. وأيّ حياة لمنفوذِ المَقاتل. تهالكوا على خَرزَةٍ ظنّوها دُرَّةً، فبذلوا لها نفائسَ نفوسِهِم، فما فطنوا لسّوءَ صَنيع الغِمْرِ[1] إلاّ بعد ضياع العمر: [الكامل]

بَذَلُوا غِنَى الدَّارَيْن فِي مَحْضِ العَدَمْ ... نَدِمُوا وَلَكِنْ حينَ لايُغني النَّدَمْ

فَلَقَدْ تباغَضَتِ الجوارحُ مِنْهُمُ ... فَتَرى الأكفَّ يقومُ فِيها المُلْتَدم[2]

والظُّفْرُ يَقْرَعُ سِنَّهُ لكنَّهُ ... إنْ أمْكَنَتْ ضِرْساً أنامِلَهُ كَدَمْ[3]

ومن المزاراتِ بِرَبَضِها الغربيّ روضةُ السّيدةِ الشّريفةِ الطّاهرةِ، ذات الفضائل الظّاهرة، والكرامات المتظاهرة : نفيسةَ بنت عليّ بنِ أبي طالب[4] رضي اللّه عنهما؛ وتُرْبتُها هنالك مشهورة، وهي على[5] أوفى مايكون بناءً مونقاً، وضياءً مُشْرقاً، وعنايةً كاملةً، وحفاية حافلة، ومن رآها لم يشكَّ في فضل ملوكهم، وأنّهم جعلوا تعظيمَ أهْلِ البيتِ مبدأ سُلوكهم، اتّخذوه في عقود عمود الدِّين واسطةَ سُلوكِهِمْ. عليها رِباطٌ مقصود، ومعلم مشهودٌ؛ ومحلّ

١- الغِمْرُ: الحقد.

٢- اللّدم: اللطم.

٣- الكَدْمُ: العضّ.

٤- كذافي جميع النسخ وهو سهو وقع فيه المصنّف. وهي نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب: عالمة بالتفسير والحديث، ولدت بمكة سنة ١٤٥، ونشأت بالمدينة وانتقلت إلى القاهرة فتوفيت بها سنة ٢٠٨هـ.ترجمتها في وفيات الأعيان ٥/٤٢٣ـ غربال الزمان ١٩٨- أعلام النساء٥/١٨٧.

٥- ليست في ت.

محفود(١) محشود(٢)، تصوب(٣) بها ديَمُ العناية الرّبانية وتجـود، وَ: [الوافر]

--- ------ ------ لأمْرِما يُسَوَّدُ مَنْ يَسودُ (٤)

ومن المزارات بقَرافَةِ مِصْرَ : تربةُ الإمامِ الشّافعيّ -رحمه الله- وهي أشهرُ من أن تخفى [٨١/ب] وأظهرُ من أن تُغْفَلَ أوتُنسى، عليها رباطٌ كبير ومحلٌّ أثير، وفيها جراية تزيدها اشتهاراً، وعناية تلحفُها مبرّةً وإيثارا، وعليها قبّةٌ عجيبةٌ مشهورة، معدودةٌ في المباني المتقنةِ مذكورة، مُفرطة (٥الارتفاعِ والاتِّساع٥)، غريبةٌ في الإحكامِ والإبداع. ذَرَعْتُها من داخِلها فوجدتُ سعَتَها أزيدَ من ثلاثين ذراعاً، وفيها من العُدَدِ والأسبابِ والآلاتِ مايعجزُ عنه الوصف، وفي القَرافة وغيرِها من أرضِ مصر من قبور العُلماء والصُّلحاء مالايحصرُه عَدٌّ؛ منها قبرُ الرَّجُلِ العالمِ الصّالح، عبدالرَّحْمنِ بنِ القاسم(٦) صاحبِ الإمامِ مالك(٧) رحمه الله، وأشهبَ بنِ عبدالعزيز(٨)، وأصبغَ بنِ

١- في ط: محفوظ.

٢- في ط: مشحود.

٣- في ت: تصوبها وفي ط: تصوب فيها.

٤- هو عجز بيت لأنس بن نُهيك وصدره :

« عَزَمت على إقامة ذي صباحٍ »

وهو في الصحاح للجوهري صبح واللسان صبح والتاج صبح وانظره في مجمع الأمثال للميداني ١٩٦/٢.

٥-٥- في ط: الاتساع والارتفاع.

٦- عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة العتقي المصري: فقيه مالكي تفقه بالإمام مالك. جمع بين الزهد والعلم، ولد بمصر سنة ١٣٢هـ وتوفي فيها سنة ١٩١هـ. له المدونة في فقه المالكية ترجمته في حسن المحاضرة ١٢١/١- الديباج المذهب ١٤٦- شجرة النور الزكية٥٨/١ .

٧- زاد في ت «ابن أنس».

٨- أشهب بن عبد العزيز القيسي: فقيه الديار المصرية في عصره، كان صاحب الإمام مالك توفي بمصر سنة ٢٠٤هـ له ترجمة في حسن المحاضرة ٣٠٥/١- الديباج المذهب ٩٨.

الفَرَج[1]، وابنِ عَبْدِالحكم[2]، وأبي إسحاق بن شعبان، والقاضي أبي محمّد عبدالوهاب، وغيرهم. وليس لها هنالك اشتهار، ولا يوقف عليها إلاّ بتعريف من لَهُ بها عناية. وقد[3] أخبرني بعضُ أصحابنا أنّه ماأوجب تنويهَهم بتُربة الشّافعي، إلاّ دفنُ أمِّ الملكِ الكاملِ[4] معه في الرَّوضة، وما أقرب أن يكونَ ذلك[5] كذلك. فإنّ الّذي ضمّته مصرُ من أفاضلِ الصَّدْرِ الأوَّل لا يُحصى كثرة، وفيهم من الصَّحابةِ رضي اللهُ عنهم أعدادٌ. ومع ذلك فما عرفتُ قبورَ أكثرِهم، فَضْلاً عمَّا سوى ذلك.

والشّافعيُّ - رحمه الله - رجلٌ مجدودٌ في حياته، وبعدَ موته، وطارَ[6] له من الصِّيتِ مالمْ يَطِرْ[7] بعضهُ لمن هو أعلمُ منه، وخدَمَه الجَدُّ حتَّى في الأصحابِ، فما صَحِبَهُ إلاّ مَنْ لَه فيهِ فَرْطُ تشيّعٍ، وغلوّ معتقد، ومن رأى كلامهم فيه،وذكرهم له عَجِب من ذلك، وماأحقّهم باسم الشّيعةِ من المتعصِّبينَ لمن حَقَّ لهم التّعصّبُ، ووجَبَتْ لهم الحَمِيَّةُ، أهلُ بيتِ النّبيِّ ﷺ ، ولقد صدقَ الشّافعيُّ - رحمه الله - في قوله :[8] [الكامل]

١- أصبغ بن الفرج بن سعيد بن نافع المالكي: مفتي مصر فقيه مالكي، توفي سنة ٢٢٥هـ له: كتاب الأصول، غريب الموطأ، آداب الصيام. ترجمته في ترتيب المدارك ٢/٥٦١- الديباج ٩٧.

٢- هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم: مؤرخ، محدّث، فقيه من أهل مصر توفي سنة ٢٥٧هـ له: فتوح مصر والمغرب والأندلس. ترجمته في حسن المحاضرة ١/٤٤٦، الأعلام ٣/٣١٣ .

٣- ليست في ط.

٤- الملك الكامل: هو محمد بن محمد بن أيوب من سلاطين الدولة الأيوبية، تولى مصر سنة ٦١٥هـ. وامتلك البلاد الشامية توفي بدمشق سنة ٦٣٥هـ. من آثاره المدرسية الكامليه بمصر. له ترجمه في بدائع الزهور ١/٢٥٨-٢٦٨-وحسن المحاضرة ٢/٢٣-٣٤.

٥-ليست في ت و ط.

٦- في ط: صار.

٧- في ط: يظهر.

٨- ديوان الإمام الشافعي:١٣٢-١٣٣ .

الجَدُّ يُدني كلَّ شَيءٍ شَاسِعٍ   والجَدُّ يفتح كلَّ بابٍ مُغلقِ[1]
فإذا سَمعْتَ بأنَّ مَجدُوداً حَوَى   عُوداً فأَوْرَقَ في يَديهِ فَحَقِّقِ[2]

وصدق القائل أيضاً :[3] [٨٢/أ]   [الكامل]

والجَدُّ أنْهَضُ بالفَتَى مِنْ عَقْلِهِ   فَانْهَضْ بِجَدٍّ في الحَوادِثِ أوذَرِ

قلت : قد امتَّد نَفَسُ الكلام في ذكرِ هذه المدينة المَهينة، وحَقٌّ له أن يَقْصُر، وقد كفى ذمَّها أنّها مذمومة على مرّ[4] الأعْصُرْ، وبنو الزَّمان فُطُنٌ أكياس، يبصرون أقلَّ الأَوَد[5] في الغصن المَيَّاس.

والآن حان أن نعطف عنان الكلام، إلى إجراءِ الرِّحْلَةِ على نَسَقِ الانتظام، فنقول وبالله نستعين وهو خَيْرُ معين :

[البرية بين الحجاز ومصر]

ثمّ سافرنا من المدينة المذكورة، وتركناها غيرَ محمودةٍ ولا مَشكورة، وَبَرَزَ[6] الرَّكْبُ للرَّحيلِ، ورفضناها كما رُفِضَ الطَّلَلُ المُحيلُ، فنزلنا بموضع

١- في الديوان: كل أمر، والجَدُّ: الحظُّ والحظوةُ.

٢- البيت ساقط من ت، وفي الديوان: عوداً فأثمر.

٣- البيت لعبد الله بن يزيد الهلالي كما في حماسة البحتري ٢٤٦ وروايته ثمة:

الجدُّ أمْلَكُ بالفتى من نفسهِ   فانهض بجَدٍّ في الحوائج أوذَرِ

وهو في محاضرات الأدباء ٢١٤/١:

الجدّ أنهض بالفتى من سعيه   فانهض بجدّ في الحوادث أودَعِ

٤- في ط: مدّ.

٥- الأود: الاعوجاج.

٦- برَز الرجل: خرج إلى الفضاء.

علـى نحـو عشـرة أميـال منـهـا ويـعرف بالبِرْكَة. صـحـراءُ لاأنيسَ بـهـا، وعـادةُ الرَّكْبِ النزولُ بها ليتلاحقَ[1] النَّاسُ وربّما أقاموا بها يومين أوثلاثةً، وفيها آبارٌ طيّبةٌ، وتقومُ بـهـا سـوقٌ عظيمةٌ يَستتمّ بها[2] الحجّاجُ جهازَهُمْ. فلمّا تلاحقَ الرَّكْبُ واستتبَّ السَّفرُ، رحلنا فـي الضّحى الأعلـى من يوم الثّلاثاء الثّامن عشر من شهر شوّال مستقبلين للبريّةِ الكبيرةِ : بريّةِ مابينَ الحجازِ ومصْرَ، وهي مسيرة أربعين يوماً، ومابها مُسْتَعْتَبٌ إلاّ في يَنْبُعَ وفي بَدْرٍ، فإنَّ بهما عمارةً هي أشبهُ شيءٍ بالخَلاءِ والورودُ في جميعها ربْعاً[3] وغِبّاً[4]، والرِّبعُ هو الغالبُ، وليسَ في البراري أطولُ منها ولاأقفرَ[5]. أرضُها في نهايةِ الحُروشة[6] لايمكنُ أحداً فيها المشيُ بغيرِ مَداسٍ البتّة. وفيها قومٌ من العَرَبِ، صعاليكُ يَنتقلون فيها من مَوْضعٍ إلى مَوضع مالهم قوتٌ إلاّ مايمتارونه[7] من بعيد، فهم الدَّهرَ كلَّهُ في جَهْدٍ وفَرْطِ شَظَفٍ[8]. وقلّما يظهرون للرَّكْبِ لِخُبْثِ أفعالِهم، وَعَدَمِ مايعاملون به، وإنّما يتطرّفون[9] الرَّكب[10] ويطالعونه من كُلِّ مَرْقَبٍ، فإذا رأوا متخلّفاً عنه لغَفْلَةٍ، أو نومٍ، أو انقطاعِ عَجْزٍ، انقضّوا عليه فمزّقوا أشلاءَهُ، ولو لم يجدوا عليه إلاّ خِرقَةً واحدة لم يتركوها له. ولولا صاحبُ

١- في ط: ليلاحق.

٢- في ت و ط: منها.

٣- الرِّبْع: ورد الماء يوماً وتركه يومين ثم الورود في اليوم الرابع. انظر تهذيب اللغة ربع ٢/ ٣٧٠.

٤- الغِبّ: وِرْدُ يوم وظِمْء آخر.

٥- في ط: أفقر.

٦- الحروشة: الخشونة.

٧- الامتيار: هو طلب الميرة، وهي الطعام.

٨- الشَّظَفُ: شدّة العيش وضيقه.

٩- في ت و ط: يتطرقون.

١٠- في ت: للركب.

مصْرَ وما ألهَمَهُ اللهُ من الاعتناءِ [٨٢/ب] بالرَّكْبِ، وإخراجِ الحصَّةِ مَعَهُ بأميرٍ على أكملِ مايكونُ من الاستعدادِ والتَّأهُّبِ، ماسلك أحدٌ تلكَ البريّةِ لطولِها وخلائِها إلاّ من القطّاع. ولكنَّ لطفَ الجليلِ جلَّ جلالُهُ يَصْحَبُ عبادَهُ بحَسَبِ الحاجةِ، وعونُهُ يأتيهم على قَدْرِ نُزولِ الشدّة، وغوثُهُ يُسرِعُ إليهمْ على مراتبِهم في الاضطرار.

لمّا كان الرّوحُ يتقوّتُ الهواءَ، ولايصبرُ عنهُ ساعةً،كان الهواءُ أكثرَ الموجوداتِ إمكاناً، ولمّا كانت الحاجةُ إلى الماءِ شديدة، والصَّبْرُ عنه قليلاً، كان قريباً منه في الإمكان. فتأمّل لوكانا لايؤخذان إلا بثَمنٍ كالطَّعامِ، ماالحيلة؟ ولمّا كانت الحاجة إلى النّار[1] دونَ ذلكَ، والقليلُ منها يكفي، والكثيرُ منها يَضُرُّ، كانت أقلَّ إمكاناً، حتّى إنّها قلّما[2] تكونُ إلاّ بمعالجةٍ.

ومَنْ تَصفَّحَ دواوينَ الموجوداتِ، وَجَدَ هذا الفَنَّ مِن علومِها كثيراً، الفواكهُ قليلة بالنِّسبة إلى القوتِ للاستضرارِ بِعَدَمِ القوتِ. وأقلّ الجواهر وجوداً مالاتَمسُّ الحاجةُ إليه، ثم عظم في النّفوسِ تعظيماً مجرّداً من سَبَب، ليبيّنَ أثرُ القُدرةِ، وليعمَّ نفعُ مافيه النَّفعُ، ولايقع الاستئثارُ به. فيا عجباً من حُبِّ مالاينفع حتى يعوّضَ به أعظمُ الأشياءِ نَفْعاً.

لما كان المشيُ على الأقدامِ، كانت بَشَرتُها أغلظ، والكفُّ تحتاجُ إلى مباشرة الخشنِ فغلظت بشرتُها بحَسَبِ الحاجة ثم تَدَرَّج[3] الغلظُ في جميعِ البَشَرةِ على نحو ذلكَ، حتّى صارت بَشَرةُ الشَّفَةِ أرقَّها إذْ لايُباشَرُ بها إلاّ اللَّيِّنَ.

١- في ت: النور، وفي ط: النادر.

٢- في ت و ط: أقلّ ماتكون.

٣- في الأصل: درج

ولمّا احتيجَ في الكفِّ إلى اللَّمْسِ جُعلتْ أذكى الأعضاءِ حساً مع كثافةِ البَشَرةِ ليتنبّهَ الكثيفُ الطّبعِ إلى جَمْعِ الضدّين. ولمّا احتيج إلى كَشْفِ الوَجْهِ للمواجهةِ،أُعينَ على ألمِ الحرّ والبردِ أكثرَ من سائرِ البَدَنِ، ومن عَجَبٍ أنّه يتألّمُ بأقل الخَجلِ حتّى يتصبّبَ عَرَقاً، ثم يحتملُ شدّةَ البَرْدِ(١).

لمّا كانَ المظلومُ إلى النَّصْرِ أحوجَ، كانت الإجابةُ إلى دُعائِه أسرع [٨٣/أ] «اتّقوا دَعْوةَ المظلومِ، فليسَ بينها وبينَ الله حجابٌ»(٢).

لمّا كان الصّغيرُ من الحيوانِ غيرَ مستقلٍّ بنفسه، استخدمَتْ لهُ الأمُّ بقَهْرِ الشّفقة. ولمّا كان الكبيرُ [مستقلاً بنفسه استغنى عن أمّه](٣). فسبحانَ من عَجزَتْ العقولُ عن إدراك بعض لطائفه؛ وقصّرت الألسن عن شُكْرِ أقلِّ عوارفِهِ [.... ....](٤) ومن نظام حكمة الحكِيم أنّهم لايرحلون ولاينزلون إلاّ بأمر، وعلامة الأمر دقّ الطبْل. ولايتقدّم منهم أحد الدَّليل، والدّليلُ أمامَهم ليلاً ونهاراً، والخيلُ قدّامُ الرَّكْبِ ووراءَه [.... ....](٥) بالمشاعلِ تَنْفُضُ المسالكِ وتتفقّد من تأخُّر [من ضعف أو نوم] أو تكاسَلَ، ومعهم جمال السَّبيل يحملونَ عليها المنقطعينَ بعد امتحانٍ لهم واستبراءِ لشأنِهم، [لأن مِنْهُمْ مَنْ](٦) يتعاجز رغبة في الرُّكوب، وهو قويٌّ على المشي،

١- في ط: الحر.

٢- أخرجه البخاري في الزكاة باب أخذ الصدقة من الأغنياء رقم ١٤٩٦-٣/٣٥٧ عن ابن عباس، وفي المظالم باب الاتقاء والحذر من دعوة المظلوم رقم ٢٤٤٨-٥/١٠١ وفي الموضعين بلفظ: اتقِّ - ومسلم في الإيمان باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام رقم ٢٩ .

٣- بياض في الاصل و ط والتكملة من ت.

٤- بياض في جميع النسخ بمقدار خمس كلمات.

٥- بياض في جميع النسخ بمقدار كلمتين: لعلهما (فرسان يمشون).

٦- بياض في جميع النسخ بمقدار ثلاث كلمات، والاستدراك من نسخة الأحمدية.

فإذا أخذتهُ السّياطُ طارَ. ومارأيت [أحداً يريد ....][1] التَّباعد منهم والتّستّر عنهم، فلا بدّ لهم أن يقفوا عليه فيضربوه بالمقارع،وليس في الأرض [من يفعل فعلهم، لايكلّون ولايملّون ولايضجرون ....][2] بل يدأبون الَّليل والنَّهار حتَّى يرجعوا إلى مصر بعد ثلاثة أشهر. والّذي جَبَلَهُمْ اللّه عليه من الحَذَرِ والاحتياطِ أمرٌ يضيقُ عنه الوصفُ. لايخرج أحدٌ منهم من منزله[3] إلى المسجد أو السُّوق، أو متنزِّهاً[4] في داخل البلد،إلاّ وهو محتزمٌ كامل الآلة على صورتِهِ في وَصْفِ الحَرْبِ لايفارقه ذلك على حال، كما قال مسلم بن الوليد :[5] [البسيط]

تَرَاهُ فِي الأمْنِ في دِرْعٍ مُضاعَفَةٍ لاَيأمَنُ الدَّهْرَ أَنْ يُدعَى عَلَى عَجَلِ

والَّذي يتحمّلونه من النّصَب[6]، والعَنَا في خِدْمَةِ الرَّكْبِ، والاحتياطِ عليه ومداراةِ الضُّعفاء منه، ومواساتهم، والتَّرجّل لحمْلِهِمْ، لايقدر عليه إلاّ من أهلّه اللّه للخيرِ، وأعانَهُ عليه،فجزاهم اللّه عن المسلمينَ [٨٣/ب] خَيْراً، وحالُهُمْ في [سَيْرِ][7] هذه البَرِّيَّة أنَّهم يرحلونَ في نصفِ اللَّيْلِ، أو قبلَهُ بيسير، ورُبَّما رحلوا في الثُّلُثِ الأخير [من اللَّيل][8] والمشاعلُ تردُّ اللَّيلَ نهاراً، فيسرونُ حتى يُصبح، ويُصلّونَ ثم يستديمونَ السَّيرَ حتّى ترتفعَ الشَّمس فينزلون إلى

١- بياض بمقدار ثلاث كلمات والاستدراك من نسخة الأحمدية.
٢- بياض بمقدار سطر واحد والاستدراك من نسخة الأحمدية.
٣- ليست في ت.
٤- ليست في ط.
٥- ديوان صريع الغواني ١٢.
٦- النَّصَبُ: التَّعَبُ.
٧- زيادة من ت وط.
٨- زيادة من ط.

الظُّهر، ويصلّونَ ثم يرحلونَ، وربّما رحلوا قبل الصَّلاةِ، ثمَّ ينزلونَ آخرَ النَّهارِ عند الغروبِ إلى نِصْفِ اللّيلِ هكذا إلى مكّةَ، وإلى مصرَ.

وهذا السّيرُ على هذه الصُّورةِ من أروحِ مايكونُ للمسافرِ المجدِّ، لانقسامِ السّيرِ والرَّاحةِ بينَ اللَّيلِ والنَّهارِ،مع الإرواد[1] في المشي والجدِّ فيه، فصاروا يقطعونَ بالدوّامِ مع المَهْلِ مالايقطعه الجادّ في يومٍ تامٍّ؛ وحصلت الرَّاحةُ مع قَضَاءِ مالابدَّ منه بالنَّهار من أكلٍ وسَقْيٍ في المناهل، ونزولٍ للرّاحة[2]، وغير ذلك. ولو كان سيرُهم بالنَّهارِ خاصَّةً، لقطَعَهُمْ عنفُ السَّيْرِ، وتعطّلَ عليهم أكثرُهُ لتلكَ الضَّرورياتِ فيكثر عناؤُهم ولم يقطعوا مسافة.

وهذه البريّةُ - مع طولها - من أروحِ المواضع للحاجّ بسَبَبِ الأمنِ، فإنَّ أصحابَ الأموالِ يتّسعون بها على اختيارهم، ولايتّقونَ عليها، والضُّعفاءُ يعيشونَ بينهُمْ بأنواعٍ من الاحترافِ، وأضرُّ ماعلى الفقيرِ فيها المرضُ لعَدَمِ المستعتَبِ وطولِ الطَّريقِ. وأمّا القوتُ فيتسبُّب فيه إذا كان صحيحاً. وقلّما يعوزُهُ التَّسبُّب لكَثْرَة[3] الخَلْقِ، فإنّهم بحيثُ لو غابَ عنْ أحَدٍ[4] رفيقُهُ لم يجدْهُ عن أيّامٍ، وأكثرُهم بعلاماتٍ يتعارفونَ بها وأعْرِفُ بعضَ المصامدة[5] ضاعَ عن أصحابه في الرَّكبِ عند انفصاله[6] من مصْرَ فما زالَ يَنْشدهُمْ وينادي بهمْ ولم يجدْهُمْ حتّى وصل إلى عَقَبَةِ أَيْلَةَ[7] مسيرةَ عَشَرةِ أيَّامٍ، وكان الرَّكبُ

١- الإرواد في المشي: الإمهال.
٢- في ت وط المراحل
٣- في ت و ط: بكثرة
٤- في ت واحد.
٥- المصامدة: نسبة إلى قبائل مصمودة.
٦- في ت: انتقاله.
٧- أيْلة: مدينة على شاطىء البحر في منتصف مابين مصر ومكة. انظر ياقوت ١/ ٢٩٢ .

في هذا العام قليلاً يتعجّبُ[1] النَّاسُ من قِلّتهِ بسبب خروج السُّلطان إلى جهاد عَكَّة[2]. وذكر لي بعضُ من حجَّ قَبل هذا العام أنَّه أحصى في بعضِ الأعوامِ مافي الرُّكب من الجِمالِ فوُجِدَتْ ثمانين ألف راحلة دون [٨٤/أ] الدّواب.

[مناهل البرِّيَّة]

[السُّويس]

وأمّا مناهلُ هذه البرِّيَّةِ فمن البِرْكة إلى السُّويس ثلاثةُ أيّامٍ، وهي بئرٌ غزيرة واسعةٌ، وهنالك ينقطعُ بحرُ الشّرقِ[3]، فيدورُ السَّالكُ من ورائهِ ويتركُهُ يميناً ولا يزال محاذياً له إلى مكّةَ، وثَمّةَ كانت مدينة القُلْزُم[4]، وبينها وبين الفَرَمَا -كورةٍ من مصرَ على ساحلِ البَحْرِ الرّومي- مسيرةُ يومٍ، وما بين هذين الموضعين أقربَ مسافةٍ بين البحرين بحرِ الشّرق وبحرِ الغرب.

قالوا :[5] وهذا الحاجزُ بينهما هو الَّذي ذكرهُ اللّه سبحانه وتعالى في قوله : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ البَحْرَيْنِ حَاجِزاً ﴾[6].

[مغبوق]

وماء السُّويس مِلْحٌ لايكادُ يُساغ لملوحته، وخباثةِ مطعَمِه ولكن بالقُرْبِ منهُ على نحوِ عشرةِ أميالٍ، أو أزْيَد قليلاً ماءٌ يُقالُ لهُ مغبوقٌ[7]، وهو ماءٌ عَذْبٌ

١- في ط: يعجب.
٢- عَكَّة: مدينة على ساحل بحر الشام من عمل الأردن وهي مدينة حصينة لها سور. انظر ياقوت ١٤٣/٤.
٣- بحر الشرق: يعني البحر الأحمر.
٤- القُلْزُم: بلدة على ساحل البحر الأحمر قرب أيلة. انظر ياقوت ٣٨٧/٤ .
٥- انظر البكري في جغرافية مصر من كتاب المسالك والممالك ٩٣.
٦- سورة النمل من الآية ٦١.
٧- في الأصل مبعوق وهو سهو.

طيّبٌ في أحساءٍ برَمْلَةٍ بيضاءَ، غزيرٍ لاكُلْفَةَ فيهِ. وكان كثيرٌ من النّاسِ قد استقى من السُّويسِ، فلمّا وصلوا [إلى مغبوق][1] [أراقوا مامعهم][2]، وسقوا دوابَهم،واستقوا منه ثانيةً.

[بئر النخل]

ومن مَغْبوق إلى بئر النَّخْلِ ثلاثةُ أيّام،وهي بئرٌ واحدةٌ بكيّةٌ،ماؤها شريب [لايروي][3] عَطَشاً،ويتقاتلونَ على مائها؛ حتّى لقد قُتِلَ بينَهمْ مرّةً بما ذُكِرَ لي نحوُ مئتينِ،ومازال الحال [كذلك،حتّى حفر أمير][4] مصر،ويُقالُ له طَرطقى،هنالكَ بئراً أخرى متقنةَ العَمَلِ يُنزل إليها في دَرَجٍ لهُ بابُ إلى جانبها، وهي عجيبةُ الإحكام، ولكنّها بكيّةٌ أيضاً إذا كثر السّقاة نَزَفَتا[5] معاً؛ ومنذ أحدثها الأمير المذكور [كان][6] الماء قليلاً، والزّحام مع ذلك كثير، وهذه البئر تُعرَفُ بالأمير المذكور وقد أدركنا حياته[7] وقد توفي بطريق[8] الحِجاز رحمه الله.

١- زيادة من ت وط.

٢- بياض في الأصل و ت و ط استدركته من نسخة الأحمديةٌ.

٣- بياض في سائر النسخ. استدركته من نسخة الأحمدية.

٤- بياض في سائر النسخ استدركته من نسخة الأحمدية.

٥- في الأصل: تردها معاً

٦- بياض بمقدار كلمة. استدركته من نسخة الأحمدية .

٧- في ط: أدركناه حياً

٨- جملة « وقد توفي بطريق » ساقطة من ط.

ومن بئر[1] النَّخْل إلى عقبة أيلة ثلاثة أيّام، والغالب في ورودها الرِّبع، وهناك قصيرٌ وأثر بناء قديم، وهو موضع مدينة أيلة، وماؤها أحساء في الرَّمل، [وهناك][2] يقطع الخليج الدَّاخل من بحر القُلْزُم المذكور،[٨٤/ب] وهو بحر موسى عليه السَّلام،إلى صوب الشّام،[ومن هناك][3] طريق إلى الشّام، والأحساء المذكورة في ساحل البحر، وإذا طَمَت الموجة كسَتْها ومع ذلك ماأثَّرَ فيها ماء البحر، فسبحان من لاغاية لغرائب صنعه، ولاحيلة في إعطائه ومنعه.

[أيلة]

وأيلةُ معدودة من كور مصر، وفيها عدّها البكريُّ، وجعلها القاضي صاعد حدّ طول مصر حسبما تقدَم[4] وقد ذكرها القاضي عِياض[5] في «مشارقه»[6] وغَلِطَ فيها فحكى عن أبي عُبيدة : «أنَّها مدينةٌ على شاطىء البحرِ من بلادِ الشّام، وهي نصفُ الطَّريقِ من فِسطاط مِصْر إلى مكّة[7] وذكرها المَتيجيّ صاحب « الرِّسالة في القبلة» في رسالته فقال :«إنَّ منها إلى مكّة نصف شهر».فغلط فيها أيضاً كما رأيت، وذلك غير مستنكر، فإنّ مَن لم يشاهد الشّيء يصعب عليه وصفه، وقلّما يسلم فيه من الغلط.

١- ليست في ت.

٢- بياض في سائر النسخ استدركته من نسخة الأحمدية.

٣- بياض في سائر النسخ استدركته من نسخة الأحمدية.

٤- طبقات الأمم: ١٠٥

٥- هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي: قاض، حافظ، فقيه محدث. توفي بمراكش سنة ٥٤٤ هـ له: ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب مالك. والشفا بتعريف حقوق المصطفى، ومشارق الأنوار. ترجمته في قضاة الأندلس ١٠١- الصلة ٤٥٣، وفيات ابن قنفذ ٢٨٠ .

٦- هو مشارق الأنوار على صحاح الآثار في تفسير غريب الحديث المختص بالصحاح الثلاثة وهي الموطأ، والبخاري ومسلم طبع غير مرّة.

٧- مشارق الأنوار ٥٩/١ .

[نقد المسالك والممالك للبَكْريّ]

ومازال أهلُ الإتقانِ يقعونَ في مثل هذا. ألا ترى إلى أبي عُبَيدٍ البَكْريّ مع تحقيقه[1] وفرطِ اعتنائه، ونُبْلِ تواليفه، قد أَوْدَعَ في مسالكه من الغَلَطِ في صفاتِ البُلدانِ، وتحديدها وترجمتها مالاغايةَ وراءَهُ. فمن ذلك قولُهُ في إيلياءَ مدينةِ بيتِ المقدسِ :«إنّ الجبالَ محيطةٌ بها»وإنّما[2] هي في نَشَزٍ من الأرضِ كما ذكر، وليس بالقُرب منها جبل إلاّ رَوَابٍ وتلال. وأظنّه سَمِعَ بما دارَ بها من الوَعْرِ، وماحازَها من جهاتِ الأوديةِ المنقطعةِ، فظنّها جبالاً. ومنهُ قولُهُ في وَصْفِ قصر الجَمِّ بإفريقيّةَ – وهو قصرُ الكاهنةِ – : «إن في دوره نحواً من ميل»[3] وقد طلعتُ[4] إلى أعلاهُ، وتأمّلْتُهُ ولو رمى الرَّامي حَجَراً لخلّفَهُ به. ومن ذلك قولُهُ في سُرْت : « إنّها مدينةٌ كبيرةٌ على ساحلِ البحرِ بها حمّامٌ وأسواقٌ، ولها بساتينُ ونخلٌ»[5]، وهذا كلُّهُ لاوجودَ له، وإنّما هي قُصَيرٌ صغيرٌ يُعرف بالمدينة، وهو أوّلُ قصورِ سُرْت من جهةِ الشّرقِ. وبينَهُ وبينَ البحرِ مسافةٌ، وما للنَّخلِ بِسُرْتَ كلِّها وجودٌ، وأظنّهُ [٨٥/أ] سمع بأنَّ التَّمْرَ عندهم كثيرٌ، فحكمَ بوجودِ النَّخْلِ عِندَهُمْ، وغَلِطَ في عَكْسِ القضيّةِ. والتّمرُ عندهم مجلوبٌ من بلاد أَوْجَلَةَ[6]. ومن ذلك قوله في نَفَيس[7] بالمغربِ الأقْصى « إنّها مدينةٌ

١- في ت وط: تحققّه.

٢- في ط: وإنّها وهو تحريف.

٣- المغرب في ذكر إفريقية والمغرب: ٦.

٤- في ت و ط: طلعته.

٥- المغرب: ٣١

٦- أوجلة: مدينة بينها وبين برقة في البحر عشر مراحل. وهي مدينة صغيرة متحضرة، وهي في ناحية البرية يطيف بها نخل وغلات لأهلها. انظر الروض المعطار ٦٤ .

٧- نفيس: مدينة من بلاد المغرب عند أغمات تعرف بالبلد النفيس. وهو مدينة قديمة صغيرة حولها عمارات وطوائف من قبائل البربر. انظر المغرب ١٦٠ ، الروض المعطار ٥٧٨ .

بينها وبين البحرِ مسيرةُ يومٍ»[١]. وإنّما هو اسمُ نَهْرٍ كبيرٍ عليه قرىً كثيرةٌ وعمارةٌ متّصلةٌ، وبينَهُ وبينَ البحرِ ثلاثةُ أيّامٍ. ومن ذلكَ أنَّهُ ذكر[٢] في طريقِ تامَدولتَ إلى بلادِ السّودانَ جبَلاً يقل له : آزور وقال : «وأظنُّه جبَل دَرَنٍ، وجَبَلُ دَرَنٍ قد حازَهُ السّوسَ الأقصى. فليس شيء منهُ وراءَهُ»[٣] وتامدولت من وراءِ السُّوس على مسيرة أيّامٍ. ومن ذلك أنّه ذكرَ من بلادِ الصحراء بلدةً يقال لها : تادْ مكّة وترجمها فقال :«معنى تاد: الهيئة أي أنّها على هيئةِ مكّةَ.»[٤] وليسَ معنى تاد :الهيئة كما ذكر، ولا للهيئة[٥] اسمٌ في لسانهم البتّة، وإنّما معنى تاد : هذه، وهي من أسماءِ الإشارةِ عندَهُمْ. يقولونَ : لهذا : واد، ولهذين وهؤلاء، ويد، ولهذه : تاد ، وهؤلاء تيد، وليس للمثنّى عندهم عبارة سوى عبارة الجمع، إلاّ في ألفاظ العدد فمعنى تاد مكّة، هذه مكّة أي مشبهتها.

[عقبة أيلة]

وعقبةُ أيْلَةَ المذكورةُ عَقَبَةٌ كَؤودَ[٦]، شاقةٌ طويلة، مسافتُها نحوٌ من خمسة أميالٍ، تُضِرُّ بالنَّاس، وتقتُل الجِمَال وخُصوصاً في الرُّجوعِ. وهي في الذَّهاب حَدور. وأيلةُ من أسواقِ الرَّكْبِ الكبار، وربّما أقام بها يومين وثلاثة لأنَّها مجمعُ المصريّينَ والشّاميّينَ يتجمّعونها[٧] في طلوعِ الرَّكْبِ ورجوعِهِ

١- المغرب في ذكر إفريقية والمغرب ١٦٠

٢- أنه ذكر : سقط من ط

٣- المغرب ١٥٦-١٥٧.

٤- المغرب ١٨١.

٥- في ط: لهيئة.

٦- عقبة كؤود: أي شاقة المصعد صعبة المرتقى.

٧- في ت وط: يتحينونها.

بأنواعِ المبيعاتِ، ولاسيما الطَّعامَ، وربّما كَثُرَ بها حتَّى يزيدُ سعرُه على سعرِ الشَّام ومصر، لأنَّ الجالب إليها لابدَّ له من البَيْعِ لبُعدِ المسافة وعدم[1] المستعتب. وكثيرٌ من الحجّاج من يتجهّز منْها ولكنَّ الأمل ربّما غَرَّ فَضَرَّ، وقديماً قالوا : «عَشِّ وَلاَتَغْتَرّ»[2]. وقد كان كثيرٌ من النَّاس رَجَوا رُخصَها[3] لرُخْصِ الشّامِ، فلم يكملوا جهازَهَمْ من مصرْ فلمَّا أتيناها بلغت بها وَيْبَة[4] الدّقيق ستةَ عشر درهماً، ثم انتهت إلى أكثر وإلى العَدَم. والوَيْبَة [٨٥/ب] المصريَّةُ ستةَ عشر قَدَحاً وقَدَحْهم أقلُّ من المَدّ الحَفْصيّ، والصّرفُ اثنان وعشرون درْهَماً بدينارٍ يوسفيّ، فكانَ حساب الويبةِ قريباً من ثلاثة أرباع الدِّينارِ. فلما صَدَرَ الحجّاجُ كثر الجَلْبُ إليها لما رأوا من غلائِها، فلم تَزِدْ الويبةُ على ثلاثة دراهمَ، وانتهى إلى أنْ لم يوجدْ له مُشْتَرٍ فرجعوا به إلى الشّامِ.

[وادي القُرِّ]

والمنهلة من هذا الموضع قريبة على نصف يوم، رحلنا في وقت الظُّهر أو قبله بيسير، فوردناها في وقت المغرب، وهي أحساء على البحر غزيرة عذبة مثل الأولى سواء[5]، ومن هنالك يُدخل في وادي القُرّ، وهو وادٍ متطاول لاماء به، وهو متّصل إلى مغارة شُعَيب، شديد البرد، ولذلك سمِّي وادي القُرّ.

١- في ت: وبُعْد.

٢- المثل في: أمثال أبي عبيد ٢١٢، والوسيط ١٢٤، وجمهرة الأمثال ٤٦/٢، والمستقصى ١٦٢/٢ والميداني ١٦/٢، واللسان: عشا

٣- في ت و ط: رخصاً

٤- الوَيبةُ: مكيال للحبوب يستعمل بمصر ويزن ٢٥ كيلو غراماً والقدح هنا يزن ١.٥٦٢ كغ تقريباً. «حاشية طبعة الرباط ١٥٩».

٥- ليست في ط.

وفيه قبرُ السّفافِ على الطَّريقِ، وهو رجلٌ من العرب ذكروا أنّه كان فيما مضى يسكنُ هنالكَ، ويقطعُ على الحجّاج، ولا يكادُ يسلمُ منه أحد، حتَّى مَرِضَ مَرَضَهُ الَّذي ماتَ منه[1]. فسمعَ بأنَّ بعضَ الحجّاجِ على الطَّريقِ، فاستدعى بنيه، وهم يظنّون أنَّه يأمرهم بإكرامهم وأنّه قد تابَ، فوجدوه وقد اعتقلَ لسانُهُ، فقالوا له :نُجير الحُجّاجَ؟ فأشارَ إليهم : أنْ لا. فما زالوا يراودونَهُ ويذكّرونهُ بما حلّ به حتَّى أَضْجَروه[2]، فرفَعَ يَدَهُ وأشارَ إلى فيهِ أي سفّوهم سَفّاً، فَسُميَّ السّفَّاف. ثم مات فَرُجِمَ قبره من ذلك العَهْدِ إلى الآن، وقد صار جبلاً من الحِجَارَةِ، واللهُ المسؤولُ في العِصْمَةِ.

[مغارة شعيب]

ومن هذه المَنْهلةِ إلى مَغارةِ شُعَيب يومانِ وبعضُ يومٍ، وهي مغارةٌ كبيرةٌ مرتفعةُ السّمكِ جدّاً، معجبةُ الصّفة، متّسعةٌ[3] من بابِها إلى داخلها، مضيئةٌ لأجلِ اتّساعها، معجبةُ الصِّفَةِ، وهي في حَجَرٍ أصمَّ بأصلِ حَدْبٍ[4] غليظٍ؛ وفي بابها يسيرُ ارتفاعٍ فإذا دخلتَها انحدرتَ في دَرَجٍ مِن حجارة جُعِلَ لأجل الزَّلق. والمغارة نفسها من صنع الله الَّذي أتقن كلّ شيء، ولاقدرة على مثلها لآدميّ، والماءُ في قَعرِها كثيرٌ ظاهرٌ من البابِ راكدٌ كأنَّه بِركَةُ مَطَرٍ[5] [٨٦/آ] وهو ماءٌ مَعين بلا رَيْبٍ. ولولا ذلكَ لنزفَ في سقيةٍ واحدة، وهو عذب

١- في ت: فيه.

٢- في ط: أضجر.

٣- في ت: متسقة.

٤- الحَدْبُ من الأرض: الغليظ المرتفع.

٥- في ط: مصر وهو تحريف.

لولا ما يخالطه مما ينصَبُّ إليه من مَسيطةِ[1] السُّقاة، وبين باب المغارة وقَعْرِها بالتَّقدير[2] ستون أو سبعون ذراعاً وهي آخر وادي القُرِّ.[3]

[عيون القصب]

ومنها إلى عُيون القَصَب يومان، وهو ماء جار عذب ولكنَّه ليس بالكثير، ومنبعُهُ من لِهْب[4] بين جبلين على يسار المتوجِّه إلى الشَّرق وفيه الطَّرْفاءُ[5] والبَرْديُّ[6] كثير، وتخالطه رائحة البَرْديِّ [كثيراً][7]، وهو من أقرب مياه البرِّيَّة متناولاً وأقلّها كلفة.

[كفافة]

ومنها إلى كُفَافَة يومان وبعض يوم، وكُفافة جَبَلٌ على يسار الطّريق قد نَدَرَت[8] منه شَماريخُ[9] مصطفّة كأنَّها أضراس. ويقولون: إنَّها نصف الطَّريق من مصر إلى مكّة، وفي سفح الجبل أحساء يحفر عنها في وادٍ يقال له: سلمى، وماؤها غزير عذب مايكاد يُرى في البّرية مثله[10] عذوبة وصفاء.

١- المسيطة: الماء الآجن يسيل إلى البئر العذبة فيفسده.
٢- في ت: بالتدبّر.
٣- في ت و ط: القرى.
٤- في ت و ط: شِعْب، واللِّهب: الشّعب الصغير في الجبل.
٥- الطرْفاء: شجر لا خشب له تتحمّض به الإبل إذا لم تجد حَمْضاً غيره.
٦- البَرْديُّ: نبت معروف واحدته بَرْديَة. وهو نبات مائي كالقصب.
٧- زيادة في ت و ط.
٨- في ط: برزت، وكلاهما بالمعنى نفسه.
٩- الشماريخ: رؤوس الجبال. واستخدمت هنا للنتوءات البارزة كأنها رؤوس الجبال.
١٠- في ت: مثلها.

[الوجه]

ومن كُفَافَةَ إلى الوَجْهِ ثلاثةُ أيّام، وهو ماءٌ عَذْبٌ طيّب في أصل جبل[١] مثل الأوَّل ولكنَّه ليس في الغزارة والإمكان مثله. ووقعت بهِ في بعض الأعوامِ في الحُجّاج مَقْتلةٌ عظيمةٌ. قَتَلَهُمْ العَرَبُ وانتهبوهم، وقد تقدّم ذِكْرُ ذلك في رسالةِ ناصر الدِّين بن المُنيِّر، وكانَ الحجّاجُ مغاربةً والرّكبُ المصريّ قد تخلّف في ذلك العامِ، فتجاسَرَ المغاربةُ على النُّفوذِ فاتّفق لهم ما اتّفق. والوَجْهُ هو منتصفُ الطَّريقِ على التّحقيق.

وهنالك ماءٌ آخرُ رائغٌ[٢] عن الطَّريقِ في جِهةِ اليسارِ كثيراً يعرف بالشّعبين، وهو دونَ الوجْهِ أحساءٌ في نشزٍ من الأرضِ يتكلّف العَناء في حَفْرِها، وربّما نضَبَت فلم يوجد فيها ماء. وقد وردْناها في الطّلوعِ فكان بها[٣] زحامٌ عظيمٌ، ولم تَعُم النَّاس، وَبِيعَ بها مِلْء[٤] القِرْبَةِ بجُملةِ دراهمَ.

[أكرا]

ومن الوَجْهِ إلى أكرا ثلاثة أيّامٍ[٥] وهو وادٍ كبير، وماؤه أحساءٌ يُحْفَرُ عنه نحوَ القامة، وهو غزيرٌ عَذْبٌ، وعن يمينه في [٨٦/ب] ناحيةِ البَحْرِ على مسافةٍ جَيِّدةٍ أحساءٌ أخرى غزيرةٌ مثلُ الأولى[٦] في وادٍ يقال له اليَعْبُوبُ، وقد

١- في ط: الجبل.
٢- رائغ عن الطريق: أي خارج عنه.
٣- في ت: فيها.
٤- في ت: مثل.
٥- في ت: مراحل.
٦- في ط: الأول.

ذكر لي بعض الطَّلَبَةِ من أهل دَميرَة[1] من ريف مصر حَجَجْنا معه، وقد حجَ مراراً أن اليَعْبُوبَ هو وادي أكرا من أسفله.

[الحوراء]

ومن أكرا إلى الحَوْراء ثلاثَة أيَّام، والحوراءَ أحْساءً على شاطئِ البحرِ غزيرة، وماؤها مِلْحٌ خبيثٌ، مُنكَر الرَّائحةِ لا يكادُ يُجرَعُ، وهو أخو المحمودةِ مَطْعَماً وفعْلاً. وهنالك جزيرةٌ في البحرِ منقطعةٌ يسكنُها بعض العَرَبِ، والحوتُ[2] غالبُ عَيْشِهِمْ، وإذا نزلَ الركْبُ[3] جلبوه إليهم، وبالحوراءِ يتلقّى أهلُ يَنْبُعَ الرَّكْبَ بالتَّمرِ.

[المغيرة]

ومنها إلى المُغيرَة يومانِ، والمُغَيْرَةُ تصغير مغارة، وهي وادٍ بين جبلين محفورةٌ في بطنِ الوادي، ومدخلُها ضيّقٌ يُهْبَط منهُ في دَرَجٍ وماؤها قَليل. ولم يزل الحُجّاجُ يتضايقونَ عندها[4]، ويتقاتلونَ[5] ويموتونَ[6] عَطَشاً، حتّى ألهَمَهُمْ الله منذُ أعوامٍ للحفر عندَها فحفروا، فإذا الوادي أحْساءٌ ولكنَّها غائرةٌ يُحفَرُ عنها نحوَ القامتينِ فاتّسعَ النّاس في الماءِ بعضَ الاتّساعِ منذُ ذلك العَهْدِ، والمُغَيْرَةُ هي العَرْجاءُ الَّتي ذكرها ناصر الدِّين في رسالته.

١- دَميرة: مَرية كبيرة بمصر قرب دمياط، وهما دميرتان، إحداهما تقابل الأخرى على شاطئ النيل في طريق من يريد دمياط. انظر جغرافية مصر للبكري ٦١ ، ياقوت ٤٧٢/٢ .

٢- الحوت: لفظة تطلق على السمك الكبير والصغير.

٣- في ت و ط: الرَّكب بها.

٤- في ط: عليها.

٥- ليست في ط.

٦- ليست في ط.

[ينبع]

ومنها إلى يَنْبُعَ يومان جادّان، وَينبُعُ من بلادِ الحجازِ المعروفةِ وهي بُليدةٌ في أصل جَبَلٍ، ضعيفةَ البناءِ قليلةُ السّاكنِ، والخَرابُ بها كثير، وغربيُّها بسيطٌ مُتَّسعٌ، وهو مَحَطُّ الرَّكْبِ، ولكنَّهُ سَبْخَةٌ لا تَنبتُ، وفيه نخيلٌ وماء مَعينٌ طيِّب. وصاحب يَنْبُع مُستَبِدٌّ بها كاستبداد صاحب مليانةَ؛ إذلا أحدٌ يرغب فيهما ولو كان كلّ[1] بلدٍ مثلَهُما لوقَعَ الأمانُ و«لم ينتطحْ فيها عَنْزان»[2]. ومَن ذا الَّذي يرغَبُ في عَيْنِ العَناء، وينافس في نَفَسِ الفَناء، فَهُم طلقاءُ الجوعِ، وعُتَقَاءُ الشّظَفِ، أمَّنَهُمْ الخوفُ، ونجّاهُمْ التَّلفُ. ولكنَّ يَنْبُعَ على ماهي عليه ترتاحُ لها النّفوس [٨٧/أ] ويُنضى لرؤيتِها لبوس البوس، لأنّها مراقبةٌ[3] لدارٍ حلَّها الحبيب، وربعٍ يدعى فيها الشَّوقُ فيجيب، ويخطُر به الخاطرُ فيعرف ولا يستريب، لو نطقت بُقَعُهُ[4] لأفصحتْ بِكُلِّ عجيب. مَنْزَلٌ غدا للعقولِ عقالاً، ينفرُ إليه جُنْدُ الوَجْدِ ﴿ **خِفافاً وثقالاً** ﴾ [5] تودُّ الخدودُ بهِ لو كانَتْ يغالا، ذا المعالي[6] فَلْيَعْلُ من يتعالى.

ولِلَّركْبِ في يَنْبعَ سوقٌ كبير، والتَّمْرُ فيه كثير، ومنه يتجهّزُ مَن نقصهُ شيءٌ من زادِهِ إلى مَكَّةَ، وبه يحطُّ أهلُ مِصْرَ أثقالَهُمْ ومالا يحتاجونَ إليه من

١- ليست في ط.

٢- في المثل: لا ينتطح فيه عنزان. انظره في الوسيط ١٩٨، والفاخر ٢١٢، والميداني ٢/٢٢٥، والمستقصى ٢/٢٧٧. واللسان نطح. وهو حديث شريف.

٣- في ت وط: مصاقبة: والصَّقب: القرب.

٤- ليست في ط.

٥- اقتباس من قوله تعالى في سورة التوبة ٤١ : ﴿ **انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا باموالكم وأنفسكم في سبيل الله** ﴾ .

٦- في ت التعالي.

زادهم حتَّى يرجِعوا. وأهلُهُ في خدْمَة صاحبِ مِصْرَ، وهو يَميرهم[1] بالزَّرْعِ، ويمدُّهُمْ بالتُّحفِ ليجَدهُمْ الحجّاجُ رُكْناً، ويأمنَ المُنقَطِعِ لديهم، ولا يُعتَرَضُ في ماله.

وبخارجِ ينبُعَ من ناحيةِ الجَبَلِ مَسْجدٌ مُحْكَمٌ مليحٌ، يقولونَ: إنَّهُ مَسْجِدُ عليّ بنِ أبي طالب رضي الله عنه، ولعلّه كان بنى هنالكَ مَسْجِداً حينَ تنحّى إلى يَنْبُعَ في أيام عثمانَ رضي الله عنهما.

[الدُّهناء]

ومن يَنْبُع إلى الدَّهناءِ مسيرةُ نصفِ يومٍ، وهي من عَمَلِ يَنْبُع،وبها ماءٌ معَين،ونخل (٢كثير،وأرضها سَبْخَةٌ٢)، وماؤها طيّب.

[بدر]

(٣ومنها إلى بَدْرٍ مسيرةُ يومينِ وهو وادٍ به ماءٌ مَعينٌ، ونَخْلٌ وعَمارةٌ ليستْ بالكثيرة٣)، وماؤه طيّب، وبه مَسْجِدٌ مُخْتَصَرٌ مَليحٌ، ذكروا أنّه بُنيَ في موضعِ العريشِ الَّذي كانَ فيه رسولُ الله ﷺ يومَ بَدْر. وأكثر سكانِ بَدْرٍ ضُعفاءُ، وهُمْ رَفَضَة، وكذلك أكثرُ أهلِ المدينة على ساكنها أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ. وفي غربي المسجدِ مقبرةٌ كبيرةٌ، وفيها[4] قبورُ شُهداءِ بَدْر رضي الله عنهم، ويقوم في بدرٍ سوقٌ كَبيرٌ أيضاً،لأنَّ أهلَها ومن جاورهم إلى

١- الميرة: جلب الطعام، يميرهم: يجلب لهم الزّرع.

٢-٢- في ت: وعمارة ليست بالكثير.

٣-٣- سقط من ت.

٤- ليست في ت.

المدينةِ يتحيّنَون وصولَ الرَّكبِ فيستعدُّون لذلك، ويحضرّونَ ما يبايعونَهُمْ بهِ من تَمْرٍ وعَلَفٍ وجِمالٍ وغيرِ ذلك.

وفي غربيِّ المقبرةِ المذكورةِ هَضَبَةٌ فيها نُصْبٌ، والحُجّاجِ يتمسّحون به، ويتطارحونَ عليه،ويكثرُ زِحامُهُمْ عندَهُ(١) ويتكلّفونَ الصُّعودَ منه إلى أعلى الهَضَبةِ،فيقاسونَ فيه شدّةً لضيقه،[٨٧/ب] وقلَّما يتخلّصُ منه الصَّاعِدُ فيه حتّى يأخذَ بيدِهِ شخصٌ آخرُ(٢) على الهضبةِ، ويذكرونَ في ذلك أشياءَ مالها أَصْلٌ، وكذلكَ يصنعونَ في موضعٍ آخر قريبٍ من بَدْرٍ،على يمينِ الطَّريقِ في هَضَبةٍ بحَرْفِ الوادي، وهنالكَ شِبْهُ غارٍ ويذكرونَ تخرُّصاً(٣) أنّه الغارُ الَّذي دَخَلَهُ رسولُ اللّهِ ﷺ وأبو بكر رضي اللّه عنه حينَ هاجرا(٤) من مكّةَ، وذلكَ باطلٌ فإنَّ الغَارَ المذكورَ بجَبَلِ ثَوْرٍ(٥) قريباً من مكّةَ وفي ناحيةِ الجَنوبِ منها، وهو أشهرُ وأعرفُ من أن يُعَرَّفَ به.

ومن جُمْلَةِ غرائِبِهِمْ تسميتهم بَدراً ببَدرٍ وحُنَيْنٍ، فلا ينطقونَ بهما إلاّ مقرونَيْنِ على أنّهما اسمٌ واحد، واشتُهِرَ ذلكَ عندَهُمْ حتّى صارَ في حيِّزِ المقطوع بصحتّه، وفَشا ذلك على ألسنةِ الخاصّةِ والعامّةِ حتَّى لقد أَوْهَمَ اشتهارُه الفقيهَ ناصر الدِّين - رحمه اللّه - على جلالَةِ قَدْرِهِ، فذكر حُنيناً مع بَدْرٍ في رسالةٍ لَهُ وقد مضى ذكرُ فَصْلٍ منها، وليست غزوة بدر من غزوة

١- ليست في ط.

٢- ليست في ط.

٣- تخرّص الشيء: افتعله.

٤- في ط: هاجر.

٥- جبل ثور: يقع بأسفل مكة وهذا الغار مشهور عند الناس يدخلونه من بابه المتسّع وبابه الضيق الذي وُسع لا نحباس بعض الناس فيه حوالي سنة ٨٠٠هـ. انظر العقد الثمين ١٠١/١.

حُنين، ولا موضعهما واحداً ولازمانهما متقارباً. كانَتْ غَزْوَةَ بَدْرٍ في السَّنَةِ الثّانيةِ من الهِجرة، وبَدْرٌ هو الوادي المذكورُ على أربعةِ أيّامٍ أو نحوها من المدينة، وكانت غزوة حُنين عام ثمانيةٍ من الهجرة بعد فَتْحِ مكّةَ. وحُنين في جهة الطّائفِ[1] على تسعةَ[2] عشرَ ميلاً من مكّة، ومن بَدْرٍ طريقٌ مشرفةٌ إلى المدينةِ على وادي الصّفراءِ[3] يسرةَ الطَّريقِ وسيأتي ذكرها إن شاء الله تعالى.

[البزواء]

ومن بَدْرٍ تُشير إليك البزْواءُ[4] وهي دُويّة[5] ممتدّةٌ مَلْساءُ، مَجْهَلٌ من أعظم المجاهلِ، نكراءُ، يضلُّ بها لنكارَتِها الدّليل، ويذهَلُ فيها الخليلُ عن الخليل، وهي مسيرة ثلاثةِ أيامٍ، ليسَ بها على التَّرفّقِ إلمام، ولا نُصبتْ بها على المسالكِ أعلام. اشتبهتْ فما يتميّزُ وراءَ من قُدّام. يسرحُ الطّرْفُ بها فلا يقف على مَدى[6]، وتَظمأُ الأفواهُ فلا تجدُ بلَّةً تنقعُ صدى[7]، وفي منتهاها[8] وادٍ يقال له: رابغ[9] وبعضُهُمْ يقولُه بالخاءِ، وإذا كَثُرَ المطرُ كانت به غُدرانُ

١- الطائف: مدينة صغيرة كثيرة الشجر والثمر طيبة الهواء وهي على جبل غزوان إلى جنوب من مكة.

٢- في ت و ط: بضعة عشر، وكذا في معجم البلدان.

٣- يقول حمد الجاسر: هو واد قرب المدينة يبعد عنها ١٨٠كم للمتوجه إلى مكة بطريق السيارات. وكانت الصفراء كثيرة العيون وقد نضب ماء كثير منها. انظر المناسك ٤١٤.

٤- البزْواء: موضع في طريق مكة قريب من الجحفة. انظر ياقوت ١/٤١١.

٥- الدُويّة: الفلاة الواسعة.

٦- في ط: مداه.

٧- في ط: صداه.

٨- في ت وط: متنها.

٩- رابغ: واد يقطعة الحاج بين البزواء والجحفة.

عظيمةٌ فيبقى فيها الماءُ زماناً؛ وإن قلَّ المطرُ نَضَبَتْ وغارَ الماءُ،فيُحفَرُ عنه ويُتَعَنّى فيه. وفي تلكَ الجهةِ عُربانٌ كثيرةٌ تُقيم مع الرَّكبِ سوقاً عظيمةً، ويجلبون إليها الغَنَمَ والتّمرَ فيتّسعَ العيشُ ويرخصُ.

[الجحفة]

وفي رابغَ يغتسلُ [٨٨/أ] الحجّاجُ للإحرامِ ومنه يُحرمونَ وهو دونَ الجُحْفَةِ بمسافةٍ . والجُحْفَةُ على يسارِ طريقِ الرّكبِ على أميالٍ وهي الميقاتُ، وما أظن الآن بها عمَارةٌ، وإنّما لم يكن الإحرامُ منها إلاّ لأنّها رائغةٌ عن الطّريقِ. وفي البُخاريّ عن ابنِ[١] عمر رضي الله عنهما «لما فُتِحَ هذان المِصرانِ يَعني الكوفةَ[٢] والبَصْرَةَ أتَوا عُمر فقالوا لَهُ: ياأميرَ المؤمنينَ، إنَّ رسولَ الله ﷺ حَدَّ لأهلِ نَجْدٍ قَرَنَ[٣]، وهو جَوْرٌ[٤] عن طريقنا وإنّا إذا أرَدْنا قَرَنَ شقَّ علينا. قال: فانظروا حَذْوَها من طريقكُمْ فحَدَّ لهمْ ذاتَ عِرْقٍ[٥]، وإنّما لم يتركوا الإحرامَ إلى مَوْضِعٍ يُحاذي الجُحْفَةَ إذ لا ماءَ هنالِكَ. ومن سُنّةِ الإحرامِ أنْ يكونَ بعُقْبِ الغُسْلِ، على أنّه ليسَ بين الموضعين من تفاوتِ المسافةِ ما يُتّقى فيه تقديمُ الإحرامِ قبل الميقات. وللقُرْبِ تأثير، وإن كان ابن المَوّازِ روى عَكْسَ هذا من جَوازِ تقديمهِ من موضعٍ بَعيدٍ، وكراهتِهِ من

١- ابن ليست في ط.

٢- الكوفة: مدينة بأرض بابل من سواد العراق وسميت الكوفة لاستدارتها انظر ياقوت ٤/٤٩٠ .

٣- قَرَن: ميقات أهل نجد ومنه أويس القرني وهو موضع على مرحلتين من مكة. انظر مسالك الأبصار ١٢٢ .

٤- ليست في ط.

٥- ذات عرق: ميقات أهل العراق وبينها وبين وجرة سبعة وعشرون ميلاً، بينه وبين مكة خمس مراحل انظر مسالك الأبصار ١٢٢ والحديث في البخاري كتاب الحج ـ باب ذات عرق لأهل العراق رقم ١٥٣١-٣/٣٨٩

موضعٍ قريبٍ، ويدلُّ على صِحّة ما قدّمتُ أنَّهُ قَدْ حدّ الميقاتَ بالجُحْفَةِ، ومرّةً بمهيعة، وقال صاحب الدّلائلِ:(١) إنّها قريبةٌ من الحُجْفَة وإنْ كانَ أكثرُ النّاسِ على خِلافِ ماحكى، وإنَّ الجُحْفَةَ هي مَهْيَعَةُ، وكذلك في إحرامِ النَّبيِّ ﷺ تارة تذكر البَيْداء(٢) والأكثرُ ذو الحُلَيفةِ(٣)، وما أوجَب ذلكَ إلاّ تقاربُ الموضعينِ.

وقد خَرَجْنا عمّا كنّا بسَبيلهِ، فلنرجِعْ إلى المقصودِ فنقول: ذكر أهلُ الأخبارِ أن الجُحْفَةَ كان اسمُها قديماً مَهيعَةَ حتَّى نزلها بنو عَبيل(٤) إخوةِ عادٍ في الدَّهْرِ الأوّلِ حين أخرجتْهُمْ العمالقةُ من يَثْرِبَ، فأتى عليهم سَيْلٌ اجتحفَهَمْ فسُمّيتْ الجُحفَةُ. وحكى القاضي عياضُ في مشارقةِ قولاً: «إنّما سميت الجُحْفَة من سَبَبِ سيْلِ الجُحافِ الّذي اجتحفَ الحجَّاجَ عام ثمانين»(٥) ولا أدري كيفَ ينطلق اللّسان بحكايةِ مثلِ هذا؛ وبعد أن يحكي كيف لا يُنَبِّه عليه؛ وذلك أنَّها كانت تسمَّى الجُحفَةَ قبل الإسلام وإلى الآنَ، وجاء ذكرُها في الأحاديثِ الصَّحيحةِ والأخبارِ الثَّابتةِ، وكان سَيْل الجُحافِ في إمارة عبد الملكِ ابن مروان(٦) فكيف سُمّيت به قبل وجودهِ؟ وأغربُ من ذلك أنّ سيل الجُحافِ

١- هو كتاب الدلائل على معاني الحديث بالشاهد والمثل لقاسم بن ثابت السرقسطي المتوفى سنة ٣٠٢هـ . انظر نفح الطيب ٤٩/٢ ، ومنه نسخة خطيّة في مكتبة الأسد الوطنيّة بدمشق.

٢- البيداء: أرض ملساء بين مكة والمدينة تعد من الشرق أمام ذي الحليفة في أولها بئر. انظر المناسك ٤٢٨ .

٣- ذو الحليفة: هو الموضع الذي أحرم منه الرسول ﷺ ويبعد هذا الموضع عن المدينة خمسة أميال. انظر المناسك ٤٢٥ .

٤- في الأصل وت: بنو عبيد وهذا تصحيف. وبنو عبيل: قبيلة قد انقرضوا. انظر اللسان: عبل .

٥- مشارق الأنوار ١٦٨/١.

٦- عبدالملك بن مروان: من أعظم خلفاء بني أمية توفي بدمشق سنة ٨٦هـ.

كان بمكّةَ واجتحفَ الحجَّاجَ من المُحَصَّب(1) وذهَب بهِمْ وبأمتعتِهم، وهَدَم بمكّةَ دوراً كثيرة [٨٨/ب] ودخل المسجدَ الحرامَ وأحاطَ بالكعبةِ. وكان ذلكَ سَحَرُ يومِ التّرويةِ من عام ثمانينَ. فما شأنه والجُحفة حتّى سمّيت به؟ هذا ممّا يكون الإضرابُ عنه صَفْحاً أوْلى وبالله التّوفيق.

وبعد مرحلةٍ من رابغ جاءنا من مِصْرَ مَنْ أخبر بموتِ سُلطانها الملكُ المنصور(2) ولهم عن مصر سبعة عَشَر يوماً. وكنّا تركنا السّلطان على الحركة إلى جِهادِ عكّة، وقد برزَ جميع عسكرِه خارجَ المدينة فلمّا خَرَجَ مَرِضَ فماتَ من حينهِ فسبحانَ من ﴿**كلُّ شيءٍ هَالك إلاّ وَجْهُهُ**﴾(3)

[خُلَيص]

ومن الجُحْفَةِ إلى خُلَيص(4) مسيرةُ ثلاثةِ أيّامٍ، وهي قُلَيْعةٌ مَنيعةٌ على شَرَفٍ مرتفع، ولها نخلٌ كثير، وماءٌ جارٍ طيّب، وصاحبها من الشّرفاء مستبدٌّ بها، وهو رَجُلٌ صالح مُحبٌّ في الحجّاجِ، مُكرمٌ لهم. وإذا نزل الرَّكْبُ به تلقّاهُمْ وأحسَنَ مثواهُمْ، والعُربانُ تقيم هنالك سوقاً عظيمةً ويجلبونَ إليها الغَنَمَ والتّمَر والإدامَ فيكثرُ العيشُ بها ويرخص.

١- المُحَصَّب: موضع بين مكة ومنى وهو بطحاء مكة وهو خيف بني كنانة.

٢- الملك المنصور: هو قلاوون الألفي العلائي: كان من المماليك. أعتقه الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤٧هـ فأخلص الخدمة للملك الظاهر بيبرس وتولى السلطنة سنة ٦٧٨هـ وحقق عدّة انتصارات على التتار وتوفي بالقاهرة سنة ٦٨٩هـ. ترجمته في بدائع الزهور ٣٤٧/١-٣٦٤. النجوم الزاهرة ٢٩٢/٧- فوات الوفيات ٢٠٣/٣.

٣- سورة القصص، من الآية: ٨٨.

٤- خُلَيص: حصن بين مكة والمدينة.

[عقبة السُّويق]

ودون خُلَيص على[1] مقدارِ نصف يومٍ عَقَبة السُّوَيق، وهي عَقَبَةٌ كثيرةُ الرَّمْل، وليست بطويلةٍ ولكنَّها شاقةٌ لوَعْرَتها[2]، والنّاسُ يقصدونَها بشُرْب السَّويق، ويستصحبونه برسم ذلك من مصر، ويخلطونه مع السُّكَّر، وأصحابُ مصْرَ يسقونه للنّاس هنالك كثيراً، ويُذْكَرُ أنَّ رسولَ الله ﷺ مرَّ بها ولم يكنْ مَعَهُمْ طعامٌ فأخَذَ من رمْلِها وأعطاهُمْ إيّاه فشربوه سويقاً، ولم أقفْ على هذا فيما وقفتُ عليه من مُعجزاتِه ﷺ وماهو ببعيدٍ في حقِّه والله أعلم.

[بطن مرّ]

ومن خُليص إلى بَطن مَرّ[3] ثلاثةُ أيام وهو وادٍ به نخلٌ كثيرٌ، وماءٌ جارٍ وعَمارةٌ وهو من عَمَلِ مَكّةَ - شرّفها الله - وهو مَرُّ الظّهرانِ المذكورُ في الحديث.

[المدرَّج]

والمُدرَّجُ على نصف يومٍ من خُلَيص، وهو مضيقٌ بين جَبلين، وفي موضعٍ منه بَلاط على صورة الدَّرَجِ وأثر عمارةٍ قديمة، وهنالك بئرٌ تُعرف ببئرِ عَليّ، ويقولونَ: إنَّ عليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه أحدثَها هنالك.

ومن بَطْنِ مَرَّ إلى مكّة ـ شرّفها الله ـ نصفُ يومٍ، وقولُ من قال: إنّ بينَهما ستةَ عشر ميلاً [٨٩/أ] أشْبَهُ ما قيلَ في ذلك،والله أعلم.

١- ليست في ط.

٢- في ت و ط: لوعثها.

٣- بطن مَرّ: من نواحي مكة عنده يجتمع وادي النخلتين فيصيران وادياً واحداً وكان بطن مَرّ المرحلة الأخيرة في طريق الحاج القادم من مصر إلى مكة. انظر ياقوت ٤٤٩/١ .

[مساجد عائشة]

وعلى مَقربةٍ من مكَّةَ بنحو أربعة أميال ثلاثة مساجد مُصطفّة على الطَّريق، بينها مسافةٌ قليلةٌ، وموضعها التَّنْعيم[1]، وهو أدنى الحِلِّ إلى الحَرَم ومنه يَعتمرُ أهلُ مكّةَ. وكانت عائشةُ رضي اللّٰه عنها اعتمرتْ من هنالك حين بعثَها رسول اللّٰه ﷺ مع أخيها عبدِ الرَّحمنِ من مكّةَ في حِجَّةِ الوَداعِ، فبُنيتْ تلك المساجدُ هنالك، وعُرفت بمساجد عائشةَ وموضعِ إحرامِها.

[بطن ذي طوى]

ووراءَها إلى مكّةَ بطنُ ذي طَوى[2] وهو وادٍ يهبط على قبور المهاجرين الَّتي بالحَصْحَاص[3]، وهو[4] دونَ ثنيةِ كداء[5] والطَّريقُ من هنالكَ متياسرةٌ عن الثَّنّيةِ المذكورة، آخذةٌ على ثَنيةِ الحَصْحَاص[6]، وذو طَوى بينهما وبين المَقْبرة الّتي بأعلى مَكَّةَ وتُسمّى كُدًى على ما ذكروا. وأما أبو الوليد الأَزْرَقيّ فلم يُسمّها إلاّ بما تقدّم[7] وفي الموطّأ والبُخاريّ «أنّ عبدَ اللّٰه بنَ عُمَرَ رضي اللّٰه عنه كان يبيتُ بذى طَوًى بين الثَّنيتَّينِ ويغتسلُ فيه، ثم يَغدو منه إذا

١- التَّنعيم: موضع بمكة في الحلّ وهو حد الحرم من جهة المدينة على ثلاثة أميال أو أربعة من مكة، وهو أقرب أطراف الحل إلى البيت الحرام. انظر ياقوت ٢/ ٤٩ .

٢- انظر أخبار مكّة ٢/ ٢٩٧.

٣- قال الأزرقي: الحصحاص: الجبل المشرف على ظهر ذي طوى إلى بطن مكة ممّا يلي بيوت أحمد المخزومي عند البرود. انظر أخبار مكة ٢/ ٢٩٩ .

٤- سقط من ت وط.

٥- كداء: بأعلى مكة وهي التي دخل منها النبي ﷺ ، وهي العقبة الصغرى التي بأعلى مكة وهي التي تهبط منها إلى الأبطح والمقبرة على يسارك. انظر ياقوت: ٤/ ٤٣٩ .

٦- سقط من ت وط.

٧- انظر هذه التسمية في أخبار مكة الصفحات: ٢/ ٤٣١- ١٤٥-٢٠٣-٢٢٦- ٢٩٧- ٢٩٨ -٢٩٩-٣٠٠.

أصْبَحَ إلى مَكَّةَ»[1]. زاد البخاريّ: «ويَذكَرُ أنَّ رسولُ اللّه ﷺ كان يَفْعَلُ ذلك».
والثنيّتان: ثنيّة الحَصْحاص، وثنيّة المَقبرة كما تقدم.

قال الأزْرَقيُّ: «والمسجدُ الّذي هنالكَ بَنَتْهُ زُبَيْدَةُ[2] حيث نَزَلَ رسول اللّه ﷺ[3].» وفي البَخاريِّ عن ابنِ عُمَرَ قال: «ومُصلّى[4] رسولِ اللّه ﷺ على أكَمَةٍ غليظةٍ ليسَ في المَسْجِدِ الّذي بُني ثَمَّ، ولكنْ أسْفَلَ من ذلك[5]» قلت: وقد أُختُلِفَ في موضع ذي طَوًى وفي ضَبْطِه، فأمّا موضعُهُ فالصَّوابُ فيه ما تقدّم، وقال القاضي أبو الوليد البَاجيّ: هو رَبَضٌ من أرباضِ مكّةَ يعني ناحيةً قريبةً منها، ولم يُرِدْ أنّه من نَفْسِ البَلَدِ. وقال عياضٌ: «هو وادٍ بمكّة»[6] وهذا نحوُ الأوّلِ وذكرَه ابنُ جُبَيْر في رِحْلَتِه: «بينَ مسَاجدِ عائشةَ وبين الثنيّة»[7] وذلك وادٍ به كما تقدّم. وحكى عِياض عن الدَّاوديّ «أنّه الأَبْطَحُ»[8]، وهو غَلَطٌ منْهُ، وإنّما الأبطحُ المُحصَّبُ وهو وادي مكّةَ من ناحية المَعْلاة[9]، وهي أعلى مَكَّةَ وسيأتي [٨٩/ب] ذكرُه.

١- أخرجه البخاري في كتاب الحج، باب النزول بذي طوى قبل دخول مكة رقم ١٧٦٧-٣/٩٥٢ وهو في الموطأ ٢٢١.

٢- زبيدة: كان اسمها أمة العزيز بنت المنصور الهاشمية العباسية: زوجة هارون الرشيد. وإليها تنسب عين زبيدة في مكة وخلفت آثاراً نافعة غير العين. توفيت ببغداد سنة ٢١٦هـ. ترجمتها في وفيات الأعيان ٢/٣١٤، أعلام النساء ٢/١٧.

٣- أخبار مكة: ٢/٢٠٣.

٤- في ت و ط: صلى.

٥- أخرجه البخاري في كتاب الصلاة باب المساجد التي على طرق المدينة رقم ٤٩١، ١/٥٦٨.

٦- مشارق الأنوار ١/٢٧٦.

٧- رحلة ابن جبير ٨٩ بخلاف يسير.

٨- مشارق الأنوار ١/٢٧٦.

٩- المَعْلاةُ: موضع بين مكة وبدر بينه وبين بدر الأثيل. انظر ياقوت ٥/١٥٨ .

وأمّا ضبطُهُ: فالأكثرُ فيه فَتْحُ الطّاء والقَصْرُ، وتَرْكَ الصَّرْفِ وبعضُهم يصرفُهُ، ومَدُّهُ ثابتٌ، وقال الأصْمعيُّ: الممدودُ بطريقِ الطّائف، وهذا مقصورٌ، وفي بعضِ الرّوايات: ذو الطَّواء ممدوداً ومقصوراً مُعَرَّفاً، وحُكي فيه الضمّ والكَسْر مع القَصْرِ، والمشهورُ من هذاكلِّه ما بدأت به، وباللّه التّوفيق.

وإذا سارَ الرّكبُ من ثَنِيَّةِ الحَصْحَاص على ذي طوى، رأوا[1] مكّة يميناً وساروا يسرتَها، وقد سترها عنهم الجَبَلُ المُطلُّ عليها، حتّى يدوروا من ورائها، ويدخلوا من ناحيةِ المشرقِ على ثَنِيَّةِ كُدًى الّتي بأعلى مكّة وهي ثنيَّةُ المَقْبُرةِ كما تقدّم، ويهبطُ منها على مقابرِ[2] مكّةَ وهي الحَجُونُ[3]، وقيل: الحَجونُ[4] الجَبَلُ المُشرفُ عليها، ويهبط منها على المُحَصَّبِ وهو الأَبْطحُ، وكنتُ لمّا هبطتُ من هذهِ الثَّنِيَّةِ لقيتُ رجلاً من أهلِ مكّةَ فقلت له: أين المُحصَّبُ؟ فقال لي: هذا هو، وأشار إلى بَطْنِ الوادي، قلتُ: وهو خيفُ بني كِنانة[5]، وفي البُخاريِّ: إنّ رسول اللّه ﷺ قال وهو بمنًى: «إنّا نازلونَ غداً إنْ شاء اللّه خيفَ بني كِنانةَ حيثُ تقاسَموا على الكُفر»[6] وفُسّر في الحديث نفسه[7] بأنه المُحصَّب.

١- في ت و ط: رئوا.

٢- الأصل: ثنية.

٣- انظر معجم البلدان ٢/٢٢٥.

٤- في الأصل: المحجوز وهو تصحيف.

٥- وكذلك في مشارق الأنوار ١/٢٥٠، وياقوت ٢/٤١٢، والخيف: الوادي وأصله ما انحدر عن الجبل وارتفع عن المسيل وهو بطحاء مكة.

٦- أخرجه البخاري في الحج باب نزول النبي مكة رقم ١٥٨٩- ٣/٤٥٢ وفي التوحيد باب المشيئة والإرادة رقم ٧٤٧٩-١٣/٤٤٨ بخلاف في اللفظ من طريق أبي هريرة وفي الجهاد - باب إذا أسلم قوم في دار حرب رقم ٣٠٥٨-٦/١٧٥ من طريق أسامة بن زيد. وابن حنبل ٢/٢٣٧-٢٦٣-٣٢٢-٣٥٣-٥٤٠ وابو داود في المناسك باب التحصيب رقم ٢٠١٠.

٩- ليست في ط.

[ثنية كداء]

وهذه الثَّنيَّة هي الّتي دخَلَ منها رسولُ اللّه ﷺ في حجّة الوَداع، وهي كُدًى بالضَّمِ والقَصْر، وخرج من الثَّنيّة البَيْضاءِ الّتي بأسفلِ مكّةَ،وهي كَداءُ بالفَتْحِ والمدّ،وقد اُختُلِفَ في ضبطِهما[1] اختلافاً كثيراً والصَّوابُ ما ذكرنا,واللّه أعلم.

وقد قيلَ بعكسِ ذلك وهو الأشْهَرُ عندَ الفقهاء، وبعضُهُمْ يصرفها والصّوابُ تَرْكُ صرفِها. ولم يُسَمِّ الأزْرقيّ بهذا اللّفظ إلاّ السُّفلى[2] وذكرها بالمدّ وأنشد قولَ حَسّان:[3] [الوافر]

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إنْ لمْ تَرَوْهَا تُثِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدُها كَدَاءُ

قلت: وهي ثَنيّةٌ بيضاءُ بين جبَلين، وبينها وين مكّةَ بسيطٌ سَهْل، وهو موضعُ نزول الرَّكْبِ إذا صَدَرَ من منًى. وفي مضيقها كومٌ عظيمٌ من حِجارةٍ يقولون: إنّه قبرُ أبي لَهَب[4] رُجِمَ حتَّى صار كذلك. ويقال: إنَّه قبر أبي رِغالَ[5]، ولا أتحقّقُ شيئاً من هذا، ولا يصحّ أن يكون قبر أبي رغَالَ فإنّ أبا[٩٠/أ] رِغَالَ كان من ثَقيفٍ، بعثَهُ أهلُ الطّائفِ دليلاً على الكعْبَةِ لأبْرَهَةَ[6]

١- في ط: ضبطها.

٢- أخبار مكة ٢/٢٩٧.

٣- ديوان حسان ٤.

٤- هو عبدالعزى بن عبدالمطلب بن هاشم من قريش، عم رسول الله ﷺ من أشد الناس عداوة للمسلمين وفيه الآية ﴿تبّت يد أبي لهب وتب. ما أغنى عنه ماله وماكسب﴾ مات بعد وقعة بدر بأيام ولم يشهدها. انظر نسب قريش ١٨ .

٥- هو قسي بن منبه بن النبيت بن يقدم، هَلَك أثناء غزو الكعبة ودفن في المغمس. انظر ثمار القلوب ١٠٦ - مروج الذهب ٢/٧٨- التاج- رغل، السيرة لابن هشام ١/٤٢ .

٦- أبرهة هو أبو يكسوم ملك الحبشة صاحب الفيل الذي ساقه إلى البيت الحرام فأهلكه الله ، انظر مروج الذهب ٢/٧٨ .

ملكِ الحَبَشةَ حين أراد هَدْمُها فلّما نزل بالمُغَمّسِ[١] مات أبو رِغالَ فَرُجِمَ قبرُه هنالك إلى اليوم.

[المُغمَّس]

والمُغمَّس على يمين المصلّي بِعَرَفَةَ، وليسَ منها بعيداً، وقد سألتُ بعَرَفَة شيخاً من أهلِ البلادِ خبيراً بها عَنْ حُدودِ عَرَفةَ، ومَسْجِدِها، فدلّني على موضعِ المَسْجدِ وذكرَ جهاتِ عَرَفةَ حتّى ذكرَ المُغمَّسَ فقلتُ له: أين هو؟ فأشار لي إلى ناحيةِ اليمينِ وأنتَ مستقبلُ القِبْلَةَ، وقد وهِم فيه الأستاذُ أبو القاسمِ السُّهَيْليّ[٢] ـ رحمه الله ـ فذكر أنّه «من مكّةَ على ثُلُثي فَرْسَخٍ»[٣] وذلك مالا يصحّ. وليس المُغَمَّسُ من الحَرَمِ، ولا وَصَلَ أصحابُ الفيلِ إلى الحَرَمِ، بل المرويّ خلافُ ذلك، وهو أنّهم لما نزلوا بالمُغَمَّسِ بَرَكَ الفيلُ، فكانوا إذا وجّهوه إلى ناحيةِ الشّامِ ولّى يهرولُ، وإذا ردّوه إلى اليَمنِ[٤] فعل ذلك، وإذا وجّهوه إلى الحَرَمِ بَرَكَ ولم يَبْرَحْ. وإن صحّ الحديث الّذي ذكره السُّهَيْليّ، وهو أنّه ﷺ : «كان إذا أرادَ قضاءَ الحاجةِ وهو بمكّةَ خرَجَ إلى المُغَمَّسِ على ثُلُثي فرسخ»[٥]. فمعناه أنّه يخرج إلى ناحيةِ المُغَمَّسِ لا أنّه يصل إليه، ولعلّ

١- المغمّس: موضع قرب مكّة في طريق الطائف. انظر ياقوت ١٦١/٥ .

٢-هو عبدالرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أصبغ الخثعمي السهيلي: حافظ من العلماء بالعربية واللغة والقراءات والسير، ولد بمالقة سنة ٥٠٨هـ وكف بصره وهو ابن سبع عشرة سنة له تصانيف منها الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام توفي بمراكش سنة ٥٨١هـ. ترجمته في نكت الهميان ١٨٧-١٨٨- بغية الملتمس ٣٦٧ وفيها وفاته سنة ٥٨٣هـ، المغرب في حلى المغرب ٤٤٨/١ ووفيات ابن قنفذ ٢٩٢ .

٣- الروض الأنف: ٦٨/١ وفيه: ثلث فرسخ.

٤- في ت و ط: اليمين.

٥- الروض الأنف: ٦٨/١ .

التّقييدَ بثلثي فرسَخ إنّما كان لمسافة المَذْهب لا لمسافةِ المُغمَّسِ، ولا يصحّ غير هذا والله أعلم؛ اللّهم[1] إلاّ يكون بالحَرَمِ موضع آخر يقال له: المُغمَّسُ غير الّذي انتهى إليه أَبْرَهَةُ ومات به أبو رِغال. وما أظنّ ذلك كائناً والله أعلم[2].

[ذكر مكّة]

ثم نزل الرَّكْبُ بالمُحَصَّبِ يوم الاثنين سابعَ ذي الحجة، وباتَ به ليلةً ثم رَحَلَ من الغَدِ، وهو يومُ التَّرويةِ إلى مِنى. وفي [يوم][3] التَّرْويةِ دخلتُ إلى البلدِ الأمين[4]، مقرِّ المجدِ الصّميمِ، والشَّرفِ المكين، فخر بقاع الأرضِ كلِّها على مرّ السّنين، فاقسم بالله أعظم يمين، قَسَماً لا يكذب ولا يَمين، ماحُرِمَ سُكناه إلاّ ذو حظّ غبين: [الخفيف]

بلدٌ نَحْوَهُ يَحِنُّ الرَّسولُ ... وَبِهِ عُلِّقتْ قَديماً عُقولُ[5]

بَلَدٌ إنْ رآهُ يَوْماً مَشُوقٌ ... قالَ: لُمْني، أَوْ لاَ تَلُمْ ياعَذولُ

لَوْ رَأى مِنْ سَناهُ غَيلانُ مَيٍّ ... بارِقاً لَمْ تَشُقْهُ تِلْكَ الطُّلولُ[6]

[٩٠/ب] أَسَفي أَنْ حُرِمتُ سُكْنى حِماهُ ... وعَدَاني عَنْهُ الزَّمانُ المَطُولُ[7]

١- ليست في ت و ط.

٢- في ط: والله الموفق.

٣- زيادة في ت و ط.

٤- البلد الأمين هو مكّة. وزاد في ت: مكّة شرفها الله تعالى.

٥- في ط: عقلت قديماً.

٦- غيلان: هو ذو الرمّة الشاعر المعروف. وميّ: الفتاة التي كان يتغزل بها.

٧- في ت: وعراني، وفي ط: وعداني عند، والعدى: التباعد.

يالَحَظٍّ بُخِسْتُه في ثَنَاءٍ ... عَنْ مَغَانٍ لَها حَدِيثي يُطولُ
لاَحَ لي مَرَّةً كمَا زَارَ طيْفٌ ... أَوْ وَدَاعٌ إذا اسْتَقَلَّ الحُمولُ(١)
كُنْتُ أرْجُو بهِ شِفاءَ غَليلي ... فإذَا فيهِ لِي جَوًى وَغَلِيلُ(٢)
أَسْعِدَاني بِذِكْرِهِ يا خَليليْ ... يَ فَقَدْ يُسْعِدُ الخَليلَ الخَليلُ
وَعِداني ومَنِّيَاني وُصُولاً ... فقُصَارَى مُنى الفُؤادِ الوُصُولُ
يالَرَبْعٍ غَدا بهِ رَبْعُ صَبْرِي ... وَهْو مستَعْجمِ الرُّسُومِ مُحيلُ(٣)
مُنْذُ فارَقْتُهُ، فَدَمْعِي سَيْلٌ ... والأسَى غَيْمُهُ وخدِّي مَسيلُ
وَرَمى بُعْدُهُ بعِيٍّ لِسَاني ... لَسْتُ أَدْرِي مِنْ بَعْدُ ماأقُولُ

يالَهُ مَشْهداً شَهِدَ لهُ التنْزيلُ بالتَّفضيل؛ وسَماعن أنْ يُقْرَنَ بعديلٍ أو مثيلْ، ماكادَهُ أحد إلاّ [رجع](٤) وشبا حدِّه فَليل؛ ولا مالَ إليه بظلم إلاّ والآفات عليه تميل ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفِيلِ﴾(٥)، بلدٌ كأنَّ نفوسَ الخلق عُجنتْ من طينته؛ فالخواطرُ مشغولَةٌ بتصوّرِ زينته؛ انزعجَ نحوَهُ عَقْلٌ طالما سار على هيئته، وابتُذِل بالسَّعي بدنٌ نشأ على سكينته، يقطعِ إليه ميلاً بَعْدَ ميل. كم حوى من مأثرَ لا تُحَدُّ، كم ضَمَّ من مفاخرَ لا تُعَدُّ، كم به من أشْعَثَ دعوتُهُ لا تُرَدُّ، تودُّهُ الدُّنيا وهو يعلم ما يودُّ، مالَ عنها وهي

١- استقلَّ القوم: ارتحلوا. والحُمول: الأجمال التي عليها الأثقال.
٢- الجَوى: الحرقة وشدّة الوجد من عشق أو حزن، والغليل. حرّ الجوف.
٣- الرَّبْعُ: المنزل ودار الإقامة، والمُحيل: الذي أتى عليه حول.
٤- زيادة من ت .
٥- سورة الفيل الآية ١ .

للعقول تستميل. حَرَمٌ لا يُهتَكُ حماه، شرف لا يحطّ عُلاهْ، عَلَمٌ لا يُجْحَدُ هُداهُ، مَنْ أمَّهُ من قَفْرِ التّيه هَداه، ويُشفى إن تمسّحَ[1] به العَليل. إن حلّهُ منادٌ استقام منه ماناد، وإن رآه الصَّعبُ سَلِسَ وانقاد، يَسلُو به الفتى عمّا أَلِفَ واعتاد، ويأمَنُ مَكْرَ مَنْ مَكرَهُ أوكاد، ويظلّ الخائف ما عليه من سبيل. هو رَبْعٌ السَّلامةِ لا ربعٌ بذي سَلَم، كَمْ فيه للهَدْي من[2] رسمٍ وعَلَم، كم[3] جبر به من الدّين ما انثلم، كم أمّهُ بالقَصْدِ ناقصٌ فلم يلبث أن أُمدَّ بالتفضيل. هنيئاً لمن أصبح به قاطنا، لقد ظفر بالمنى ظاهراً وباطناً، يكيفه منْ [٩١/أ] مُحكم كتابنا ﴿ومَنْ دَخَلَهُ كانَ آمنـاً﴾[4] لاخُلفَ[5] فيه ولاتبديل. ماعسى أن يذكر العارف؟ ماعسى أنْ يسردَ الواصف؟ ماعسى أن يمدح السَّالفُ والخالف؟ ماعسى أن يُنقِصَ من البحر[6] الغارف؟ بانَ العجزُ سواء أقصر أم أطيل.

ليت شعري هل أعود إليه ثانية؟ ليت شعري هل تُفَكُّ هذه النَّفس العانية؟ ليت شعري متى[7] تَرْفَضُّ[8] هذه الفانية؟ فتصبح الآمالُ بمكّةَ دانية، وحبّذا فيها المُعرَّسُ والمَقيل[9]: [الطويل]

أَلاَ ليتَ شِعْري هَلْ يُساعِدُني الوَقْتُ ... وتدْني لِيَ الأيَّامُ مَانَحْوَهُ تُقْتُ
وَهَلْ لِي إلى تِلْكَ المعَاهدِ عَوْدَةٌ ... بسُكنى مغَانٍ، قُرْبُها كُلُّ ما اشْتَقْتُ[10]

١- في ت و ط: مسح.
٢- ليست في ت.
٣- ليست في ت.
٤- آل عمران من الآية ٩٧.
٥- في ط: النحر، وهو تحريف.
٧- في ط: في متى.
٨- ترفَضُّ: تسيل.
٩- التعريس: النزول في آخر الليل، والمقيل: الاستراحة في نصف النهار إذا اشتدّ الحرّ.
١٠- في ت وط: فسكنى مغانٍ

مغَانٍ حَدانِي الشَّوقُ والوَجْدُ نَحْوَهَا   مُقِيماً فأعطَيتُ المقَادَةَ وانْسَقْتُ(١)
وَكُنْتُ عَلَى ألاَّ أفارِقَ رَبْعَهَا   وَلَكنَّني مِنْ شُؤمِ ذَنْبِي عُوِّقْتُ
كَأَنْ لَمْ يَكُنْ لي في المُحَصَّبِ مَنْزِلٌ   بِهِ مِنْ ضنَى جِسْمي وَقَلْبِيَ أُفْرِقْتُ(٢)
وَلَمْ يَصفُ عَيْشي بالصُّعُودِ عَلَى الصَّفَا   وَلاَ أنَّنِي مِنْ صَفْوِ حالٍ بها ذُقْتُ(٣)
وَلا رُحتُ كالنَّشْوانِ مِنْ طَرَبٍ بهِ   ومِنْ غَيْرِ كاسَاتِ الهَوى ماتفَوَّقْتُ(٤)
أُبَارِي غُصُونَ البَانِ إمَّا تَمايَلَتْ   لأَنْ صِرْتُ مَجْمُوعاً وكُنْتُ تفرَّقْتُ(٥)
أُطَالِعُ مِنْ ذَاكَ الجَمالِ مَطالِعاً   بِهَا طَالَ فِي جُنْحِ الدُّجَا مَاتأرَّقْتُ(٦)
وَكُنْتُ كغُصْنٍ قَدْ ذَوَى مِنْ صَدًى بهِ   فَلَمَّا حَلَلْنَاهَا رُوِيتُ وأوْرَقْتُ

وقد آنَ أنْ نُقيِّدَ من وَصْفِ هذا البَلَدِ الشَّريفِ زادَهُ اللّه جَلالةً، نُبْذَةً موجزةً تليقُ بهذا التَّقييدِ ممّا لعلّه يشفي غليلَ المتشوِّف، ويَحْلى بعينِ النَّاظرِ المُنصِفِ، فللكلامِ(٧) صورٌ متباينة كالإنسان، ويختلف على قدر اختلافِها

١- في ت: جدا بي. والبيت ساقط من ط.
٢- المحصَّب: موضع بين مكة ومنى، الفَروق: الشديد الفزع.
٣- الصفا: ربوة يرتقي عليها الحاجّ حتى يحاذي الحجر الأسود ثم يكبّر ويهللّ ويدعو ويشرع في السعي بينها وبين المروة، انظر المناسك ٣٠٥ .
٤- تفوّق شرابه: شربه شيئاً بعد شيء.
٥- الجمع والتفريق: نوع من البديع ورّى به المؤلف هنا، والجمع: هو أن يجمع بين متعدّد، اثنين أو أكثر في حكم واحد كقوله تعالى: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ . انظر معجم البلاغة العربية ١٤٧ . والتفريق: أن تفرق بين أمرين من نوع واحد في اختلاف حكمها كقوله تعالى: ﴿وما يستوي البحران هذا عذبٌ فرات سائغ شرابه وهذا ملح اجاج﴾ ، انظر معجم البلاغة العربية ٦٣٩ .
٦- في ط: ماتأملت، وصرف مطالع ضرورة.
٧- في ط: مالكلام.

الاستحسان، وقد[1] كنتُ تجهزّتُ للمَقامِ بها حتّى أشفي غليلا، واتصفحُّها بالتّأمّلِ جُملةً وتفصيلا، فأزعجتِ الأقدارُ المانعة، وزحزحَتْ عن توطّنها الأحداثُ الواقعة، فلم يمكن من وصفِها إلاّ مااختلسَ الطَّرفُ مُنتهبا، وما اختطفَ اللّحْظُ الّذي غادر [٩١/ب] القلبَ مُلتهبا. وعلى ماكان من حال، فلا يسعُ الإهمال والإغفال، فليكن اقتصار[2] إنْ لم يكن احتفال، وقد قيل في المَثَل الّذي غبَرت به الأعصار «أَلْجَحْشَ لَماً بَذَّكَ الأعْيَارُ»[3]. وهاأنا أصِفُ على قَدَرِ الإمكان، فأقول والله المُستعانْ: إن مكّةَ - شرفّها الله - من عظيمِ آياتِ الله[4] في الأرض[5] الدّالةِ على عظيمِ قُدرتهِ، فإنّها بلدٌ يَسبْي عقولَ الخَلْقِ، ويستولي على قلوبِهمْ ويتملّك رِقّها من غير سبب ظاهر، فالنّفوسُ إليه نزّاعةٌ من كلّ أرضٍ، ولا يدخلهُ أحدٌ إلاّ أخذ بمجامعِ قلبهِ مع عَدَمِ الدّواعي إلى ذلكَ، ولا يفارقهُ إلاّ ولَهُ إليهِ حنين، ولو أقامَ بهِ على الضّنْكِ سنين، لا يملّ سكناه، ولا تضيقُ النّفسُ بلزومِ مغناه. على أنه بِوَادٍ كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿غَيْرَ ذِي زَرْعٍ﴾[6] وأرضهُ[7] جدبة كلّها حجر، لا ماءَ ولا شجر، وفي أصحابها بعض جفاءٍ وقلّةِ ارتباطٍ للشّرع. وهم في الغالب يؤذون الحجّاج

١- ليست في ت.

٢- في ط: اقتصاد.

٣- في ت: لما فاتك، وهو في أمثال أبي عبيد ٢٣، والمستقصى ٣٠٩/١ وجمهرة الأمثال ٣٠٥/١ والميداني ١٦٥/١. واللسان: جحش. ويضرب هذا المثل في قناعة الرجل ببعض حاجته دون بعض، ونَصَبَ الجحش بفعلٍ مضمر أي: اطلب الجحش.

٤- ليست في ت.

٥- ليست في ت.

٦- سورة إبراهيم من الآية ٣٧.

٧- في ط: أرضها.

ويحيفونَ[1] على المجاورينِ بها، وقلّما ترى منهم مَنْ يتبرّم بسُكناها على ما خيلت[2]، ولا من يُسَرُّ بالانفصالِ عنها. ومافارقَها أحدٌ إلاّ وفي نيّتهِ الرّجوعُ إليها، وهذا أمرٌ أطبقَ عليه السّالف ممَّنْ رآها والخالف، واتّفق عليه المؤالف ممّنْ شاهدها والمخالف. لا يخلو فكر من تصوّرها، ولا خاطرُ مَنْ توهّمها، فهي نصْبُ الأعين وحشو القلوب، حكمة من الله وتصديقاً لدعوة خليل الله[3]. يحضرُها الشّوقُ إليها وهي غائبة، ويدنيها وهي نائية. ويهون مايُتكلّفُ إليها من المشاقّ، ومايعانى إليها من العناء، فكم من ضعيفٍ يرى في الطّريقِ إليها الموتَ عياناً، ويُبصر فيها الحَيْنَ مشاهدةً، ويلقى فيها الرّدى مكافحةً، يطوي اللّيالي والأيّام وتطويه، وتتقاذف به الفلوات والبيد، يسقط في كلّ مرحلة جزء من قواه، ويَنهَدُّ في كلّ منهلةٍ جانبُ من جثّته. يُقدم على الرّدى وهو يشاهدُهُ ويترامى إلى الفناء [٩٢/أ] وهو يعانيه ببدن عَرَقَهُ[4] الجَهْد وأنْضاهُ النَّصَبُ، وأذواه[5] سَموم[6] الهواجر وصرُّ[7] البُكر، يباشره الأذى[8] من غير حائل، وينافحه من غير جُنَّة[9]، رِجلُهُ مطيّته، وأخمصُهُ حذاؤه، وبَشَرَتُهُ دثارُه. لا زادَ إلاّ ماترشح به الأكُفّ، ولا ماءَ إلاّ ما

١- الحيفُ: الجور والظلم.
٢- في ت: جبلت.
٣- يشير إلى دعاء ابراهيم عليه السلام إذ قال: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ سورة ابراهيم ٣٧ .
٤- عَرَقَهُ: أنحلَه. وأكل ماعليه من اللّحم.
٥- في ت: أرداه.
٦- السَّموم: الريح الحارة.
٧- الصرُّ: شدة البرد.
٨- في ت: الردى.
٩- الجُنَّةُ : الوقاية والسترة.

يتبرّضُ[1] في المناهِل. فلا يَصِلُ إليها إلاّ وهو نِضْوٌ[2] دَنِف. قد سامَه ليبتاعَه التَّلف. فما هو إلاّ أن يردَّهُ امتداد الأجَلِ إلى أرضِه، ويرميه إلى مَسْقَطِ رأسِه، حتّى تراهُ مُستعدّاً لمثلِها، مُشيحَ[3] العَزْمِ في الإقدامِ ثانيةً عليها. لم يَثْنِ عزمَهُ ماكابده من البُرَحاء[4]، ولا كَسَرَ من حَدِّه ماشاهده من فَرْطِ العَنَاء، فيبتدئها[5] جديدة، ويَفرَعنها جَذَعة[6]، ويستقبلها مستأنفةً، كأنَّه لم يَذُقْ لها مرارة، ولا رأى من دلائلِ نَصَبِها أمارة، وهل هذا إلاّ صُنْعٌ إلهي، وأمر ربّانيّ، ودلالة[7] لا تشوبها شبهة، ولا تمرّ بها مِرْية، تقوّي بصيرةَ المستبصر، وتسدّد فكرة المتفكّر؛ هذا وكم من آية لها تبهر العقول، ودلالة تشاهد على وفق المنقول.

[حدود مكّة]

وهي - شرّفها الله - بلدةٌ كبيرةٌ متصلّةُ البنيانِ في بطن وادٍ بين جبالٍ مُحيطةٍ بها، لا يراها القاصد إليها حتّى يُشْرِفَ عليها. والجبالُ المحيطةُ بها ليست شامخةً، وبنيانُها آخذٌ في الاستطالةِ مع الوادي، ولا سورَ لها، إلاّ أنّها حيزَتْ من أعلى الوادي وأسفلِه بحائطينِ من صخور لامَلاط لها، قطعا[8] الوادي عَرْضاً حتّى وصلا بين الجَبَلين، وهما على فُسحَةٍ من البلد. وأعلى

١- هو يتبرّضُ الماء: كلما اجتمع منه شيء غرفه.
٢- النضو الدّنف: المريض الهزيل.
٣- أشاح الرَّجُل: جدّ في الأمر.
٤- البُرَحَاءُ: الشدّة والمشقّة.
٥- في ت: فيبتدعها.
٦- في ط: جزعة، وهو تحريف؛ والجَذَعَةُ: الشابّة الفتيّة.
٧- في ت و ط: ودلائل.
٨- في ت: قطعها.

الوادي ناحيةُ المشرق، وأسفله ناحيةُ المغرب، ولكنَّ دخول الحجّاج من أعلاهُ حَسْبما تقدّم - ولها ثلاثةُ أبواب: بابُ المَعْلاة[١] من أعلاها، وباب الشُّبيكة[٢] من أسفلِها، والثّالثُ باب اليَمَن[٣] من جِهة الجنوب.

وفي شرقها المناسك كلُّها: عَرَفَةُ، ومُزَدلفةُ[٤]، ومنًى على مايتبين إن شاء الله. وفي الجنوب منها جبل أبي قُبَيْس[٥] وفي الشِّمال الجَبَل الأحْمر[٦]، وقُعَيْقعان[٧]. وأبو قُبَيْس والأحمر هما الأخْشَبان، والأخشَبُ ما غَلظَ من [٩٢/ب] الأرضِ، وكذلك كلُّ غليظٍ يقال له: أخْشبُ وخَشَب. ومنه أخشبا مكّة، وأخشبا مِنى، أي جبَلاهما. ومن جِهة أبي قُبَيْس أَجْيادُ الكبير، وأَجْيادُ الصّغير: شِعبان هنالك. وبها الخَنْدَمة[٨] وهي جبل مذكور في الحَديث، وفي

١- باب المعلاة: وهو عند الثنية المعروفة بكَدَاء ومنه يخرج إلى المقبرة الموصوفة بالبركة. انظر مستفاد الرحلة ٢٣٢ .

٢- باب الشُّبيكة: أحد أبواب مكة مبني على ثنية كداء، وهو باب العمرة وكان يعرف قديماً بباب الزاهد وعليه طريق مدينة رسول الله ﷺ وجدّة والشّام ومنه يتوجه إلى التنعيم. انظر مستفاد الرحلة ٢٣٣ .

٣- في الأصل: اليمين. وباب اليمن: وهو باب المسفل، وعليه طريق أهل اليمن ومن خرج منه إلى اليمن يمر على كُدَيّ. انظر مستفاد الرحلة ٢٣٣ .

٤- المزدلفة: موضع لمبيت الحجاج، ومجمع للصلاة إذا صدروا من عرفات بين بطن محسّر والمأزمين والمسافة بينها وبين منى ثلاثة أميال. انظر المناسك ٥٠٦ .

٥- جبل أبي قبيس: هو الذي انشق فيه القمر لرسول الله ﷺ ويقع فوق الصفا ويطل على المسجد الحرام. انظر المناسك ٤٧٤-٤٨١ . وفيه كان الركن الأسود مستودعاً عام الطوفان. انظر العقد الثمين ١/٩٩ .

٦- الجبل الأحمر: يقع في جهة الشمال من مكة شرفها الله على قعيقعان. انظر مشارق الأنوار ١/٥٨، أخبار مكة ٢/٢٦٧ .

٧- جبل قعيقعان: جبل بينه وبين مكة اثنا عشر ميلاً على طريق الحوف إلي اليمين، ويشرف على الكعبة من شرقيها .

٨- الخندمة: جبل بمكة.

الشِّعر المشهورِ للهارب[1] يومَ الفتح قال:[2] [الرّجز]

إنَّكِ لو شَهِدْتِ يوم الخَنْدَمهْ[3]

إذْ فرَّ صفوانٌ، وفرَّ عِكرِمَهْ

ومن جهة قُعَيْقعان[4] يتصل الجبل إلى الحَجونِ، وهو[5] ما أشرف منه على المقبرة، ويقال: هو المقبرة على ما تقدّم، قال الحارثُ بن عَمْرو بن مضّاض[6] الجُرْهُميّ:[7] [الطويل]

كأنْ لم يَكُنْ بين الحَجونِ إلى الصَّفا أنيسٌ ولم يَسْمُرْ بمكّةَ سامرُ

وقال المَعرّيّ:[8] [الطويل]

فَلاَ يَبْكِ مكيٌّ لِفَقْدِ حَجونِهِ لكُلِّ بلادٍ مَصْرَعٌ وحَجونُ

١- هو حماسُ بن قيس بن خالد أحد بني بكر.

٢- البيتان في المناسك ٤٧٤، وتاريخ الرسل والملوك ٥٨/٣ - وابن أبي الحديد ٣٠٤/٥ - ومعجم البلدان ٣٩٣/٢ والروض المعطار ٢٢٣ - وغرر الخصائص الواضحة ٤١٩/١ - والعقد الثمين ١١٩/٦ - ونهاية الأرب ٤١٩/١.

٣- في الروض: أبصرت.

٤- في ت: قيقعان.

٥- في ت و ط: وهي.

٦- من ملوك العرب في الجاهلية، يقول المسعودي إنه أول من تولى أمر البيت بمكة من بني جرهم. انظر مروج الذهب ٤٩/٢.

٧- تختلف المصادر في اسم شاعر القصيدة بين الحارث بن مضاض: التيجان ٢١١-٢١٣. والروض المعطار ١٨٨-١٨٩. ونشوة الطرب ٩٥/١. ابن بطوطة ١٦٣/١. وعمرو بن الحارث بن مضاض الروض الأنف ١١/٢، ومعجم الشعراء ١٠. ومعجم البلدان ٧١/٤. والسيرة النبوية لابن هشام ١٠٦/١. ومضاض بن عمرو بن الحارث الجرهمي، أخبار مكة ٩٦/١: الأغاني ١١/١٥ - ومعجم البلدان ٢٢٥/٢. وعامر بن الحارث في مسالك الأبصار ٨٦. وهو من قصيدة قالها يتشوق لمكة عندما أجلتهم عنها خزاعة، والبيت من الأمثال السوائر.

٨- لم أقف على البيت في ديوانه.

وهنالك ثَنيّة المَقْبرَة كما تقدّم، وليس بين هذا الموضع وبينَ مكّةَ إلاّ أقلّ من نصْف ميل، ولا أدري من أين أتى السُّهَيْلي فقال: «بين الحَجون ومكّة فَرْسَخٌ وثلث»، ولعلَّ ذلك من جملة تحكّماته فلَهُ منها عِدّةٌ والله الموفّق.

[المسجد الحرام]

وأمّا المسجدُ الحرام[1] - زاده الله تشريفاً - فهو وَسَطُ البَلَدِ، كبيرٌ مُتَّسعٌ، يكونُ طولُه «أزيد من أربع مئة ذراع»[2] كما ذكر الأزْرَقيّ - رحمه الله - وطولُهُ من الشَّرقِ إلى الغَرْبِ[3] وهو قريب من التّربيعِ، يُخيَّلُ للنّاظرِ إليهِ أنّه مربّع، مفروشٌ برملٍ أبيضَ جميلِ المنظر جداًّ، مُحْكَمُ العَمَلِ، عجيبُ الصَّنْعةِ، كثيرُ الإشراف، مرتفعُ الحيطان نحو عشرين ذراعاً، ودَوْرُه كلّه مُسقّف على أعمدة عالية، ثلاثة صفوف بأتقنِ ما يكونُ من العمل؛ وفي كلِ جِهَةٍ أبوابٌ جملتها تسعةٌ وثلاثون[4]، وباب بني شَيْبَةِ في ركن الحائط الشَّرقيّ من جهة الشِّمال أمام باب الكَعْبَة متياسراً؛ وفي جهة الشّمال بابُ دارِ النَّدْوة[5]، ودارُ النّدوة قد جُعِلَتْ مَسْجداً شَارِعاً في الحَرَم[6] مضافاً إليه، وهي مقابلة للحِجْر والميزاب، وفي جهة الغَرب باب العُمرة، وهو من أجمل أبوابه، [٩٣/أ] وهنالك مدرسةٌ مليحةٌ لها علو وسُفْلٌ، وفيها بعضُ الضِّيق، دخلتُها أطلب فيها مَسْكناً

١- انظر وصف المسجد الحرام في المناسك ٤٧٥.

٢- أخبار مكة: ٨٢/٢ وفيه: طوله أربع مئة ذراع وأربعة أذرع.

٣- في ط: من المشرق إلى المغرب.

٤- في المناسك ٤٧٥: للمسجد ثلاثة وعشرون باباً.

٥- دار: ليست في ت و ط. ودار الندوة هي الدار التي اجتمعت فيها قريش تتشاور في أمر الرسول ﷺ. انظر المناسك ٤٧٥.

٦- أدخلت دار الندوة في المسجد الحرام في أول القرن الرابع الهجري. انظر أخبار مكة ٧٨/٢ - ٨٠.

قبل أنْ يتعيّنَ لي موضعٌ، ثم اكتريتُ الدَّار ولم يُقضَ لي سُكناها، وسألتُ القيمّ أو غيرَه عن(١) صاحبِ المدرسة، فقال لي: هو حفيدُ الشَّيخ الفقيه مُحبّ الدِّين الطَّبَريّ، فتًى حدث(٢) السِّنّ. وفي جهة الجنوب باب الصَّفا وهي من ناحية الرُّكنين الأسودِ واليماني. وكلاهما إلى ناحية اليمينِ وفي الموطَّأ عن عُبَيْد [الله](٣) ابن جُريجٍ أنّه قال لعَبْدِ الله بن عُمر: «رأيتك لا تمسُّ من الأركان إلاّ اليمانيّين»(٤).. الحديث.وهذه الأربعة(٥) الأبواب أشهر أبواب الحَرَمِ، وفيه خمسُ صوامعَ(٦) واحدةٌ على ركن أبي قُبَيْس بين الحائط الجنوبي والشَّرقيّ عند باب الصَّفا؛ وثانية على ركن باب بني شَيْبة بين الشَّرقيّ والشِّمالي؛ وثالثةٌ على باب دار النَّدْوَة في الحائط الشّمالي؛ ورابعةٌ على ركن باب السُّرَّة وهو باب بني جُمَح بين الشِّمالي والغربيّ، وخامسة على ركن أجياد بين الغربيّ والجنوبيّ.

واعلَمْ أنَّ قولَنا في نِسبَةِ هذه الجوانبِ إلى الجهات ليس على الحَقيقة، ولكنْ على التَّقريب ومراعاة الأكثر، إذ الكَعْبة غير موضوعة على مُسامَتَةِ حقيقة(٧) الجهات؛ بل فيها انحرافٌ كما سيأتي عند ذكرها إن شاء الله.

١- في ط: من.

٢- في ت: حديث.

٣- زيادة من ت و ط.

٤- أخرجه مالك في الموطأ ٢٢٧ - والبخاري في الوضوء باب غسل الرجلين في النعلين ١/٢٦٧ حديث رقم ١٦٦ - وأبوا داود في المناسك باب وقت الإحرام رقم ١٧٧٢، ٢/٣٧٤، وابن حنبل ٢/١١٠.

٥- ليست في ت.

٦- في ت: مواضع وهو تحريف.

٧- ليست في ط.

[بئر زمزم]

وفي شرقيِّ الكَعْبَةِ بإزاءِ البابِ قُبَّةُ زَمْزَمَ على البئرِ، كبيرة متّسعة مُربّعة. وفي دورتها[1] حياض متقنة العمل، دائرة مع القبّة، تُملأُ بالماء للوضوء، وعلى البئر تنُّور من رخام. وعمق البئر من أعلاه إلى سطح الماء كما ذكروا نحو من ثلاثين ذراعاً[2] ومن سطح الماء إلى قعرِ البئرِ نحو من أربعين ذراعاً. ويقال: إنَّ عمقَهُ من أعلاهُ إلى أسفله اثنان وسبعون ذراعاً؛ وسعتُه قريبٌ من أربعة أذرع، وماؤه دفيء، وليس بتلك العذوبة: [الطويل]

ولكنْ لَهُ في النَّفْسِ مَوْقِعُ فَرْحَةٍ ... تُفَاجِئُ بَعْدَ اليَأْسِ قَلْبَ كَئِيبِ

تُرِي صُوَرَ الأَحْبَابِ مِرآةُ صَفْوِهِ ... فَيُطْفِي مِنَ الأَحْشَاءِ لَفْحَ لَهِيبِ

وقد[3]تمسَّحنا به وتوضّأنا،[3] وترويّنا منه وتملأنّا، واقتضينا منه عللاً [٩٣/ب] بعد نَهَل، فشفى الغُلَل وأبرأ العلَل. وبودّي لو عُوِّضته[4] عن كل ماء، وغنيت به عن كل مشروب، ووردته دون كلّ منهل، ولكنّ القضاء منفذٌ حكمه على ماسَرَّ العباد وغمَّه، حتّى ينصرفَ في غير مانواه، ويروغ كُرهاً عن مَحجّة هواه، بالله أعتصم وإيّاه أستقيل، وهو حَسْبي ونعمَ الوكيل.

[جهل الحجاج]

ولم أدخل قُبَّةَ زَمْزَمَ لكَثْرَةِ الازدحام، ولاضاغَطتُ[5] في دخولها، لما كنتُ عزمْتُ عليه من الإقامةِ، فأملّتُ التَّشَفّي منها ومن غيرها في وقتِ الفراغِ

١- في ت و ط: دورها.

٢- في مستفاد الرحلة ٣٠٣: أربع وثلاثون ذراعاً.

٣-٣- في ط: توضأنا به وتمسّحنا.

٤- في ط: عُوّضت.

٥- ضاغطتُ: زاحمتُ

وخِفَّةِ الزِّحام، وقدرتُ[1] ماجرى القَدَرُ بغيرِه، وليس إلاّ ماشاءَ اللّه. وقد وقفتُ عليها مِراراً، فلم أجدْ مَدْخلاً من كَثْرةِ الخَلْقِ، وإفراطِ الزِّحامِ، والَّذي يكونُ بها وبغيرِها من المضايَقَةِ، والمُدافَعَةِ، وتكلُّفِ مالمْ يَرِدْ به شَرْعٌ، وتَقوُّل[2] ماليسَ لهُ أصلٌ، أمرٌ يضيقُ عنه الوَصْفُ. وقديماً شُكي بذلك، قال قَتادةُ: «في قوله تعالى: ﴿واتّخذوا مِنْ مَقَامِ إبراهيمَ مُصَلّى﴾[3]. إنَّما أُمِروا أنْ يُصلّوا عندَهُ، ولمْ يُؤمَروا بمسْحِه، ولقد تكلّفتْ هذه الأمّةُ شيئاً ماتكلّفتْهُ[4] الأممُ قبلَها، ولقد ذكر لنا بعضُ من رأى أَثَرَه وأصابِعَهُ فما زالتْ هذه الأُمَّةُ تمسحُه حتَّى اخلولق وامَّحى»[5].

قلت: ولم يَرَ عِبْرَةً من لم يرَ قتالَهُمْ على الرُّكْنِ الأسودِ، وعلى دخولِ الكَعْبة، ترى الرِّجالَ يتساقطونَ على النّساءِ، والنّساءُ يتساقطنَ على الرِّجالِ، ويلتفُّ البعضُ بالبعضِ، ويتأهّبون للقتالِ، ويستعدون للدِّفاعِ والملاكَمَةِ، وقلّما يتمكّنُ أحدُهُمْ من الرُّكن فيفارِقُه حتَّى يُثْخِنَ[6] ضَرْباً، ويكونونَ في الطَّوافِ فإذا جاؤوا إلى الرُّكْنِ تركوهُ إلى البِدْعَةِ[7] وما لا يعني، فبعضهم في التزام[8] الحَجَرِ وقَطْعِ الوقت به لَثْماً ولَحْساً، وبعضهم في صَبِّ العفونات[9] عليه

١- في ط: وقررت.

٢- في ط: ونقول.

٣- سورة البقرة من الآية ١٢٥.

٤- في ط: تكلفتها.

٥- أخبار مكة ٢/٢٩-٣٠

٦- الإثخان في الشيء: المبالغة فيه والإكثار منه.

٧- البِدْعَةُ: مااستحدث في الدين وغيره.

٨- في الأصل: التزاحم وهو تحريف.

٩- في ت و ط: العقوبات، وهو تحريف.

ومحاولةِ تنحيته، وباقيهم يتقاتلونَ على الدُّنوِّ منهُ. ويشاهد هنالك من المناكر مالاتحصرُهُ عبارةٌ.

وأمّا قتالهم على باب الكَعْبَةِ، وتطارُحُهمْ [٩٤/أ] وتعلُّقُ بعضهمْ ببعض فَعَجب؛ وذلك أنّ البابَ مرتفعٌ أزْيَد من القامةِ، وفيهِ قومٌ وقوفٌ تنثالُ(١) عليهم الدَّنانيرُ والدَّراهمُ بلا حِسابِ حُلواناً على دُخولِ البيت؛ فإذا أدلوا شخصاً من الأرضِ تعلّقَ به آخرونَ فتراهُمْ سلسلةً أوّلها في الكَعْبةِ وآخرها في الأرض ورأيتُ رجلاً ينزو(٢) ليجدَ مايتعلّقُ به، فصادفَ ساقَ امرأةٍ، فقبضَ عليهِ من أعلاهُ، وتعلّقَ به مباشرةً من غيرِ حائل.

وتراهم في قُبّة زَمْزَم يتقاتلونَ على الماء،ويأخذ أحدُهم الدَّلْوَ فيصبُّهُ على نفسهِ بثيابه، حتّى لوّثوا الموضعَ. ويتقوّلون(٣) في ذلك أشياءَ مالها وجودٌ، مثل زيادةِ الماءِ في ليلةِ الجمعة، وهو أمرٌ مشهورٌ عندهم. وقد ذكر ابنُ جبيرٍ في رحلتهِ أنَّه قاسَهُ في ليلةِ الجمعة -وهُمْ يتقاتلونَ عليهِ وقتَ زيادتهِ بزعمهم- فوجدَهُ على حالهِ(٤).

(٥وبوُدّي لو أتاحَ الله لهم مُحْتَسباً(٦) يذيقهم النَّكال،(٧) فإنَّ حُرَمَ الله أوْلى المواضعِ بالهَيْبَةِ، ولزوم السَّكينةِ، وقد أسقطوا بجهْلِهِمْ وجفائِهمْ حُرْمَتَه، حتّى إنّ منهم مَنْ لم يُبالِ بالبصاقِ وقتلِ القَمْلِ فيه، وإلقاءِ الوَسَخِ في داخلهِ٥).

١- تنثال: تنصبُّ.
٢- النَّزوْ: الوثبان.
٣- في ط: ينقلون.
٤- رحلة ابن جبير ١١٩.
٥-٥- الفقرة ساقطة من ط.
٦- المُحتَسب من كان يتولى منصب الحِسْبَة.
٧- النَّكال: العقاب.

وقد دخلت مسجد دار النَّدوةِ، فوجَدْتُه مَلآنَ من الأوساخِ والقُمامات ووجدت فيه أُناساً نزلوه[1] بأسبابِهِمْ وهمْ يعملون أعمالَهُمْ من سائر الصِّناعات.

وفي داخلِ المَسْجد الحَرامِ عندَ بابِ بَني شَيْبَةَ سُوقٌ كبيرةٌ بأنواعِ المَبيعاتِ، من أكثرِ الأسواقِ زِحاماً ولَغَطاً.

وقد رأيتُ في نزولِ الرَّكبِ بالمُحَصَّبِ قوماً أدخلوا دوابَّهم في مقبرةٍ جديدةٍ مبيَّضةٍ وحَصنوها داخلَ الرَّوْضَةِ على المقابرِ؛ ووَتَدُوا لهَا هنالكَ أوتاداً وبيّتوها[2] بها، فمررت عليهم حين أصبَحَ وأنا داخلٌ إلى مكّةَ، فرأيتُ الرَّوْضَةَ ممتلئةً بالرَّوْثِ وعاينت منظراً شنيعاً[3]، فكلّمتهُمْ فقابلوني بالجَفاءِ فانصرفْتُ.

ورأيتُ بمسجد الخَيْفِ - طهّرَهُ اللهُ - بمِنًى من قلَّة تحفّظِهِم، وكَثْرَةِ تهاونهم، مَايَتَغَيَّرُ لَهُ قلب كلّ مؤمنٍ ورأيتُ في داخله العَذْرَةَ، وأنواعاً من [٩٤/ب] الكناساتِ والأقْذارِ، ورؤوساً مطروحةً، وجزارةً أَنْتَنَ بها المسجد. وهم يوقدونَ فيه النّارَ حتّى اسودّتْ حيطانُهُ،[4]، وصارَ كالمطبخةِ،فسبحان من قَضى بما شاءَ،وهو الفعّال لِمَا يُريدُ.[5]

وبإزاء قُبَّةِ زَمْزَمَ قُبَّةُ الشَّراب، يُسقى منها النّاسُ في رَمضانَ؛ ويجري إليها الماءُ في قناةٍ تحتَ الأرضِ من قُبَّةِ زَمْزَم. وبإزائها بيتٌ صَغيرٌ هو مخزنُ الكَعْبَةِ، وليسَ في المسجدِ بنيّةٌ سوى هذه الثّلاثِ.

١- في ط: ناساً نزلوا.

٢- في ط: وبيّتوا.

٣- في ت: خبيثاً.

٤- في ت: حيطانها.

٥- اقتباس من الآيتين الكريمتين: ﴿**فعّال لما يريد**﴾ البروج ١٦. ﴿**إنّ ربك فعّال لما يريد**﴾ هود ١٠٧.

[مقام إبراهيم]

والمقامُ بإزاءِ بابِ الكعْبَةِ مُتياسِراً عن قُبَّةِ زَمْزَمَ؛ وأقربُ منها إلى الكَعْبَةِ يَسيراً. وبينَهُ وبينَ الكعبةِ سبعةٌ وعشرونَ ذراعاً على ماذكر الأزْرَقيّ، قال: «وبينَهُ وبينَ الرُّكْنِ الشّامِيّ ثمانيةٌ وعشرون ذراعاً وتسعةَ عَشَرَ إصبعاً، وبينَهُ وبين الرُّكْنِ الأسْوَد تسعةٌ وعشرون ذراعاً وتسعةُ أصابِع»[١].

قلت: وقد وقفتُ مع أخي عندَ المقَامِ فذكرتُ لَهُ قولَ الأزْرَقيّ فنظرْنا مابينَهُ وبين الحَجَرِ الأسْوَدِ فقدّرناه بنحوٍ ممّا ذكر.

والمَقَامُ حَجَرٌ فيه أثر قَدَمَيْ إبراهيمَ عليه السّلامُ، وَقَفَ عليه وهو يبني الكعبةَ، فساختْ[٢] فيه قَدَمَاهُ. وقيلَ: كان كلّما ارتَفَعَ البناءُ، ارتفعَ به المَقامُ في الهَواءِ حتّى تمَّ البيتُ، وقيلَ: إنّما وقَفَ عليهِ حينَ أذَّن في النَّاسِ بالحجّ فتطاوَلَ حتّى علا الجبالَ، وأشرفَ على على ماتحتَهُ، فنادى: أيُّها الناسُ أجيبوا ربَّكُمْ. وقيلَ غير هذا ممّا هو مَسطور. والأوّلُ هو الصَّحيحُ حَسْبَما يأتي ذكرهُ من حديثِ البُخاريّ. وسأل أبو سَعيد الخُدْريّ عبدَ الله بن سلاّم[٣] رضي الله عنهما عَنْ الأثَرِ الَّذي في المَقامِ فقالَ: كانَتْ الحِجَارةُ على ماهي عليه الآنَ، إلاّ أنّ الله تعالى أرادَ أن يَجْعَلَ المقامَ آيةً من آياته. وتقدّمَ قولُ قَتادَةَ[٤]: «ذكر لنا بعضُ من رأى أثَره وأصابعَه». قال الأزْرَقيّ: «وهو مُرَبَّع[٥]

١- أخبار مكّة: ٢/٨٥.

٢- ساخت: غاصت في الأرض.

٣- عبد الله بن سلام بن الحارث أبو يوسف: صحابي أسلم قبل وفاة النبي بسنتين وبعضهم يقول أسلم سنة ثمان للهجرة. روى عنه جماعة. ومات بالمدينة سنة ٤٣هـ. ترجمته في الإصابة ٢/٣١٢.

٤- سلف قول قتادة في الصفحة ٣٧٠ .

٥- في ت: مرتفع.

طولُهُ ذِراعٌ، وعرضُهُ أحدٌ وعشرون إصبعاً،والقدمانُ داخلتانِ فيه سبعةُ أصابعٍ، وبينَ القدمينِ إصبعان، ووسطهُ قد استَدَقَّ من التَّمسّحِ بهِ، وهو في حَوْضٍ من سَاجٍ مُربَّعٍ حولَه رَصاص، والحوضُ مُلبّسٌ بالرَّصاصِ وعليه [٩٥/أ] صندوق ساجٍ مُسَقَّف يُقْفلُ عليه».[1]

قال: «وهو حَجَر رِخْوٌ مُضبَّب[2] بالذَّهَبِ من أعْلاهُ وأسْفَلهُ، ضبَّبهُ المهَديّ بألفِ دينار، وزادَ عليه المتوكّل ذَهَباً آخرَ[3]». قالَ غيرهُ: ولونُهُ بين الدُّكْنَة[4] والحُمْرةِ، مُنَقّط بِنُقَطٍ سودٍ مُخضرّ الوسط[5].

قلت: وعليهِ الآن شبَّاك [6]من حديدٍ على نَعْتِ قُبَيْبَةٍ مُتجافٍ عَنْهُ قَدْر ما يَصل مَنْ يُدخلُ يَدَهُ بأصابعهِ إلى الصُّنْدوق، والشُّبّاك[6] مقفل عليه، ومن ورائهِ موضعٌ قد حِيزَ وجُعِلَ مُصلّى لركعتَيْ الطَّوافِ وغيرهما.

وفي الصَّحيح: «أنَّ رسولَ الله ﷺ لمّا دَخَلَ المسْجدَ أتى البَيْتَ فَطافَ فيه سَبْعاً،ثُمَّ أتى المقامَ فقرأ **﴿واتَّخذوا مِنْ مَقَامِ إبراهيمَ مُصلّى﴾** وركَعَ خَلْفَهُ رُكْعتَينِ».[7]

١- أخبار مكة: ٣٨/٢.

٢- مضبّب: مُلبّس.

٣- أخبار مكّة ٣٦/٢.

٤- الدُّكْنَةُ: لون يميل إلى الغبرة بين الحمرة والسواد.

٥- جاء مثل هذا القول في مستفاد الرحلة والاغتراب ٢٩٢.

٦-٦- سقطت من ط.

٧- أخرجه الترمذي في الحج باب ماجاء أنه يبدأ بالصفا قبل المروة رقم ٥٦٢ - وأبو داود في المناسك باب صفة حجة النبي رقم ١٩٠٥ بخلاف في اللفظ. وابن حنبل ١٥/٢ و٨٥ - والنسائي ١٥١/٥و٢٢٥و٢٣٥.

[الكعبة]

وأما الكعْبَة ـ شرّفها الله ـ فهي في وسط المسجد. وفي موضعها يسير نتوء يبين للمتأمّل، وبناؤها عجيب متقنٌ من حجر منحوت مُحْكَمُ الإلصاقِ ولونُه إلى الحُمْرَة مع دُكْنَةٍ يسيرة، وارتفاعُها في السَّماء ـ كما ذكروا ـ ثلاثون ذراعاً [......][1].

بعلمين مثبتينِ في البناء، وهما أسطوانتان خضراوانَ، والمطافُ لاصقٌ بالمسجد، والمسجدُ على يسارِ الذَّاهب من الصّفا، [والمروة][2] ناتيءٌ مثل الصّفا أو دونَهُ قليلاً، ولها دَرَج لا أقف الآن على حقيقته وذكر الأزْرَقي «أنَّه خمس عشرة درجة»[3] وأنا أرى [غير ذلك][4].

ولستَ من هذا على ثِقَةٍ، وعليها قوسٌ مَبنيّ، ووراءَهُ موضعٌ أبيضُ مُضيءٌ مستوٍ. قال أهل اللُّغة: والمَرْوَةُ حجارةٌ بيضٌ رِقاقٌ[5] ويقال: بل هي حجارة القداحِ. والصَّفا: الحجرُ الصَّلْدُ الأمْلَس[6]. وبين الصَّفا والمَرْوَة على ماذكر الأزْرَقيّ رحمه الله: «سَبعُ مئةِ ذراعٍ وستةٌ وستونَ ذرعاً ونصف».[7] وبين العَلَمَينِ،وهو المسعى،مئةٌ واثنا عَشَرَ ذراعاً،وبالله التَّوفيق.

١- بياض في جميع النسخ بمقدار سطرين، وقال الأزرقي: في أخبار مكة ١/٢٨٩ - ٢٩٠ : «طولها في السماء سبعة وعشرون ذراعاً، وذرع طول وجه الكعبة من الركن الأسود إلى الركن الشامي خمسة وعشرون ذراعاً، وذرع دبرها من الركن اليماني إلى الركن الغربي خمسة وعشرون ذراعاً، وذرع شقّها اليماني من الركن الأسود إلى الركن اليماني عشرون ذراعاً».

٢- بياض في جميع النسخ استدركته من نسخة الأحمدية.

٣- أخبار مكة ٢/١١٩.

٤- بياض في جميع النسخ والاستدراك من نسخة الأحمدية.

٥- اللسان «مرا»: وجاء فيه المَرْوُ: حجارة بيضاء برّاقة تكون فيها النار وتقدح منها النار واحدتها مروة.

٦- اللسان: «صفا». وجاء فيه نقلاً عن ابن السكيت: الصفا: العريض من الحجارة الأملس.

٧- أخبار مكة ٢/١١٩.

فصل

[أسماء مكّة]

[٩٥/ب] قال الله جلّ ذكرُهُ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً﴾(١). وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾(٢). فاختُلِفَ في هذين الاسمين، فقيل: هما واحدٌ، والباءُ تُبدَلُ من الميم. كما يقال: لازم ولازب. وقيل: مكّةُ بالميم اسمُ البلد، وبالباء موضعُ البيتِ، وقيل: بكّةَ بالباء بطن مكّة، وقيل موضع المسجد والبيت، وهذا كلّه متقارب، واختلف في اشتقاق الاسمين فقيل: بكّة بالباء مشتقّة من الازدحام وأنشد أبو عبيدة:(٣) [الرّجز]

إذا الشَّريبُ أَخَذَتْهُ أكَّهْ فَخَلِّه حتَّى يَبَكَّ بَكَّهْ(٤)

وقيل: من بَكِّ العُنُقِ وهو التواؤها، لأنَّهُ ما فَجَرَ فيها أحدٌ في الدَّهْرِ الأوّلِ إلاّ أصبحتْ عُنُقهُ ملتويةً.

قلتُ: ويحتمل أنْ يكون من بكِّ الشَّيء إذا فرّقه، لتفرُّقِ النَّاسِ منها في كُلِّ جهة عند فراغِ الحجِّ، قال امرؤ القيس:(٥) [الطويل]

ولله عَيْنَا مَنْ رأى مِنْ تَفَرُّقٍ أَشَتَّ وأنأى مِنْ فِراقِ المُحصَّبِ(٦)

١- سورة آل عمران من الآية ٩٦.

٢- سورة الفتح من الآية ٢٤.

٣- أبو عبيدة معمر بن المثنى من أئمة العلم بالأدب واللغة له: نقائض جرير والفرزدق، ومجاز القرآن، والخيل. توفي بالبصرة سنة ٢٠٩هـ. ترجمته في بغية الوعاة ٢/٢٩٤. والبيتان في النوادر في اللغة لأبي زيد الأنصاري ١٢٨، والسيرة لابن هشام ١/١٠٥. وقد عزاهما لعامان بن كعب بن عمرو بن سعد بن زيد مناة بن تميم، انظر المناسك ٤٧٣، وفي معجم البلدان ٥/١٨١. واللسان أكك.

٤- الشريب: الذي يشرب معه، والذي يسقي إبله مع إبل صاحبه. يقول: إذا ضاق الشريب وساء خلقه وغضب عند الحوض فدعه يبك إبله بكّة؛ أي يقبلها الحوض يصرفها إليه. والأكّة: الحمية. النوادر١٢٨.

٥- ديوان امرئ القيس ٤٢.

٦- في الديوان: فلله عينا.

وأما مكّةُ بالميم فقيل: هي من قولهم[1]: امْتَكَّ الفصيلُ مافي ضَرْعِ أمّهِ إذا مَصَّه مصّاً شديداً، سمِّيت بذلك لاجتذابِ النّاسِ من الآفاق أو لاستقصائِها محو الذُّنوبِ، أولقلّة مائها[2] حكاه ابن دُريَد أو لأنَّها تنقصُ من ظلم فيها، وقيل: هي من المُكاء وهو الصَّفيرُ، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وما كَانَ صَلاَتُهُمْ عِنْدَ البَيْت إلاّ مُكاءً وتَصْدِيَةً﴾[3]، حكاه الزَّجْاجيّ، ولا يصحّ لأنّ المُكاءَ معتلّ،من مكا يمكو إذا صفّر، ومكّة من المضاعف.

وقيل: سُمِّيت بذلكَ لارتفاعِ الجبالِ عليها، من المُكوكِ وهو مكيال مرتَفِعُ الجوانبِ، قال الزَّجاجي: وقد تكلّمتْ بهِ العَرَبُ وجاء في أشعارِ الفُصحَاءِ قلتُ: وهذا بعيدٌ متكلَّفٌ لاخفاءَ بضَعْفِهِ، وقيلَ: مكّة من الامتكاكِ وهو الازدحامُ مثلما تقدّمَ فيها بالباءِ.

ولها أسماءُ مَكّة، وبكّة، وصلاحُ معدول، والعَرْشُ، والقَادس، والمُقَدَّسَةُ، والنَّسَّاسةُ [٩٦/أ] والنّاسّةُ بنون وسين مهملة، والبَاسَّةُ بالباء، والبيتُ[4] العتيق، وقيل: هي الكعبةُ، وأمّ رُحمٍ بضم الرّاء، وأمّ القُرى، والحاطمةُ، والرَّأسُ، مثل رأسِ الإنسان، والبَلْدةُ، وقيل هي مِنى، والقريةُ القديمة، والبلْدَةُ الحرام، حكاها عِياض في مشارقِه[5]. فصلاحُ مَعدولة[6] عن صالحة،

١- اللسان: مكك، مشارق الأنوار ٣٩٢/١

٢- مشارق الأنوار ٣٩٢/١.

٣- سورة الأنفال من الآية ٣٥.

٤- ليست في ط.

٥- مشارق الأنوار ٣٩٢/١

٦- في ط: معدول.

والعرش: السّرير، لأنّها أرفعُ البلادِ، والقادس والمقدّسة من الطُّهارة، والنّساسة من نَسَّ الشّيء أي[1] أذهَبَهُ، حكاه السُّهيليّ لأنّها تذهب الظُّلَمَه وتبيدهم، وبالباء من البَسّ وهو الفَتّ[2] بمعنى الأوّل، والعتيق: القديم، وقيل: لعتقها من تملّك الجبابرة عليها أو من[3] تَجَرْهَمَ[4] فيها. والرّحم: الرَّحْمَة، وأُمُّ الشّيء، أصلُهُ أي موضعُ الرَّحْمَة. وأمُّ القُرى أصلُها، لأنَّ الأرضَ دُحيت من تحتها، قاله الهَرَوِيّ[5]. والحاطمة:[6] مهلكة الظالمين. والرّأسُ معروف لأنّها في البلاد كالرّأسِ في الجَسَدِ. والبَلْدَةُ الحَرَامِ: لاحترامِ الله عزّ وجلّ[7] إيّاها وتعظيمه لها.

فصل

[بناء الكعبة]

ويقال للكعبة البَنِيَّةُ: اسم لها مشتقٌّ من البناء، والبيت العتيق وقد مضى ذكره. واختُلِفَ في بدئها على أقوالٍ كثيرة لاتقع الطُّمأنينةُ بأكثرها، فحكى

١- في ت: إذا، وقول السهيلي في الروض الأنف ١٣٩/٢.

٢- في ت: البتُّ، والفَتُّ: الدقّ والكسْر.

٣- ليست في ط.

٤- ت: تجبرهم، والجُرْهُم: الجريء في الحرب وغيره.

٥- هو عبد الله بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن غفير: عالم بالحديث من الحفاظ، من فقهاء المالكية مات بمكّة سنة ٤٣٤هـ أو ٤٣٥هـ له مصنفات منها تفسير القرآن، والمستدرك على الصحيحين، ومعجمان، ترجمته في ترتيب المدارك ٦٩٦/٤ - غربال الزمان ٣٥٥. شذرات الذهب ٢٥٤/٣، وفيات ابن قنفذ ٢٤٠ - شجرة النور الزكية: ١٠٤.

٦- في الأصل: الحطّامة.

٧- في ت: تعالى.

القاضي عياض عن كَعْب الأحْبار(١) ووهَب بن مُنبِّه(٢): «أنَّ البيتَ أُنزلَ من السَّماءِ ياقوتةً مجوّفةً حمراءَ، والرُّكْنُ ياقوتةٌ بيضاءُ، فبنى آدم قواعدَهُ ووضَعَه علَيْها، فلما أرسَلَ اللّهُ الطُّوفانَ رفعت وبقيت القواعد»(٣). وذكر أبو الفَرَجِ بن الجَوْزيِّ(٤) نحو هذا عن ابن عبَّاس عن النَّبيِّ ﷺ وفيه: «أنَّ الملائكَة قالت لآدمَ لقد حَجَجْنا هذا البيتَ قبلَكَ بألْفَيْ عام»(٥) وذكر الأزْرَقيّ عن ابن عبّاسٍ رضي اللّه عنه في الرُّكْنِ نحو ماتقدّم قال: «ليسَ في الأرضِ من الجنّة إلاّ الرُّكن الأسود والمَقام، فإنَّهما جوهرتان من جَوْهَرِ الجنّة، ولولا مامسَّهما من أهْلِ الشِّرك، مامَسَّهما ذو عاهَةٍ إلاّ شفاهُ اللّه عزّ وجلّ»(٦) وذكر التِّرْمذيّ [٩٦/ب] عن ابن عبَّاس قال: «قال رسول اللّه ﷺ: نَزَلَ الحجرُ الأسودُ من الجنّةِ وهو أشَدُّ بَياضاً من اللّبَنِ فسوَّدَتْهُ خطايَا بني آدمَ:(٧)».

١- هو كعب بن ماتع بن ذي هجين الحميري، تابعيّ كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن أسلم في زمن أبي بكر، أخذ الكتاب والسنة عن الصحابة وانتقل إلى الشام وسكن حمص وتوفي بها سنة ٣٢هـ. ترجمته في الإصابة ٣/٢٩٧ - تذكرة الحفاظ ١/٥٢ .

٢- وهب بنُ منبِّه الصنعاني: مؤرخ كثير الاخبار عن الكتب القديمة، يعد في التابعين، ولد بصنعاء سنة ٣٤هـ. وولاه عمر بن عبدالعزيز قضاءها. توفي سنة ١١٤هـ له قصص الأنبياء وقصص الأخيار. ترجمته في حلية الأولياء ٤/٢٣- تذكرة الحفاظ ١/١٠٠- وفيات الأعيان ٦/٣٥ .

٣- مشارق الأنوار ١/١١٥.

٤- عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن الجوزيّ: مؤرخ، واعظ، متكلم عالم بالتاريخ له نحو ثلاث مئة مصنف منها: المنتظم في تاريخ الملوك، وصفوة الصفوة، توفي سنة ٥٩٧هـ ترجمته في وفيات الأعيان ٣/١٤٠ غربال الزمان ٤٨٤ـ البداية والنهاية ١٣/٢٨- شذرات الذهب ٤/٣٢٩.

٥- هو في العلل المتناهية في الأحاديث الواهية لابن الجوزي ٢/٥٧١ تحت عنوان حديث في حجّ آدم عليه السلام.

٦- أخبار مكة: ١/٣٣٢.

٧- أخرجه الترمذي في الحج. باب ما جاء في فصل الحجر الأسود والركن والمقام رقم ٨٧٧- وهو في الجامع الصغير ٢/١٨٧ .

وقيل إنّ الملائكةَ بنتِ البيتَ، وإنّهم لما قالوا ﴿أتجعلُ فيها من يُفسِدُ فيها﴾[1] غضب الله عليهم، فعادوا يطوفونَ بالعرشِ، يسترضونَ ربَّهم فرضيَ عنهم وقالَ لَهُمْ: ابنوا في الأرض بيتاً يعوذ به كلُّ من سخطتُ عليه كما فعلتمْ بعرشي، فبنوا البيتَ. وقيل: إنَّما بناهُ آدمُ عليهِ السَّلام، وإنّهُ لما أهُبط من الجنة أوحى الله إليه: ابنِ لي بيتاً، واصنَعْ حولَهُ كما كانت الملائكةُ تصنعُ حولَ عرشي. فبناه. حُكي هذا عن ابن عبَّاس أيضاً قال: وبناهُ من خمسةِ أجْبُلٍ: طورِ سيناءَ[2]، وطورِ زَيْتَاءَ[3]، ولبنانَ، والجُوديّ[4] وحِراء[5].
قال مُجاهدَ[6]: وكان موضعُهُ بَعْدَ الغَرقِ أكمةً حمراءَ لا تعلوها السّيول وكان يأتيها المظلومُ، ويدعو عندَها المكروبُ. وقيلَ: إنَّما بناهُ شِيثُ بن آدمَ عليهما السّلامُ، حكاهُ أبو عمر بنُ عَبْدِ البرّ[7].

١- سورة البقرة من الآية: ٣٠.
٢- طور سيناء: جبل بقرب أيلة وعنده بُليد فتح في زمن النبي.
٣- طور زيتاء: هو الجبل الشرقي عند بيت المقدس، وهو جبل عظيم مشرف على المسجد الأقصى. انظر الأنس الجليل ٢/٦٠ .
٤- جبل الجودي: جبل مطل على جزيرة ابن عمر في الجانب الشرقي من دجلة من أعمال الموصل عليه استوت سفينة نوح لما نضب الماء.
٥- جبل حراء: من جبال مكة على ثلاثة أميال. كان النبي صلى الله عليه وسلّم يتعبّد في غار من هذا الجبل قبل أن يأتيه الوحي. وفيه أتاه جبريل.
٦- مجاهد بن أصبغ بن حسان: أبو الحسن البّجاني: مؤرخ، أديب أندلسي له كتب منها طبقات الفقهاء، وفساد الزمان، والناسخ والمنسوخ. توفي سنة ٣٨٢هـ . ترجمته في تاريخ علماء الأندلس: القسم الثاني: ١٥١ .
٧- هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي المالكي: حافظ، مؤرّخ، أديب، بحاثة، له مصنفات منها: الدرر في اختصار المغازي والسير، والاستيعاب، وجامع بيان العلم وفضله. توفي سنة ٤٦٣هـ. ترجمته في الصلة ٦٧٧ والديباج المذهب ٣٥٧- المغرب في حلى المغرب ٢/٤٠٧- مطمح الأنفس ٢٩٤.

قلت: وأشْبهُ الأقوال ـ والله أعلم ـ قولُ من قالَ: إنّ آدمَ عليه السّلامُ بناهُ، إذا لم يقمْ دليلٌ على صحّةِ شيءٍ ممًّا قيلَ في ذلك. ودلَّ ظاهرُ الحديثِ الصّحيحِ على أنّ البيتَ كانَ قبلَ إبراهيمَ عليه السّلامُ. وذلك أنّهُ دَعا عندَ وضعهِ هاجَرَ وابنَها إسماعيلَ بمكّةَ قبل بنائِه البيتَ بزمان ﴿رَبَّنَا إنّي أَسكَنْتُ مِنْ ذُرّيتي بوادٍ غيْر ذي زَرْعٍ عندَ بيتِكَ المُحرّمِ﴾[1].

وقد وردَ في الحديثِ أنّه كانَ هنالك بيتٌ قبلَ إبراهيمَ عليه السّلام، وقد رأيت أن أثبت الحديثَ المذكورَ مختصراً لأنّه يليقُ بهذا الموضعِ فأقولُ: روي عن ابن عَبّاسٍ رضي الله عنهما أنَّ إبراهيم عليه السّلام أنزل هاجرَ وولدَها إسماعيلَ عليه السّلامَ وهو صغير يرضع بمكّة، ولاماءَ بها ولاأنيس، فقالتْ: آللّهُ أمركَ أن تتركنا بهذا الوادي الّذي لا أنيسَ به؟ قال: نعم، قالَتْ: إذاً لانضيعُ مَعَه. وذهبَ حتّى غابَ عنهما فاستقبلَ البيتَ، فقال: ربِّ ﴿إنّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرّيَتي بِوَادٍ غَيْرَ ذي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ المُحَرّمِ﴾ إلى ﴿يَشْكُرُون﴾ فلمّا عَطشَتْ هاجرُ وابنُها، ورأتهُ يتلوى، قامت كراهةَ أن تنظرَ إليه، فصعدَتْ الصَّفا فنظرت، فلم ترَ أحداً، فهبطَتْ منهُ، فلما كانت [٩٧/أ] في الوادي رفعَتْ ذيلَها وَسَعَتْ سعيَ المجهودِ، حتّى صَعِدت المَرْوَةِ، فلم تَرَ شيئاً، ثم رجعتْ إلى الصَّفا. فعلت ذلك سبعَ مراتٍ، فلذلكَ سعى النّاس بينهما. فجاء المَلَكُ فضربَ بعقبهِ في موضعِ زَمْزَم فنبعَ الماءُ، فجعلَتْ تُحَوِّضَهُ[2] بيدها، ولو تركتهُ لكان مَعيناً[3] ثم قالَ لها المَلَكُ: لاتخافا الضّيعة، فإنّ هَا هُنا بيتاً للّهِ[4]

١- سورة إبراهيم من الآية ٣٧.

٢- تحوّضه: أي تجعله حوضاً يجتمع فيه الماء.

٣- الخبر في المناسك ٤٨٤.

٤- في ط: بيت الله.

يبنيهِ هذا الغلامُ وأبوه. ثم نَزَلَ عندها رفقة من جُرْهُم[1]. فلمّا شبَّ الغُلامُ زوّجوه فجاء إبراهيمُ عليه السَّلام - وإسماعيلُ غائبٌ - فسأل زوجتَهُ عن حالِها فَشَكَتْ، فقال لها: قولي لزوجكِ يغيّر عتبةَ بابه، فطلّقها، وتزوج أخرى ثمَّ جاء إبراهيم عليه السّلام فسألها، فأثْنَتْ على الله، وقالتْ خيراً، فقال لها: قولي لزوجك يثبتْ عتبةَ بابه، وسألها عن عيشِهِمْ، فقالت: اللّحمُ والماء، فقال: اللّهم بارك في اللَّحمِ والماء[2]. قال رسول الله ﷺ: «فلا يَخْلو عليهما أحدٌ بغيرِ مكّةَ إلاّ لمْ يوافِقاهُ»[3]. ثم جاء بعد ذلك وإسماعيلُ يَبري نَبْلاً تحتَ دوحةٍ قريباً من زَمْزَم، فقال له: إنّ الله أمرني أن أبني له[4] هَا هُنا بيتاً، وأشار إلى أكمة، فعند ذلك رَفَعا القواعد من البيت، يبني إبراهيم، وينقل إسماعيل الحجارة، فلمّا ارتفع البناء جاءه[5] في المقام فوقف عليه وهو يبني، ويقولان: ﴿رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إنَّكَ أنتَ السَّميعُ العَليمُ﴾.[6]

ويحكى أنه لمّا أُمر الخليلُ عليه السَّلامُ ببناءِ البيتِ قال: يارِبِّ بَيِّن لي صِفَتَهُ، فأرسَلَ الله سبحانَهُ غمامةً على قَدْرِ البيتِ فسارت[7] معَهُ حتَّى نَزَلَ مكّةَ، فقيل له: ابْنِ على ظلّها، فبنى، وكان جبريلُ عليه السَّلامُ قد استودعَ أبا قُبَيسٍ الحَجَرَ الأسودَ حينَ الغَرَقِ، فلّما بنى إبراهيم عليه السّلام أخرجه إليه

١- هو جرهم بن قحطان: جدّ يماني قديم كان له ولبنيه ملك الحجاز، ولما بني البيت الحرام بمكة كان لهم أمره وأول من وليه منهم الحارث بن مضاض الجرهمي. انظر مروج الذهب ٢/٤٧-٤٩ .

٢- انظر الخبر في المناسك ٤٨٣-٤٨٤ .

٣- أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب يزفّون النّسلان في المشي رقم ٣٣٦٤-٦/٣٩٦-٣٩٧-٣٩٨.

٤- ليست في ط.

٥-يبدو أن الفاعل سقط للناسخ بعد الفعل «جاءه». ولعله كان «جبريل».

٦- سورة البقرة الآية ١٢٧، وانظر الحديث بكامله في مصنّف عبدالرزاق ٥/١٠٥-١١١.

٧- في ط: فصارت.

فوضعَهُ، قالوا: ولمّا توفي إسماعيلُ عليه السَّلام دُفِنَ في الحِجْر[1] عند أمّه، وَدَبَّرَ أمرَ الحَرَمِ ولدُه نافثُ بن إسماعيلَ، ثم غَلَبَتْ جُرْهُمُ على البيت فانهدم، فبنته العمالقة، ثم انهدم، فبنته جرهم ثم احترق في الجاهلية من تجمير امرأة، فهدمته قريش، وكان قصيراً تقتحمه العنزُ، فرفعُوهُ نحواً من عشرين ذراعاً، وقصّتهم في بنائه، وفي الحيّة واختطاف الطّائر لها، ووضع الرُّكن مشهورة، ذكرها [٩٧/ب] ابن إسحاق في السِّيرةِ مستوفاةً، وذكرها أبو عُمر بن عبد البّر[2] وغيره.

واختلف في وقت بناء قُريش لها فقيل: إنَّهم بنوها وقتَ بلوغِ النَّبي ﷺ الحلم، وقيل: بنَوْها وهو ابنُ خمسٍ وعشرين سنةً، وقيل: ابنُ خمس وثلاثينُ سنة، وهو قولُ ابن إسحاق، وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ قريشاً بنتها مرّتَينِ ثم احترقَتْ في زمان يَزيدِ بن مُعاوية ثم استشار ابنُ الزُّبير[3] النّاسَ في نَقْضِها وبنائها، [4]فنَقَضَها وبناها[4]، وزاد في ارتفاعها عشرةَ أذْرُعٍ، وأدخل فيها من الحِجرْ ماثبت أنّه منها وجعلَ لها بابين: شرقّياً وغربّياً، وألصقهما بالأرض حسبما ثبت به الخبر عن رسول الله ﷺ . فلمّا قُتِل ابنُ الزُّبَيرِ كتبَ

١-حِجْر الكعبة: هو ماتركت قريش في بنائها من أساس إبراهيم وفيه قبر هاجر أم إسماعيل عليه السلام. انظر ياقوت ٢٢١/٢ .

٢- السير والمغازي لابن إسحاق ١٠٤، والمناسك ٤٨٥-٥٨٩.

٣- هو عبد الله بن الزبير العوام: فارس قريش في زمنه وأول مولود في المدينة بعد الهجرة. شهد فتح إفريقية زمن عثمان، بويع له بالخلافة سنة ٦٤هـ عقيب موت يزيد بن معاوية فحكم مصر والحجاز واليمن وخراسان والعراق وأكثر الشام. وجعل قاعدة حكمه بالمدينة. قتل بمكّة سنة ٧٣هـ له ترجمة في فوات الوفيات ١٧١/٢ - حلية الأولياء ٣٢٩/١ - صفة الصفوة ٧٦٤/١.

٤-٤- سقطت من ط.

الحَجّاجُ[١] إلى عبدِ المَلِكِ يعلمُهُ ببناءِ ابن الزُّبير للكعبة، وإدخاله فيها ماأدخل من الحِجرْ فكتب إليه عبدُ الملك يأمره بردّها على ما كانت عليه في زمان رسول الله ﷺ ، وألاّ يغيرّ ما زاد في ارتفاعها فنقضها الحجّاج وبناها على ماهي عليه اليوم[٢].

ولمّا كان الرَّشيدُ استشار مالكاً - رحمه الله - في رَدّها على ما صنع ابنُ الزُّبير كما أراده رسول الله ﷺ ، فقال له[٣] مالكٌ -رحمه الله -: ناشدتُكَ الله يا أميرَ المؤمنين لا تجعل هذا البيتَ مَلْعَبَةً[٤] للملوك، لا يشاءُ أحدٌ[٥] منهمْ إلاّ نَقْض البيتِ وبناءَه، فتذهبَ هيبتُهُ منْ صدورِ النّاس، فقبل الرَّشيدُ كلامَهُ، وتركَهُ على ماهو عليه.

فصل

[المسجد الحرام]

وأمّا المسجدُ الحَرام[٦] - صانَهُ الله تعالى - فإنّه لم يُبنَ قديماً، ولا كانَ حولَ البيتِ حائطٌ. وفي البُخاريّ عن عَمرو بن دينارٍ وعَبْدِ الله بن أبي يَزيد قالا: «لم يكنْ على عَهْدِ النّبيّ ﷺ حولَ البيتِ حائطٌ. كانوا يُصلّونَ حولَ

١- الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي: قائد أُموي، داهية، خطيب، ولد ونشأ بالطائف، ولي مكّة والمدينة والطائف لعبدالملك بن مروان، ثم العراق. بنى مدينة واسط بين الكوفه والبصرة توفي سنة ٩٥هـ. انظر مروج الذهب ١١٩/٣ ومابعد - وفيات الأعيان ٢٩/٢ .

٢- المناسك ٤٩١ .

٣- ليست في ط.

٤- في ت: ملعباً.

٥- في ت و ط: أحدهم.

٦- انظر ماقيل في المسجد الحرام في معجم البلدان ١٢٤/٥ .

البيت، حتَّى كانَ عمر فبنى حولَهُ حائطاً»[1]. قال عبدُ الله: جدارُه[2] قصيرٌ فبناهُ ابنُ الزُّبير.

قلت: والمسجدُ الحَرامُ[3] هو ما دارَ بالكعبةِ، وهو المُصلّى، ويطلقُ على الكعبةِ، وهو الظَّاهِرُ من حديث أبي ذَرٍّ أنّه «سأل رسول الله ﷺ : أيُّ مَسْجدٍ على ظهرِ[4] الأرضِ وُضعَ أوّلاً ؟ قال : المسجد الحَرَام، قال: ثم أيٌّ؟ قال : المسجدُ الأقْصى، قال : كَمْ [٩٨/أ] بينهُما؟ قال : أربعونَ سَنَةً»[5] فظاهرُ قولهُ : وُضعَ، أنّه أراد المبنى، وهو البيتُ كما قال تعالى: ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾.[6] وهو البيت بلا مِرية في قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.[7] لأنّ القِبْلَة هي البيت. وكان المسجدَ الحرام على ماذُكر غير مُحجّر، والدُّورُ به محيطة، فاشترى منها عُمَرُ دياراً فهدمها، ووسَّع بها المسْجِدَ، وامتنعَ بعضُ النَّاس من البيع، فوضع لهم الأثمانَ في خزانة الكَعْبَة حتَّى أخذوها بعد، وقال لهم :« هو فناءُ الكعبةِ، إنّما نزلتمْ عليها ولم تنزلْ عليكم» وأحاطَ بالمسجدِ حائطاً قصيراً.[8]

١- أخرجه البخاري في مناقب الأنصار، باب بنيان الكعبة رقم ٣٨٣٠-١٤٦/٧.

٢- في الأصل: جذره، وهو تحريف.

٣- ليست في ط.

٤- في ت: وجه الأرض.

٥- أخرجه البخاري في الأنبياء باب ١٠ رقم ٣٣٦٦-٤٠٧/٦ ومسلم في المساجد حديث رقم ١- وابن ماجة في المساجد باب أي مسجد وضع أول رقم ٧٥٣- وابن حنبل ١٥٠/٥ -١٥٦-١٥٧-١٦٠-١٦٦.

٦- سورة آل عمران ٩٦.

٧- سورة البقرة ١٤٤.

٨- ورد قول عمر في أخبار مكّة ٩٦/٢ ومُستفاد الرحلة والاغتراب ٢٤٠.

ثم كَثُرَ النَّاس فصنع عُثمان كما صَنَعَ عُمر، فأكثروا الشّكوى وصاحوا به. فقالَ لهم :قد فعلَ عُمَرُ مثلما فعلت. فلم يَصِحْ أحدٌ، وما جَرَّأكُمْ[1] [عليَّ إلاّ حِلْمي عَنكم، ثم أمرَ بهمْ إلى الحَبْسِ، حتَّى كلّمَهُ فيهم عبدُالله بن خالدِ بن أُسيد فتركهم].[2]

[المزدلفة]

ومُزْدَلِفة أوسعُ وأوطأُ من مِنىً، والمَشْعَرُ الحرام منها فيما يلي[3] مِنَىً، والنّزولُ بالمُزْدَلِفة بعد الرّجوع من عَرَفة حسبما يأتي في فصل ذكر المناسك إن شاء الله. وحَدُّ مُزدلِفة ممَّا يلي مِنى: مُحسرٌ[4]؛ وهو وادٍ هنالك. وحدُّها ممَّا يلي مأزما عَرَفَة، وهما جَبلان مُكتنفانِ للطّريق، أفسح من مأزمي مِنًى. قال ابن جُرَيج[5] قلت لعَطاء[6]: اين المُزْدَلِفة؟ فقال : من مأزمي عَرَفَةَ إلى مُحَسِّر. وليس المأزمان منها، ولكن مَفْضَاهُما، فقِفْ بأيّهما شِئْتَ. ومن مُحسِّرٍ إلى

١- في ت: وما جرأهم.

٢- بياض في جميع النسخ والتكملة من أخبار مكّة للأزرقي ٩٦/٢. وفي معجم البلدان ١٢٤/٥ بخلاف يسير.

٣- في ت: مما يلي.

٤- مُحسِّر: موضع بين مكة وعرفة وقيل بين منى وعرفة، وقيل بين منى والمزدلفة وليس من منى ولا المزدلفة بل هو واد برأسه.

٥- هو عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج: فقيه الحرم المكي. كان إمام أهل الحجاز في عصره رومي الأصل ولد بمكة سنة ٨٠هـ وتوفي فيها سنة ١٥٠هـ. ترجمته في طبقات ابن سعد ١٩٤/٥ ، صفة الصفوة ٢١٦/٢ .

٦- هو عطاء بن أسلم بن صفوان: تابعيٌ من أجلاّء الفقهاء ولد في جند باليمن ونشأ بمكة، فكان مفتي أهلها ومحدثهم وتوفي فيها سنة١١٤هـ ومولده سنة ٧هـ. ترجمته في طبقات ابن سعد ٣٨٦/٢ ، نكت الهميان ١٩٩ .

مَسجدِ مُزْدَلفة نحو الميل. ومن مسجد مُزدَلفة إلى مسجد عَرَفَة أربعةُ أميال، وهو مسجدٌ كبير على يمينِ الطَّريقِ وأنتَ ذاهبٌ إلى الموقف؛ مستطيل من الشَّرقِ إلى الغَرْبِ. وفي غربيِّه[1] القِبلَةُ، ويعرف بمَسْجِدِ إبراهيم عليه السَّلام، وهو في أوّلِ عرفة، وقلَّ من يعرفه من الحجّاج. لأنّ الموقف وراءه بميل. وهو على وادي عرفة والوادي هو بطن عرفة. ويقال : إنّ حائطَهُ القِبْلِيّ على حدّه ولو سقطَ ماوَقَعَ إلاّ فيه. وتوقّف مالكٌ - رحمه الله - فيمن وقف به حتّى دَفَعَ، كأنّه تشكّك هل هو كلّه [٩٨/ب] في بَطْنِ عَرَفة؟ قال أصبغُ : لايجزئه. وراءه من بَطْنِ عَرَفَة.

[عرفة]

قلت :ولعلَّ هذا فيمن لم يَنوِ الوقوفَ بعد خروجِهِ من المسجد، ويجري فيه الخلافُ المَذْهَبيّ في الحاج يمرُّ بعَرَفَةَ ليلة عَرَفة[2] ولم يَنوِ الوقوف، وأمّا لو نوى الوقوفَ بعد خروجِهِ من المسجد، لوجب أن يصحّ له، إذ لايتقدّر الوقوف بعرفة بمقدار، ويجزىء فيه المرورُ بنيّة. وليس المسجد على حَدِّ الحَرَمِ. بل ذكر الأَزْرَقيّ «أنَّ من حَدِّ الحَرَمِ إلى مَسْجِد عَرَفَة ألف ذراعٍ وست مئة ذراع وخمسة أَذْرُعٍ»[3]. وقد ظنَّ قومٌ الوقوفَ ببطنِ عَرَفَةَ وبطنِ مُحَسِّر لكونهما لَيْسا من عَرَفَةَ ومُزْدَلفة.[4] وقال ذلك اللّخْميُّ وعياض وليس كما توهّموا، ولو كان ذلكَ لم يحتج إلى استثنائها وقال اللّخميُّ : يُستَحبُّ النُّزول بنَمِرة[5] من عرفة، وذكر نزول النّبي ﷺ بها، ولم يعلم أنّ المسجد وراءها إلى

١- في الأصل وط: عرفة. وأثبتّ ماجاء في ت .

٢- ليست في ط.

٣- أخبار مكة ١٨٨/٢.

٤- ليست في ط

٥- نَمِرة: ناحية بعرفة نزل بها النبي ﷺ .

الموقف؛ ونَمِرةُ جبل على اليمين إذا خرجت من مأزمي عرفة، وعليه أنصاب. وتحت الجَبَلِ غارٌ ذكروا أنَّ النَّبيَّ ﷺ نزله « وبين الغارِ والمسجدِ ألفُ ذراعٍ وأحَدَ عَشَر ذراعاً»[1] قاله الأزْرقيُّ. وعرّفني بالمسجدِ شيخٌ حِجَازيٌّ عارِفٌ بالبلاد، سألْتُهُ عَنْهُ وعن حُدودِ عَرَفَةَ ونحن في الموقف، فأشارَ إلى البسيطِ الَّذى أَحاطَتْ به جبالُ الموقف، والَّتي منه يميناً ويَساراً إلى الَّتي فيها هذا المسـجد، والمأزمان من ناحية مكّة. فقال لي: هذا كُلُّهُ عَرَفـة، وهذه الجبال وراءنا هي جبال عرفة. وسألته عن بطن عرفة فقال لي: هو الوادي يصبّ في عَرَفة وهي هاهنا، وأشار إلى اليسار، وسألته عن العلمين المنصوبين على الطّريق في وسط بسيط عَرَفة، فقال لي :إنّما بناهما الأمراء احتياطاً على النَّاس ألاّ يتقدّموا فيخرجوا من عَرَفة قبل غروب الشَّمس، فأوهموهم أنّ العَلَمين حدٌّ عَرَفة وهما في وسطها حتّى يكون من تَعجَّلَ لايخرج من عَرَفة إلاّ بعد الغروب، وسألته عن مسجد عَرَفة، فقال لي : هو مسجدُ الخليلِ عليه السّلام وأشار لي إلى موضعه ودلّني عليه، فلمّا دَفَع[3] النّاس بعد الغروب أسرعت إليه فلم آته إلاّ وقد أشرق ضوء القمر فدخلته [٩٩/أ] وركعت فيه والنّاس على الطّريق بإزائه ولم يعرج أحد إلاّ اثنان أو ثلاثة.

والموقفُ في منتهى بسيط عَرَفة عند جبالها الشَّرقيَّة، وهي وراءه، وموقف النّبي ﷺ على ضَرْس[4] هنالك بأسفل الجبل منقطع عنه، وقد بني عليه مسجد مليح مختصر مُبيَّض، فهو يلوح على بعد وفيه يقف الإمام ؛ إمام الشّافعية، ويقف المالكيّ أسفل منه على اليسار.

١- أخبار مكة: ٢/١٨٩.

٢- ليست في ت.

٣- الانصراف من عرفات إلى المزدلفة يسميه الفقهاء الدفع.

٤- الضّرْسُ: الأرض الخشنة.

واختلف في أصل تسمية عَرَفة(١)، فقيل : لأنَّ جبْريل كان يُري آدمَ المناسكَ فلمّا وصل به إلى عَرَفة، قال له : أعرفْتَ؟ قال : نعم. وقيل : وَصَفَ لهُ جَبَلَها فلما رآه عَرَفَهُ. وقيل :لأنَّ(٢) آدمَ عليهِ السَّلامَ لما أُهبِطَ من الجنَّة وقع بالهِنْد، ووقعت حَوَّاءُ بِجُدّة.فاجتمعا بالمُزْدَلفة، وتعارفا بعَرَفة، وتسمّى عَرَفةُ وعَرَفات، وكلاهما اسم علم، والتَّأنيث(٣) جمع سمّي به فبقي على حاله.

ويكون بعَرَفَة سوقٌ كبيرةٌ يُجلَب إليها كُلُّ شيءٍ ويكثُرُ بها الطَّعامُ، يأتي به قومٌ من ناحيةِ اليَمَنِ يقال لهم :«السَّرو» جُفاةٌ، بداةٌ، مفرطو البَداوَة، عَرَبُ الألسنة(٤)، أُدُمُ الألوانِ، نحافُ الأبدان، أكثرُهُم يجلب على ظَهْرِه، والعُرْيُ فيهم فاشٍ إلاّ السّترة، ولهم ألفاظٌ حوشيَّةٌ(٥)، والدّينارُ في لُغَتِهمْ أربعةُ دراهم، وقد ذكر ابن جُبَير(٦) أشياء من جهلهم وعبثهم(٧) في صلاتهم وكانوا إذ ذاك يصلّون، وأمّا الآن فإنّما يقصدونَ السّوقَ بعَرَفةِ ومِنى(٨) ثم ينصرفونَ من هُنالِكَ إلى بلادهمْ.

وعددُ الأميالِ من مكّةَ إلى عَرَفة اثنا(٩) عَشَرَ ميلاً لاتزيدُ ولاتنقص، قاله الأزْرقيّ.(١٠) وكانت الوقفةَ في هذا العامِ يوم الأربعاء، وقد سلّمها اللهُ من الخلافِ، وهو يقعُ في ذلك كثيراً، وكان الاختلافُ قد وقع فيها في العام الذي

١- انظر الأقوال في تسمية عرفة في مشارق الأنوار ٢:١٠٧- معجم البلدان ٤/١٠٤-١٠٥.

٢- في ت وط: إن.

٣- في ط : والثاني.

٤- في ت: الألسن.

٥- حوشي الكلام: غريبه.

٦- رحلة ابن جبير ١١٠-١١٣.

٧- الكلمة مطموسة في الأصل.

٨- ليست في ط.

٩- في الأصل وط: اثني وهو وهم والصواب ماأثبتناه.

١٠-أخبار مكة ٢/١٩٠.

قبلَهَ وهو عامُ ثمانيةٍ[1] وثمانينَ، حتّى افترق الموسم[2] فِرْقَتَين، فوقفَ بعضُهُمْ - وهم أكثر المَغَاربة - يوم الجمعة، ووقف سائر النَّاس يوم السّبت وهو كانَ الوقفة، ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ قد أغراهم الجَهْلُ بوَقْفةِ الجمعة، وأغواهم [٩٩/ب] الشّيطان بها،حتّى صاروا إذا وجدوا أقلَّ ذريعةٍ، وأضعَفَ سببٍ إلى تغييرِ الوَقْفَة، فعلوا ذلك ليكون وقوفهم يوم الجمعة، وإن كان[3] في غير[4] موضعِه، فيبطلون حجّهُمْ رِياءً وسُمْعَةً[5]، وكنتُ أتلمّحُ لهمْ عذراً، وأقولُ: لعلّ فيهم من رأى الهِلالَ تحسيناً للظّـنِّ بهِمْ، مع علِمي بأنّ النَّاسَ إنّما ضحّوا في ذلك العام في الغرب والشّرق[6]، وفي كلِّ أرضٍ يومَ الأحَدِ ولمْ يَقَع في ذلكَ خلافٌ إلاّ بعَرَفَةَ خاصَّةً، وما قَطع اعتذاري لهم إلاّ أن عَرَّفَني الحجّاج غيرهم بأنَّهُمْ لم يَدَّعوا [7]رؤيةَ الهلالِ، وأنَّ من يُقتدى به فيهم قد سُئلوا عن ذلك فلم يدَّعوا[7] رؤيتَهُ، وإنَّما زعموا أنَّهم علموا ذلك من غير طريق الرُّؤيةِ، تسوّراً على الجَهْلِ وتكلّفاً للفضول. وهذه العلّة في هذه القضيَّة قديمة، شكاها[8] ابنُ جُبيرٍ في رِحْلَتِهِ[9] وحكاها عَلَى نحوِ مااتّفق في هذه سواء. وكذلك حكى من جَهْلهم وضَلالِهم ماهو مستّمرٌ إلى الآن في جَبَل ثَور[10] في الغَارِ الّذي دَخَلَهُ

١- ليست في ط.
٢- في ط : الناس.
٣- في ط: كانوا.
٤- ليست في ت.
٥- يقال: فعل ذلك رياء وسُمعةً: أي ليراه الناس ويسمعوا به.
٦- في ت: الشرق والغرب.
٧-٧ - سقطت من ط.
٨- في ت : حكاها.
٩- رحلة ابن جبير ١٤٦.
١٠- يقع بأسفل مكة، وهذا الغار مشهور عند الناس، ووسّع بابه الضّيق لانحباس بعض الناس فيه حوالي سنة ٨٠٠هـ . انظر العقد الثمين ١٠١/١ .

رسـولُ اللّه ﷺ هو وأبو بكر حين هاجرا من مكّة، وذلك أنّه غارٌ لهُ بابان في حجر صلْد، وأحدُهُما ضَيّقٌ أقلُّ من شبرين فيتكلَّفون النُّفوذَ فيه، وشاع[١] من جَهْلِهِمْ أنّ من لم ينفذ فيه فهو وَلَدُ زنى، وتقرَّر ذلك في مُعتقدهِمْ الفَاسِد، فلا تزالُ الفضيحةُ تعلَقَ[٢] بهم من ذلك، والعقلاء منهم يتجنَّبونَهُ، لأنّ من غصَّ فيه ولم يَنفَذ منهُ،يحكمونَ عليهِ بما تقدّم.[٣]

ولم أَصِلْ إلى جَبَلِ ثورٍ لأنّه على مسافةِ يومٍ أو نحوِها في جنُوب مكّةَ، ولايقدرُ على رؤيته إلاّ من جاورَ بمكّةَ[٤]، وكنتُ عازماً على المجاورةِ بها حَسْبَما تقدّم، فتجهزّتُ للمقامِ، واكتريتُ الدَّارَ، وصرفتُ بعضَ من كان معي ليرجعوا إلى الغربِ، وحصلتُ أسبابي كلّها بمكّةَ، وبقيت مع الرّكْبِ منتظراً لخروجِ السّكَّان في المنزلِ الّذي اكتريتُه، وهم بعضُ الفضلاء من أهلِ تونسَ، سكنوه مجاورين بمكّةَ، وعزموا على الرُّجوع إلى بلدهم[٥] فتجافيتُ عن التّضييقِ عليهم في السُّكنى معهم، وانتظرت [١٠٠/أ] خروجَهُم حتّى[٦] قضى اللّه بفِتْنَةٍ وقعت بين الرَّكبِ وبين صاحب مكَّة بأسباب سيرّتها المقادير؛ فتقاتلوا في اليوم الأوّل وأنا في منزل الرَّكب قد ضاقَ صَدْري لذلك، ثم قضى اللّه أنْ تحاجزوا، ولم يقَعْ بينهم قتيلٌ، فَسُررتُ بذلك فلمَّا كان من الغَد بعثتُ ببعضِ أسبابٍ بقيت معي إلى مكّةَ؛ فما عُدّيَ[٧] بها الباب حتّى وقَعَتْ رَجَّةٌ[٨]

١- في ت و ط : وذاع.
٢- في ط : تتعلّق.
٣- ذكر هذا ابن جبير في رحلته ٩٤.
٤- في الأصل مكة.
٥- في ت: بلادهم . وتجافيت: تباعدتُ.
٦- في ت: ثم.
٧- عدا المكان وتعدّاه: تجاوزه.
٨- رَجّةُ القوم: اضطرابهم، واختلاط أصواتهم.

في الرَّكْبِ نَفَرَ لها الكبيرُ والصَّغيرُ إلى قتالِ أهلِ مكّةَ، بأمرِ[1] صاحبِ الرَّكْبِ، فأتاها أميرُ الرّكب الشّآميّ من الثَّنيَّةِ إلى باب المَعْلاة، وأتاها أهلُ مِصْرَ من بابِ الشُّبَيكة؛ فما زال القتالُ بينهم متطايرَ الشّرارِ حتَّى قُتِلَ من أهلِ مَكَّةَ جملةٌ؛ [2]وقُتِلَ أشخاصٌ من الرَّكْبِ[2] ودخَلَ أهلُ الشَّام مكَّة، حتّى انتهوا إلى المسجدِ الحرامِ ونهبوا[3] بين الصَّفا والمَرْوة، ثم دافَعَهمْ أهلِ مكة حتَّى أخرجوهم منها؛ وقتل بها أشخاص من الحجَّاج، ثم دام القتالُ بينَهم خارجَ البَلَدِ إلى قريبٍ منَ الظُّهْرِ،فولَّى أمير الرّكبِ عنهم،وجاءَ فأمرَ بالرّحيل، فأجفل[4] النّاس[5]، وحطّم بعضهم بعضاً، ورحلوا على أوفى مايكون من الانزعاج، فلم يمكنْ إلاّ الإجفالُ معهم خوفاً على النُّفوس، وعلى بعض نَفَقةٍ كانت معَنَا، وانصرفتُ آيساً ممَّا كان لي بمكّة، ثم مَنّ اللّه بِجبْرٍ[6] أكثرُهُ فضلاً منه ومِنّةً، وذلك أنّ هذا الحال صادَفَ بمكَّةَ ممَّن نزَل بها من الحجَّاج كثيراً نحو أربعةِ آلاف راحلة، فلمَّا أجفل الرّكب بقوا بمكَّة لايدرونَ مايُصْنَعُ بهم؛ وعَزَمَ صاحب مَكَّةَ على أخذِهم؛ وسبَّبَ لهم من عظيمَ أَلْطافهِ أن كان بمكَّةَ شخصٌ من أتراكِ مِصْرَ كان يخدمُ أميراً من أمرائها؛ فلما مات الملك المنصور[7] أخذهُ ولدَهُ المستخلفُ لاتّهامِهِ إيَّاهُ، ثم قَتَلَه، فخاف الّذي كان

١- في ط: فأمر وهو تحريف.

٢-٢- في ت: قتل من الركب أشخاص.

٣- النّهْبُ : ضرب من الركض.

٤- أجفل القوم: هربوا مسرعين.

٥- ليست في ط.

٦- في ت و ط: بخير.

٧- هو الملك المنصور قلاوون سلفت ترجمته في الصفحة ٣٥١ .

يخدمهُ، ففرّ ولحق بمكّة في تلكَ الأيَّامِ فجعلَهُ اللّٰه سبباً لراحةِ أولئك المساكين المنقطعين عن الرَّكْبِ، وذلك أنَّه[1] لمّا رأى صاحبَ مكّةَ عازماً على أخذهِمْ قالَ له : فيمَ تأخذهم؟ فقال له: في حقوقٍ وجَبَتْ لي على مَلِكِ مِصْرَ، ولي حظٌّ في بيتِ المالِ مَنَعَنيه أعواماً، ولفّق مطالب من خرافاتٍ فما زالَ به[2] [١٠٠/ب] التّركيُّ حتّى فداهم منه بمالٍ عظيمٍ، وسرَّحَهمْ لم يؤخَذْ لهم شيءٌ، وصَحِبَهُمْ التُركيُّ حتّى أوصلَهم أمير الرَّكب في خُلَيْص، وكان الواحد من التُّونسيينَ الّذين سكنوا الدَّارَ الّتي اكتريتها قد تخلّف بمكَّةَ؛ فلمّا أُذن لهم في الخروج باعَ أكثرَ القَمْحِ الَّذي تركته بمكّةَ، وجاءني بثمنه، وبالدابّةِ الّتي ركبتُها، وتركَ بها من الأسباب ماعجزِ عن النَّظرِ لهُ،نَفَعَهُ اللّٰه بجميل قصدهِ ونفعنا بهِ وبأمثاله من الصَّالحين بمنّهِ وكرمه.

١- في ت: لأنه.

٢- ليست في ط.

- فصل فقهيّ مختصر في المناسك -

وهي جمع مَنْسَك بفتح الميم والسّين وبفتح الميم وكسرِ السّين، وهو المتعبّد. والنُّسك : العبادة. واختصَّ في العُرْف بمعالم الحجِّ ومتعبّداته. والحَجُّ: القَصْدُ[1]، وخصّه الشّرع بقصد البيت الحرام لأعمال مخصوصة، في وقت مخصوص، وهو فَرْضٌ على الأعيان، وأحد قواعد الإسلام بإجماعٍ، مرّةً في العمر، واختُلِفَ في العُمرة، فقيل : واجبة، وقيلَ : سُنّةٌ، وعَمَلُها بَعضُ عَمَلِ الحَجِّ، وهو الإحرام، وشرطه فيها أن يكون من الحلّ؛ والطّواف؛ والسَّعي؛ والحلاق أو التّقصير؛ والعمل فيها كالعمل في الحجّ سواء، ولاتختصّ[2] بوقت، إلاّ أن مالكاً - رحمه الله - كره للحاجّ أن يعتمر في أيّام منى، وكره الاعتمار مرّتين في السّنة.

[شروط الحج]

وأما الحجّ فشروط وجوبِه : العَقْلُ، والبلوغُ، والحرّية، والاستطاعةُ واختلف قوله : هل هو على الفَورِ أو على التّراخي مالم يخشَ الفوتَ؟ وعليه يأتي الخلاف في اعتبار رضا الأبوين.[3] وقول ابن بشير : إنّ اعتبار رضا الأبوين لايدلُّ على التّراخي، وإنّما هو من باب تزاحُمِ الفُروضِ خطأ؛ إذْ «لاطاعَةَ لِمَخْلوقٍ في مَعْصِيةِ الخَالِقِ»[4] كما لاحقَّ لهما في سائر الفروضِ.

١- انظر اللسان حجج.

٢- في ت و ط: ولايختص.

٣- انظر بداية المجتهد : ١/٢٣٥.

٤- أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده ١/٤٠٩و ٥/٦٦ . والحاكم في المستدرك ٣/٢٣ بخلاف في اللّفظ، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٥/٤٦٠، والجامع الصغير للسيوطي ٢/٢٠٣، وكنز العمال ٥/٧٢٩ و٧٩٧ و ٦/٦٦، وفيض القدير ٦/٤٣٢.

ومن يأمر من الأبوين بترك فريضة من فرائض الله فحقّهُ العقوقُ، لا الطّاعةُ. ولكنّه جاء قول مالك - رحمه الله - فيمن منعه أبواه ،ينتظرُ العامَ بعد العامِ، على أنَّهُ لم يتعيّنْ عليهِ التوجّهَ كما قال اللّخميّ. وعليه يدلُّ فعْلُ رسولِ الله ﷺ، [١٠١/آ] فإنَّهُ لم يحجَّ في العام الّذي فُرِضَ فيه الحجّ، ولو كانَ على الفورِ ماأخّرَهُ عنه؟ والاستطاعةُ : القُدْرَةُ على الوُصولِ من غير مشقّةٍ خارجةٍ عن المعتاد. وسُئِل مالك أهي الزّادُ والرّاحلةُ،فقال :[1] لا والله، إنَّما ذلك على قَدْرِ طاقةِ النَّاسِ، قد يجدُ الرّجلُ الزّادَ والرَّاحلَةَ، ولايقوى[2] على المسيرِ[3]، وآخر يقوى أن يمشي[4] على رجليه، ورُبَّ صغير أجلد من كبير، ولاشيء أبين ممَّا قال الله عزّ وجلّ :﴿مَنِ اسْتَطاعَ إليْهِ سَبيلاً﴾[5] واحتجّ اللّخميُّ لذلك[6] بقوله تعالى: ﴿يَأْتوكَ رِجالاً وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ﴾[7] وقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إبْراهيمَ﴾[8]، واختلف المذهب في السّائل إذا كان يُعطى هل يجب عليه؟ ومحمله على من جَرَتْ عادتُه بذلك.

وقال ابن القاسمِ فيمن له ضَيْعة[9]: يبيعها ويترك أولاده في الصَّدَقة، وقيل : إلاّ أن يخاف عليهم الضَّيْعةَ[10]، وهو تفسير، ويجب على من وراء

١- قول الإمام مالك في بداية المجتهد ٣٣/١.

٢- في ت : ولايقدر.

٣- في ط: على السير.

٤- في ط: أن يسير.

٥- سورة آل عمران ٩٧.

٦- ليست في ت.

٧- سورة الحج ٢٧.

٨- سورة النحل ١٢٣.

٩- الضَّيْعَةُ: الأرض المُغلّةُ.

١٠- الضَّيعةُ : الإهمال.

البحر ركوبه إليه إذا كان الغالب السَّلامة، ولاتُعطَّل فيه الصَّلاة. وقال مالك : أيركبُ حيث لايُصلّي، الويل لمن ترك الصَّلاة. ولايجب ركوبُهُ على المرأةِ لأنَّها تنكشِفُ، وفي كتاب مُحمّد : ولا المشيُ إذا بَعُدت المسافةُ وإن قويت عليه، لأنَّ مشْيَها عَورة، واستحسنَهُ اللَّخْميّ في ذات المنظر بخلاف من لايُؤْبَهُ لها، ولاتخرج إليه إلاّ مع زَوْجٍ، أوذي مَحْرَمٍ، أو رُفْقَةٍ مأمونةٍ، ويسقط وجوبُ الحجّ بالخوفِ على النَّفْسِ وعلى المال، واختُلِفَ في أخذ مالا يجحف.

[أركان الحج]

وأركان الحجّ الَّتي لابدَّ من الإتيان بها[1] أربعة وهي :الإحرام، والسَّعي[2]، والوقوف بعرفة[3]، وطواف الإفاضة[4]. وألحق بها عبدالملك جمرة العقبة[5]. وحكى عنه ابن رُشْد زيادة الوقوف بالمَشْعر الحرام[6]، وهو غريب من قوله. وقد حكى عنه اللَّخْميُّ خلافه، وحكى ركنيّته من غير المذهب عن

١- في ت: لابد منها.

٢- السَّعي: يكون بالسير سبعة أشواط بين الصفا والمروة مع الابتداء بالصفا، وقد اختلفت المذاهب في حكم وجوبه. انظر بداية المجتهد ١/٢٥١-٢٥٢ .

٣- الوقوف بعرفة يكون بعد الغروب وهو من أركان الحّج، لقوله ﷺ : « الحجُّ عرفات ». انظر بداية المجتهد ١/٢٥٣- ٢٥٤ .

٤- طواف الإفاضة: يقع بعد رمي جمرة العقبة يوم النحر، وقد أجمع العلماء على وجوبه، وقالوا بفوات الحج بفواته، وهو المعني بقوله تعالى : ﴿**ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم، وليطوّفوا بالبيت العتيق**﴾ سورة الحج ٢٩. انظر بداية المجتهد ١/٢٥١ .

٥- جمرة العقبة: في آخر منى مما يلي مكة، وليست العقبة التي تنسب إليها الجمرة من منى. انظر معجم ماستعجم ١/٣٩٢ .

٦- الوقوف بالمشعر الحرام: المراد بالمشعر الحرام الذي بمزدلفة، وهو الذي يستحب للحاج الوقوف عنده للدعاء والذكر غداة النحر.

الشَّعْبيّ والنَّخَعيّ وصوَّبه. ويفوتُ الإحرامُ بفواتِ الوقوفِ، وذلك بطلوع[1] الفجر يومَ النَّحْرِ، ولايفوتُ السَّعيُ ولا الطّوافُ، ويرجعُ إليهما من بلده، والإحرامُ نيّةُ التزام حكم الحج [١٠١/ب] أو العُمْرَة مع الشُّروعِ في العَمَلِ بالتَّلبيةِ، أو المَشْيِ، لابتقليد الهَدْي ونحوه. وقيل: التَّلبية كتكبيرة الإحرام. وقيل: ينعقد بمجرّد النِّـيَّة، وضعِّف. وليس عليه أن يسمَّى حجّاً ولاعمرة بلفظه، وكرهه في المدوّنة[2]، وقد بوّب البخاريّ على جوازه وذكر حديث جابر[3]: «قدمنا مع رسول الله ﷺ ونحنُ نقولُ لبيكَ بحجٍّ،فأمرَنا أنْ نجعلَها عُمرةً»[4].

ومن سُنّةِ الإحرامِ كونُهُ بعقب الغُسْلِ، والصّلاة. وأغسال الحجِّ، ثلاثة : للإحرام، ولدخول مكّة، وللرّواح إلى الموقف بعَرَفة. واستحبّه[5] بعضهم للمناسك كلّها،ولايكون التدلّك إلاّ في الأوّل.

قالوا: وللإحرام ميقاتان؛ زمانيّ، ومكانيّ. فالزَّمانيُّ شوَّالُ وذو القعدة وعشر ذي الحجّة،وقيل[6] :كلّه. وقيل: إلى آخر أيامِ منًى، وفائدة ذلك في وجوبِ الدّم عن تأخير الإفاضةِ والحِلاق، ومن قدَّم الإحرام على الزَّمانيِّ كُرِه

١- في ت و ط : بعد طلوع .

٢- المدوّنه لعبد الرحمن بن القاسم رواها عن الإمام مالك، وهي من أجلّ كتب فقه المالكيه، وهو مطبوع.

٣- هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجي الأنصاري، صحابي من المكثرين في الرواية عن النبي له في البخاري ومسلم ١٥٤٠ حديثاً توفي سنة ٧٨هـ . له ترجمة الإصابة ٢١٤/١، والاستيعاب ٢٢٢/١-٢٢٣ .

٤- أخرجه البخاري في الحج باب من لبى بالحج وسمّاه رقم ١٥٧٠-٤٣٢/٣- ومسلم في الحج ٨٨٥/٢-٨٨٦ وابن ماجة رقم ٢٩٨٠ كتاب الحج باب فسخ الحج. وابن حنبل ١٤٨/٣-٢٦٦-٣٦٥ من طرق مختلفة.

٥- في ت: واستحسنه.

٦- قاله مالك وقوله في بداية المجتهد ٢٣٨/١.

له، وانعقد على المشهور، وإنَّما لم يكنْ شرطاً في صحته كوقتِ الصَّلاة، لأنَّ هذه الآيَةَ إذا نُظِمت بالَّتي قبلها على ماتقتضيه الحاجة إلى بيان الأولى، كان ذكر الأشهر بياناً لمعنى التّمتّع، إذ لو لم تتعيّن المدّة الَّتي للحجّ، لم يفهم معنى التَّمتّع، فكان المعنى مدّة الحجّ أشهرٌ مَعلوماتٌ أي المدّة الّتي إذا وقعت[1] فيها العمرة صحّ التّمتّع. فالآية إنّما جاءت لبيان اختصاص الأشهر بالحجّ، لا لاختصاص الحجّ بالأشهر ومن خصّه بها احتاج إلى دليل، ولايجده. وأمَّا الأية فقد ظهر معناها، وبه يستقيم حمل لفظ الحجّ على وجههَ أي المدَّة الّتي هي حمى الحجّ، لا تطلق فيها العمرة أشهر معلومات، ولا يدلّ كونها حِمى الحجّ لايكون في غيرها. وعلى تأويلهم يكون لفظ الحجّ مَصْروفاً عن وجهه إلى مَعنى الإحرام، إذ لايصحُّ إتمامُ الحجّ وإكمالُهُ إلاّ في الشَّهْرِ الثَّالث، وأمّا الّذي يصحُّ في الأشهر كلّها، فابتداؤه خاصة،فالتّقديرُ على قولهم :وقتُ ابتداءِ الحجّ أشهر معلومات، وعلى قولنا: حمى الحجّ أشهر معلومات، والكلامُ كلّما قَلَّ فيه الإضمارُ كانَ أحسنَ، لا سيما وآيةُ التَّمتَّع مطالبة بالبيان[2] [١٠٢/أ] ومقتضية لارتباطها بالثّانية كما تقدَّم. فتأويلُنا يترجّحُ بالوجهين مع أنّه يكفي في إسقاطهِ دَعواهم مجرّد الاحتمالِ في معنى الآية، ويرجعُ هذا إلى أنَّ تسميتَها ميقاتاً مجازٌ. وحقيقةُ الزّمانيّ يوم عَرَفة فتدبّرْهُ والله الموفّق.

١- في الأصل: أوقعت.

٢- في ت : للبيان.

والمكانيُّ خمسة[1]: ذو الحُلَيْفة لأهل المدينة، والجُحْفَةُ لأهل الشَّام، ومِصر والمَغْرب، ويَلَمْلَم[2] لأهل اليمن، وقَرَن المنازلِ لأهل نَجْدٍ، وذات عِرْق لأهل العراق، ويكره[3] أيضاً تقديم الإحرام قبلها، وينعقد، وقيل: هو جائز لأنّ التّوقيت تأكيد لاحترام البيت ألاّ يدنوَ منه إلاّ مُحرم. فكلّما كان الإحرام[4] من موضع أبعد كان الاحترام أكمل، ولذلك أحرم الصَّحابة وغيرهم قبل المواقيت. وقيل : يُكرَهُ بقرب الميقات بخلاف بُعده، وقد مضى ذكره، ومن تَعدّى الميقات مُريداً للحجّ أو العمرة ولم يُحرمْ فَعليه دم.

ومن سُنة الإحرامِ التَّلبيةُ[5] دُبُر الصّلوات، وعلى كلّ شَرَف، وبطن وادٍ، وعند لقاء الرِّفاق، ولا يُلِحُّ ولايرفع به صوته في المساجد إلاّ[6] المسجد الحرام ومسجد الخَيْف، والمساجد التّي بين مكّة والمدينة، لأنّها غير معمورة. ومبدؤها إذا استوى على راحلته؛ وللرّاجل[7] إذا شرع في المشي، ولايلبّي في الطّواف، ومنتهاها الرّواح إلى الموقف، وقيل رمي الجَمْرَةِ، ويقطعها المعتمر إذا دخل الحَرَم، إلاّ أن يكون إحرامه من آخر الحِلّ فحتّى يدخلَ مكّة، وقيل حتّى يشرع في الطّواف.

١- انظر تفصيل ذلك في بداية المجتهد ٢٣٧/١.

٢- يَلَمْلَمُ: موضع على ليلتين من مكة وهو ميقات أهل اليمن، قيل هو موضع على مرحلتين من مكة. انظر مسالك الأبصار ١٢٢ . وهو طريق الساحل الشمالي الجنوبي من الحجاز ويسمى هذا الجبل في هذا اليوم «السعدية» . انظر أخبار مكة ٣١٠/٢ .

٣- في ط: ويكون.

٤- في ط: للإحرام.

٥- انظر المناسك : ٤٢٩ وبداية المجتهد ٢٤٧/١.

٦- زاد في ت: إلاّ في.

٧- في ط: وللراحل بالمهملة.

ويجتنبُ المُحْرِمِ : النِّساء، والطِّيب[1]، والصّيد، وقتل القمل، وحلق الشّعر[2] ونتفه، وقصّ الأظفار[2]، وغسل الوسخ، ولبس المخيط، والخفَّين للرِّجْل، والقفّازين لهما، والمصبوغ بالوَرْسِ[3] أوبالزّعْفَرانِ[4]، وتغطية الوجه والرّأس، وأكل ماصيدَ لأجله، وعقد النّكاح، والخطبة لنفسه أوغيره.

ويُستَحبُّ أن يَدْخُلَ مكّة من الثنيَّةِ العُليا. ويخرج من السُّفلى، والمسجد من باب بني شَيْبَةَ، ولايركع بل يبدأ بالحَجَرِ الأسْوَدِ فيستلمه بفيهِ إن قَدر، وإلاّ وضَعَ يمينَهُ عليهِ ثم يضعُها [١٠٢/ب] على فيهِ بلا تقبيل، فإنْ كَثُرَ الزِّحامُ كَبَّرَ بإزائهِ ومضى في طوافِهِ والبيتُ على اليسار - سبعة أشواطٍ : ثلاثةٌ خَبَباً[5]، ثم أربعةٌ مشياً[6]، ولاخَببَ في غير طوافِ القدومِ، ولا على النِّساءِ، لايُقبّلُ اليمانيّ، وإنّما يضعُ يدَهُ عليهِ ثمَّ على فيهِ، ثمَّ يصنع بالأسْوَدِ كما تقدم، وكذلك في كلِّ شوط، ويطوف من وراء الحِجْر، ولا يركب إلاّ من علَّة، ولايطوف من وراء زَمْزَم، ولافي السّقائف، ولامُحدثاً، وأجاز[7] الطّوافَ بخفّيه ونَعْلَيه، ولايدخل بهما البيت، واختلف عنه في الحجر، ولايُكْثِرُ قراءةَ القرآن، وليُسرَّ بها، ولايُنشدُ شعراً، ولايتكلّم إلاّ لحاجةٍ، ولايُكبّر[8]، ولايُلبّي،

١- إن تطيّب ناسياً فلا شيء عليه، وإن تطيّب عامداً فعليه الفدية. انظر المناسك ٤٣٠ .

٢- إن احتاج إلى حلق رأسه فحلقه فعليه الفدية . انظر المناسك ٤٢٩ ، وكذلك إذا قصّ أظفاره فعليه فدية والعمد والخطأ فيهما سواء. انظر المناسك ٤٣٠ .

٣- الورسُ: نبت أصفر يكون باليمن تُتّخذ منه الغُمرة للوجه.

٤- الزعفران: صبغ معروف.

٥- الخَبَبُ: ضرب من العدو.

٦- بداية المجتهد ٢٤٨/١.

٧- في ت: واجيز.

٨- ليست في ت.

ولْيقبِلْ على الذِّكر سراً، ولايشرب إلاّ من ضرورة، ولايتخلّل الطّواف بشغل أو استراحة إلاّ ماقلّ. وإن أقيمت عليه الصّلاة في آخر أشواطه أتمّها، وإلاّ دَخل معهم ثم بنى، فإذا فرغ صلّى خلف المقام ركعتين، ويُستَحبُّ إن جاء في غير وقت الصّلاة ألاّ يدخل حتّى تحلّ، فإن هو دخل وطاف أخَّرَ الرّكعتين، فإن انتقض وضوؤه توضّأ، وأعادَ الطّوافَ، وصلّى الرّكعتين، ولايجزىء الطّواف منكساً[1] ولافي السّبعة الأذرع[2] الّتي تلي الكعبةَ من الحِجْر، ولامن وراء زَمْزَمَ، ولابغير وضوء على المشهور، وهو في هذا كلّه كمَن لم يطُفْ. ومن رَكِبَ مختاراً أعاد الطّوافَ ماكان بمكّة، فإن خرج إلى بلده أهدى وأجزأه؛ وكذلك إن ترك الرَّمَل أو الرّكعتين، يركعهما حيث هو ويهدي. وهذا حكم طواف القدوم. وإن وصل به السَّعي، فإن لم يوصل به فالدّم يجزيء[3] عنه رأساً، ولايجب على من أحرم من مكّة، ولاعلى المراهق.

وأمّا السّعيُ[4] : فهو الطّواف بين الصّفا والمَرْوَة، والخَبَبُ في بطن المسيل بين العَلَمين مشروع للرّجال، وأصله ماتقدَّم في حديث ابن عَبَّاس من سَعْي هاجَر،[5] وفي البخاريّ عنه أيضاً : « إنّما سعى رسول الله ﷺ في الطّوافِ بالبيتِ، وبين الصّفا والمَرْوَة ليُريَ المُشركينَ قُوّتَهُ»[6] ومحمل[7]

١- في ط: منسكاً.

٢- في ت: أذرع.

٣- في ت: يجزئه.

٤- بداية المجتهد ١/٢٥١-٢٥٢.

٥- سلف الحديث في الصفحة

٦- أخرجه في الحجّ، باب ماجاء في السعي بين الصفا والمروة رقم ١٦٤٩-٣/٥٠٢ وابن حنبل ١/٢٥٥ بخلاف اللّفظ، ومسلم في كتاب الحج استحباب الرمل في الطواف والعمرة رقم٢٤١.

٧- في ط: ومحل وهو تحريف.

الحديثين على أن أصله قبل الإسلام سَعيُ [١٠٣/أ] هاجرَ، وإنَّ أصله في الإسلام مراغمة المشركين في قولهمْ: «قد وَهَنَتْهم حُمَّى يثرِب» ولم يتقدّم الأمر به قبل ذلك، ولايكون السَّعيُ إلاّ بإثر طَواف واجب، إمّا طواف القدوم، وإمّا طواف الإفاضة لمن لم يطف للقدوم.

وإذا فرغ الطّائف من ركعتي الطّواف، استلم الحَجَرَ إنْ قدر، ثم يخرج من باب الصَّفا فيبدأ به، ويصعدُ عليه ثمَّ[1] يذكر الله ويدعو، وضَعَّف مالك رفع اليدين إلاّ في افتتاح الصّلاة. وقال اللَّخْميّ : ذلك واسعٌ يرفعهما مبسوطتين وبطونهما إلى السَّماء؛ وهو الرَّغَبُ، أو إلى الأرض وهو الرَّهَبُ. ولاينصبهما كما يفعل في الصّلاة.

وقال ابنُ حبيب :إذا دعا رَفَعَهما بالرَّغَب، وإذا تضَّرع رفعهما بالرَّهَب، ثم ينحدر إلى المَرْوَة، ويفعل بها كذلك، ثم يرجع إلى الصَّفا سبعة أشواط فإن بدأ بالمَرْوَة لم يعتَدَّ بالشّوط الأوَّل، ورجع فختم بها، وكونه ماشياً متوضِّئاً أفضل، وفي الموطَّأ عن عُروة بن الزُّبير « أنَّه كان إذا رآهم يركبونَ فيه ينهاهُمْ أَشَدَّ النَّهي، فيعتلُّون لَهُ بالمَرضِ حَياءً منه، فيقول : لقد خابَ هؤلاءِ وخَسِروا »[2]. ومن نسيِ السَّعيَ أوشوطاً منه، أوسعى قبل أن يطوف بالبيت فليرجع إليه من بلاده[3]، فإن أصابَ النّساءَ طاف وسعى، ثم اعتمر وأهدى، وعَن مالك : يهدي ولايرجع، وهذا جنوح إلى القول بأنّه ليس بِرُكن.

١- ليست في ط.

٢- الموطأ : ٢٥٨.

٣- المدونة ٣١٩/١.

وأمّا الوقوفَ بعَرَفة[1]: فالخروج إليه يومَ التَّرْوِية ثامنَ ذي الحجّة، سمي بذلك لأنّهم كانوا يحملون فيه الماء[2] من مكّة لسقي الحجّاج[3] بمنى، ويقولون :رَوِي الحاجُ. يخرجُون من مكّة بقدر مايَصلون إلى منى مع صَلاة الظُّهر، فيصلّونَ بها الظّهر، والعَصْرَ، والمغربَ، والعشاءَ، والصّبح. ثم يغدونَ بعد طلوعِ الشَّمْسِ إلى عرَفة. وقد تقدّم أنّ العادةَ اليومَ الإدْلاجُ[4] إليها، وبها يصلّون[5] الصّبح، ولم يرَ مالك على من لم يبِتْ في هذه اللّيلة دَماً؛ فإذا زالت الشّمس فليجمعْ مع النَّاسِ بين الظُّهْرِ والعَصْرِ، وليغتسلْ في موضعِهِ قبل الرّواحِ ويجزيء في [١٠٢/ب] الوقوف حيث كان من عَرَفة إلاّ بطنَ عَرَفة، وقد مضى ذكره.

والوقوف مع الإمام وبالوضوء أفضل. وكره مالك تَرْكَ الموقِفِ والوقوفَ على جبال عَرَفة وقال :« الموقفُ كُلُّه سَواء »[6] وقد مضى ذكر توقّفه فيمن وقف بمسجد عرفه.

والوقوف راكباً أفضل للقادر، وهو السُّنّة، قال اللَّخْميّ : إلاّ أن يضرّ بالدّواب[7] للنّهي أن تُتَّخَذ ظهورها كراسي. ويقف الرّاجل فإذا ملّ فلا بأس أن يستريحَ بالقعود، واختلف قول مالك في المارّ بعَرَفة في وقت الوقوف ولم

١- انظر تفصيل ذلك في بداية المجتهد ٢٥٣/١-٢٥٥.

٢- في ت و ط : الماء فيه.

٣- في ت و ط : الحاج.

٤- الإدلاج: السير في الليل.

٥- في ت: يطوف : وهو تصحيف.

٦- الموطأ : ٢٦٨.

٧- وقاله مالك في الموطأ ٢٦٩.

يَنْوِه، هل يجزئه؟ ووقوف النَّهار يوم عَرَفة دون اللَّيل يجزىء عند جميع العلماء، إلاّ مالكاً رحمه الله فإنّه قال :« الفَرْضُ وقوفُ اللّيلِ »(١). وله في كتاب ابن حبيب فيمن أُغمي عليه بعد الزّوال، واتّصل إغماؤه حتَّى دفع به، قال :يجزئه الوقوف به، ولايرجع ثانية إن أفاق من ليلته وهذا منه مثل قول الجماعة، قاله الَّلخميّ وصحَّحه؛ وذكر حديث عُروةَ بنِ مُضرِّس(٢) وفيه: «مَنْ صلَّى صَلاَتَنا هذه، وَوَقَفَ مَعَنا حتَّى نَدْفَعَ، وقد وقفَ قبلَ ذلكَ بعَرَفةَ ليلاً أو نهاراً، فَقَدْ تَمَّ حجُّهُ، وقضى تَفَثَهُ»(٣). وقال : وهو حديث صحيح، قلت: أخرجه أبو داود، والنّسائيّ، والتِّرمذيّ، والدّارقطني، وألزمَ البخاريَّ ومسلماً إخراجه. واختلف إذا أخطأ النَّاس العدد فوقفوا يوم النّحر، والمشهور الإجزاء وعليه فقهاء الأمصار. ورجح اللّخْميّ عدم الإجزاء، ولو وقفوا اليوم الثَّامن لم يُجْزِهم على المشهور. وحكى أبو عُمَربن عبدالبرّ لابن القاسم ولسَحْنون قَوْلاً بالإجزاء. قال أبو عُمَر :« وهذا الخلاف في حقِّ الجماعة من (٤أهل الموسم. فأمَّا الواحد فلا مدخل له في ذلك وإن أخطأ الوقفة لم يجزه لأنَّ اجتهاد الواحد بخلاف اجتهاد الجماعة٤)، واستدلّ بقوله ﷺ :«أضحاكُمْ يومَ تُضحوّنَ،

١- الموطأ : ٢٧٠.

٢- هو عروة بن مضرِّس بن أوس بن حارثة الطائي: صحابي كان من سادة قومه، شارك في حروب الردّة مع خالد بن الوليد . ترجمته في الإصابة ٤٧١/٢، تجريد أسماء الصحابة ٣٨٠/١ .

٣- أخرجه الترمذي في أبواب الحج باب ماجاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحجَّ، وأبو داود في المناسك باب من لم يدرك عرفة رقم ١٩٥٠ بخلاف في اللفظ، وابن ماجة في المناسك، باب من أتى عرفة قبل الفجر ليلة جمع رقم ٣٠١٦ بخلاف في اللفظ، وابن حنبل ١٥/٤، ٢٦١،٢٦٢ بخلاف في اللفظ، والنسائي ٢٦٣/٥.

٤-٤- سقطت من ت بنقلة عين.

وفِطْرُكُم يَوْمَ تُفْطِرون»(١). ولعلّه أراد بقوله اجتهاد الواحد والجماعة ،أنَّ الجماعة قد بذلَتْ وسعها. وعمومُ التَّفريطِ لهم مستحيل وأما الواحد فإذا تبيّن خَطؤُه وحده فالغالبُ [١٠٤/أ] أنَّ ذلك لتفريطٍ منه، فلم يوفِ الاجتهاد حقّه؛ وإلاّ فلا فرق بين اجتهاد واجتهاد، وبالله التّوفيق.

والدّفع من عَرَفة بعد غروب الشّمس، وكونه مع الإمام أفضل، وتؤخّر المغرب إلى المُزْدَلِفة فيجمع(٢) بينها وبين العشاء مع الإمام(٣)، ومن صلاّها في رَحْلِه فلابأس، ومَنْ كان وقوفه بعد دَفْع الإمام من عَرَفة صلّى كلّ صلاة لوقتها. وقيل :إلاّ أن يرجوَ الوصولَ إلى المُزْدَلِفة في وقت العشاء؛ وجمعهما قبل حطّ الرّحال أفضل، وهي السّنّة، فإذا صلّوا الصّبح رحلوا إلى منًى، ويقفون بالمَشْعَر الحرام للدّعاء والذّكر إلى الإسفار الأوّل، فيدفَعُون ويُسرعون ببطْنِ مُحسرٍّ؛ فإذا وصلوا إلى مِنًى رموا جَمْرَة العَقَبة على [حال](٤) مجيئهم من ركوب أومشي، ولايرمون بعد ذلك إلاّ مشاة، ويرمونها من أسفلها، ومكّة على يَسَارهم، ووقت رميها طلوع الفجر من يوم الأضحى إلى الزّوال، والمُستَحبُّ بعد طلوعِ الشَّمس بسبع حَصَيات مثل حَصى الخزف، ويكبّرُ كلّما رمى حصاة، ولايقف بها بعد الرّمي ولينصَرف(٥)، ولقط الحَصى أفضل

١- أخرجه الترمذي في الصوم. باب يوم تصومون رقم ٦٩٧، وأبوا داود في الصوم، باب إذا أخطأ القوم الهلال رقم ٢٣٢٤- وابن ماجة في الصوم، باب ماجاء في شهري العيد رقم ١٦٦٠ بلفظ مغاير قليلاً.

٢- في ت: ليجمع.

٣- مع الإمام: سقطت من ط.

٤- زيادة من ت و ط.

٥- في ط: وينصرف.

من كسره، ولايرمي بما قد رُميَ به، فإن فعل صَحَّ، ولايجزىء وضع الحصى بغير رمي ولا رمية في غير موضع الرَّمي، ولامجموعاً، فإذا رمى الجَمْرَة حلّ له كلّ مامَنَعَه منه[1] الإحرام إلاّ النِّساء والصّيد، ويكره له الطّيب حتّى يُفيض فيتحلّل من الجميع.

وبعد رمي جَمْرةِ العَقَبة ينحر هَدْياً إن كان معه، ثم يحلق أو يقصّر، والحلاق أفضل إلاّ للنِّساء، فَسنَّته التَّقْصير، وحلاقهنَّ مَثُلَةٌ[2]، ومن قصّر أخذ من جميع شعره، ولايجزئه الأخذ من بعضه[3]، وهو كمن لم يقصّر، يلزمه[4] الدّم بمضي يوم النَّحر، أو أيَّام مِنًى، أو بانصرام ذي الحجّة على الاختلاف في أشهر الحجّ، وفي اليوم الثّاني من يوم النّحر ترمى[5] الجَمْرات الثّلاث، ويبدأ بالّتي تلي مِنًى، ثم بالوسطى، ثم بجمرة العقبة، كلّ واحدة بسبع حَصَيات كما تقدّم في جَمْرة العَقَبة، إلاّ أنَّ الأخريين ترميان من فوقهما، ومكّة على اليمين، والوقوف للدّعاء [١٠٤/ب] بإثر رمي كلٍّ واحدة منهما سُنَة، فتُرمى الجَمَرات في كلّ يوم بإحدى وعشرين حصاة، فتكمل في[6] ثلاثة أيّام ثلاثاً وستين حصاة، إلى السّبع الّتي رمى بها يوم النَّحْرِ فَتَمَّتْ سبعين، ولمن شاء[7] أن يتعجّل في الثّاني فيسقط عنه رمي الثّالث، ويكون مبلغ حصاه تسعاً وأربعين، وقيل :يرمي المتعجّل للثّاني والثّالث فتكمل سبعين؛ والعادة الآن التّعجّل في اليوم الثّاني لجميع النّاس.

١- ليست في ط.
٢- المَثُلَةُ: العقوبة.
٣- في ط من بعض شعره.
٤- في ط : يلزم.
٥- في ت: رمي.
٦- ليست في ط.
٧- في ت: يشاء.

ووقت رَمْي الجِمار[1] بعد يوم النَّحر إذا زالت[2] الشّمس إلى الاصفرار، وقيل إلى الغروب، ومابعد الوقت إلى آخر أيّام مِنًى وقت قضاء يلزم فيه[3] الدّم على المشهور، فإذا مضت أيام منًى فلا قضاءَ، ويلزم الدّم وفاقاً. قال مالك :« مَنْ تركَ حَصاةً واحدةً فعليه دَمٌ، ومَنْ تركَ جَمْرَةً أو الجَمَرات كلّها فبَدنةٌ، فإنْ لم يجد فبقرةٌ، فإنْ لم يجد فَشَاةٌ»[4].

واختُلِفَ في أصل رَمْي الجِمار، فقيل :إنَّ إبراهيم عليه السَّلام عارضه إبليس هنالك[5] حين أراد ذبح ولده، فَرَماه في المواضع الثّلاثة. وقيل : إنَّما عارضه وجِبْريل يريه المناسك فأمر برمْيِه. وقيل : إنّما رمى هنالك الكبشَ الّذي فَدى به إسماعيل، لأنّه اتّبعه ليأخذه، فأخرجه هنالك ورماه بالحصى عند كل جمرة، فصار سُنّة، وروى الدّارقطنيّ عن أبي سعيد الخُدْريّ رضي الله عنه : قلنا : «يارسولَ الله :هذه الجِمارُ يُرمى بها في كُلِّ عامٍ تُحسَبُ أنّها تنقصُ، قال: إنّما هو ماتُقبّلَ منها يُرفَعُ، ولَولا ذلكَ لرأيتَها أمثالَ الجِبالِ»[6].

والمبيتُ بِمنًى في ليالي مِنًى سُنَّة يجب الدّم بتركها اختياراً[7]، وكان عُمر رضي الله عنه يبعث رجالاً يُدخِلون النّاس من وراء العَقَبةِ[8]، ومن تعجّلَ من مِنىً فلينصرفْ بإثْر الرَّمْي، فإن بقي حتّى غابتِ الشَّمسُ لم يَجز له

١- بداية المجتهد ١/٢٥٦-٢٥٨.
٢- في ت: إزالة.
٣- في ط: فيها.
٤- الموطأ ٢٨٢، والمدوّنة ١/٣٢٤.
٥- ليست في ط.
٦- المصنف لابن أبي شيبة ٣٢/٤ بخلاف يسير في اللفظ.
٧- المدوّنة ١/٣٢٠.
٨- الموطأ ٢٨٠.

التَّعجّلُ[1] حتَّى يرمي من الغَدِ فإذا رمى في الثَّالث انصرف إلى مكّة قبل الصّلاة، فيصلّي في الطّريق، واستحبَّ مالك لمن يقتدي به أن ينزل بالمُحَصَّبِ وهو الأبطح. والعادة اليوم النّزول أسفل مَكّة كما تقدّم.

ومن المنكرِ المتواطإ عليه في هذا الأوانِ أنّك لاتسمع [١٠٥/أ] بمِنًى تكبيراً، وهو سُنَّة أُمِرَ بها المسلمون جميعاً في أيام مِنًى إثر الصّلوات اقتداء بأهل مِنًى؛ إذ من سنّتهم التَّكبير في كلِّ وقت، والجَهْرُ به وذلك شعارهم في مِنًى.

وأمّا طواف الإفاضَة، فالأفضلُ أن يؤتى به يوم النَّحر، فيذهب الحاجّ بعد الحِلاق إلى مكّة، فيطوف ثم يرجع من يومه إلى مِنًى، فيبيتُ بها اللّيالي المذكورة، وإنْ أخرّه عن يوم النَّحر، فيختلف في وجوب الدَّم على ماتقدّم. وفي المدوّنة :«لادَمَ عليه، وإنْ خَرَجَتْ أيّامُ مِنًى، مَالمْ يُطِل»[2] قال اللَّخمي : وهو استحسان[3] للاختلاف فيه، ولايجزىء تقديمه قبل الرّمي يوم النَّحر، كالصّلاة قبل الوقت، ولذلك لايجزىءُ عنه طوافُ القدومِ، وقالَ مالكٌ فيمن نسيه «إن طَافَ للوداعِ أجزأه »[4]، وأباه ابنُ عبدِالحكم. قال اللّخميّ : وهو الأصل ألاّ يجزىء نَفْلٌ عن فرض.

قلت : ومحملُ قولِ مالكٍ على أنّه لايلزمُ تجديدُ النّيّةِ مع كل رُكنٍ، كما قال فيمن دَفَعَ من عرفة قبل الغروب، ولم يخرج منها إلاّ بعد الغروب: يجزئه، وهو لم يرد بالدَّفْع الوقوف، لما كان حكم نِيَّة الحجّ مستصحباً، وكذلك هنا لمّا

١- في ت و ط: التعجيل.
٢- المدونة ٣١٩/١.
٣- في ت و ط: الاستحسان.
٤- الموطأ ٢٩.

وجب عليه الطَّوافُ أجزأهُ كل طوافٍ يكونُ في وقتهِ، ولايلزمه تجديدُ النِّيَّةِ لأنَّ الحجَّ كلّه كعملٍ واحدٍ، ونيَّةِ التَّـنَفُّل ببعضِ أركانهِ على وجهِ السّهو لاتصرفه إلى النّفل،كما قال عبدالملك فيمن سلّم من اثنتين ساهياً ثم تنفّل بركعتين أجزأتاه عمَّا بقي عليه من صلاته.

والعمل في طوافِ الإفاضةِ مثلما تقدّم في طواف القُدوم سَواء، إلاّ في الرَّمَل[1] وقد ذكرناه. فإذا عزم على السَّفر طاف للوداع وانصرف. فإن أقام بعده، أعاده إلاّ أن يكون أمراً قريباً كشراء الزَّاد ونحو ذلك، وإن لم يودّع رجع إليه ماكان بالقرب، فإنْ بَعُدَ فلاشيء عليه، وردّه عمر رضي الله عنه من مَرِّ الظَّهْرانِ.

ويُستَحسنُ[2] للمودّع أن يخرج القهقرى، أوعلى جَنْبٍ[3] وأن يُكثِرَ التّلفّتَ كما يفعلُ من فارقَ معظّماً عنده، محبوباً [١٠٥/ب] لديه.

ويُسْتَحَبُّ الإكثار من الطّواف. قال مالكُ:« وهو للغُرباءِ (٤أفضلُ من الرُّكوعِ، والرّكوعُ لأهل مكّة٤) أفضل»[5] قال الشّيخ أبو محمّد: وفي غير كتابٍ لأصحابنا، ويُستَحبُّ لمن قفلَ من حجّ أوعُمرة أن يكبِّر على كل شَرَفٍ ثلاثَ تكبيراتٍ ويقول :« لاإله إلاّ الله، وحدَهُ لاشريكَ لهُ، لَهُ المُلْكُ،ولهُ الحمدُ

١- في ت و ط: الرّمي وهو تحريف.

٢- في ت : ويستحب.

٣- في ت: جنبه.

٤-٤- سقطت من ط.

٥- الموطأ ٢٥٣، والمدوّنة ٣١٨/١.

وهوَ علـى كلِّ شيءٍ قديرٌ، آيبون[1]، تائبونَ، عابدون، سَاجِدونَ، لربِّنا حامدُون، صدقَ اللّه وعْدَه، ونَصرَ عبدَهُ، وهَزَمَ الأحزابَ وحدَهُ»[2].

قلت :قد ثبتَ به الحديثُ عن رسول اللّه، ﷺ ، وذكرَهُ مالكٌ في الموطّأ عن نافعٍ عن ابن عُمَر «أنّ رسولَ اللّه ﷺ كانَ إذا قَفَلَ من غَزْوٍ أوحجٍّ أوعُمرةٍ، فذكره سواء»[3]. وسُئل مالكٌ رضي اللّه عنه: الحجّ والجوار أحبُّ إليك أم الحجّ والقفل؟ قال : ماكان النّاس إلاّ على الحجّ والقفل، ورأيتُهُ أعجبَ[4] إليه، ولم يره في ذلك مثلَ الغزو. وقيل له: فالغزو أحبُّ إليك أم الحجّ؟ قال : الحجّ إلاّ أن تكون سَنَةَ خوف[5]. وروى الدَّارقطنيّ عن عائشةَ قال رسول اللّه ﷺ :« إذا قَضَى أحدُكُمْ حجَّهُ فليعجِّلِ الرِّحْلَةَ إلى أهْلِهِ فإنَّهُ أَعْظَمُ لأجْرِهِ »[6] وذكر مالك في الموطّأ أنَّ عثمانَ بنَ عفّانَ رضيَ اللّه عنه كان إذا اعتمرَ ربّما لم يَحْطُطْ عَنْ راحِلَتِهِ حتّى يَرْجِعَ ».[7]

١- آيبون: أي راجعون.

٢- الموطأ ٢٩١.

٣- أخرجه البخاري في العمرة، باب مايقول إذا رجع من الحج أو العمرة رقم ١٧٩٧- ٣/٦١٨ وفي المغازي باب غزوة الخندق رقم ٤١١٦- ٧/٤٠٦- ومسلم في الحج باب مايقول إذا قفل من سفر الحجّ رقم ٤٢٨- والترمذي في أبواب الحج باب ماجاء في مايقول عند القفول من الحج رقم ٩٥٠-وابن حنبل ٢/٥- ١٠-١٥-٦٣-١٠٥ والموطأ ٢٩١.

٤- في ت : أحب.

٥- ليست في ت.

٦- أخرجه الدار قطني في سننه٢/٣٠٠ وابن عدي في الكامل في ضعفاء الرجال ٦/٢٢٨٥. وهو في الجامع الصغير ١/٣٣، وفيض القدير ١/٤١٨.

٧- الموطأ : ٢٣٨.

[فضل الحج]

وأما فضلُ الحجِّ فما ورَدَ فيه أكثرُ من أن يَسَعه هذا الموضعُ، ويكفيك منه ماروى مالك في الموطـأ عن النَّبيِّ ﷺ : «العُمْرَةُ إلى العُمرَة كَفَّارَةٌ لما بينَهُما، والحَجُّ المَبْرورُ لَيْسَ لَهُ جَزاءٌ إلاَّ الجَنَّةُ»(١). وقال أيضاً:«مارُئيَ الشَّيطانُ يَوْماً هو فيهِ أصْغَرُ، ولا أَدْحَرُ، ولاأَحْقَرُ، منهُ في يَومِ عَرَفَةَ، وذلكَ لما يرى من تَنزُّلِ الرَّحْمَةِ، وتجـاوُزِ اللهِ عَنِ الذُّنـوبِ العِظـامِ، إلاَّ مـارُئـيَ يـومَ بَدْرٍ»(٢)... الحديث، وروى مُسلم والدَّارقطنيّ وغيرهما: (٣)« من حجَّ فلم يفسُقْ، ولم يرفُثْ، خَرَجَ من ذُنوبهِ كَيوْمِ ولدتْهُ أمُّهُ ». وروى الدَّارقطني(٣) أيضاً: «من ماتَ بأحدِ الحَرَميْنِ، بُعث من الآمنين يومَ القيامةِ»(٤) وروى أيضاً: [١٠٦/أ] «مَنْ ماتَ في هذا الوجهِ مِنْ حاجٍّ أو مُعتمرٍ، لم يُعرَض، ولم يُحاسَبْ، وقيل له: ادخلِ الجنَّةَ»(٥) وروى مسلم وغيره: «ما منْ يومٍ أكثرُ منْ أنْ يُعتقَ اللهُ تعالى فيـه عبـداً منَ النَّارِ من يومِ عَرَفـة، وإنَّه ليَدنو ثم يُبـاهـي بهمِ الملائكةُ فيقولُ:ماأرادَ هؤلاء »(٦).

١- أخرجه مالك في الموطأ: ٢٣٧ والبخاري في العمرة، باب وجوب العمرة وفضلها رقم ١٧٧٣-٣/٥٩٧ ومسلم في الحجّ، باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة رقم ٤٣٧ والترمذي في أبواب الحج، باب ماجاء في ماذكر في فضل العمرة رقم ٩٣٣. وابن ماجه في المناسك، باب فضل الحج والعمرة رقم ٢٨٨٨ والنسائي ١١٢/٥ .

٢- أخرجه مالك في الموطأ في جامع الحج ٢٩١، قال الزرقاني في شرح الموطأ وصله الحاكم في المستدرك عن أبي الدرداء.

٣-٣- سقطت من ت و ط.

٤- أخرجه مسلم في كتاب الحج باب فضل الحج والعمرة رقم ١٣٥٠- والدار قطني ٢٨٤/٢ وهو في مجمع الزوائد ٣١٩/٢- والمعجم الصغير للطبراني ٢٢/٢- وكنز العمال ٢٧٢/١٢- والمصنف لعبد الرزاق ٤/٥.

٥- أخرجه الدّارقطنيّ في سننه ٢٩٨/٢ وهو في كنز العمال ١٥/٥. والشفا لعياض ٦٨٥/٢ والضعفاء للعقيلي ٤١٠/٣.

٦- أخرجه مسلم في الحج، باب فضل الحج والعمرة رقم ١٣٤٨ والنسائي ٢٥١/٥ والمستدرك للحاكم ٤٦٤/١ والبيهقي في سننه ١١٨/٥ والدار قطني ٣٠١/٢.

وقرأت على الشّيخ، الصّالح، الزّاهد، أبي محمّد عبد الله بن يوسُف بثغر تُونس - كلأه الله تعالى - وأخبرني الشّيخ[1] الفقيه المحصّل، أبو زيد عَبْدالرّحمن بن محمّد بالقَيْروان، والشّيخ الصّالح الفقيه أبو محمّد عبدالسّلام ابنِ مَرزوع البَصْريّ بمدينةِ الرّسولِ ﷺ ، أخبرهم ثلاثتهم الشّيخُ الصّالحُ، الفقيه، المحدّث، العالم، أبو المكارم محمّد بن يوسف بن موسى قال: أنا علي ابن الحُسَين البَغْداديّ بقراءتي، قالَ: أنبأنا أبوالعَلاَء بن سَهْل الحافظ، قال: أنا الحَسن بن أحمد الحدّاد، أنا الحافظ أبو نُعَيم، نا فاروق بن عبدالكبير، نا إبراهيم بن عبد الله البَصْريّ، نا حَجّاج بن مَنهال، أنا عَطّافُ بن خالد، نا إسماعيل بن رَافع المَدَنيّ، عن أَنَس بن مالك قال : كنت جالساً مع رسول الله ﷺ في مسجدِ الخَيْف من مِنًى فأتاهُ رجلٌ من الأنصارِ، ورجلٌ من ثَقيفٍ، فدعَوَا له دعاء خفياً[2]، ثم قالا :جئناك نسألُكَ، قال :إن شئتما أخبرتكما بما جئتما تسألاني عنه[3] وإن شئتما أن أسكتَ وتسألاني فعلتُ، فقالا :أخبرْنا نَزْدَدْ إيماناً - أويقيناً - الشّكُّ من إسماعيل - قال الأنصاريُّ للثّقفيِّ: سَلْ رسولَ الله ﷺ . قال :بل أنت فَسَلْ[4]، فإنِّي أعرف لك حقَّكَ، فقال الأنصاريُّ :أخبرني يارسول الله، قال : جئتَ تسألني عن مَخْرَجك من بيتك تؤمُّ البيتَ الحرامَ، ومالك فيه، وعن طوافكَ بالبيت، ومالك فيه، وعن الرُّكعتين بعد الطّواف، ومالكَ فيهما، وعن طوافك بين الصّفا والمَرْوَة، (٥ومالك فيه، وعن وقوفكَ عشيّةَ عَرَفَةَ، ومالك فيه، وعن رميك الجِمارِ٥)

١- ليست في ت.
٢- في ط: خفيفاً.
٣- ليست في ط.
٤- في ت: اسأل.
٥-٥- سقطت من ط.

ومالك فيه، وعن نحرك ومالَكَ فيه، وعن حَلقِكَ(١) رأسك، ومالك فيه، وعن طوافِكَ بالبيت بعد ذلك - يعني الإفاضة - [١٠٦/ب] ومالك فيه، قال :إنِّي والَّذي بعثكَ بالحقّ لَعَنْ هذا جئتُ أسألُكَ، قال : فإنَّكَ إذا خَرَجْتَ من بيتِكَ تؤمُّ البيتَ الحرامَ لم تَضَعْ ناقتُكَ خفّاً ولاترفعُهُ إلاّ كتبَ الله لَكَ حَسَنَةً ومَحا عَنْكَ خطيئةً، وأمَّا طوافُكَ بالبيتِ، فإنَّكَ لاتضَعُ رِجْلاً ولا ترفعُها إلاّ كتبَ الله لَكَ بها حسنةً، ومَحا عنك بها خطيئةً(٢)، ورفع لك بها درجةً، وأمّا رُكعتاكَ بعد الطّواف فعتقُكَ(٣) رقبة من بني إسماعيل. وأما طوافك بين الصَّفا والمَرْوة، فعتق سبعين رَقَبة. وأمّا وقوفُكَ عشيّةَ عَرَفة، فإن الله عزّ وجلّ يهبط إلى السَّماء الدّنيا فيباهي بكم الملائكةَ، يقول :هؤلاء عِبادي جاؤوني شُعثاً غبراً(٤) سُفْعاً(٥) جاؤوني من كلّ فجٍّ عميق يرجون رَحْمتي ومَغْفِرتي، فلو كانت ذنوبُكم كعَدَد(٦) الرَّمْلِ أو كعَدَدِ القَطْر، أو كَزَبدِ البحر، لغفرتها لكم. أفيضوا عبادي مغفوراً لكم، ولمن شفعتم له. وأما رَمْيُكَ الجمار، فبكلّ حصاة رميتها كبيرة من الكبائرِ الموجباتِ الموبقات، وأما نَحْرُكَ فمدخورٌ لَكَ عند ربِّكَ، وأما حِلاقُكَ رأسك(٧)، فبكلّ شَعْرَة حلقتُها حَسَنةٌ، وتُمحى عنك بها خطيئةٌ. قال: يارسول الله فإن كانت الذُّنوبُ أقلّ من ذلك، قال : إذاً يُدَّخَرُ لك في

١- في ط: حلق.

٢- ليست في ط.

٣- في ت و ط: فعتق.

٤- ليست في ط.

٥- سفعته الشمس والسَّمومُ: لفحته لفحاً يسيراً فغيرت لون بشرته وسوّدته.

٦- في ط: كعدّة.

٧- ليست في ت.

حَسَناتِكَ، وأمّا طوافُك بالبيتِ بَعْدَ ذلكَ فإنَّك تطوف ولاذَنْبَ لك، يأتي مَلَكٌ حتَّى يضعَ يَدَه بين كتفيكَ ثم يقول :اعمل لما يُستقبل فقد غُفر لك مامَضى»[1]. قال الشَّيخ أبو المكارم :وهذا الحديث له أصل محفوظ من حديث ابن عمر وابن عبّاس، وعُبادة بن الصّامت[2] والحمد لله.

ومن أعجب مايروى في فضل الحج، ماحكاه القاضي عِياض وغيره : أنّ قوماً من كُتامَةَ[3] قتلوا رجلاً، وأضرموا عليه النّيران طول اللّيل، فلم تؤثّر فيه، وبقي أبيض البَدن، فأتى قوم إلى سعدون الخولانيّ[4] بالمُنَسْتير[5] فعرّفوه بذلك، فقال :ولعلّه حجَّ ثلاث حجج، فقالوا :نعم، فقال : حُدِّثْتُ أنَّ «مَنْ حجَّ حجَّةً أدّى فرضَهُ، ومن حجَّ حجّتين داينَ ربَّهُ، ومَنْ حَجَّ ثلاث حججٍ حَرَّم الله شَعرهُ وبشرَهُ على النّارِ»[6].

١- الحديث في مصنف عبد الرزاق ١٥/٥ عن ابن عمر بخلاف يسير في اللفظ، ومجمع الزوائد ٢٧٤/٣ والمطالب العالية لابن حجر ٣١٢/١-٣١٤.

٢- في ط: أبو عبادة: وهو عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي: صحابي شهد سائر المشاهد، مات بالرملة أو ببيت المقدس سنة ٣٤هـ . له ١٨١ حديثاً. انظر الإصابة ٢٦٠/٢.

٣- كتامة قبيلة من البربر.

٤- سعدون الخولاني: اسمه أفكل بن أحمد بن مالك منسوب إلى خولان قبيلة من اليمن مشهورة وهو من أهل القيروان وعظماء علمائها كان يخدم أبا الري واصل بن عبد الله اللخمي المتعبد بقصر حمّة بالمهدية وكان من أهل النسك والفضل والإجابة. رياض النفوس ٣٣٩ - نسيم الرياض ٥٣٧/٣-٥٣٨.

٥- المُنَسْتِير: موضع بين المهدية وسوسة بإفريقية وهو محرس من محارس سوسة. الروض المعطار ٥٥١ وقال الوزان مدينة عتيقة بناها الرومان على ساحل البحر تبعد حوالي ١٢ ميلاً عن سوسة. انظر وصف إفريقيا ٨٤/٢ .

٦- القصّة في الشفا ٦٨٦/٢، وقال الخفاجي: هذا الحديث لايعرف من رواه. نسيم الرياض ٥٣٨/٣ .

فصل في حدود الحرم

اختُلِفَ في أصلها، فقيل :أوَّل من نصب أنصاب الحرم إبراهيم عليه السَّلام، وإنّ جبريل عليه السَّلام دلّه على حدوده. وقيل: [١٠٧/أ] إنَّ آدم عليه السّلام لمّا أهبط[1] إلى الأرض، خاف من إبليس فاستعاذ منه بالله، فبعث الله إليه ملائكة يحرسونه، وحفّوا[2] حوالي مكّة من كلّ جانب، فحَرَّم الله الحرم من حيث كانت الملائكة وقفت[3]. وعن وهَبِ بنِ مُنبّه : أنه لما أُهبط بكى واشتدّ جزعه. فَعَزّاه الله بياقوتة من يواقيت الجنَّة حمراء، وضعها له في موضع الكعبة، ولها نور يلتهب، وكان ينتهي إلى مواضع[4] الحرم. فلمّا صار آدم إلى مكّة حرسه الله بالملائكة من سكَّان الأرض. وسكَّانها يومئذ من الجنّ والشّياطين، فكانوا يقفون على موضع[5] أنصاب الحرم. فلما توفي آدم رفعت الياقوتة. وهذا وماكان مثله ممًّا لايقطع بصحّته، والصّحيح الَّذي لاريب فيه، هو ماثبت به الخبر عن رسول الله ﷺ :« إن مكّةَ حَرامٌ، حَرَّمَها الله يومَ خَلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ، لم تحلَّ لأحدٍ قَبْلي، ولاتحلُّ لأحدٍ بَعْدي، وإنّما أُحلّت

١- في ط: هبط.

٢- أي أحاطو وأحدقوا.

٣- في ط: وقفا.

٤- في ط: موضع الحرم.

٥- في ت: مواضع.

لي ساعةً من نَهارٍ، وقد عادتْ حرمتُها اليوم كحرمتِها بالأمسِ، لايُختلى خلاها، ولايُعضد شجرُها، ولايُنَفَّرُ صيدُها، ولاتحلّ لقطتها إلاّ لمُنشدٍ، قالوا: يارسول الله! إلاّ الإذخرِ[١]، فإنّه لصاغتِنا وقبورِنا، قال :إلاّ الإذْخرِ»[٢].

وبعث رسول الله ﷺ عام الفتح تميمَ بنَ أسَدٍ الخُزاعيّ[٣] فجدّد معالمَ الحَرَم، ثم أمر عُمرَ بن الخطّاب رضي الله عنه بتجديدها، وجدّدها بعده عُثمان، ثمّ جدّدها عبدالملك بن مروان. وفي نوادر الشّيخ أبي محمّد قال :[٤] ولغير واحد من أصحابنا، أنّ حدّ[٥] الحَرَم ممّا يلي المدينة نحوٌ من أربعة أميال إلى منتهى التّنْعيم، وممّا يلي العِراقَ ثمانية أميال إلى مكان يقال له المَقْطع. وممّا يلي عَرَفة تسعة أميال، وممّا يلي اليَمَن سبعة أميال، وممّا يلي جُدّة عشرة أميال إلى منتهى الحُدَيْبية.[٦] وقال مالك :الحُدَيْبية من الحرَم.وفي كتاب الأزْرَقيّ نحو ممّا تقدّم إلاّ قوله في جهة عَرَفة، فإنّ الأزْرَقيّ قال فيها:

١- الإذخر: نبات طيب الرائحة، كان العرب يجعلونه فوق قبور موتاهم.

٢- أخرجه البخاري في الجنائز باب الإذخر والحشيش في القبر رقم ١٣٤٩-٣/٢١٣ بخلاف في اللفظ وفي العلم باب كتابة العلم رقم ١١٢-١/٢٠٥- وفي الصيد باب لاينفر صيد الحرم رقم ١٨٣٣-٤/٤٦ وفي اللقطة باب كيف تُعرف لُقَط مكّة رقم ٢٤٣٣-٥/٨٧- والمغازي رقم ٤٣١٣-٨/٢٦ وفي صحيح مسلم كتاب الحج باب تحريم مكة وصيدها رقم ٤٤٥ ورقم ٤٤٧ ورقم ٤٤٨- وأبو داود المناسك تحريم حرم مكة رقم ٢٠١٧ وابن ماجة في المناسك، باب فضل مكة رقم ٣١٠٩ وابن حنبل ١/٢٥٣- ٢٥٩-٣١٥-٣٤٨و٢/٢٣٨- والنسائي ٥/٢٠٣.

٣- تميم بن أسد الخزاعي: صحابي أسلم قبل فتح مكة وبعثه النبي يجدّد أنصاب الحرم.ترجمته في الإصابة ١/١٨٥ .

٤- ليست في ت.

٥- في ط: حلّ.

٦- الحديبية: مدينة سعودية. سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التي بويع الرسول ﷺ تحتها وهي بين مكة والمدينة.

«من طريقِ الطّائفِ عن طريق عَرَفة أحد عَشَر ميلاً».[1] وهو الصّواب، وقد تقدّم بيان ذلك،والله الموفق.

وقد قضى الله بأنّي لم أَلْقَ بمكّةَ - شرّفها الله - من يُؤخَذَ [١٠٧/ب] عنه عِلمٌ لشُغلي في تلك الأيامِ بأمورِ الحجّ، مع رجائي في الإقامَةِ، فلم أُعطِ البحثَ حَقَّهُ. وصادَفْتُ الشَّيخَ مُحبَّ الدِّين الطَّبريّ وهو باليَمن لم يحجَّ في هذه السَّنة، وذُكِرَ لي بها شخصٌ يُعرَف بالفاروثيّ[2]، وفاروثُ قريةٌ من قُرى بَغداد على ماحُكي لي عنه، وهو ممّن طالت صحبته للشَّيخِ الفاضل شهابِ الدِّين أبي حَفْص السُّهْرَوَرْديّ[3] - رحمه الله - فحرصتُ على لقائِهِ ولم يُقْضَ لي بذلك، وسافر بعد انقضاء الموسمِ. وبالجُملةِ فقد ضَعُفَ العِلْمُ بتلك[4] البلادِ لضَعْفِ العَيْشِ بها، والنّاسُ مع الدُّنيا وصاحبِها،والحكم لله مدبّر الأمور.

وبعد ماتقدّم ذِكْرُهُ سافَرْنا من خُلَيص قافلينَ على طريقنا المتقدّم إلى بَدْر، وكان قد خطر لصاحب الرَّكْبِ المصريّ أن ينفذَ إلى مِصْرَ دون زيارةٍ فشق[5] على كثير من النّاس[6]، وعظم الأمر عليّ لأنَّ كرائي كانَ من أَهْلِ مِصْرَ؛ ثم يَسَّر الله من أَلطافِهِ أنْ كانَ من النَّاس من قَبَّح عند صاحبِ الرَّكْبِ

١- أخبار مكة ١٣١/٢.

٢- هو أبو تغلب بن أحمد بن أبي تغلب الفاروثي الواسطي، عالم، محدّث. سمع من ابن الزبيدي وغيره توفي سنة ٦٩٦هـ وله إحدى وتسعون سنة. ترجمته في شذرات الذهب ٤٣٧/٥ .

٣- هو عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد التيمي البكري: عالم، فقيه، صوفي ولد بسهرورد سنة ٥٣٩هـ، وقدم بغداد وانتهت إليه تربية المريدين، وأخذ عنه كثيرون له مصنفات منها: عوارف المعارف، وله مشيخة في جزء لطيف توفي ببغداد سنة ٦٣٢هـ. وفيات الأعيان ٤٤٦/٢ .

٤- في ت: في تلك .

٥- في ت: «فشق ذلك».

٦- في ت : أكثر الناس.

مارأى من ذلك، فانصرفَ عن الخاطرِ الأوّل، ورَحَلَ من بدر متوجّهاً إلى المدينة على وادي الصُّفْراء، وهو وادٍ معمورٌ فيه ماء، ونخل، وبنيان، وعمارة جيّدة، ويتّصل كذلك قريباً من مسافة يوم؛ ولاعمارة وراءه إلى المدينة نحو أربعة أيام، والماء بها قليل، ودون المدينة على نحو من مسافة نصف يوم وادي العَقيق[1]؛ وليس به ماء ولاعمارة، وحصاه ينحو نحو الحُمرة،وهو وادي ذي الحُلَيْفَة، والعقيق خرز أحمر معروف، واحده عقيقة. وقال ابن دُريد :« كلُّ شقٍّ في الأرض فهو عقيق، وعقّ الشّيء شقّه»[2] والعقيقُ أيضاً وادي المَدينة الّذي فيه أموالها، ونخيلها، وذو الحُلَيْفَة على طريق المدينة بنحو سبعة أميال، وهي بطحاء سهلة ليّنة، وفيها أُوحيَ إلى رسول الله[3] ﷺ أنّه ببطحاءَ مُبَارَكَةٍ. وهي مَهَلُّ أهْلِ المَدينةِ كما تقدّم. وهنالكَ بئرٌ يُعْرَفُ ببئرِ عَليّ، وعليه نزولُ الرَّكْبِ، وبهِ آثارٌ[4] بنيانٍ، ورسوم داثرة.

وعَرَبُ تلكَ النَّاحيةِ من أكفرِ العَربِ وأفجرِهم، وقد رأيت شخصاً من الحجّاج لما نَزَل الرّكب تقدّم إلى [١٠٨/أ] المدينةِ مغترّاً بقُرْبِها، فما عدّى الرَّكْبَ حتّى أخذوه وجرّدوهُ، بعد الضَّرْبِ المُبَرِّحِ،وأثخنوهُ جِراحاً،فتركنَاهُ بالمدينةِ مُنقطعاً مابهِ حراكٌ، لاخففّ الله ثقلَ أوزارِهم، ولاعَفا عن قبيحِ آثارِهم ولا أعفاهم من قوارعِ الدَّهْرِ وخطوبه، وإنحائهِ عليهم من كُروبهِ، بأنواعِ ضروبهِ.

١- العقيق: وادٍ على ميلين من المدينة وقيل على عشرة أميال منها، وفيه نخل وقبائل من العرب. انظر معجم البلدان ١٣٨/٤ و الروض المعطار ٤١٦ .

٢- جمهرة اللغة ١١٢/١ عقق.

٣- في ت: «أوحى الله إلى الرسول».

٤- في ت: أثر.

[ذكر المدينة المنورة]

وفي ضحى يومَ الاثنين الثّامن والعشرين من ذي الحجّة، وَصلْنا إلى مَعْهَدِ الفضائلِ المشهورة، ومعقد ألويةِ الدِّينِ المنشورة، ومحتدِ المآثر المذكورة المأثورةِ، مجمع محاسن الدّارين، ومنبع مفاخر العصرين، ومطلع سعادة الثّقلين. روضة أزهار الأنام[1]، ومشرق أنوار بدر التّمام، وحِمى كَرَمٍ ماحامَ حولَه حام، ولاسَامَ بصفقته سَام، حمى آدم فآدَمَ عيشَةُ القَشَفَ[2] بإكرام، وأولاه مُناه، ولولاه لاستمرَّ أَذَاهُ ودام، ولاغَرْوَ أن كان أباه وقد أسماه عليه الله[3]، فالنُّور من النُّبت، والقطر من الغمام. كم حوى من فخر مَحَلٍّ حواه، كم نال من أثر آثر رؤاه[4]؛ علا على كل شَرَفٍ شَرُفَ[5] إليه منتماه، بل عَلَتْ به الوهاد على الآكام. محلٌّ[6] غدا لبدر الفضائل هالة، منزل إن نازله وصّاف بالوصف هاله، قصاراي[7] القصور ولو كنت ابن أبي هالة[8]، وضجّت من طول وَصْفي الأقلام. لولا شرفهُ أطرق طرف[9] الأماكن، ولولا كرمه لم تكن

١- في ط: الأيام.
٢- القَشَفُ: يُبْسُ العيش.
٣- في ت: الله عليه.
٤- في ط: رآه.
٥- ليست في بقية النسخ.
٦- في ط: محلّه.
٧- في ت : قصارى.
٨- قال السُّهيلي: «أبو هالة: هند بن زرارة، زوج خديجة قبل رسول الله ﷺ . وابنه اسمه هند أيضاً مات بطاعون البصرة، وكان قد مات في ذلك اليوم نحو من سبعين ألفاً فشغل الناس بجنائزهم عن جنازته فلم يوجد من يحملها، فصاحت نادبَتُهُ: واهند بن هنداه، واربيب رسول الله ﷺ ، فلم تبق جنازة إلا تركت، واحتُملتْ جنازته على أطراف الأصابع إعظاماً لربيب رسول الله ». انظر الروض الأنف ٢/٢١٦ .
٩- في ت : شرف.

للفخر تساكن. شرفت مكّة بمولده ومحتده، ولكنّ مدار الأمر على الختام. ياله مَحلاً هو[1] لسلْكِ الدُّنيا واسطة، [2]فدعْ عنك الشَّامَ وحمصَهُ والعراق وواسِطَه،[2] به تمسي القلوب مُقْسِطة[3] وقد أصبحت قاسطة[4]، وبه تُحَطّ أوزار من قَطَنَ أوزار، وتَمَّحي الآثامُ[5]. مافي الأرض أحلى منه حُلًى وأوصافاً، فانظر به مَحَلَّ ناظرٍ التزمَ إنْصافا، أقْعَدني القصور عن حَقّه وإن كنت وصّافا، فأُخْلِفُ إلى خَلْف، وقَدَمٌ[6] تقدّمني قُدَّام. فضاء أفْيَحُ يقطع البازلَ الفَنيقَ،[7] ومسرح للفضائل يزري بالروّض الأنيق، وفخر كما التهبت نارٌ في رأس نيق، فَعَدِّ عن نار غالب[8] وفخر هَمَّام.[9] عَشا إليها[10] من هو مَنْ نسب التّوفيق عريق. وعَشا عنها[11] من هو في [١٠٨/ب] بحر الخذلان غريق، لمّا لاحت وأوضحت الطَّريق، شجيَ[12] العدّو بالرّيق، وعشا بسناها فخبط في ليل الظّلام. واشوقاه إلى تلك العَرَصات، أترى لي عودة إليها قبل الممات، وهل تبرد بها الأحشاء من سموم الزَّفرات، ويُقضى لي المُقام بذلك المقام : [الوافر]

١- ليست في ت و ط .

٢-٢- سقط من ت.

٣- المسقط: العادل، قال تعالى في سورة الحجرات ٩: ﴿**واقسطوا إن الله يحب المقسطين**﴾.

٤- القاسط: الجائر. قال تعالى في سورة الجن ١٤: ﴿**وانامنا المسلمون ومنّا القاسطون**﴾.

٥- في ط: وتحمى الآثار.

٦- في ط: وقد.

٧- الفنيق: الفحل المكرم الذي لايهان ولايركب.

٨- غالب هو أبو الفرزدق، وكان كريماً، وثمّة كناية عن الكرم بقول العبدري: نار غالب.

٩- همّام بن غالب بن صعصعة: الفرزدق الشاعر توفي سنة ١١٠هـ ، وكان مشهوراً بالفخر.

١٠- في ت : عليه.

١١- عشا إليها: قصدها، وعشاعنها: غفل وأعرض.

١٢- شَجِيَ : غصَّ.

مَقـامٌ للعَـلاءِ بهِ مَقَـامُ وَفِيهِ انْجَابَ عَنْ ضَـوْءٍ ظَـلاَمُ
بهِ مَثْوَى السِّـيادَةِ غَيْرَ شَكٍّ بهِ للـدِّين والدُّنْيَـا انْـتِظَامُ
بهِ قَمـرُ السُّـعودِ ثَوى مُقيماً فَسارَ بِنُورِ غُـرَّتِـهِ الأنَـامُ(١)
بهِ الإشْـراكُ في شَـرَكٍ تَـهاوَى وَكَانَ بهِ لِمُدَّتِـهِ انْصِـرَامُ
بهِ الإيمـانُ أمَّـنَ مَنْ نَحـاهُ فَأضْحَى لاَ يُذَامُ ولاَ يُضَامُ(٢)
بهِ حلَّتْ نُجـومُ الأفْقِ طُـرّاً فَصَـارَ لَها بِسَـاحَتِهِ التِئَـامُ
بهِ أهْلُ المَـعَانِي والمَـعَالِي إمَـامٌ فـي الشَّـريعَةِ أوْ هُمَامُ
بهِ الآمَـالُ دَانِيَـةٌ فَـما إنْ يَشُـطُّ بهِ على البَاغي مَـرامُ
بهِ سَـحَّتْ سَـحَائِبُ كلِّ عِلْمٍ كَما بالـوَبْلِ قَدْ هَطَـلَ الغَـمَامُ(٣)
بهِ سَـجَعتْ عَلَى أغْصَانِ جُودٍ قَـوافٍ مِثْلَما سَـجَعَ الحَـمَامُ
عُـلاً قَـذِيَتْ بهِ عَيْنُ الثُّـريَّا فَخَالَفَ غَرْبَها دُرَرٌ سِـجامُ(٤)
وَمَجْدٌ نَاطَحَ الشِّعْرَى فَأضْحتْ بِذَاكَ لَها اضْطِرابٌ واضْطِرَامُ(٥)

١- في ت: فضاء بنور.
٢- في ت: لايرام ولايضام، ولايذام: لايُعاب.
٣- في ت: فما بالوابل هطل الغمام. والوَبْل: المطر الشديد.
٤- في ت و ط : فحالف.
٥- في ت: لها منه اضطراب - وفي ط : واصطدام. والشِّعْرى: كوكب نيِّر يقال له المِرزَم يطلع بعد الجوزاء. وطلوعه في شدَّة الحر.

بِهِ قَالَ الكَمَالُ: نظمْتُ سِلْكاً | فَلَيْسَ بِغَيْرِ طَيْبَةَ لِي نِظَامُ
بِهِ النُّورُ الّذِي عَمَّ البَرايا | هَدَاهُمْ لِلْمَسَالِكِ فاسْتَقَامُوا
١٥- عَلَيْهِ صَلاَةُ رَبِّي قَدْ حَبَاهُ | سِيَادَةَ مَنْ عَلَيْهَا والسَّلامُ[١]

ولم يقِمِ الرَّكْبُ بالمدينة إلاّ يوماً وبعض يومٍ، وقد استفرغت وُسعي[٢] في تأمّلها وتحفّظ صفتها، وما عسى أن يدرك من ذلك[٣] مع قلّة الإقامة وكثرة الشّواغل، وترادف الوظائف الدّينيّة والدّنيويّة، ولكنّه على ماكان من حال فلابُدَّ من تقييد بعض ماأدركه العيان من صفتها، وما علق بالذّكر من نعتها، وهي [١٠٩/أ] - زادها الله شرفاً - مدينة مليحة، ظاهرة الشّراقة والرّونق، موضوعة في مُستوٍ من الأرض على وادٍ به غابة عظيمة من النخّل، وأرضها سبخة وبظاهرها حَرَّةٌ[٤] سوداء ووعر. وسورها قد أثّر فيه القِدَم، وتربتهُ[٥] حمراء. ولها جملة أبواب، لاأحصى عدّتها، والبقيع[٦] شرقيُّها، وجبل أحد شماليُّها، وهو جبل عالٍ إلى الحُمْرة، وليس بمفرط[٧] العلوّ، وقباء[٨] منها في جهة الشّرق تلوح مبانيه وصَوْمَعته من المدينة، وبينهما نحو من ثلاثة أميال. وفي البقيع - زاده الله طهارةً - من المزارات الشّريفة مالا يحصرهُ

١- في ت و ط: عليك.
٢- في ت: جهدي.
٣- من ذلك : ليست في ط.
٤- الحَرَّةُ: الأرض الغليظة ذات الحجارة السود.
٥- في ت: وتربتها.
٦- هو بقيع الغرقد: مقبرة أهل المدينة النبوية.
٧- في ط: مفروط.
٨- قباء: منزل رسول الله ﷺ قبل أن يسير إلى المدينة.

وصف من قبور الصَّحابة والتَّابعين، والعلماء والصَّالحين، وعلى أكثرها مبانٍ وقباب متقنة، ومن أشهرها وأتقنها قُبَّةُ عثمانَ بن عفَّان رضي الله عنه، وهي عالية متّسعة، مُحكَمة العمل، رائقة المنظر، وتليها قبّة العبّاس[1] رضي الله عنه، وفي كل قبّة وبنيّة بالبَقيع عدَّةُ مقابرَ للصّحابةِ وغيرهم، إلاّ تربة الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه[2]، فإنَّ قَبْرَهُ في بيتٍ لايَسَعُ غيرَهُ، وقد رفع التَّسنيم على القبر[3] إلى نحو الصّدر، وأعلاه مستوٍ مفروش بالحصى، وبإزاء رأسه في الحائط مكتوباً في حجر : توفي الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه في ربيع الأوَّل سنة تسع وسبعين ومئة، ومولده في ربيع الآخر سنة ثلاث وتسعين،وقد استصحبتُ من قبره حَصَيات تبرّكاً بها وتذكاراً لمعاهدها:

[الكامل]

وَمِنْ الوَفاءِ بعَهْدِ حُبٍّ ظاعِنٍ　　　لَثْمُ الطُّلُولِ ووَقْفةٌ بالمَنْزِلِ

[مسجد النَّبيِّ]

وأما مسجد النَّبيِّ ﷺ فعلى صورة المسجد الحرام، إلاَّ أنّه في المساحة دونه بكثير، وعَرْضُهُ [4]على النّصف من طولِهِ، وطولهُ من الجنوب إلى الشّمال، وعرضُهُ[4]) من الشّرق إلى الغرب[5]. وهو عالي السُّمكِ، مُبيَّضٌ،

١- هو العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي: عم رسول الله ﷺ ومن أركان قريش في الجاهلية والإسلام وَجدّ الخلفاء العباسيين. له في كتب الحديث ٣٥ حديثاً توفي سنة ٣٢هـ - ترجمته في الاصابة ٢٦٣/٢ نكت الهميان - ١٧٥ .

٢- في ط: رحمه الله.

٣- في ط: القبور.

٤-٤- سقطت من ط.

٥- في ت و ط : من المشرق إلى المغرب.

مُدَوَّرٌ بالسَّقائف، عجيبُ المنظر، ووسطُهُ فَضَاءٌ مفروشٌ برمل أحمر، وأساطينُه مبيّضة بالفضّة، عالية، مُتَّسعٌ مابينها، وأوسع سقائفه ناحية الجنوب، وفيها المحراب، وهي خمسة صفوف، وفي مؤخر المسجد، وهي ناحيةُ الشِّمال أربعة صفوف،وفي ناحية الشّرقِ ثلاثة صفوف، وفي الغرب أربَعَةُ صفوف، [١٠٩ب] وفي النَّاحية الشّماليّة من فضاء المسْجد بيتٌ مربَّعٌ مَليحٌ هو مَخْزَنُ المسجد، وبالقرب منه نخلاتٌ صغارٌ ناضِرَةٌ عليها أثرُ التَّعاهد بالصَّون.

وقد وُسِّع المسجد مراراً بعد رسول الله ﷺ حسبما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى. وكان المسجد من موضع المنبر إلى الرَّوْضة المقدّسة شرقاً وغرباً؛ ومن موضعه إلى علَم هناك جنوباً وشمالاً، (١وكان المنبر إلى الجدار الغربيِّ، ثم وُسّع المسجد غرباً وجنوباً وشمالاً١)، وبقي المنبر بموضعه، والزّيادةُ على المسجد من ناحية الغربِ قَدْرُ مساحته، ومن الجنوبِ صفٌّ واحد وفيه المحرابُ، ومن الشّمال قَدْرُ مساحته ثلاث مرات، وأما ناحيةُ الشَّرْقِ فلم يَرَ فيها إلاّ مقدار مَمرٍّ إنسان من وراء الرَّوْضَةِ المقدسة، وكانت مساحة المسجد حين بناه رسول الله ﷺ مئة ذراع طولاً وعرضاً. وقيل سبعين طولاً وستين عرضاً وقيل غير ذلك.

وللمسجد الآن أربعة أبواب : بابُ السَّلام، وبابُ الرَّحْمَةِ من ناحية الغرب، وباب جبريلَ وباب النّساء من ناحية الشرق، وفي الصَّفِّ الأوّل قريباً من الرّوضة باب آخر هو نفق في الأرض يُهبط فيه على درج، ويخرج منه على حُجَرٍ في قبلة المسْجد، وذكروا أنَّها حُجَرُ أزواج النَّبيِّ ﷺ ، وينسبونها حُجَرَة حُجَرَة وذلك باطل، فإنَّ الرَّوْضَة المقدسة هي حُجرة عائشة رضي الله

١-١- سقطت من ت.

عنها وقد دخل غيرها من الحُجَر في المسجد في زمان الوليد بن عبد الملك. قال : وذكروا أنَّه كان للمسجد عشرون باباً، ثم سُدَّت كلُّها إلاّ الأربعة المذكورة،والله أعلم.

وفي المسجد ثلاث صوامع : اثنتان على الرّكنين الجنوبيّين، وواحدة[1] في مؤخر المسجد، وذكر بعض النّاس أن أساطينه[2] مئتان وستٌّ وسبعون أسطوانة، وأنا لم أعدّها لشُغْلي بغير ذلك.

[الرَّوضة الشَّريفة]

وأمّا الرَّوْضَةُ المقدّسة - زادها الله شرفاً وجلالة - فهي في داخل المسجد [3]عند الجدار الشّرقيّ[3] ،قريباً من الرُّكن الّذي على يسار المحراب، وبينها وبين الرّكن الصّفّ الأوّل؛ وبينها وبين الجدار الشّرقي ممرّ [١١٠/أ] ضيّق حسبما تقدّم. وهي - شرّفها الله - معمولة بالرُّخام الأبيض من الأساس إلى سَقْفِ المسجد،بأتقن مايكون من الصَّنْعة وأعجبه، وهي موضوعة على شكل التَّربيع؛ ولكن ربعها الشّمالي ينحو نحو الاستدارة، وفيه أركان وبعض انخراط إلى الجهة الشّرقيّة، وفي ركنها الواصل بين الجدار الغربيّ والجنوبيّ صندوق مليح من خشب مبنيٌّ في الحائط بإزاء رأس النّبيّ ﷺ. وعلى يمينك وأنت مستقبل له علم بإزاء رأس أبي بكر رضي الله عنه، ثم آخر بإزاء رأس عُمرَ رضي الله عنه، ويعطي ذلك أنها على هذه الصُّورة ......[4] وقد قيل فيها صفة أخرى غير هذه والله أعلم.

١- ليست في ت.

٢- في ت وط: أساطنه وهو تحريف.

٣-٣- سقطت من ت.

٤- بياض في جميع النسخ قدر كلمة.

وعلى الرَّوْضَة - زادها الله تشريفاً - كسوةٌ رائقة أسدلت[1] عليها إلى قريب من القامة، تُكساها في كلِّ عام، كما تُكسى الكعبة. وأخبرني الشّيخ الأديب الفاضل أبو الحَسَن التجّاني[2] بثَغر تُونِس،كلأه الله، أنّه وقف على الرَّوْضَة - شرّفها الله - وإذا في أستارها مكتوباً :[3] [الطويل]

هَنيئاً لَكُمْ يَا زَائِرينَ ضَريحَهُ ... أَمِنْتُمْ بِهِ يَوْمَ المَعادِ مِنَ الرِّجْسِ
وَصَلْتُم إلَى قَبْرِ الحَبيبِ بِطَيْبَةٍ ... فَطُوبى لِمَنْ يُضْحِي بِطَيْبَةَ أَويُمْسِي

قال: فقال لي بعض من حضر : زِدْ عليهما شيئاً فقلت ارتجالاً توطئة للبيتين :[4] [الطويل]

قِفُوا سَلِّموا هَذا ضَريحُ مُحمَّدٍ ... أَمَا تُبْصِرُونَ النُّورَ أَبْهَى مِنَ الشَّمْسِ[5]
وَصَلُّوا عَلَيْهِ، وَاسْألوا، وتوسَّلُوا ... إِلى الله بالمَبْعُوثِ للجِنِّ وَالإِنْسِ

هنيئاً لكم . . . . البيتين.

١- في ت و ط: انسدلت.

٢- هو علي بن إبراهيم بن محمد بن أبي القاسم التجاني: أديب وشاعر، راوية. كان مقصوداً لإقراء العربية والأدب تخرّج به جماعة منهم: عبد الله التجاني صاحب الرحلة ومحمد بن جابر الوادي آشي توفي بتونس سنة ٧١٤. ترجمته في الديباج المذهب ٧٩ برنامج الوادي آشي ٥٩- ٦٠. بغية الوعاة ٢/١٤١، رحلة التجاني ٢٥٨- ٢٧٠- تراجم المؤلفين التونسيين ١/٢١٤- ٢١٥.

٣- رواية البيتين في ط:

هنيئاً لكم يازائرين ضريحه ... فطوبى لمن يضحي بطيبة أويمسي
وصلتم إلى قبر الحبيب بطيبة ... أمنتم به يوم المعاد من الرجسِ

وهما في رحلة ابن بطوطة ١/١٤٥ ، وملء العيبة ٥/٢٧١ وروايتهما فيها:

سعدتم به يا زائرين ضريحه ... أمنتم به يوم المعاد من الرجس
سلمتم وأصبحتم بأكناف طيبة ... فطوبى يضحي بطيبة أويُمسي

ونسبهما لمحمد بن رُشيد بفتح الراء وكسر الشين البغدادي الواعظ..

٤- البيتان في ملء العيبة: ٥/٢٧٤.

٥- في ملء العيبة: أسنى من الشمس، فصلّوا.

وعلى الرَّوْضة - شرّفها الله - شبّاك من عود محكم الصَّنعة، وله بابان : غربي وشمالي. وأمّا الرَّوْضَة فمصمتةٌ لاباب لها، وفوقها قبّة بيضاء إلى الدّكنة مصمتة أيضاً مليحة [١١٠/ب] عجيبة، سَمَتْ عالية على البُنيان، ولاحت بادية للعيان، يثير مرآها من ذي الوجد كامن الأشجان، ويهيج من القلب ساكن الأحزان، كأنّها ترقب أوتندب حبيباً بان، وتذكر من يفكر بزمانٍ كان، وتترجم عمّا يستعجم من معانٍ بمعان، تشرح فتفصح[1] عما تلوح إليه ببيان، يالها واعظة كلٌّ عن شأوِها قُسٌ وسَحْبان، وتضمّنت، غير ناطقة، ما لم يتضمّن ديوان : [الوافر]

أرَنَّتْ بالعَويلِ وبالنَّحيبِ ... مُرَجّعَةً على رَبْعِ الحَبيبِ[2]
أقامَتْ لَيسَ تَبْرَحُ مُنْتَدَاهُ ... وقَامَتْ لا تَمَلُّ مِنَ الدّؤوبِ
تُشيرُ إلى عُلومٍ قَدْ حَوَتْها ... إشَارَةَ عَالِمٍ فَطِنٍ لَبيبِ
وقَدْ لَبِسَتْ بدُكنَتِها حِداداً ... وجَدَّ لَنا الأسى عريُ السَّليبِ
٥ - غَدَتْ تَمْري مَدَامِعَ مَنْ رَآهَا ... بِمَا أبْدَتْ مِنَ الحَالِ الغَريبِ[3]
وَقلَّ لَها البُكاءُ وَلَوْ أمَدَّتْ ... غِزَارَ دُمُوعِنا مُهَجُ القُلوبِ
فَقُلْ للقَلْبِ صَعِّدْ لي زَفِيراً ... وقُلْ للعَيْنِ بِي ظَمأٌ فَصُوبِي[4]
وَنُحْ شَجْواً وسُح بالوَجْدِ دَمْعاً ... وَرُحْ نَشْوانَ مِنْ خَمْرِ الكُروبِ[5]

١- في ت وط: فتصبح.
٢- الرنين: الصوت الشجي. العويل: رفع الصوت بالبكاء. الترجيع: ترديد الصوت.
٣- المَرْيُ: مسح ضرع الناقة لتدرّ.
٤- صوبي: انصبّي.
٥- في ط: وصح. وسَحّ الدمع: سال.

وقُمْ فَانْدُبْ، وذُبْ جَزَعاً وَشَوْقاً   وَصِلْهُ مِنَ الشُّروقِ إلى الغُروبِ

١٠ – كَفَى بِتَواصُلِ العَبَراتِ شُغْلاً   يَعُوقُكَ عَنْ مَديحٍ أَوْ نَسيبِ

ولم أر بالمدينة، مع شدّة البحث، وإلحاح الطلب، وتكرار السّؤال من هو بالعلم موصوف، ولا مَنْ هو بفَنٍّ من فنونه معروف، وكلّ من نال بها خطّة علميّة، فلسان حاله قد نادى وندّد[1] : [الكامل]

خَلَتِ الدِّيارُ فسُدْتُ غَيْرَ مُسَوَّدِ[2]   ———— ———— ———— ————

ولاغَرْوَ إن انعكس الحال في تلك الدّيار، وصار الأمر إلى ما إليه صار، فالدّنيا مطيّة سريعة العِثار، ولكل شيء إقبال وإدبار، وقد[3] لقيت إمام حرمها الشّريف، وخطيب المنبر العالي المُنيف، فوجدت سماء شرفه من شياطين الجهل لم تُحرَس، وتربة قلبه لم تُزرع بحبّةٍ من المعارف ولم تُغرس، فاستفهمته عمّا يُتلى ويُدرَّس، [4]وهو بأمثاله يُعفى ويُدْرس[4]: [الطويل]

———— ———— ———— ————   فـ «كأنّي أُنادي أو أُكلّمُ أخرس»[5]

[١١١/أ] إلى هِناتٍ هو بها مذكور، وصفاتٍ ليس المتّصفُ بها بمحمودٍ ولا مشكور.

١– في ت: وردّد، والتنديد: رفع الصوت.

٢– صدر البيت وعجزه: ومن الشقاء تفرّدي بالسّؤدد. وهو في عيون الأخبار ٢٦٨/١ لرجل من خثعم وأمالي الزجاجي ٣٠ ، والأغاني ٤٠٨/٨ ، وشرح المرزوقي ٨٠٧ لرجل من خثعم، والبيان والتبيين ١٩٦/٣و٢٧٦ ومعجم البلدان ٤٧٣/١ لعمرو بن النعمان البياضي، ووفيات الأعيان ٣٩٢/٢ و٢٢٠/٤ دون والوافي بالوفيات ٧٣/٢ .

٣– في ت و ط: ولقد. وقوله «لكلّ شيء إقبال وإدبار» من أقوال الفقهاء، وهو في: كشف الخفاء ١٩٢/٢ .

٤–٤– سقطت من ت.

٥– عجز بيت لامرئ القيس في ديوانه ١٠٥ وصدره:

«ألمّا على الرّبع القديم بعسعسا»

وفي الديوان: أخرسا .

[لقاؤه لعبد السّلام التمّار]

بيد أنَّه ذكر لي شيخاً من أهل العراقِ،مجاوراً بالمدينة،معنيّاً بالعلم وحَمَلَتِه، قديمَ الرِّحلةِ إلى الحجاز، طويلَ المقام بها، وهو عفيف الدِّين أبو محمَّد عبدالسَّلام بن محمَّد بن مَرْزوع البَصْريّ التَّمار[١] فسألت عنه حتّى وجدته في حرم رسول الله ﷺ تجاهَ الرَّوضَةِ المقدّسة -زادها الله جلالة- فألفيته شيخاً ركيناً،ذا سَمْتٍ وهيئة،ولقاءٍ جميلٍ،رحل في البلاد ولقي النَّاس، وسمعَ من الشّيوخِ، واستقرَّ به القرار آخراً بالمدينة مجاوراً، واستجزته فأجازني لفظاً في كلِّ مايحمل، وأخرج إليّ جزءاً ناولنيه، وهو الجزءُ الثَّاني من حديث أبي بكر بن محمَّد بن العبَّاس بن نجيح البزّار، وانتقيت منه أحاديث علقتها إثر صلاة الصُّبح بين المنبر والرّوضة أثبت منها هاهنا.[٢] حديثين تبرّكاً بهما: أخبرنا الشّيخ الصَّالح المحدّث جار[٣] رسول الله ﷺ عفيف الدِّين، أبو محمَّد عبد السَّلام بن محمَّد[٤] بن مَرْزوعٍ البَصريّ التَّمَّار إجازة بلفظه، ومناولة من يديه إلى يدي بمسجد رسول الله ﷺ تجاه الحجرة الشّريفة المعظّمة، زادها الله جلالة، ونقلته من كتابه، قال : أنا الشيخ أبو الحسن المُبارك بن محمَّد[٥] بن مَزْيَد بن هِلال الخوّاص الحَنَفيّ قراءة عليه وأنا أسمع في يوم الجمعة السَّادس

١- محدّث. حافظ ولد بالبصرة سنة ٦٢٥هـ. وتوفي بالمدينة النبوية سنة ٦٩٦هـ. انظر تذكرة الحفاظ ١٤٨١/٢ .

٢- زيادة من ت و ط.

٣- في ت: مجاور.

٤- ابن محمد سقطت من ط.

٥- سقطت من ط.

من ربيع الأوَّل سنة خمسين وستّ مئة بمُستنصريّة بغداد[1]، أنا أبو الفتح عبيد الله بن عبد الله بن محمَّد بن نَجا بن شاتيل قراءة عليه وأنا أسمع، أنا أبو بكر أحمد بن المُظَفَّر بن سَوسنٍ التمّار قراءة عليه ونحن نسمع، أنا أبو عليّ الحَسَن بن أحمد بن إبراهيم بن الحسن بن محمّد بن شاذان، قال : أنا أبو بكر محمَّد بن العَبّاس بن نَجيح البزّار من لفظه، نا عبد الله بن أحمد بن إبراهيم بن كثير، نا إبراهيم بن المُنذر، نا عبد الله بن موسى التّميميّ، عن يعقوب بن عبد الله بن أُميّةَ الضَّمريّ،عن جعفر بن عمرو بن أميَّة،عن أبيه قال :قلت يارسول الله: أُرسلُ دابةً وأتوكّل؟ قال :بل قيّدْ وتوكّلْ».[2]

وبه إلى ابن نجيح : نا عبد الله بن أحمد بن حَنْبل،[١١١/ب] نا إبراهيم بن زياد سَبلان،نا عَبَّاد بن عَبّاد المُهَلّبيّ،عن يونس بن عُبيد،عن سعيد ابن أبي سَعيد المقبْريّ، عن أبي هُريرة قال :أظنّه رفعه، قال :«ثَلاثَةٌ يهلكونَ عند الحِساب : جوادٌ، وعالمٌ، وشُجاعٌ، يؤتى بالعالمِ فيُقال :ماذا صنعْتَ؟ فيقول :يارب! آتيتني عِلْماً فعلّمتُ عبادكَ، وأفشيتُ علمي ابتغاءَ وجْهكَ؛ فيقال[3] : كذبتَ، ولكنْ فعلتَ ليُقال :فلانٌ عالمٌ، فقد قيلَ ذلك فيهلكُ. ويؤتى[4]

١- هي المدرسة المستنصرية التي أفتتحها الخليفة العباسي المستنصر سنة ٦٣١هـ على ضفة دجلة الشرقية، في بغداد لتدريس الفقه على المذاهب الأربعة إضافة إلى تدريس التفسير وعلوم القرآن. انظر تاريخ علماء المستنصرية ٢٧-٤٣ .

٢- أخرجه الترمذي في القيامة باب اعقلها وتوكّل ٢٥١٦ من طريق أنس بن مالك بخلاف في اللفظ، وفي كنز العمال ٣/١٠٣-١٠٦- وميزان الاعتدال ١/١٩٩ عن ابن عمر.

٣- في ط: فيقول.

٤- في ت و ط: فيؤتي.

بالشّجاعِ فيقال له :ماذا صنعتَ؟ فيقول : ياربِّ جاهدت في سبيلكَ، وقاتلتُ عدوّكَ ابتغاءَ وجهكَ، فيقول :كذبتَ، ولكن فعلت ليُقال فلانٌ شجاعٌ، فقد قيلَ ذلك. ويؤتى بالجواد فيقول له[1] :ماذا صنعتَ؟ فيقول : ياربِّ أعطيتَني مالاً وصلتُ به الرَّحِمَ، وصنعتُ المعروفَ ابتغاءَ وَجْهِكَ، فيقول :كذبتَ، ولكن ليقالَ: فلانٌ جوادٌ فقد قيلَ ذلك»[2].

وسمع مني شيخنا عفيفُ الدِّين المذكور القصيدة الَّتي نظمتها بالحِجاز في مدح رسول الله ﷺ ، وحضر لسماعه ناسٌ وقيّد عليها طبقة السّماع بخطّه، وذلك بحَرَمِ رسول الله ﷺ تجاه الرّوضة المعظّمة -زادها الله شرفاً- وقد رأيتُ إثباتَ القصيدةِ بجِملتها في هذا الموضع إذ هو أليقُ المواضع بها فأقول وبالله أستعين : [الكامل]

[القصيدة النّبويّة للعَبْدَرِيّ]

فَـوِّقْ إلـى غَـرَضِ الـفَلاةِ وسَـدِّدِ سَهْمَ السُّرَى تَقْصِدْ وتَحْظَ بِمَقْصَدِ[3]
أَوْتِـرْ قِسِــيّاً من مَطِـيٍّ إنْ رَمَتْ رَنَّـتْ كَـمـا رَنَّـتْ قِسِــيُّ المَقْصَـدِ
شِـمْ سَـيْفَ عَـزْمٍ لايفـلُّ ذُبَـابَـهُ قَـرْعُ الـزَّمـانِ، ولاقِراعُ الـفَدْفَدِ[4]
هِـمْ بالعَـلاءِ بِهِمَّةٍ تَعْلُـو على سَمَكِ السِّماكِ وسَامِ سَامي الفَرْقَدِ[5]

١- في ت و ط: فيقال.

٢- أخرجه الترمذي في الزهد. باب ماجاء في الرياء والسمعة رقم ٢٣٨٣، وابن حنبل ٢/٣٢٢. بخلاف في اللفظ والنسائي ٦/٢٣.

٣- التفويق: وضع السهم في الوتر للرمي، والغَرَضُ: الهدف الذي ينصب فيرمى إليه.

٤- في الأصل: شف سيف عزم، وهو تحريف.شِمْ: اختبر، وذباب السيف: حد طرفه الذي بين شفريته، الفَدْفَد: الأرض الواسعة المستوية لا شيء فيها.

٥- السِّماك: نجم معروف، وهما سماكان: رامح وأعزل.

أجِبِ النِّداءَ وجُبْ بِكُلِّ تَنوفَةٍ   قَفْراً تَنَكَّرُ لِلدَّليلِ المُرشِدِ[١]
رَافِقْ رَفِيقَ العَزْمِ واتْرُكْ مَنْ وَنى   خَلْفَ البَطَالَةِ نَائِماً فِي مَرقَدِ[٢]
شَمِّرْ ثِيابَكَ لِلثَّوابِ فَقَدْ بَدَا   أمَماً لَهُ أَمُّ البَصِيرِ المُهْتَدي[٣]
بَادِرْ بُدُورَ العُمْرِ قَبْلَ أُفولِهَا   واركُضْ بجِدِّكَ في الفَضَاءِ الجَدْجَدِ[٤] [١١٢/أ]
سَامِرْ سَميرَ النَّجمِ في سَمَرِ السُّرَى   وَاجْفُ التَّخَيُّلَ مِنْ خَيالِ المَرْقَدِ[٥]
كُنْ في مَضاءِ العَزْمِ فِعْلاً مَاضِياً   وَاتْرُكْ لِسَوفَ مُسَوِّفاً خلْفَ الغَدِ[٦]
حَتَّى تحِلَّ بِذَروةِ المَجْدِ الَّتِي   فَاتَتْ مَرامَ الحَائِرِ المُتَرَدِّدِ
حَتَّى تَحِلَّ بِمَنْزِلٍ مَاحَلَّهُ   إلاَّ نَزِيلُ طُلُوعِ سَعْدِ الأسْعَدِ
حَتَّى تَفُوزَ بِمَطْلَبٍ فِي مَرْقَبٍ   تَرَكَ المُسَامِيَ في الحَضِيضِ الأوْهَدِ[٧]
حَتَّى تُواصِلَ فِي وِصَالِكَ رُتْبَةً   أعْيَتْ عَلَى عَزَمَاتِ كُلِّ مُعَرَّدِ[٨]
حَتَّى تَنَالَ مَنَالَ كُلِّ مُمَجَّدٍ   حَتَّى تَنَالَ مَنَالَ كُلِّ مُسَوَّدِ
حَتَّى تُحَصِّلَ مَانَوَيتَ مُبَرَّءاً   مِنْ نَقْصِ حَيْنٍ حَالَ دُونَ المَقْصَدِ[٩]
حَتَّى تُشَاهِدَ مَشْهَداً شَهِدَتْ لَهُ   بِالفَضْلِ أنْبَاءٌ تَرُوحُ وتَغْتَدِي
حَتَّى تَرى مَرأًى يَجِلُّ كَمَالُهُ   عَنْ أنْ يُقَيِّدَهُ لِسَانُ مُقَيِّدِ
حَتَّى تَرَى مَالايُحِيطُ بِمَدْحِهِ   نَغَمَاتُ شَادٍ أو تَرَنُّمُ مُنْشِدِ

١– في ت و ط: نتوفة وهو تحريف، والتَّنوفة: القفر من الأرض.

٢– وَنَى: ضعف وفتر.

٣– في ت: إعلاله، والأمَمُ: القصد.

٤– في ت: بدور القمر. والجد جَدُ: الأرض الغليظة.

٥– السُّرى: السير في الليل.

٦– في ت و ط: حلق الغد.

٧– المُسامي: المُفاخر، المباري.

٨– المعرّد: الشديد القوي.

٩– في ط: نقص جبن، وهو تحريف.

حَتَّـى تُقَـبِّلَ مِنْ بِسَاطِ الـعِزِّ مَا   خَـفَـقَـتْ لَهُ أَحْشَـاءُ كُلِّ مُـوحِّـدٍ(١)
حَتَّـى يُجـرِّدَ مِنْ مَخـيـطِ ثِـيَـابِهِ   حِلْفُ الرَّفـاهَةِ فـاغْتَسِلِ وتَجـرَّدِ(٢)
حَتَّـى تُلَـبِّـيَ دَاعِيـاً مَا مِثْلُـهُ   دَاعٍ يُجَـابُ مِنَ المَكَـانِ الأَبْعَدِ(٣)
حَتَّـى تَرَى ذا نِعْمَةٍ مُتَـبـذِّلاً   وتَرَى المُلُـوكَ غَدوا بِزِيٍّ الأعـبُدِ(٤)
حَتَّـى تَحـلَّ بِمكَّةٍ وحَـلالِـهـا   خَـيْـرِ الحَـلالِ فَـحُطَّ رَحْلَكَ وَاقْعُدِ
حَتَّـى تَطوفَ بِكَعبةٍ مامِثْلُهَا   مِنْ مَسْـجِـدٍ يُبْـنَـى ولا مُتَعَبَّدِ
حتَّـى تُقبِّلَ رُكنَـهـا الفَـرْدَ الَّذي   ضَـمَّ المُواثِـيـقَ الَّتـي لَـمْ تُجْحَدِ
حَتَّـى تَرَى حَـجَـراً مُنيـراً أَسْوَداً   واعْجَبْ - فديْتك - للمُنيرِ الأَسْوَدِ
حَتَّـى تَـرَى ذَاكَ المَقَـامَ وَحُسْـنَهُ   وَاذْكُرْ بِهِ قَارِي الضُّيـوفِ ومَجِّدِ(٥)
حَتَّـى تُرَى فـي مَاءِ زَمْزَمَ شَارِعـاً   فَأَطِلْ لِتَجْلُـوَ ذَلِكَ القَلْبَ الـصَّدِي
حَتَّـى تَخبَّ إذا سَعَيْتَ مِنَ الصَّفَا   وَإِلَيْهِ فِعْـلَ الخَـادِمِ المُتَـوددِ(٦)
حَتَّـى تَبيتَ مَبِيتَ عَبْدٍ فِي مِنًـى   مُـتَـبـذِّلاً تَنْوِي وُقُـوفَكَ مِنْ غَـدِ [١١٢/ب]
حَتَّـى تُعـايِنَ فِي الوُقُـوفِ عَجـائِباً   مَهْمَا يُلاحِظْهـا فُؤَادُكَ يَـرْعُدُ(٧)
حَتَّـى تَرَى جَمْعـاً بِجَمْـعٍ جَامِعاً   وَتَجِـدَّ فِي رَمْي الجِمـارِ مِنَ الغَدِ
حَتَّـى تُحلِّقَ أو تُقَـصِّرَ فـي مِنًـى   حَتَّـى تفيضَ بِفَيضِ ذاكَ المَوْرِدِ

١- في ت: موجد.
٢- في ط: يُجَرِّ.
٣- في ط: يُلَبِّيَ.
٤- تبذَّل: ترك التزيّن على جهة التواضع.
٥- في ط: واذكر فيه، وبها لا يستقيم الوزن.
٦- في ت و ط : إليه؛ دون الواو، وبها لا يستقيم الوزن.
٧- في ط: ترعد.

حتَّى تُودِّعَ مكَّةً وَرُبُوعَهَا ... قَلِقَ الحَشَا لِفِراقِ ذاكَ المَعْبَدِ[1]
حتَّى تَرَى بَرْقَ الهِدايَةِ لامِعاً ... يبْدُو لعَيْنِ النَّاظِرِ المُتَفَقِّدِ
حتَّى ترَى نَهْجَ الولاَيةِ لائِحاً ... لَمْ يَخْفَ إلاَّ في لِحاظِ الأرْمَدِ[2]
حَتَّى تُرَبِّعَ طَيْبَةً وَرُبُوعَها ... فَيَطيبَ وقتُكَ في المكانِ الأسْعَدِ[3]
حَتَّى تَرَى نَجْمَ السَّعادَةِ طَالِعاً ... حَتَّى تَرَى قَبْرَ النَّبيِّ مُحمَّدٍ
فَهُناكَ سِرٌّ أخو الظَّواهِرِ ظَاهِراً ... وَأَخُو الحقَائِقِ في المُقيمِ المُقْعَدِ[4]
وَبِه قُلوبٌ قَدْ تنفَّسَ غَمُّهَا ... وبِهِ قُلُوبٌ ذَاتُ عَيْشٍ أنْكَدِ
مَالِلْمُحِقِّ وللسُّرورِ وكَمْ غَدَا ... عَمَلٌ كثيرٌ سَاقِطاً لَمْ يَصْعَدِ
مَالِلْمُحِقِّ وللسُّرورِ وإنَّهُ ... يَفْري ظَلامَ الغَيْبِ طولَ المُسْنَدِ[5]
مَالِلْمُحِقِّ وللسُّرورِ وقَدْ رأى ... في مَعْهَدِ الأحْبَابِ مَنْ لَمْ يَعْهَدِ[6]
مَاحَالُ مَنْ أَمْسَى غَريمَ غَرَامِه ... وَافَى فَلَمْ يَرْدُدْ هَوَاهُ بِمَعْهَدِ[7]
بَانُوا فَأَوْحَشَتِ الدِّيارُ لِبَيْنِهِمْ ... وَمَضَوْا وخُلِّفْنا بِحَالِ مُجْهَدِ
وَجْدِي أناخَ علَى الفُؤادِ بِجُنْدِه ... فَثَوى وَنارِي في الحَشَا لمْ تَخْمدِ[8]
ياعَيْنُ جُودِي بالدُّمُوعِ عَلَيْهِمُ ... تَحْكِي نَظِيمَ اللُّؤلؤِ المُتَبدِّدِ
ياعَيْنُ جُودِي بالدُّموعِ وأتْبِعي ... مِنْهُنَّ أصْفَى مَورِدٍ بِمَوْرِدِ

١- في ط: ذاك المعهد.
٢- في ت: نجم.
٣- في ط: حتى ترى، وبها لا يستقيم الوزن.
٤- في ت: سراج الظواهر وفي ط : سر أخي.
٥- المُسنَدُ : الدهر.
٦- في ت: مالم يعهد.
٧- كذا في الأصل، «لم يردد»، وفي ت و ط: لم يردأ، وردأ: دعم وقوّى.
٨- في ت: فثوى.

يَاعَيْنُ جُودِي بالدُّمُوعِ فإنَّهَا ... عَلَمٌ عَلَى شَوْقِ المَشُوقِ المكْمَدِ(١)
ياعَيْنُ جُودِي بالدُّموعِ وسَلْسِلي ... سَلْسَالَهَا وَرِدِيهِ أعْذَبَ مَوْرِدِ(٢)
ياعَيْنُ جُودِي بالدُّموعِ هَوامِلاً ... لاتَسْأمي أنْ تَسْجُمي وَسطَ النَّدِي(٣)
ياعَيْنُ جُودِي بالدُّموعِ فإنَّها ... أشْفى لغُلَّة ذِي اشتياقٍ مُبْعَدِ(٤)
جُودِي وَسُحِّي لاتَشُحِّي وانْثُرِي ... دُرَرَ الجُفونِ وَواصِلِيها واصْرِدي(٥)
يانَفْسُ للدَّمْعِ الغَزيرِ فَصَوِّبي ... طُولَ الحَياةِ ولِلزَّفيرِ فَصَعِّدي [١١٣/أ]
هَذي حِلالُ المُصْطَفَى وَرُبُوعُهُ ... هَذي مَنازِلُهُ فَقُومي واقْعُدِي(٦)
لاعُذْرَ للأحْشَاءِ لم تُضْرَم بِها ... لاعُذْرَ للعَبَراتِ لَمْ تَتَبَدَّدِ
لاعُذْرَ للأجْسَامِ لاتَبْلَى بِهَا ... لاعُذْرَ للأحْزَانِ لَمْ تَتَجَدَّدِ
لاعُذْرَ في تركِ النَّحيبِ خِلالَها ... حَتَّى يُروِّيَ ذو الهَوى القَلْبَ الصَّدِي
كَذَبَ الهَوَى مَنْ حِلْفِ زَعْمٍ مُدَّعٍ ... أصْغَى لِنَوْحِ حَمامةٍ لَمْ يُسْعَدِ
كَذَبَ الهَوَى مَنْ حِلْفِ زَعْمٍ مُدَّعٍ ... نَحْوَ الحَبيبِ وَرَبْعِه لَمْ يُسْبِدِ(٧)
كَذَبَ الهَوى مِمَّن أتَى رَبْعَ الهَوى ... فاخْتَارَ فُرْقَتَهُ وَلَمْ يَتَقَيَّدِ
يَثْنِي الأعِنَّةَ رَاجِعاً أدْرَاجَهُ ... شَوْقاً عَراهُ لِزَيْنَبٍ أو مَهْدَدِ(٨)
يارَبْعُ قَدْ أخْلَيتُ رَبْعَ تَصَبُّري ... يارَبْعُ قَدْ أبْلَيتُ حَبْلَ تَجَلُّدِي(٩)

١- شوق: ليست في ط، والكمد: الهم والحزن.
٢- السلْسَال: الماء العذب السهل في الحلق.
٣- في ط: أو تسجمي، والندي: المنتدى. وسجم الدمع: سال.
٤- الغُلّة: شدّة العطش وحرارته.
٥- في ت و ط: واسردي، والتصريد: سقي دون الري، والتصريد في العطاء: تقليله.
٦- في ت: هذي خلال. في ط: هذه جلالة مصطفى، والحِلال: جمع بيوت الناس.
٧- التسبيد: الحلق واستئصال الشعر.
٨- في ط: عده. وورد اسم مهدد في مطلع قصيدة الفرزدق:
عرفت المنازل من مهدد ... كوحي الزبور لدى الغرقد
٩- في ت: أخليت ربع تجلدي.

يـارَبْــعُ رَبْعُكَ فِي فُــؤادِي آهِــلٌ ... لَمْ تُعْفِه ريحُ الزَّفيـرِ المُصْـعَدِ(١)
يـارَبْــعُ إنْ سَــاواكَ عِنْدِي مَنْزِلٌ ... طُوْلَ المَدَى فَأنَا المُســـيءُ المُعْتَدِي
يَارَبْــعُ أنْسَــانِي هَــواكَ مَنَازِلِي ... حَتَّى سَلَوْتُ -وَلَمْ أخُنْ- عَنْ مَوْلِدِي(٢)
يَارَبْــعُ وَالاكَ الــزَّمـانُ بِلِينِـه ... بَدَّدْتُ دَمْعِي فِـيكَ كلَّ مُبَدَّدِ
وَيقـــلُّ أنْ أبْكِي دَمَاً لأحِبَّــةٍ ... كَانـوا نُجـوماً فِي حِمـاكَ لِمُهْتَـدِ
يَارَبْـعُ قـادَتْـنـي إلـيكَ مَحبَّــةٌ ... مَلأتْ ضُلُوعِي بالسَّـعيرِ المُوقَدِ
إنْ كُنْتُ لَمْ أُزْمِعْ جِوارَكَ بُــــرْهَةً ... فَأنَا منَ اَوْصَافِ الهَوى صِفْرُ اليَدِ(٣)
وَنَوَيْتُ أنِّي إنْ عَدِمْتُ مُسَــــاعِداً ... صَــابَرْتُ فيكَ تَـوحُّدي وتَفَــرُّدِي
وَحَلَفْـتُ لاَ طَاوَعْـتُ فـيكَ مُفَـنِّـداً ... تبّاً لِمُصْـغٍ فيكَ نحـوَ مُفَـنِّدِ
لَكِـنْ قَضَـاءُ اللهِ عَاقَ إقَـامَتِــي ... وَأَقَامَنِــي نَحْــوَ الـتَّرحُّلِ مُقْعِـدِي
لَــوْلا مَوانِعُ مـاقَضـاهُ وَصِـبْيَةٌ ... تَبكِـي لِكُلِّ مُسَـجِّعٍ ومُغَـــرِّدِ
خلَّفْتُهـمْ فِي غُـرْبَــةٍ تَبْـكِي لَـهُمْ ... وُرْقُ الحَمَــامِ بِكُلِّ غُصْـنٍ أمْلَدِ(٤)
فِــي مُنتَــهَى الـغَرْبِ الَّذي مَادُونَهُ ... إلاَّ تَــلاطُمُ مَوْجِ بَحْرٍ مُزْبِدِ(٥)
مَاكُنْتُ أخْطو نحـوَ غيـرِكَ خُطوَةً ... حتَّى أُوَافِي مَضجَعِي فِي مَلْحَدِي [١١٣/ب]
لَكِـنَّنِي إنْ يُقْضَ لِـي بِلِقَائِهِمْ ... أُفْنِ الــزَّمـانَ بِـعَيْشِ صَبٍّ مُبْعَدِ
شَــوْقَاً إلَيْكَ مُكَــرِّراً ذِكْـراكَ فِي ... ضَــوْءِ النَّـهارِ وجُنْـحِ لَيْلٍ أرْبَدِ(٦)

١- في ط: لم يعفه. وعفت الريح الأثر: محته ودرسته.

٢- في ط: لم أنحن.

٣- وُصلت حمزة أوصاف ضرورة.

٤- غصن أملد: أي ناعم.

٥- المقصود بالبحر: المحيط الأطلسي حيث كان يقيم العبدري وأهله على شاطئه.

٦- ليل أربد: ليل أسود.

يَاصَاحِ كَرِّرْ ذِكْرَهُمْ وَحَدِيثَهُمْ ... فِي سَمْعِ ذِي الْقَلْبِ الْمَشُوقِ وَرَدِّدِ
يَاصَاحِ لاَتَأثُرْ سِوَى آثَارِهِمْ ... وأَثُرْ مَآثِرَهُمْ وأَمِّلْ واعْدُدِ(١)
سَكِّنْ بِمَا تَحْكِيهِ بَعْضَ بَلاَبِلِي ... كَمْ مِنَّةٍ لَكَ إِنْ فَعلتَ وكم يَدِ(٢)
نَقِّرْ ونَقِّبْ عَنْ مَنَاقِبِ نَقْبِهِمْ ... وَمَتَى تُرِدْ وَصْفَ الجَوادِ فَجَوِّدِ(٣)
حَقٌّ لآلِ الْمُصْطَفَى ولِصَحْبِهِ ... ولِرَبْعِهِ حُرُّ الثَّنَاءِ فَنَضِّدِ
وانْثُرْ نِثَارَ الجَفْنِ مِنْكَ فَإِنَّهُ ... حَقٌّ عَلَى مَنْ زَارَ رَبْعَ مُحَمَّدِ(٤)
خيرِ الأَنَامِ رفِيعِهِمْ وَرَبِيعِهِمْ ... وَشَفِيعِهِمْ فِي هَوْلِ يَوْمِ الْمَوْعِدِ
خيرِ الأَنَامِ، حَسِيبِهِمْ ونَسِيبِهِمْ ... وَطَبِيبِهِمْ مِنْ كُلِّ داءٍ مقصدِ(٥)
خَيْرِ الأَنَامِ نَبِيِّهِمْ وَوَلِيِّهِمْ ... وَعَلِيِّهِمْ، أَعظِمْ بِهِ مِنْ سَيِّدِ(٦)
قَدْ أَمَّ أُمَّتَهُ عَلاَءَ مجادةٍ ... فَعَلَتْ، ولَوْلا مَجْدُهُ لَمْ تَمجُدِ
بَهَرَ الخلائِقَ مِنْهُ نُورٌ باهِرٌ ... أَعْشَى، بلى أَعْمى عيونَ الحُسَّدِ
أَعْيا بَلاَغَةَ ذِي البَلاغَةِ مَدْحُهُ ... فالواصِفُ النَّطِّيقُ مِثْلُ الْمُفْرِدِ
نُورٌ جَلاَ ظُلَمَ الضَّلاَلَةِ فَانْجَلَتْ ... وَبِه اسْتَنَارَ فُؤادُ ذِي قَلْبٍ هَدِي(٧)
أَرْبى عَلَى الشَّمسِ الْمُنيرةِ بالضُّحَى ... فغدَتْ لَدَيْهِ شَبِيهَةً بالفَرْقَدِ
أَضْحى الْمَسِيحُ مُبَشِّراً بِقُدومِهِ ... وغَدا بِهِ قُسٌّ خَطِيبَ الْمَشْهَدِ(٨)

١- في ت و ط: تؤثر. وانثر مآثرهم.
٢- البلابل والبلبال: شدّة الهمّ والوسواس في الصدور وحديث النفس.
٣- في ط: ثقبهم. ونقّب عن الشيء: فحص عنه فحصاً شديداً والمناقب: المفاخر.
٤- في ت: قبر محمد.
٥- داء مُقْصد: قاتل.
٦- في ط: وعليمهم، أعظِمْ به...
٧- في ت: فاجتلت.
٨- هو قُسّ بن ساعدة الإيادي الخطيب المشهور.

وَلَطالَما هَتَفَتْ بذاكَ هَـواتـفٌ ... في سَجْعِها أَوْ في قَريضٍ مُنْشِدِ
وكَذَا سُطَيحٌ عِنْدَ شَقِّ ضَريحِه ... وَالى البيانَ بهِ ولمْ يتَردَّدِ(١)
كَمْ كاهِنٍ باحَتْ بهِ أَسْجاعُهُ ... مِنْ قَبْلِ مَنْعِ السَّمْعِ للمُتمرِّدِ(٢)
أَوْ راهِبٍ في دَيْرِه مُتَعبِّدٍ ... لمْ يَخْلُ منهُ مَعالمُ المُتَعبِّدِ
قَصُرَ اللِّسانُ عن الوَفاءِ بِحَقِّهِ ... إنْ رُمْتَ ذاكَ تَكِلُّ عَنْهُ وتَجْهَدِ
فَانْظُم بِقَدْرِكَ لاَ بِقَدْرِ كَمَالِهِ ... وَارْفَعْ صَحيفةَ غَارِمٍ لم يَجْحَدِ(٣) [١١٤/أ]
وَاخْضَعْ خُضوعَ مقصرٍ عَنْ وَاجِبٍ ... وَاجأَرْ جُؤارَ حَليفِ رَوْعٍ مُنْجَدِ
وَأَفِضْ غروبَ الدَّمْعِ منكَ وقُلْ له: ... خُدَّ الخُدودَ ومُرَّ لا تَترَدَّدِ(٤)
وَامدُدْ إليهِ يدَ السُّؤالِ لَعلَّهُ ... يَرْثي لَها فتَعودَ مَلآنَ اليَدِ
ياخَيْرَ مَنْ وَطِئَ الثَّرَى قَدَمٌ لَهُ ... ياخيرَ نَاطِقِ حِكْمَةٍ في مَشْهَدِ
ياخَيْرَ أَهْلِ الأَرْضِ يَا أَرْضَاهُمُ ... يَاخَيْرَ سَامٍ في السَّماءِ مُمَجَّدِ
ياخَيْرَ مَوْلودٍ تَقَدَّمَ كَوْنَهُ ... ياخَيرَ مَنْ هُوَ بَعْدُ لمَّا يُولدِ(٥)
ياخيرَ مَنْ نيطَ الرَّجاءُ بجاهِهِ ... ياخَيْرَ مَأمولٍ لِخَطْبٍ مُكْمِدِ(٦)
يَاخَيْرَ مَنْ قَرأَ الكتابَ مُرَتِّلاً ... ياخيرَ مَنْ هَجَرَ الكَرَى لتَهجُّدِ(٧)
إنّي أتيتُكَ قَاصِداً ومُسلِّماً ... مُسْتَسْلِماً لِتَغَرُّبي وتَوحُّدِي

١- ط: إليه لم يتردّد، وسطيح هو ربيع بن ربيعة بن مسعود بن عدي بن الذئب: كاهن جاهلي غساني كان العرب يحتكمون إليه ويرضون بقضائه. توفي بعد مولد النبي ﷺ في الجابية على مشارف الشام. انظر ثمار القلوب ١٢٥. مروج الذهب ٢/١٧٩ وتاريخ الخميس ١/٢٠١.

٢- يشير إلى منع الجنّ من استراق السمع بعد بعثة النبي محمد عليه السلام.

٣- الغارم: من عليه دين.

٤- خُدَّ: شُقّ.

٥- البيت ساقط من ت.

٦- الكمد: تغيرُ اللّون وذهاب صفائه.

٧- التهجّد: الصلاة بالليل.

أفْرِي المَهـامِهَ لـمْ يَلِتْنِي عَائِقٌ ... «عـجـلانَ ذا زادٍ وغـيـرِ مزَوّدِ»(١)

هَاجَرْتُ عَنْ أهْلـي إلـيكَ ومَعْشَرِي ... لتُجيرَني مِنْ شَرِّ مَااجْتَرَحَتْ يَدي(٢)

وَأتـيتُ بـابَكَ كي تـؤمِّـنَ رَوْعَـتـي ... وَقصَدْتُ جـاهَكَ فـي بلوغِ المَقْصَدِ

وَجَمَعْتُ فِي قَصْدِي إلـيكَ مَآرِبـي ... فعلَ الفَقيـرِ أتَى الكـريمَ لِمَـوْعِـدِ

ثِقَةٌ بـفَضْلكَ لاَ اغْترارٌ بـالمُنَى ... وَالغَـيْـثُ إنْ ينـزلْ بأرضٍ يَقْصِـدِ

حَاشَاكَ أنْ يـأتي جنـابَك قـاصِـدٌ ... فَيعـودَ دُونَ تَمكُّنٍ بالسُّؤدَدِ

كَمْ ذَا نَـدَبْـتُ مـآثمـاً بمـآثـمٍ ... أرْجُو لـهـا عفْواً بـقَصْدكَ سَيِّدي

كَمْ حـاجـةٍ عَمرَتْ حَشَايَ وَمَطْلَبٍ ... أرْجـو لَدَيْكَ قَضـاءَها وكَأنْ قَـدِ(٣)

مَاإنْ رَفَعْـتُ إلى سِـواكَ مَطـالِبي ... مـاإنْ حَلَلْـتُ سِـوى نَداكَ بمَـوردِ

لـمْ أرْجُ ذا مُلْـكٍ ولا ذا إمْـرةٍ ... وإذا تَهـمُّ النَّفْسُ قُلْتُ لَهـا ابـعـدي

فَمَن اسْـتَنارَ بِنُورِ شَـمْسٍ بـاهِرٍ ... ألْقَى الذُّبالَ فـأوْقـدي أو أخْمِدي(٤)

لَمّـا حَـلَلْـتُ ذُراكَ دَامَ بَهـاؤُهُ ... وَعَلِمْتُ أنّي مِنْهُ جـدٌّ مـؤيّدِ(٥)

نـادَيْتُ دَهْرِي: لا أخـافُكَ مــرّةً ... «فَابْرِقْ بأرضِكَ مـابدا لكَ وارعدِ»(٦)

أنَا ضَـيْـفُ رَبِّي ثمَّ ضَـيـفُ نبيِّهِ ... أمْنٌ إلـى أمْـنٍ فـأوعِدْ أوعِـدِ(٧) [١١٤/ب]

١- لاته عن أمره لَيْتاً وألاته: صرفه. أفري: أقطع. الهامه: واحدها مَهْمَه المفازة البعيدة. وقد ضمّن العبدري عجز بيت النابغة في ديوانه ٢٨ وصدره:

أمن آل مية رائح أو مغتدي ... وهو مطلع قصيدة مدحية.

٢- في ط: جرحت يدي، واجترح السيئة: اقترفها.

٣- في ت و ط: أرجو إليك. أي وكأن قد قضيت فحذف الجملة.

٤- في ت: فأخمدي أو أوقدي. والذُّبالَة: الفتيلة.

٥- في ت: دارك وبها لايستقيم الوزن.

٦- تضمين عجز بيت المتلمّس في ديوانه ١٤٧ وصدره: فإذا حللت ودون بيتي غاوة.

٧- في ت: أوعدّ، وبهالايستقيم الوزن.

وانهَضْ بحـقٍّ ليـسَ يُجْحَـدَ أَوْكَـدِ ... حَـقُّ النُّهـوضِ لِحقٍّ ربِّكَ أوْكَـدِ
وَاهجُرْ، وَجُرْ، أو عُدْ إلى وَصْلِ امرِئٍ ... مـا إنْ يُبـالـي نَالَ وَصْلَكَ أوْعـدِ(١)
أَنَا فـي حمًى مَن لايخيـسُ بذمَّـةٍ ... فَخْرِ الـوَرَى خَيْرِ الـبَرِيَّةِ أحْمَدَ(٢)
أَنَا فـي حمًى مَنْ لايُوَفّـي مَدْحَـهُ ... شعرُ الكُميْتِ ولا أغاني مَعبَدِ(٣)
أَنَا في حمى مَنْ لايُحيطُ بمـدحِه ... لَفْظُ البليـغِ ولاَ يَراعُ مُمَجِّدِ(٤)
أنا في حمى مَنْ هدَّ كسْرى ذكرُه ... وَمَحَا الرُّسُـومَ عَلى قَديمِ الفَرقَدِ
بَدْرِ الدُّجا، بَحْرِ النَّدَى، فَخْرِ الوَرى ... مَأْوَى الضَّعيفِ ومَلْجإِ المسْتَنْجِدِ
قَصُرَ امْتداحِي عَنْ عظيمِ خلالِه ... هـذا وقَدْ أسكتَ كلَّ مُقصِّدِ(٥)
يَانَفسُ إنْصافاً قَصُرْتِ عَنِ المَدَى ... فَقِفي عَلَى قَدَمِ الحَياءِ وأنْشِدي
هَذا رَسُولُ اللهِ تحْفَةُ قادِمٍ ... مُزْجِي البِضاعَةِ سائلٍ مُسْتَرْفِدِ(٦)
فاصْفَحْ بِفضلِكَ وَاقْبَلَنْها إنَّها ... جَهْدُ المُقِلِّ وبُلْغَةُ المتزوِّدِ(٧)
وعَلَيْكَ مِنْ عطْرِ السَّلامِ مُرَدَّدٌ ... كالنَّوْرِ فاحَ بِسَاحَةِ الرَّوضِ النَّدي
مِنِّي وَمِنْ أَبَويَّ جَادَ عليهِما ... عَفْوُ الإلهِ بمسكَنٍ وَبِمَلْحَدِ

١- في ت: ملاق لايبالي، وبها لايستقيم الوزن.

٢- لايخيس: لايغدر.

٣- هو الكميت بن زيد الأسدي شاعر الهاشميين صاحب الهاشميات توفي سنة ١٢٦هـ ترجمته في خزانة الأدب ١/١٤٤. الأغاني ١٧/١-٤٠. ومعبد هو ابن وهب. أبرز المغنين في العصر الأموي. كان أديباً فصيحاً توفي سنة ١٢٦هـ ترجمته في الأغاني ١/٣٦-٥٩.

٤- في ت و ط: مجوِّد، واليراع: القلم.

٥- في ت و ط: عظيم جلاله.

٦- بضاعة مزجاة: قليلة مردودة تدفع وترفض رغبة عنها.

٧- رواية البيتين في ط:

وعليك من عطر السلام مردد ... جهد المقل وبلغة المتزوّد
فاصفح بفضلك واقبلنها إنها ... كالنور فاح بساحة الروض الندي

ومِنَ أخْوَتي، وقَرابتي، وصَحَابتي ومُجاوِري، ومُحاوِري في مَسْجِد
وَمِنَ امْرِىءٍ كَلِفٍ بِحُبِّكَ مُولَعٍ بِرَجا [نوَا] لكَ خُصَّهُمْ بتَفَقُّدِ[1]
١٤٠ - وَمِنَ الأنامِ صَغيرِهِمْ، وكَبيرِهِمْ مَوْجُودِهِمْ طُرّاً ومَن لمْ يُوجَدِ
مَاهَاجَ ذِكرُكَ مُغرَماً في مَغرِبٍ فَقَرى إلى شَرْقٍ أديمَ الفَدْفَدِ[2]
ذا مُقْلَةٍ تهمي إليكَ ولَوْعَةٍ مَهْما تَرُشُّ بِعَبْرَةٍ تتَوقَّدِ[3]

فصل

في بناء مسجد رسول الله ﷺ - وقبلته

قدم رسول الله ﷺ المدينة يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الأوّل ونزل في بني عَمرو بن عَوْف[4] على كلثوم بن الهِدْم[5] وأقام عندهم اثنتين وعشرين ليلةً، وقيل: أربعَ عشرة ليلة، وقيل: أربعاً، وقيل: ثلاثاً، ثمّ توجهَ إلى المدينة يوم الجمعة، فنزل على أبي أيّوب الأنصاريّ[6] وأقام عنده [١١٥/أ] سبعة أشهر حتّى ابتنى مساكنَهُ ومسجدَه.

١- في الأصل وط: برجالك. في ت: يرجو نوالك.
٢- في ت: شوق.
٣- همى الدمع: سال. ترشرش الدمع: سال وقطر.
٤- في ط: عضو وهو تحريف، وعمر بن عوف: جد جاهلي. انظر جمهرة الأنساب لابن حزم ٣٣٢ .
٥- هو كلثوم بن الهدْم بن امرئ القيس بن الحارث بن زيد، نزل عليه النبي بقباء أول ما قدم المدينة توفي قبل بدر بيسير. له ترجمة في طبقات ابن سعد ٦٢٣/٣، الإصابة ٢٨٨/٣، وانظر السيرة لابن هشام ٤٩٣/١، والروض لأنف ٢٣٧/٢ .
٦- أبو أيوب الأنصاري: هو خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة صحابي شهد العقبة وبدراً وأحداً والخندق، وكان شجاعاً صابراً تقياً محباً للغزو عاش إلى أيّام بني أميّة، وخرج في جيش يزيد ابن معاوية لفتح القسطنطينية. توفي سنة ٥٢هـ . له ترجمة في طبقات ابن سعد ٤٨٣/٣، الإصابة ٤٠٤/١ .

[بناء الرّسول للمسجد]

وكان موضعُ المسجد مِرْبَداً[1] لسَهل وسُهيل[2] : غلامين في حجر أسْعد بن زُرارة[3] وقيلَ في حِجْرِ أبي أيّوب [4]فابتاعَهُ رسول الله ﷺ منهما، وقيل أرضاهما منه أبو أيوب[4]، وقيل :إنّهما وهباه لرسول الله ﷺ، فبناه [5]رسول الله ﷺ [5] مسجداً، وعمل فيه مع أصحابه، فأحاط به حائطاً من غير أساطين ولا سقف، وجعله مئةَ ذراع طولاً ومئةً عرضاً، وقيل : أقلُّ من ذلك على ماتقدّم ذكره، ورفعَ حائطَهُ قَدْرَ القامة. فلمّا اشتدّ الحرُّ كلّموهُ في تسقيفه، فسقَفَهُ بالجَريد والعشب والثُّمام[6] والإذخر[7]، وأقام فيه أساطينَ من جذوعِ النَّخل؛ فلمّا جاء الشّتاء ونزل المطر وَكَف[8] عليهم، فكلّموه في عمله بالطّين. فقال «كلاّ،[9] ثُمامٌ وخَشَابٌ وعريشٌ كعَريشِ موسى»[10]. والأمر أقرب

١- المربد: كل شيء حبست به الإبل والغنم.

٢- سهل وسهيل: أبناء رافع بن أبي عمر بن عائد بن ثعلبة بن غانم بن مالك بن النجار. وقيل، كانا يتيمين عند معاذ بن عفراء ، انظر السيرة ٤٩٦/١ .

٣- أسعد بن زرارة بن عدس النجاري من الخزرج: أحد الشجعان الأشرف في الجاهلية والإسلام من سكان المدينة، أحد النقباء الاثني عشر. مات قبل وقعة بدر فدفن في البقيع في السنة الأولى للهجرة. له ترجمة في الإصابة ٥/١- طبقات ابن سعد ٦٠٨/٣، الاكتفاء ٤٦٥/١ .

٤-٤- سقطت من ط.

٥-٥- سقطت من ط.

٦- الثُّمام: نبت معروف في البادية. ولا تجهده النعم إلاّ في الجدوبة.

٧- الإذخر: حشيشة طيبة الرائحة تسقف بها البيوت فوق الخشب.

٨- وكف البيت: هطل ومطر.

٩- ليست في ت.

١٠- لم أقف عليه بهذا النص.

من ذلك، ويروى :« ظلّةٌ كظلّةِ موسى». قيل: وما ظلِّة موسى؟ قال : «كان إذا قامَ أصابَ رأسه السّقفَ ».

وجعل للمسجد ثلاثة أبواب، ثم سدّ الباب الجنوبي لمسجد الرّسول حين حُوِّلت القِبْلة كما تقدّم، فبقي المسجدُ كذلك حياةَ رسول الله ﷺ وحياة أبي بكر.[1]

قُلت : وممّا يُسأل عنه [2]فيما تقدّم من بيع[2] الغلامين أو هبتهما، وهما في الحجر، ومَحْمَلُ[3] ذلك على أنّهما كانا بالغَيْن مالكَين لأمرهما[4] كما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنه أنّ الغلام الّذي قتله الخضر عليه السّلام كان مجتمع السِّنِّ[5]، وأنشدوا في ذلك قول ليلى الأخيَلِيّة[6] تمدح الحجّاج:[7]
[الطويل]

شَفَاهَا مِنَ الدّاءِ العُقَامِ الّذي بِهَا غُلامٌ إذا هَزَّ القَنَاةَ سَقَاهَا[8]

وقوله في حجر أسعد بن زُرارة، يعني في كَنَفِهِ وحِماه، ولم يكن إذ ذاك حجر شرعي حتّى يحمل هذا عليه.

١- انظر خبر بناء المسجد في سيرة ابن هشام: ٤٩٦/١ وما بعدها.
٢-٢- سقطت من ت.
٣- في ط: يحل.
٤- في ت و ط: أمرها.
٥- مجتمع السِّنّ: أي بلغ أشُدّه، وانظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢١/١١.
٦- ليلى الأخيلية: شاعرة كان لها مع توبة بن الحميّر أخبار وكانت وفاتها سنه ٧٥هـ. ترجمتها وأخبارها في الأغاني ٢٠٤/١١.
٧- البيت في ديوان ليلى الأخيلية ١٢١ من قصيدة في مدح الحجاج.
٨- في الديوان: الداء العضال.

[زيـادة عـمـر]

ثمّ زاد في المسجد عُمر بن الخطّاب رضي الله عنه، وقال : لولا أنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ينبغي أنْ نزيدَ في المسجد»(1): مازدتُ فيه، فأزال [أساطينَ](2) الخشبِ وجعل مكانها أساطين من لِبْنٍ، وجعل الأساسَ من حِجارةٍ إلى القامةِ، وجعلَ على ظهرِ المسجدِ سترةً من ثلاثة أذرعٍ، وجعلَ لهُ ستّةَ [115/ب] أبوابٍ: شرقييّن، وغربييّن، وشماليّن، وقال في باب النِّساء: ينبغي أن يُتركَ هذا للنِّساءِ، فما رُئي فيه حتّى لقيَ اللهَ، وقال :لو زدنا في هذا المسجد حتّى يبلغ الجبانة لكان مسجد رسول الله ﷺ(3). وأسند الشّريف أبو الحسن إلى رسول الله ﷺ أنّه قال :«لو بُني هذا المَسْجدُ إلى صَنْعاءَ لكانَ مَسجدي»(4) وأراد عُمر العبّاسَ رضي الله عنهما أن يدخل فيه موضعاً له، فمنعه العبّاس، وكان فيه ميزاب يصبُّ في المسجد، فنزعه عمر وقال :إنّه يؤذي النّاس، فحكّما(5) بينهما أُبيَّ بنَ كَعْب(6)، وأتيا إلى داره فحبسهما عند الباب ساعة، ثمَّ أذِنَ لهما، وقال :كانت جاريتي تغسل رأسي، فأراد عمر أن يتكلّم

1- هو في وفاء الوفا 2/481.

2- من المناسك.

3- هو في المناسك 361، ووفاء الوفا 2/481.

4- أورده السيوطي في الجامع الصغير 2/129 وقال عنه: ضعيف، وهو في فردوس الأخبار للديلمي 3/424 وكنز العمال 12/237-257، وكشف الخفاء: 2/414.

5- في الأصل: فحكّم.

6- أبيّ بن كعب بن قيس بن عبيد من الخزرج صحابي كان قبل الإسلام حبراً من أحبار اليهود، وكان يعرف القراءة والكتابة، وكان من كتّاب الوحي بعد إسلامه، شهد المشاهد كلها مع الرسول. اشترك في جمع القرآن على عهد عثمان بن عفان، وله في كتب الحديث 164حديثاً. توفي سنة 22 أو 30هـ بالمدينة المنورة، له ترجمة في صفة الصفوة 1/474 وحلية الأولياء 1/250. الإصابة 1/31، ابن سعد 3/498.

فقال له :يابن الخطّاب! دَعْ أبا الفضل يتكلّم لمكانه من رسول الله ﷺ، فقال العبّاس :خطّة خطّها لي رسول الله ﷺ، وبنيتها معه وما وضعتُ [(1] الميزاب[1)] إلاّ ورجلاي على عاتقِيْ رسول الله ﷺ، فجاء عمر فطرحه وأراد إدخالها في المسجد. فقال أُبيّ :إنّ عندي من هذا عِلماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أراد داودُ أن يبنيَ بيتَ المقدس وكان فيه بَيتٌ ليتيمينِ فراوَدَهما[2] على البيعِ فأبيَا، ثمَّ أرادَهما[3] فباعاه، ثم قاما بالغَبن[4]، فردّ البيع، ثمَّ اشتراه[5] منهما، ثم ردّاه كذلك حتّى استعظم داودُ الثّمن فأوحى الله إليه إن كنت تعطيهما من شيء هو لكَ فأنت أعلم، وإن كنت تعطيهما من رزقنا فأعطهما حتّى يرضيا، وإنّ أغنى البيوت عن مَظْلمة بيتٌ هو لي، وقد حرّمت عليك بناءه. قال :ياربّ فأعطه سليمان، فأعطاه سليمان[6]». فقال عمر :من لي بأنّ رسول الله ﷺ قاله؟ فقال أُبَيّ :تكذّبني؟ لتخرجَنّ من بيتي، ثم خرج أُبَيٌّ إلى قوم من الأنصار، فأثبتوا ذلك له. فقال عمر :أما إنّه لولم أجد غيرك لأخذتُ قولك ولكنّي أردتُ أن استثبت، ثم قال للعبّاس :والله لاتردُّ الميزاب إلاّ وَقَدمَاك على عاتقي، ففعل ذلك العبّاسُ ثم قال :أما[7] إذا ثبتت لي فهي صَدَقة لله عزّ وجلّ فهَدَمَها عمر وأدخلها في المسجد[8].

١-١- في ت: وما وضعته.

٢- في ت و ط: فأرادها.

٣- في ت: راودهما.

٤- الغَبْن: الظلم.

٥- في ط : فاشتراه.

٦- الحديث في المناسك ٣٦٢، بخلاف في اللفظ، وفيه: إن صاحب الحق كانت عجوزاً، وفي وفاء الوفا ٢/٤٨٨-٤٨٩.

٧- ليست في ط.

٨- الخبر بكامله في المناسك ٣٦٢- ٣٦٣ ورحلة ابن بطوطة ١/١٣٥-١٣٦ بخلاف في اللفظ. ووفاء الوفا ٤/٤٨٨-٤٨٩.

قُلتُ :هذا الحديث تعضُدُه الأصولُ من قول رسول الله ﷺ [١١٦/ب] «كلُّ ذي مالٍ أحَقُّ بمالهِ»[١]. وقوله :«إنَّ دماءَكُمْ وأموالَكُمْ وأعراضَكُمْ حَرامٌ»[٢].

وقوله حين أراد أن يبني مسجده «ثَامِنوني بحائِطِكُمْ»[٣]. ولم يُرد أخذه إلاّ برضا أصحابه، وإن كان أخْذُه من المصلحة العامّة. وهذا يَردُّ فِعلَ من أجبر النّاسَ على البيع من الأمراء. وليس فِعْلُ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه في شراء الدّور المجاورة للكَعْبة [٤]من هذا في شيء فإنّه قد بيّن خصيصي الكعبة[٤] بقوله «إنّما نزلْتم عليها، ولم تنزلْ عليكم»[٥] فدلّ بهذا على أنّها لو نزلَتْ عليهم لكان لهم منْعُ أموالهم، والله أعلم.



١- الحديث في مسند ابن حنبل ٥/١٢ وسنن البيهقي ٦/١٧٨ وفي كنز العمال ٦/١٨٩.

٢- مما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام في خطبة حجة الوداع، انظرها في صحيح مسلم رقم ١٤٧ في كتاب الحج باب حجة النبي ﷺ ، وابن ماجه ٧٦ ورقم ٣٠٥٥ باب خطبة يوم النحر، والطبراني الكبير ٨/١٦٧، والضعفاء للعقيلي ٢/٩٥ .

٣- في ط: بحائطهم وهو تحريف، والحديث أخرجه البخاري في الصلاة باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية رقم ٤٢٨-١/٥٢٤، وفي البيوع صاحب السلعة أحق بالسوم رقم ٤١٠٦-٤/٣٢٦ وفي مناقب الأنصار باب مقدم النبي وأصحابه المدينة رقم ٢٩٣٢-٧/٢٦٥، وفي الوصايا باب وقف الأرض للمسجد رقم ٢٧٧٤-٥/٤٠٤ وباب إذا قال الواقف لانطلب ثمنه رقم ٢٧٧٩-٥/٤٠٩، وأبو داود في الصلاة باب بناء المسجد رقم ٤٥٣و٤٥٤ وابن ماجة في المساجد - باب أين يجوز بناء المساجد رقم ٧٤٢- والنسائي ٢/٤٠ وابن حنبل ٣/١١٨- ١٢٣-٢١٢.

٤-٤- سقطت من ت.

٥- سلف القول وتخريجه في الصفحة ٣٨٥ .

[زيادة عثمان]

ثمّ زاد في المسجد عثمانُ رضي الله عنه وبناهُ بقوّةٍ وباشر ذلك بنفسه، فكان يظلُّ فيه نهارَه كلَّهُ، وربّما أقام[1] فيه، وبيّضهُ بالفضّة، وأتقن عمله بالحجارة المنقوشة، ووسّعه من كل جهة إلاّ المشرق[2]، وجعلَ أعمدتَهُ من حجارةٍ مثبتة بأعمدة الحديد والرّصاص، وجعلَ أبوابه ستّة على ماكانت عليه قبله، وسقفه بالسّاج، وجعل له محراباً، وهو أوّل من بنى المحراب[3]، وقيل: أول من بناه مروان بن الحكم، وقيل: عمر بن عبدالعزيز في خلافة الوليد على مايأتي ذكره إن شاء الله تعالى[4].

[زيادة الوليد]

ثمّ زاد فيه الوليد بن عبدالملك، وولى عمله عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه فوسّعَه وحسّنه[5] وبالغ في إتقانه وعمله بالرّخام، والسّاج المذهّب. وكان الوليد قد بعث إلى ملك الرّوم :إنّي أردتُ أن أبني مسجد نبيّنا ﷺ الأكبر فأعِنّا فيه بعمّال. فبعث إليه عِدّة من الرّومِ والقُبْطِ، وثمانين ألفَ مثقالٍ ذهبٍ، وبالسّلاسلِ الّتي فيها القناديل، وأمر الوليد بإدخال حُجَر النّبيّ ﷺ في المسجد[6]، فاشترى عُمَرُ مامنها في الشّرق والغرب والشّمال، فلمّا صار إلى

١- في ت و ط: قام.

٢- المناسك: ٣٦٣

٣- ثمة ملاحظة على هامش ت تقول: عليّ أول من بنى المحراب.

٤- انظر رحلة ابن بطوطة ١٣٦/١.

٥- كان ذلك سنة ٩١هـ.

٦- المناسك ٣٦٥.

القبلة امتنعَ عُبيد الله بنُ عبد الله بن عُمَر من بيع دار حَفْصَةَ[1] فقال عمر: لابُدَّ لي من إدخالها في المسجد، وطالَ الكلام بينهما حتَّى ابتاعها منهم على أن يكون لهم مابقي منها، وأن يُخرجوا من باقيها طريقاً إلى المسجد، وهي الخوخة الّتي [١١٦/ب] في المسجد[2]، وأظنُّها الّتي قد مرَّ ذكرُها، ولكنّهم ذكروا أنّ خوخة آل عمر كانت تخرج من تحت المقصورة وهذه[3] بعيدة منها إلاّ أن يكون طريقها قد غُيِّر عن موضعه، وجعل عمر للمسجد أربع منارات، في كلّ ركن واحدة وكانت الرّابعة مطّلّةً على دار مروان. فلمّا حجّ سليمان ابن عبدالملك[4] أذّن المؤذّن فأطلَّ عليه فأمر بها فهُدمت وجعل عمر للمسجد محراباً وشُرافات، وقيل :إنّه أوّل من أحدث المحراب[5]. ونظر القاسم وسالم[6] إلى شُرافات المسجد فقالا : إنّها من زينته، وقد جاء أثرٌ بالنّهي عن الصّلاة في مسجد له قذافات، وفُسّرت بالشّرافات، وليس الآن فيه شرافات ولاتزويق وبالله التّوفيق.

١- حفصة بنت عمر بن الخطاب: صحابية جليلة صالحة من أزواج النبي ﷺ روى لها البخاري ومسلم في الصحيحين ستين حديثاً توفيت بمكة سنة ٤٥هـ . له ترجمة في الإصابة ٢٦٤/٤، وأعلام النساء ٢٨٤/١ .

٢- المناسك ٣٦٧، وابن بطوطة ١٣٧/١.

٣- في ط: وهي بعيدة.

٤- سليمان بن عبد الملك بن مروان: خليفة أموي ولي بين سنتي ٩٦-٩٩هـ، له ترجمة في تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٢٥ ومابعد .

٥- المناسك ٣٦٨. وابن بطوطة ١٣٧/١ وانظر زيادة الوليد على المسجد في وفاء الوفا ٥١٣/٢ .

٦- القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق توفي سنة ١٠٧هـ وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب توفي سنة ١٠٦هـ فقيهان من فقهاء المدينة السبعة، من سادات التابعين. انظر ترجمة القاسم في: نكت الهميان ٢٣٠، صفة الصفوة ٤٩/٢ وترجمة سالم في صفوة الصفوة ٥٠/٢ وغاية النهاية: ٣٠١/١، حلية الأولياء ١٩٣/٢ .

[زيادة المهدي]

ثمَّ زاد فيه المهدي محمَّد بن أبي جعفر المنصور، وكان والده أبوجعفر(1) همَّ بالزيادة فيه ولم يُقضَ ذلك له. وكتب إليه الحَسَنُ بن زيد(2) يُرغّبه في الزّيادة فيه من جهة الشّرق، ويقول :إنّه إنْ زِيدَ منها توسّط قبر النّبي ﷺ المسجد(3)، فاتّهمه أبو جعفر أنّه إنّما أراد هدم دار عثمان، فكتب إليه :قد عرفْتُ الّذي أردت، فاكفف عن دار الشّيخ عثمان بن عفّان رضي الله عنه، وأمر أبو جعفر بستور للصّحْنِ تُنْشرُ عليه في أيام الجُمَعِ زمانَ القيظ على حبال ممدودة على خَشَب، قد أقيمت في الصّحن تكُنُّ المصلين من الحرّ(4)، وبقيت تلك السُّتوَر زمانا(5)، وتوفي أبو جعفر ولم يزد فيه شيئاً، وزاد فيه ولده المهديّ من ناحية الشّام خاصّة مئة ذراع (6)وكان طول المسجد في بناء الوليد مئتي ذراع فبلغَهُ المهدي ثلاث مئة ذراع وسوّى المقصورة بالأرض، وكانت مرتفعة عنها ذراعين، وكُتبَ اسم المهدي على مواضع(7) من المسجد(6)،

١- أبو جعفر المنصور: ثاني خلفاء بني العباس، هو باني بغداد، ولي بين سنتي ١٣٦-١٥٨هـ له ترجمة في تاريخ الخلفاء: ٢٥٩ ومابعدها.

٢- الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب: أمير المدينة كان من الأشراف، ولاّه المنصور على المدينة خمس سنين ثم عزله وحبسه في بغداد. فلما ولي المهدي أخرجه، توفي سنة ١٦٨هـ بالحاجر في طريقه إلى الحج مع المهدي، ترجمته في ميزان الاعتدال ١/٢٩٤ تاريخ بغداد ٧/٣٠٩.

٣- في ت و ط: في المسجد.

٤- انظر ابن بطوطة ١/١٣٧.

٥- جاء في كتاب المناسك ٣٧٢ «....لم تزل هذه الستور كذلك حتى خرج محمد بن عبد الله بن حسن في جمادى الآخرة سنة ١٤٥هـ فأمر بها فقطعت دراريع لمن كان يقاتل معه فتركت حتى كانت ولاية هارون فأحدث هذه الأستار».

٦-٦- الفقرة ساقطة من ط. وانظر تفاصيل الزيادات في المسجد النبوي في المناسك ٣٧٣.

٧- في ت: في.

وعلى الأبواب مع كلام كثير ومع آيات من الكتاب العزيز[١] وسور تامّة من القصار، وقد بالغ في استيفاء ذلك الشّريف أبو الحسن في كتاب المدينة، وذكر أنّ المسجد بقي على بناء المهدي إلى زمانه، وقد بني بعده وغُيّر أكثر الأشياء الّتي ذكر، وقد تقدّم أنّه كان له عشرون باباً ثمّ سُدّت [١١٧/أ] إلاّ الأربعة، وقد كان وقع فيه الحريق في هذه المدّة الأخيرة، فاحتيج إلى تجديده وإصلاح ماحترق فيه، وأمر الملك المنصور في هذه الأعوام ببناء دار الوضوء عند باب السّلام من ناحية الغرب، وتولى بناءها الشّيخُ الصّالح[٢] الأمير المسدّد علاء الدّين الأعمى[٣] – وصل الله توفيقه – فأقام هنالك داراً مُتّسعة متقنة، وأجرى إليها الماء، وأدارها بالبيوت، وأحدث في ذلك من الرّفق بالنّاس، وإدخال الرّاحة عليهم مايقصر عنه الوصف[٤]، وقد كان الملك المنصور أمره بإقامة مثلها في مكة، فعاق عن ذلك ماحدث بها[٥] من الفتنة الّتي تقدّم ذكرها.

[المِنبَر]

وأمّا المِنبَر، ففي الحديث أنّ رسول الله ﷺ كان يخطب إلى جذع نخلة في المسجد، فلمّا صُنع له المنبر وتحوّل إليه، حَنَّ إليه الجذع حنين النّاقة إلى

١- في ط: القرآن، وانظر تفصيل ذلك في المناسك ٣٩٠-٣٩٥.

٢- في ت: العالم.

٣- علاء الدين الأعمى الرّكنيّ الزاهد: ناظر أوقاف القدس والخليل، أنشأ العمائر والربط، وأثر الآثار الحسنة في القدس والخليل والمدينة النبوية، توفي سنة ٦٩٣هـ. وصلي عليه بدمشق. له ترجمة في نكت الهميان ١٢٣ والوافي بالوفيات ٩/٤٨٥ وتالي وفيات الأعيان ١٥-١٦ .

٤- في ت: الوصف عنه.

٥- في ط: لها.

حُوارِها[1]. وروي أنّهُ نزل إليه فالتزمَهُ فسكَنَ فقال: «لولم التزمْهُ لحَنَّ إلى يومِ القيامة»[2]. وقد أبدعَ في وَصْفِهِ غايةَ الإبداعِ أبو محمّد عبد الله بن يحيى الشّقراطسيّ رحمه الله حيث قال: [البسيط]

حيَّى فمات سُكُوناً ثـمَّ ماتَ لدُنْ حيِّى حَنيناً فأضْحى غايةَ المَثَلِ[3]

يعني أنه حين حَيِيَ بقُرب النّبي ﷺ منه كان ذا سكون، والسُّكون للميت، وحين ماتَ بتَحولِّهِ عنه كان ذا حنين، والحنين للحيّ؛ وهذا بديع مليح جداً، ولو روي «فمات سكوتاً» بالتَّاء المثنّاة،كان أبدع للمطابقة بين السُّكوت والحنين، ولكن الرّواية فيه بالنّون، واختلفت الرّوايات في الّذي صنع المنبر؛ ففي بعضها تَميم الدّاريّ[4] وفي بعضها غلام للعبّاس، وفي بعضها غلام لامرأة[5] من الأنصار. وصنع من طَرْفاء الغابةِ، وروي من الأثْل، وهما واحد. وكان ثلاثَ، درجات، فكان عليه السّلام يقعد على الثّالثة ويضع رجليه على الثّانية[6]، فلمّا ولي [أبو بكر قعد على الثّانية ووضع رجليه على الأولى،ولمّا ولي][7] عُمَرُ

١- الحُوارُ: ولد الناقة ساعة تضعُهُ، أو إلى أن يُفصَل عن أمّه.

٢- أخرجه البخاري في كتاب الجمعة. باب الخطبة على المنبر رقم ٩١٨- ٢/٣٩٧ بخلاف في اللفظ والترمذي في كتاب الصلاة. باب ماجاء في الخطبة على المنبر رقم ٥٠٥- وابن ماجه كتاب إقامة الصلاة باب ما جاء في بدء شأن المنبر رقم ١٤١٥، والنسائي ٣/١٠٢ وابن حنبل ١/٢٤٩- ٢٦٧ و٣٦٣و٣/٢٩٥، ٣٠٠، ٣٠٦، ٣٢٤،و٥/٣٣٧-٣٣٩.

٣- لدن: ليست في ط وبدونها لا يستقيم الوزن.

٤- هو تميم بن أوس بن خارجة الداري: صحابي أسلم سنة ٩هـ كان يسكن المدينة ثم انتقل إلى الشام بعد مقتل عثمان. ونزل بيت المقدس فكان عابد أهل فلسطين. روى له البخاري ومسلم ١٨ حديثاً. ترجمته في صفة الصفوة ١/٧٣٧- الإصابة ١/١٨٦، طبقات ابن سعد ٧/٤٠٨.

٥- في ط: غلام إمرأة.

٦- في الأصل الأولى.

٧- مابين حاصرتين سقط من الأصل والتتّمة من ت وط.

قَعَد على الأولى ووضع رجليه على الأرض، وفعل ذلك عثمان صدراً من خلافته، ثمّ ترقّى إلى الثّالثة. ولمّا رجع الأمر إلى مُعَاوية أراد نقل المنبر إلى الشّام، فضجَّ المسلمون، وعصفت [١١٧/ب] ريح هائلة،وخسفت الشّمس حتّى بَدَتْ النّجوم، وأظلمت الأرض حتّى كان الرّجلُ يصادم الرّجلَ، ويناطح الجدار، لايرى مسلكاً. فلما رأى ذلك تركه. وزاد ستَّ درجات من أسفله (١فصار تسعاً١). ولما وقع الحريقُ بالمسجدِ احترقَ المنبرُ حتّى لم يبقَ منه، إلاّ قطعةُ عودٍ فَصُنِعَ منبرٌ آخر ساج(٢)ـ وهو الّذي في المسجد الآن - وجُعِلَتْ تلكَ القِطْعَةُ في داخله بإزاء نُقْبٍ يُدخِلُ منه النّاسُ أيديَهم فيمسحونَها تبرّكاً بها. وكان بين موضعِ(٣) المنبرِ وبينَ حائطِ القِبْلَة قَدْرَ ذراعٍ، فلمّا زيد في القِبْلَةِ بقي المنبرُ بموضعه إلى الآن، وما أعلم أنّي صلّيت أمامه في الصّفّ الأوّل، لأنّي استعظمت أن أتقدّم مُصلّى رسول الله ﷺ وأوليَهُ ظهري.

وفي حائط المحراب أمام المُصلّى على نحو القامتين، أو أقلّ يسيراً، شكلٌ ناتىء(٤ أكحل برّاق٤) أمْلَس كأنه رأس خشبة أبنوس مخروط، وقد ذكر صاحب كتاب المدينة أنّه عود كان في جدار القِبْلَة، وكان رسول الله ﷺ يتمسك به إذا أقيمت الصّلاة، ثم يلتفتُ يميناً وشمالاً ويقول «سَوُّوا صُفوفَكُمْ [أو ليخالفَنَّ الله بين قلوبِكُمْ](٥)» فإذا استوت كبّر(٦). فلما توفيَ رسولُ الله ﷺ

١-١- سقطت من ط.
٢- في ط: ساذج، والسّاجُ: شجر عظيم صلب الخشب أسْوَدُه.
٣- ليست في ط.
٤-٤- في ط: براق أكحل، والأكحل: الأسود.
٥- زيادة من ت وط.
٦- أخرجه أبو داود في الصلاة، باب تسوية الصفوف رقم ٦٦٢ بخلاف في اللفظ وابن حنبل ٢٧٩/٤ بخلاف في اللفظ، وابن ماجه في إقامة الصلاة، باب تسوية الصفوف رقم ٩٩٤ وحلية الأولياء ٣٢/٩ وكنز العمال ٦٢٩/٧.

فُقدَ، فلم يَجِدْهُ أبو بكر ووجَدَهُ عُمَرُ في خلافته عند رجل بقُباء[1] وقد دفنه حتّى أكلته الأرَضة[2]، فأخذ له عمر عوداً فشقّه وأدخله فيه،ثمّ شعّبه وردّه بموضعه[3]. فلمّا زاد عمر بن عبدالعزيز في القِبْلَةِ جعلَه في المحراب؛ والنّاسُ يتحيَّلون لِلَمْسهِ تبركاً به، والحجّاج يحرصون عليه،ويرمون ثيابهم إليه، وتراهم يحمل بعضهم بعضاً ليتّصلوا به،ولا يعرفون ماهو كما جرت عادتهم في غيره.

[القِبْلَةُ]

وأمّا قِبْلَةُ مسجد النّبيّ ﷺ فقد تقدّم أنّها قِبْلَةُ قَطْعٍ لأنّه ﷺ أقامها، وقيل: إنّ جبريلَ أقامها له، ويروى أنّه كان يشير للنّبيّ ﷺ إلى سمتها وهو يقيمها، ويروى أيضاً أن جبريل عليه السّلام أشار إلى الجبالِ والشّجرِ فتنحّتْ حتّى بدت الكَعْبَةُ، فكان رسول الله ﷺ يبني وهو ينظرُ إليها عياناً. وبكلّ اعتبار فهي قِبْلَةُ قَطْعٍ، والحجّةُ في قول رسول الله ﷺ، [١١٨/أ] وفي فعْله معاً[4]، وهو المعصوم في كلّ ماياتي ويذر ﷺ. وكانت قبلة مسجد رسول الله ﷺ أوّل ماورد المدينة إلى بيتِ المقدسِ، ثمّ حُوّلَتْ إلى الكعبةِ بعد ستةَ أوسبعةَ عَشَر شهراً. وهي مُسامتةٌ للجنوب حقيقةً، خلافَ ماذَكَرَ القاضي أبو الوليد الباجيّ من أنّها مائلةٌ عن الجنوب إلى الشّرقِ كثيراً، بل أقولُ: إنّها إلى الغرب أمْيَل، وقد تهمَّمتُ بذلك واعتبرته[5] بالمدينة على ساكنها

١- قُباء: موضع بينه وبين المدينة سبعة أميال، وهي منزل رسول الله ﷺ قبل أن يسير إلى المدينة ونزل على كلثوم بن الهِدْم. انظر معجم ما استعجم: ١٠٤٥، المغانم المطابة ٣٢٣.

٢- الأرضة: دودة بيضاء تأكل الخشب.

٣- المناسك: ٤٠٣.

٤- ليست في ت وط.

٥- في ط: فاعتبرته.

الصّلاة والسّلام، فوقفتُ في صَحْنِ المسجد حيث أرى المنازل، واستقبلت المحراب فوجدت سمتي إلى الثُّريّا[1]، وهي ذاهبة عن التّوسّطِ شيئاً قليلاً، وأينَ ذلكَ من قولِ الباجيّ؟ وأظنُّه لم يعتبر ذلك بالحسّ حين رآه، وإنّما اعتمدَ على مايروى عن ابن عَبّاس وغيرِه أن قِبْلَةَ المدينةِ إلى الميزاب، وذلك يعطي أنّها[2] إلى المطلع الشّتوي كما تقّدم، وذلك ما[3] لايصحُّ بوَجْهٍ، ولعلّه لم يَثْبُتْ عن ابنِ عبّاسٍ، وإن ثبت فلعلّهُ أراد بالميزابِ ناحيتَهُ، والجهةَ التّي هو فيها لاعَيْنَ الميزاب والله أعلم. وإذا ثبتَ بالحسّ أنّها مسامتَةٌ للجنوب فهي إذاً إلى الرّكن الشّآمي، وهو على يسار الميزاب مناظراً للرّكن اليمانيّ المحاذي لحقيقة الجنوب كما مرّ ذكره وبيانه، وبالله التّوفيق.

[الرّحيل من المدينة]

ثمّ رحل الرَّكْبُ من المدينة يوم الأربعاء الموفّي ثلاثين لذي حجّة، راجعاً من طريقنا[4] حتّى قرب من وادي الصّفراء، فتيامَنَ وخرج من مَضيقٍ يُعرف بنُقْبِ عليّ، مُصوِّباً على الدَّهْناء، ثم على يَنْبُعَ ماراًّ على الطّريقِ الأوّلِ إلى عَقَبَةِ أيْلَةَ، فتيامَنَ منها بعضٌ إلى الشّام، وصوّب الأكثرُ إلى مِصْرَ. وكان الرَّكْبُ الشّآميُ رحلَ من المدينةِ على طريقِ المُعلّى إلى تَبوكَ[5] وصَحِبَهُ أكثرُ المغاربةِ حِرْصاً منهم على تقريب المسافةِ إلى الشّام لأنّها أقربُ من طريقِ

١- الثريا: من الكواكب، سميت لغزارة نوئها، وهي مجموعة من النجوم.

٢- في ت و ط: أنه.

٣- في ت: مما لا يصح.

٤- في ت: طريقه.

٥ - تبوك: موضع بين وادي القُرى والشام، بينه وبين المدينة اثنتا عشرة مرحلة. انظر ياقوت: ٢/١٤.

البرِّيَّةِ بكثير، ولكنّها طريقٌ شاقّةٌ قليلةُ الماء جداً، ورِدُها على سَبْعَةِ أيّامٍ، فحملهم الكَسَلُ والحَيْنُ المقدّر إلى سلوكها مع ضَعْفِهِمْ وتَهتُّكِ قُواهم، فوقع عليهم الثَّلجُ وهم بالقُرب من عمَّان فأفنى(١) منهم خَلْقاً كثيراً. وذكر بعضُ مَن حَضر ذلك [١١٨/ب] أنَّه قد أُحصي منهم ألفُ وسبعُ مئةٍ، وما أعلم أنّه مات ممّن رجع على الطّريق الأوّل إلاّ أقل من عَشَرة ماتوا بالمرض.

[التّعريف بعلاء الدّين الأعمى]

وسافرنا من عَقبة أيْلة إلى الشّام صُحبةَ الأمير الصّالح عَلاء الدِّين الأعْمى(٢) - وصل الله عُلاه - فرأيت منه رجلاً قلَّ أن يسمحَ الدَّهْرُ بمثله، سَخاوةُ نفسٍ، وسراوةُ همّةٍ، ومَتانَةُ دين، وصحّةُ يقينٍ، إلى علمٍ جَمٍّ قد حَفِظَهُ سَماعا، وذكاءٍ مُتّقدٍ يلمعُ إليه بالأمور الخفيّة إلماعا، وصلاحٍ مُعْجِزٍ لايُبارى، وسَبْقٍ في ميدانِ الفضائل(٣) لايُجارى، وصَبْرٍ في ذاتِ الله على تحمّلِ الأذى، وإغضاءٍ للجفون طَلَباً لمرضاته على القذى، ينام النّاسُ وهو ساهر، ويستكنّون(٤) وهو ظاهر، ويريحونَ وهو سارح، ويستريحونَ وهو غادٍ ورائح، رَعْياً منه للفقراءِ والمساكين، وذَبّاً للأذى عمّن دبَّ إليه الرّدى ولامُعين، يدأبُ على ذلك ولايَملّ، ويصمّم عليه بعَزْمٍ يعقد(٥) ولايحلّ؛ على أنّ السِّنَّ قد أخذَتْ منه مأخذَها،(٦ وجُنْدَ المشيبِ قد استولى على الشّبيبةِ فأخذها٦)؛ تنسكبُ

١- في ط: خلقا منهم.

٢- توفي سنه ٦٩٣هـ انظر نكت الهميان ١٢٣.

٣- في ط: الفضل.

٤- يستكنّون: يستترون.

٥- في ط: يقعد.

٦-٦- سقط من ط.

أناملُهُ للعُفاةِ[1] بالنَّيْل انسكابا، وتزري بوبل الغيث سحّاً[2] وانصبابا، وأمّا الفراسة فلو رآه إياس، لعراهُ إياس؛ فضيلة ديانة، لانتيجة زكانة، وصنع قدير، لاتصنيع تقدير، وتوفيق قدر، لاتدقيق نظر، ونور بصيرة، يُستمدُّ من صلاح سريرة؛ وقد حضرته واقفاً في مضيق والنّاس يخطرون عليه، فخطرت امرأة على بعير مع قوم مُشاة، فلمّا أحسَّ بمشيها قال لهم: أهي امرأة؟ فقالوا: نعم. وأخبرني من أثق به أنّه رآه يقف على البنّائين في حرم الخليل عليه السّلام وفي القدس، فيقول لهم: هذا مُتقنٌ وهذا غير متقن، ولايزال يعرِّفهم بما في بنائهم من عيب، ويَقِفُهم[5] على دقائق مافيه من فسادٍ، ممّا لايمكن البتّة أن يُتَعرَّف إلاّ بالمشاهدة. وله مجلس علم يحضره، ولايتخلّف عنه؛ وناهيك بشيخ[6] كبير، رئيس ملك من الملوك،يجلسُ للفقراء يدرّسونَه من الصّباح إلى المساء، ويقعد بين يدي المقرىء مجوّداً عليه للكتاب العزيز [١١٩/أ] غير مستند قُعود الصبيِّ بين يدي معلّمه، لايأنف ولايتكبر، ولايَعْتو ولايتجبّر فسبحانَ من له الإبداعُ والإنشاء ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يشاء﴾[7].

١- العُفاةُ: جمع عافٍ. وهو كل من جاءك يطلب فضلاً أو رزقاً.
٢- في ط: سمحاً وهو تحريف.
٣- في ت: على.
٤- ليست في ط.
٥- في ت: يوقفهم.
٦- في ط: من شيخ.
٧- الآية ساقطة من ط، وهي اقتباس من الآيتين ﴿والله يختص برحمته من يشاء والله ذو فضل عظيم﴾ البقرة ١٠٥. والآية ﴿يختصّ برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ آل عمران ٧٤.

[ذكر الخليل]

ثمَّ وصلنا بعد ثمانية أيام إلى المحلّ الأنيس؛ والمعهد الَّذي يُتخيرّ فيه مَقيل وتعريس؛ والمنزل الذّي حكم له القَدَرُ بالسّعادة حين التّأسيس، مثوى كلّ خاشع ومُنيب[١]، ومُستَقرٌ كلّ خائف حَذِرٍ من التّأنيب، ومناخ كلّ مشتاقٍ يحنُّ حنين النّيب[٢]، حرم الخليل[٣] عليه السّلام، وهي قرية مليحةُ المنظر، أنيقة المسموع والمَنْبصر، مشرقةٌ كالصُّبْح إذا أسفر، موضوعة ببطنِ وادٍ قليلِ الماء والشّجر، والمحيط بها حِرار[٤] وَعْرَةٌ، والمسجدُ بنيّة أنيقةٌ، من المباني القديمةِ الوثيقة، عاليةُ البناء،محكمةُ العَمل،من صخور منحوتةٍ في نهايةِ العظَم. منها صخرةٌ في الرّكن الّذي على يسار القِبْلَة وهي من الأرْضِ على قَدْرِ القامةِ، فيها سبعةٌ وثلاثون شبْراً، يَتَعَجَّبُ النَّاسُ منها ومن وَضْعِها هنالك، ويُقال: إنَّ البنّية كلّها من صَنْعَة[٥] الجنّ أمرهم سليمانُ عليه السَّلام بتجديدها[٦] على الغار لما دَثَرَ ماكان عليه بتقادمِ الأعْصار، وفيها تحريفٌ عن الجَنوبِ إلى الشّرقِ؛ فلما رُدّتْ مسجداً جُعِلَ لَها[٧] المحْرابُ في الوَسَط كسائر المساجدِ تحسيناً لصورتها، ثمَّ رُدَّ الرُّكْنُ الأيمنُ محْراباً آخرَ تنبيهاً على تشريقها، وفي داخل المسجد قبرُ الخليلِ وإسحاقَ ويعقوبَ عليهم السّلام، وتُقابلها من ناحيةِ يسارِ القِبْلَة ثلاثةٌ أخرى هي قبورُ أزواجِهِم، وكان في

١- المنيب: التائب.

٢- النيب: الناقة المسنّة.

٣- انظر الأنس الجليل ٢/٧٦-٨٥.

٤- الحَرّةُ: الأرض الصلبة الغليظة التي ألبستها حجارة سود نخرة.

٥- في ت: صنع.

٦- في ت و ط: يتجر يدها.

٧- ليست في ت.

غربي المسجد قبرُ يوسُفَ عليه السلام، دُفِنَ هنالك حينَ نُقِلَ من مصر بوصيّة، والآن قد زيد في المسجد حتّى رجع قبره في داخله، وعلى يمين المنبر لاصقاً بجدارِ القِبْلَة نفقٌ يُهْبَطُ منه على دَرَجٍ من رُخامٍ، متقنةِ العَمَلِ إلى مَسْلَكٍ ضيّقٍ هوَ مَمرُّ إنسانٍ واحدٍ، ويُفضي إلى فسحةٍ ليست بكبيرةٍ مفروشةٍ بالرُّخامِ، وفيها صورُ ثلاثةِ قبورٍ مقابلةً للدّاخِلِ في طولِ الحائطِ مُصْطَفّةً من الشَّرْقِ إلى الغَرْبِ، ويقالُ هي علاماتٌ للقبور [١١٩/ب] محاذيةٌ لها، وكذلك التّي في المَسْجِدِ؛ وذلك أنّه كان هنالك غارٌ كبير وفيه القبور، ثمّ سُدَّ كلُّه إلاّ بالمدخل المذكور. وجُعِل للقبور علاماتٌ محاذيةٌ في بطن الغار وهي الّتي في المدخل، وفي ظاهره، وهي الّتي في المسجد. وكان باب الغار في مؤخّرِ المسجد عند قبرِ يعقوبَ كما سيأتي ذكره، ثمّ رُدَّ عندَ المحرابِ كما ذكرنا، وقد نزلْتُ إليه وتأمّلته مراراً، ودعوتُ الله فيه سرّاً وجهاراً والحمد لله على حُسن عونه.

[مقابر الأنبياء]

وقد رأيت أن أقيّد هنا شيئاً ممّا ذكر في هذه القبور وفي الغار ومايتصّل بذلك بحول الله وقوّته، وما التّوفيق إلاّ بهِ.

وجدتُ بخطّ الفقيه، القاضي، المحدّث، الإمام، أبي عبدِ الله مُحمّدِ بن أحمدَ بنِ مُفَرّجٍ الأندلُسيّ(١) - رحمه الله - في تآليفِ عليٍّ بنِ جَعْفرٍ الرّازيّ الّذي(٢) سماه «المسفر للقلوب عن صحّةِ قبرِ إبراهيمَ الخليلِ وإسحاقَ ويعقوب». وهو جزءٌ لطيفٌ نقلتُهُ من خَطِّ ابن مُفَرّجٍ - رحمه الله - وهو روى

١- هو محمد بن أحمد بن مفرّج الأندلسي: قاضٍ، محدّث، من أهل قرطبة رحل إلى المشرق في طلب العلم والحديث، وتولى القضاء في أستجة وريّة، من كتبه فقه الحسن البصري، وفقه الزهري. ترجمته في تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي ٢/٩١- جذوة المقتبس ٤٠ .

٢- ليست في ط.

فيه[1] عن مؤلِّفه المذكور حَديثاً صَدَّرَ به التَّأليفَ مسنداً إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قالَ رسولُ الله ﷺ: لمّا أُسريَ بي إلى بيت المقدس مرَّ بي جبريلُ إلى قبرِ إبراهيمَ فقال: انزلْ صلِّ هاهنا ركعتين فإنّ هاهنا قبرَ أبيكَ إبراهيمَ ﷺ. ثمّ مرّ بي ببيتِ لحمَ فقال: انزل صلِّ هَاهُنا ركعتين فإنَّ هاهنا وُلِدَ أخوكَ عيسى. ثم أتى بي إلى الصَّخرة. وذكر الحديث في الإسراء»[2].

وفي الجزء المذكور بخطه سمعتُ أبا بكرٍ [محمَّد بنَ][3] أحمدَ بنَ عمرو[4] بن جَابر يقول -وقد سُئل عن قبرِ إبراهيم الخليلِ صلواتُ الله عليه- وعن صِحَتِّه فقال: مارأيتُ أحداً من الشّيوخِ الّذين لحقتهم من أهل العلم إلاّ وهم يصحّحونَ أنَّ هذه قبورُ إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ وأزواجهم صلوات الله عليهم، ويقولون: مايطعن في ذلك إلاّ رجلٌ من أهل البدَع، وقال أبو بكر: هذا[5] نَقَلَ الخَلَفُ عن السَّلفِ ليس عندي فيه شكّ. وذكر أبوبكر أنَّ مالكَ بنَ أنسٍ قال: إنَّ النَّقلَ أصحُّ من الحديث، لأنّ الحديث ربّما وقع فيه الخطأ، والنّقل لا [١٢٠/أ] يقع فيه الخطأ. وفيه بخطّه: سمعت عبدَالواحدِ بن رِزْقٍ يقول: قَدِمَ أبو زُرْعَةَ[6] القاضي الدّمشقيّ إلى مسجد قبر إبراهيم فجئنا لننظر[7]

١- في الأصل: روايته وهو تصحيف.

٢- الحديث في الأنس الجليل ٥٦/١، ابن بطوطة ٧٤/١-٧٥.

٣- زيادة في ت و ط.

٤- في ت وط: عمر.

٥- في ط: هكذا

٦- أبو زرعة الدمشقي: هو عبدالرحمن بن عمر عبد الله بن صفوان النّصري: من أئمة زمانه في الحديث ورجاله مولده بدمشق ووفاته فيها سنة ٢٨٠هـ له كتاب في التاريخ وعلل الرجال ومسائل الحديث والفقه. له ترجمة في طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ١٤٨-١٥٠ .

٧- في ت و ط: ننظر.

إليه،فرأيته وقد وقف عند قبرِ سارةَ في وقْتِ الصَّلاةِ، فدخل شيخ فدعاه، فقال: ياشيخُ أيّما هو قبرُ إبراهيمَ من هؤلاء؟ فأومأ إلى قبر إبراهيم. (1 فجاءه شاب فدعاه فقال: ياشاب! أيّما هو قبر إبراهيم من هؤلاء؟ فأومأ إلى قبرإبراهيم 1).

ثمّ جاءه صبيٌّ فدعاه فقال: ياصبيّ! أيّما هو[2] قبر إبراهيم من هؤلاء، فأومأ الصَّبيُّ إلى قبر إبراهيم ومضى. فقال أبو زرعة: أشهد أنّ هذا قبر إبراهيم الخليل لاشكَ فيه، هذا هو الصّحيح نقل الخلف عن السَّلف كما قال مالك بن أنس، ثم دخل إلى داخل المسجد فصلّى الظُّهر ثمّ رحل من الغد[3].

وفيه بخطّه سمعت أبا بكر [محمد بن][4] أحمد بن عمرو بن جابر يقول: خرجت سنةً من السِّنين أنا وأبو بكر بن المَرْجيّ وجماعة من أهل العلم والوَرَع إلى مسجد قبر إبراهيم، وكان لهم إمام يكنّى بأبي حامد، فقال لنا: رأيت في ليلة النّصف من شعبان وقد ركعت، وقعدت عند المنبر،فنعستُ، فرأيتُ فيما يرى النّائم كأنّ آتياً أتاني فقال: تحبُّ أن تنظر إلى القوم؟ وقد كنت أسأل الله أربعين سنة أن يُرينيهم، فقلت: نعم: فأخذ بيدي إلى مؤخّر المسجد قريباً من قبر يعقوب عليه السّلام فقلع بلاطةً فإذا قد أضاء منها النّهار، فدخل ودخلتُ معه، وإذا القبورُ صَفٌّ واحد؛ الرّجال صفّ، والنّساء

١-١- سقط من ت.

٢- ليست في ت و ط.

٣- انظر الخبر مفصلاً في الأنس الجليل ٤٦/١ والرواية فيه عن الحسن بن عبدالواحد بن رزق الرازي.

٤- زيادة من ت وط.

صفٌ، كما هم فوق. على كل واحد منهم غطاء أبيض، فرفع غطاء قبر يعقوب فإذا هو كهلٌ من الرِّجال كثير بياض اللّحية، ملقًى على قفاه، مستقبل القبلة، فقال: هذا يعقوب، ثم ردَّ عليه الغطاء، ومضى حتّى أتى قبر إبراهيم في الوسط وعليه غطاء أبيض فرفعه، فإذا شيخ أبيض الرَّأس واللّحية، أبيض الحاجبين، كأنّ وجهه القمر، وهو على قفاه مستقبل القبلة. فقال:هذا إبراهيم ﷺ ، وردّ عليه الغطاء ومضى ومضيت معه، ثمَّ[1] جاء قبرَ إسحاقَ فقلت في نفسي: ليت فُلاناً كان معي حتّى يراهم، فالتفتَ إليَّ، وهو أمامي فقال: إنّ فلاناً لايقدر أن [١٢٠/ب] ينظر إلى هؤلاء لأنّه مُشاحِنٌ،[2] والمُشاحنُ لايرى هؤلاء، ثم انتبهتُ[3] ولم أبلغْ قبر إسحاقَ قال: فحكيت هذه الحكاية لعليٍّ بنِ محمَّدٍ بنِ هارونَ إمام كان في مسجد إبراهيم أقام به[4] نحو عشرين سنة فقال: أنا رأيت باب المغارة في مؤخر المَسجد، وأراني بلاطة وقال: هذه على الباب، وهو درج ينزل منه، ثم يعطف إلى القبلة قريباً من قبر يعقوب.

[سكنى إبراهيم عليه السَّلام الشَّام]

وفيه بخطّه عن كعب الحَبْر حديث في سُكنى إبراهيم الشّام، قال فيه: ثم أوحى الله إليه أن انزل مِمرْى[5] فرحل ونزل مِمرْى، ونزل عليه جبريل وميكائيل بِممرْى وهما يريدان إلى قوم لوط. فخرج إبراهيم ليذبح لهم العِجْل، فانفلت[6] منه، فلم يزل حتَّى دخل مغارة حبرون، ونودي إبراهيم: سلّم على عظام أبيك آدم، فوقع ذلك في نفسه، ثمّ ذبح العِجْل، وقدّمه[7] إليهم[8]. وكان

١- في ت: حتى. ٢- المُشاحن: المعادي.
٣- في ت: انتهت. ٤- في ت: فيه.
٥- في الأصل: مصرة، وهو تحريف وسيبين العبدري الوجه الصحيح لكتابها في الصفحة ٤٦٤ .
٦- في ت: فأفلت.
٧- في ت: ومَرّ به.
٨- في ت و ط: إليها.

من شأنه ماقصَّ الله تعالى، فمضى معهم[1] إلى قرب من ديار قوم لوط فقالوا[2] له: اقعد هنا،فقعد واستلقى على قفاه، فلمّا رأى المدن انقلبت بأهلها، وسمع صياح الدِّيَكة في السَّماء قال: هذا هو الحقُّ اليقين، فأيقن بهلاك القوم، فسمّي ذلك الموضوع مسجد اليقين.[3] ثم رجع فطلب من عفرون المغارة، قال[4]: وكان مَلَكُ ذلك الموضع. فقال له بِعْني موضعاً أقبر فيه من مات من أهلي، فقال له: أيّها الشَّيخ الصّالح ادفن حيث أردْتَ، فأبى عليه إلاّ بثمن. فقال: أبيعك بأربع مئة درهم،في كلّ درهم خمسة دراهم، كل مئة منها ضَرْبُ مَلِكٍ. وأراد أن يشدّد عليه لكي لايجد فيرجع إلى قوله. فخرج من عنده، فإذا جبريل عليه السّلام فقال: إن الله عزّ وجَلّ قد سمع مقالة هذا الجبَّار لك. وهذه الدّراهم فادفعها إليه، فدخل عليه إبراهيم ودفع إليه الدَّراهم، فقال:[5] من أين لك هذا؟ قال: من عند إلهي ورازقي، فأخذ منه الدّراهم، فصارت المغارة مقبرة له ولمن مات من أهله. قال: وأوّل من مات [من أهله][6] ودُفن في حبرون سارة زوجة إبراهيم، ثمّ توفي إبراهيم فدُفِنَ بحذائها ثمّ توفيت ربقة زوجة اسحاق فدفنت فيها،[١٢١/أ] ثم توفي إسحاق فدفن بِحذائها، ثمّ توفي يعقوب فدفن عند باب المغارة ثم توفيت ليفا فدُفنت بحذاء يعقوب. ثم ذكر أنّ أولاد يعقوب تشاجروا حتّى سدّوا[7] باب المغارة، وحوّطوا

١- في ت: معهما وفي ط: بهم.

٢- في ت و ط: فقالا.

٣- انظر الأنس الجليل ٧٢/١.

٤- ليست في ت.

٥- في ط: وقال.

٦- زيادة من ت.

٧- في ط: سدُّ.

عليها حائطاً، وأعلموا[١] فيها علامات القبور، وكتبوا على كلّ قبر اسم صاحبه، وخرجوا عنه، وأطبقوا بابه، فكان من جاء زائراً يطوف به،لايصل إليه أحدٌ، حتّى جاء الرّوم ففتحوا له باباً ودخلوا إليه[٢]، وبنوا فيه كنيسة[٣].

وفيه بخطّه مسنداً إلى ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنه[٤]: لمّا أراد الله أن يَقْبِضَ روحَ خليلِهِ إبراهيمَ عليهِ السّلامُ، أوحى إلى الدّنيا إنّي[٥] دافنٌ فيك خَليلي، فتشامَخَتِ الجبالُ كلُّها فَرَحاً، واضطربتْ أركانُها، واستشرفَتْ لذلك، وتواضَعَتْ منها بقعَةٌ يقالُ لها: حَبْرون فشكر الله تعالى [لها][٦] ذلك، ودفنه فيها، فقال لها:[٧] ياحَبْرونُ أنت شوعي أنت شعشوعي، أنت قُدسي، أنت قدسُ قدسي، أدفن خيرتي من خلقي، فيك مغارة[٨] كنزي، وإليك أحشر أصفيائي وأحبابي من ولد خليلي من كل فجٍّ، فطوبى لمن وضع جبهته فيك (٩ساجداً لي٩)، أبوِّئُهُ[١٠] الأجر، وأجزل له الذُّخر، وأبارك فيه وفيك أيّام الدّهر، عليك تنزل بركاتي، وإليك تهبط ملائكتي، يستغفرون لمن زار خليلي

١- في ت: علّموا.

٢- في ت: عنهما.

٣- انظر الخبر مفصلاً في الأنس الجليل ١/٤٢-٤٣.

٤- في ت: عليه.

٥- في ت: أنا.

٦- زيادة من ت و ط.

٧- ليست في ت.

٨- زاد في ت: أدفن مغارة.

٩-٩- ليست في ط.

١٠- زيادة من ط.

وصفييّ، فطوباك، ثم طوباك، لارفعت رحمتي عنك، ولازال نوري وظلّي ينزل[1] عليك، ورحمتي [2]تنحدر عليك[2]، ولا خَذَلْتُ من زار قبر خليلي، ولازالت بركاتي عليك أيّام الدّنيا مضاعفة.

وفيه بخطّه عن وَهَب بن مُنَبِّه اليَمانيّ أنّه قال: إذا كان آخر الزّمان، حيل بين النّاس وبين الحجّ، فمن لم يحجّ، ولَحِقَ ذلك فعليه بقبر إبراهيم عليه السّلام فإنّ زيارته تعدِلُ حجّة[3]. وعن كَعْب الحَبْر [أنّه][4] قال: قبر إبراهيم وإسحاق، ويعقوب وسارة وربقة، وليغا[5]، على يوم من بيت المقدس، في البقعة المعروفة بحَبْرون، فمن زار منكم بيتَ المَقْدِسِ فليجعل مع زيارته زيارة قبر إبراهيم ﷺ [6].

قلت يظهر من الأحاديث المتقدّمة أنّ مِمرى اسم البلد، وحَبْرون اسم البقعة الّتي فيها الغار، وعَفْرون اسم الملك، وتقييدها [١٢١/ب] على ماوجدته[7]. بخطّ ابن مُفرّج، مِمْرى بميمين أولاهما مكسورة؛ وبعدهما راء مهملة بعدها ألف، وحَبرون بحاء مهملة مفتوحة بعدها باء بواحدة ساكنة، وراء بعدهاواو وآخره نون. وفي حديث آخر: حَبْرى مثل سَكْرى.

١- في ط: سأجزل لأبويه الأجر.

٢—٢- سقطت من ت.

٣- الأنس الجليل ١/٥٦.

٤- زيادة من ت.

٥- ليست في ت.

٦- في ت: عليه الصلاة والسلام.

٧- في ت و ط : وجدت.

وعَفْرون بعين مهملة مفتوحة بعدها فاء ساكنة وراء بعدها واو ونون، ورَبِقة براء مهملة[1] مفتوحة بعدها باء مكسورة، وقاف وآخرها تاء[2] التَّأنيث، ولِيغا بلام مكسورة،بعدها ياء باثنتين من تحتها ساكنة،وغين معجمة وآخرها ألف. وفي حديث آخر رَبِقه: بالرَّاء وهاء التَّأنيث. وأمَّا قوله من حديث ابن عبَّاس: شوعي وشعشوعي فلا أعرفه. ولولا أنِّي وجدتُهُ بخط من ذكرت ماجَسرتُ على نقله، وإنِّي من عهدته لبريء والله الموفِّق[3].

فَصل

[تربة لوط]

ثم زُرْنا تُرْبَةَ لُوطٍ[4]، وهي شرقيّ حَرَم الخَليل عليهما السّلام على تلٍّ مرتفعٍ يُشرِفُ منه على غَورِ الشَّام، وهو شرقيُّها وهنالك بُحيرةُ لوطٍ[5] وهو ماءٌ مستبحرٌ أجاج كماء البحر، وهي مُنقطعةٌ لاتتَّصِلُ بالبحرِ، ولاهي مِنْهُ قريبة، ويقالُ أنها موضعُ ديارِ قومِ لوطٍ والله أعلم، وعلى قبرِ لُوطٍ عليه السَّلام بنيّةٌ، وهو في بيتٍ منها مبيّضٍ مليحٍ، والقبرُ أيضاً مبيّضٌ[6]، ظاهر،

١- ليست في ت.

٢- في الأصل هاء. وأثبتّ ماجاء في ت وط، لأن العبدري سيورد الرواية للفظة بعد سطرين.

٣- في ط: وبالله التوفيق.

٤- يقع قبر لوط في قرية تسمى كفر بربك تبعد عن مسجد الخليل نحواً من فرسخ.انظر الأنس الجليل ١/٧٢.

٥- بحيرة لوط هي البحر الميت.

٦- زاد في ت: مبيّض مليح.

لاستورَ عليه، وبمقرُبَةٍ من هذه التُّربةِ مَسجِدُ اليَقين[1]، وقد مَرَّ ذكرُهُ وحديثُهُ في ذِكْرِ مغارةِ حَبرونَ، وهو أيضاً على تلٍّ مُرتفعٍ نَزِهٍ، لهُ زيادةُ رونقٍ وفَرطُ إشراقٍ، وليسَ هنالكَ إلاّ دارٌ واحدةٌ لاصِقَةٌ بالمسجدِ من ناحيةِ الشَّرْقِ، يسكنُها القَيِّمُ، وفي المسجد قريباً من الباب موضع منخفض في حجر صلد قد هُيِّيء له صورة محراب ليُعْلَمَ أنَّهُ مَرْكَعٌ[2]، ولا يَسعُ إلاّ مصليّاً واحداً، ويُقال: إنّه لما أيقن إبراهيم عليه السّلام بهلاك قوم لوط خرّ لله تعالى ساجداً، فتحرّكَ موضعُ سجودِهِ حتَّى ساخ في الأرضِ قليلاً، وهو حجر صَلْدٌ كما تقدّم، فَجُعل مركعاً تبرّكاً به. وبالقرب من المسجدِ مغارةٌ فيها قَبْرٌ يُزارُ، ويُتبرَّكُ به، وهو قَبْرُ فَاطمةَ بنتِ الحُسيْن بن علي رضي الله عنهم [١٢٢/أ] وقد وجدتُ عند القبرِ لوحينِ من رُخامٍ موضوعين، وأظنُّهما كانا مثبتين عند رأسِ القَبْرِ ورجليهِ، وفي أَحَدِ اللّوْحينِ منقوشاً عليه بخط مَشرقيٍّ مَليح:

« بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، لله العزّةُ والبَقاءُ، وله ما ذرأ وبرأ، وعلى خَلْقِهِ كتب الفناء، وفي رسولِ الله أسوةٌ [حَسَنَةٌ][3]. وعزاء، هذا قبر أم سَلَمة فاطمة بنت الحُسين »[4]، وفي اللّوح الآخر:

١- جاء في الأنس الجليل ٧٢/١ مانصّه « ... وعلى فرسخ من حبرون جبل صغير مشرف على بحيرة زعرو موضع قرى لوط، ثمّ مسجد بناه أبو بكر محمد بن إسماعيل الصياحي وفيه مرقد إبراهيم عليه السلام قد غاص في الصخر نحواً من ذراع، يقال: إن إبراهيم لما رأى قرى لوط وهي طائرة في الهواء وقف وقيل رقد - ثم قال: أشهد أنّ لاإله إلا الله وأن هذا هو الحق اليقين، ولذلك سميّ ذلك المسجد مسجد اليقين، وكان بناء ذلك المسجد في شعبان سنة ٣٥٢هـ.

٢- في ت: كان مركعاً.

٣- زيادة من ت.

٢- هي فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب: تابعية من روايات الحديث، توفيت سنة ١١٠هـ ترجمتها في أعلام النساء ٤٤/٤ ومصادرها ثمّة.

«صَنْعةُ[1] محمد بن أبي سَهْل النَّقّاش بمِصر» وتحته هذه الأبيات[2]:

[البسيط]

أسْكَنْتَ مَنْ كَانَ فِي الأحشاءِ مَسْكَنُهُ
بالرَّغم منّيَ بَيْنَ التُّرْبِ والحَجَرِ[3]

ياقبرَ فَاطِمَةٍ بِنْتِ ابنِ فاطِمَةٍ
بنتِ الأئمَّةِ بنتِ الأنجُمِ الزُّهُرِ

ياقبرَ بنتِ الزَّكيِّ الطَّاهرِ الحَسَنِ النْـ
نَدْبِ الهُمامِ حُسَيْنٍ أطْهَرِ البَشَرِ

ياقَبْرُ مافيكَ مِنْ دِينٍ وَمِنْ وَرَعٍ
ومن عَفافٍ، ومن صَوْنٍ، ومن خَفَرِ[4]

وكان موضع البيت الثّالث من اللّوح مثلوماً فذهب عَجْزُ البيتِ ولم يبقَ إلاّ الألف واللّام والنّون من النّدب، فكمّلت عليه بقيّةَ البيتِ،والحمد لله.

ثم سافرنا من حَرَم الخليل عليه السّلام بعدما أقمنا فيه خمسةَ أيَّامٍ وصلّينا به[5] الجمعةَ، إلى بيتِ المقدس، وبينهما مسيرةُ يوم. وزرنا في طريقنا

١- في ط: صنعه.

٢- الأبيات ١-٢-٤ في رحلة ابن بطوطة ٧٦/١ مع العبارة التي سبقتها. والبيتان ١-٢ في الأنس الجليل ٧٢/١.

٣- في ط: التراب والحجر، وبه لايستقيم الوزن.

٤- في ط: من صدق.

٥- في ط: فيه.

قبرَ يونسَ عليه السّلام، وهو على نحوِ ثلاثةِ أميالٍ من بَلَدِ الخليلِ عليه السَّلام، وعليه بنيّةٌ كبيرةٌ ومَسْجِدٌ. ومررنا في طريقنا ببيتِ لَحْمَ ولم[1] يُقضَ لنا دخولُه، وهو قريبٌ من بيتِ المَقْدِس، وقد تقدَّمَ أنّه مولدُ عيسى عليه السّلام، والنّصارى يعظمونَهُ، ويقومونَ به غايةَ القيامِ، ويضيفون من نزل به[2].

[ذكر بيت المقدس]

ثمّ وصلنا إلى بَيْتِ المَقْدِسِ – زاده الله تعظيماً – وأَلْحَقَهُ مبرّةً دائمة وتكريما؛ مسجدِ الأنبياءِ وقبلتِنا قديماً؛ ومطلعِ الأولياءِ يطلعهم عظيماً فعظيما. أحدِ المساجد الّتي إليها تُعمل المَطيّ، وتضاعَفُ الحسناتُ لكلّ برٍّ تقيّ؛ مصعدِ نبيّنا عليه السّلام، إلى مستوى يُسمع فيه صريرُ الأقلام، ومعراجِهِ حين عَسْعَسَ الظّلام، إلى مناجاة الملك العَلاّم؛ والقدسِ المقدّسِ المُنقّي[3] من الآثام، نُجْعةٌ[4] من رادَ،وريٍّ من حَام[5]، [١٢٢/ب] خفَقَ برقُهُ فوفّقَ من شَام، وتدفَّق وَدْقُهُ[6] فأفرق ذو الهُيام؛ لو نطق محتجّاً لفضيلةِ الشّام، لأفحمَ به العراقَ أيَّ إفحام.

والبلدُ مدينةٌ كبيرة، منيعةٌ، محكمةٌ، كلّها من صَخْرٍ منحوت، على نَشَزٍ غليظٍ مقطوعٍ بجهاتِ الأوديةِ، وسورُها مهدومٌ، هَدَمَهُ الملكُ الظّاهرُ خوفاً من استيلاء الرُّومِ عليها، وامتناعِهِمْ بها، والخرابُ فيها فاشٍ، وليسَ بها نهرٌ ولا

١- في ط: فلم.
٢- انظر ماكتب عن بيت لحم في الأنس الجليل ٢/٦٥
٣- في ت و ط: المنفي.
٤- النُّجْعة: طلب الكلأ في موضعه.
٥- حومان الطائر: دورانه حول الماء من العطش
٦- الوَدْق: المَطَرْ.

بستان. وحواليها تلال مشرفةٌ عليها، وبها كنيسةٌ معظّمةٌ عند النّصارى يحجّونها في كلِّ عام، وهي الّتي يزعمونَ أنَّ فيها قبْرَ عيسى عليه السّلام، وعلى كلّ من يحجُّها منهم ضريبةٌ معلومةٌ للمسلمين، وضروبٌ من الإهانَةِ يتحمّلُها راغماً. وبها رباطان متقابلان[١] في غايةِ الإتقانِ، بنى أحدهما الملك المنصور، وبنى الآخر الأميرُ علاءالدِّين الأعمى، وفي كليهما رزقٌ جارٍ للمنقطعين وأبناءِ السّبيل. وفي شرقيّ البلد وادٍ يُعرف بوادي جهنّمَ، في بطنهِ كنيسةٌ يعظّمها النصارى، ويقال: إنّ بها قبرَ مريمَ عليها السّلام، وفي عُدوتهِ على تَلٍّ مرتفعٍ مزاراتٌ[٢] منها قبر رَابِعة البدويّة[٣] بالباء، منسوبة إلى البادية، ومنها بنيّة أخرى يقال: إنّها مصعد سيّدنا[٤] عيسى عليه السلام.

[المسجد الأقصى]

وأما المسجدُ المقدّسُ فهو من المساجدِ الرّائقة، العجيبةِ، المنشرحةِ الفسيحةِ. وهو متسعٌ جداً طولاً وعرضاً. وذكر أبو عُبَيد البَكْريّ أنَّ طولَهُ: «سبعَ مئةٍ واثنانِ وخمسونَ ذراعاً بالمالكيِّ، وهو ثلاثةُ أشبارٍ، وطولُهُ من الجنوب إلى الشّمال، وعرضه أربع مئةٍ وخمسٌ وثلاثون[٥]» وهو من الشّرقِ

١- في ت و ط: متقاربان.

٢- في ط: منارات.

٣- لم أقف لها على ترجمة. وذكرها ابن بطوطة في رحلته ٧٧/١، وذكر صاحب كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات ٢٨: أنها زوجة أحمد بن أبي الحواريّ ومقامها بالخليل. أقول: وأكبر الظن أنها رابعة العدوية، جاء في وفيات الأعيان ٢٨٧/٢: «وقبرها يزار وهو بظاهر القدس من شرقية على رأس جبل يسمى الطور».

٤- ليست في ت و ط.

٥- من الجزء الضائع من المسالك والممالك.

إلى الغَرْبِ. ولهُ أبوابٌ كثيرةٌ من الشَّرق والغربِ والشّمالِ، ولا أعلمُ له باباً قِبْليّاً سوى البابِ الّذي يَدْخُلُ منه الإمامُ. وذكر بعض النّاس أنّ عددَها خمسون باباً.(١)

والمسجدُ كلُّه فضاءٌ غيرُ مسقّفٍ إلاّ النَّاحية الغربيَّةَ فهنالك مسجدٌ مُسَقَّفٌ في نهاية الإحكام، وإتقانِ العملِ، وفيه تزويقٌ كثيرٌ وتذهيبٌ رائعٌ مليح، وهذا المسَقّف في الرّكْنِ الغربيِ من ناحيةِ الجَنوبِ. وفي ناحيةِ الشَّرْقِ مواضعُ مُسَقّفةٌ مع طول الحائط، وعلى الأبواب [١٢٣/آ].

وهنالكَ موضعُ مَهْد عيسى عليه السَّلام، يُقْصَدُ للرُّكوعِ فيه والتّبرّكِ به وهو هَزْمة(٢) في الأرضِ مُبَيَّضَةٌ. وهذا الحائطُ الشّرقيُّ هو سورُ المدينةِ من ناحيةِ الشَّرْقِ، وهو على طَرَفِ الوادي المذكورِ أوّلاً، وعلى جهةٍ منه مُنْقطعة(٣)، بعيدةِ المهوى جدّاً.

[قبة الصخرة]

وفي وسط فضاءِ المسجدِ قُبَّةُ الصَّخْرَة،(٤) وهي من أعجبِ المباني الموضوعةِ في الأرضِ وأتقنِها، وأغربِها، قد نالَتْ من كلِّ حُسنٍ بديعٍ أو فَرِ حصّة، وتلت من الإتقانِ ظاهرَه ونصّه، وتجلّت في جمالها الرّائع كعروسٍ حسناءَ جُلِيت على مِنصّة. قامت مشرفة متبرّجة على يَفاع(٥)، تُصَرِّحُ وتلوّح

١- انظر ماذكره صاحب الأنس الجليل عن المسجد الأقصى وقياساته ١/٨٣ و ٢/٢٤ .

٢- الهَزْمَةَ: الحفرة.

٣- في ت و ط: منطقة.

٤- انظر وصف قبّة الصخرة والمسجد الأقصى في الأنس الجليل ٢/١٦.

٥- اليفاعُ: المرتفع من كل شيء، يكون في المشرف من الرمل والأرض والجبل وغيرها.

بالإعراب والإبداع، وتفصح بما يشرح عن فضيلةِ الصُنّاع، حَسّنها الأوّلُ فاستحسنَها الآخرُ وانعقد الإجماع؛ تنازعَ الكمال منها الظّاهرَ والباطن، لِمَا سَلِما معاً من كل عائب وشائنٍ، واجتمعت في كليهما أشتاتُ المحاسن. فإن أدلى الظّاهرُ بحُجته إلى حكمِ الطَّرفِ حَكَمَ له، وإن أعرب الباطنُ عن فضائله قالَ له الطَّرف: ماأكملَهُ!. تناصَف الحُسْنُ، وتماثلت الأدلّة،فليس إلاّ أن يقال في جواب المسألة أيّهما جاء أوّلاً عَمِلَ عمَلَهُ.

وَصِفَتُها أنَّها قُبّةٌ مثمّنةٌ على نشزٍ(١) في وَسَطِ المسجد، ويُطلع إليها في دَرَج من رُخام قد أحاطَ بها. ولها أربعةُ أبوابٍ، والدّائر مفروشٌ بالرُّخامِ المحكم الصّنْعةِ وداخلُها كذلك. وفي ظاهرها وباطِنها من أنواعِ التّزويقِ مايقصرُ عنهُ الوَصْفُ.

وأمّا الذّهَبُ فما رأيتُهُ مبتذَلاً في شيءٍ كابتذالهِ في هذه القُبَّةِ، حتّى لقد غُشّي(٢) به أكثرُها ظاهراً وباطناً، فهي تتلألأُ ساطعَةَ الأنوار؛ كلمعانِ برقٍ أو اشتعالِ نار، وقد ذُهِّبَ الأعلى من ظاهِرها إلى حدٍّ التّسقيف. وأُلبس سَقْفُها ليِّن(٣) الرَّصاصِ المحكمِ الإلصاقِ حتّى صارَ جَسداً واحداً. أمّا باطنُها فيكلُّ عن وصفهِ اللّسان، ويحارُ في حُسنهِ إنسانُ الإنسان، تبهَرُ النّاظرَ(٤) أشعّتُهُ الباهرة، وتستوقفُ الخاطرَ محاسنُهُ الظّاهرة.اسكَرَتْ [١٢٣/ب] العقولَ فصارتْ لها عقالاً، وأكلّت(٥) الألسنَ فما وَجَدتْ مقالاً، فاقت حُسناً وكمالاً،

١- النَّشز: ماارتفع وظهر من الأرض.
٢- غُشّيَ: غُطّيَ.
٣- في الأصل لين.
٤- في ت و ط: الناطق.
٥- في ط: كلّت.

فقطعت لسان من يغمز[1]، وراقت حُلًى وأوصافاً فأسَرَت فؤاد المتحرِّز؛ إن وَعَدَت الإعجاب خَبَراً فهي مُشاهَدَةٌ تُنْجِز، أو افتخر مكانٌ لتَحَدُّث من حُسنِها بالمُعجِز:[2] [الكامل]

شَرَكُ العُقولِ ونُزْهَةٌ مامثلُها   لِلنَّاظِرينَ، وعُقلَةُ المُسْتَوْفِزِ[3]

وفي وسط القُبَّةِ الصَّخْرَةُ[4] الّتي جاء ذكرُها في الآثار، وأنَّهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلام عرجَ عنها إلى السَّماءِ. وهي صخرةٌ صَمّاءُ. عُلوّها أقلُّ من القامَةِ، وتحتَها شبْهُ مَغارةٍ على مِقدارِ بيتٍ صغيرٍ يعلو قَدْرَ القامَةِ، ويُنْزَلُ إليه في دَرَجٍ، وقد هُيِّىء لهُ مِحرابٌ وسُوِّيَ وأُتقِنَ.

وعلى الصّخرة شُبَّاكانِ مُحكمانِ يُغلقانِ عليها؛ أحدُهما، وهو الخارجُ من خشبٍ، والآخرُ من حديدٍ أو صُفْرٍ[5] محكمِ العَمل، بديعِ الصّنعةِ.

وفي القُبَّةِ صورةُ دَرَقةٍ كبيرةٍ من حَديد، معلّقة هنالك؛ وأظنّها كانت مرآة، ولكنّها قد صَدِئت وزال صقالها، والعَوَام يقولون: إنّها درقة حمزة،[6] واشتُهِرَ عندهم هذا الزُّورْ، حتّى صار في حَدِّ[7] المقطوعِ به.

١- يغمز: يطعن.

٢- البيت لابن الرومي، وهو في ديوانه ١١٦٤.

٣- الرواية في الديوان

شرك النفوس وفتنةٌ مامثلها   للمطمئن، وعقلة المستوفر

والمراد: أن حديثا يقيّد العَجِلَ فيطمئن ولايبرح.

٤- انظر وصف الصخرة الشريفة في الأنس الجليل ٢/١٦.

٥- في ت و ط: أصفر، والصُّفْر: النُّحاس الأصفر.

٦- في ط: تقول: إنها درقة حمزة. والدرقة ترس من جلد ليس فيه خشب.

٧- في ت: حيز

[لقاؤه لابن جماعة]

ولم أرَ في هذا البلدِ، مع شَرفِهِ واشتهارِهِ مَنْ هو أهْلٌ لأخذِ العلم عنه، ولامَعنياً به، إلاّ شيخاً هو قاضي البلدِ، يلقّب بَدْرَ الدّينِ وهو مُحمَّد بن إبراهيم بن سَعْد بن جَماعة[١]، له مجلسُ عِلْم يُدَّرسُ فيه أوّل النّهارِ في المسجد، عندَ المحرابِ، ومَجْلسُ سَماعٍ يروي فيه بعد صلاة[٢] الجمعةِ في قُبَّةِ الصَّخْرَة، وقد حَضرتُ كلا المجليسن فلم أحْلُ[٣] منهما بطائلٍ، وكلّمته في أشياءَ تخبّط فيها وتعسَّفَ، فلم أجد من نفسي إذعاناً للأخذِ عَنْهُ على قلّةِ همّتهِ في الرّوايةِ، إذ وجدتُه يروي عن نظائرهِ من أهلِ مصرَ، ومَنْ لايزيد عليه في السّنِّ إلا يسيرا، إلى أخلاقٍ وُصِفَ لي بها تُريبُ الأريب، وتُنْفِرُ النَّسيبَ والغريب.

وله تواليفُ منها «اختصارُ كتاب أبي عمرو بن الصّلاح في علوم الحديث»[٤]، ومنها كتابٌ حَذَا فيه حذو السُّهَيْليّ في كتابه «الإعلام بما أُبهم [١٢٤/أ] في القرآن من الأسماءِ الأعلام[٥]» أغار فيه على الكتاب المذكور إغارةً وسمّاه «غُرر البيانِ في مُبهماتِ القُرآن»[٦] ومنها كتاب «المسَالك في علم المناسِك» لم يأتِ فيه ببديع، ولاشقّ الظُّلماءَ من بيانِه صديع[٧].

١- ولد بحماة سنة ٦٣٩هـ، وتوفي بالقاهرة سنة ٧٣٣هـ، ودفن بالقرب من الشافعي. له ترجمة في نكت الهميان ٢٣٥، فوات الوفيات ٢٩٧/٣، الأنس الجليل ١٣٦/٢ .

٢- في ط: صلاة العصر يوم الجمعة.

٣- في ط: أخرج

٤- هو كتاب معرفة أنواع الحديث المعروف بمقدمة ابن الصلاح وهو الإمام عثمان بن عبدالرحمن الشهرزوري المتوفى بدمشق سنة٦٤٣هـ انظر شذرات الذهب ١٢١/٥ .

٥- طبع غير مرّة.

٦- ذكره البغدادي في الايضاح ١٤٥.

٧- في ط: صنيع، وصَدَعَ الشيء: شقّهُ.

[ذكر عسقلان]

وكانت إقامتُنا بالقُدْسِ[1] خمسةَ أيَّامٍ، ثم زُرْنا ثَغْرَ عَسْقَلانَ[2] - جبَره الله - وهو خرابٌ يبابٌ[3] لاأنيسَ به، إلاّ أطلالاً ماثلةً، [4]ورسوماً داثرةً[4]، وآثاراً طامسةً، تُؤثِرُ في القَلْبِ تباريحَ الأسى، وتُعيدُ المُشْرِقَ من أُنسه حِنْدسا[5]، تَحثُّ المُبْصِرَ على إعمالِ العبرةِ، وإسبالِ الجفون بوابلِ العَبْرة، تُذكِّرُ بمن مضى وانقضى، وتضرم في الجوانح جَمْرَ الغَضى[6]، وتهونُ على العاقل شأنَ هذه الدّار، وتنادي:الحَذَرَ الحَذَرَ،والبِدار والبِدار[7]؛ لما دلّت عليه من ضخامةِ شأن[8] الرّاحلينَ منها، وفخامةِ الظّاعنينَ المنزعجين[9] عنها؛ لم تَحْمِهِمْ تلكَ القصورُ العالية، ولا وَقَتْهم تلك المباني السّامية، بل صاروا تراباً وهي خرابا، وعادوا أمواتاً وهي مواتاً[10]، تندبهم تلك الطّلول الدّارسة، وتندر[11] ما حَلَّ بهم تلكَ الطّلول الطّامسة، فتلكَ الآثارُ أسطارٌ في ديوانِ البِلى مقروّة، وتلك الصّور سور في نوائب[12] الدُّنى متلوّة. عجباً لها لما استعجمت أبانَت،

١- في ط: المقدس.

٢- عسقلان مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين، ويُقال لها عروس الشام. انظر ياقوت ٤/١٢٢ وانظر ماكتب عنها في الأنس الجليل ٢/٣٣ .

٣- اليباب: الخراب: وأرض يباب : ليس بها ساكن.

٤-٤- سقط في ت و ط.

٥- في ت جدسا. والحندس : الظلمة.

٦- الغضى: شجر عظيم خشبه صلب، وجمره يبقى زمناً طويلاً لاينطفئ بسرعة.

٧- البدار الثانيه ساقطة من ط.

٨- ليست في ط.

٩- ليست في ط.

١٠- قوله : «وهي مواتاً»، ساقط من ط.

١١- في ت: وتنذر. وتندر: تَخرجُ.

١٢- في بقية النسخ: نوائب.

ولمّا أشكلت بانَت؛ وَعَظَت ومالفظت، ونصَحت وما أفصحت، حرّكت السّاكن بسكونها، وأظهرت الكامنَ بكُمونِها. إنْ آثر الزّمانُ المحوَ في مرسومها، فالمحو أوضحَ كلَّ المعنى من مفهومها: [الطويل]

تأمَّلْ كِتَابَ الكَائناتِ تَأمُّلاً ... به أبداً تُلْهَى عَنِ اللَّهْوِ واللَّغْوِ
وَزِدْ كلَّ ممحوٍّ السُّطورِ تَدَبّراً ... فقَانُونُ عِلْمِ النَّحْوِ في ذَلِكَ المَحْوِ[1]

وقلّما رأيتُ من البلدان ما جمع[2] من المحاسن ما جمعت عَسْقَلان - جبرها الله - صُنْعاً وإتقانا ووضعاً ومكانا، وبرّاً وبحراً، وعامراً وقفرا، لها على البرّ والبحر طرفٌ ممتدّ، وحكمُ ماضٍ لايرتدّ، ترنو إليها من شَرَف[3]، وتتلو [١٢٤/ب] عليهما [4]سُوَر الشّرف[4]، وتزهو بتقلّبها في التّرف، في روضة جمّة الأزهار والطُّرف.

وأمّا مبانيها فلو فاخرتها إرَم لقيل لها: نَفَخْتِ في غَيْرِ ضرم[5]؛ أو حاسَنَتْها بابل[6] لصاب عليها من مطر[7] التّعنيف وابل، وأسرع إليها ملام كالمعابل:[8]

[السريع]

---- ---- ---- ... لَفْتَكَ لأمَيْنِ على نابل[9]

١- في ت: وزر كل ممحو.
٢- «ما» ساقطة في ت وفي ط: أن جمعت.
٣- في ط: طرف.
٤-٤- سقط من ت.
٥- هو في معنى المثل: نفخت في غير فحم، والضرم: الحطب.
٦- بابل: ناحية بالعراق منها الكوفة والحلّة ينسب إليها السحر والخمر.
٧- في ت: طرف.
٨- المعابل: جمع معْبلة: وهي نصل عريض طويل.
٩- في ت: لاقتك وهو تصحيف. وهو عجز بيت لامرئ القيس في ديوانه ١٢٠ وصدره:
« نَطعنُهُمْ سلْكى ومَخلوجةً »
ولَفْتَكَ: أي ردّك وعطفك، واللأمان: سهمان، والنابل: صاحب النبل

[مزارة رأس الحسين]

وبها مزارةُ رأس الحسين رضي الله عنه، وهو مسجد كبير مليح مرتفع، والمسقَّف منه ناحية القبلة، وفيه جبٌّ كبير لماء المطر؛ وأمر ببنائه بعض بني عُبَيْد[١] وكتبَ ذلكَ على الباب، وقد تقدّم ذكرُهُ في رسْمِ مِصْرَ والحمد لله. وفي قِبْلَةِ هذه المزارةِ مسجدٌ كبيرٌ مليحٌ يُعرَفُ بمسجدِ عُمَر، وقد تهدَّمَ ولم يبقَ إلاّ حيطانُهُ، وفيه من أساطينِ الرُّخامِ قائمةٌ وموضوعةٌ ماهو النّهايةُ في الحُسنِ، وبه أسطوانةٌ حمراء مليحة جداً، ويُحكى عنها [٢]أنَّ النَّصارى حَمَلَتها إلى بلادهِم فأصبحت بموضعها في المسجدِ. وفي قِبلَةِ المسجد بئرٌ عظيمةٌ، متقنةُ العَمَلِ، عجيبةُ الصِّفة، تُعْرفُ ببئرِ إبراهيمَ يُنزل إليها في دَرَجٍ متّسعٍ، ويُدْخَلُ منه في بيوتٍ شارعة فيه، وفي البئر أربعةُ عيونٍ: واحدةٌ من كلِّ جِهة، وتَخرجُ من[٣] أسرابٍ مطويّةٍ بالحجارة، يقابلُ بعضُها بعضاً، وماؤها طيّبٌ عذبٌ ولكنّها ليست بغزيرةٍ، ويُحكى في فضائِلِها أشياءُ لاتقعُ الثِّقةُ بصحّتِها، والله أعلم.

وبظاهر عسقلانَ وادٍ يُعرف بوادي النَّمل، ويقال: إنّه المذكور في الكتاب العزيز[٤]. وقد ذكرَ المفسِّرونَ أنَّهُ وادٍ[٥] بالشّام، وفيه جبّانةُ عَسْقلان، وبها من قُبورِ الأولياء والشُّهداء مالا يحصُرُه عَدٌّ، وأكثرها مسمى معروفٌ،

١- ذكر ذلك مجير الدين الحنبلي في الأنس الجليل ٢/٧٤.

٢- ليست في ت و ط.

٣- ليست في ت و ط.

٤- جاء في سورة النمل: ١٨ ﴿حتى إذا اتوا على واد النمل قالت نملة ياايها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون﴾.

٥- في ط: وادي الشام.

وقد وقفنا عليها، وأرانا إيّاها شخصٌ مقيمٌ بعسقلانَ وهو قَيّم التُّرْبَةِ المذكورة وله شيءٌ منَ جِرَايةٍ[١] أجراها له مَلكُ مِصرَ، قَيَّدتُهُ هنالكَ مع مايَرضَخُ[٢] له به مَنْ يسمع من الزُّوارِ. وكان دخولنا عَسْقَلانَ وقت الظّهر فصلّيناها بمسجد الحُسَين، ثم خرجنا قَبْلَ العَصْرِ إذ المقامُ به غَرَرٌ،والله ولي التّوفيق، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله.

[ذكر غزّه]

ثمّ وصلنا إلى غزّه[٣] حماها[[١٢٥/أ] الله وهي آخرُ بلاد الشّام ممّا يلي مصْرَ، وبينها وبين الصّالحيَّةِ أوَّلِ بلادِ مصْرَ ستَّةُ أيّامٍ. وغزّةُ مدينةٌ مُتَّسعةٌ عامرةٌ، لاسورَ لها، وبينها وبين البحرِ مسافةُ أميالٍ، وهي أكثرُ عمارةً من كلِّ ماتقدّم ذكْرُه من بلادِ الشَّام. وهي جسرٌ إلى مصْرَ، وإلى الشَّام، وبها أسواقٌ قائمةٌ، ومساجدُ معمورةٌ، ولها جامعٌ مليحٌ حَسَنٌ، ولكنّها قد عَرِيَتْ عن عالمٍ ومتعلّم، وأقفرتْ من فقيهٍ ومتكلّم. فهي عامرةٌ غامرة[٤] وقائمة دائرة؛ وهذا أمرٌ شَمَلَ في هذا الأوانِ المدنَ والقُرى، وعمّ بحُكمِ القَدَرِ أصنافَ الورى، ولاحول ولاقوّة إلاّ بالله.

[الطَّريق من غزَّة إلى القاهرة]

ثم سافرنا من غَزَّةَ مستقبلينَ لبرِّيةِ الشَّام، مُطّرحين لدواعي النُّكول والإحْجام، مصافحينَ لأوجالِها،[٥] مكافحينَ لأهوالها، وهي كلُّها رَمْلَةٌ

١- الجَرايَةُ: المُرَتّب من الخبز ونحوه يجرى على الشخص في كل يوم.

٢- الرضَيخة: العطيّة القليلة.

٣- انظر الأنس الجليل ٧٤/٢.

٤- ليست في ت و ط.

٥- الأوجال: جمع الوَجَل: وهو الفزع والخوف.

وَعْثاءُ[1]، وبريّةٌ دَوِيّةٌ قفراء[2]، كأنّ سالكَها يخوض وَحْلاً، أو يدافعُ من رملها المنهالِ سَيْلا. ومسافتُها ستّةُ أيامٍ، كأنّها لفَرْطِ العَناء أعوام. ولو جَمَعتْ إلى وَعْثها[3] المُعَنِّي طولاً لأعادت كلَّ سالكٍ لها بقيد الحِمام[4] معقولاً. ولكنّ العزائمَ تقوى عليها بقُربِ المسافة،[5] مع حصولِ الأمْنِ بها وانتفاء المخافة، وذلك أنّ كلَّ مرحلةٍ منها مَنْهَلَةٌ عامرة، والقوافلُ بها ليلاً ونهاراً، مُريحةٌ وسائرةٌ؛ لاتستدبرُ ميلاً إلاّ لقيت له مُستقبلاً[6]، ولاتُزمع تحويلاً إلاّ وجدت إلى وجهتك متحَوّلاً؛ فخفَّ لذلك عناؤها[7] وإن لم يَخفّ، وذبُلَ به عُودُ لأوائها وهو من النُّضارة يَرِفّ. وقلّما فارقها سالك،حتّى عاد[8] نضواً طليحاً[9]، ولا ألقى عَصا التّسيارِ بها مسافرٌ،حتّى صارَ لَقًى[10] طريحاً.

ثم وصلنا إلى الصّالحيَّة، أوّلِ بلادِ مصْرَ، ولكنّها معدودةٌ في البريّة لضيقِ أرْزاقِها وشكاسةِ أخلاقها، وإفراطِ عَنائها، وإضرارِ هوائها؛ قَرْيةٌ تَقْري ضيفَها قُرّاً وطوى، وتوحِشُهُ بأنسها[11] حتّى يأنسَ بالذّئب إنْ عوى[12].

١- الوَعْثاء: ماغابت فيه الحوافرُ والأخفاف من الرمل الدقيق وغيره.

٢- في ط: عثراء.والدَّوِيّةُ: الفلاة الواسعة الأطراف.

٣- في ت و ط: وقتها.

٤- الحِمامُ: قضاء الموت وقدره.

٥- في ت: إليها لقرب المسافة.

٦- في ت و ط: مستقيلاً.

٧- في ط: بذلك عناها.

٨- في ت: حتى يصير، في ط: إلاّ عاد.

٩- الطليح: من أضمرة الكلال والإعياء.

١٠- اللقى: هو ماطُرِح.

١١- في ت و ط: من أنسها.

١٢- استفاد من قول الأحيمر السعدي اللّص في أشعار اللصوص ١٠٤ :

عوى الذئب فاستأنستُ بالذئب إذ عوى   وصوّت إنسانٌ فكدت أطيرُ

ومنها إلى قاعدةِ مصْرَ قُرًى ظاهرةٌ متّصلةٌ، وعمارةٌ متظاهرةٌ [١٢٥/ب] متأصّلَةٌ، مسيرةُ خمسةِ أيّامٍ، لايتعذّرُ بها مَرام. وأعظمُها عمارة، وأسناها بزّةً(١) وشارة،مدينةُ بِلْبيس،(٢) وهي مدينةٌ كبيرةٌ، ذاتُ أسواقٍ قائمة، ولها نخلٌ وبساتينُ كثيرةٌ، وسَوادُ أشجارِها يظهر على بُعدٍ، وموضعُها يقتضي الخِصْبَ ورَغَد العَيْشِ، ولكنّها في عيْنِ المجتازِ الخاطر، أحسنُ منها في عين المتأمّل النّاظر؛ إذ ليسَ لها رَوْنقُ الحضارةِ ولا رقّتها، وهكذا أكثرُ بلادِ مِصْرَ إلاّ القواعدُ المعروفة.

[ذكر القاهرة في العودة]

ثمَّ وصلنا إلى قاعدةِ الدّيارِ المصريّة، وكنتُ إذ وَرَدْتُها مريضاً، فلم يمكنّي فيها لقاءُ أحد، وأنزلَنا شيخُنا شَرَفُ الدّينِ الدِّمْياطيّ بمدرسة الظّاهريَّةِ في علّوٍ منها مليحٍ، وكان يبعث إلي بشخصٍ(٣) من فضلاء الأطبّاءِ يتفقّدُني ويعالجُني وهو الحكيمُ الفاضلُ أبو الطّاهر إسماعيل المَقْدسيّ، فتًى حَدَث السِّن، رصينُ العقل، نافذُ الفَهم، وما رأيتُ أحْفَظَ منه للطّبِّ، ولا أحسنَ منه تصرّفاً فيه، ولا أذكرُ منه لنصوصِ كُتُبِ أبُقراط، وما زال يتفقدُّني مدّة من سَبْعة أيّامٍ حتّى تماثلتُ، واشتهيتُ الطّعامَ، والضَّعْفُ لي ملازم،فقدّرت أنّ هواء(٤) البَلَدِ غيرُ ملائمٍ لي(٥) فسافرتُ وما وصلْتُ إلى الإسكندريّةِ حتّى ثابت(٦) إليّ قوّتي، وعادت إليّ صحّتي.

١- في الأصل: قوّة.
٢- بِلْبيسُ: مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام. فتحت سنة ١٨ أو ١٩هـ على يد عمرو بن العاص. انظر ياقوت ٤٧٩/١ .
٣- في ت و ط: شخصاً.
٤- في ت و ط: هذا البلد.
٥- هنا ينتهي النقص في طبعة الجزائر.
٦- ثابت: رجعت.

[من القاهرة إلى الإسكندريّة]

وكان سفرنا منها على غير الطّريق الأولى[1]، إذ كان الماءُ قد نَضَبَ على الرِّيف[2] فسافرنا على طريقه، والعمارةُ عليه متّصلةٌ مُدُنًا وقرًى إلى الإسكندريّةِ، ومن أعظَمِ بلادها، وأشهرِها مدينةُ[3] قَلْيوب[4]، ومدينةَ مَلِيح[5]، ومدينةُ فَرَما[6]، ومدينة بيار[7]، ومدينةُ المقانة[8]، ومدينةُ دَمنهور[9]. ومُدُنُها وقراها أكثرُ من أنْ تُعَدّ، وهي ذات بساتينَ ونخلٍ، وشجرٍ يَفتُنُ حسنُها النَّاظر.

ومن أعظم مدنِها وقواعدِها المشهورةِ، الموصوفَةِ بالحُسنِ والجمالِ مدينةُ دِمْياطَ، وهي على البَحْرِ الرُّومي، ولم أدخلْها لأنَّها رائغةٌ إلى اليمين كثيراً عن طريقِ مِصْرَ إلى الإسكندريّةِ، وكنتُ مُنحفزاً للسَّفَرِ فلمْ يتأتَّ لي دخولُها. ومررنا على [١٢٦/أ] قريةِ سندبيس[10]، وزُرنا بها قَبرَ عيسى بنِ الوليد أخي خالدٍ رضي الله عنهما، وهو في بيتٍ مغلقٍ على يسارِ المحرابِ. ومن مِصر إلى هذه القريةِ مرحلةٌ.

١- في الأصل: الأوّل، وكلاهما صحيح.

٢- في ت: عن الريف.

٣- ليست في ت.

٤- في ط: قليون وهو تحريف.

٥- مليح: مدينة كبيرة في أول منبعث الخليج الذي ينزل إلى دمياط. انظر جغرافية مصر للبكري ٨٦.

٦- الفَرَما: مدينة مصرية قديمة تقع في الشمال الشرقي من الدلتا شرقي بحيرة المنزلة «تنيس» وهي من أقدم الثغور العربية في مصر، وكانت أوّل موضع قوتل فيه عمرو بن العاص. انظرجغرافية مصر للبكري ٦٠.

٧- بيار: كذا في جميع النّسخ ولعلها أبيار التي تقع بين مصر والإسكندرية (ياقوت ٨٥/١).

٨- في ت و ط: لقانة، ولم أقف على مكانها.

٩- دَمَنْهور: بلدة بينها وبين الإسكندرية يوم واحد في طريق مصر متوسطة في الكبر والصغر. انظر ياقوت: ٤٧٢/٢.

١٠- سندبيس: لم أقف على مكانها.

[الإسكندريّة في العودة]

ثمَّ وصلْنا إلى الإسكندريَّة[1]، فأنزلَنا شيخُنا الفقيه زَيْنُ الدّين بمدرسةِ إقرائهِ، وأولانا من برِّهِ وتأنيسهِ مايكافِئُهُ الله بهِ.

[الطَّريق من الإسكندريَّة إلى تونس]

وأقمنا بها سبعةَ أيّامٍ، ثم سافرنا على طريقنا الأولى إلى العَقَبَة الصّغيرة ثمَّ تياسرنا منها إلى العَقَبة الكبيرة، وهذه الطَّريق مُعطشة، وماؤها في آبارٍ عميقة، مارأيتُ أبعدَ منها، وقلَّما يتأتَّى[2] الاستقاءُ منها إلاّ بحبالٍ موصولةٍ، والغالبُ في ورودها الغِبُّ[3]، فشقَّ سلوكُها لذلك. ثم منها على طريقنا الأولى إلى البَطنانِ ثم إلى قصر الصَّفاقنة[4] ثم إلى الرَّجُلِ المشْقوقِ ثم إلى الحَصَوي، وهذه كلُّها أسماءُ مواضعَ تنزلُها العُرْبانُ مابها مُستعتبٌ سوى قَصْرِ الصَّفاقنةِ. ومن الحَصَوي على الطَّريق الوسطى بينَ طريقِ الغابَةِ وطريق القِبْلَةِ إلى أبي شمال، وهي عين غزيرة[5] عَذْبةٌ. ثمَّ إلى جَرسون، ثم إلى مَراوة، وتركنا على اليمين طريق المَرْج، وقبّة هِيت، وطَلَميثة وهي مدينةُ أرض بَرْقةَ ومرفأُ سُفُنِها.

ورأيت مابين جَرسون ومَراوة آكاماً غليظة، دائرة بديارٍ منحوتةٍ منها في حَجَرٍ صَلْدٍ من أبدعِ العمل وأغربِ الإتقانِ، عجيبةٌ محكمةٌ جداً، ودخلت

١- في ت: مدينة الإسكندرية.

٢- في ت: يأتي.

٣- الغِبُّ: ورد يوم وظِمْء آخر.

٤- في ت: قصر الصعاقبة.

٥- زاد في ت: بيضاء.

منها واحدةٌ بإزاء الطّريق فوجدتُها على نَعْتِ دارٍ مُتْقَنَة، وعن يمينِ مَدْخَلِها حُجرةٌ عجيبةٌ للطَّبْخِ، وعَنْ يسارِهِ حُجْرةٌ للرّحْضِ والتّطهُّر، وفي مقابلة الدّاخل بيْتٌ كبيرٌ مليحٌ جداً، ومنقوشٌ على أحسن صِفةٍ تكون عليها البيوتُ المبنيّة، وتلك الآكام كلّها منحوتةٌ دياراً على تلك الصّفة.

[سوسية]

ومن مَراوة إلى سُوسية[1]، وهي حُصْنٌ خَرِبٌ على شرف مرتفع ينظرُ على فَحْصٍ[2] مُتّسعٍ فيه مواجلُ[3] كثيرةٌ لماءِ المَطَرِ، قلّما تَنْضَبُ لكَثْرَتِها وعِظَمِها، وفي سَمْتِها آبارُ المَيَّاسِ، ولم أمرَّ راجعاً عليها لسَبَبٍ أوجب ذلك فتيامنًا عنها.

[أرض برنيق]

ثمَّ وصلنا إلى أرضِ [١٢٦/ب] بَرْنيقَ، وهي أرضٌ طيّبةٌ للزّراعةِ كثيراً، وبها قصورٌ عِدّةٌ يُخزَنُ فيها، وأولّها القَمانس، وهي ثلاثةُ قصورٍ متقاربة، وأحدُها قُمينْس، هكذا ينطقونَ به على لغتهم المعروفة في القاف. وهي أسماء أعجميّةٌ، ومَرَرنا على قصر جلّيط، وهو في آخرِ أرضِ بَرْنيق من جهة الغرْب. ثمَّ على أجْدَابية، وهي حُصينٌ قديمٌ على قَدْرِ دارٍ كبيرةٍ عاليةٍ. وذكر بعض المؤرّخين أنّهُ كانَ به[4] ماءٌ جارٍ ونَخْلٌ، وليسَ الآنَ هنالك إلاّ قصرٌ ماثلٌ في خَلاءٍ من الأرضِ، لاماءٌ جارٍ، ولاشجرةٌ واحدة، ومنها إلى عَيْنِ أقْيانَ، وهو

١- في الأصل : سوسة وهو تصحيف وسيحدثنا العبدري عن وصوله لسوسة في الصفحة ٤٨٧ .

٢- الفحص: ماستوى من الأرض.

٣- مواجل: واحدها ما جل وهو خزّان الماء.

٤- في ط: فيه.

ماءٌ شريبٌ[1] في رَمْلَةٍ بيضاء، وهو حَدّ بَرْقَة عند المغاربةِ، لأنَّ بَرْقَةَ عندَهم اسمُ الأرضِ ويطلقونَها على ماردتَ الإسكندريّة إلى هذا الموضع. وقد تقدّم أنَّ برقةَ اسم مدينةٍ، وقد رأيت عربَ تلكَ الأرضِ لايطلقونَ اسمَ برقةَ إلاّ على الغابةِ وما حاذاها، وذلك من القُمانس إلى الحَصَوي، ومنه إلى العَقَبة الكبيرة البطنان[2] ومنها إلى الإسكندريّة لايذكرون إلاّ العقبتين.

[بريّة سنانة ومنهوشة]

ثمَّ وصلنا إلى بَرِّيَّة سَنَانة ومنْهوشة، ثم إلى مدينة سُرْت ثم إلى[3] الشُّبَيكة آخر قصورِها وأعمرِها، مارّين على الطّريق الأولى إلى مِصراته، وهي مواضعُ وقرى عامرةٌ آخرها من جهة الغرب سُوَيْقةِ ابن مَطكود[4]، ومنها إلى بني حَسَن وهي قريةٌ مجموعةٌ عامرةٌ، وبينها وبين مِصراتةَ مواضع على السّاحل عامرةٌ، وقصورٌ قديمةٌ. وهنالك مدينة لَبْدَة[5]. فيها آثارٌ قديمةٌ وبنيانٌ عجيبٌ، وفيها من أساطينُ الرُّخامِ وألواحُه مايقصرُ عنهُ الوصفُ، وفيها صورةُ امرأةٍ من رُخام بإزاء الطّريق، ولاشكّ أنّ البَلَدَ كانت دارَ مملكةٍ، وهي الآنَ متهدّمةٌ دارسةٌ ليس بها إلاّ عمارةٌ قليلةٌ. وفي جنوبي بني حَسَن مَسلاتةُ، وهم قومٌ يبرّونَ أهلَ الدّين ويكرمون الحجّاج وهم على خير وصلاَح.

١- الماء الشَّروب والشَّريب: الذي بين العذب والمِلح. وقيل: الشَّريب: العذب.

٢- في ط: ثم إلى البطنان.

٣- في ط: على.

٤- في ط: مطكوك وسويقة ابن مطكود: بليدة في أوائل إفريقية وآخر برقة، وهي بينهما، وقد ورد اسمها في «ياقوت» ابن مكتود، وفي الروض المعطار: ابن متكود.

٥- لبدة: مدينة بين برقة وإفريقية، وقيل بين طرابلس وجبل نفوسة، وهو حصن من بنيان الأوائل بالحجر والأجرّ، وحوله آثار عجيبة. انظر ياقوت: ٥/ ١٠ .

ثمّ وصلنا إلى مدينةِ أطرابُلُسَ، وكان ذُكر لي بها شخصٌ يدّرسُ الفِقْهَ يُعْرَف بابنِ عُبَيد، فحضرت مجلسَهُ، فرأيتُه قليلَ التّوقيرِ لمجلسِ العلم، فخرجت ولم أكلّمه.

[قابس]

ثمَّ [١٢٧/أ] وصلنا إلى مدينةِ قَابِس وأقمنا بها أيّاماً، وأولانا خطيبُها الصَّالحُ الفاضل أبو موسى الشُّكْري – حفظَهُ اللّه – برّاً وإكراماً، وزرنا بها قبر أبي لُبابَة[١] صاحبِ رسولِ اللّه ﷺ،وعليه مسجدٌ،وهو منه في بيتٍ مغلق.

[نفطة]

ثمَّ سافرنا منها على طريق نَفطَة[٢]، وهي موضعٌ على البَحْرِ، فيه ناسٌ صالحونَ يُعرفونَ بأولاد الرَّقيق. ثم منها على الطّريق الوسطى بين طريقِ القيروانَ وطريقِ السَّاحِلِ على غابةِ إفريقية، وهي غابةٌ عظيمةٌ من زيتونٍ بَعْلٍ[٣]، يحمل كثيراً، ويعتصر[٤] زيتاً طيّباً كالحالِ في زيتون الشّام سواء، ولكنّه ليسَ في الشَّامِ منه غابةٌ متصلةٌ كاتّصال هذه مع عظمها. وقد قطعناها في ثلاثةِ أيّام، ولكنَّها الآنَ معطّلةٌ لفسادِ البلادِ، واستيلاءِ العُربانِ عليها،

١- أبو لُبابة بن عبد المنذر الأنصاري، صحابي، شهد مع رسول الله عليه الصلاة والسلام أحداً وما بعدها من المشاهد توفي في خلافة عليّ رضي الله عنه. له ترجمة في الاستيعاب ١٦٧/٤، والإصابة: ١٦٨/٤ .

٢- نفطة: مدينة بإفريقية من أعمال الزاب الكبير، بينها وبين توزر مرحلة، وبينها وبين قفصة مرحلتان. انظر ياقوت ٢٩٦/٥ .

٣- في ت: الزيتون البعل.

٤- في ط: يعصر.

فانقطعتْ منفعتُها رأساً،حتّى صار الزّيت بإفريقيّةَ مجلوباً من جزيرة جَرْبَة[1]، وهي جزيرةٌ صغيرة[2] منقطعةٌ في البَحْر،فيها[3] زيتون ورمّان،[4] وتفاحها مشهور يُجلب منها إلى البلاد. وأهلُها أصحابُ مذاهبَ رديّة[5]، وأهواءٍ مضلّةٍ مثل زَوّارة وزوّاغة - دمّرهم الله جميعاً - وقد صارَتْ جربةُ اليوم في حُكمِ النّصارى، أعطاهم إياها أهلُها لشنآن[6] وقع بينهم، والعصمة بالله ولا حول ولا قوة إلاّ به.

وهذه الطَّريقُ المذكورةُ ليسَتْ بعيدة من طريقِ السّاحل، وإنَّما تجنّبناها لآفات تُتقى بها، فخَطرنا على مدينةِ سَفاقُس، ونحن ننظرُ إليها، ثم على المَهديّة، ثم على المُنَسْتير، ولم ندخُلْ بلداً منها. وفي سفاقُس دُفن الفقيه[7] أبو الحَسَن اللَّخميّ، وقَبْرُه بها مشهورٌ يُتَبَرَّك به، وقد مضى ذكرُ تاريخ وفاته. وفي المُنَسْتير دُفِن الإمام أبو عَبد الله المازَريّ[8] وقبرُه بها مشهورٌ، والمُنَسْتير

١- جَرْبة: جزيرة في بحر إفريقية أقرب بلادها إليها قابس وطولها من المغرب إلى المشرق ستون ميلاً، وبينها وبين البحرّ نحو ميل. انظر الروض المعطار ١٥٨-١٥٩- رحلة التجاني ١٢١ وما بعد.

٢- ليست في ط.

٣- ليست في ت.

٤- في ت و ط: وثمار.

٥- ذكر ذلك التجاني في رحلته ١٢٣، والحميري في الروض المعطار ١٥٨ نقلاً عن البكري.

٦- الشنآن: التباغض.

٧- ليست في ت.

٨- هو محمد بن علي بن عمر التميمي المازري: محدّث، فقيه مالكي، نسبته إلى مازر بجزيرة صقلّية توفي بالمهدية بتونس سنة ٥٣٦هـ عن ثلاث وثمانين سنة. من كتبه «التلقين» في الفروع و«إيضاح المحصول في الأصول». ترجمته في وفيات الأعيان ٤/٢٨٥- أزهار الرياض ٣/١٦٥- وانظر الإمام المازري لحسن حسني عبد الوهاب.

من الرِّباطات المشهورة المذكورة، وتحكى له مآثرُ وفضائلُ كثيرةٌ، وبها من قُبور الصالحينَ مالايُعَدُّ كَثْرَةً. والمُنَستيرُ بضمّ الميم، هكذا سمعتُ أهلَ إفريقيةَ يتلفّظونَ به.

[قصر الجمّ]

وعلى الطّريق التي سلكناها قصرُ الجَمِّ، وهو قصرُ الكاهنة، وما وقع بَصَري في كلِّ ما رأيتُ على [١٢٧/ب] بنيّةٍ أَعْجَبُ ولا أغربُ[١] منهُ، وهو ممّا لايمكن تصوّرهُ، بالوَصْفِ، ولاغِنى في تصوّرِهِ عن المشاهدةِ لغرابتهِ، ومُخْتَصَرُ وَصْفِهِ أنّه قصر مستديرٌ متّسعٌ عالٍ جداً من صخورٍ منحوتةٍ كبارٍ، محكمةِ الوَضْعِ والرَّصفِ، حتّى كأنَّهُ حجرٌ واحدٌ، وقد فُتحتْ في أعلاه أبوابٌ مرصوفةٌ[٢] محيطةٌ به، وعلى تلك الأبوابِ أبوابٌ أُخَر مثلُها، دائرةٌ بالقصرِ أيضاً، ويظهر مافوقَ الأبوابِ من بُعْدٍ كأنه قَصْرٌ واقف في الهواء. وأظنُّ تلكَ الأبوابِ لمكان اختراقِ الرّيحِ احتياطاً على القصرِ من عاديتها لإفراطِ علّوه، ويمكن أن تكونَ لغير ذلك وبناءُ داخل القصرِ أعجبُ، فإنّه لو جُعِل دَوراً واحداً لم يكن فيه كبيرُ مُنْتَفَعٍ، وإنْ اتّسع في السّاحَةِ على وَضْعٍ واحدٍ ضَاقَتْ وحُجِبتْ عنها[٣] الشَّمْسُ؛ فجُعِلَ البِناءُ فيه مُدرّجاً كلّما طلع نَقَصَ منه دورٌ، حتّى ارتفعَ البناءُ إلى حدّ لايَحجبُ فيه بعضُهُ[٤] الشّمسَ عن البعضِ، حتّى يضربَها دوامُ الظّلّ عليها، وصارت السُّقوفُ المدرّجةُ من جُملةِ السّاحةِ يرتفق بها إذ لم يبقَ من السّاحة غير مبنيّ إلاّ دائرةٌ ضيّقةٌ.

١- في ت: أغرب ولا أعجب.

٢- في ت و ط: مصفوفة.

٣- في ت: عنه.

٤- في ت: فيه بعض.

وهذا القدرُ هو الذّي يمكن إثباته في صفة هذا القصرِ، وهو من جُملةِ المباني الغريبةِ التّي لاتُتصوَّرُ تصوّراً تامّاً إلاّ بالمشاهدة، وليس في داخله عمارةٌ معتبرةٌ ولكنَّ العمارةَ خارجةٌ[١] عنه، وهنالكَ ديارٌ وبساتينُ وجامعٌ مليحٌ؛ وأهلُها ناسٌ صالحونَ شَملتْهُمْ بَركَةُ الشّيخِ الصّالح أبي زَيْدٍ اللَّخْميّ - رحمه الله - وأولادُه الآنَ على طريقتهِ في الدّينِ والصَّلاحِ وإطعام الطّعامِ، نَفعَهُمْ الله، ونَفَعَ بهم.

[ذكر سوسة]

ثمَّ وصلنا إلى مدينة سُوسة[٢]، وهي مدينةٌ مليحةٌ، برّيةٌ، بحرّيةٌ، حولها بساتينُ وثمارٌ، وهي في نَفْسِها متقنةٌ محكمةُ[٣] العَمَل، مُؤَسَّسَةٌ بقّوة، وكلُّها صَخْرٌ منحوتٌ، وفيها رباطٌ متّسعٌ، عجيبٌ، مليحٌ[٤] جداًّ، ينزلهُ الحُجّاجُ والمسافرونَ، ولكنَّهُ قد سَحَبَ الزّمانُ على الكلّ ذيلَ البِلى، ورمى الدّاخل والخارجَ بسهم التَّوى[٥]، فعادت بعد الصَّون بَرْزَةً مكشوفة، وصارت محاسنها ممحوّة[٦] مكسوفة، فخضعَتْ خضوعَ العزيزِ إن ذَلّ[٧]، وخَشَعَتْ [١٢٨/أ] خشوعَ الكثيرِ إذا قلّ. ترنو إلى البرّ والبحر بمُقلةِ خائف، وتحاذرُ

١- في ت وط: خارجاً.

٢- سوسة: مدينة كبيرة عتيقة بناها الرومان على ساحل البحر المتوسط على بعد ١٠٠ميل من تونس. انظر وصف افريقيا ٨٣/٢.

٣- في ت: محكمة متقنة.

٤- ليست في ط.

٥- التّوى: الهلاك.

٦- ليس في ط.

٧- في ط: ذي عز قد ذل. وقد استفاد من الحديث «ارحموا عزيز قوم ذلّ».

منهما أنواعَ المتالف، لاترى بها زعيمَ محبر، ولافارس دفتر، قد خَرِسَ بها لسانُ الطّلب، وعاد لفريق الجهل على فئة العلم الغَلَب، فامّحَقت بها آثارُ كلِّ فضيلة، وصيّرها الجهلُ مُعرَّسَهُ ومقيلَه؛ تلاشَتْ قواها فلم يبقَ بها إلاّ رمق، وكساها الزّمان ثوبَ الهوانِ فأمّحى رونَقها وامّحق؛ لاتمدُّ في الأمنِ ساعةً من الدّهر باعا؛ ولاتُميرُ فَتُشبِعُ أهلاً جياعاً؛ وجامعُها المليحُ قد علا عليه الشّحوب، وأبلى حُسْنَه وقائعُ الخطوب. نازَلَتْهُ وليس له يدان بالدّفاع؛ فاستكانَ وأطرقَ إطراق الشُّجاع[1]، وماعُصِمَ من ريب الزّمان فريق؛ ولاأعصم معتصمٌ[2] بذروة نيق، وبالله الاستعانة والتّوفيق.

ثم وصلنا[3] إلى منزل أبي نصر، وهي بُلَيْدَةٌ مسوّرةٌ عامرةٌ غاصّةٌ بالخَلْقِ ولكنّها في حُكمِ الباديةِ إذ ليسَ بها من مَعاني الحضارةِ شيءٌ، وبها سوقٌ كبيرةٌ يكْثُرَ إليها الجَلْبُ لكثرة العُربان هنالك.

ثمَّ خطرنا على مدينة الحَمّاماتِ، وهي مدينة صغيرةٌ مبيّضةُ السُّورِ، وليسَ بها مايذكر لفنائها، وقلّةِ عمارتِها، وهي على البَحْرِ، ولم أدخلْها لقلّة تشوّفي[4] إليها، وماذكر لي من الضّعف عنها.

[تونس في العودة]

ثمّ وصلنا إلى[5] مدينة تُونِس - حرسها الله - وهي كما مرّ ذكرها، واستقرّ عند المؤالف والمخالف شكرُها. وهي مؤنسةٌ عند اسمها، ومُسعِفَةٌ

١- هذا مثلٌ مأخوذ من قول المتلمس:

وأطرق إطراقَ الشجاع، ولو رأى مساغاً لِنَابَيْهِ الشجاع لصمّما

انظر الميداني ٤٣١/١ .

٢- في ط: اعتصم.

٣- ليست في ط.

٤- في ت: تشوّقي.

٥- ليست في ط.

على مقتضى رسْمِها، وما أنصفَ من ذَمّها بالمحال، وتعسَّف عليها فقال:[1]

[الطويل]

لَعَمْرُكَ ماأُلْفَيتُ تونِسَ كَاسْمِها ولكنَّـني ألفيتُـهَا وهْيَ تُـوحِـشُ

وقد أقمت بها مدّةً حتَّى شفيتُ الحَشا العَليل، ونقعْتُ بورْدِها الغليل، وقطعتُ فيها الغدوّ والأصيل بمجالسة كلّ فاضل جليل، فما أنفصِلُ عن عالمٍ يوضح الحَلَكَ مهما أجاب، إلاّ إلى صالح يُحتلب به درّ[2] السّحاب. ولا أغدو عن مجلسِ أدبٍ كقطع الرّياض، إلاّ إلى محفلِ وعظ يسقي الخدود بالدّمع الفيّاض [١٢٨/ب] فقطعتُها أيَّاماً من غفلات الدَّهْرِ مختلسات؛ وانتظم لي بها شملُ أُنسٍ طالما مُنيَ بالشّتات؛ فلم يبقَ بها شيخٌ مذكور إلاّ رأيته، ولاعلم[3] مشهور إلاّ أتيته.

[ملازمته لابن الغماز]

فممّن واظبتهُ مُدَّةَ الإقامة، ولزمته لزومَ الطَّوقِ للحمامة، الشَّيخُ الفقيهُ الفاضلُ والحَبْرُ النَّزيه الكاملُ، قاضي القُضاة، وزينُ الحَملَةِ والرُّواة، ذو التَّواضُعِ والإنصاف، والمعروفُ بوطاءة الأكْناف، مُسندُ عَصْرِه، والمرجوعُ إليه في مِصْرِه، أبو العبّاس أحمد بن محمّد بن حَسَن بن محمّد بن[4]

١- البيت في المغرب للبكري ٤٠، ومعجم البلدان ٦١/٢ دون عزو. وكذلك في الروض المعطار ١٤٤، وفي آثار البلاد وأخبار العباد ١٧٤ معزوٌّ لبعض وُلاتها حين خرج عليه أهل تونس ولقي منهم التباريح.

٢- ليست في ط.

٣- في ت: عالم.

٤- «ابن» ليست في ط.

الغَمَّاز الخَزْرَجي[١]، وصل الله صيانتَه، وأدام على الخيرات إعانتَه؛ فلقيتُ منه عالماً يأخذُ بالأسماعِ والأبصار، وفاضلاً خلت من مثلِه القُرى والأمصار، وغُرَّةً أجلى مِن ضوء الصَّباحِ، مع سكون الطّائر وخفض الجناح؛ يدأبُ على الإسماعِ دؤوبَ مَنْ عدَّ العلمَ أرفَع صناعة، ورأى الاشتغال به أنْفع بضاعة، لايشغَلُهُ عنهُ الإبقاء على أعضائه الواهية، ولايصدّه عنه ماتتحمّل[٢] فيه من المشقّة نفسُه السّامية، ولم يؤثّر في قوّةِ اجتهادِه ضعفُ قواه، ولاهوى به إلى استيطاءِ الرَّاحةِ هواه، بل يستعذِبُ في خِدْمَةِ العِلْمِ مايلاقي، ويعدُّهُ عدّةً ليومِ التّلاقي؛ ولقد منحني الله من قَبولِهِ وإقباله، مالم يتيسّر لي إلاّ بمنٍّ الله وأفضاله. ولمّا اجتمعتُ به وجدتُهُ مواظباً للإسماعِ بدارِه غدوةً وعشيّة، فكلّمته في قراءة جامع البخاريّ عليه، وأتيته بأصل منه، استشرتُهُ في شرائِه، فاستغرب حالي في ذلك؛ وقال لي: إن أردْتَ أن تقرأ في أصلي، ويتوفّر عليك ماتشتري به فافعل؛ فقلت له[٣]: أريد أنْ أقرأ هذا الكتابَ في أصلٍ يكونُ لي، أرجِعُ إليه؛ فأعجبَهُ ذلك منيّ، وأنعمَ بقراءَته عليه، وعطّلَ لأجلي أكثر الدُّولِ، وكان يداري أصحابَها[٤] إذا رأى منهم قَلَقاً، فإذا أكثروا[٥] عليه، وعَظَهمْ في رفقٍ وقالَ لهم: إنَّه ضيفٌ علينا فاصبروا له حتّى يُتِمَّ الكتابَ، فترجعوا إلى دولِكمْ، وأنتم مقيمونَ، فكانَ يجلس لي من أوّلِ النّهارِ إلى قريبِ الظُّهرِ، ومن العصر إلى الغروبِ، وربّما قام مراراً إلى تجديدِ الطّهارةِ ثم يَرجِعَ ويتكلّفُ ذلك على كبرِ سنّه وضعفِ قواه، فقرأتُ عليه أكثرَ [١٢٩/أ] الكتابِ المذكورِ قراءةَ

١- توفي ابن الغماز بتونس يوم عاشوراء سنة ٦٩٣هـ. انظر وفيات ابن قنفذ ٣٣٤ .

٢- في ت: تتحمله.

٣- له: ليست في ت.

٤- في ت وط: أصحابه.

٥- في ت: كثروا.

ضَبْطٍ وإتقانٍ، وولدهُ الفقيه، الفاضل المتقن، المحقّق أبوعبد الله يمسك عليه أصلَهُ العتيقَ المقروء على الإمام أبي ذرٍّ الهَرَوِيّ، وعليه خطّه. وكان يناوبني القراءةَ وأُمسكُ أنا الأصْلَ حتّى كَمُلَ لي الكتاب بقراءتي في الأكثرِ، وسَماعي بقراءةِ المذكورِ أحيانا.

وسمعتُ عليهِ أثناءَ ذلك دُوَلاً كثيرةً من الموطّأ، وصحيحِ مُسْلمٍ، وسُنَنِ أبي داود، وجامع التِّرْمذيّ، وناولَني سائرَها[1] في أصوله، مع دواوينَ سواها. وقرأتُ عليهِ أكثرَ «التيْسيرِ» للإمامِ المقرىءِ أبي عَمرو الدَّاني رضي الله عنه، وسمعتُ عليهِ باقيه، وقرأت عليه «برنامَجَهُ» الّذي قيَّد فيه أسماءَ شيوخه، وناولني برنامجَ شيخهِ الإمامِ[2] الشهيد[3] أبي الرَّبيع بنِ سالم[4] رحمه الله وسمعت عليه دولاً من كتابه «الاكتفاء في مغازي رسول الله ﷺ ومغازي الثّلاثة الخلفاءِ»[5] وهو كتاب كبير في أربعةِ أسفارٍ، وقرأت عليه من تآليفه أيضاً «مفاوضة القلب العليل على طريقة أبي العلاء المعرّي في مَلْقى

١- في ط: سائرما.

٢- ليست في ط.

٣- في ط: الشهير.

٤- هو سليمَان بن موسى بن سالم بن حسان الكلاعي الحميري: محدّث الأندلس وبليغها في عصره، له شعر وتصانيف منها «الاكتفاء بسيرة المصطفى والثلاثة الخلفاء» و«أخبار البخاري وترجمته» و«برنامج» ضَمّنه أسماء شيوخه. توفي شهيداً والراية في يده في وقعة «أنيشة» على ثلاثة فراسخ من بلنسية سنة ٦٣٤هـ. له ترجمة في تاريخ قضاة الأندلس ١١٩- تحفة القادم ٢٠١- برنامج الرعيني ٦٦- المغرب ٢/٣١٦- الديباج ١٢٢- الذيل والتكملة ٤/٨٣.

٥- كتاب في السيرة وأخبار الخلفاء الراشدين، وهو مطبوع، قال حاجي خليفة: لم يذكر فيه علياً رضي الله عنه لعدم الفتوحات في عصره. انظر كشف الظنون ١٤١ .

السّبيل»[1] وأجازَني حفظه الله إجازةً عامة، وحضرتُ عنده مذكرات، ومفاوضاتٍ في العلم، وانتفعتُ بلقائه كثيراً. وممّا قرأت عليه في برنامجِ شيوخهِ للإمامِ الشهيدِ أبي الرَّبيع بن سالم رحمه الله تعالى[2]: [الطويل]

إذا بَرِمَتْ نَفْسِي بِحَالٍ أَحلَّتُها ... عَلى أَمَلٍ نَاءٍ فَقَرَّتْ بهِ النَّفْسُ[3]
وأُنزِلُ أرجَاءَ الرَّجَاءِ رَكَائِبي ... إذَا رَامَ إِلْمَاماً بِسَاحَتَيَ اليَأسُ
وَإنْ أَوْحَشَتْني مِنْ أَمَانِيَّ نَبْوةٌ ... فَلِي فِي الرِّضَا باللهِ والقَدَرِ الأُنسُ[4]

وممَّا قرأت له في حرف الكاف من مفاوضة القلب العليل: [السّريع]

يَا رَاكِباً فِي نَيْلِ لَذَّاتِهِ ... مَسَالِكاً يَعْيَا بِها السَّالِكُ[5]
غرَّتْكَ دُنْيا مُنْقَضٍ شَأْنُهَا ... وَأَنْتَ لاَ بُدَّ لَهَا تَارِكُ
خَلاَّبَةٌ، سَلاَّبَةٌ للنُّهى ... أَصْدَقُ مَا غرَّتْ بِهِ أَفِكُ[6]
مَا أَمْكَنَتْ مِنْ وَصْلِها طَالِباً ... إلاَّ انْثَنَتْ وَهِيَ لَهُ فَارِكُ[7] [١٢٩/ب]
حَذَارِ أَنْ تُلْفَى غَداً بَاكِياً ... مِنْ طُولِ مَاأَنْتَ بِهَا ضَاحِكُ[8]

١- هو كتاب: «مفاوضة القلب العليل في منابذه الأمل الطويل بطريق المعري في ملقى السبيل» لأبي الربيع بن سالم الكلاعي ومنه نسخة خطية بالمكتبة الوطنيّة بتونس رقمها ١٥٠٥٣.

٢- الأبيات في برنامج الوادي آشي ٢٩٧-٢٩٨ وتاريخ قضاة الأندلس ١١٩ ونفح الطيب ٤/٣٣٢-٣٣٣.

٣- في ط: برحت نفسي.

٤- في ت: فلي بالرّضا.

٥- في ط: مسالك. وصرفها ضرورة.

٦- في ط: عزّت. والأفكُ: الذي ضعف عقله.

٧- فارك: مبغض.

٨- في ت وط: تلقي، وفي ط: ما أنت لها.

شَـانَكَ وَجْـهٌ في الـدُّجَا نَـيِّـرٌ　　　أَسْوَدُ في عَيْنِ الحِجَا حَالِكُ[1]
مَلَّكْتَهُ رِقَّكَ لَمْ تَدْرِ أنْ　　　قَدْ خَسِـرَ المَمْلُوكُ والمَالِكُ
هَلاَّ لِوَجْهِ الحَقِّ كَانَ الهَـوَى　　　فَكُـلُّ شَـيْءٍ غَيْـرُهُ هَـالِكُ[2]

وقرأت عليه أيضاً في ذكر مثال نعل المصطفى ﷺ:[3]　　　[الطويل]

خَواطِرُ ذِي البَلْوَى عَوَامِرُ بالجَوَى　　　فَفِي كُلِّ حَالٍ يَعْتَرِيـهِ خَبَالُ[4]
مَتَى يَدْعُ داعٍ باسْمِ مَحْبـوبِـهِ هَفَا　　　فَيَهْتَـاجُ بَلْبَالٌ ويُكسَـفُ بَالُ
وإنْ يَرَ مِنْ آثَـارِهِ أَثَـراً هَـمَـتْ　　　لَـهُ مِنْ غُروبِ المُقْلَتَـيْنِ سِجَالُ
كَحَالِي وَقَدْ أبْصَرتُ نَعْلاً مِثَالُهَا　　　لِنَعْلِ النَّبِـيِّ الهَاشِمِـيِّ مِثَالُ[5]
عَـرَانِـيَ مَايَعْـرُو المُحِـبَّ إذَا بَـدَا　　　لِعَيْنَيْـهِ مِـنْ مَعْنَى الأَحِبَّـةِ آلُ
فَقَبَّـلْتُ فـي ذَاكَ المِثَـالِ مُـعَـاوِداً　　　أَرَى أَنَّ ذُلِّي فِي هَـوَاهُ جَلاَلُ[6]
وَمَثَّـلْتُهُ نَعْلَ الـرَّسُـولِ حَقِيقَـةً　　　وَإِنِّي لأَدْرِي أَنَّ ذَاكَ مُحَالُ[7]
وَمِنْ سُنَّةِ العُشَّاقِ أَنْ يَبْعَثَ الـهَوَى　　　مِثَالٌ، وَيَقْتَادَ الغَـرَامَ خَـيَالُ[8]
وَلاَ فَـرْقَ إلاَّ أَنَّ حُبَّ مُـحَـمَّـدٍ　　　هُدًى، والهَوَى فِيمَنْ عَدَاهُ ضَلاَلُ[9]

١- الحجا: العقل والفطنة.

٢- البيت ساقط من ت، وفي ط: وكل شيء.

٣- الأبيات في ملء العيبة ٢/ ٢٠٠-٢٠١ وفي أزهار الرياض ٣/٢٢٦-٢٢٧، وفي المواهب اللّدنيّة ٢٣٨/١، والمجموعة النبهانية ٤/٩٨-١٠٠.

٤- في أزهار الرياض والمواهب والمجموعة النبهانية: ففي كل يوم.

٥- في المجموعة النبهانية: لنعل الرسول.

٦- في أزهار الرياض: ألا إن ذلّي.

٧- في المواهب اللدنية والمجموعة النبهانية: ومثلتها.

٨- في ملء العيبة: سنة الأحباب.

٥- في أزهار الرياض، والمواهب اللدنية والمجموعة النبهانية: فلا فرق.

وقرأت عليه في هذا المعنى أيضاً لأبي الرَّبيع المذكور قصيدة كبيرة أولها: [البسيط]

يامَنْ لِصَبٍّ يُرِي أَشْجانَهُ النَّظَرُ مَهْمَا تَبَدَّى لَهُ مِنْ حُبِّهِ أَثَرُ
يَفِي لَهُ الصَّبْرُ عِنْدَ النَّائِبَاتِ فَإِنْ يَلُحْ لَهُ أَثَرٌ لَمْ يَبْقَ مُصْطَبَرُ
وذَاكَ غَيْرُ ذَمِيمٍ مِنْ مَوَاقِعِهِ إِذَا تَعَقَّبَهُ التَّنْقِيحُ والنَّظَرُ

وهي أزيد من مئة بيت من غرِّ القصائد، وأجزلها لفظاً ومعنًى.

ومن شعر شيخنا أبي العبّاس المذكور حفظه الله تعالى[1] قوله:

[الطويل]

أَيَا سَامِعَ الشَّكْوَى وَيادَافِعَ البَلْوَى وَيَاكَاشِفَ الأَسْوَاءِ وَالبَأْسِ والضُّرِّ[2]
أَسِيرُ خَطَايَا يَرْتَجِي فَكَّ أَسْرِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلاً لِفَكٍّ مِنَ الأَسْرِ
وَمَالِيَ لاَ أَرْجو وَإِنْ كُنْتُ مُسْرِفاً وَأَدْرِي مِنَ الصَّفْحِ الجَمِيلِ الَّذِي أَدْرِي

قلت: أتى شيخنا - حفظه الله - بعروض البيت الأوّل [تامّة][3]، وإنَّما سُمِعَتْ مقبوضة. إلاّ أنَّ التّرصيع[4] الّذي في البيتِ ربّما سوّغ ذلك كما في التَّصريع. وقد وقع مثله في شعر المتنبيّ، وتُعُقِّبَ عليه. [١٣٠/أ]

ومولد شيخنا - رحمه الله - عقب المحرّم من سنة تسع وستّ مئة.

١- جملة «حفظه الله تعالى» ساقطة من ت.
٢- في ت و ط: اللأواء.
٣- من ت و ط.
٤- الترصيع هو توازن الألفاظ مع توازن الأعجاز أو تقاربها في البيت الواحد.

[لقاؤه لأبي القاسم اللّبيدي]

ولقيتُ بها الشَّيخَ، الجليلِ، الفاضلَ، العالمَ، المُسنَّ[1]، المسنَدَ، بقيَّةَ السلَّفِ، وقدوةَ الخَلَفِ، ذاالدّينِ المتين، والمنهجِ الواضحِ المستبين. صالحَ العلماء وعالم الصلُّحاء أبا القاسمِ بن حمّاد[2] بن أبي بَكْر الحَضْرَميّ اللَّبيديّ نفَعَ اللّه به، وهو أوحدُ وقته علْماً وديناً واجتهاداً، ومواظبةً، وحُسنَ ظنٍّ، وغزارةَ دموعٍ؛ معدومُ[3] النَّظيرِ في عَصْرِه، لايَفْتَرُ[4] من العبادة ولايتوانى عن شهودِ الصَّلاةِ في الجماعةِ، وحضورِ المجلسِ لإسماعِ العِلْمِ مَعَ فادحِ[5] ضُعْفِهِ، وفرطِ شاختِه، وضرارةِ بَصَرِه؛ لايتخلّف عن المسجدِ ليلاً ولانهاراً، ولايقطعُ إسماعَ العلمِ وتعليمه، وإقراءَ[6] القرآنِ، وقد أبْلَتِ التِّسعونَ بَدَنَه، ونهكت قواه، وحُفظ عليه ذهْنُهُ حفظاً تاماً. وأمّا أخلاقُه، وتواضعه، وقوّة رجائه، فغاية في بابه، وكنتُ اجتمعت بهِ أوّل ما لقيتهُ في مسجد إقرائه. قبلَ صلاة الصّبحِ [7]مع بعضِ الفقراءِ ممَّن يعرفُهُ، فسلّمْنا عليهِ ودارَ بيننا كلامٌ يسيرٌ[7]، فأقبلَ على الفقيرِ وقالَ له: هذا رجلٌ عاقلٌ، ومازال يواليني من برِّهِ واعتنائِهِ بما يليقُ بالفُضلاءِ أمثالِه، ومـاأتيتهُ[8] قَطُّ إلاّ هـشَّ إلـيَّ[9] عندما

١- ليست في ط.

٢- في ت أحمد وفي ط: حمّادي. وتوفي سنه ٧٠٢هـ. برنامج الوادي أشي ٤٩-٥٠.

٣- في ط: متعدم.

٤- في باقي النسخ: لا يفتر عن.

٥- فدحه الأمر: أثقله.

٦- في ت: قراءة.

٧-٧- سقط من ت.

٨- في ت: أتيت ـ وفي ط: لقيته.

٩- زاد في ط: إليّ في سلامه

يسمع سلامي[1]. وكان يقدّمُني للصَّلاةِ أحيانا، وما انفصلتُ عنه قطّ إلاّ داعياً لي بكلّ خير. ولمّا ودّعتُه بكى وقال لي: إن أمكنَكَ أن تكتبَ إليَّ بوصولكَ إلى أهلكَ سالماً فافْعَلْ لأُسَرَّ بذلكَ؛ فشكرتُه، وسلّمتُ عليه وانصرفتُ، ومازلتُ طول سفري وإلى الآن أتعرّف بركةَ دعائه والحمدُ لله على تسخير أوليائه حمداً لايقف عن[2] مدى إغيائه.

وممَّا قرأتُ عليه حفظهُ اللّه كثيراً من «كتاب البخاريِّ» وناولني سائرَهُ في أصلي، وحدّثني به عن الشّيخ [١٣٠/ب] الإمامِ المحدِّثِ الرَّاويةِ أبي زكريا يحيى بن محمَّد المَهدويّ، ويعرف بالبَرْقيّ، سماعاً عليه لجميعه[3] عن أبي محمَّد بن حَوط الله بأسانيده. وقرأت عليهِ بعضَ كتابِ «المُعلِم» [4] للإمام أبي عبد الله المازَريّ في أصلهِ، وناولني جميعَهُ عن أبي زكرياء البَرْقيِّ المذكورِ قراءةً عليه، وسماعاً عن الشّيخِ الفقيهِ أبي يحيى بن أبي بكر بن عبد الرّحمن الغَسّانيّ المازَريّ، ويُعرف بابن الحدّاد، قراءة ثم سماعاً عن مؤلِّفه المذكور سماعاً، وقلّما يوجدُ الآنَ أعلى منه فيه سنداً. وعن البَرْقيِّ المذكورِ رواهُ أبو عبد الله القضاعيّ[5] بحَضرة تُونِسَ - حرسها الله -.

١- في ت : كلامي.
٢- في ت : على.
٣- في ت و ط: بجميعه.
٤- ليست في ط.
٥- هو محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار، مؤرخ كبير، أديب ناقد، كان من أعلم الناس بتاريخ المسلمين السياسي والعلمي والأدبي، في سنة ٦٣٤هـ سفر عن صاحب بلنسية إلى أبي زكرياء الحفصي صاحب إفريقية وهي السفارة التي أنشد فيها قصيدته المشهورة:

أدرك بخيلك، خيل الله أندلسا ... إن السبيل إلى منجاتها درساً

قتل سنة ٦٥٨هـ في تونس وأحرقت مؤلفاته. من كتبه التكملة لكتاب الصلة، والحلّة السيراء وإعتاب الكتاب، وتحفه القادم. له ترجمة في عنوان الدراية ٢٥٧- نفح الطيب ٥٨٩/٢ و٣٠٣/٣ فوات الوفيات ٤٠٤/٣- الوافي بالوافي ٣٥٣/٣ أزهار الرياض -٢٠٤/٣ .

وقرأت عليه أيضاً بعض كتاب «عوارِفَ المعارف»[1] للإمام أبي حفص السُّهرورديّ - رحمه الله - وناولني جميعَهُ بحقِّ قراءَته إيّاه على الشّيخ الفقيه المحدّث أبي القاسم عبدالرّحمن بن أبي جَعفر الأنْصاريّ عن مؤلّفه، وقد تقدّم أنّي أدركت بمكّةَ - شرّفها الله - مَنْ يروي هذا الكتاب عن مؤلّفه، ولم يُقْضَ لي الأخذُ عنه؛ وسمعتُ على شيخنا المذكور دولاً من «التّيسير» للإمام أبي عَمرو المقرئ، ومن كتبٍ شتّى في التّصوّفِ وغيره، وأجازني إجازةً عامّةً، والحمد لله. ومولده - حفظه الله - عام ستٍّ مئة.

[لقاؤه لأبي محمّد الخلاصي]

ولقيتُ بها الشّيخَ الفقيهَ، الصّالحَ، الزّاهدَ، النّاسكَ، المنقطعَ، الفاضلَ، الكاملَ، ذا المآثرِ العليّة، والفضائلِ السَّنيّة، أبا محمَّد عبدالله بن يُوسُف بن موسى الخَلاصي الأندلسيّ[2] نفعَهُ الله، ونفع به، وهو من [أهل][3] الصّلاحِ والدّينِ، والفضلِ والتّمسّكِ بأخلاقِ السّلفِ الصّالحِ، والإعراضِ بالجملة عن أعراضِ الدُّنيا، والإقبالِ بالكليّةِ على طريقِ الآخرة بالمحلِّ الأعلى. رأيته وقد جاء إلى شيخنا أبي القاسم اللّبيديّ، فقعد بين يديه وهو يتملّق، ويقبّل أطرافه، فقال له الشّيخُ أبو القاسم: أنت أخي؛ فقال له: ياسيّدي ماأنا إلاّ عبدُكَ، ثمّ سلّم عليه وانصرفَ. وقد جالستهُ كثيراً، وتردّدتُ إليه مدّةَ إقامتي بتونسَ

١- هو كتاب في التصوف للشيخ شهاب الدين أبي حفص عمر بن محمد بن عبد الله السهروردي المتوفى سنة ٦٣٢هـ، وهو مشتمل على ثلاثة وستين باباً في سير المتصوفة وأحوالهم وأعمالهم. انظر كشف الظنون ١١٧٧ .

٢- لقيه ابن رُشيد في رحلته بتونس وأخذ عنه. انظر ملء العيبة ٢/٣٢١-٣٧٦ .

٣- زيادة من ت و ط.

مقتبساً من علمه، ومتبرّكاً بصالح [١٣١/أ] دُعائِه، ولبستُ منه الخِرْقَةَ المباركةَ، خِرقةَ المتصوِّفة [١]رزقنا اللّٰه بركتهم[١]، وكان هو قد لبِسَها من الشّيخ، الصّالحِ، العالمِ[٢]، العاملِ[٣]، إمامِ الحَرَمِ، أبي المكارم محمَّد بن يوسف بن مُسْدي[٤] المهلّبي رحمه اللّٰه. ولابن مُسدي في ذلك جزءٌ مجموعٌ، ذكر فيه مَن كساهُ الخِرْقَةَ من الشّيوخ؛ واتّصال السَّند فيها إلى السَّلف الصّالح رضي اللّٰه عنهم، وقد قرأتهُ عليهِ وقرأَهُ هو على مؤلِّفهِ المذكور.

وقرأت عليه من تآليف ابن مُسْدي أيضاً «الأربعين حديثاً في فَضْل الحجّ»[٥]، وأخبرني بها عنه. وقرأت عليه كتابَ«الإعلام بقواعد الإسلام» للقاضي أبي الفَضْل عياض بن موسى رحمه اللّٰه. وحدّثني به عن الشّيخ الفقيه الصّالح أبي العبّاس أحمد بن عُثمان بن عَجْلان القَيْسيّ سماعاً عليه عن أبي زكرياء يحيى بن أبي بكر بن عُصفور، عن أبي محمّد بن عُبيد[٦] اللّٰه الحَجْريّ عن مؤلّفه. وقرأت عليه «مختصرَ السّيرةِ» لأبي الحُسينِ أحمد بن فارِس بن زَكَريّاء اللّغويّ[٧] صاحب كتاب «المجمل»[٨] وحدّثني بهِ بسنَده إليه،

١-١- سقط من ط.

٢- ليست في ط.

٣- في ت: العاقل.

٤- هو محمد بن يوسف بن موسى الأزدي المهلبي. حافظاً مؤرخ، أصله، من غرناطة، قرأ على بعض علماء تونس وتلمسان وحلب ودمشق، وسكن مصر، ثم جاور بمكة وقتل فيها سنة ٦٣٢هـ، من مصنفاته، المسند الغريب، ومعجم بأسماء شيوخه والأربعون المختارة في فضل الحج والزيارة. انظر نفح الطيب ٢/١١٢ و٥٩٤ وتذكرة الحفاظ ١٤٤٨- وشذرات الذهب ٥/٣١٣ والعبر ٣/٣٠٨.

٥- قال عنه حاجي خليفة: هو الأربعون المختارة في فضل الحج والزيارة. انظر كشف الظنون ٥٨ .

٦- في ط: عبد اللّٰه.

٧- أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني: أحد أئمة اللغة والأدب، توفي في الريّ سنة ٣٩٥هـ، له المجمل، ومقاييس اللغة. انظر بغية الوعاة ١/٣٥٢-٣٥٣ .

٨- هو مجمل اللغة لابن فارس التزم فيه الصحيح والواضح من كلام العرب دون الوحشي المستنكر طبع غير ما طبعة.

وهو تآليف نبيل في أوراقٍ يسيرة وقرأتُ عليه «الكتابَ المُغني عن الحفظ»(١).

و«الكتاب في حَصْرِ الضَّعيفِ من الحديث بالأبواب» تآليف أبي حفص عُمَر ابن بَدْر الحَنَفيّ. وحدّثني به عن أبي محمَّد عبدالملك بن عبدالملك الشَّقُوريّ ببَلَنْسية(٢) قال: قرأته على مؤلِّفه ببيتِ المقْدِسِ، وهو في أوراق نبيل(٣) التّآليف جداً. وقرأت عليه(٤) جملةَ أجزاءٍ يرويها، ومسلسلاتٍ في الحديث، وحكاياتٍ وأناشيدَ. وأفادني فوائدَ كثيرةً نفعهُ اللهُ وإيّايَ بذلك.

وممَّا قرأت(٥) عليه، وحدّثني به عن ابن عجلانَ عن ابن عُصفور عن أبي(٦) القاسم (٧عبدالرّحيم(٨) بن عيسى، عن أبي الفَضْل عِياضٍ، عن أبي عَليّ الصَدَّفي عن أبي بكر الطُرَيْثيثيّ عن أبي القاسم٧) هبةِ اللّه بن الحُسين، عن علي بن محمّد، عن الحسن بن صَفوان، عن عبداللّه بن أبي الدُّنيا عن أحمد بن عبدالأعْلى، عن إسماعيل بن أبّان العَامريّ، عن سُفيان الثَّوريّ، عن طارق بن عَبدالعزيز، عن الشّعْبيّ [١٣١/ب] قال: «لقد رأيت عَجَباً. كنّا بفِناء

١- الكتاب المغني عن الحفظ: جزء صغير في الحديث، طبع، وهو للإمام عمر بن بدر بن سعيد بن محمد الوراني الكردي الحنفي المحدّث المتوفى سنة ٦٢٢ . انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ٢٨٧/٢٢ ومصادره ثمّة.

٢- بَلَنْسية: مدينة في شرق الأندلس بينها وبين قرطبة على طريق بجانة ١٦ يوماً، وبينها وبين البحر ثلاثة أميال. انظر الروض المعطار ٩٧ .

٣- في ت وط: قليل.

٤- ليست في ت.

٥- في ت: قرأته.

٦- في ت: ابن القاسم.

٧-٧- سقط من ت.

٨- في ط. عبد الرحمن وهو تصحيف.

الكَعْبة وعبدالله بن عُمر. وعبدَالله بن الزُّبَير[1]، ومُصعب بن الزُّبير[2]، وعبدالملك بن مروانَ. فقال القوم بعد أنْ فرغوا من حديثهم: ليقمْ كلُّ رَجلٍ منكم فليأخذ بالرُّكنِ اليَمانيّ ويسأل الله حاجتهُ، فإنّه يعطي من سعة فضله، قم ياعبدَ الله بن الزُّبَير فإنّك أوّل مولود وُلد في الهجرةِ. فقام فأخذ بالرّكن اليَمانيّ ثم قال: اللّهمّ إنّكَ عظيم تُرجى لكلّ عظيم، أسألك بحرمةِ وجهك، وحرمة عرشك، وحرمة نبيّكَ ﷺ ، ألاّ تُميتني من الدّنيا حتّى تولّيني الحجاز، ويُسلَّم عليَّ بالخلافة، وجاء حتّى جلس فقالوا: قم يامُصْعَب بن الزُّبَير، فقام حتّى أخذ بالرّكن اليَمانيّ ثمّ قال: اللّهم إنّك ربُّ كلِّ شيء، وإليك يصير كلّ شيء،أسألكَ بقدرتك على كلّ شيء ألاّ تميتَني من الدُّنيا حتّى تولّيَني العراق وتزوّجني سُكينة بنت الحُسَين. وجاء حتّى جلس. وقالوا: قمْ ياعبدَالملك[3] بن مروان، فقام وأخذَ بالرّكن اليَمانيّ، فقال: اللّهم ربّ السّموات السَبع وربّ الأرضين [السّبع][4] ذات النَّبْتِ بعدَ القَفْرِ، أسألُكَ بما سألك عبادك المطيعونَ لأمركَ، وأسألُكَ بحقّك على جميعِ خَلْقِكَ، وبحقِ الطّائفين حول بيتك[5] ألاّ

١- هو عبد الله بن الزبير بن العوّام: كان فارس قريش في زمنه، شهد فتح إفريقية زمن عثمان وبويع له سنة ٦٤هـ بعد موت يزيد بن معاوية فحكم مصر والعراق واليمن والحجاز وخراسان وأكثر بلاد الشام، واتخذ من المدينة عاصمة له، قتله الأمويون في مكة سنة ٧٣هـ. ترجمته في حلية الأولياء ١/٣٢٩- فوات الوفيات ٢-١٧١ .

٢- هو مصعب بن الزبير بن العوام: نشأ مع أخيه عبد الله بن الزبير، وولاّه البصرة سنة ٦٧هـ، قتله جيش عبد الملك بن مروان ٧١هـ. ترجمته في الطبري حوادث ٧١ وماقبلها. تاريخ بغداد ١٣/١٥.

٣- في الأصل: عبد الله وهو تصحيف.

٤- زيادة من ت و ط.

٥- في ط: البيت.

تُميتَني من الدُّنيا حتّى توليَني مشرقَ الأرضِ ومغربَها، ولاينازعني أحدٌ إلاّ أُتيتُ برأسهِ ثمَّ جاء حتَّى جلس، ثم قالوا: قم ياعبدالله بن عُمرَ فقام حتّى أخذ بالرّكن اليمانيِّ، فقال: اللَّهم [إنّك][1] رَحمن رحيم، أسألك برحمتك[2] الّتي سبقت غضبك، وأسألك بقُدرتك على جميع خلقك ألاّ تُميتني من الدُّنيا حتّى توجَب لي الجنّة، قال الشَّعْبيّ: فما ذهبت عيناي من الدُّنيا حتّى رأيت كلَّ واحد منهم أُعطيَ ماسأل، وبُشِّر عبدالله بن عمر بالجنّة ورُئيت له»[3].

وقرأت عليه أيضاً، حدّثنا الفقيه، التّقي، أبو الحجّاج يوسف بن حجّاج ابن يُوسف قال: ثنا الفقيه الزَّاهِد أبو العبّاس أحمد بن محمَّد بن حسن بن تامتيت اللَّواتي، قال: أنا الفقيه أبو الحُسين[4] يحيى بن محمّد، وقرأته عليه، قال: أنا أبو القاسم خَلَف بن [١٣٢/أ] عبدالملك، قال أنا الفقيه العدل أبو عبدالله محمّد بن أحمد التُّجَيْبيّ، قال: أنا أبو علي حُسين بن محمّد الغسّاني، قال: نا أبوالعبّاس أحمد بن عمر العُذْريّ قال: نا أبو العَبَّاس الرّازيّ قال: نا سُليمان بن أيوّب الطَّبرانيّ قال: نا بِشْر بن موسى قال: نا عبدالله بن يزيد المقرىء قال: نا حَيوة[5] بن شُرَيحْ عن عَقَبة بن مُسلم، عن

١- زيادة من ت و ط.

٢- في ط: بحرمتك.

٣- الخبر في عيون الأخبار ٢٥٨/١ بتلخيص، وفي نور القبس ٢٤٦/٢٤٧ وملءالعيبة ٣٣٢/٢-٣٣٣ بالسند نفسه.

٤- في ت و ط: أبو الحسن.

٥- في ت: خيرة، وهو تصحيف.

أبي عبدالرّحمن عن[1] الصُّنابِحيّ عن مُعاذ بن جَبل[2]: أنّ رسول الله ﷺ أخذ بيده فقال: «يامعاذُ واللهِ إنّي لأحبُّكَ، فقال: أوصيكَ يامعاذُ لاَتَدعْ في كلّ صلاةٍ أنْ تقول: اللّهمّ أعنّي على ذكرِكَ وشكْرِكَ، وحُسنِ عبادتِكَ[3]». وأوصى بذلك معاذُ الصُّنابحيَّ وأوصى به الصّنابحيُّ أبا عَبدَالرَّحمن، وتسلسلتِ الوَصيّة هكذا إلى شيخنا فأوصانا به.

وحدّثنا أيضاً قراءة منّي عليه قال: ناَ أبو عبدالله محمّد بن أحمد[4] ابن لُبّ المَلّيلي[5] عن أبي عبدالله بن قاسم، عن أبي الخطّاب عُمر بن دِحْيَة، عن الإمام أبي الوليد يوسف بن عبد العزيز ابن يوسف اللّخْميّ[6] بن الدّباغ، قال: أخبرني الشّيخ الصّالح أبو عبدالله أحمد بن محمّد بن عبد الله الخَوْلانيّ عن أبي عمر الطَّلَمَنْكيّ عن أبي جَعفر أحمد بن محمّد. قال: قرأت على أبي محمّد عبد الله بن محمّد بن أمية ابن غَلبون، قال: أنا محمّد بن عبد الله بن أبي حَليم، قال: نا محمّد بن وَضَّاح، قال: نا أبو نَجدة يزيد بن مجالد، قال: نا كُثيّر بن سَليم قال: أتيْتُ أَنس بن مَالك بواسِط القَصَب[7]،

١- ليس في ت.

٢- هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي: صحابي، كان أعلم الأمة بالحلال والحرام وهو أحد الستة الذين جمعوا القرآن على عهد النبي، بعثه الرسول بعد غزوة تبوك قاضيا ومُرشداً لأهل اليمن، توفّي سنة ١٨هـ وله في كتب الحديث ١٥٧ حديثاً. ترجمته في الإصابة ٤٠٦/٣ والاستيعاب ٣٣٥/٣ .

٣- أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب الاستغفار رقم ١٥٢٢، ٢٤٥/٥-٢٤٧ والنسائي ٥٣/٣.

٤- الاسم في ط: محمد بن عبد الله بن أحمد وهو تصحيف.

٥- في ت: الملياني.

٦- في ط التجيبي.

٧- واسط القصب: قرية بناها الحجّاج أوّلاً قبل أن يبني واسط هذه التي تدعى اليوم واسطاً ثم بنى هذه فسمّاها واسطاً بها.

فسمعته يقول: قال رسول الله ﷺ «أمّتي أمّةٌ مَرحُومَةٌ لاعَذابَ عليْها في الآخرةِ، إنّما عذابُها في الدُّنيا بالفتَنِ والزّلازِلِ. فإذا كانَ يومَ القيامةِ دَفَعَ اللّه إلى كلِ مُسلمٍ ومُسلمةٍ رَجُلاً من أهلِ الكتابِ، أو منَ المشْركين فقال: «هذا فداؤك مِنَ النّارِ»(١)

وقرأت عليه أيضاً قال(٢): أملى عليّ الشّيخ الفقيه أبو الحجّاج: قال: أملى علينا(٣) الفقيه الزّاهد أبو العبّاس هو(٤) ابن تامتّيت، قال: قرأت على أبي الحسين يحيى بن محمّد قال: قرأت على أبي القاسم خَلَف بن عبدالملك، قال: نا أبو محمّد هو ابنُ عَتّاب قراءة [١٣٢/ب] منّي عليه قال: كتب إليّ أبو عَمرو عُثمان بن أبي بكر: نا أبو الحسين عبدالله بن محمّد بن بَكّار بكازرون(٥) من أرض فارس(٦) قال: نا أبو أحمد الحسن بن عبدالله العَسْكريّ، قال: نا أحمد ابن إسحاق التّمّار، قال: نا زَيْد بن أَحْزَم، قال: نا ابنُ عائشة، قال. نا محمّد بن عبد الرّحمن القُرَشيّ، قال: كنت عند الأعْمش(٧) فقيل: إنّ

١- أخرجه أبو داود في الفتن، باب ما يُرجى في القتل رقم ٤٢٧٨- وابن ماجة في الزهد، باب صفة أمة محمد ﷺ رقم ٤٢٩٢ بخلاف في اللفظ ـ وابن حنبل ٤٠٢/٤ بخلاف في اللفظ.

٢- ليست في ط.

٣- في ت: عليّ.

٤- ليست في ت.

٥- كازَرُون: مدينة بفارس بين البحر وشيراز، وبينها وبين شيراز ثلاثة أيام، ثمانية عشر فرسخاً. انظر ياقوت ٤: ٤٢٩ .

٦- في الأصل: فاس وهو تحريف.

٧- الأعمش: هو سليمان بن مهران الأسدي بالولاء: تابعي أصله من بلاد الريّ، نشأ بالكوفة، كان عالماً بالقرآن والحديث والفرائض يروي نحو ١٣٠٠ حديثاً توفي سنة ١٤٨هـ ـ ترجمته في طبقات ابن سعد ٣٤٢/٦- تاريخ بغداد ٣/٩ .

الحَسَنَ بن عَمارة[1] ولي المظالم؛ فقال الأعْمَش: واعجبا من ظالم ولي المظالم، ما للحائك بن الحائك والمظالم؟ فخَرجت، فأتيت الحَسَنَ فأخبرته، فقال: عليّ بمنديل وأثواب، فوجّه بها إليه، فلّما كان من الغد، بكّرت إلى الأعْمَشِ، فقلت: أخبرني الحديث قبل أن يجتمع النّاس، فأجريت ذكره فقال: بخٍ بخٍ هذا الحَسَن بن عَمارة زانَ العمل ولم يزنه العمل، فقلت له: بالأمس قلتَ ماقلت، واليوم تقول هذا: فقلت: دع عنك هذا، حدّثني خَيْثَمة عن[2] عبدالله بن مَسعود أنّ رسول الله ﷺ قال: «جُبِلَتِ القلوبُ على حُبِّ مَنْ أحْسَنَ إليها، وبُغضِ مَنْ أسَاءَ إليها»[3].

وبه إلى ابن عتّاب، قال: قرأت على أبي القاسم حاتم بن محمّد التّميميّ قال: أنا أبو الحَسَن القابِسيّ بمنزله بالقَيْروان، قال: أخبرني حمزة ابن محمّد الكِنانيّ بمصر وقد اجتمع عنده[4] الطّلبة، يسأله[5] كلّ واحد منهم برغبته في دواوين أرادوا أخذها عنه، فقال: اجتمع قوم منَ الطّلبة[6] بباب قُتَيْبَةَ بن سعيد[7] فسأله بعضهم أنْ يُسمعَه من الحديث، وبعضهم من الفقه

١- هو أبو محمد الحسن بن عمارة الكوفي، تولّى القضاء ببغداد وروى عن أبن أبي مليكة والحكم توفي سنة ١٥٣هـ . انظر تاريخ بغداد ٧/٣٤٥- شذرات الذهب ١/٢٣٤ .

٢- في ط: ابن.

٣- أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٤/١٢١ وابن عدي في الكامل ٢/٧٠١ والديلمي في فردوس الأخبار ٢/١٧٩ وميزان الاعتدال ١/٥١٤- تاريخ بغداد ٤/٢٧٧ و٣٤٦.

٤- في ط: له.

٥- في ط: يسألونه.

٦- «من الطلبة» سقطت من ط.

٧- قتيبة بن سعد بن جميل بن طريف بن عبد الله الثقفي: فقيه، محدّث، قاضٍ، ولي قضاء بغداد، ولد في بلخ سنة ١٤٨هـ. سمع من مالك والليث وابن لهيعة وحماد بن زيد وأخذ عنه كثيرون توفي سنة ٢٤٠هـ . انظر ترتيب المدارك ٢/٥٢١ .

وأكثر كلٌّ واحد منهم برغبته، وألّح عليه الرحّالون، وكان روى كثيراً، ولقي رجالاً فتبسَّمَ ثمّ قال[1]: [الرجز]

تســألُني أمُّ صَـبِيٍّ جَمَلاَ

يَمْشِــي رُوَيْداً وَيَكُونُ أوَّلاَ

[مَهْلاً خَلِيلي فَكِلانَا مُبْتَلى][2]

وبه إلى ابن عتّاب، قال: أنشدني أبو عَمرو عُثْمان بن أبي بكر، قال: أنشدني أبو نُعَيم[3] الحافظ قال: أنشدني أبو محمّد الجابريُّ، قال: أنشدني ابن المعْتزّ لنفسه:[4] [مجزوء الكامل المرفل]

مَا عَابَني إلاَّ الحَسُو ... دُ وتِلْكَ مِنْ خَيْرِ المَعَائبْ[5]

وَالخَيْرُ وَالحُسَّادُ مَقْـ ... رُونَانِ إنْ ذَهَبُوا فَذَاهِبْ[6]

وَإذَا مَلَكْتَ المَجْدَ لَمْ ... تَمْلِكْ مَذَمَّاتِ الأقَارِبْ[7] [١٣٣/أ]

وَإذَا فَقَدْتَ الحَاسِدِيـ ... نَ فَقَدْتَ في الدُّنْيَا الأطَايِبْ

١- الشعر والسَّند بكامله في الصلة ١٥٨/١-١٥٩، وترتيب المدارك ٥٢٢/٢ وورد البيتان. ١ و ٢ في زهر الأكم ١٥٨/٣ وفيه رواية البيت الأول: تسألني أبا الوليد جملا.

٢- زيادة من ت و ط.

٣- في ت أبو عمرو.

٤- ديوانّ المعتز ٤٠/٢.

٥- في الديوان: والمجد والحُسّاد.

٧- في الديوان: تملك مودّات.

وبه إلى أبي الحسين يحيى بن محمَّد بن عليّ الأنصاريّ، عرف بابن الصَّائغ قال: أنشدنا أبو الطّاهر أحمد بن محمّد السِّلفي رضي الله عنه لنفسه(١): [الكامل]

أَهْلُ الحَديثِ هُمُ الرِّجَالُ البُزَّلُ ... وَمِنَ العَوَالِي فِي المعَالِي نُزَّلُ(٢)

أَنَّى يُدانِيهِمْ عَدُوٌّ مُلْحِدٌ ... يُزْرِي بِهِمْ وَهوَ الهَوِيُّ الأَنْزَلُ

قُولُوا لَهُ قَوْلَ امْرِئٍ مُتَنَصِّحٍ ... مَأْمُولُهُ هَذَا الصَّوابُ الأَجْزَلُ(٣)

هَلْ يَستَوِي السَّمَكُ الَّذِي تَحْتَ الثَّرى ... أَبَداً مُقِيماً والسِّمَاكُ الأَعْزَلُ(٤)

وقد أنشدني هذه الأبيات شيخنا شَرَفُ الدّين الدِّمْياطيّ حفظَه الله بمصر ولم أكتبها عنه. وقرأت أيضاً على شيخنا أبي محمّد،قال الشّيخ أبو الحجّاج: أنشدنا الشّيخ أبو العبَّاس، قال: أنشدنا أبو الحُسين محمّد بن(٥) الكتّاني(٦) قال: أنشدنا الشّيخ الفقيه ضياء الدّين أبو أحمد عبدالوهاب بن عليّ الصّوفيّ البَغداديّ، قال: أنشدنا الإمام أبو زُرْعة طاهرُ بن محمّد، قال: أنشدني والدي الشّيخ الإمام أبو الفضل محمّد بن طاهر المَقْدسيّ، قال: أنشدني أبو الحَسن عليّ بن عبدالرّحيم في التّصوّف واندراس أهله:

١- البيتان ١و٤ في ألف باء للبلوي.

٢- في ت و ط: ومن المعالي.

٣- في ت: متنصّف.

٤- في ألف باء: مقيم - والسماك الأعزل: من كواكب الأنواء وهو إلى جهة الجنوب.

٥- ابن ليست في ط.

٦- في ت و ط: الكناني.

[مجزوء الكامل]

أَهْلُ التَّصَوُّفِ قَدْ مَضَوا ... صَارَ التَّصَوُّفُ مَخْرَقَهْ
صَارَ التَّصَوُّفُ صَيْحَةً ... وتواجُداً وَمطبَّقَهْ[1]
مَضَتِ العُلومُ فَلا عُلُو ... مُ، ولاَ قُلُوبٌ مُشْرِقَهْ
كَذَبَتْكَ نَفسُكَ لَيْسَ ذا ... سَنَنَ الطَّريقِ المُلحِقَهْ
حتّى تكُونَ بِعَيْنِ مَنْ ... عَنْهُ العُيُونُ مُحَدِّقَهْ[2]
تَجْرِي عَلَيْكَ صُرُوفُهُ ... وَهُمومُ سِرِّكَ مُطرقَهْ

وبه إلى أبي الفضل المقدسيّ قال: أنشدنا أبو الحسن عليّ بن عبدالله الخُراسانيّ لنفسه: [١٣٣/ب] [الطويل]

أَمُدَّعِياً فِي النَّاسِ عِلْمَ التَّصَوُّفِ
أَتَيْتَ بِفِعلِ الجَاهِلِ المُتَكَلِّفِ[3]

مَتَى كُنْتَ مِنْ أَهْلِ التَّصوُّفِ أَوْ مَتَى
سَلَكْتَ طَرِيقاً غَيْرَ طُرْقِ التَّعَسُّفِ

القصيدة إلى آخرها، وهي اثنان وعشرون بيتاً وآخرها:

فَدَيْتُكَ دَعْ عِلمَ التَّصَوُّفِ مُسْكِتاً ... فَلَسْتَ وإِنْ مَوَّهْتَ بالمُتَصَوِّفِ

١- في ط: سبحة.

٢- في ط: محرقة وهو تحريف.

٣- في ت: أتيت بعلم.

وقرأت عليه: أنشدكم الفقيه أبو إسحاق إبراهيم بن محمّد بن الحجّاج البَلْفيقيّ، قال: أنشدني (١ أبو عبدالله بن فَرحون السُّلَمي، قال: أنشدني ١) أبو عُمران الزّاهد(٢) لنفسه:(٣) [البسيط]

إِلْمَامُ كُلِّ ثَقِيلٍ قَدْ أَضَرَّ بِنَا ... أَرُومُ نَقْصَهُمُ، والشَّيءُ يَزْدَادُ(٤)

وَمَنْ يَخِفُّ عَلَيْنَا لاَ يُلِمُّ بِنَا ... وَلِلثَّقِيلِ مَعَ السَّاعَاتِ تَرْدَادُ

وقرأت عليه: أنشدكم أبو إسحَاق البَلْفيقيّ، قال: أنشدني أبو بكر محمد ابن قَسّوم(٥) لنفسه:(٦) [المجتث]

تَبًّا لِفِرْقَةِ قَوْمٍ ... لاَيَنْتَمونَ لِمَذْهَبْ(٧)

إِذَا تَزَنْدَق وَغْدٌ ... قَالُوا: فُلاَنٌ تَهَذَّبْ(٨)

١-١- سقطت من ت.

٢- ليست في ط. وهو أبو عمران موسى بن حسين بن عمران الميرتلي: فقيه، زاهد، سكن إشبيلية. له نظم ونثر في النصائح والزهد، توفي بإشبيلية سنة ٦٠٤. ترجمته في المغرب ٤٠٦/١، الغصون اليانعة ١٣٥، تحفة القادم ١٣٢، الروض المعطار ٥٢١.

٣- البيتان في تحفة القادم ١٣٣، ملء العيبة ٢٣٠/٢ وشرح مقامات الحريري للشريشي ١٠٠/٢ وطراز المجالس ١٣٢.

٤- في تحفة القادم: يزيد بعضهم.

٥- هو محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله بن قسّوم بن أصبغ بن مَهْني اللخمي: عالم، زاهد، أديب من إشبيلية توفي سنة ٦٣٩هـ. له ديوان شعر ومصنفات منها «مجالس الأبرار» في فضلاء أهل عصره. له ترجمة في برنامج شيوخ الرُّعَيني ٩٢- والتكملة ٣٥٤/١ و٧٥٣/٢.

٦- البيتان في ملء العيبة ٣٣/٢ والتكملة لكتاب الصلة ٧٥٣/٢.

٧- في التكملة: تبّاً لفرقة سَوْ ... لا ينتمون لمذهب

٨- في التكملة: تزندق شخص.

وقرأت عليه أخبركم الشّيخ الفقيه المقرئ أبو عمرو عثمان بن سفيان عُثمان التَّميميّ التُّونسيّ هو ابن شُقر، قال: أنا الشّيخ الإمام أبو الحسن عليُّ بن المفضَّل المَقدسيّ، قال: أخبرنا الإمام أبو الطّاهر السِّلَفي، قال: أنا أبو عبدالله محمّد بن أحمّد بن الخطّاب الرّازي، قال سمعتُ أبا عبدالله الحسين بن علي بن نُعَيم المَصري قاضي البَرلُّس[1] يقول عن بعض سكان البَرلُّس، قال: سمعت قائلاً يقول ليلاً من جانب البحر، وينشد بيتين، فقصدت الصّوت فلم أرَ أحداً، فعلمت أنّه هاتفٌ وهما:[2] [البسيط]

لَوْلاَ رِجَالٌ لَهُمْ وِرْدٌ يَقُومُونَا ... وَآخَرُونَ لَهُمْ صَوْمٌ يَصُومُونَا[3]

لَزَلْزَلَتْ أَرْضُكُمْ مِنْ تَحْتِكُمْ سَحَراً ... لأَنَّكُمْ قَوْمُ سَوْءٍ لاَ تُبَالُونَا[4]

وقرأت عليه أنشدكم أبو عمرو وهو ابن شُقر، قال: أنشدنا أبو الحسن ابن المُفضّل المَقْدسيّ لنفسه: [١٣٤/أ] [البسيط]

يَارَبِّ عَفْوَكَ عَنْ ذِي زَلَّةٍ عَظُمَتْ ... بِهِ المَهابَةُ حَتَّى لاذَ بالكَرَمِ[5]

إِنْ لَمْ يَكُنْ هُوَ أَهْلاً أَنْ تُسَامِحَهُ ... فَإِنَّهُ مِنْ جَمِيلِ الظَّنِّ فِي حَرَمِ

١- البرلُّسُ: بلدة على شاطئ نيل مصر قرب البحر من جهة الإسكندرية. انظر ياقوت ٤٠٢/١ .

٢- البيتان في التكملة لكتاب الصلة ٤٨٠/٢، وملء العيبة ٣٣٦/٢، ونفح الطيب ٦٥١/٢ وذيل تعليقات ابن جُزَيّ على رحلة ابن بطوطة ٨٠٥.

٣- في التكملة: لهم سرد يصومونا، لهم ورد يقومونا. وفي النفح وملء العيبة والذيل: يقومونا، يصومونا.

٤- في النفح: من تحتكم غضباً، فإنكم قوم سوء.

٥- في ت: لاذ بالحرم.

وأيضاً:(١) [المنسرح]

يَا حَبَّذا الصَّالِحُونَ إنَّهُمُ فِي سُبُلِ الصَّالِحَاتِ قَدْ سَلَكُوا
إنْ لَمْ أَكُنْ قَدْ فَعَلْتُ مَافَعَلُوا فَلَيْتَنِي قَدْ تَرَكْتُ مَا تَرَكُوا

وبه إلى ابن(٢) المفضّل، قال: سمعت أبا الطّاهر السِّلفي غير مرّة ينشد من قيله:(٣) [الرمل]

أَنَا مِنْ أَهْلِ الحَدِيثِ وَهُمُ خَيْرُ فِئَةْ(٤)
جُزْتُ تسعينَ وأَرْجُو أنْ أَجُوزَنَّ المِئَةْ(٥)

قلت: قد حقّق الله رجاءه، وصدّق ظنّه رضي الله عنه، فإنّه توفي عام ستة وسبعين وخمس مئة،ومولده تخميناً عام اثنين وسبعين وأربع مئة. أخبرني بذلك شيخنا شرف الدّين الدّمْياطيّ عنْ الإمام زكيِّ الدّين أبي محمّد عبدالعظيمِ المُنذِريّ(٦) رحمه الله.

١- البيتان في ملء العيبة ٢/٣٣٦.
٢- في ط: أبو المفضل وهو تصحيف.
٣- البيتان في طبقات الشافعية الكبرى ٦/٤٠ وسير أعلام النبلاء ٢١/٧- نفح الطيب ٣/١٤٣ وتعريف الخلف ٣/١٤٣ ويقال: ما أحسن قيلَك وقولك.
٤- في تعريف الخلف: خير البَرية.
٥- في التكملة: عشت، وفي النفح والتكملة: أن أعيش لمئة.
٦- عبد العظيم المنذري: عالم بالحديث والعربية، من الحفاظ المؤرخين، أصله من الشام وتولى مشيخه دار الحديث الكاملية نحو عشرين سنة توفي سنة ٦٥٦هـ. له الترغيب والترهيب، والتكملة لوفيات النقلة وغيره. ترجمته في طبقات الشافعية ٨/٢٥٩ وما بعد، فوات الوفيات ٢/٣٦٦- شذرات الذهب ٥/٢٧٧- طبقات الحفاظ للسيوطي ٥٠٤.

وقرأت على شيخنا أبي محمّد أيضاً: أملى عليكم الفقيه أبو الحجّاج من كتابه قال: أملى علينا الشّيخ الفقيه أبو العبّاس من كتابه قال: أنشدنا أبو الحسين رحمه الله، قال: أنشدنا أبو القاسم خلف بن عبدالملك، قال: أنشدنا أبو محمّد بن عتّاب، قال: أنشدنا أبو عمرو عُثمان بن أبي بكر، قال: أنشدنا إسماعيل بن عبدالرّحمن الصّابونيّ عند الموادعة:[1] [الخفيف]

إنْ نَعِشْ نَجْتَمِعْ وَإلاَّ فَمَا أشْـ ـغَلَ مَنْ مَاتَ عَنْ جَمِيعِ الأنَامِ

وقرأت عليه، أنشدكم أبو إسحاق البَلْفيقيّ[2] عن غير واحد من شيوخه عنْ أبي محمّد الحجريّ عن أبي العبّاس بن العَريف لنفسه يعارض[3] أبيات إسحاق الموصليّ[4] الّتي أوّلها[5]: [الطويل]

وآمِرَةٍ بالبُخْلِ قُلْتُ لَها: اقْصِرِي فَذَلِكَ شَيءٌ ما إلَيْه سَبيلُ[6]

تُعَاتِبُنِي في الجُودِ، والجودُ شِيمَتي وَمَالي بِتَبْدِيلِ الطِّبَاعِ زَعِيمُ[7] [١٣٤/ب]

وَلَمْ أرَ مِثْلَ الجُودِ، أمَّا حَدِيثُهُ فَحُلْوٌ، وأمَّا حبُّهُ فَقَدِيمُ

١- البيت في تاريخ بغداد ٢/٣٨٤ دون نسبة.
٢- نسبته إلى بلفيق.
٣- في ت و ط: فعارض.
٤- إسحاق بن إبراهيم الموصلي: من ندماء الخلفاء وكان شاعراً عالماً بصناعة الغناء ومختلف العلوم. ولد ببغداد ١٥٥هـ وتوفي فيها ٢٣٥هـ. أخباره في الأغاني ٥/٢٦٨ و٤٣٥، إنباه الرواة ١/٢١٥ سمط اللآلي ١٣٧-٢٠٩ و٥٠٩ .
٥- البيت في الأغاني ٥/٣٢٢- والأمالي ٣١ وسمط اللآلي ١٣٧- والعقد الفريد ١/٢٥٨- وإنباه الرواة ١/٢١٧ ومرآة الجنان ٢/١١٥- ومعجم الأدباء ٦/١٨ والمستطرف ١٨٦ ونهاية الأدب ٣/٢٠٣ ونور القبس ٣١٧.
٦- في العقد الفريد: فليس إلى ماتأمرين سبيل.
٧- الأبيات في التشوّف ١٣٢، وأنس الساري والسارب ١٧، والإعلام للمراكشي ٢/١٢ دون عزو.

وَلاَ خَيْرَ فِيمَنْ لاَ يُعاشُ بِعَيْشِهِ   وَلَوْ أَنَّهُ فَوْقَ السِّماكِ مُقِيمُ
ذَرِيني فإِنَّ البُخْلَ عَارٌ لأَهْلِهِ   وَمَا ضرٌّ مِثْلِي أَنْ يُقَالَ: عَدِيمُ
أَرَى كُلَّ طَلْقٍ كُلَّ خَلْقٍ حَمِيمَهُ   وَلَيْسَ لِمَقْبُوضِ اليَدَيْنِ حَمِيمُ
وَكَيْفَ يَخافُ الفَقْرَ أَوْ يُحْرَمُ الغِنَى   كَرِيمٌ وَرَبُّ العَالَمِينَ كَرِيمُ

ومولد شيخنا أبي محمّد – رزقنا الله بركته – عام عشرة وستّ مئة.

[لقاؤه لأبي الحسن بن رزين]

ولقيت بها الأديبَ الفاضلَ، العارف، الأوحدَ، الحسيبَ، النّاظمَ، النّاثرَ أبا الحسن عليّ بن محمّد بن أبي القاسم بن رَزين التُّجَيْبيّ المُرْسي[1] أمدَّه الله وإيَّايَ بتوفيقه. وأعاننا على اقتفاءِ الحَقِّ وسلوكِ طريقه، فلقيتُ منه خَيِّراً فاضلاً، لَيِّنَ الجانبِ، وطيءَ الأخلاقِ، مُقيِّداً مُفيداً، له النَّظمُ الرّائق، والنّثر الفائق، وأدركَ جلّةً من الأعلام، وجملةً من علماء الإسلام وسمع كثيراً منهم، وأجازهُ خلقٌ كثيرٌ، وله في ذلك «فهرسةٌ» جَمعها فحسَّن ونمّق، وأتقنَ وحقّق، كُتِبَتْ لي من أصلِهِ[2]، وقرأتُها عليه، وقرأتُ عليه أيضاً جملةً من كتاب «الصِّلَة» لأبي القاسم بن بَشْكُوال. وحدّثني بها عن ابن عمّته الفقيه الفاضل أبي القاسم بن نبيل، وعن أبي جعفر أحمد بن يوسف بن فُرتون[3] قراءةً

١- ولد سنة ٦٢٥هـ وتوفي سنة ٦٩٢هـ . انظر برنامج الوادي أشي ٦٥ .

٢- في ت: أصلها.

٣- هو أحمد بن يوسف بن فرتون السلمي. مؤرخ ولد بفاس سنه ٥٨٠هـ وتوفي سنة ٦٦٠هـ. ومن آثاره: ذيل على صلة ابن بشكوال في تراجم من جاء بعد بشكوال من مشاهير علماء الأندلس. انظر نيل الابتهاج ٦٣ .

لجميعِها عليهما بسندهِما فيها؛ وقرأتُ عليه حديثَ زُرَيب[1]، وموعظةَ داودَ ابن جَهوة، وقرأهما هو على الرّاويةِ المسنَدِ أبي الحسين أحمد بن محمَّد بن أحمد بن السرّاج الأنصاريّ.

[2]وأراني بخطّ ابن الأبّار أنّ جهوةَ بالتّاء هو الصّواب. قلت: بالتّاء ذكره أبو عليٍّ البغدادي وأنشد له:[3] [الطويل]

أُقاسـي البِلى، لاأَسْتَريحُ إلى غَـدٍ فيَأْتي غَدٌ إلاَّ بَكَيْتُ عَلى أَمْسِ[4]

[سَـأبْكِي بدمْعٍ أَو دَمٍ أشْـتَفي بهِ فَهَلْ لي عُذْرٌ إن بَكَيْتُ عَلى نَفْسِي][5]

وقال البَكْريّ: أنشده ابن الجرّاح وغيره لداودِ بن جَهوةِ لم يختلفوا[6] في ذلك[2].

١- هو زريب بن بُرثُملي: أحد حواريي المسيح، وهو الذي عاش إلى زمن عمر، وسمع نضلة بن معاوية أذاناً في الجبل فكلّمه فإذا رجل عظيم الخلق سألَ نضلةَ والجيشَ الذي معه عن الرسول ﷺ فقالوا: قبض وعن أبي بكر فقالوا قبض، ثم سألهم عن عمر فقالوا هو حيٌّ ونحن جيشه، فقال لهم أقرئوه مني السلام ثم أمرهم أن يبلغوا عنه وصايا كثيرة ....». انظر الروض الأنف ٤/٢٤٩.

٢-٢- الفقرة ساقطة من ت. ومقولة البكري من سمط اللآلي ١/٣٢٨ وفيه: «وهكذا ثبت عن أبي علي ابن جَهْوة، وأنشد ابن الجراح وغيره هذا الشعر لداود بن جمهور ولم يختلفوا في ذلك...».

٣- البيتان في: الأمالي للقالي ١/١٠٨ ويليهما أبيات ثلاثة وهي:

سلام على الدنيا ولذة عيشـها سلامَ غُنُوٍ أو رواحٍ على رمْسي

وأنكرت شمس الشيب في ليل لمتّي لعَمرْي لَلّيلي كان أحسن من شمسي

كأن الصِّبا والشيب يطمس نوره عروس أناس مات في ليلة العرس

والبيت الأول في سمط اللآلي ١/٣٢٨.

٤- في الأصل: لقاني البلى.

٥- البيت ساقط في الأصل.

٦- في ط: لم يتخلّفوا وفيها تحريف.

وقرأتُ عليه «الأمثالَ الكامنةَ في القرآنِ» للحَسن بن الفَضْل، وقرأها على ابنِ السَّرَّاجِ، وقرأها ابنُ السَّرَّاج على الإمامِ أبي القاسم بن بَشْكُوال [١٣٥/آ]، وقيّد لي إجازتَهُ العامَّةَ في رقعةٍ، قيّد في آخرِها أبياتاً من نظمِه عارض[1] بها مثلَها ممَّا تسلسل فيها القولُ والإسنادُ إلى أبي العَلاءِ المعرّي، وأنشدنيها من لفظِه، وهي:[2] [الطويل]

نَصيبُكَ مِنْ دُنْياكَ أيْسَرُ بُلْغَةٍ ... قَليلٌ لَدَيْها صِحَّةٌ وفَرَاغُ[3]
فَما بَالُنَا نَلْهُو وَنَغْتَرُّ بالمُنَى ... كَأنْ لَيْسَ لِلأُخْرَى الغَداةَ بَلاَغُ
وكَيْفَ وَقَدْ وَلَّى الشَّبابُ وَلاحَ لِلْـ ... ـمَشيبِ بِفَوْدَيْ عَارِضَيْكَ صِباغُ[4]
يُسَاغُ لَنا نَسْءُ الحَياةِ لِغَايَةٍ ... ولَكِنْ خُلودُ المرْءِ لَيْسَ يُسَاغُ[5]
فَشَمِّرْ، وبَادِرْ منكَ فَضْلَ إنابةٍ ... فَحادِي المَنَايا لَيْسَ عَنْهُ مَراغُ[6]

وممَّا[7] قرأتُ عليهِ في برنامجِه، قال: أنشدني الشَّيخ أبو الحُسين بنُ السرّاج قال: أنشدني القاضي الأديب أبو إسحاق إبراهيم بن عليّ بن أغْلب الخولانيّ[8] لنفسه:[9] [الخفيف]

١-في ط: عرض.
٢- الأبيات عدا الثالث في ملء العيبة ٤/٧٧ب
٣- في ملء العيبة ياصاح بلغة. وإن عزّ فيها.
٤- الفَوْد: جانب الرأس مما يلي الأذن إلى الأمام. العارض: صفحة الخدّ.
٥- النّسيء: التأخير.
٦- الإنابة: التوبة. مراغ: محيد.
٧- مما: ليست في ط.
٨- هو إبراهيم بن علي بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن أغلب الخولاني الزّوالي: أديب شاعر له حظ من الحفظ للآداب. قرأ على جماعة من العلماء. وتولى القضاء بألش من أعمال مُرسية، توفي بمرّاكش سنة ٦١٦هـ. انظر برنامج شيوخ الرُّعيني: ١٠٨ .
٩- الأبيات في برنامج شيوخ الرعيني ١٠٩. وملء العيبة ٤/٦٦/آ.

وَنَهـارٍ بنَهْرٍ قَلْعةِ جابِرْ كَانَ مِنِّي لِوَاهِنِ الأُنْسِ جَابِر

بِطُيــورٍ كَأنَّـها خُـطَبَاءُ فِي غُصُـونٍ كأنَّهنَّ مَنَابِرْ[1]

سَـتَرَتْهَا الأَوْرَاقُ فَهِيَ تُغَنِّي فَسَمِعْنا القِيانَ خَلْفَ السَّتَائِرْ[2]

أَسْمِعِينِي يا أُمَّ حَـاءٍ وسِينٍ ثُمَّ نونٍ كَعقْرب الصُّدْغِ دائِرْ[3]

نَوبِـةٌ تُبْرِىء المـنـوَّبَ حَتَّـى لَـوْ غَدا مَيِّتاً لأصْبَحَ ناشِـرْ

كَيْفَ تَدْعونَ قَيْنَةَ الرَّوْضِ أُمَّاً وَهْـيَ بِكْرٌ، رضيعُ ثَدْيِ الأَزَاهِرْ[4]

وقرأت عليه لأبي عبدالله القُضاعيِّ، قال: وهو آخر ما أنشدني من شعره:[5] [السريع]

إلاَمَ فـي حَـلٍّ وَفـي رَبْـطِ تَخْبِـط جَـهْلاً أيَّما خَبْـطِ

دَعِ الوَرَى، وارْجُ إِلَهَ الوَرَى فَـإِنَّهُ ذُو القَبْضِ والبَسْـطِ

لَيْسَ لِمَا يُعْطِيهِ مِـنْ مَانِـعٍ وَلاَ لِمَا يَمنَـعُ مِـنْ مُعْـطِ

وقرأت عليه في رسم أبي محمّد عبدالله بن عبدالرّحمن بن بَرْطُلُه[6]

١- في برنامج الرعيني: ذي طور.

٢- في ت: فهما تغني - وفي ملء العيبة: سترتها الأغصان.

٣- في برنامج الرعيني: أسمعينا - كعطفه الصدغ - والصُّدْغُ: الشعر المتدلّي بين العين والأذن. وعقرب الصُّدْغ: خصلة شعر تدليها المرأة على صدغها في شكل حُمَةِ العقرب.

٤- في برنامج الرعيني: وهي طفل.

٥- ديوان ابن الأبّار: الملحق الأول صفحة ٤٤٩ .

٦- سلفتْ ترجمته.

منها قال [١٣٥/ب] أنشدني أبو عمرو[١] بن عتّاب قال: أنشدني أبو الحسن ابن المفضّل[٢]: [الطويل]

أيَا نَفْسُ بالمَأْثُورِ عن خَيْرِ مُرسَلٍ   وأصْحَــابِهِ والتَّابِعِــينَ تمسكِـــي
عَسَاكِ إِذَا بالغْتِ في نَشْــرِ دِينِهِ   بِمَا طَابَ من عَرْفٍ بهِ أَنْ تَمَسَّكِي[٣]
وَخَافي غَداً يَوْمَ الحِسَابِ جَهَنَّمــاً   إذَا لَفَحَـــتْ نِيــرانُهــا أَنْ تَـمسَّكِ

وقرأت عليه لابن برْطُلَّهْ ممَّا قرأهُ[٤] هو عليه:[٥] [الطويل]

بِأَرْبَعَــةٍ أَرْجــو خَلاصِــي وَإِنَّهَــا   لأَكْرَمُ مَذْخُــورٍ لَديَّ وأَعْظَـمُ[٦]
شَهَادةِ إِخْلاَصِي، وحُبِّي مُحَمَّداً   وحُسـنِ ظُنُونِـي ثُمَّ أَنِّـيَ مُسْلِـمُ

وقيّد هذا الاسم: برْطُلَّهْ، بضَمّ اللاّم وإسْكانِ الهاء. وقال: كذا ثبت[٧] عنه، وقيّدت هذا الاسمَ على شيخنا أبي عبدالله بن صالح[٨] بهاء التأنيث. وقرأت عليه أيضاً في رسم أبي عبدالله بن الجَلاَّبِ ممَّا كتب إليه:[٩] [الكامل]

١- في الأصل عمر.

٢- الأبيات في الذيل والتكملة ٥٦٢/١، ووفيات الأعيان ٣٩١/٣، وملء العيبة ٦٦/٤/ب، وغربال الزمان ٤٩٤ ومرآة الجنان ٢٨٣/٣ و٢٢/٤، وسير أعلام النبلاء ٦٩/٢٢.

٣- في الوفيات والسير والمرآة: نشرله أن تمسكي. والعَرْف: الرائحة الطيبة.

٤- في ت: قرأ.

٥- البيتان: ملء العيبة ٦٦/٤/ب، ونفح الطيب ٢٢٧/٣.

٦- في ت وملء العيبة والنفح: أرجو نجاتي.

٧- في ط: أثبت.

٨- أبو عبد الله بن صالح: فقيه عالم، لقيه العبدري في تونس، نسبهُ عبد الحي الكتاني إلى قسنطينة. انظر فهرس الفهارس ٣٤٠/١ .

٩- الأبيات في ملء العيبة ٦٧/٤/أ.

بَيْنِـي وَبَيْنَ الدَّهْرِ فِيـكَ عِتَـابُ ... سَيَطُولُ إِنْ لَـمْ يَمْحُـهُ الإِعْتَـابُ
يَا غَـائِباً بِكِتَـابِـهِ وَلِقَـائِـهِ ... هَـلْ يُرتجى من غَيْبَتَيْكَ إِيَابُ[1]
لَوْلاَ التَّعَلُّـلُ بِاللِّقَـاءِ تَقَطَّعَـتْ ... نَفْسٌ عَلَيْكَ شِعَارُهَا الأَوْصَابُ[2]

وقرأتُ عليهِ للأديبِ الكاتبِ أبي عثمان سَعْد[3] بنِ عبدالله الأنصاريِّ المعروف بالأكوبي، قال: أنشدنيه لنفسه في نِسْوةٍ مرَّ بهن يتباكين على قبورٍ في أيام عيد:[4] [الكامل]

بَـرَزُوا بِأَحْسَنِ زِينَـةٍ وَعَـرَتْهُمُ ... ذِكْرَى مِـنَ الأَهْلِينَ والخِلاَّنِ
فَتَهافَتَتْ دُرَرُ الدُّمُوعِ لمَاَ رَمَتْ ... مِنْ شَتِّ شَمْلِهِمُ يَدُ الحَدَثَانِ
فَاَعْجَبْ لِضِدَّيْ حَالَتَينِ تَلاقَيَا ... زِيِّ السُّرُورِ وعَبْرَةِ الأَحْزَانِ

وقرأت عليه: قال: أنشدني الأكوبيّ، قال: أنشدني أبو الرّبيع بن سَالم، قال: أنشدني أبو بكر عَتيق بن عليّ المعروف بالفَصيح قال: أنشدني الحَسَن ابن أبي الفَتْح بن وَزير[5] الواسطيّ [6]ببغدادَ قال: أنشدني أحمد بن محمَّد الواسطيّ: قال أنشدني صَدَقة بن الحسين، قال: أنشدني ابن[6] المندائيّ[7]، قال: أنشدني أبو محمَّد الحريريّ [١٣٦/أ] لنفسه، وكتب بها إلى صهره أبي

١- في الأصل: ياراغباً وهو تصحيف.
٢- في ملء العيبة شفاؤها الأوصاب، والأوصاب جمع وَصَب: وهو التعب والفتور.
٣- في ط: سعيد.
٤- الأبيات في ملء العيبة ٤/٦٧/ب.
٥- في ت: رزين.
٦-٦- سقط من ت.
٧- في ت: المندابي.

زَيْد السَّروجي[١]، واسمه المطهَّر، وكان مُدْمناً ينهاهُ عن ذلك: [٢] [الطويل]

أَبَا زَيْدٍ اعْلَمْ أنَّ مَن شَرِبَ الطِّلَى تَدَنَّسَ فاسْمَعْ قَوْلَ وَاعٍ مُهَذَّبِ[٣]

وَمِنْ قَبْلُ سُمِّيتَ المطَهَّرَ والفَتَى يُصدِّقُ بالأَفْعَالِ تَسْمِيَةَ الأَبِ

فَلاَ تَحْسُوَنْهَا مادُعيتَ مُطَهَّراً وَإِلاَّ فَغَيِّرْ ذَلِكَ الإسْمَ وَاشْرَبِ[٤]

وقرأت عليه أنشدني الأكوبيّ، قال: أنشدني أبو الحجّاج يوسف بن عبدالرّحمن بن المَرينة لنفسه: [المتقارب]

إِذَا كُنْتَ في الجُودِ ذا رَغْبَةٍ فَلا تَنْتَظِرْ مَوْقِفَ السَّائِلِ[٥]

فَإِنَّ الجَوادَ عَلَى رَغْبَةٍ جَوَادٌ لَعَمْرُكَ كَالبَاخِلِ

وقرأت عليه للأديب الكاتب أبي عبدالله محمّد بن عبدالله بن محمّد الجُذاميّ القُرطبيّ[٦] المعروف بابن العَطَّار. ممّا أنشده إيّاه ملغزاً في السكّين: [٧] [الطويل]

أُحَاجِيكَ مَاشَيءٌ إذَا مَا سَرَقْتَهُ وَفِيهِ نِصَابٌ لَيْسَ يَلْزَمُكَ القَطْعُ

١- اسمه مطهر بن سلار، وكان أديباً لغوياً صحب الحريري وتخرّج به وتوفي بعد عام ٥٤٠هـ. ترجمته في إنباه الرواة ٢٧٦/٣ وسير أعلام النبلاء ٤٦٢/١٩.

٢- الأبيات في معجم الأدباء ٢٧٢/١٦ وملء العيبة ٦٧/٤/ب و٦٨/أ.

٣- في معجم الأدباء: فافهم سرّ قولي المُهَذَّب.

٤- في معجم الأدباء: فلا تحسها كيما تكون مطهراً، وقطع همزة الاسم ضرورةً.

٥- في ت: وقفة السائل.

٦- هو محمد بن عبد الله محمد الجذامي القرطبي: أديب، شاعر، ظريف، مطبوع النوادر، التقاه ابن سعيد بالإسكندرية.ترجمته في اختصار القدح المعلّى ٢١٥/- نفح الطيب ١٢٤/٢ .

٧- البيتان في اختصار القدح المعلى ٢١٥ ونفح الطيب ١٢٥/٢ وملء العيبة ٦٨/٤/ب.

عَلى أنَّ فيّهِ الحَدَّ والقَطْعَ ثَابِتَ وَلاَ حَدَّ فيهِ هكَذا حَكَمَ الشَّرْعُ[1]

ومُلغزاً في اللُّغز: [2] [البسيط]

مَاسمُ تَحارُ بـهِ الأوْهــامُ والفكَرُ ويعْتَرِي اللَّسْنَ فيهِ العِيُّ والحَصَرُ
يَستَبْشِـرُ المَرْءُ إذْ يَبْدُو لَــهُ فـإذَا لَمْ يَبْدُ يَعْتَادُهُ الوَسْـوَاسُ والسَّهَرُ
يُغْرَى بـهِ كُلُّ نِحْرِيـرٍ وَذِي فِطَــنٍ وَيَفْتَدِي مِنْهُ مَــنْ لاعِنْدَهُ النَّظَرُ[3]
هَــذا هُــو اللُّغْزُ قَـدْ جَلَّيتُهُ لَكُـمُ كَما يُجَلِّي سَوادَ الحِنْدِسِ القَمَـرُ

ومولد الفقيه أبى الحسن بن رَزين من عام ستّةٍ وعشرين إلى عامِ سبعةٍ وعشرين وستِ مئةٍ. أخبرني به هكذا على الشَّكِّ.

[لقاؤه لابن زيتون]

ولقيتُ بها الشَّيخَ الفقيهَ الحسيبَ العالمَ، الفاضلَ، الكاملَ، الزَّكي، الرَّضيَّ، مفتي إفريقيةَ، والمنظورَ إليه بها، وقطبَ أصولِها وفروعِها، والمرجوعَ إليه في أحكامها، غير مُدافَعٍ ولامُنازِعٍ،أبا القاسم بن أبي بكر اليَمَنيّ[4] شهر [١٣٦/ب] بابن زَيتون، لقيتُهُ، وسمعتُ كلامَهُ في بعضِ المسائلِ فسمعتُ كلام ممارسٍ للعِلْمِ؛ طويلَ الخدمةِ له، مدلّ على الخوضِ فيه غير هَيوبٍ ولافَرِقٍ، وحقَّ ذلك لمن زاوَلَهُ جمعاً وفرقاً، وطلبه غَرباً وشرقاً، وخدمَه من لَدُن

١- في القدح المعلى والنفح وملء العيبة فيه القطع والحدّ.
٢- الأبيات في ملء العيبة ٤/٦٨/ب.
٣- النّحريرُ: العالم الحاذق في علمه.
٤- ولد سنة ٦٢٠هـ وتوفي سنة ٦٩٠ . انظر برنامج الوادي آشي ٤٠-١٤١ .

شبَّ إلى أنْ دبّ، وأولع[1] به ولوعَ متيّم صَبّ، يحبّ لحبّهِ كلَّ منتمٍ إليهِ، ويعكف[2] بباطنِه وظاهرِه عليه.

ولم أُكثِرْ مجالستَهُ لقلّة تفرّغه للرّواية، وكَثْرة شُغْله بالمسائِل، واستجزته فأجازني وكتب لي بذلك خطَّ يده، وكانَ رَحَلَ قديماً إلى المشرقِ فلقيَ به جماعةً من أحبارِ العُلماء، وأخيارِ الفضلاء، وسمعَ منهم وأجازوه؛ فمنهم الإمامُ زكيُّ الدِّينِ أبو محمّد عبد العظيم المُنذريّ[3] قرأ عليه نحوَ الرُّبعِ من «اختصاره لصحيح مُسلم» وقَدْرِ الثُّلث من أوّل «كتاب البُخاري» وأجازَهُ. ومنهم شرف الدّين أبوعبدالله محمَّد[4] بن أبي الفَضْل السُّلميّ المُرسيّ، سمع عليه «موطأ» يحيى بن يحيى وكتاب مُسْلم وأجازه. ومنهم عزّ الدّين أبو محمّد عبدالعزيز بن عبدالسّلام، وسمع عليه «مُختصر الرّعاية» من تآليفه، وسمع عليه مواضع من قواعده الّتي سماها «مصالح الطّاعات».

وأجازه رَشيد الدّين أبو الحسين يحيى بن علي بن عبد الله بن العَطّار[5]، وصدر الدّين أبو عليّ الحسن بن محمّد بن محمد

١- في ت: والع.

٢- في ط: ويعطف.

٣- سلفت ترجمته.

٤- سقط من ت. وهو محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي الفضل السُّلمي المرسي فقيه، محدّث ولد بمرسية سنة ٥٧٠هـ ورحل إلى المشرق للحَجّ وطلب العلم، توفي بالزّعقة بالقرب من الرملة في ربيع الأول سنة ٦٥٥هـ. له كتاب تفسير القرآن سماه «ريّ الظمآن» وكتاب «الضوابط الكلّية» في النحو. ترجمته في التكملة لابن الأبّار ١/٣٦٣- بغية الوعاة ١/١٤٤-١٤٦ ونفح الطيب ٢/٢٤١-٢٤٢.

٥- هو يحيى بن علي بن عبد الله بن علي بن مفرج القرشي: حافظ، محدّث ثقة، انتهت إليه رئاسة الحديث بالديار المصرية، ألّف معجم شيوخه. توفي سنة ٦٦٢هـ . انظر تذكرة الحفاظ للذهبي ٤/١٤٤٢ وحسن المحاضرة ١/٣٥٦- وشذرات الذهب ٥/٣١١ وطبقات الحفاظ للسيوطي ٥٠٥.

البكريّ التَّميمي[1]، وقرأ عليه بعض كتاب «الجامع» للترمذيّ، وأجازه عبد الغنيّ بن سُليمان بن بنين[2]. وشمس الدّين عبد الحميد الخُسْرُنْشاهي[3] ودرس عليه عِلْمَ الأصول. وأبو القاسم عبد الرَّحيم ابن أبي جَعْفَر سمع عليه كتاب «ماأظهره اللَّفْظُ للعَيانِ من بحرِ اللؤلؤ والمُرجان من الأحاديث العوالي والأبيات الحِسان» من تأليفه. وأبو يعقوب يوسف بن أبي المعالي بن ظافر الأنصاريّ ناوله «شعر ابن المفرّج[4]» وحدّثه به عنه..

[لقاؤه لأبي الحسن التّجاني]

ولقيت بها الشَّيخَ الأديبَ، الحسيبَ[5]، الكاتبَ، البليغَ، ذا الفضائل المذكورة، والمآثرِ المأثورة، شيخَ الأدباءِ، وأوحدَ البلغاء، [١٣٧/أ] وزينَ النّاظمين والشّعراءِ، أبا الحسن عليّ بن إبراهيم التّجاني[6] التّونسي، له بيتٌ

١- هو الحسن بن محمد بن محمد بن محمد بن عمرون التيمي: حافظ، صوفي سمع من الكثيرين، شرع في مسودة ذيل على تاريخ ابن عساكر وولي مشيخة الشيوخ وحسبة دمشق توفي سنة ٦٥٦هـ. ترجمته في شذرات الذهب ٥/٢٧٤- حسن المحاضرة ١/٣٥٦.

٢- هو عبد الغني بن سليمان بن بنين المصري ولد سنة ٥٧٥هـ وسمع من طائفة، وانتهى إليه علو الإسناد بمصر مع صلاح وسكون. توفي سنه ٦٦١هـ . انظر حسن المحاضرة ١/٣٨٠ وشذرات الذهب ٥/٣٠٦ .

٣- في ت و ط: عبد المجيد، وهو تحريف، وهو عبد الحميد بن عيسى بن عمويّة بن يونس بن خليل ابن عبد الله نسبته إلى خسر ونشاه من قرى تبريز. ومولده فيها سنة ٥٨٠هـ. وتقدم في علم الأصول والعقليات والفقه وتلخيص الأيات البيّنات، له ترجمة في طبقات السبكي ٨/١٦١- شذرات الذهب ٥/٢٥٥. معجم المؤلفين ٥/١٠٣ .

٤- في ط: ابن أبي المفرج.

٥- ليست في ط.

٦- ولد بتونس سنة ٦٣٥هـ وتوفي بها سنة ٧١٤ . انظر برنامج الوادي آشي ٥٩-٦٠ .

عريقٌ في العِلْم والأدب، قال لي بمسجد إقرائه: أنا الثّاني عشر مدرساً من آبائي على نسَقَ، كلُّهم قد قعد للإقراء. وبيتُهم بالعلم[1] شهير، وقلّ منهم ومن نسائهم مَن لايقول الشِّعر، وأمّا أبو الحَسن فهو فيه آية الزَّمان إجادةَ معنى، وتنقيحَ لَفْظ، وسُرعةَ بديهة، وكثيراً ما يُمليه ارتجالاً فيجوّد ويُتقِن. وله مشاركةٌ حَسَنَةٌ في العلم، وروايةٌ عن الشّيوخ، ورحلة إلى المشرق حجّ فيها؛ بالجملة من خواصّ أهل العلم وآحادهم؛ جالسته كثيراً، وسمعتُ كلامَهُ في الأدب وغيره، وقرأت عليه «مقامات الحريريّ» وكان[2] يردُّ فيها ردّاً حسناً، وينقُدَها نقداً محقّقاً؛ وذاكَرْتُهُ فيها بمواضع عديدة كنت أتعقّبها فأَثْبَتَ قولي فيها واستحسنه، وحدّثني بها عن الشّيخ الفقيه العالم أبي عمرو عثمان بن سفيان[3] التّميميّ سماعاً عن أبي الحسين بن جُبَير سماعاً عن أبي الطّاهر الخشوعي عن الحَريريّ؛ وقرأت عليه «المقامة الدَّوْحيَّة»[4] وحدّثني بها عن الخطيب أبي محمّد بن بَرطُلُه قراءة عن أبي زكرياء يحيى بن حسّان القرطبي عن مُنشئها أبي بكر بن عياض القُرطُبيّ[5]؛ وقرأت عليه «رياضة المتعلّمين» للإمام الحافظ أبي نُعيم، وحدّثني بها عن [الخطيب][6] ابن بَرطُلُه المذكور، قراءةَ عن أبي الخَطّاب بن واجِب وأبي محمّد بن غَلبون، عن أبي عبد الله بن سَعادة، وأبي بكر بن أبي ليلى، عنَ القاضي أبي عليّ الصّدَفيّ،

١- زاد في ت : شريف شهير.

٢- في الأصل: «كانت»، تحريف.

٣- في ت : سليمان وهو تحريف.

٤- في ط: الروحيّة وهو تحريف.

٥- هو محمد بن عياض اللبلي: أديب نحوي، تصدّر للإقراء في قرطبة أيام عبد المؤمن الموحدّي، وله المقامة الدوحية. انظر المغرب ١/٣٤٤، رايات المبرزين ١٣٢.

٦- زيادة من ت.

عن أبي الفضل محمد بن أحمد الأصْبَهاني الحدّاد، عن الحافظ أبي نُعيَم، وقرأت عليه قصيدَة الشَّيخِ الحافظِ أبي عبد الله القُضاعيّ الَّتي امتدح بها الأمير أبا زكريّاء يحيى بن عبد الواحد بن أبي حَفْص[1]، وهي مشهورة، أوّلها:[2] [البسيط]

أَدْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلِ اللهِ أَنْدَلُسَا   إنَّ السَّبيلَ إلى مَنْجاتِها دَرَسَا

وَحَدَّثَنِي بها سماعاً عنه، وسمعت[3] عليه قصيدةَ الشَّيخِ الأديب الأوحد، الفاضلِ،أبي الحَسن حازم بن محمَّد بن حازم الأندلسيّ القرطاجنّي[4]، [١٣٧/ب] وهي المقلوبة من قصيدة امرىء القيس في مَدْح المصطفى ﷺ، أجاد فيها وأبدع ماشاء الله؛ ورامَ منها المرامَ الصَّعبَ فطاوعَ[5] الإنشاء، وهي ممّاينبغي أن يقيَّد ولايُهملَ،فلذلك رأيت إثباتها في هذا الموضع مستخيراً الله سبحانَه، وقد حدَّثني بها عن مُنشئها المذكور وهي[6]: [الطويل]

١- يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاني: أوّل من استقلّ بالملك عن الموحدين بمراكش سنة ٦٢٦هـ. أنشأ المدارس والمساجد وجعل لها الأوقاف، كان كاتباً شاعراً، توفي ببونة سنة ٦٤٧هـ. له ترجمة في فوات الوفيات: ٤/٢٩٣-٢٩٥ ، والمؤنس في أخبار إفريقية وتونس ١٣٢ .

٢- القصيدة بتمامُا في ديوان ابن الأبّار: ٣٩٥.

٣- في ت و ط: وقرأت.

٤- هو حازم بن محمد بن حسن بن حازم القرطاجني: أديب، عالم، شاعر، من أهل قرطاجنة شرقيّ الأندلس توفي بتونس سنة ٦٤٨هـ، من كتبه. منهاج البلغاء، بالإضافة إلى ديوان شعره. له ترجمة في نفح الطيب ٢/١٥٨٤ - ٥/٥١٩ - أزهار الرياض ٣/١٧٢ - بغية الوعاء ١/٤٩١ .

٥- في: فضارع.

٦- سميت هذه القصيدة «حديقة الأزهار وحقيقة الافتخار في مدح النبي المختار سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه الأبرار» وهي في ديوان حازم القرطاجني ٨٩/٩٦ . وفي أزهار الرياض ٣/١٧٨-١٨٢ ونفح الطيب ٥/٥٢٠-٥٢٣.

[قصيدة حديقة الأزهار للقرطاجني]

لِعَيْنَيْكَ قُلْ: إِنْ زُرْتَ أَفْضَلَ مُرْسَلِ   قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِـيـبٍ وَمَنْزِلِ
وَفِـي طَيْبَةٍ فَانْزِلْ، وَلا تَغْـشَ مَنْزِلاً   بِسِـقْطِ اللِّوَى بينَ الدَّخُـولِ فَحَوْمَلِ
وزُرْ رَوْضَةً قَدْ طَالَمَا طَـابَ نَشْرُهَا   لِمَا نَسَـجَتْـهَا مِن جَنوبٍ وشَـمْأَلِ
وَأَثْوَابَكَ اخْلَعْ مُحْرِمـاً ومُصَدِّقاً   لَدى السِّتْـرِ إلاّ لِبْسَةَ المُتَفَضِّلِ
لَـدَى كَعْبَةٍ كمْ فاضَ دَمْعي لِبُعْدِهَا   عَلَـى النَّحر حتّى بَلَّ دَمْعِيَ مِحْمَلي[1]
فَيـا حَاديَ الآمـالِ سِرْ بي وَلاتَقُلْ   عَقَرْتَ بَعيري – ياامْرَأَ القَيْسِ – فَانْزِلِ[2]
فَقَدْ حَلَفَتْ نَفْسـي بِذَاكَ وأَقْسَمَـتْ   عَلَـيَّ وَآلَـتْ حَلْفَةً لَـمْ تَحَلَّـلِ
فَقُلْتُ لَهَـا: لاشكَّ أَنّـي طَائِعٌ   وأنّـكِ مَهْمَا تَأْمُري القَلْـبَ يَفْعَلِ
وَكَـمْ حَمَلَتْ في أَظْهر العَزْمِ رَحْلَها   فَيَاعَجَباً مِنْ رَحْلِهَـا المُتَحَـمَّلِ[3]
وعـاتَبَتِ العَجْزَ الَّذي عَاقَ عَزْمَهـا   فَقَالَتْ: لَكَ الويلاتُ إنَّـكَ مُرْجِلِـي
نَبِيُّ هُدًى قَـدْ قَـالَ لِلْكُفْرِ نُورُهُ:   أَلاَ أيُّها اللَّيْلُ الطَّويلُ ألا انْجَـلِ
تلا سُوَراً، مَاقَوْلُهـا بِمُعـارَضٍ   إذَا هـيَ نَـصَّتْهُ وَلا بِمُعَطَّلِ[4]
لَقَدْ نَزَلَتْ فـي الأَرْضِ مِنَّةُ هَدْيِـهِ   نُزولَ اليَماني ذي العِيابِ المُخَوَّلِ[5]

١- في ت و ط: قد فاض.
٢- في النفح والأزهار: فياحادي الآبال.
٣- في ت: وقد حملت وفي الديوان: من كورها.
٤- نصّ الشيء: رفعه.
٥- في الديوان والنفح وأزهار الرياض: ملّه هديه - ذي العياب المحّمل، والعياب جمع عَيْبة. وهي وعاء للمتاع يكون من أدم.

أَتَتْ مَغْرِبا من مَشرقٍ، وتعرضّتْ   تَعرُّضَ أثْناءِ الوِشَاحِ المُفَصَّلِ
فَفَازَتْ بلادُ الشَّرقِ مِنْ زينةٍ بها   بشقٍّ، وشِقٌّ عِنْدَنا لَمْ يحُوَّلِ
فصلّى عَلَيهِ اللهُ مالاحَ بارقٌ   كلَمْعِ اليَدينِ في حَبيٍّ مُكَلَّلِ[1]
نَبِيٌّ غَزا الأعداءَ بَيْنَ تهائمٍ   وبينَ أكامٍ، بَعْدَ مَامُتَأمَّلِ[2]
فَكم مَلكٍ وافَاهُ في زيٍّ مُنجدٍ   بمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأوابدِ هَيْكَلِ
وكمْ مِنْ يَمانٍ رَامحٍ جاءَهُ اكْتَسى   بضَافٍ فُوَيقَ الأرْضِ لَيْسَ بأَعْزَلِ[3] [١٣٨/أ]
وَمِنْ أَبْطَحيٍّ نِيطَ مِنهُ نِجادُهُ   بجيدِ مُعَمٍّ في العَشيرةِ مُخْوَلِ[4]
أَزلُّوا بِبَدْرٍ عَنْ سُروجِهِمُ العِدَا   كما زَلَّتِ الصَّفْواءُ بالمتنزِّلِ[5]
وَنَادوا ظُباهُم: لايَفُتْكَ فتًى، ولا   كبيرُ أُنَاسٍ في بِجادٍ مُزَمَّلِ[6]
وفُضّي جُموعاً قَدْ غدَا جَامِعاً لهُمْ   بِنَا بَطْنُ حِقْفٍ ذِي رُكامٍ عَقَنْقَلِ[7]
وَأَحْمَوا وَطِيسًا في حُنَيْنٍ كَأنَّه   إذا جَاشَ فيهِ حَمْيُهُ غَلْيُ مِرْجَلِ
وَنادُوا بَناتِ النَّبعِ: بالنَّصرِ أثْمري   ولا تُبعِدينا مِنْ جَنَاكِ المُعَلَّلِ[8]

١- الحَبيُّ من السحاب ما عرض لك وارتفع، والمكلّل: الذي في جوانب السّماء كالإكليل.

٢- في الديوان والنفح والأزهار: بين تلائعٍ: والرواية في قصائد ومقّطعات: سرى بِجنود الله بين تهائم.

٣- في النفح والأزهار: يمانٍ واضح.

٤- في الديوان: يُعطَ عنه.

٥- في الديوان والنفح والأزهار: أزالوا: وفي النفح والأزهار: على بروجهم.

٦- في نفح الطيب: وفادوا ظباهم.

٧- في الديوان: وفضٌ في قفاف عقنقل ـ وفي نفح الطيب فدفداً جامعاً بها. وفي النفح والأزهار: لنابطن، وفي أزهار الرياض ذي قفاف.

٨- في ت: لاتبعديني.

وممَّن لـهُ سَدَّدتِ سَهْمَين، فاضْرِبي ... بِسَهْمَيكِ فِي أَعْشَـارِ قَلْـــبٍ مُقَتَّلِ
فَما أَغْنَتِ الأبدانَ درْعٌ بها اكْتَسَتْ ... تَرائِبُهـــا مَصْقُولَةٌ كـــالسَّجَنْجَلِ
وَأَضْحَتْ لِواليهـا وَمَالِكهــا العِــدا ... يَقــولونَ لاَ تَهْلَكْ أَسًـــى، وَتَجَمَّلِ
وَقَدْ فرَّ مُنصَاعٌ، كما فرَّ خاضبٌ ... لَدَى سَمُـرَاتِ الحَـيِّ نَاقِف حَنْظَلِ(١)
وَكَمْ قَالَ: يَاليلَ الوَغَى طُلْتَ فانْبَلِجْ ... بصُبْحٍ ومَـــا الإصْباحُ فيكَ بأمْثَلِ
فَلَيْتَ جَوادي لَمْ يَسِرْ بي إلى الوَغَى ... وَباتَ بِعَيْنِـــي قَائِمـاً غَيْرَ مُرْسَلِ
وَكَمْ مُرْتَقٍ أَوْطَاسَ مِنْهُم بِمُسْرَجٍ ... مَتَى مَاتَـــرَقَّ العَيْنُ فِيـــهِ تَسَهَّلِ
وَقرّطَهُ خُرْصاً، كمصباحِ مُسْرِجٍ ... أهانَ السَّليطَ فـي الذُّبَـالِ المُفَتَّلِ(٢)
فَيرْنو لِهادٍ فوقَ هَـــاديه طَــرْفُهُ ... بناظرةٍ مِـــن وَحْشِ وَجْرَةَ مُطْفِلِ(٣)
ويَسـمَعُ مِـن كافورتَيْن بجـانبَيْ ... أثيـثٍ كقِنْوِ النَّخلـةِ المتَعَثْكِـلِ(٤)
ترفَّعَ أنّ يُعـــزَى لَهُ شَدُّ شَـــادِنٍ ... وإرْخَاءُ سَرْحَانٍ، وتقريـــبُ تَتْفُلِ(٥)
ولكنَّهُ يَمضـــــي كمــا مَرَّ مُزْبِدٌ ... يكبُّ على الأذْقانِ دَوْحَ الكَنْهَبَلِ(٦)
ويَغْشى العِدا كالسَّهْمِ، أو كالشِّهابِ، أَوْ ... كجُلْمودِ صَخْرٍ حطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ

١- في الأصل منصاعاً وهو تحريف، والرواية في قصائد ومقطعات وفرّ ابن عوف مثلما فرّ خاضبٌ.

٢- في ت و ط: خرساً، ورواية عجز البيت في النفح والأزهار، أمال السليط بالذبال المقتل.

٣- وجرة: موضع. ومطفل: ذات طفل وهو الغزال.

٤- الأثيث: الكثير المتواكب، والقنو: العذق. المتعثكل: الذي قد دخل بعضه في بعض لكثرته أو
وهو المتدلي.

٥- الشادن ولد الظبية. إرخاء سرحان: سرعة ذئب في لين، وتقريب تتفل: جري الثعلب.

٦- يكب على الأذقان دوح الكنهبل: يقتلع شجر الكَنْهبل من أصوله ويلقيه على أم رأسه لشدة هيجه.

جيادٌ أعادَتْ رَسْمَ رسـتُم دَارسـاً ... وَهَلْ عِنْدَ رَسْمٍ دَارسٍ مِنْ مُعَوَّلِ
وريعَتْ بـهَا خَيْلُ القياصرِ، فاخْتَفَتْ ... جَواحِرُهـا فـي صَرَّةٍ لَم تُزيَّلِ(١)
سَبَتْ عُرُبًا مِن نُسْوَةِ العرب تَسْتبي ... إذا ماسْبَكَرَّتْ بيْنَ دِرْعٍ وَمِجْوَلِ(٢)
وكَم مِن سَبايا الفُرْسِ والصُفرِ أسهرَتْ ... نَؤومَ الضُحى لم تَنْتَطِقْ عن تَفضّلِ(٣) [١٣٨/د
وحُزْنَ بُدوراً من لَيـالِي شُعُـورِهَا ... تَضِلُّ المَدارَى في مُثَنًّى ومُرسَلِ(٤)
وأبقَتْ بأرْضِ الشَّامِ هَاماً كأنَّها ... بأرْجَائِها القُصْوَى أنابيشُ عُنْصُلِ(٥)
ومـاجَفٌّ من حَبِّ القُلوبِ بِغَوْرِها ... وقِيعَانِها كأنّه حَبُّ فُلْفُلِ
وكَمْ جُبْنَ مِنْ غَبْراءَ لَمْ يُسْقَ نَبْتُها ... دِرَاكاً ولَمْ يُنْضَحْ بِماءٍ فَيُغْسَلِ(٦)
لِخضراءَ مادبَّتْ ولانَبَتَـتْ بـهَا ... أساريعُ ظَبْيٍ أَوْ مَسَاوِيكُ إِسْحِلِ(٧)
شَذَا طَيْرُها في مُثمرٍ ذِي أَرومةٍ ... وَسَاقٍ كأنبوبِ السَّقِيِّ المذلَّلِ(٨)
فشُدَّتْ بروضٍ ليسَ يذبلُ بعدَها ... بكُلِّ مُغارِ الفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ(٩)
وَكَمْ هَجَرَتْ في القَيْظِ تَحْكِي دَوارِعاً ... عَذارَى دَوارٍ فِي المُلاءِ المُذَيَّلِ(١٠)

١- في قصائد مقطعات: وريعت به. جواحرها: ما تخلّف منها، والصرّة: الجماعة. لم تزيل: لم تتفرق.
٢- المُسْبكرّة: الشابة المعتدلة القامة.
٣- الصُفر: لعله أراد بني الأصفر، وهم الروم، لم تنتطق: لم تشد نطاقاً للعمل، أي مرفهة منعمة. عن تفضّل: عن ثوب النّوم.
٤- في النفح: تضل العقاص.
٥- في ت: بأرجائه القصوى، أنابيش عنصل: أصول العنصل: وهو البصل البرّي.
٦- في قصائد ومقطعات: لم تسق متنها.
٧- الأساريع: دود صغير. وظبي: كثيب معروف. الإسحل: شجر تتخذ عروقه مساويك كالأراك.
٨- أنبوب السقي المذلل: ساق كساق البردي وهو نبات يقوم على سوق في فاقع الماء. المذلل: المحروث.
٩- في ط: بعدما، مغار الفتل: الحبل المفتول جيداً، يذبل: جبل.
١٠- الدوار: صنم لأهل الجاهلية يدورون حوله. الملاء المذيل: الملاء الفضفاض.

وَكَمْ أَدْلَجَتْ والقُرُّ يَهْفو هزيُزهُ ... وَيُلوي بأثْوابِ العَنيفِ المُثقَّلِ[١]
وخُضْنَ سُيولاً فضْنَ بالبيدِ بعَدما ... أثَرْنَ غُباراً بالكَديدِ المُرَكَّلِ[٢]
وكَمْ رَكَزوا رُمْحاً بدِعْصٍ كأنّهُ ... مِنَ السَّيْلِ والغُثَّاء فَلْكَةُ مِغْزَلِ[٣]
فلم تُبْقِ حِصْناً خوفَ حِصْنهم العِدا ... ولا أُطُماً إلاّ مَشيداً بجَنْدلِ[٤]
فهُدَّتْ بِقُضْبٍ شلْنَ بعدَ إمَالةٍ ... بأمْراسِ كتَّان إلى صُمِّ جَنْدلِ[٥]
وجَيْشٍ بأقْصَى الأرْضِ ألْقى جِرانَهُ ... وَأرْدَفَ أعْجَازاً، ونَاءَ بكَلْكَلِ
يَدُكُّ الصَّفا دكّاً، ولو مرَّ بعضُهُ ... وَأيْسَرُه على السَّتارِ فَيَذْبُلِ[٦]
دعَا النَّصرُ والتَّأييدُ رايَتَهُ اسْحَبي ... عَلى أثَرينا ذَيْلَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ[٧]
لواءُ منيرُ النَّصلِ سَامٍ كأنَّهُ ... مَنارةُ مُمْسَى رَاهِبٍ مُتَبَتِّلِ[٨]
كأنَّ دمَ الأعْداءِ فِي عَذَباتِهِ ... عُصَارَةُ حَنَّاءٍ بِشَيْبٍ مُرَجَّلِ[٩]

١- في النفح: والقتر يهفو. وفي ت: المفتل. والهزيز: صوت الريح، يلوي: يذهب ويميل. العنيف: غير الرفيق.

٢- الكديد: ماصلب من الأرض، المركل: الذي ركلته الخيل بحوافرها.

٣- الدُّعص: الكثيب المجتمع من الرمل. الغثاء: مايحمله السيل من بقايا الأشياء، فلكة مغزل: كأن الماء استدار حوله.

٤- في الديوان والنفح والأزهار: فلم تبن، والأُطم: الحصن. مشيد بجندل مبني بالحجارة.

٥- في الديوان والأزهار: بعضب شدّ بعد صقاله، وفي النفح: بعضب شيب بعد صقاله.

٦- في قصائد ومقطعات والنفح، عالي الستار، وفي النفح: ويذبل. وستار ويذبل، جبلان.

٧- في الديوان والنفح: راياته وفي ت: على أثرينا أثر. والمِرط. كساء من خز أو كتان، والمرحلّ: الموشّى.

٨- في الديوان والنفح والأزهار: طاوٍ كأنه. المنارة: يريد به سراج الراهب الذي يستضيء به في وحدته وانقطاعه لعبادة ربه.

٩- في الديوان: كأن دما - وفي أزهار الرياض: ترى دم.

صِحَابٌ قَرَوْا هَـامَ العداةِ وكَـمْ قَرَوْا   صَفيـفَ شِـــواءٍ أَوْقَديدٍ مُعَجَّلِ(١)

وَكَمْ أكْثَرُوا مَا طابَ مِنْ لَحْمِ جفنةٍ   وَشَحْمٍ كَهُدَّابِ الدِّمَقْسِ المُفَـتَّـلِ(٢)

حَكَى طِـيبَ ذِكراهُمْ، ومُرْكِفاحِهِمْ   مَداكُ عَرُوسٍ، أوصَرَايَةَ حَنْظَلِ(٣)

لأمْداحِ خيرِ الخَلْقِ قلبيَ قَـدْ صَبَا   وليْسَ صِبايَ عَـنْ هَوَاهَا بمُنْسلِ(٤)

ولَمْ يثْنِنِي عَنْ وَصفِها خودٌ انثَنَتْ   عليَّ هَضيمَ الكَشْحِ رَيَّا المُخَلْخَلِ

فَدَعْ مَنْ لأيّامٍ صَلُحْــنَ لَــهُ صَبَا   ولا سيَّمَا يــومٌ بَدارَةِ جُلجُــلِ(٥)

[١٣٩/أ] وأصْبحَ عَنْ أمِّ الحويــرث ماسَلا   وَجارَتِـها أُمِّ الرَّبــابِ بِمأسَــلِ

وكُنْ في مَديحِ المُصْطَفَــى كَمُدبِّجٍ   يُقَلِّبُ كفَّيْهِ بخيْـــطٍ مُــوصَّــلِ

وأمِّلْ بِهَا الأخرَى، ودُنْياكَ دَعْ فَقَدْ   تمتَّعْتَ مِنْ لَهْوٍ بِهـا غيْرَ مُعْجَــلِ

وكُـنْ كَمُنيــبٍ، للفُــؤادِ مُؤنِّبٍ   نَصيحٍ علــى تَعْذالِهِ غيْــرِ مُؤْتَلِ(٦)

يُنادي: إلهي إنَّ ذَنْبيَ قَــدْ عَـدَا   عَلــيَّ بأنْــواعِ الهُمُـــومِ لِيَبْتَلِي

فكُنْ لي مُجيرًا مِنْ شَياطينِ شَهْوَةٍ   عليَّ حِراصٍ لو يُشَرُّونَ مَقْتَلِـــي(٧)

ويُنْشِــدُ دُنْيــاهُ إذا ماتَدَلَّلَـــتْ   أفَاطِمُ مَهْلاً بَعْــضَ هَــذا التَدلُّلِ

١- في الديوان والنفح والأزهار: بروا هام – وفي الديوان والنفح والأزهار: قدير معجل، صفيف شواء: شرائح لحم مشوي، والقديد: اللحم المقدّد.

٢- في الديوان والنفح والأزهار: لحم جفرة، والدمقس: الحرير.

٣- في ت والنفح والأزهار: صلاية، ومداك العروس: حجر يسحق عليه الطيب للعروس، الصرّاية: نقيع ماء الحنظل.

٤- في قصائد ومقطعات والنفح والأزهار: وليس فؤادي.

٥- في قصائد ومقطعات: لأيام الصبابة قد صبا، وفي ت: يوماً بدارة جلجل.

٦- في الديوان: وكم لنبيث للفؤاد منابث، وفي النفح: وكن لنيث للفؤاد منابث، وفي ت: للفؤاد مؤالف.

٧- يشرّون: يظهرون قتلي من غيظهم عليّ، ويروى: «لو يسرّون» أي يكتمون.

فـإنْ تَصلِي حَبْلِـــي بِخَيْرٍ وَصَــلْتُهُ ... وإنْ كُنْتِ قَدْ أَزْمَعْتِ صَرْمِي فَأَجْمِلِي[١]

وأحسِنْ بِقَطْعِ الحَبْــلِ مِنْــكِ وبَتِّهِ! ... فَسُلِّي ثِيـابِي مِنْ ثِيـابِكِ تَـنْسُـلِ[٢]

أيـاسَامِعِي مَدْحَ الرَّسُولِ تَنَشَّقُـوا ... نَسِـيمَ الصَّبا جَاءَتْ بِــرَيّا القَرَنْفُلِ

وَروضَةَ حَمْـــدٍ للنَّبِـــيِّ مُحَمَّـــدٍ ... غَذاهَا نَمِيــرُ المــــاءِ غَيْرُ المحَلَّلِ

ويامَنْ أبَى الإصْغاءَ ماأنتَ مُهتَــدٍ ... وما إنْ أرَى عَنْكَ العَمـايَةَ تَنْجَلِي[٣]

فلَو مُطْفلاً أنْشَدْتُهُ لَفْظَها ارْعَــوَتْ ... فألْهيتُهـا عَــنْ ذي تَمائِــمَ مُغْيَلِ[٤]

ولو سَمعتْــهُ عُصْـــمُ طَوْدٍ أمَالَهَـا ... فَأنْزَلَ مِنْهُ العُصْــمَ مِنْ كُلِّ مَنْزِلِ[٥]

وأنشدني[٦] حفظه الله لنفسه: [الطويل]

قِفُوا سَلِّمُوا هَذا ضَرِيحُ مُحمّدٍ. . . . (البيتين)

وقد مضى ذكرهما[٧] وأنشدني أيضاً لنفسه [السريع]

حَدَّثَني أبْخَرُ أَضْحى بِما ... أهْدَى إلى الآذَانِ آذَانِـي

كأنَّمـــا فـــي فَمِهِ جِيفَةٌ ... أَوْ شَعْرَةٌ مِن لِحْيَةِ الدَّانِي

١- في ط: لجبر وصلته.

٢- في ت: تسلل.

٣- في قصائد ومعلقات، ماأنت مُنْتهٍ وفي النفحِ والأزهار: عنك الغواية تنجلي. والعماية: الغواية واللّجاج.

٤- في الديوان و ت والنفح والأزهار: ذي تمائم محول، والغيْلُ: اللبن ترضعه المرأة ولدها وهي تؤتى.

٥- الأعصم: الوعل، والطّودُ: الجبل العظيم.

٦- في ت: وأنشدني أيضاً.

٧- سلف البيتان في الصفحة ٤٢٦ .

وأنشدني أيضاً لنفسه: [السريع]

يامَنْ إذَا أوْدِعَ سِـراً فَلا دينَ لَهُ عَنْ نَشْـرِهِ يَرْدَعُهْ
كالبُوقِ إنْ أَوْدِعَ فِيـهِ فَمٌ أَلْطَفَ رِيحٍ ذَاعَ مُسْتَوْدَعُهْ

وأنشدني في الدِّينار ولم يُسَمِّ قائله، وذلك عند[١٣٩/ب] قراءتي عليه قول أبي محمَّد الحريريِّ:[1] [الرجز]

أَصْفَرُ ذِي وَجْهَينِ كالمُنَافِقِ

يَهِيـمُ النَّاسُ بالدِّينـارِ حُبَّـاً وَمَا فِيهِمْ سِوى مَنْ يَصْطَفِيهِ[2]
فَذُو الوَجْهَينِ عِنْدَهُمُ وَجِيـهٌ وَذَاكَ نَقِيـضُ ماقَدْ صَحَّ فِيهِ

يعني قوله ﷺ «ذُو الوَجْهَينِ لايكونُ عِندَ اللهِ وَجِيهاً»[3]. وأنشدني في ضدِّه[4]: [الوافر]

صَدِيقُ المَرْءِ كالدِّينارِ طَبْعاً وَكيفَ يُخالفُ المرْءُ الطِّباعَا
تَـرَاهُ ماأقَـامَ يُقِيمُ جَـاهـاً وإنْ فارَقْتَهُ أجْدَى انْتِفاعـاً

قلت: وهذا أثبت في وصف الدِّينار من قول بعضهم - أنشده الحاتميُّ[5] في أبيات المعاني[6]: [الوافر]

١- البيت في مقامات الحريري ٣٢ وألف باء للبلوي ١/١١١.

٢- البيتان من الوافر.

٣- أخرجه القاضي عياض في الشفا ١/١٠٣ وهو في الكامل لابن عدي ٥/١٩٦٢ بخلاف في اللفظ.

٤- البيتان لابن رشيق القيرواني في ديوانه ١٠٤.

٥- هو أحمد بن حاتم الباهلي: لغوي، نحوي، صحب الأصمعي وروى عنه كُتُبَه. من مؤلفاته الشجر والنبات، والإبل، أبيات المعاني توفّي سنة ٢٣١هـ له ترجمة في معجم الأدباء ٢/٢٢٣ - وتاريخ بغداد ٤/١١١ وإنباه الرواة ١/٣٦، وإيضاح المكنون ١٣.

٦- البيتان منسوبان للأخطل في شرح المقامات للشريشي ١/٤١ ولم أجدهما في ديوانه.

وَمَعْشوقٍ يُرقِّصُ كُلَّ يومٍ تَرى فِي وَجْهِهِ أبَداً كَلامَا

إذَا فَـارَقْتَهُ أجْدَاكَ نَفْعـاً ولا يُجدِي عَلَيْكَ إذَا أقَامَا

ومن هذا أخذ الحَريريّ قوله[1]: [الرجز]

وشَـرُّ مافِيـهِ مِـنَ الخَـلائـقِ

أنْ ليسَ يُغني عَنْكَ في المضَائقِ

إلاّ إذا فَـرَّ فَـرارَ الآبِـقِ

وأنشدني للإمام أبي الطّاهر السِّلَفي رضي الله عنه: [السريع]

رُبَّ كِتَـابٍ لِـيَ قَـابلْتُهُ وَقُلْتُ في نَفْسيَ صَحَّحْتُهُ

حَتّـى إذَا عَـاوِدْتُهُ مَرَّةً وجَدْتُ تَحْريفاً فَأصْلَحْتُهُ

وأنشدني لامرأة من أهل بيته -ولم يُسمّها- ملغزةً في اسم تميم:[2]

[الطويل]

يَقولونَ لي: هَذا حَبيبُكِ ماسمُـهُ فَمَا اسْطَعْتُ إفشاءً وَمَا اسْطَعتُ أكْتُمُ

فَقُلْتُ: اسْمُهُ ميـمٌ وَحَـرْفٌ مُقَدَّمٌ فَهذا اسْمُ مَنْ أهْـوَى فَدَيْتُكُمُ افْهَمُوا

١- مقامات الحريري ٣٠-٣٣ .

٢- هي زينب بنت إبراهيم التجاني كما ورد في مقدمة رحلة التجاني التي كتبها الأستاذ حسن حسني عبدالوهاب /يط/ وقد ورد البيتان في الصفحة ك، وانظر شهيرات التونسيات ١١١، ونسبهما ابن رشيد في ملء العيبه ٥/٣٩٦ لستّ الأهل.

وأنشدني لها أيضاً في صفة شَعْر[1]:[١٤٠/أ] [الطويل]

إذَا انْسَدَلَتْ مِنْـهُ عَلَيْهـا ذُؤابـةٌ كغُصْنِ أَراكٍ عَانَقَ الغُصْنَ أَرْقَمُ[2]
أثيثٌ طـويلٌ فَهْـوَ يَسْتُرُ جِسْمَهـا إذا نَزَعتْ عَنْهُ الملابِسَ أَسْحَـمُ[3]
كأنَّ الصَّباحَ ارْتاعَ مِنْ خَوْفِ طَالبٍ بِثأرٍ فأضْحَـى بالدُّجَـا يَتَكـتَّمُ[4]

وأنشدني أيضاً، وأظنّه لنفسه[5]: [الوافر]

رَغيفُ أبي عَلـيٍّ حَلَّ خَوْفـاً مِنَ الأضْيَافِ مَنْزِلَةَ السِّماكِ
إذَا كَسَرُوا رَغيفَ أبـي عَليٍّ بَكى، يَبكي، بُكـاءً فَهْـوَ باكِ

وأنشدني أخوه الفقيهِ أبو حِفص عمر بن إبراهيم التّجاني[6] لنفسه:
[السريع]

سِــرُّكَ إنْ أعْلَمْتَـهُ ثانِيـاً فَاعْلَمْ بأنْ قدْ آنَ أنْ تُـفْشيَهْ
لأنَّ ما أُضْمِرَ في حَالةِ الْـ إفْرادِ تَـسْتَخْـرِجُهُ التَّثْنِيَـهْ

١- الأبيات الثلاثة نسبها الأستاذ حسن حسني عبدالوهاب لزينب بنت إبراهيم التجاني أيضاً في مقدمة رحلة التجاني أيضاً في صفحة ك. وشهيرات التونسيات ١١١ .

٢- في شهيرات التونسيات: عانقته أراقم.

٣- في ط: يستر جسمها.

٤- في شهيرات التونسيات: فألوى بالدُّجا.

٥- ورد البيتان في الحماسة المغربية ١٢٩٥ ، وثمّة بيتان قريبان منهما وردا في الحماسة البصرية ٢٦١/٢ .

٦- عمر بن إبراهيم التجاني: أديب، عالم، كاتب، له شعر لقيه العبدري في تونس عند الصدور. انظر مقدمة رحلة التجاني لحسن حسني عبدالوهاب صفحة كا.

قلتُ: وهذا استدلال[1] بالتّمثيل نحوي مليح، مناسب جدّاً، يدلّ على طبع فاضل، ومقْولٍ فاصل؛ وأنشدني للفقيه أبي المطرّف[2] ابن عَمِيرة - رحمه الله -[3]: [الخفيف]

بَايَعَونا مَودّةً هِيَ عِنْدي ... كالمصرَّاةِ بيعُها بالخِداعِ
فَسَأقْضِي بَردَّها ثمَّ أقْضِي ... مَعَها مِنْ نَدامَتي ألفَ صَاعِ

وأنشدني له أيضاً:[4] [الطويل]

شَرَطْتُ عَلَيْهِمْ عِنْدَ تسليمِ مُهْجَتي ... وَعِنْدَ انْعِقَادِ البَيْعِ قُرْباً يُواصِلُ
فَلمَّا أَرَدْتُ الأخْذَ بالشَّرْطِ أعْرَضُوا ... وَقَالوا: يَصِحُّ البَيْعُ والشَّرْطُ باطِلُ[5]

[لقاؤه للقُسّي]

ولقيتُ بها الفقيهَ الأفضلَ[6] أبا عبد الله محمّد بن أبي القاسم الأزْديّ ويُعَرف بالقُسِّيِّ[7] بضمِّ القاف. وهو رجلٌ، فاضلٌ، وقورٌ، ذو سَمْت [١٤٠/ب] وهيئة، من عُدول البَلَدِ؛ رحلَ إلى المشرقِ، فلقِيَ النّاسَ،وأخَذ عنهم؛

١- في ت: وهذا الاستدلال بالتمثيل النحوي.

٢- في ت، أبو المظفر، وهو تحريف. سلفت ترجمته في الصفحة ٦٤ .

٣- الأبيات في الذيل والتكملة ١/١-١٥٣ وملء العيبة ٢/٢٠٦.

٤- الأبيات في الذيل والتكملة ١/١-١٥٣ وملء العيبة ٢/٢٠٦.

٥- جاء بعد هذين البيتين في طبعة الرباط: إن هذا من قوله:

وقالوا بعت نفسك لا بشيء ... ويفسخ بيع مغبون بجهل
فقلت: أنا أديب لافقيه ... ونقض العهد عندي شر فعل

٦- في ط: الفاضل.

٧- ولد سنة ٦٣٩هـ توفي سنة ٧٠٨ هـ بتونس. انظر برنامج الوادي آشي ٥٨ .

٨- ليست في ط.

قرأتُ عليه جزءاً في «فضيلة من اسمه محمّد وأحمد» تخريج الشّيخ الحافظ أبي عبد الله الحسين بن أحمد بن عبد الله بن بَكير النَّجار، وحدّثني به[1] عن وجيه الدِّين منصور بن سليم الإسكنداراني عرف بابن العماديّة، سماعاً عليه بالإسكندريّة، عن أبي القاسم عبدالرّحمن بن عبدالمجيد[2] الصَّفْراويّ، سماعاً وقراءة عن أبي الفداء إسماعيل بن عليٍّ الموصليّ، عن أبي عبدالله محمّد بن بركة الصَّلحي،عن أبي الحسن عليّ بن أحمد الدَّهان، عن الشّريف أبي الحسن محمّد بن أحمد بن المُهتَدي، عن ابن بَكير[3] مصنِّفه، وهذا الجزء جزء[4] لطيف، رأيت أن أذكر هنا أحاديثه مختصرةَ الأسانيد ليخفّ حفظها، وعلى أنّها مضعَّفة فقد قال الحافظ أبو عُمر بن البّر: إنّهم كانوا يتساهلون في أحاديث الفضائل فيروونها عن كل قويٍّ وضعيف.

وأوّل الأحاديث عن أنس ابن مالك قال: قال رسول الله ﷺ «يوقفُ عَبدان بين يَديّ الله عَزَّ وجلّ فيأمرُ بهما إلى الجنَّة، فيقولان: ربّنا وبمَ استأهلنا الجنّةَ ولمْ نعملْ عَمَلاً نُجازَى به الجنّة؟ فيقول الله لهما: عَبْدَيَّ أُدخلا الجنّةَ، فإنّي آليتُ على نفسي ألاّيدخلَ النّارَ من اسمهُ أحمد ولا مُحمّد»[5].

وعن أبي أُمامةَ الباهليّ قال الرّسول ﷺ :«من وُلِدَ لَهُ مَوْلودٌ فسمّاهُ مُحمّداً حبّاً لي وتبرّكاً باسمي كانَ هو ومولودُهُ في الجنّةِ»[6].

١- ليست في ط.

٢- في ت عبدالجليل وهو تحريف.

٣- في ت: بكر.

٤- ليست في ت و ط.

٥- لم أقف له على تخريج فيما رجعت إليه من كتب الحديث.

٦- أخرجه شيرويه الديلمي في فردوس الأخبار ٤/٨٩ وعلاء الدين الهندي في كنز العمال ١٦/٢٢٣ وورد في ميزان الاعتدال ١/٤٤٧.

وعن ابن عبّاس وواثلةَ بن الأسْقَع[1]: «مَنْ وُلِدَ لهُ ثلاثةُ أولادٍ ولَمْ يُسَمِّ أحدَهُمْ محمّداً فقد جَهِلَ[2]» وفي رواية «فقد جَفاني».

وعن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه، قال عليه الصّلاة و السّلام: «ماجتمعَ قومٌ في مَشورةٍ مَعهم رجلٌ اسمه محمّد، فلمْ يُدخلوهُ في مشورتِهمْ إلاّ لمْ يُبارك لهم»[3].

وفي رواية عنه: «مامِنْ قومٍ كانتْ لهم مَشورةٌ، فَحَضَرَ مَعَهمْ من اسمُهُ أحمد أو محمّد فأدخلوهُ في مشورتِهمْ إلاّ خيرٌ لهم[4]».

وعن أنَس بن مَالك قال: «تسمّونَهمْ [١/١٤١أ] محمّداً ثمّ تسبّونَهمْ؟»[5].

وعن عليّ عنه عليه السّلام: «مَامِنْ مائدةٍ وَضعتْ، وحَضَرَ عليها من اسمُه أحمد أو محمّد إلا قدّس الله ذلكَ المنزلَ في كلّ يومٍ مرّتين»[6].

١- واثلة بن الأسقع بن عبد العزى الليثي الكناني: صحابي خدم النبي ثلاث سنين، شهد فتح دمشق. روى ٧٦ حديثاً. توفي سنة ٨٣هـ بالقدس أو بدمشق. له ترجمة في الإصابة ٣/٥٨٩ وفي صفة الصّفوة ١/٦٧٤.

٢- أخرجه ابن عدي في الكامل ٦/٢١٠٧- والطبراني الكبير ٦/٢٣٧- ومجمع الزوائد ٨/٤٩ والديلمي في فردوس الأخبار ٤/٢٨٨ بخلاف ليسير في اللّفظ، والجامع الصغير ٢/١٨٣، وكنز العمال ١٦/٤١٩.

٣- أخرجه ابن عدي في الكامل ١/١٧٣ وشيرويه الديلمي في فردوس الأخبار ٤/٣٥٢ وعلاء الدين الهندي في كنز العمال ٦/٤٢٢.

٤- لم أقف له على تخريج فيما رجعت إليه من كتب الحديث.

٥- أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/٤٩٣ بلفظ تسمون أولادكم محمداً ثم تسبّونهم، والشفا لعياض ٢/٩٣٠ وفي معجم الزوائد ٨/٤٨ بلفظ ثم تلعنونهم. وكنز العمال ١٦/٤١٨-٤٢٨ و١٦/٤٢٢ وميزان الاعتدال ١/٥٥٧.

٦- أخرجه شيرويه الديلمي في فردوس الأخبار ٤/٣٤٠ وابن عدي في الكامل ١/١٧٢ بخلاف في اللفظ من طريق جابر.

وعن جعفر بن محمّد عن أبيه عن جدّه مُرسَلاً قال: «إذا سَمَّيتمْ مُحمّداً فعظّموهُ، ووقّروهُ وَبَجِّلُوهُ، ولا تُذلّوهُ، ولا تُحقِّروهُ، ولا تَجبهوهُ[1] تعظيماً لمحمّدٍ ﷺ»[2].

وعن الحسَن البصريّ[3] موقوفاً قال: «إنّ الله عزّ وجلّ ليوقف عبداً[4] بين يَديْه يومَ القيامةِ اسمُهُ أحمد أو محمّد، قال: فيقول الله تعالى: محمّد عبدي أما استحييت منّي تَعصيني واسمُك باسم حَبيبي محمّد، فينكّسُ العبدُ رأسَهَ ثمّ يقول: اللّهمَ إنّي فعلتُ، فيقول الله: ياجبريلُ، خذ بيدِ عبدي فأدخلْهُ الجنّةَ، فإنّي استحيي أنْ أُعذّبَ بالنّارِ مَن اسمُه على إسم حبيبي محمّد.»[5]

وعن عليٍّ رضي الله عنه عن النّبيّ عليه السّلام: «إذا سَمّيتّم الولدَ محمّداً فأكرموهُ وأوسعوا لَهُ في المجلسِ، ولاتقبِّحوا لهُ وَجْهاً»[6].

وعن ابن عبّاس عنه: «ما منْ أهلِ بيتٍ منهمْ مَن اسمُهُ محمّد إلا لم يزالوا في البَركةِ في كلّ يومٍ وليلةٍ»[7]

وعن أبي هريرة عنه قال: «لايَدْخُلُ الفَقْرُ بيتاً فيه اسْمي[8]».

١- في ت و ط: تجفوه: وجبهه: ضرب جبهته، أولقيه بما يكره.

٢- هو في فردوس الأخبار ٤١١/١ بخلاف في اللفظ، وكنز العمال ٤٢١/١٦ بخلاف في اللفظ وكشف الخفاء ٩٤/١.

٣- هو الحسن بن يسار البصري تابعيّ، ولد بالمدينة ولقي بعض الصحابة وسمع من بعضهم له كتاب في التفسير، وله نزول القرآن، توفي سنة ١١٠هـ، له ترجمة في تذكرة الحفاظ ٧١/١ وطبقات الحفاظ للسيوطي ٣٥.

٤- في ت: رجلاً.

٥- لم أقف له على تخريج فيما رجعت إليه من كتب الحديث.

٦- الحديث في الجامع الصغير ٢٩/١- وفَيْضِ القدير ٣٨٥/١، وكنز العمال ٤١٨/١٦.

٧- لم أقف له على تخريج فيما رجعت إليه من كتب الحديث.

٨- ورد هذا الحديث في الكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي ٢١٦٩/٦.

وعن عَليٍّ رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ: «مامنْ أهلِ بَيْتٍ فيهمْ اسمُ نَبيٍّ،إلاّ بعثَ اللهُ إليهم مَلَكاً يقدّسُهمْ بالغَداةِ والعَشيِّ»(١).

وعن عائشه رضي الله عنها عن النَّبيِّ ﷺ: «ماأُكلَ طعامٌ قَطُّ مِن حلالٍ،عَليهِ رجلٌ اسمُه اسمي إلاّ يضاعفُ اللهُ في طَعامِهمْ»(٢).

وعن أبي سعيدٍ عنه عليه السَّلام: «من ولد له مولود فليحسن اسمَهُ وأَدَبَهُ، فإذا بلغَ فليزوّجْهُ، فإنْ بَلَغَ ولم يزوّجْهُ فأصابَ إثماً باءَ بإثْمِهِ»(٣).

انتهت أحاديث الجزء المذكور ، وفي معناها ما أخبرني به الشّيخ المسند المعمّر، أبو محمّد بن هارون، عن أبي القاسم بن الطّيلسان عن أبي جَعفر بن عبد المجيد، عن أبي القاسم بن بَشْكُوال عن أبي عُمران بن أبي تَليد، عن أبي عُمر بن عَبد البّر، عن عبد الوارث بن سُفيان، عن قاسم بن أصبغ، عن عبد الله بن أبي مسرَّة، عن مطرّف [١٤١/ب] بن عبد الله عن ابن أبي مَليكةَ عن ابن جُرَيج يرفعه، قال: «مَنْ كانَ لهُ ذو بَطْنٍ فأجمعَ أن يُسمّيهُ مَحمّداً، رزقهُ الله غُلاماً، وما كانَ اسمُ محمّد في بيتٍ إلا جَعلَ اللهُ في ذلكَ البيتِ البركةَ»(٤).

وبه إلى ابن أبي مَسَرَّةَ قال: حدَّثني ابن أبي قُدامة العُمَريّ عن أبيه، يرفع الحديث إلى النَّبيِّ ﷺ، قال: «ماضرٌّ أَحَدكمْ أنْ يكونَ في بَيْتهِ مُحمّدٌ ومحمّدانِ وثلاثةٌ»(٥).

١- أخرجه شيرويه الديلمي في فردوس الأخبار ٣٥١/٤.

٢- لم أقف له على تخريج فيما رجعت إليه من كتب الحديث.

٣- ليست في ط.

٤- هو في الأسرار المرفوعة ٤٣٥ بخلاف في اللفظ.

٥- أخرجه القاضي عياض في الشفا ٢٣٠/١ و٩٣١/٢- والسيوطي في الجامع الصغير ١٤٦/٢ وقال عنه ضعيف، وكنز العمال ٤١٩/١٦ وفيض القدير للمناوي ٤٥٣/٥.

[لقاؤه لجابر الوادي آشي]

ولقيت بها الشّيخ، الفقيه، الحاجّ، المبارك، الأفضل، معين الدِّين أبا محمّد جابر بن محمّد بن القاسم بن حَسّان الوادي آشي[1]، وكان من التّجّار في القيساريّة.[2] رحل إلى المشرق قديماً فلقي به الإمام علَم الدّين السَّخاويّ، وسمع منه وأجازَه، وقرأ عليه قصيدتَي الشّيخ الإمام أبي القاسم الشّاطبي في القراءات، وفي المرسوم، وحدّثه بهما عنه وقد قرأت عليه بعضَ الأولى، وجميعَ الثّانية، وأصلُه يمسكُ عليه، وحدَّثني بهما معاً عن السَّخاويّ عن ناظمهما[3] المذكور، وأجازني إجازة عامّة، وكتب لي بذلك خطَّ يده، وقرأت عليه أرجوزة السَّخاوي في المتشابه من ألفاظ القرآن، وحدثني بها عنه قراءة، وهي في أوراق بديعة محكمة، وأرى أن أثبت منها ها هنا دُرراً، وأوّلها:

[الرجز]

قال السَّخاويُّ عليٌّ ناظِما ... كانَ لَهُ اللهُ الرَّحيمُ راحِمَا

الحمدُ لله الحميدِ الصَّمدِ ... مُنزلِ الذِّكْرِ على مُحَمَّدِ

فيه هُدًى للمُهتدِي ونُورُ ... وحكمةٌ تُشفَى بها الصُّدُورُ[4]

ثمَّ مرّ في مقدمة الأرجوزة إلى أن قال:

١- ولد سنة ٦١٠هـ وتوفي سنة ٦٩٤هـ . انظر برنامج الوادي آشي ٥٤-٥٥ .

٢- القيسارية: بلدة على ساحل بحر الشام تعد في فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيّام. انظر مراصد الاطلاع ١١٣٩ .

٣- في ط: ناظمها.

٤- في ط: هدى للمتقين.

وَقَدْ نَظَمْتُ في اشتباهِ الكَلِمِ ... أُرْجوزةً كاللُّؤلؤِ المنتظَمِ
لقَّبْتُها هدايةَ المُرتابِ ... وغايةَ الحفّاظِ والطُّلّابِ
أَوْدعْتُها مَواضعاً تَخْفى على ... تَالي الكِتابِ وتُريحُ مَنْ تَلا
رتَّبتُها على حُروفِ المُعْجَمِ ... فَأَفْصَحَتْ عَنْ كُلِّ أمْرٍ مُبهَمِ
[١٤٢/أ] فإنْ أرَدْتَ علْمَ لَفْظٍ مُشْكِلِ ... فَانْظُرْ إلى الحَرْفِ الَّذي في الأوَّلِ
فَإنَّهُ بَابٌ مِنَ الأَبْوابِ ... وَفيهِ مارُمتَ بِلاَ ارْتيابِ[١]
وَلا تَعُدَّ أَوَّلاً مَزِيدَا ... إلاَّ إِذا كَانَ هُوَ المقصُودَا

ثمّ أتمّ المقدّمة وابتدأ حرف الهمزة فقال:

واقرأ ﴿فَأَنْزَلْنَا﴾ - بِأيِ البَقَرَهْ ... ﴿عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ مُحَبَّرَهْ[٢]
لكنْ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾[٣] جاءَ في ... سُورَةِ الأَعْرافِ يقيناً فاعْرِفِ
وآخِرُ الآيَةِ ﴿يَفْسُقُونَ﴾ ... فيها، وفي الأعرافِ ﴿يَظْلِمُونَ﴾[٤]
وجاء ﴿إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾[٥] ... فيها، وفي(صاد) أَبَى مَاذكِرَا[٦]

١- في ط: ففيه مارمت.

٢- من قوله تعالى في سورة البقرة، الآية ٥٩ ﴿فأنزلْنا عَلَى الَّذينَ ظَلَموا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

٣- يشير إلى قوله تعالى في سورة الأعراف، من الآية ١٦٢ ﴿فَأَرْسَلْنا عَلَيهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمون﴾.

٤- سبَق تخريج الآيتين في الحاشيتين السابقتين.

٥- إشارة إلى قوله تعالى في سورة البقرة، من الآية ٣٤ ﴿إلاَّ إِبْلِيسَ أبى واستكبَرَ وكانَ مِنَ الكافرين﴾.

٦- في ت و ط: أبَا ما ذكرا، وهو تحريف.

وَمَعْ ﴿وَمَا أُنْزِلَ﴾ - قُلْ - ﴿إِلَيْنَا﴾[1] وآلُ عُمـــــرانَ بهـــا ﴿ عَلَيْنَـا ﴾[2]

ثمّ مرّ على الحروف واحداً واحداً إلى آخرها، فقال في حرف الياء:

واقرأ ﴿ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ مِنْ بَعْدِ ﴿ لاَ يُقْبَلُ مِنْهَا ﴾ وَاتْلُ[3]

وَقَبْلُ: ﴿ لاَ تَنْفَعُهَا شَفَاعَــةٌ ﴾[4] هــذا علــى قِـراءةِ الجَـماعَـهْ

إلاّ علــــى قـــراءَةِ المَكِّـــــــيِّ فـإنَّــه بالتَّـــاءِ، والبَـصْـرِيِّ[5]

﴿يُذَبِّحُونَ ﴾[6] مُفـردٌ في البَقَرهْ وزِدْ بإبـــراهيمَ واواً مُظْـــهَـــرَهْ[7]

واقرأْهُ فـــي الأعرافِ ﴿يَقْتُلونَ﴾[8] وَأَفْـــتِ إنْ جـــاؤوكَ يســـألـونَ

ثمّ أتمّ الحروف[9] فقال:

١- من قوله تعالى في سورة البقرة، من الآية ٣٦ ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾.

٢- في ط: أنزلنا. وجاء في سورة آل عمران، من الآية ٨٤ ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾.

٣- من قوله تعالى في سورة البقرة، من الآية ٤٨ ﴿وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ....﴾.

٤- في سورة البقرة، من الآية ١٢٣ ﴿وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنْفَعُهَا شَفَاعَة ...﴾.

٥- المكّي هو ابن كثير، والبصري هو أبو عمرو بن العلاء، وقد قرأا (ولا تقبل منها شفاعة) بالتاء، وقرأ باقي السبعة (ولا يقبل منها) بالياء.

٦- في سورة البقرة، من الآية ٤٩ ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾.

٧- في سورة إبراهيم، من الآية ٦ ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾.

٨- في سورة الأعراف، من الآية ١٤١ ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يقتلون أبناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾.
قرأ نافع (يَقْتُلونَ) بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد. انظر حجة القراءات ٢٩٤ .

٩- في الأصل: الحرف.

وقَـدْ تَقَضَّتْ كَلِمـاتُ المشـتَبِهْ فَاشْـكُرْ لِنَظْمي قَائلاً جاءَكَ بِهْ[1]
لاأدَّعـي أنِّي حَـصَـرْتُ المُشْكِلا لَكنَّهـا مُعينَةٌ لِمَـنْ تَـلا[2]
وَخَمْسَةٌ من بعدِ عشرينَ العَدَدْ مَـعْ أربعٍ مِنَ المئينَ لَمْ تَزِدْ[3]
والـحَمْـدُ للهِ علـى آلائِهِ حَمْداً يُباري الدَّهْرَ في بَقائِهِ[4]
وَصَلَـواتُ رَبِّنـا العَظيـمِ علـى النَّبيِّ الطَّاهـرِ الكريمِ
ويرحمُ اللهُ امْرأً دَعَا لـي بِرَحْمَـةٍ مِنْـهُ وحُسـنِ حـالِ

وقرأت على الشَّيخ أبي محمَّد أحاديثَ من أحاديث المعمَّرين [١٤٢/ب] قال: أنا محمَّد بن عَبدالباقي المقرىء بمدينة سِنْجار[5] سنة أربعين وستّ مئة، قال: أنا قاضي القضاة أبو عليّ الحسن بن إسماعيل الخَويّ، قال: أنا الإمام سعد بن أسعد الجيرانيّ، قال: أخبرني أبو المحاسن عبدالعزيز بن عليّ بن يحيى، قال: أخبرني والدي أبو الحسن عليّ بن يحيى، قال: نا الشَّيخ الزاهد أبو عليّ الحسن بن خارجة المَرَنْديّ[6]، قال: سمعتُ يسراً خادم رسول الله ﷺ بمصر، وكان موضوعاً بين قطن مندوف وقد بلغ

١- في ت: تقاضت كلمات...، وفي ط: أتِمَّتْ كَلِمات ...
٢- في ت، معونة.
٣- في ت: من الموالينَ، وفي ط: من السنين.
٤- الآلاء: النعم.
٥- سِنجارُ: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام. انظر ياقوت ٢٦٢/٣.
٦- نَسبة إلى مدينة مَرَنْد من مدن أذربيجان.

من العمر ثلاث مئة وستّين سنة بدُعاء النبّي ﷺ، يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «طُوبى لِمَنْ رآني، أو رأى مَنْ رآني، أو رأى مَنْ رأى مَنْ رآني»[1].

وبهذا الإسناد عنه عليه السَّلام أنّه قال:« الدُّنيا ملْعونٌ مَافيها، خَلا ذكرِ الله، وَمَنْ أُوى إلى ذِكْرِ اللهِ تعالى»[2].

وبه أَنّهُ قال: «مَنْ كَذَبَ عليَّ مُتَعمِّداً فَلْيَتَبوأْ مقعدَهُ مِنَ النّارِ»[3].

وبهِ أَنّهُ قال: «مَنْ أَفْتى النّاسَ بغَيْرِ عِلْمٍ لَعَنَتْهُ الملائكةُ في السَّماءِ والأَرْضِ»[4].

[لقاؤه لابن السُّكان]

وممَّن لقيُه بها[5] فسرَّني لقاؤه؛ وواليتهُ في ذات الله فنفعني ولاؤه، وحاضرتُه فأعجبني فَهْمَهُ[6] وذكاؤه، وصَحِبْتُه فَبهرني فَضْلُهُ وحياؤه،[7] وكَرَمَهُ وسخاؤه، وتواضعه ورجاؤه، صاحبُنا في الله وليُّنا وصديقُنا في

١- حديث أورده ابن عدي في الكامل ٣/٩٧٧ من طريق أنس، و٦/٢٣٢٧ من طريق واثلة بن الأسقع، وهو في المعجم الصغير للطبراني ٢/٣١ من طريق أنس وكذلك في فردوس الأخبار ٣/٢٠ وفي ميزان الاعتدال ١/٤٢٢ عن أبي أمامة، وكنز العمال ١١/٥٣٠-٥٣٥-٥٣٦.

٢- أخرجه الترمذي في الزهد باب الدنيا ملعون مافيها برقم ٢٣٢٣وابن ماجة في الزهد باب مثل الدنيا رقم ٤١١٢.

٣- أخرجه الحاكم في المستدرك ١/٧٧، و٣/٢٦٢ و٣/٢٨٠، و١/٤٠ من طرق مختلفة، وفي سنن البيهقي ١٠/٢٢٢، ومجمع الزوائد ١/١٤٦ ومسند الطيالسي ٢٧٧ و ٣١٨ وابن عديّ في الكامل ١/١٧ وكنز العمال ٣/٦٢٦و ١٠/٢٩٣و٢٩٨و١١/٢٧٣ و١٣/١٧٣.

٤- أخرجه الحاكم في المستدرك ١/١٢٦ وكنز العمال ١٠/١٩٣.

٥- ليست في ط.

٦- في ت، ذهنه.

٧- في ت: حياؤه وفضله.

طاعته وصفيُّنا أبو العبّاس أحمد بن محمّد بن مَيْمونٍ الأشْعَريّ المالَقيّ،[1] يعرف بابن السَّكّان. لقيته[2] مُجْرِياً إلى غايةٍ من كَمُل، ومبرّزاً في حَلبة العِلْمِ والعَمل، عَذُبت أخلاقُهُ وفاضَتْ زُلالا، واستقامتْ أحوالُه كالبانِ اعتدالا، وفاضت أناملُهُ كالمُزْن انهمالا[3]، أدركَ مزايا الشُّيوخِ على فَتاء سنّه، فما يتكلّم[4] في علم إلاّ قلت: هذا معظم فنّه؛ قد ألِفَ الانقباضَ فما يَبْسُطُ [إلايَدَه][5]، وصَحِبَ قِصَرَ الأمَلِ فما يُؤمّل غدَه: [الطويل]

مُقِلٌّ مِنَ الأمْوالِ إذْ لايَضمُّها ... وَلكنَّهُ مِنْ كُلِّ مأثُورِهِ مُثْرِ
سَرِيٌّ، غَنيُّ النَّفْسِ، مَاتَسْتَفِزُّهُ ... زَخارِفُ دُنْيَاهُ بِقُلٍّ ولا كُثْرِ[6]

[١٤٣/آ] ولهُ اعتناءٌ بتصحيحِ الرِّوايةِ، وإغْيَاءٌ في تنقيحِ الدِّرايةِ؛ سَمِعَ من الشّيوخِ واستَجازهم واستُجيزوا له، فاتّسعت لذلك روايته؛ وله مجموعات[7] تشوق، ومؤلّفات تُعْجِبُ وتَروق؛ منها كتاب في «إكمالِ التَّذييلِ»[8] لأبي بكر بن فَتْحونٍ[9] على كتاب« الاسْتيعاب»[10] للحافظ أبي

١- لم أقف على وفاته، ولقيه ابن رُشيد في رحلته بتونس، وأخذ عنه. انظر ملء العيبة ٢/٤٠٩-٤١٣.
٢- في ت: رأيته.
٣- في ط: هم‌الاً: وهو تحريف.
٤- في ت: تكلّم.
٥- ليست في الأصل.
٦- في ت: زخاريف.
٧- في ط: مجموعة.
٨- قال حاجي خليفة: استدرك فيه حوالي ٣٥٠٠ ترجمته انظر كشف الظنون ٨١ .
٩- في ت: فتوح؛ وهو محمّد بن خلف بن سليمان بن فتحون الأندلسي: فاضل، نقّاد، عارف بالتاريخ، من أهل أوريولة من أعمال مرسية. له في الاستدراك على كتاب الاستيعاب لابن عبد البر كتاب سماه التذييل وكتاب في أوهام كتاب الصحابة. توفي بمرسية سنة ٥٢٠هـ له ترجمة في الصلّة ص٥٧٧، والوافي بالوفيات ٣/٤٥ .
١٠- هو كتاب الاستيعاب في أسماء الأصحاب. رتب فيه الأصحاب على ترتيب الحروف لأهل المغرب. طبع غير مرّة.

عُمر عبدالبرّ قد اعتنى به اعتناءً تاماً، وهو إلى الآن لم يَكْمُلْ، ومنها كتاب وسَمَهُ بـ«الاطّلاع على مايلزم في رفع الأيدي في الصَّلاة من الاتّباع» ومنها «برنامج» جمعه لشيخه الفقيه، العالمِ، الأكملِ، الفاضلِ، الصّالحِ، الأديبِ، الأوحد أبي بكر محمّد بن الحَسَن بن يُوسف بن حَبيش بفتح الحاء، في أسماء[1] شيوخه وقرأهُ عليه، فكتب عليه ابن حَبيش رحمه الله مارأيت أن أقيّده هنا بنصّه لبراعته ودلالته على فضيلة القارىء والمقروء عليه.

وكان هذا الرّجلُ رَحِمَهُ الله آيَةَ الزّمانِ في التّواضعِ، وطَلَبِ الخُمول، وإفراط الانقباض، مع براعتِهِ في فنونِ العلم، وإجادتِهِ في النَّظْمِ والنَثْر، واتّساعِ روايتِهِ؛ فحدّثني عنه صاحبنا ووليّنا في الله أبو عبدالله بن هُرَيْرة أنّه كان إذا عُرِفَ مَوْضِعُهُ، انتقل عنه إلى موضع آخر لايُعرفُ به. وأراني تخميساتِه الثّلاثة لقصيدة الشَّقْراطسيّ. وقد كتبها صاحبنا أبوعبدالله بخطّه، وقرأها عليه، وكتب عليها قراءته إيّاها عليه، وخطّه في ذكره بما ينبغي، ثمَّ دفعها إليه ليكتب له عليها، قال لي: فأدخلها إلى الدّار[2] وقال لي: لاتستبطئني، ثمَّ [3]خرجَ وقد[3] بَشَرَ كلَّ ماخططته به، ومدَّ اسمه في ذلك المبشور، وكذلك بَشرَ كل ماخطَّطتَ به والده إلاّ: الشّيخ الكاتب، فإنّه أبقاهما وقال لي: نعم كان شيخاً مُسِنّاً وكان يكتب، وأراني صاحبنا أبو عبدالله هذا البَشْرَ، وخطَّ ابن حَبيش عليه، وهذا نهاية مايكون من التّواضع وترك التّظاهر. وأغرب من هذا ماكتبه لصاحبنا أبي العبّاس المذكور على ماجمع له من أسماء شيوخه،

١- ليست في ت.

٢- في ط: للدار.

٣-٣- سقطت من ط.

ومن خط [١٤٣/ب] ابن حَبيش نقلته ونصُّهُ[١]: « الحمد لله[٢]، أحْسَن هذا الفاضل فيما صنع، أحسن الله إليه، وبالغ فيما جمع بلغ الله[٣] به أشرف المراتب لديه - غير أنّي أقول واحدة، ماسريرتي لها جاحدة[٤]، وأصرّح بمقال لايسعني كتمه بحال: والله ماأنا للإجازة بأهل، ولامَرامُها[٥] لديَّ بسهل، إذ من شرط المُجيز أن يُعَدَّ فيمن كمل، ويَعدَّ العلم والعمل، اللَّهمَّ غَفْراً، كيف يُنيل من عدم وَفْرا؟ أو يجيزُ من أصبح صَدْرُه من المعارف قفراً، وصحيفتُه من الصَّالحات صِفْراً؟ وكيف يرتسم في ديوان الجلّة مَنْ يتّسم بالأفعال المُخلّة؟ ومتى يقترن الشَّبَهُ[٦] بالإبريز،[٧] أو يوصف السُّكَّيت بالتَّبريز؟ ومنْ ضَعْف النُّهى مُحاسَنَة[٨] الأقمار بالسُّها، ومن أعظم التّوبيخ تشييخ[٩] مَنْ لايصلح للتّشييخ؛ وإنّ هذا المجموع لَيَروقُ ويُعْجِبُ، لكنّه جمع لِمَنْ لايَسْتوجِب؛ وإنّ القراءة قد تحصّلت، ولكن القواعد ماتأصّلت، وإنّ القارىء علَم، ولكنَّ المقروء عليه عَدَم؛ وقد شكرتُ لهذا السَّريِّ ماجلب، وكَتَبْتُ له مُسْعِفاً بما طَلَب، وقرنتُ إلى دُرِّه هذا المِخْشَلَب[١٠]، وقلت وحَلْيي عَطَل،

١- ورد هذا التقييد في ملء العيبة ٢/٩٤-٩٥، ونفح الطيب ٤/٣١٢-٣١٣.

٢- زاد في ملء العيبة ونفح الطيب «حقّ حمده».

٣- ليست في ط.

٤- في ت والنفح: بجاحدة.

٥- في ت: مرآها.

٦- في ط: الشَّبّ، والشِّبْهُ والشَّبَهُ: النحاس الأصفر.

٧- الإبريز: الذهب الخالص.

٨- في ط: مجانسة.

٩- ليست في ط.

١٠- في ت: الخشب، والمخشلب: خرز شبيه بالدّر.

ونُطْقي خَطَل: « مُكْرَهٌ أَخُوكَ لابَطَلْ»[١] والله ينفع بما أخلص له من الاعتقاد، ويسمح للبهرج عند الانتقاد؛ وكتب[٢] العَبْدَ المذنب المستغفِّر محمّد بن الحَسن ابن يوسف بنَ حَبيش حامداً الله تَعالى ومصلّياً على نبيِّه الكريم المصطفى، وعلى آله أعلامِ الطَّهارة والهُدى ومسلِّماً تسليماً»[٣].

وقرأت على صاحبنا أبي العبّاس المذكور قَصيدةً في مدح النَّبي ﷺ وهي طويلة تزيد على ثلاث مئة وعشرين بيتاً، رام فيها إيعاب[٤] مانُقِل من معجزاته ﷺ، ووسمها بـ «خُلاصة الصَّفافي[٥] خَصَائص المُصْطَفَى» وهي مهذّبة منقّحة [١٤٤/أ] لاحشوَ فيها البتّة، ومطلعها: [الطويل]

لأَحْمَدَ خيرِ الخَلْقِ أُهْدِي تَحيَّتي ... مُحمَّدٍ الآتِي بحُكْمٍ وحِكْمَةِ
مَدَحْتُ رَسُولَ اللهِ والمَدْحُ دُونَه ... وَلَوْ مَلأ المُدَّاحُ كُلَّ صَحيفةِ
[وَلَوْ كَان كالبَحْرِ المُحيطِ مدادُهُ ... وكالشَّجَرِ الأَقْلامِ مَاقطُّ جَفَّتِ
يَمدُّ مَدَى الدُّنْيا بِسَبْعَةِ أَبْحُرٍ ... لما بَلَغَتْ مِنْ مَدْحِه عُشْرَ حَبَّةِ[٦]
كَفَاه ثَنَاءُ اللهِ في الفَتْحِ والضُّحَى ... وَتَكْرِيرُهُ إِيَّاهُ في غَيْرِ سُورَةِ][٧]

١- في ت: أخاك، وهكذا وردت في المثل أيضاً، انظر المثل في أمثال العرب للضَّبيِّ ١١٢، وأمثال ابن سلام ٢٧١ وفيها: مكره أخوك، والوسيط في الأمثال ١٥٦ وهو في الفاخر ٦٢ وجمهرة الأمثال ٢٤٢/٢- والميداني ٣١٨/٢ والمستقصى ٣٤٧/٢.

٢- في نفح الطيب كتب.

٣- انتهى تقييد ابن حبيش في ملء العيبة والنفح.

٤- ليست في ت، وفي ط: استيعاب.

٥- في ط من خصائص.

٦- استفاد الشاعر من قوله تعالى في سورة لقمان الآية ٢٧ ﴿ولو أنما في الأرْضِ من شجرة أقلامٌ والبَحْرُ يمدُّهُ مِنْ بعْدِهِ سبعةُ أَبْحرٍ ما نَفِدَتْ كلمَاتُ اللّه﴾ .

٧- الأبيات الثلاثة ساقطة من الأصل.

فمــاذا يَقــولُ العَالِمـون وربُّهـمْ كَسَاهُ مِنَ الأمْداحِ أسْبَغَ حلّةٍ..
ولَكــنَّ في جُهْــدِ المُقِلِّ لِنَفْــسِهِ رَجاءٌ، وحُسْنُ الظَّنِّ بَيتُ القَصيدةِ(١)

وكتب على ظهر الجزء من نظمه: [البسيط]

تَقرَّبَ النَّاسُ للمَوْلَى بِجُهدِهُــمُ مِنْ مَدْحِ مَنْ سَادَ كُلَّ الخَلْقِ فــي الأزَلِ
أمُّوا الجَنَابَ بأمْــدَاحٍ ومعْــذرةٍ وحُمْتُ حَوْلَ الحِمـى فــي غايةِ الخَجَــلِ
ثُمَّ اطَّلعتُ عَلَى تَقْصيــرِ مُطنبِهــمْ فالعَجْزُ عَنْ مَبْدأ الإدراكِ مِنْ عَملِ

وأنشدني حفظه الله لنفسه: [الكامل]

مَنْ كَانَ يَرْجُو الخَلْقَ في حاجَاتِهِ خَابَ الّذي يَرْجُـو وَخَابَ المُرْتَجـي
فَاقْصِــدْ إلهَ الخَلْقِ إمَّــا حــاجَةٌ عَرَضَتْ فَبَابُ اللهِ لَيْــس بمُــرتَجِ(٢)

وأنشدني لنفسه أيضاً: [البسيط]

أزْكى الخَليقةِ خُلْقاً عِنْــدَ خَالِقِهِــمْ ذُو حِرفَةٍ عَنْ سُؤالِ النَّاسِ تُغْنيهِ(٣)
وَخَيْرُ مَا اتَّصَــفَ المَــرْءُ التَّقيُّ بِهِ فِــي دَهْرِهِ تَرْكُهُ مَالَيْــسَ يَعْنيهِ(٤)

وأنشدني لنفسه أيضاً: [مخلَع البسيط]

١- في ط: بيت قصيدتي.
٢- في ط: غير مرتج.
٣- في ت: عند خالقه.
٤- في ت: العبد التقي.

تَركِــيَ للذَّنْبِ دونَ شَــكٍّ أَكَّدَ مِنْ فِعْلي الرَّغائِبْ[1]
فَمَيْلُ نَفْسِي لِعَكسِ هَذا النْـ ـنِظَامِ مِنْ أَعْجَبِ العَجَائِـبْ

وأنشدني لنفسه أيضاً: [المتقارب]

أَيَاخَالِقَ الخَلْقِ لِيَ مَطْلَبٌ ومَالـي سَــبيلٌ لأَسْبَابِـهِ
غِـذَاءٌ حَـلالٌ بـلامِنَّـةٍ وثوبٌ وبيـتٌ لأَثْـوي بـهِ
وُجُودَك أَمَّلْتُ يَاخَالِقــي فَقَدْ جِئتُ للبَيْتِ مِنْ بابِهِ[2]

وأنشدني لنفسه أيضاً:[3] [١٤٤/ب] [الطويل]

يَقُولونَ لِــي: إنَّ الشَّهــادَةَ مَكْسَــبٌ وَلَمْ تَشْتَغِلْ يَوْماً بِصَرفِ المُنى لَها[4]
فقلتُ لهمْ: [لي] في الشَّهادةِ مَذْهـبٌ أَنَا في سَبيــلِ اللّهِ أَرْجُو مَنالَهــا[5]

[لقاؤه لأبي يعقوب الجذامي]

ولقيت بها الشّيخ [العالم][6] الصَّالح، الفقيه، الفاضل، أبا يعقوب يوسُف بن إبراهيم بن أحمد بن عقاب الجُذاميّ[7]، فسمعت عليه أحاديث من «الموطَّأ» ومن «جامع البُخاريّ» ومن «سنن الدّارقطنيّ» وناولني جميعها

١- رواية الشطر الأول في ط: تركي من غير شكٍّ. وبه يختل الوزن.
٢- في ط: فقد جئتك وبها لا يستقيم الوزن.
٣- البيتان في ملء العيبة ٢/٤١٠.
٤- في ملء العيبة: الشهادة مذهب.
٥- لي: ساقطة من الأصل، في ملء العيبة: ألا في سبيل الله.
٦- زيادة من ت.
٧- ولد سنة ٦١٤هـ وتوفي بتونس سنة ٦٩٢هـ . انظر برنامج الوادي آشي ٥٧-٥٨ .

وحدّثني بها كلّها عن الشّيخ الفقيه القاضي المحدّث أبي الحسن عليّ بن عبدالله بن محمّد بن يوسف الأنصاريّ[1]، وهو ابن قُطرال، فأمّا «الموطّأ» فقرأ عليه صدراً منه وسمع سائره وسمع عليه بعض «كتاب البُخاريّ» وبعض «سنن الدّارقطنيّ» وأجازه سائرها، وحدّثه[2] بها ثلاثتها بأسانيده فيها، وهو يحمل «البُخاريّ» عن أبي محمّد بن بونة عن أبي بَحْرٍ الأسَديّ عن العُذْريّ عن أبي ذرّ الهَرَويّ، ويحمل «السُّنَنَ» عنه عن أبي عليّ الصّدَفيّ عن أبي الفضل بن خيّرون، وحدّثني «بالأحكام الكُبرى»[3] سماعاً لبعضها عليه، ومناولة عن أبي الحَسَن سَهْل بن مالك[4] عن مؤلّفها، وأجازني إجازة عامة وكتب لي بها خط يده، وسألته عن مولده فأخبرني أنّه في سنة أربع عشر وستّ مئة.

[لقاؤه لابن هارون]

ولقيت بها ثانية الشّيخ الفاضل أبا محمّد بن هارون[5]، فأكثرت مجالسته والتردّد إليه وقرأت عليه، «برنامجه في أسماء شيوخه»، وقرأت عليه

١- هو علي بن عبد الله بن محمّد بن يوسف الأنصاري؛ فقيه مالكي، من القضاة، ولي القضاء في أبّدة فلما أخذها الفرنج سنة ٦٠٩هـ أسروه ثم خلّص وولي قضاء شاطبة ثمّ قرطبة، فقضاء فاس، وكان يشارك بالعلوم. توفي بمراكش سنة٦٥١هـ. له ترجمة في وفيات ابن قنفذ ٣٢١ وشذرات الذهب ٥/٢٥٤.

٢- في ت: وحدثني.

٣- في ت: البكري: وهو تحريف وهو كتاب كبير في الحديث في نحو ثلاثة مجلدات، انتقاه مؤلفه عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدي الإشبيلي ت٥٨٢هـ. من كتب الأحاديث. انظر كشف الظنون ١/٢٠.

٤- هو سهل بن محمد بن سهل بن أحمد بن مالك الأزدي: فقيه، محدّث، ضابط، حافظ، متقدمٌ في العربية وعلومها، توفي بغرناطة سنة ٦٣٩هـ . له ترجمة في برنامج الرعيني ٥٩، الذيل والتكملة ٤/١٠٤- الديباج ١٢٥، الإحاطة ٤/٢٧٧.

٥- ولد سنة ٦٠٣هـ وتوفي سنة ٧٠٢هـ . انظر برنامج الوادي آشي ٥١-٥٢ .

جملة أحاديث منثورة. وقرأت عليه «برنامج» جدّه لأمّه الشّيخ الفقيه المقرىء[1] الجليل أبي جَعفر أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خَلصَة الحِمْيَرَيّ، و«برنامج» القاضي الأوحد أبي القاسم أحْمد بن يزيد بن بَقيّ، وكلاهما تخريج ابن الطَّيْلسان، وتأليفه. وحدَّثني بهما معاً عن ابن الطَّيلسان قراءة منه عليه وعنهما إجازة. وقرأت عليه كتاب «الوَعد والإنجاز»[2] لابن الطَّيلسانِ، وحدَّثني به عنه، وهو جزء جمع فيه أحاديث لمن سَأَلَهُ جَمْعَها ليرويَها عنه، وقرأت عليه «التسبّيح الموجز» للفقيه [١٤٥/أ] الخطيب، العالم، أبي الحسن سَهْل بن مَالك، وحدّثني به عنه. وقرأت عليه «دُرَرَ السِّمْط في خبر السّبط»[3] لأبي عبدالله القُضاعيّ، وحدّثني به عنه سَماعاً وقراءةً، وهو جزءٌ وضَعَهُ في مَقْتل الحُسين رضي اللّه عنه، نَحَا فيه نحو طريقة أبي الفَرَج بن الجوزيّ[4]، وكنت أتكلّم معه في تعقّب بعض مواضع منه فيعجبه قولي فيها. وأنشدني أبياتاً من شعره، ومن شعر غيره، وسمعت منه وقرأتُ عليه أشياءَ غيرَ واحدة فمن ذلك قوله[5]:.....

ومن ذلك ماأنشدني لشيْخه القاضي أبي القاسم بن بَقيّ:[6] [السريع]

مامَيْلَــقُ العَالِــمُ إلاّ الّــذي ... يخبــرُهُ العَالمُ فــي المَيْلَقِ[7]
ذاكَ الّذي يكشُفُ أسرارَهُمْ ... فيفْضحُ الفاجِـرَ والمُتّقــي[8]

١- ليست في ت.
٢- هو كتاب الوعد والانجاز في العجالة المستخرجة للطالب المجتاز.
٣- هو كتاب صغير ألّفه في مناقب الحسين بن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ طُبع غير مرّة.
٤- لابن الجوزي كتاب بعنوان «مناقب الحسين» وأظنّه المقصود. انظر: مؤلفات ابن الجوزي ٢٢٠و٢٣٧.
٥- بياض في جميع النسخ بمقدار سطرين.
٦- البيتان في برنامج شيوخ الرعيني ٥٣ وملء العيبة ١٥٢/٢.
٧- في برنامج الرعيني وملء العيبة: ما ميذق، في الميذق.
٨- في ملء العيبة: يفضح أسرارهم، ويظهر الفاجر.

وله أيضاً : [الطويل]

كَرامةُ مَنْ لايَعلَمُ الغَيْبَ إنَّما تَكُونُ على مِقدارِ مايتوَهَّمُ
فَكمْ مِنْ مُسيءٍ عِندهُ وَهْوَ مُحْسِنٌ وَكَمْ مُحْسِنٍ في ظنِّه وَهْوَ مُجْرِمُ
[فَذاكَ لَديهِ مزْدَرًى مَعَ فَضلْهِ وَذا مَعَ مَافيه مِنَ النَّقْصِ مُكْرَمُ
فلا تَرْجُ إلاّ اللّهَ لا رَبَّ غَيْرَهُ تَنَلْ فَوقَ مَاتَهْوَى وَمَا تتوهَّمُ][1]

وقرأت عليه، قال: أنشدني الشّيخُ الفقيهُ أبو بكر بن محرز الزُّهْريّ ببجاية ملغزاً في نارِنْجة:[2] [الرجز]

وذات حَمْلٍ وهي حَمْلٌ نفسُها لاحُرَّةٌ في جِنْسِها ولابَغي[3]
قدْ حَمَلَتْ في بَطْنها أجنَّةً أهلّةً إبرازُها لايَنْبَغي[4]
[تُريكَ من جُملتِها فاعْجَبَ لَها] لِسَمِّها أوْ خلّها ابن أصبغِ[5]

ولما لقيته سألني عن اسمي وكُنيتي، ونَسبي، وبلدي، وأين أنزل، فأخبرته بذلك، فقال لي: لقيتُ ابن الطَّيلَسان فسألني كذا فأخبرته، فقال لي: لقيتُ أبامحمد عبد [١٤٥/ب] الله بن أحمد بن محمّد اللَّخمي فسألني فأخبرته، فقال لي: لقيت[6 الحافظ أبا بكر بن العربيّ فسألني فأخبرته، فقال لي: لقيتُ]6 الشّريف أبا قاسم عليّ بن إبراهيم الحُسَيني فسألني فأخبرته،

١- البيتان ساقطان من الأصل وأثبتهما من ت و ط.

٢- الأبيات في الوافي ١٩٨/١ وتحفة القادم ٢٥١.

٣- في الوافي والتحفة: ماذات حمل.

٤- رواية الشطر الأول في الوافي والتحفه: كالبدر إلاّ أنها مكنة، إبدارها لا ينبغي.

٥- موضع الشطر الأول بياض في سائر النسخ، وثمّة كلمة في أوله هي: كأنها. والتكملة من الوافي والتحفة. ورواية الشطر الثاني في الوافي والتحفة: شطر اسمها وخاطر ابن أصبغِ.

٦-٦- سقطت من ت.

فقال لي[1] لقيتُ الحافظ أبا مُحمّد عبدالعزيز بن أحمد الكَتَّاني فسألني فأخبرته، فقال: لقيت الحافظ أبا النَّجيب عبدالغفّار بن عبدالواحد الأرْمَويّ فسألني فأخبرته، فقال لي: لقيت أحمد بن عليّ بن مهدي الحافظ فسألني فأخبرته فقال لقيت أبا مسلم غالب بن عليّ بن محمَّد فسألني فأخبرته فقال: لقيت أبا بكر محمّد بن عيسى فسألني فأخبرته، فقال: لقيتُ أبا عبد الله الحسين بن عليّ بن يزيد الرِّفاعيّ فسألني فأخبرته، فقال: لقيت هدبة بن خالد القيسيّ فسألني كما سألتك، وقال: لقيت[2] حمّاد بن سلمة فسألني كما سألتك وقال: لقيت ثابتاً البُنانيّ فسألني كما سألتك وقال لقيت أَنَساً فسألني كما سألتك[3] وقال: لقيتُ النَّبي ﷺ فسألني كما سألتُكَ وقال: «ياأَنَسُ أَكْثِرْ منَ الأَصْدِقاءِ، فإنّكم شُفعاءُ بعضكم لِبَعْضٍ»[4].

وهذا الحديث أورده أبوبكر بن العَربيّ[5] في مسلسلاته[6] وقال: لم يقل شيخنا الشّريف في سؤال أبي محمد الكَتَّاني[7] له: وبلديّ، لأنّهما كانا دِمشقيّين، فلم يحتج - وهو بلديُّهُ - إلى السُّؤال عن بلده.

١- ليست في ت و ط.

٢- في ت: القاسم.

٣-٣- سقطت من ت.

٤- أخرجه الهندي في كنز العمال ١٧٢/٩.

٥- هو محمد بن عبد الله بن محمد المعافري: قاض من حفّاظ الحديث. ولد في إشبيلية سنة ٤٦٨هـ ورحل إلى المشرق، توفي بقرب فاس سنة ٥٤٣هـ. له مصنفات منها «العواصم من القواصم» و«عارضة الأحوذي في شرح الترمذي» وغيرهما. له ترجمة في الصلة ٥٩٠/٢- بغية الملتمس ٩٢- قضاة الأندلس ١٠٥، والمغرب ٢٥٤/١.

٦- في ت: مسلطاته وهي تحريف.

٧- هو عبد العزيز بن أحمد بن محمد بن علي التميمي: محدّث، مؤرخ من أهل دمشق توفي سنة ٤٦٦هـ. ترجمته في العبر للذهبي ٣٢٠/٢ وشذرات الذهب ٣٢٥/٣، والكامل لا بن الآثير ٩٣/١٠.

قلت: قد يكون السُّؤال في مثل هذا مع العلم جرياً على طريق التّسلسل، ولايُشكّ أنّ كثيراً من المذكورين قد عرفوا من حدّثوه قبل السُّؤال. ولعلّ ذكر البلد إنّما سقط للمذكور فتوهّم ابن العربيّ أنّ ذلك لما ذكر. وبعيد أن يعرف أنّه بلديُّهُ ولا يعرف اسمه فلو كان العلم بذلك يغني عن السؤال لم يسأله عن اسمه أيضاً ولا عن منزله. وهذا واضح والله أعلم.

وذكر ابن العَرَبيّ بعُقْبِ هذا الحديث حديثين في معناه، أحدهما قوله ﷺ. «استكثروا مِنَ الإخوانِ فإنَّ لِكُلِّ مؤمنٍ شَفاعةً»[1]، والآخر قوله ﷺ : «إذا آخى الرَّجُلُ الرَّجلَ فليسألْهُ عن اسمِهِ، واسمِ أبيه، وممّن هوَ فإنَّهُ أوصلُ [١٤٦/أ] للمَودّة»[2].

وقرأت عليه أيضاً قال: حدّثنا ابن الطّيلسان بقراءتي عليه: نا أبو الحسن[3] الغافقيّ بقراءتي عليه بمتعبّده بجامع قُرطُبة، قال: نا ابن العربيّ، نا أبو المطهّر سعد بن عبد الله الأثيريّ، نا الحافظ أبو نُعيم، نا أبو بكر بن خلاّد، نا الحارث بن أبي أسامة نا هُدْبة. نا هَمّام، نا القاسم بن عبدالله، نا عبدالله

١- رواه ابن النجار في تاريخه عن أنس وهو حديث ضعيف كما قال الألباني في «ضعيف الجامع» رقم ٩٠٢٧ وهو في الجامع الصغير ٤٠/١ وفيض القدير ٥٠٠/١ وكنز العمال ٤/٩.

٢- أخرجه الترمذي في الزهد باب ما جاء في أعلام الحب رقم ٢٣٩٤، وابو نعيم في حلية الأولياء ١٨١/٦ والديلمي في فردوس الأخبار ٣٦١/١، وهو في الجامع الصغير للسيوطي ١٥/١ وفيض القدير ٢٣٦/١.

٣- في ط: أبو الحسين وهو تحريف.

ابن محمَّد هو ابن عَقيل عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه، قال: بلغني حديثٌ عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، فابتعتُ بعيراً، فشددتُ عليه رحلي، ثمَّ سرت إليه شهراً حتَّى قَدمْتُ الشّامَ فإذا هو عبد الله بن أُنَيْس الأنصاريّ[1]، فأتَيتُ منزله، فأرسلت إليه أنّ جابراً على الباب[2]، فرجع إليَّ الرّسول[3] وقال: جابر بن عبدالله؟ فقلت نعم. فرَجَعَ إليه، فخرج إليَّ فاعتنقتُهُ واعتنقني، قال: قلت: حديث بَلَغني أنّك سمعتَه من رسول الله ﷺ في المظالم، لم أسمعه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَحْشُرُ اللهُ العبادَ، أو قال: «النّاس - شَكَّ هَمَّامُ - وأومأ بيده إلى الشَّام، «عُراةً، غُرْلاً، بُهْماً» قال: وما بُهْما؟ قال «ليس معهم شيء، فيناديهم بصوت يسمعه مَنْ بَعُدَ كما يسمعه مَنْ قَرُبَ، أنا الملك الدَّيَّان[5]، لاينبغي لأحد من أهل الجنّة أن يدخل الجنّة وأحدٌ من أهْلِ النّارِ يَطلُبهُ بمَظْلمةٍ، ولاينبغي لأحدٍ منْ أهْلِ النّارِ أنْ يدخُلَ النّارَ وأحدٌ[6] من أهْلِ الجنّةِ يطلبهُ بمَظْلمةٍ حتى اللّطمة»: قلت وكيف؟ وإنّما نأتي اللَّه حفاةً، عراةً، غُرْلا قال: «بالحسنات والسَّيِّئات»[7].

١-هو عبد الله بن أنيس الأنصاري. صحابي من القادة الشجعان من أهل المدينة، رحل إلى مصر وإفريقية. توفي بالشام سنة ٥٤هـ. له ترجمة في الإصابة ٢/ ٢٧٠، النجوم الزاهرة ١/ ١٤٦ وحسن المحاضرة ١/ ٢١١.

٢- في ط: بالباب. ٣- ليست في ط.

٤- في ط: عُزلا وهو تصحيف وغُرْل: جمع أغرل، وهو الذي لم يختن.

٥- الدّيّان: صيغة مبالغة من دان، بمعنى جازى، ومنه يوم الدين، أي يوم الجزاء.

٦- في ت وط: وواحد.

٧- أخرجه البخاري في كتاب الرّقاق، باب الحشر رقم ٦٥٢٧- ١١/ ٣٧٧ عن عائشة ومسلم في كتاب الجنّة، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة رقم ٢٨٥٩- والنسائي ٤/ ١١٤ والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٣٨ والأسماء والصفات للبيهقي ٧٩ والرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي ١١٠-١١١.

وقرأت عليه« ثنائيات مالك» عن ابن الطُّيْلَسانِ عن ابن بقيّ بسَنَدِه في «الموطّأ» وقد تقدّم أنّ شيخنا أبا محمّد أكمل الموطّأ على ابن بقيّ قراءةً وسماعاً.

وقرأت عليه «ثلاثيّات البخاريّ» بحَقّ قراءته لها على ابن الطَّيْلَسانِ عن القاضي أبي محمّد عبدالمنْعم بن محمّد بن عَبدالرَّحيم الخَزْرَجيّ عن الإمام أبي سَعْد حيدر بن يحيى الجيليّ عن الإمام أبي المحاسن [١٤٦/ب] عبدالواحد بن إسماعيل الطَبَريّ، عن الشيخ الزاهد هِبةِ الله بن محمّد القِزْوينيّ عن الفِرَبْريّ عن البُخاريّ.

وقرأت عليه عن ابن الطَّيْلَسان قراءة عن[1] أبي الحسن المَقْدسيّ كتابا عن أبي عبدالملك بن أبي[2] القاسم الأَزْديّ، عن أبي عَامر محمود بن أبي القاسم الأزديّ، عن أبي محمّد عبدالجبّار بن محمّد المَرْوَزيّ، عن أبي العبّاس محمّد بن أحمد المَحْبوبيّ، عن التِّرمِذيّ عن إسماعيل بن موسى الفَزاريّ عن عمر بن شاكر عن أَنَس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ «يأتي على النّاسِ زَمانٌ الصَّابرُ فيهم[3] على دِينِه، كالقابضِ على الجَمْرِ»[4] قال ابن الطَّيْلَسان: هذا حديث عالٍ، وقف[5] في «مُصنّف أبي عِيسى» ثلاثيًّاً، وليس في المصنّف مثله،[وليس في الحديث مثله][6].

١- في ط: على. ٢- أبي: ليس في ط.

٣- في ط: منهم.

٤- أخرجه الترمذي في أبواب الفتن، باب القابض على دينه كالقابض على الجمر رقم: ٢٢٦- وابن عدي في الكامل ١٧١١/٥ والهنديّ في كنز العمال ١٤ـ/٢٢١.

٥- في ط: وقع.

٦- بياض: في الأصل، والتتمة من ت.

[لقاؤه لأبي العباس البَطرني]

ولقيت بها الشّيخ الفقيه الصّالح، الفاضل، أبا العبّاس أحمَد بن موسى ابن عيسى بن أبي الفتح البَطَرْنيّ،[1] منسوب إلى بَطَرْنّة بفتح الطاء وإسكان الراء، وهو مؤدّب في بعض أرباض تونس، ضريرُ البصر، ديّنٌ، صالح، مُعْتَنٍ بالعلم وروايته، مواظبٌ على أفعال الخير. لقي جماعة من العلماء، وسمع من أبي عَمْرو بن الشُّقر[2]. وقرأ عليه كثيراً وروى عنه وأجازه. قرأت عليه «الأربعين [حديثا][3] المسلسلة[4]» لأبي الحسن بن المفضّل[5] المَقْدسيّ. وحدّثني بها عن ابن الشُّقر عنه،وكان عنده[6] منها أصل ابن الشُّقر بخطّه الّذي قرأه على مؤلّفه، وكان يمسك عليه في وقت قراءتي عليه مع أصله الّذي كتبه هو بخطّه، وقرأه[7] على أبي عَمْرو المذكور، وسلسلتُ مَعَهُ جميعَ ذلك، وسمعتُ من لفظهِ الحديثَ الأوَّلَ منها، وهو أوّلُ حديثٍ سمعتهُ منه، وسمعَ أخي يحيى «الأربعين» المذكورة بقراءتي عليه، وسلسل معه جميعها، وأجازني وإيّاه إجازة عامّة؛ وكان يحضر معنا كثيراً مجلس شيخنا أبي العبَّاس بن الغمَّاز للسّماعِ، وكانت له مسموعات [١٤٧/أ] ومرويات لم يتّسع الوقت لأخذها عنهُ والحمد لله على كلِّ حال.

١- ولد سنة ٦٦٨هـ وتوفي سنة ٧٠٣هـ . انظر برنامج الوادي آشي ٦٦ - ٦٧ .

٢- هو عثمان بن سفيان بن عثمان التميمي، فقيه، محدّث، راوية أخذ عن أبي الحسن المقدسي وأخذ عنه ابن الدّباغ والبطرني. انظر شجرة النور ١٦٨/١ .

٣- زيادة من ت.

٤- في ت: المسلسلات.

٥- في ت: أبي الفضل وهو تحريف.

٦- «وكان عنده» سقطت من ت.

٧- في ت وط: «وقرأه هو».

[من تونس إلى بجاية]

ثمَّ سافرنا من مدينة تونس أمَّنها الله تعالى، فمررنا على بَاجة ثمّ على خَولان فتياسرنا منها عن[1] طريق بُونة، وأخذنا على طريق القِلاعِ، فدخلناها قلعةً قلعة، وهي ذوات عدد، وليس بها مايُذكر ولا مايؤرَّخ؛ ثم على قُسنْطينة على الطَّريق الأولى ثمّ على بِجاية.

[لقاؤه لأبي الحسين الرندي]

فرأيت بها الشَّيخ الصَّالح المسنَّ أبا الحُسين[2] الرُّنْديّ وهو ابن أخي الأديب النَّحويّ أبي عليٍّ عمر بن عبدالمجيد الرُّنْدي[3] شارح كتاب «الجُمَل»[4] وقد أدركه، وسمع منه ومن غيره، وهو حين رأيته لَقًى مابهِ حراك من الكِبَر، ولكنْ صحيحُ الذّهن، كلّمتُهُ في الرُّواية عنه فرأيته لايشتهي الكلامَ في ذلك، فآثرتُ التّخفيفَ عليه وألاّ أُعنِتَه في كثرة الكلام، والمراجعة مع قلّةِ روايتهِ فاستوهبتُ منه الدُّعاء وودعتُه وانصرفت.

[لقاؤه لأبي عبدالله بن صالح]

ولقيت بها ثانيةً الشّيخَ الفقيهَ، الخطيبَ، المحدّثَ، الفاضل أبا عبدالله بن صالح، فقرأت عليه «برنامَجه» في أسماء شيوخه في أصل بخطّه؛ وقرأت عليه بعض« دُرَر السِّمط» وناولنيه بحقّ[5] قراءته إيّاهُ على مؤلِّفه أبي عبدالله

١- في ت و ط.

٢- في ت: الحسن.

٣- هو عمر بن عبد المجيد بن علي الأزدي: نزيل مالقة، مقرئ، عالم بالعربية سمع أبا القاسم بن بشكوال، وأبا القاسم السهيلي. توفي ٦١٦هـ له شرح الجمل للزجاجي. له ترجمة في التكملة ٢/٦٥٧ وغاية النهاية ١/٥٩٤ وفيها المرندي .

٤- كتاب في النحو للزجاجي المتوفى سنة ٣٣٩هـ وعليه شروح كثيرة طبع غير مرّة.

٥- في ت: بنحو.

القُضاعيّ. وقرأت عليه بعض كتاب« المحتوي على الشّواذّ من القرا ءات»[1] للإمام أبي عمرو المقرىء، وناولنيه في أصله مليحٍ مُتقن، ووهبَهُ لي، قال لي: ناولتُه لك، ناولته لك، مشيراً إلى الهِبَة،مباسطاً لي بذلك،وناولني «كتاب سيبويه» بحقّ [قراءته له][2] إيَّاه على أبي عُثْمان بن زَاهر عن أبي عبدالله بن نُوح عن أبي الحَسن بن النِّعْمَة عن أبي محمّد بن السَّيد عن أخيه أبي الحَسن، عن الأستاذ أبي محمّد بن يُونس، عن الفقيه أبي محمّد بن الأسلميَّة الحِجازيّ، عن أبي نَصْر هارون بن مُوسى، عن أبي عليّ البَغداديّ، عن ابن دَرستويه، عن المُبرّدِ، عن المازنيّ، [١٤٧/ب] عن الأخْفَش، عن سِيبويه.

وناولني« برنامج أبي محمّد بن عبيد الله الحَجري» روايته عن ابن السرّاج عنه. وقرأت عليه بعض «رسالة ابن أبي زيد»[4] وناولنيها، وحدّثني بها عن ابن زاهر قراءة على ابن نُوح بسنده، وناولني «كتاب الشِّهاب» روايته عن ابن زاهر قراءة، وعن ابن قَطرال سماعاً،وناولني كتاب «القربة إلى ربّ العالمين في فضل الصّلاة على سيّد المرسلين» بحقّ قراءته إيّاه على ابن السرّاج عن مؤلّفه أبي القاسم بن بَشْكُوال، وناولني كتابِ «المَصابيح»[5] تأليف الإمام أبي محمّد الحسين بن مَسعود، وحدّثني به عن ابن بَرْطُلُه بسنده، وناولني

١- ذكره حاجي خليفة في كشف الظّنون: ١٦١٢.

٢- زيادة من ت و ط.

٣- ليست في ت.

٤- رسالة في الفقه المالكي للشيخ أبي محمّد عبد الله بن أبي زيد المالكي القيرواني المتوفى سنة٣٨٩هـ وعليها شروح كثيرة، وطبعت غير مرّة.

٥- هو كتاب مصابيح السّنة للإمام حسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي توفي سنة ٥١٦هـ. قيل: عدد أحاديثه أربعة آلاف وسبع مئة وتسعة عشر حديثاً من الكتب المختلفة. انظر كشف الظنون ١٦٩٨.

«مختصرَ حِلية الأولياء» للحافظ أبي نُعيم باختصار شيخه الفقيه العالم أبي الحسن عبيد الله[1] بن محمّد بن عُبيد الله النَّفزي[2] عرف بابن قَبّوش، وحدَّثني به عنه. وقرأت عليه لابن قبُّوش:[3] [الطويل]

غَنيتُ بِما عِنْـدي ومالـيَ لاأَغْنَـى ... وأعْرَضْتُ في قَصْدي عَنِ العَرَضِ الأدْنَى
إلى المَلأ الأعْلـى عَلَوْتُ بِهمَّتيّ ... فَرَافَقْتُ ما يَبْقى وَفَارَقْتُ مايَفْنَـى[4]
تَركتُ للذَّاتِ البَهائِـمِ أهْلَهَـا ... وَهِـمْـتُ بمَا يُعْنى بهِ عالِمُ المَعْنـى

وأنشدني - حفظه الله - للإمام الحافظ أبي محمّد عبدالحقّ الأزْديّ[5] من قوله حين ولي قضاء بِجاية: [الوافر]

وَكـانَـتْ لي ذُنـوبٌ مُوبِقَـاتٌ ... يَضيقُ بحَصْرِها حَرْفُ الـرَّويِّ
فَلمَّا أنْ وَلِيـتُ الحُكـمَ يَوْمـاً ... «أتى الوادِي فَطَمَّ على القَرِيِّ»[6]

* * *

١- في ط: عبد الله.
٢- فقيه مدرس، حافظ توفي ببجاية سنة ٦٤٢هـ. انظر الذيل والتكملة ٥-٢/٦٧٤ .
٣- الأبيات في الذيل والتكملة ٥-٢/٦٧٥.
٤- في الذيل والتكملة: إلى العالم الأعلى، فوافقت.
٥- هو عبدالحق الأزدي الإشبيلي، قاض، محدّث، عالم، له مشاركات في علم القرآن والحديث والأصول والأدب والنحو والتاريخ، توفي سنة ٦٢٨هـ - ومن مصنفاته: الإعلام بفوائد الأحكام، وشرح مقصورة ابن دريد. له ترجمة في عنوان الدراية ١٩٣ .
٦- ضمّن الشاعر المثل المعروف «أتى الوادي فطمَّ على القريّ» ويروى:جرى الوادي، وهو في الميداني ١/٢١٩.

[من بجاية إلى وهران ولقاؤه للمشدالي]

ثمَّ سافرنا من بِجاية فمررنا على قرية ملالة، وهي بالقرب منها، فرأيت بها الفقيه أبا علي منصور بن محمّد الزَّواويّ المشداليّ[1] ومشدالة قبيلة من زواوة، ويلقب بناصر الدّين لقّباً لزمه من المشرق [١٤٨/أ]، وقد دخل قديماً إليه فقرأ به الأصول والفروع دراسة وتفقُّهاً. وله منها حظٌّ وافر، ولكنّه غير مُعْتنٍ بالرّواية، ولا له فيها حظٌّ، وقد حدّثني أنّه حضر وفاة أبي عبدالله [محمّد][2] بن أبي الفضل السلّميّ[3] بالزّعقة من رَمْلة[4] الشّام. وسألته عن التّاريخ - وكان غَرضي - فلم يحفظه شهراً ولا عاماً، وهذا نهاية مايكون من الإغفال، وحسبُنا الله في كل حال.

ثمَّ رحلنا على طريقنا الأولى إلى ملْيانة فتيامنّا منها على طريق مازونة، مثوى خطوب الزّمان، ومناخ ركاب الحَدثان؛ وهي بُلَيْدةٌ مجموعة،مقطوعة من بعض جهاتها بحرف وادٍ منقطع شبه قلعة، ولكنّها واهية حِسّاً ومعنىً، وليس بها مايُتعرّض لذكره البتّة.

[ذكر وهران]

ثمَّ مررنا على مدينة وَهْرَان، وهي مدينة مليحة، حصينة، بريّة، بحريّة، وهي مرسى[5] تِلِمْسان وأنظارها، ومَتْجَر تلك النواحي، ولكنَّها لِما طرقَها من

١- هو منصور بن أحمد بن عبدالحق المشدالي: فقيه مالكي. لهُ مشاركة في علوم العربية والمنطق والجدل، نشأ ببجاية ورحل إلى المشرق طلباً للعلم، توفي سنة ٧٣١هـ من مصنفاته شرح على رسالة أبي محمّد ابن أبي زيد لم يكمله، له ترجمة في وفيات ابن قنفذ ٣٤٤- نيل الابتهاج ٣٤٤، عنوان الدراية ٢٠٠-٢٠١ .

٢- ليست في الأصل.

٣- كانت وفاته في ربيع الأول سنة ٦٥٥هـ.

٤- الرّملة: مدينة عظيمة بفلسطين وكانت رباطاً للمسلمين. انظر معجم البلدان ٦٩/٣ .

٥- في ت وط: من مراسي.

نوائبِ الدَّهرِ مُطرِقة، وجيوشُ الخطوب الملمّة بها مُحدقة، قرعَتْها حتَّى قرَعَتْ ساحتـها؛ ونافحـتَها بسُموم الآفاتِ حتَّى ذَهَبت صَباحَتُها، فألقَتْ بيدِها مستسلمة، وعادت بعد ضوئها مظلمة؛ ولاوشَلَ[1] بها يشفي غلّة، ولاطِبًّا يداوي علّةً. انتثلها[2] الزّمان فلم يُبْقِ بِها تقياً، وأبدلَها الحَـدَثانُ من كلِّ بِشارة نعيًا، لاتلقى بها مُعمِلِ يَراعه[3]، ولا ترى بها حِلْفَ براعة، بل خَرسَ بها لسانُ التِّلاوة، وزيد بها حمارُ الجهلِ على الفَودين[4] علاوة، لم يطعَموا العِلْمَ ولاذاقوا له حلاوة، بل تَبَرَّؤوا منه فكلّهم فالجُ بن خَلاوةَ[5] فيا عجباً لي أصف بالفناء وَهَران، كأنّي لم أرَ سُكّانَ تِلِمْسان.

[ذكر تلمسان في العودة]

ثمَّ وصلنا إلى تِلِمْسان، وكانت نيّتى أن أُقيمَ بها مُدّة حتى أَجِدَ صُحبةً قويّةً أقطعُ معها المفازة الّتي في طريقها إلى رباط تَازة، وهي منقطعة[6] موحشة، لاتخلو من قطّاع الطَّريق البتّة،وهم بها أشدّ [١٤٨/ب] خلق الله

١- الوَشَل: الماء القليل الذي يَنحلب من صخرة أو جبل يقطر ولا يتصل قطره.

٢- انتثلها، يريد: ذهب بأتقيائها واستخرجهم منها؛ يقال: انتثل الكنانة إذا استخرج نبلها فنثرها.

٣- اليراع: القلم.

٤- الفودان: العدلانَ، كل واحد منهما فَوْد.

٥- هو فالج بن خلاوة الأشجعي، ويُقال أنا من هذا فالج بن خلاوة؛ أي أنا منه بريء، وذلك أنّه قيل لفالج بن خلاوة يوم الرقّم لما قَتَل أُنَيْسٌ الأسرى: أتنصر أُنيساً؟ فقال: إني منه بريء. انظر ثمار القلوب ٢٦٥- اللسان وتاج العروس: فلج.

٦- في ت: مقطعة.

ضرراً، وأكثرهم جرأة، وأقلّهم حياءً ومروءة، لايستقلّون القليل، ولايَعفون عن ابن السّبيل، ليس في أصناف القُطّاع أخسّ منهم هِمَماً، ولا أوضعَ منهم نفوساً، ولا أكثر منهم إقداماً على كل صالح وطالح، لاينبغي لمسلم أن يُغرَّر بلقائهم. فلمّا وقفنا على باب[1] تِلِمْسان صادفنا العادة الكريمةَ من لطف المولى سبحانه، فألفينا قافلة تخرج، وهي كبيرة[2] تزيد على الألف وقال لنا قائل على الباب: إنَّ لهم في محاولة الخروج نحواً من ثلاثة أشهر، حتّى تسنّى لهم بخفارة على أداء خُفارة[3] فدخلنا إلى البلد. وخرجتُ ساعةَ دخولنا إلى زيارة قبور الصَّالحين بالموضع المعروف بالعُبَّاد، وزرت قبر الشَّيخ الصَّالح آية زمانه أبي مدين [شُعَيب][4] رضي الله عنه، ثم رجعت إلى البلد، فبتنا به، ثمَّ خرجنا من الغد، وأدركْنا القافلةَ [بحمد الله][5] بوَجْدَة، وهما مدينتان بينهما مسافة قليلة في بسيط مُستوٍ، وقد دَثَرَتا فلم يبق منهما إلاّرسومٌ حائلة[6]، وأطلال ماثلة، والقديمة أشدّهما دثوراً وبهما عمارة قليلة، فرحلنا منها مع القافلة حتّى وصلنا إلى رِباط تازة وذلك في آخر رمضان.

١- في ط: بباب.

٢- في ط: كثيرة.

٣- الخِفارة: بكسر الخاء: الإجارة والحماية، والخُفارة بالضم: مايؤديه المستجير لمن يخفره ويحميه.

٤- ليست في الأصل.

٥- ليست في الأصل.

٦- في ت: حاملة وهو تصحيف.

[ذكر فاس ومكناس]

ثمَّ عَيَّدنا في مدينة فاس وقلت[1] في ذلك[2]: [البسيط]

قَالُوا: تُعيِّدُ في فَاسٍ فَطِبْ فَرَحاً فَقُلْتُ: مَالي بهَا دَارٌ ولا عَطَنُ[3]

فَاسٌ ومِكناسَةٌ وطَنجةٌ وسَلاَ عِنْدي كزدِّيكَ لا أهْلٌ ولاوَطَنُ

بَغْدادُ قَفْرٌ إذا لَم تَحْوِ لي سَكَناً والقَفْرُ بَغدادُ إنّ أَهْلي بهِ قطنوا[4]

[لقاؤه لابن حكم]

ثمَّ مررنا على مِكْناسة فلقيت بها الشَّيخ الفقيه، المحدّث، القاضي، أبا الحجَّاج يوسف بن أحمد بن حكم التُّجَيْبيّ الأندلسيّ،[5] وهو شيخ فاضل راوية، لقي جماعة من كبار العلماء وأخذ عنهم، وقيدّ لي بخطّه، منهم أبا الرّبيع بن سالم، وأبا الحَسَن بن قطرال، وأبا الحسن بن خَيْرة[6]، والرَّجلَ [١٤٩/أ] الصّالح أبا صالح محمّد بن محمّد بن أبي صالح، وأبا بكر بن مُحرز، وأبا عيسى محمّد بن أبي السَّداد، وأبا الحسن سَهل بن مَالك، وأبا جعفر بن الّدلاّل، وأبا عبد الله بن قاسم، وأجازني إجازة عامّة، وذكر لي أنّ

١- في ط: ومما قلت

٢- الأبيات في جذوة الاقتباس: ٢٨٧/١.

٣- في جذوة الاقتباس: فطر فرحاً، والعطن: المنزل والناحية.

٤- في جذوة الاقتباس: بها قطنوا.

٥- لم أقف على وفاته.

٦- هو علي بن أحمد بن عبد الله بن خيرة: فقيه، محدث، عالم، خطب بجامع بلنسية توفي سنة ٦٤٣هـ . له ترجمة في صلة الصلة ١٣٤- وفيات ابن قنفذ ٣١٣ .

المذكورين كلّهم قد أجازوه إجازة عامّة، ولم أقرأ عليه إلاّ الحديث الأوّل من «الموطّأ»[1] وحدّثني به عن أبي الحسن بن خَيْرة قراءة، وعن أبي الرَّبيع بن سالم قراءة عليه لصدر منه، وسماعاً عليه لسائره.

وكان في أملي الاجتماعُ بالفقيهِ المحدّث أبي محمّد عبدالله[2] مولى الرَّئيس الأوحد العالم أبي عثمان سَعيد بن حكم[3]، صاحب مَيُرقة[4] لما تقرّر لديّ من تهمّمه بالعلم، واعتنائه بالرّواية. ولم يُقضَ لي حينئذٍ أن أجتمع به، وقد وقفت على« فهرسة شيوخه » فرأيت صنع فاضلٍ ذي همّة، وقد شاركته في بعض شيوخه الّذين ذكرهم.

ثمَّ مررنا على مدينة أزْمّور[5]، وزرنا بها قبور السّادة المدفونين بها من الصّالحين،نفعنا الله ببركتهم. وختمنا[6] الرّحلة بزيارة قبر شيخ الصّالحين وقدوتهم، شرف المغرب الأقصى[7]، وفخره، وشمس زمانه وبدره، أبي محمّد صالح بن ينصارن[8] أفاض الله علينا من بركاته، وأمدَّ بصائرنا بنورٍ يُستمدُّ من مشكاته.

١- في ت و ط: «من كتاب الموطأ».

٢- هو عبد الله الميورقي: فقيه محدث، من أهل التهمّم بالعلم والاعتناء بالرواية. انظر فهرس الفهارس ٢/٧٥٠ .

٣- سعيد بن حكم: أمير أندلسي دخل جزيرة ميورقة عندما اختلَّ أمرُ الموّحدين. وتولّى رياستها وعلا قدره، وكان عارفاً بالحديث والشعر، توفي بميورقة سنة ٦٨٠هـ . انظر أعمال الأعلام ٣١٦ .

٤- ميورقة: جزيرة في البحر الزقاقي، تُسَامتُها من القبلة بجاية من برّ العدوة. انظر الروض المعطار ٥٦٧.

٥- مدينة في دُكالة من بناء الأفارقة على مصبّ نهر أم الربيع في البحر المحيط، بعيدة عن المدينة الغربية بثلاثين ميلا إلى الجنوب. انظر وصف إفريقيا ١/١٥٧ .

٦- في ط: وختمت.

٧- يقول الأستاذ محمّد الفاسي: هذه أوّل تسمية للمغرب باسمه الحالي فيما تناهى إلى علمه.

٨- هو صالح بن ينصارن الماكري صاحب رباط أسفي الشهير المتوفى سنة ٦٣١هـ . حاشية طبعة الرباط ٢٨٠ .

[الاجتماع بالأهل]

ثمَّ مَنَّ اللّه بجمع الشّمل، والاجتماع بالأهل؛ له الحمد والشُّكر كثيراً:[1]

[الطويل]

وَقَدْ يَجْمَعُ اللهُ الشَّتيتينِ بَعْدَمَا   يَظُنَّـانِ كُلَّ الظَّـنِّ ألاَّ تَلاقيَا

والحمد للّه الّذي أعجزت صنائعه شكر الشّاكرين، وبهرت بدائعه فِكر المتفكّرين، فمن نداه همى كلُّ فَضْل وَبْلاً وجَوْدا، وله الحمْد كثيراً بَدْءاً وعَوْدا.

[الرِّحلة المنظومة]

وهذه قصيدة نظمتها في الرّحلة، رأيت أن أختم بها هذا التَّقييد مستعيناً بالله على ذلك: [١٤٩/ب]

[الوافر]

عَلَيْكَ الـنُّصحُ رِدْهُ بِكُلِّ حَيٍّ   وإنْ أَلْفَيْتَ وَارِدَهُ فَحَـيِّ[2]
فمُعْظَمُ دينِنا نُصحُ البَرايَا   كَـذَاكَ أتَى الحَديثُ عَنِ النَّبيِّ[3]
وَقَدْ نَصَحَ الجَمادُ لذِي اعْتِبارٍ   وكَفُّ أولي النُّهَى عَنْ كُلِّ غَيٍّ[4]
لِسَانُ الحَالِ أبْلَغُ من بَلـيغٍ   وَفـي ذِي الجَهْلِ أعْيَا مِنْ عَيِـيٍّ[5]
وَقِدْمـاً سَارَتِ الأمْثَالُ عَنْهَا   وَمَا زِدْنـا سِـوَى حَرْفِ الـرَّوِيِّ

١- البيت منسوب للمجنون في ديوانه ٢٩٣ من قصيدة المؤنسة ومطلعها:
تذكرّت لَيْلى والسنين الخَواليا   وأيّام لا نخشى على اللهو ناهيا
وكذلك هو في ديوان قيس لبنى ١٦٢.
٢- نقل ابن القاضي ١٥ بيتاً في جذوة الاقتباس ١/٢٨٧-٢٨٨.
٣- يريد قول النبي عليه السلام «إن الدين النصيحة».
٤- أولو النُّهى: أصحاب العقول. الغيّ: الضّلال والباطل.
٥- العيُّ: العجز عن التعبير اللفظي.

فَأصْغِ إلى نَصائِحِها مُصيخاً ... وأيْقِظْ جَفْنَ نَدْبٍ شَمَّرِيٍّ(١)
مَسَحْتُ الأرْضَ غرْبًا ثُمَّ شرْقاً ... أُسائِلُ عَنْ عَواقِبِ كلِّ حَيٍّ
فَقالَتْ: ماسُؤالُكَ بَعْدَ عِلْمٍ ... ألَمْ تَرَهُمْ جَميعًا تَحْتَ طَيٍّ
تُسائلُ والحَوادِثُ مُفصِحاتٌ ... صَوائحُ قَد أصَمَّتْ بالدَّوِيِّ
فصافَحْتُ التَّصفُّحَ مُسْتَبيناً ... فَما ألْفيتُ أرضاً ذاتَ عيٍّ
مَرَرْتُ بِساحَةٍ فَسألتُ عمَّن ... أناخَ بآخرِ الغَرْبِ القَصِيِّ(٢)
فَقالَتْ: خَلَّفوني ذاتَ شَجْوٍ ... أُبكّي بالغَداةِ وبالعَشِيِّ
أنَاخَ بِهِمْ زَمانٌ لَيْسَ يَرْثي ... لَغيْلانٍ، ولا يُعْنَى بِمَيٍّ(٣)
وقَدْ أهْدَى الكُسوفَ إلى أُناسٍ ... دَ راهُمْ كالبُدورِ لَدَى النَّدِيِّ(٤)
وَجِئْتُ السُّوسَ أسألُ وَهْوَ أقْصَى ... فَقالَ: إليْكَ عَنْ كَمِدٍ شَجِيٍّ(٥)
ألَمْ تَرَني وَحيداً مِنْ أناسي ... كَما عَطِلَتْ كَعابٌ مِن حُلِيٍّ(٦)
وطُفْتُ بِلادَهُ أرْضاً فَأرْضاً ... تُخَبِّرُني بِمَوْتِهِمِ الوَحِيِّ(٧)
وَوافَيْنا تِلِمْسانَاً فأبْدَتْ ... عَلى أهْلٍ مَضَوا شَجْوَ النَّعِيِّ

١- في جنوة الاقتباس: سمّري بالسين، والندب: الخفيف في الحاجة - ورجل شمّري: ماض في الأمور والحوائج مُجرّب.

٢- أناخ بالمكان: أقام.

٣- أناخ بهم: حلّ بهم. غيلان: هو ذو الرّمة الشاعر المعروف. وميّ محبوبته.

٤- كسف القمر: ذهب ضوؤه واسودّ.والنّديّ: المنتدى. يريد أن هؤلاء الناس الذين كانوا كالنجوم دفنوا تحت التراب.

٥- الكَمِدُ: الحزين.

٦- عطلت المرأة منَ الحلّي: خلت من الحلي. الكَعاب: التي نهد ثديُها.

٧- الوحي: السريع العاجل.

كَــــذَا مِلِيــانـة ٌ أبْدَتْ عَويـلاً ... لأَهْـلٍ ضَـمَّـهُـمْ جَرْفُ الأتـيِّ(١)

ورُحْتُ إلى الجزائِرِ ذا سُؤَالٍ ... فَقيلَ: سـألتَ عَنْ هَـيٍّ بن بَـيِّ(٢)

دَعْ الـتَّسْآلَ عــمّن حَلَّ تُرْبـاً ... وبَادِرْ مَنْهَجَ البِــرِّ التَّقِـــيِّ

وَقَالـتْ لـي بِجـايـةُ: أنْتَ خِلْوٌ ... «فـياوَيْحَ الشَّجِيِّ مِنَ الخَلـيِّ»(٣)

تُسَائِلُ عَــنْ أمُــورٍ ظَاهِـراتٍ ... عَقَرْتَ لـهَا ظُهُـوراً لِـلمَطِيِّ(٤) [١٥٠/أ]

وَجِئْـتُ بَنـي وَرارٍ وَهيَ عُمْـرِي ... أثَارَتْ كـامِنَ الـشَّجَنِ الخَفـيِّ

وَمَيلَـةُ لَـمْ تَمِلْ عَنْ نَهْجِ نُصْحٍ ... أصِخْ إنْ كـنْتَ ذا فَهْمٍ سَنِيِّ(٥)

وَمَنْ شَاءَ الحَديثَ فَقُلْ قُسَنْطيـ.. ... نَــةُ تَرْوِي حَديــثَ المَغْرِبِـــيِّ

وَبـونَةُ قَدْ أبَانَتْ مِنْ أبَانَـــتْ ... صُرُوفَ الدَّهْرِ مِنْ سَامٍ سَرِيِّ(٦)

وَفــي خُولانَ أطْرَقْتَ اعْتِبَـــاراً ... «جَرَى الوَادي فَطَمَّ عَلَى القَرِيِّ(٧)»

وَبَاجَةُ بـالبَوَائِحِ قَـدْ أبَاحَـــتْ ... وَأمْحَلَ رَوضُهَــــا مِنْ بَعْدِ رِيِّ

ولَمَّـــا جِئْتُ تـونـسَ وَهْيَ خَوْدٌ ... زَهَتْ بِجَمـالِهـا وبِحُسْنِ زِيِّ(٨)

١- العويل: رفع الصوت بالبكاء والصياح، والأتيُّ: السيل يأتي من بعيد.

٢- هيُّ بن بَيّ، وهيّان بن بيّان: لايُعرف هو ولايعرف أبوه، وقيل: هيُّ بن بيّ كان من ولد آدم فانقرض نسله.

٣- ضمّن العبدري المثل: ويل الشجي من الخليّ ويُروى: مايلقى الشجيّ من الخليّ وهو في الميداني ٢٧٣/٢، وأمثال ابن سلام ٢٨٠، وفصل المقال ٣٩٥.

٤- عقر الظهر : جرحه وحزّه، والمَطيّ: واحدها المطيّةُ: الدابة يركب ظهرها.

٥- فهم سَنيّ: فهم كبير.

٦- السَّريّ: السيّد الشريف ذو المروءة. وصروف الدهر: نوائبه وحدثانه.

٧- ضمّن العبدري المثل جرى الوادي فطمَّ على القَرِي، وهو في الميداني ٢١٩/١ وجمهرة الأمثال للعسكري ٣٢٢/١ والمستقصى ٥١/٢، وتمثال الأمثال ٤١٠/٢.

٨- الخَوْد: الفتاة الحسنة الخلق الشابة.

سَأَلْتُ عَنِ الأُلَى هَامُوا إِلَيْهَا ... فَكَمْ بَرٌّ بِهَا مِنْهُمْ حَفِيٌّ
فَقَالَتْ: مَاأَرَى مِنْهُمْ أَنِيساً ... وَشَرُّ الوَصْلِ وَصْلُ الآدَمِيِّ
وَجِئْتُ القَيْرَوَانَ فَجِئْتُ قَفْراً ... يُجِيبُ صَدَاهُ بِالصَّوْتِ الشَّجِيِّ
وَقَابِسُ قَدْ نَزَفْتُ بِهَا سُؤَالاً ... فَكَانَتْ مِثْلَهَا سِيّاً بِسِيِّ
وَرُحْتُ إِلَى طَرَابُلُسٍ فَقَالَتْ: ... رَمَتْ أَهْلِي الحَوَادِثُ عَنْ قِسِيِّ(١)
وَفِي مِصْرَاتَةٍ سَحَّتْ جُفُونِي ... لِمَا أَبْدَتْ مِنَ النُّصْحِ الجَلِيِّ(٢)
وَفِي زِدِّيكَ مَسْقَطِ كُلِّ قَفْرٍ ... بَيَانٌ بِالخِطَابِ المَعْنَوِيِّ
يقولُ: صَحِبْتُ قَبْلَكُمُ أُنَاساً ... غَدَوا لِسِهَامِ دَهْرِي كَالرَّمِيِّ(٣)
وَكَمْ رَمَّتْ لَدَيَّ عِظَامُ شَخْصٍ ... مُنِيبٍ، فَاضِلٍ، بَرٍّ، تَقِيِّ(٤)
وَبَاحَتْ بِالنِّدَاءِ قُصُورُ سُرْتٍ ... فَأَوْرَتْ زَنْدَ فِكْرِ الأَلْمَعِيِّ(٥)
وَقَالَتْ لِي: أَقَمْتُ هُنَا زَمَاناً ... أُشَاهِدُ عِبْرَةً فِي كُلِّ حَيِّ
وكَمْ نُشِرَتْ عَلَيَّ بُنُودُ رَكْبٍ ... عَلَيْهِمْ غَابَةٌ مِنْ سَمْهَرِيِّ(٦)
فَمَا طَالَ المَدَى إِلاَّ قَلِيلاً ... وَقَدْ عَفَاهُمُ مَرُّ الأَتِيِّ(٧)
رَأَيْتُ الدَّهْرَ يُسْحِتُ كُلَّ حَيٍّ ... يَكُرُّ عَلَى الجَبَانِ مَعَ الكَمِيِّ(٨)

١- القسيّ: جمع قوس.
٢- سَحَّ: سال وصبَّ.
٣- الرّميّ: الهدف الذي يرمي عليه.
٤- رمَّ العظم: بلي. المُنيب: التائب.
٥- الألمعيّ: الذكي المتوقّد الحديد اللسان والقلب.
٦- البنود: أعلام الفرسان، السّمهريّ: الرُّمح الصليب العود.
٧- عفّى الأثر: محاه. الأتيّ: السَّيل.
٨- يُسحتُ: يستأصل - الكميُّ: الشجاع المقدم الجريء.

وقــد بَرقَت بِبَرْقَةَ لامِعـاتٌ ... تلِينُ عَرِيكَةَ القَلْبِ القَسِيِّ
وسَـلْ إسْكندرِيَّةَ أينَ ولَّى ... وَسَلْ عـن سَاكنٍ إسْكـندرِيٍّ [١٥٠/ب]
وسَلْ فُسـطـاطَ عَمْرٍو عَنْ نَواهُ ... وسَلْ عن جَوهَرٍ مَوْلَى الشَّقِيِّ[1]
بِقاعِدَةِ الدِّيارِ دِيارِ مِصْرٍ ... وَسَلْ بِعُبَيدِهِمْ والقُرْمِطِيِّ[2]
وسَلْ أمَّ الـقِفَارِ بِمَنْ طَوَتْهُ ... فَكَمْ مِن فَاضِلٍ فِيهِـمْ رَضِيٍّ
وكَمْ حَلَّتْ قُوَى مَن حَلَّ فِيهَا ... وَكَمْ حَالَتْ حُلَـى وَجْهٍ وَضِيِّ[3]
وكَمْ ضَخْمٍ يَمُوجُ مِنَ امْتِلاءٍ ... غَدا نِضْواً بِهَا مِثْلَ النِّضِيِّ[4]
بِها صَرْفُ الزَّمانِ يكونُ صِرْفا ... فَكَمْ نَاعٍ حَوَتْهُ وَكَمْ نَعِيٍّ
وَسَلْ فِي أيْلَةٍ بَـرّاً وبَحْـراً ... وَيَنْبُعَ سَلْ بِمُنْقَطِعٍ ثَوِيٍّ
وإنْ تَعطِفْ لِطَيْبَةَ لِيتَ عَنْسٍ ... فَعَرِّجْ إنَّهَا بَيْتُ الرَّوِيِّ[5]
وقُلْ أيْنَ الأحِبَّةُ لَيْتَ شِعْرِي ... أيُخفِي التُّرْبُ أقْمارَ السُّمِيِّ
وَقَفْتُ هُناكَ مُعْتَبِراً سَؤُولا ... أخَا جَفْنٍ رَوٍ وَحَشَى ظَمِيِّ[6]
بِجَمْعٍ مَابِهِ إلاَّ مَشُوقٌ ... إذا مَاسِيمَ بِيعَ بِلا نَسِيِّ[7]

١- هو جوهر الصقلّي باني القاهرة، والمقصود بالشقيّ: المعزّ العبيدي.

٢- القرمطي: هو الحسين بن زكرويه كان يدّعي الانتماء إلى الطالبين، لقّب نفسه المهدي أمير المؤمنين.

٣- حالت: غيّرت.

٤- النِّضو: الهزيل. والنضيّ: كالنضو.

٥- اللِّيت: صفحة العنق والعَنْس: الناقة القويّة.

٦- رواية الشطر الثاني في ط: «أخا جَفْنٍ روٍ ووحشي ظميّ» وبه لايستقيم الوزن.

٧- السُّوم: عرض السلعة على البيع - النسء: التأخير.

فَقُلْـــتُ لَهـا: فديتُكِ أين أوْسٌ؟ ... وأيْنَ أَخُـوهُ مُـعـتَـنِقُ الـكَمـيِّ[١]
فـقَالَتْ: ويكَ قَدْ ذَهَبـا لأمْرٍ ... عَظـيـمِ الـشَّأنِ فـي وجْهٍ قَضيٍّ
وَكَمْ قَدْ رَاحَ بَعدهُما مَنونٌ ... بِأَوْسِيٍّ وراحَ بــخَـزْرَجِــيٍّ
فـيا عَجَبَاً تـسـائِلُني بـأوْسٍ ... وحَسْبُكَ واعِظـاً قَبـرُ الـنَّبـيِّ
وفي الدَّهناءِ باحَ ولَمْ يُداهنْ ... لِسَانُ الحَالِ بـــالــسِرِّ الخَفِيِّ
فَسَلْ فيـهـا مَنازِلَ عافِيَاتٍ ... كـوَشْمٍ لاحَ فــي كَفِّ الـهَدِيِّ[٢]
وسَلْ بـدْراً بِـعِيـرٍ مِنْ قُرَيْشٍ ... وَعَنْ فُرْسَانِهـا وَسْطَ الـرُّكِيِّ[٣]
وَجِـئْـتُ خُلَيْصَ أَسْأَلُ عَنْ نَجِيٍّ ... مِنَ الآفاتِ فـي الدُّنيَا سَرِيِّ
فَقَالَتْ: مــاسَمِعْتُ بمَشْرِقِــيٍّ ... نَجَـا مَنْ صَرْفِهـا أَوْ مَغْرِبـيِّ
وكَرَّرْتُ السُّؤالَ بِبَـطنِ مَرٍّ ... فَقـيـل: ضَلَلْتَ عن نَهْجٍ سَوِيِّ
فَلاَ وأبـيكَ مَـافِـي الأرْضِ حَيٌّ ... وَقِـي سَهْمَ الحُتـوفِ وَلاابْنُ حَيِّ
وَشَـأنُ الدَّهْـرِ حَلٌّ وارتِحالٌ ... وَبَطْشٌ بـالــعَدوِّ وبـالـوَلــيِّ [١٥١/أ]
وكَمْ أَعْدَى الضَّعيفُ على قَويٍّ ... مُـــدِلٍّ، والفَقـيـرَ على الغَنـيِّ[٤]
وَلَمَّا جِئْتُ مَكَّةَ قُمْتُ فِـيـهَا ... أُسَائِلُهـا بـكَعْبٍ أو لُـؤَيِّ[٥]

١- يريد الأوس والخزرج.
٢- عفت الرياح الآثارَ: إذا درستها ومحتها. والهَدِيُّ: العروس تُهدى إلى زوجها.
٣- العِيرُ: القافلة: والرُّكِيّ جمع رَكيّة وهي البئر وفيه إشارة إلى قتلى بدر من الكفار الذين وضعوا في القليب.
٤- المُدِلُّ بالشجاعة: الجريء.
٥- كعب ولؤي: جدّان من أجداد قريش.

فَقَالَتْ قَدْ سَطَا بِهِمَا مَنُونٌ ... وَبَعْدَهُمَا أَنَاخَ عَلَى قُصَيٍّ[1]
وَصَالَ عَلَيْهِمُ شَخْصاً فَشَخْصاً ... فَسَلْ، إنَّ السُّؤَالَ جَلاءُ عِيٍّ
وما نَكلَ الرَّدَى عَنْ هَاشِمِيٍّ ... ولا أَنِفَ الرَّدَى مِنْ بَاهِلِيٍّ[2]
ولا مَازَتْ عَسَاكِرُهُ قَدِيمَاً ... حَنيفَاً مُسْلِماً مِن جَاهِلِيٍّ[3]
فَمَا لَكَ سَائِلاً عَنْ واضِحَاتٍ ... تَبدَّتْ لِلذَّكِيِّ، ولِلغَبِيٍّ
أَمَا دَارَتْ عَلَى دَارَا صُرُوفٌ ... كَسَرْنَ عِمادَ كِسْرَى الفَارِسِيٍّ
وَقَدْ أَنْحَتْ عَلَى الفَارُوقِ جَهْرَاً ... وعُثْمَانٍ وبَعْدُ عَلَى عَلِيٍّ[4]
وَفي السِّبْطَيْنِ جِئْنَ بِكُلِّ نُكْرٍ ... عَلَى كَفَّيْ طَلِيقٍ أو دَعِيٍّ[5]
ومَا رَاعتْ عِيَاذَ أَبِي خُبَيْبٍ ... بِبَيْتِ اللهِ والحَرَمِ العَلِيٍّ[6]
ومَا عَبَأَ الرَّدَى بِبُغَامِ رِيمٍ ... وَلا بِزَئِيرِ لَيْثٍ قَاصِرِيٍّ[7]
وَمَا أَبْقَى عَلَى شَيْخٍ وكَهْلٍ ... ولا غَضٍّ الشَّبَابِ ولاصَبِيٍّ
وَلا ذُو العِلْمِ خُصِّصَ مِنْ جَهُولٍ ... وَلا ذُو الرُّشْدِ مُيِّزَ مِنْ غَوِيٍّ
بِمَالِكٍ الإمامِ غَدَا مُنِيخَاً ... وَأَحْمَدَ والإمَامِ الشَّافِعِيٍّ[8]

١- قصي بن كلاب: جدّ من أجداد قريش.
٢- نكل عن الأمر: نكص وجَبُنَ. الرّدى: الهلاك.
٣- ماز: عزل وفرز.
٤- الفاروق: عمر بن الخطاب.
٥- السّبطان: الحسن والحسين ابنا علي بن أبي طالب رضي الله عنهم.
٦- أبوخُبَيبْ: هو عبد الله بن الزبير، حاصره جيش الحجّاج في بيت الله الحرام، وقتله ثمة.
٧- بُغام الظبية: صوتها: والليث القاصري: الحبيس.
٨- مالك: هو ابن أنس إمام المذهب المالكي، وأحمد هو ابن حنبل إمام المذهب الحنبلي.

وبلِّد فِكْرَهُ مـــن كـــلِّ حَبْرٍ ... وَقــطَّ لِســـانَ طَـلْـقٍ لَوْذعِـيٍّ(1)
ومَا إنْ خَــامَ عـــنْ وَعْلٍ بنِيقٍ ... وَلا فــي قَفْرةٍ عَـن أَخــدَريٍّ(2)
نُفوسَ الخَلْقِ يَشْرَبُ ليس يُروى ... بِوَسمِيٍّ يَصُـــوبُ ولا وَلِــيٍّ(3)
يــشُقُّ القَفْرَ أَهْدَى مـــن قَطَاة، ... وَلَيلَ النَّقْعِ أجْرَأُ مـن كـمِيٍّ(4)
ومَا جَـــابَ القِفَارَ بأَرْحَبيٍّ ... وَلاَ شَقَّ الغُبَـــارَ بأعْـــوَجِيٍّ(5)
وَلَيْسَ يَـنِـــي يبَدِّدُ كُلَّ نَظْـــمٍ ... ولَيس يَنَــي يُذوِّب كُـــلَّ نِيٍّ(6)
تَراهُ إلى الوَرى يَخْطُو الـهُوينَى ... مُخَاتَلَةً لهـــمْ، كَمَسيــرِ فَيٍّ(7)
ومَـــا دَارَى لمنــطِقه جَريـــراً ... ولا هَابَ القَوافيَ مِـــنْ عَديٍّ(8)
[١٥١/ب] وما حَـابَـى لصَنْعَتِهِ حَبيبَـاً ... وَلا أرْضَى المَفَاخِرَ في الرَّضِيٍّ(9)
ومَا أعْفَى مِنَ الأحْـــداثِ عَفْواً ... وَلا طِرْفاً يُصَـــانُ بأتْحَمِيٍّ(10)
وَلا غَمراً يَصُوبُ بِـكُـــلِّ رِيٍّ ... ولا ذَمِراً يَصولُ بمَشْـرَفيٍّ(11)

١- الحَبْرُ: العالم الصالح. اللوذعيّ: المتوقد الذهن واللسن الفصيح.
٢- خام: نكص. النيق: أرفع موضع بالجبل. الأخدريّ: الحمار الوحشي الأسود.
٣- الوسميّ: مطر أوّل الربيع، والوليّ: في صميم الشتاء.
٤- في ط: أجرى: والكميّ: الشجاع المقدم الجريء، ضمّن العبدري في بيته المثل: أهدى من قطاة، وهو في مجمع الأمثال ٢/٤٠٩.
٥- أرحبيّ نسبة إلى بني أرحب بطن من همدان إليهم تنسب النجائب الأرحبية، وأعوجيّ منسوب إلى فحل سابق من الخيل يقال له: أعوج.
٦- النِيُّ: الشّحم. من نَوَت الناقة إذا سمنت.
٧- الفيّ: خُفّفت همزته وهو الظلّ.
٨- جرير هو الشاعر المعروف، وعَديّ هو ابنُ زَيْد الشاعر الجاهلي المعروف، أو ابن الرّقاع العامليّ.
٩- حبيب: هو أبو تمّام الشاعر المعروف، والرضي: هو الشريف الرضي الشاعر.
١٠- الأتحميُّ: ضربٌ من البرود.
١١- الغمر: الماء الكثير، والذَّمِرُ: الشجاع، والمشرفي: السيف المنسوب إلى المشارف باليمن.

وَلا مَلِكاً تدينُ لَــهُ البَرايَـا ... ولا عَبْداً تـزمَّلَ فـي كُسَيٍّ
إذا حَانَ المـدَى مِـنْ حَيْنِ حَيْنٍ ... فَرَى في السَّابريِّ حَشَى الرَّمـيِّ[1]
ومـا عرَفَ الكَبيسَ فَزادَ يَوْماً ... ولا أَجْرَى الشُّهورَ على النَّسيِّ[2]
فَسَـلْ بالنَّاسِئينَ ولاَ نسَاءً ... وسَلْ عَمْراً بِـوالِدِه لحـيٍّ
ولا تطمَحْ بعينكَ نَحْوَ سَامٍ ... بِهِمَّتِهِ إلـى أقْصَى الرُّقـيِّ
فَأَرْقَى النَّاسِ مَنْزِلَةً كسَهْمٍ ... يَكونُ هُوِيُّهُ سَبَبَ الـهُوِيِّ
ولا يغرُرْكَ مِنْ دُنْيَاكَ وَصْـلٌ ... فَفي الأمثالِ «أغْدرُ مِـنْ بَغيٍّ»[3]
فَقُلْتُ: لَقَدْ نَصَحتِ بكلِّ معنى ... حقيقٍ أنْ يُصاخُ لَـه حَـرِيٍّ
وَقَدْ أسْمَعْتِ لَو ناديـتِ حَيّاً ... ولكنَّ النِّـداءَ لغيـرِ حَيٍّ[4]
فقالَتْ: قَدْ عَهِدْتُ إليك نُصْحاً ... فوَفَّقكَ المُهَيْمِـنُ مِنْ وَصِـيٍّ

١- فرى الشيء: شقّه وأفسده، والسابري: الدروع المنسوبة إلى سابور.
٢- النسيّ: الزيادة.
٣- المثل: «أغدر من بغي» لم أقف عليه فيما رجعت إليه من كتب الأمثال.
٤- مأخوذ من قول عمرو بن معد يكرب الزبيدي في ديوانه: ١١٣
لقد أسمعت لو ناديت حياً ... ولكن لا حياة لمن تنادي

(1) انْتَهَتْ الرِّحْلَةُ المُبَارَكَةُ بِحَمْدِ اللّٰه تَعَالى وَحُسْنِ تَوْفيقِهِ

وَصَلَّى اللّٰه عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ

وكملَتْ في أوَائِلِ ذِي قِعْدَة مِنْ عَامِ

خَمْسَـــةٍ وَأرْبَعِيْنَ وَسَبْـــع مِئَة

بِمَدِيْنَةِ مَرَّاكُش المَحْرُوسَة

مِــنْ نُسْـخَـــةِ

المُصَنِّـف(1)

1-1- خاتمة الرّحلة في ت : « تمت الرّحلة المباركة وكملت أسعد اللّٰه بها، والحمد للّٰه على مَنِّ عَوْنه، وصلّى اللّٰه على سيدنا مولانا محمّد وآله وصحبه وسلّم تسليماً ». وخاتمتها في ط ، «كملت بحمد اللّٰه وحسن عونه، وصلّى اللّٰه على سيّدنا محمّد وآله وصحبه وسلّم ».



الفَهَارِسُ

فهرس آيات القرآن الكريم

الآيـــة	رقمها	الصفحة
سورة آل عمران		
- قل آمنا بالله وما أنزل إلينا	٣/١٤	٥٤١
- الدين عند الله الإسلام	٣/١٩	٢٨٧
- يختص برحمته من يشاء	٣/٧٤	٤٥٦
- قل آمنا بالله ومأأنزل علينا	٣/٨٤	٥٤١
- إن أول بيـت وضـع للنـاس للـذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين	٣/٩٦	٣٧٦ -٣٨٥
- ومن دخله كان آمناً	٣/٩٧	٣٦٠
- من استطاع إليه سبيلا	٣/٩٧	٣٩٥
- كنتم خير أمة أُخرجت للناس	٣/١١٠	٢٨٧
- فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك	٣/١٨٤	١٩٠
سورة النساء		
- يَعِدُهم ويمنِّيهم	٤/١٢٠	٢٨٥
- فإن كانتا اثنتين	٤/١٧٦	١٥٥-١٥٦
سورة المائدة		
- الأذن بالأذن	٥/٤٥	٣٠٦
- مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه	٥/٤٨	٢٨٧
سورة الأعراف		
- وكم من قرية أهلكناها فجاءها - بأسنا بياتاً أو هم قائلون	٧/٤	١٥٧

فهرس الأحاديث النبوية

الحديث النّبوي | **الصفحة**

الألف

الحديث النّبوي	الصفحة
- الأكل في السوق دناءة	٢٨٢
- أمتي أمة مرحومة لاعذاب عليها	٥٠٣
- إن بني إسرائيل كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوه، لو كانت فاطمة لقطعت يدها.	٥٢
- إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام.	٤٤٦
- إن رسول الله ﷺ كان إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة ...	٤١٠
- إن رسول الله ﷺ لما دخل المسجد أتى البيت فطاف فيه سبعاً ثم أتى المقام	٣٧٤
- إن رسول الله ﷺ كان يخطب إلى جذع نخلة في المسجد، فلما صُنع له المنبر وتحوّل إليه حنَّ إليه الجذع	٤٥٠-٤٥١
- إن رسول الله ﷺ كان يصلي العصر والشمس في حجرتها قبل أن تظهر	٢٠٨
- إن شئتما أخبرتكما بما جئتما تسألاني عنه وإن شئتما أن أسكت، تسألاني فعلت...	٤١٢
- إن الله عز وجل ليوقف عبداً بين يديه يوم القيامة اسمه أحمد أو محمد....	٥٣٧
- إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لايحب ولايعطي الآخرة إلا لمن يُحب	٣٢١
- إن المصلي يناجي ربّه فلينظر بما يناجيه به.	١٥٢
- إن مكة حرام، حرمها الله يوم خلق السموات والأرض	٤١٥
- إن الملائكة قالت لآدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام.	٣٧٩

الحديث النّبوي	الصفحة

الحديث النّبوي	الصفحة
الكاف	
- كان رسول الله ﷺ إذا أراد قضاء الحاجة وهو بمكة خرج إلى المغمّس على ثلثي فرسخ	٣٥٧
- كتاب الله الذي لايأتيه الباطل...	٨٩
- كل ذي مال أحق بماله.	٤٤٦
- كلاّ ثُمام وخشبات وعريش كعريش موسى	٤٤٢
- كلّ ميسّرٌ لما خلق له	٤٤
اللام	
- لاإله إلاّ الله وحده لاشريك له.	٤٠٩-٤١٠
- لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق	٣٩٥
- لايدخل الفقر بيتاً فيه اسمي.	٥٣٧
- لما أراد الله أن يقبض روح خليله إبراهيم عليه السلام أوحى إلى الدنيا إني دافن فيك خليلي.	٤٦٣
- لما أسري بي إلى بيت المقدس مرّ بي جبريل إلى قبر إبراهيم، فقال: انزل صل هنا ركعتين فإن هنا قبر أبيك إبراهيم ﷺ ...	٤٥٩
- اللهم إني أعوذ بك من الخُبث والخبائث	٧٦-٣٠٥
- لو بني هذا المسجد إلى صنعاء لكان مسجدي	٤٤٤
- لو كان موسى وعيسى حيين ماوسعهما إلاّ اتباعي.	٢٨٥
- لو لم ألتزمه لحنَّ إلى يوم القيامة	٤٥١
- لو وزنت عند الله جناح بعوضة ماسقى منها كافراً جرعة ماء.	٣٢١
- ليس في الأرض من الجنة إلا الركن الأسود والمقام...	٣٧٩

الحديث النّبوي	الصفحة

الميم

فهرس الأمثال وما شابهها

فهرس القوافي

القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	الصفحة
الدال المفتوحة				
غدًا	الطويل	يحيى بن عصام	٢	٧٣-٧٤
كادا	المنسرح	ابن جبير	٤	١٧٢
جحودا	الخفيف	ابن دقيق العيد	٢	٣١١
الراء المكسورة				
عُمروِ	الطويل	ناصر الدين بن المنير	٣	٢٥٤
مُثْرِ	الطويل	---	٢	٥٤٤
بالبرِّ	الطويل	---	٢	٢٠٣
والضرِّ	الطويل	أبو العباس الغمّاز	٣	٤٩٤
يدري	الطويل	محيى الدين المازوني	٢	٢٦٧
وجواري	الطويل	محيى الدين المازوني	١	٢٧٠
والحجرِ	البسيط	---	٤	٤٦٧
جارِ	مخلع البسيط	---	٢	٢٥٣
عنبرِ	الكامل	ابن المولى	٣٥	٦٨-٧٢
ذرِ	الكامل	---	١	٣٢٩
الأمصارِ	الكامل	محمّد بن الدُّبيثي	٢	٢٤٩
البُقّار	الكامل	النابغة	١	٧٣
كافرِ	الكامل	ثعلبة بن صعير	١	١١٤
كالغامرِ	المتقارب	---	٢	٢٠٠
الدائرِ	المتقارب	ابن جبير	٥٤	٢١٨-٢٢١
الراء المضمومة				
الظهرُ	الطويل	---	١	١٨٧
سامرُ	الطويل	الحارث بن مضاض الجرهمي	١	٣٦٦
أستعرُ	البسيط	شرف الدين الدمياطي	١٠	٢٩٧
الحصرُ	البسيط	ابن العطّار	٤	٥١٩

القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	الصفحة
السين المكسورة				
المدرّسِ	الطويل	علي بن محمّد الفالي	٣	١٧١
الرجس	الطويل	---	٢	٤٢٦
الشمس	الطويل	أبو الحسن التجاني	٢	٤٢٦
أمسِ	الطويل	ابن جهوة	٢	٥١٣
ملتبسِ	البسيط	---	٨	٢٦٢-٢٦٣
ملتبسِ	البسيط	---	٢	٢٦٣
القناعيسِ	البسيط	جرير	١	١٩٢
السين المرفوعة				
النفسُ	الطويل	أبو الربيع بن سالم	٣	٤٩٢
نفيسُ	الوافر	---	١	١٩٠
أخرسُ	السريع	---	٣	٢٠٢
السين المفتوحة				
عسى	الطويل	العبدري	١٥	٧٩-٨١
أخرسا	الطويل	امرؤ القيس	١	٤٢٨
درسًا	البسيط	ابن الأبّار	١	٥٢٣
الرؤوسا	الخفيف	ابن جبير	٢	١٧٤
الشين المضمومة				
توحشُ	الطويل	---	١	٤٨٩
الشين المفتوحة				
يشا	الطويل	العبدري	٥	٢١٠
الصاد المفتوحة				
خالصَهْ	السريع	وجيه الدين المناوي	٢	٢٥٣
الطاء المكسورة				
خبطِ	السريع	ابن الأبار	٣	٥١٥

القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	الصفحة
الطاء المرفوعة				
خطُّ	مخلّع البسيط	بعض المغاربة	٢	٢٦٥
قطُّ	الرمل	محمد بن عبد الرحيم الأندلسي	٢	٢٦٤
العين المكسورة				
لطلوعِ	الكامل	---	١	١٠٢
الملسوعِ	الكامل	مكرم الخزرجي	٣	٢٧٠
بالخداعِ	الخفيف	أبو المطرّف بن عميرة	٢	٥٣٤
العين المرفوعة				
القطعُ	الطويل	ابن العطار	٢	٥١٨-٥١٩
السلّعُ	البسيط	حسان بن ثابت	١	١٩٠
السّامعُ	السريع	أبو حفص بن عمر	١٠	٢٨٨
يردعُهُ	السريع	أبو الحسن التجاني	٢	٥٣١
العين المفتوحة				
جميعا	الوافر	محمّد بن عبد المنعم الأنصاري	٢	٣١٠
الطباعا	الوافر	ابن رشيق القيرواني	٢	٥٣١
أربعا	الكامل	أحمد بن محمد الهاشمي	٢	٢٥٢
منفعَهْ	المتقارب	أبو بشر الفارسي	٣	٢٢٥
كساعهْ	المتقارب	أبو الوليد الباجي	٢	٤٢
الغين المكسورة				
وفراغ	الطويل	أبو العلاء المعريّ	٥	٥١٤
بغي	الرجز	أبو بكر الزهري	٣	٥٥٢
الفاء المكسورة				
المتكلّفِ	الطويل	علي بن عبد الله الخرابشاني	٢	٥٠٧
الفاء المضمومة				
أصفُ	البسيط	محيى الدين المازوني	٣	٢٦٩
يوصفُ	السريع	---	٢	١٣٤

القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	الصفحة
الفاء المفتوحة				
موكفهْ	الكامل	الزمخشري	٢	٧٤
المعرفهْ	الكامل	يحيى بن عصام	١١	٧٤-٧٥
الصّفهْ	الكامل	أبو حفص بن عمر	٤	٧٥
طريفا	الخفيف	أبو الفداء الموصلي	٢	٢٦٥
القاف المكسورة				
يتخرّقِ	الطويل	المتنبّي	١	١٠٠
ومنطقِ	الطويل	شرف الدين الدمياطي	٢	٢٨٦
والخلائقِ	الطويل	المتنبي	١	١٨٦
ملَقي	البسيط	محيي الدين المازوني	٢	٢٦٨
مغلقِ	الكامل	الشافعي	٢	٣٢٩
الميلقِ	السريع	ابن بقي	٢	٥٥١
الآماقِ	الخفيف	---	١	٢٤٥
القاف المضمومة				
الشقائقُ	الطويل	المتنبّي	١	١٥٤
القاف المفتوحة				
عبقهْ	البسيط	علي بن عبد الكريم الأنصاري	٢	٣١٠
مخرقهْ	مجزوالكامل	---	٦	٥٠٧
الكاف المكسورة				
تمسُّكي	الطويل	علي بن المفضل المقدسي	٣	٥١٦
السّماكِ	الوافر	أبو الحسن التجّاني	٢	٥٣٣
الكاف المضمومة				
السالكُ	السريع	أبو الربيع بن سالم	٨	٤٩٢-٤٩٣
سلكوا	المنسرح	علي بن المفضّل المقدسي	٢	٥١٠

القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	الصفحة
اللام المكسورة				
ترحُلِ	الطويل	محيي الدين المازوني	٢	٢٦٨
منزلِ	الطويل	حازم القرطاجني	٨٠	٥٢٤-٥٣٠
وقالِ	الطويل	العبدري	٢٥	٧٦-٧٨
عَجَلَ	البسيط	مسلم بن الوليد	١	٧٣-٣٣٢
السُبلِ	البسيط	الشقراطسي	١٣٣	١١٩-١٣٣
والكسلِ	البسيط	أبوعبد الله المصري	٢	١٣٤
طللِ	البسيط	ابن عريهة	٢	١٣٥
عملي	البسيط	أبو بكر بن حبيش	٢	١٣٦
الأزلِ	البسيط	أحمد بن ميمون الأشعري	٣	٥٤٨
بالمنزلِ	الكامل	---	١	٤٢٣
الفضْلِ	الكامل	علم الدين السخاوي	٤	٢٥٦
جهّالها	الكامل	ابن خميس التلمساني	٦	٥٤-٥٥
الجلي	السريع	دفتر خوان العادلي	٣	٢٥٠
نابلِ	السريع	امرؤ القيس	١	٤٧٠
السائل	المتقارب	ابن المرينة	٢	٥١٨
اللام المضمومة				
يواصلُ	الطويل	أبو المطرف بن عميرة	٢	٥٣٤
سبيلُ	الطويل	محمد بن صالح الكناني	٤	٨٩-٩٠
سبيلُ	الطويل	إسحاق الموصلي	١	٥١١
خبالُ	الطويل	أبو الربيع بن سالم	٩	٤٩٣
السّولُ	البسيط	ناصر الدين بن المنير	٢	٢٥٣
نُزُّلُ	الكامل	أبو طاهر السِلَفي	٤	٥٠٦
وخبالُ	الكامل	ناصر الدين بن المنير	٢	٢٥٤
عقولُ	الخفيف	العبدري	١٢	٣٥٨-٣٥٩
يجهلُ	المتقارب	دفتر خوان العادلي	٢	٢٥١

القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	الصفحة
الياء المكسورة				
حَفِيٍّ	الوافر	العبدري	٥٢	١٧٦-١٨٠
الرويٍّ	الوافر	عبد الحق الأزدي	٢	٥٦٠
فحييّ	الوافر	العبدري	١٠٥	٥٦٦-٥٧٤
الأريحيٍّ	الوافر	ابن الفكون	٣٢	٩٧-٩٩
الياء المفتوحة				
أمانيا	الطويل	المتنبي	١	١٠٠
تلاقيا	الطويل	مجنون ليلى	١	٥٦٦
معتنيا	البسيط	شرف الدين الدمياطي	٢	٢٩٨
تغنيه	البسيط	أحمد بن ميمون الأشعري	٢	٥٤٨
تفشيَهْ	السريع	عمر بن إبراهيم التجاني	٢	٥٣٣



فهرس الأراجيز



فهرس الأقوال والمأثورات

القول	القائل	
الألف		
- أتعلم أنّي بتُّ البارحة مهموماً؟ قلت لماذا؟ قال: لأجل فراقك.	تاج الدين الغرافي	٢٦٦
- اجتمع قوم من الطلبة بباب قتيبة بن سعيد فسأله بعضهم أن يسمعه من الحديث.	حمزة بن علي الكناني	٥٠٤
- ألسن تصف وقلوب تعرف، وأعمال تخالف.	الحسن بن علي	٢٢٦
- أمّا بلاد يكون فيها مثل أبي إسحاق التنسي فما خلَت من العلم	ابن المنيّر	٥٣
- أنا رأيت باب المغارة في مؤخر المسجد	علي بن محمد بن هارون	
- إن أمكنك أن تكتب لي بوصولك إلى أهلك	أبو القاسم اللبيدي	٤٩٦
- إن البيت أنزل من السماء ياقوتة حمراء..	كعب الأحبار	٣٧٩
- إنّ الحسن بن عمارة ولي المظالم...	-	
- إن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان إذا اعتمر ربما لم يحطط	مالك بن أنس	٤١٠
- إن من حق العالم ألاتكثر عليه السؤال	علي بن أبي طالب	٨٨
- إن النقل أصحّ من الحديث لأن الحديث ربما وقع فيه الخطأ والنقل لايقع فيه الخطأ	مالك بن أنس	٤٥٩
- إنك توحشني بفراقك وقد أقبل عليك قلبي لأول مارايتك	محمد بن صالح الكناني	٨٤
- إنه ضيف علينا فاصبروا له حتى يتم الكتاب	ابن الغماز	٤٩٠

الباء

التاء

الثاء

الراء

السين

الصاد

الضاد

فهرس اللغة

فهرس الأماكن

الألف

الباء

التاء

الثاء

الجيم

الحاء

الخاء

الدال

الذال

الراء

الزاي

السين

الشين

الصاد

الطاء

العين

الغين

الفاء

القاف

الكاف

اللام

الميم

النون

الهاء

الواو

الياء

فهرس الأعلام

الألف

الباء

التاء

الثاء

الجيم

الحاء

الخاء

الدال

الذال

الراء

الزاي

السين

الطاء

الظاء

العين

الغين

الفاء

القاف

كاف

اللام

الميم

النون

الهاء

الواو

الياء



فهرس الشيوخ الذين ترجم لهم في الرحلة

الألف

الباء

الجيم

الحاء

الخاء

الدال

الزاي

فهرس القبائل والجماعات

الألف

الباء

التاء

الثاء

الجيم

السين

الشين

الصاد

الطاء

العين

الفاء

القاف

الكاف

الميم

النون

الياء



فهرس الكتب والمصنَّفات الواردة في المتن

الألف

الباء

التاء

الثاء

الجيم

الحاء

الخاء

الدال

الذال

الراء

الزاي

السين

الشين

الصاد

الضاد

الطاء

العين

الغين

الفاء

القاف

الكاف

اللام

الميم

النون

الواو

الياء

فهرس مصطلحات مناسك الحجّ

- المطبـوعـات

الكتــــــاب	المؤلف	عدد الأجزاء	المطبعة او المحقق	بلد الطبع وتاريخه
الألف				
- القرآن الكريم	-		-	-
- آثار البلاد وأخبار العباد	القزويني	١	دار صادر	بيروت ١٩٦٠م
- ابن دقيق العيد، حياته وديوانه	علي الصافي حسين	١	دار المعارف	القاهرة ١٩٦٠
- الأحاديث القدسية	-	٢	دار النصر	بيروت ١٩٨٢
- الإحاطة في أخبار غرناطة	لابن الخطيب	٤	ح. محمد عبدالله عنان	القاهرة ١٩٧٣
- أخبار مكة	لأبي الوليد الأزرقي	٢	ح.رشدي الصالح ملحس	بيروت ١٩٧٧
- اختصار القدح المعلى	لابن سعيد	١	ح. إبراهيم الأبياري	القاهرة ١٩٥٩
- أدب الرحلة	جورج غريب	١	دار الثقافة	بيروت ١٩٧٢
- الأدب في الأندلس والمغرب	محمد رضوان الداية	١	جامعة دمشق	دمشق ١٩٧٥
- أزهار الرياض في أخبار عياض	لأحمد بن محمد المقري التلمساني	١-٣	ح.مصطفى السقا وآخرون	القاهرة ١٩٣٩
- أزهار الرياض في أخبار عياض	لأحمد بن محمد المقريّ التلمساني	٤-٥	ح محمد بن تاويت وسعيد أحمد عراب	الرباط ١٩٧٩م
- الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى	أحمد بن خالد الناصري	٩	دار الكتاب	الدار البيضاء ١٩٥٤
- الاستيعاب في أسماء الأصحاب	لأبي عمر بن عبدالبر	٤	دار الكتاب العربي	بيروت ١٣٥٩هـ
- الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة	لملا علي القاري	١	ح. محمد الصباغ	بيروت ١٩٧١
- الأسماء والصفات	للبيهقي (أحمد بن الحسين)	٢	ح. عماد الدين أحمد حيدر	بيروت ١٩٨٥
- أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب	محمد درويش الحوت	-	دار الكتاب العربي	بيروت ١٩٨٣
- الإشارات إلى معرفة الزيارات	علي بن أبي بكر الهروي	١	ح. جانين سورديل طومين	المعهد الفرنسي بدمشق ١٩٥٣
- الأشباه والنظاهر	للخالديين	-	ح السيد محمد يوسف	القاهرة ١٩٥٨م
- أشعار اللصوص وأخبارهم	جمع عبدالمعين الملوحي	١	ح. عبدالمعين الملوحي	دمشق بلا
- الإصابة في تمييز الصحابة	لابن حجر العسقلاني	٤	دار الكتاب العربي	بيروت ١٣٥٩هـ
- إعتاب الكتاب	لابن الأبار القضاعي	١	ح صالح الأشتر	دمشق ١٩٦١
- الإعلام فيمن حلّ مراكش وأغمات من الإعلام	للعباس بن إبراهيم المراكشي	١٠	المطبعة الملكية	الرباط ١٩٧٤
- أعلام الجغرافيين العرب	عبد الرحمن حميدة	-	دار الفكر	دمشق ١٩٨٠

الكتاب	المؤلف	عدد الأجزاء	المطبعة أو المحقق	بلد الطبع وتاريخه
– أعيان الشيعة	للعاملي	١١	ح. حسن الأمين	بيروت ١٩٨٣
– الأغاني	لأبي الفرج الأصبهاني	٢٤	مصورة عن طبعة دار الكتب	بيروت بلا
– الإكسير في فكاك الأسير	محمد بن عثمان المكناسي	١	ح محمد الفاسي	الرباط ١٩٦٥
– ألف باء	يوسف محمد البلوي	٢	عالم الكتب	بيروت بلا
– الأمالي	لأبي علي القالي	٢	مصورة عن طبعة القاهرة الأصلية	بيروت بلا
– أمالي الزجاجي	لابن القاسم عبدالرحمن الزجاجي	١	ح عبدالسلام هارون	القاهرة ١٣٨٢هـ
– أمثال العرب	المفضل الضبّي	١	ح. إحسان عباس	بيروت ١٩٨١
– الأمكنة والمياه والجبال	لجار الله الزمخشري	١	ح. إبراهيم السامرائي	بغداد ١٩٦٨
– إنباه الرواة على أنباه النحاة	لجمال الدين القفطي	٤	ح. محمد أبو الفضل ابراهيم	القاهره ١٣٥٨هـ
– الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل	القاضي مجير الدين الحنبلي	٢	ط مكتبة المحتسب	عمان ١٩٧٣
– أنس الساري والسارب	محمد بن أحمد القيسي	–	ح. محمد الفاسي	فاس ١٩٦٨
– أنس الفقير وعز الحقير	لابن قنفذ القسنطيني	١	ح. محمد الفاسي وأدولف فور	الرباط ١٩٦٥
– الأنساب	للسمعاني (عبد الكريم التميمي)	١٠	ح. الشيخ عبدالرحمن ابن يحيى المعلمي اليماني	بيروت ١٩٨٠
– أنوار الربيع في أنواع البديع	لابن معصوم	٧	ح. شاكر هادي شكر	النجف ١٩٦٨
– الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس	لابن أبي زرع الفاسي	١	دار المنصور	الرباط ١٩٧٣
– إيضاح المكنون	اسماعيل باشا البغدادي	٢	دار الفكر	بيروت ١٩٨٢

الباء

الكتاب	المؤلف	عدد الأجزاء	المطبعة أو المحقق	بلد الطبع وتاريخه
– الباعث الحثيث، شرح اختصار علوم الحديث	لابن كثير	١	أحمد محمد شاكر	بيروت ١٩٨٣
– البحر المحيط	ابو حيان الأندلسي	٨	مكتبة النصر الحديثة	الرياض بلا
– البداية والنهاية	ابن كثير	١٤	مصورة عن طبعة مصر	بيروت ١٩٦٦م
– بداية المجتهد	لابن رشد	٢	دار الفكر	بيروت بلا
– بدائع الزهور	لابن إياس	٦	ح. محمد مصطفى	القاهرة ١٩٨٢
– برنامج التجيبي	للقاسم بن يوسف التجيبي	١	ح. عبدالحفيظ منصور	تونس طرابلس ١٩٨١

الكتاب	المؤلف	عدد الأجزاء	المطبعة او المحقق	بلد الطبع وتاريخه
– برنامج شيوخ الرعيني	لعلي بن محمد الرعيني الإشبيلي	١	ح إبراهيم شبّوح	دمشق ١٩٦٢
– برنامج الوادي آشي	لمحمد بن جابر الوادي آشي	١	ح. محمد محفوظ	بيروت ١٩٨٠
– البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان	لابن مريم(محمد بن أحمد)	١	ح. محمد بن أبي شنب	الجزائر ١٩٠٨
– بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس	للضبي(أحمدبن يحيى)	١	دار الكتاب العربي	القاهرة ١٩٦٧
– بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة	لجلال الدين السيوطي	٢	ح محمد أبو الفضل ابراهيم	القاهرة ١٩٦٥
– البلغة في تاريخ أئمة اللغة	للفيروز أبادي	١	ح. محمد المصري	دمشق ١٩٧٢
– بهجة المجالس وأنس المُجالس	لأبي عمر بن عبدالبرّ	٣	ح. محمد مرسي الخولي	بيروت ١٩٨١
– البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب	لابن عذاوي المراكشي	١–٣	ح. ليفي بروفنسال وكولان	بيروت ١٩٨٣م
		ج٤	ح. إحسان عباس	بيروت ١٩٨٣م
– البيان والتبين	الجاحظ	٤	ح. عبدالسلام هارون	القاهرة ١٣٨٨هـ

التاء

– تاج العروس	محمد المرتضى الزبيدي	١٠	المطبعة الخيرية	القاهرة ١٣٠٦هـ
– تاج المفرق في تحلية علماء المشرق	خالد البلوي	٢	ح. الحسن السائح	المحمدية المغرب بلا
– تاريخ آداب اللغة العربية	جرجي زيدان	٤	مطبعة الهلال	القاهرة ١٩٢٦م ومابعد
– تاريخ الأدب الجغرافي	كراتشكوفسكي	٢	ترجمة صلاح الدين هاشم	القاهرة ١٩٦٣
– تاريخ الأدب العربي	عمر فروخ	٦	دار العلم للملايين	بيروت ١٩٨٣م
– تاريخ الأمم والملوك	الطبري	١١	ح. محمد أبوالفضل إبراهيم	القاهرة ١٩٦٠م
– تاريخ بغداد	الخطيب البغدادي	١٤	مكتبة الخانجي بمصر المكتبة العربية ببغداد	مصر ١٩٣١م بغداد
– تاريخ الجزائر العام	للجيلالي	٢	المطبعة العربية	الجزائر ١٩٥٥م
– تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس	حسين مؤنس	١	مكتبة مدبولي	القاهرة ١٩٨٦م
– تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس	حسين بن محمد الدياربكري	٢	الطبعة الأولى	القاهرة ١٩٥٥م
– تاريخ طرابلس الغرب	لأبي عبدالله محمد	١	ح. الطاهر أحمد	القاهرة ١٩٤٩م

الكتاب	المؤلف	عدد الأجزاء	المطبعة أو المحقق	بلد الطبع وتاريخه
	ابن غلبون الطرابلسي		الزاوي الطرابلسي	
– تاريخ علماء الأندلس	لابن الفرضي (عبدالله بن محمد)	٢	الدار المصرية للتأليف والنشر	القاهرة ١٩٦٦م
– تاريخ الخلفاء	لجلال الدين السيوطي	١	ح. محمد محيي الدين عبدالحميد	القاهرة ١٩٦٤م
– تاريخ علماء مستنصرية بغداد	ناجي معروف	١	جامعة بغداد	بغداد ١٣٤٧هـ
– تاريخ الفكر الأندلسي	لأنخل بالانثيا	١	ترجمة حسين مؤنس	القاهرة ١٩٥٥م
– تاريخ قضاة الأندلس المرقب العليا	لأبي الحسن النباهي	١	المكتب التجاري للطباعة	بيروت بلا
– تاريخ ابن الوردي (تتمة المختصر في أخبار البشر)	لعمر بن الوردي	٢	ح. أحمد رفعت البدراوي	بيروت ١٩٧٠
– تالي وفيات الأعيان	لفضل الله الصقاعي	١	ح. جاكلين سوبله	المعهد الفرنسي دمشق ١٩٧٤
– تجريد أسماء الصحابة	محمد بن أحمد الذهبي	٢	دار المعرفة	بيروت بلا
– تحفة الأحباب وبغية الطلاب	علي بن أحمد السخاوي	١	ح. محمد ربيع وحسن قاسم	القاهرة ١٣٥٦هـ
– تحفة العروس	للتجاني	١	الطبعة الأولى	القاهرة ١٣٠١هـ
– تحفة القادم	لابن الأبار القضاعي	١	ح. إحسان عباس	بيروت ١٩٨٦
– تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار	ابن بطوطة	٢	ح. علي المنتصر الكتاني	بيروت ١٩٨١
– تذكرة الحفاظ	شمس الدين الذهبي	٣	مصورة عن طبعة الهند	بيروت ١٣٧٤هـ
– تراجم المؤلفين التونسيين	محمد محفوظ	٥	دار الغرب الإسلامي	بيروت ١٩٨٢م
– ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعيان مذهب مالك	القاضي عياض	٤	ح. أحمد بكير محمود	بيروت ١٩٦٧م
– التشوف إلى رجال التصوف	لابن الزيات (يوسف بن يحيى التادلي)	١	ح. أدولف فور	الرباط ١٩٥٨م
– تعريف الخلف برجال السلف	محمد الحفناوي	٢	ح. محمد أبو الأجفان ورفيقه	تونس ١٩٨٢م

الكتـــــاب	المؤلف	عدد الأجزاء	المطبعة او المحقق	بلد الطبع وتاريخه
- التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً	ابن خلدون	١	ح. محمد بن تاويت الطنجي	القاهرة ١٩٥١م
- التكملة لكتاب الصلة	ابن الأبار القضاعي	٢	طبعة مجريط	مجريط ١٨٨٦م
- تمثال الأمثال	محمد بن علي العبدري	٢	ح. أسعد ذبيان	بيروت ١٩٨٢م
- التمثيل والمحاضرة	لأبي منصور الثعالبي	١	ح. عبدالفتاح محمد الحلو	القاهرة ١٩٦١م
- تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث	محمد بن علي الشافعي	١	دار الكتب العلمية	بيروت ١٩٨٣م
- تهذيب الأسماء واللغات	للنووي (محي الدين ابن شرف)	-	دار الكتب العلمية	بيروت بلا
- تهذيب تاريخ دمشق الكبير	عبدالقادر بدران	٧	طبعة بيروت	بيروت ١٩٧٩م
- تهذيب التهذيب	ابن حجر العسقلاني	١٢	حيدر آباد	حيدر أباد ١٣٢٥هـ
- تهذيب اللغة	الأزهري	١٥	ح. عبدالسلام هارون وآخرون	القاهرة ١٩٦٤م

الثاء

الكتـــــاب	المؤلف	عدد الأجزاء	المطبعة او المحقق	بلد الطبع وتاريخه
- ثمار القلوب	لأبي منصور الثعالبي	-	ح. محمد أبو الفضل إبراهيم	القاهرة ١٩٦٥م
- الجامع لأحكام القرآن	محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي	٢٠	جماعة من الباحثين	بيروت ١٩٦٥-١٩٦٦م
- الجامع لشعب الإيمان	للبيهقي	٣	عبدالعلي حامد	بومباي ١٩٨٦م
- جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس	لأحمد بن القاضي المكناسي	٢	دار المنصور للطباعة	الرباط ١٩٧٤م
- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس	للحميدي	١	الدار المصرية للتأليف والترجمة	القاهرة ١٩٦٦م
- جغرافية مصر من كتاب المسالك والممالك	لأبي عبيد البكري	١	ح عبد الله يوسف الغنيم	الكويت ١٩٨٠م
- الجغرافية والرحلات عند العرب	نقولا زيادة	١	الأهلية للنشر والتوزيع	بيروت ١٩٨٠م
- الجغرافيون العرب	مصطفى شهابي	١	دار المعارف	القاهرة ١٩٦٢م
- الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي	لمعافي بن زكريا النهرواني	٢	ح. محمد مرسي الخولي	بيروت ١٩٨١م
- الجمع بين رجال الصحيحين	لمحمد بن طاهر بن علي المقدسي	٢	دار الكتب العلمية	بيروت ١٤٠٥هـ
- جمهرة الأمثال	لأبي هلال العسكري	٢	ح محمد أبو الفضل إبراهيم ورفيقه	القاهرة ١٩٦٤

الكتـــــاب	المؤلف	عدد الأجزاء	المطبعة او المحقق	بلد الطبع وتاريخه
– جمهرة اللغة	لابن دريد (محمد بن الحسن)	٤	مصورة عن طبعة حيدر آباد	بيروت دار صادر
– الجوهر الثمين	لابن دقماق	٢	ح.محدكمال الدين علي	بيروت ١٩٨٥م

الحاء

الكتـــــاب	المؤلف	عدد الأجزاء	المطبعة او المحقق	بلد الطبع وتاريخه
– الحافظ أبو طاهر السلفي	حسن عبدالحميد صالح	١	المكتب الإسلامي	بيروت ١٩٧٧م
– حدائق الأنوار ومطالع الأسرار	لابن الربيع الشيباني	٢	ح. عبد الله إبراهيم الأنصاري	دمشق ١٩٧٩م
– حسن المحاضرة	جلال الدين السيوطي	٢	ح. محمد أبو الفضل إبراهيم	القاهرة ١٩٦٧م
– الحلة السيراء	ابن الأبار	٢	حسين مؤنس	القاهرة ١٩٦٣م
– الحلل السندسية في الأخبار التونسية	محمد بن محمد السراج	٣	ح. محمد الحبيب الهيلة	بيروت ١٩٨٥م
– حلية الأولياء	للحافظ أبي نعيم	١٠	دار الكتاب العربي	بيروت ١٤٠٥هـ
– حلية المحاضرة	محمد بن الحسن الحاتمي	٢	ح. هلال ناجي	بغداد ١٩٧٨م
– حماسة البحتري	البحتري	١	ح. كمال مصطفى	القاهرة ١٩٢٩م
– الحماسة البصرية	البصري	٢	عالم الكتب	بيروت بلا
– حماسة الظرفاء	عبد الله بن محمد العبد لكاني	٢	ح. محمد جبار المعيبد	بغداد ١٩٧٩م
– الحماسة المغربية	أبو العباس الجراوي	٢	ح محمد رضوان الداية	دمشق ١٩٩١م

الخاء

الكتـــــاب	المؤلف	عدد الأجزاء	المطبعة او المحقق	بلد الطبع وتاريخه
– خريدة القصر (شعراء مصر)	العماد الأصبهاني	٢	أحمد أمين ورفاقه	القاهرة بلا
– خريدة القصر (شعراء المغرب)	العماد الأصبهاني	٣	محمد العروسي المطوي ورفاقه	تونس ١٩٨٦م
– خطط المقريزي	المقريزي	٢	دار صادر	بيروت بلا

الدال

الكتـــــاب	المؤلف	عدد الأجزاء	المطبعة او المحقق	بلد الطبع وتاريخه
– دائرة معارف القرن العشرين	محمد فريد وجدي	١٠	دار المعرفة	بيروت ١٩٧١م
– درّة الحجال في أسماء الرجال	أحمد بن القاضي المكناسي	٣	ح. محمد الأحمدي أبو النور	القاهرة وتونس ١٩٧٠م
– درّة الغواص	الحريري	١	مكتبة المثنى	بغداد بلا
– الدرّة الفاخرة في الأمثال السائرة	حمزة بن الحسن الأصبهاني	٢	ح. عبدالمجيد قطامش	القاهرة ١٩٧١م
– الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة	ابن حجر العسقلاني	٤	دار الجيل	بيروت بلا

الكتاب	المؤلف	عدد الأجزاء	المطبعة أو المحقق	بلد الطبع وتاريخه
- دليل مؤرخ المغرب	عبدالسلام بن سودة	١	---	تطوان ١٩٥٠م
- الديباج المذهب	ابن فرحون	١	دار الكتب العلمية	بيروت بلا
- ديوان ابن الأبار	ابن الأبّار	١	ح.عبدالسلام الهراس	تونس ١٩٨٥م
- ديوان الأعشى	للأعشى	١	ح. محمد محمد حسين	القاهرة بلا
- ديوان امرىء القيس	لامرىء القيس	١	ح.محمد أبوالفضل ابراهيم	القاهرة ١٩٥٨م
- ديوان أمية بن أبي الصلت	أمية بن أبي الصلت	١	ح عبد الحفيظ السطلي	دمشق ١٩٧٤م
- ديوان جرير	جرير	٢	ح.نعمان محمد أمين طه	القاهرة ١٩٦٩م
- ديوان حازم القرطاجني	حازم القرطاجني	١	ح. عثمان الكعّاك	بيروت ١٩٦٤م
- ديوان حسان بن ثابت	حسّان بن ثابت الأنصاري	١	عبد الرحمن البرقوقي	القاهرة ١٩٢٩م
- ديوان ابن رشيق القيرواني	ابن رشيق القيرواني	١	ح. عبدالرحمن ياغي	بيروت بلا
- ديوان ابن الرّومي	ابن الرّومي	٦	ح. حسين نصّار	القاهرة ١٩٧٦م
- ديوان الشافعيّ	الإمام الشافعيّ	١	ح. زهدي يكن	بيروت ١٩٦١م
- ديوان الشريف الرّضيّ	الشريف الرضيّ	٢	مؤسسة الأعلمي	بيروت بلا
- ديوان صَريعِ الغواني	صريع الغواني	١	ح. سامي الدهان	القاهرة ١٩٥٨م
- ديوان عديّ بن الرّقاع العامليّ	عدي بن الرّقاع العامليّ	١	ح. نوري حمودي القيسي وحاتم الضامن	بغداد ١٩٨٧
- ديوان عديّ بن زيد العباديّ	عديّ بن زيد العباديّ	١	ح. محمد جابر المعيبد	بغداد ١٩٦٥م
- ديوان عليّ بن أبي طالب	عليّ بن أبي طالب	١	ح. نعيم زرزور	بيروت ١٩٨٥م
- ديوان أبي فراس الحمدانيّ	أبو فراس الحمدانيّ	٣	ح. سامي الدهان	بيروت ١٩٤٤م
- ديوان ليلى الأخيليّة	ليلى الأخيلية	١	ح خليل العطية وجليل العطيّة	بغداد ١٩٨٧م
- ديوان المتلمّس الضبعي	المتلمّس الضبعيّ	١	ح.حسن كامل الصيرفي	القاهرة ١٩٧٠م
- ديوان المتنبي	المتنبي	٤	ح.مصطفى السقّا وآخرون	القاهرة ١٩٣٦م
- ديوان مجنون ليلى	مجنون ليلى	١	ح. عبدالستار فرّاج	القاهرة بلا
- ديوان ابن المعتزّ	ابن المعتزّ	٢	ح.محمد بديع شريف	القاهرة
- ديوان النابغة الذبيانيّ	النابغة الذبيانيّ	١	ح. شكري فيصل	دمشق ١٩٦٨

الذال

- الذخيرة السنية في الأخبار التونسية	الوزير السراج	٣	ح. محمد الحبيب الهيلة	بيروت ١٩٨٥م
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة	ابن بسّام الشنتريني	٨	ح. احسان عباس	بيروت ١٩٧٩م
- الذيل على الروضتين (تراجم القرنين السادس والسابع)	أبو شامة المقدسي	١	الطبعة الأولى	القاهرة ١٩٤٧م

الكتاب	المؤلف	عدد الأجزاء	المطبعة او المحقق	بلد الطبع وتاريخه
- الذيل والتكملة لكتابَيْ الموصول والصلة	ابن عبد الملك المرّاكشيّ	١و٨	ح. محمد بن شريفة	بيروت والرباط
- الذيل والتكملة لكتابَيْ الموصول والصلة	ابن عبد الملك المرّكشيّ	٤و٥	ح. إحسان عباس	بيروت ١٩٦٤م
- ذيل مرآة الزّمان	اليونيني	٢	مجلس دائرة المعارف العثمانية	حيدر آباد الدكن ١٩٥٤م

الراء

الكتاب	المؤلف	عدد الأجزاء	المطبعة او المحقق	بلد الطبع وتاريخه
- رايات المبرزين وغايات المميزين	ابن سعيد الأندلسيّ	١	ح. رضوان الداية	دمشق ١٩٨٧م
- الرّحّالة العَرَب	نقولا زيادة	١	دار الهلال	القاهرة ١٩٥٦م
- الرحالة المسلمون في العصور الوسطى	زكي محمد حسن	١	دار المعارف	القاهرة ١٩٤٥م
- الرحلات	شوقي ضيف	١	دار المعارف	القاهرة بلا
- الرحلات	محمد الخضر حسين	١	ح. علي الرضا التونسي	١٩٧٦م
- رحلة التجاني	محمد بن أحمد التجاني	١	ح. حسن حسني عبدالوهاب	ليبيا وتونس ١٩٨١
- رحلة ابن جبير	ابن جبير	١	دار صادر	بيروت ١٩٨٠م
- رحلة العيّاشي (ماء الموائد)	أبو سالم العياشي	٢	--	الرباط ١٩٧٠
- الرحلة في طلب الحديث	أبو بكر البغدادي	١	ح. نور الدين عتر	بيروت ١٩٧٥م
- رحلة القلصادي	أبو الحسن علي القلصاوي	١	ح. محمد أبو الأجفان	تونس ١٩٨٥م
- الرحلة والرحالة المسلمون	د. أحمد رمضان أحمد	١	دار البيان العربي	جدّة بلا
- الرحلة الورثلانية	للورثلاني	١	دار الكتاب العربي	بيروت ١٩٧٤م
- رسائل ابن أبي الخصال وشعره	أبو عبدالله بن أبي الخصال	١	ح. رضوان الداية دار الفكر	دمشق ١٩٨٧م
- رفع الأصر عن قضاة مصر	ابن حجر العسقلاني	١	ح. حامد عبدالمجيد ورفيقه	القاهرة ١٩٥٧م
- ركب الحاج المغربي	محمد المنوني	١	--	تطوان ١٩٥٣م
- الروض المعطار في خبر الأقطار	محمد بن عبدالمنعم الحميري	١	ح. إحسان عباس	بيروت ١٩٨٤م
- روض القرطاس	لابن أبي زرع	١	دار المنصور	الرباط ١٩٧٤م
- رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية	ابو بكر عبدالله بن أبي عبدالله المالكي	١	حسين مؤنس	القاهرة ١٩٥١م

الكتاب	المؤلف	عدد الأجزاء	المطبعة او المحقق	بلد الطبع وتاريخه
		الزاي		
- زهرة الآداب وثمر الألباب	للحصري القيرواني	٤	ح. زكي مبارك	بيروت ١٩٧٢م
		السين		
- سمط اللآلي في شرح أمالي القالي	لأبي عبيد البكري	١	عبدالعزيز الميمني	القاهرة ١٩٣٦م
- سنن الترمذي	للترمذي	١٠	ح. عزت عبيد الدعاس	حمص ١٩٦٥م
- سنن الدار قطني	الدار قطني	٤	ح. عبد هاشم يماني	القاهرة ١٩٦٦م
- سنن الدارمي	عبدالله الدارمي	٢	ح.محمدأحمددهمان	
- سنن ابن ماجة	ابن ماجة	٢	ح.محمدفؤادعبدالباقي	بيروت ١٩٧٥م
- سنن النسائي	بشرح السيوطي	٩	ح.عبدالفتاح أبو غدة	حلب ١٩٨٦م
- سيرة أعلام النبلاء	للذهبي	٢٤	ح فئة من المحققين	بيروت ١٩٨١م
- السير والمغازي	محمد بن اسحاق	١	ج سهيل زكار دار الفكر	دمشق ١٩٧٨م
		الشين		
- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية	محمد بن محمد مخلوف	-	دار الكتاب العربي	بيروت بلا
- شذرات الذهب	لابن العماد الحنبلي	٨	دار الكتاب العربي	بيروت بلا
- شرح ديوان الخنساء	إسماعيل يوسف	١	دار التراث العربي	بيروت ١٩٦٨م
- شرح معاني الآثار	أبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبدالملك بن سلم الأزدي الطحاوي		ح. محمد زهدي النجار	بيروت ١٩٧٩
- شرح مقامات الحريري	للشريشي	٢	مصورة عن طبعة مصر	بيروت ١٩٧٩م
- شرح مقصورة ابن دريد	للتبريزي	١	ح.د فخرالدين قباوة	حلب ١٩٧٨م
- شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي	عمر بن معد يكرب	١	ح. مطاع الطرابيشي	دمشق ١٩٨٥م
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى	عياض بن موسى	٢	ح. علي محمد البجاوي	بيروت ١٩٨٤م
- شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام	محمد بن أحمد بن علي الفاسي المكي	٢	ح. عمر عبد السلام التدمري	بيروت ١٩٨٥م
- شهيرات التونسيات	حسن حسني عبدالوهاب	١	مكتبة المنار	تونس ١٩٦٥م
		الصاد		
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا	للقلقشندي	١٤	طبعة لجنة التأليف والنشر	القاهرة بلا
- الصّحاح	للجوهري	٧	ح.أحمد عبدالغفور عطار	بيروت ١٣٩٩هـ
- صحيح مسلم	للإمام مسلم بن الحجاج	٤	ح.محمد فؤاد عبدالباقي	بيروت ١٩٥٤م
- صفة الصفوة	لابن الجوزي	٤	ح.محمدفاخوري ورفيقه	بيروت ١٩٧٩م
- الصلة	لابن بشكوال	٢	الدار المصرية للتأليف والنشر	القاهرة ١٩٦٦م
- صلة الصلة	لأبي جعفر بن الزبير	١	ح. ليفي برو فضال	الرباط ١٩٣٨م

الكتاب	المؤلف	عدد الأجزاء	المطبعة او المحقق	بلد الطبع وتاريخه

الضاد

الكتاب	المؤلف	عدد الأجزاء	المطبعة او المحقق	بلد الطبع وتاريخه
- ضرائر الشعر	لابن عصفور	١	ح. السيِّد ابراهيم محمد	بيروت ١٩٨٠م
- ضرورة الشعر	لأبي سعيد السيرافي	١	ح. رمضان عبدالتواب	بيروت ١٩٨٥م

الطاء

الكتاب	المؤلف	عدد الأجزاء	المطبعة او المحقق	بلد الطبع وتاريخه
- الطالع السعيد الجامع نجباء الصعيد	للأدفوي	١	ح. سعد محمد حسن	القاهرة ١٩٦٦م
- طبقات الأمم	للقاضي صاعد الأندلسي	١	ح. حياة بو علوان	بيروت ١٩٨٥م
- طبقات الحنابلة	لابن أبي يعلى		ح. أحمد عبيد	دمشق ١٣٥٠هـ
- طبقات الشافعية الكبرى	لتاج الدين السبكي	-	ح. محمود محمد الطناحي ورفيقه	القاهرة ١٩٦٥م
- طبقات الشعراني	عبدالوهاب الشعراني	٢	مطبعة مصطفى البابي الحلبي	القاهرة ١٩٥٤م
- الطبقات الكبرى	لابن سعد	٩	دار صادر	بيروت ١٩٦٨م
- طبقات المفسرين	محمد بن علي بن أحمد الداودي	٢	علي محمد عمر	القاهرة ١٩٦٢م
- طراز المجالس	للخفاجي	١	طبعة بولاق	القاهرة ١٢٨٢هـ

العين

الكتاب	المؤلف	عدد الأجزاء	المطبعة او المحقق	بلد الطبع وتاريخه
- العبر وديوان المبتدأ والخبر	لابن خلدون	٨	ح. خليل شحادة	بيروت ١٩٨١م
- العبر في خبر من غبر	للذهبي	٤	ح. محمد السعيد بسيوني زغلول	بيروت ١٩٨٥م
- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين	محمد بن أحمد الفاسي	٨	فؤاد سيد ورفاقه	بيروت ١٩٨٦م
- العقد الفريد	لابن عبد ربّه	٧	ح احمد امين ورفاقه	بيروت ١٩٨٣م
- عقلاء المجانين	لأبي القاسم النيسابوري	١	دار البصائر	دمشق ١٩٨٥م
- علل الحديث	لأبي محمد الرازي	١	دار المعرفة	بيروت ١٩٨٥م
- العلل المتناهية في الأحاديث الواهية	لابن الجوزي	٢	ح. خليل الميس	بيروت ١٩٨٣م
- عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية	لأبي العباس الغبريني	١	ح. رابح بونار	الجزائر ١٩٨١م
- عيون الأخبار	لابن قتيبة	٤	دار الكتب	القاهرة ١٩٢٥

الغين

الكتاب	المؤلف	عدد الأجزاء	المطبعة او المحقق	بلد الطبع وتاريخه
- غاية النهاية في طبقات القرّاء	لابن الجزري	٢	ح. براجستر اسر	القاهرة ١٩٣٢م
- غربال الزمان في وفيات الأعيان	للحضرمي	١	ح. محمد ناجي زعبي العمر	دمشق ١٩٨٥م
- غريب الحديث	لأبي عبيد القاسم بن سلام	٤	دار الكتاب العربي	بيروت ١٩٧٦م
- الغصون اليانعة في محاسن شعراء المئة السابعة	لابن سعيد	١	ح. إبراهيم الأبياري	القاهرة ١٩٦٧م

الكتاب	المؤلف	عدد الأجزاء	المطبعة أو المحقق	بلد الطبع وتاريخه

الفاء

- الفاخر في الأمثال	للمفضل بن سلمة بن عاصم	١	ح. عبد العليم الطحاوي	القاهرة ١٩٦٠م
- أبو الفتح البستي حياته وشعره	محمد مرسي الخولي	١	دار الأندلس	بيروت ١٩٨٠م
- فردوس الأخبار	لشيرويه الديلمي	٥	ح. فؤاد أحمد الزمرلي ورفيقه	بيروت ١٩٨٧م
- فصل المقال في شرح كتاب الأمثال	لأبي عبيد البكري	١	ح. د. إحسان عباس	بيروت ١٩٨١م
- فقه السنة	السيد سابق	٣	دار الكتاب العربي	بيروت ١٩٨٣م
- الفن ومذاهبه في النثر العربي	شوقي ضيف	-	دار المعارف	القاهرة ١٩٧١م
- فهرس ابن عطية	عبدالحق بن عطية	-	ح. محمد أبو الأجفان ورفيقه	بيروت ١٩٨٠
- فهرس الفهارس والأثبات	عبدالحي الكتاني	٣	ح. إحسان عباس	بيروت ١٩٨٦
- فوات الوفيات	لابن شاكر الكتبي	٥	ح. إحسان عباس	بيروت بلا
- فيض القدير	لمحمد المناوي	٦	دار المعرفة	بيروت ١٩٧٢م

القاف

- القاموس الفقهي	سعدي أبو جيب	١	دار الفكر	بيروت ١٩٨٢م
- قصائد ومقطعات	حازم القرطاجني	١	ح. محمد الحبيب بن الخوجة	تونس ١٩٧٢م
- قلائد العقيان في محاسن الأعيان	لابن خاقان	١	مطبعة التقدم العلمية	القاهرة ١٣٢٠هـ

الكاف

- الكامل في التاريخ	لابن الأثير	١٣	دار صادر	بيروت ١٩٨٢م
- الكامل في ضعفاء الرجال	لابن عدي	٧	دار الفكر	بيروت ١٩٨٤م
- الكامل في اللغة والأدب	للمبرد	٤	ح محمد الدالي	بيروت ١٩٨٥م
- كتاب الأمثال	لأبي عبيد القاسم ابن سلام	١	ح. عبدالمجيد قطامش	الرياض ١٩٨٠م
- كتاب الأمثال في الحديث النبوي	لأبي الشيخ الأصبهاني	١	ح. عبدالعلي عبدالحميد	بومباي ١٩٨٢م
- كتاب الضعفاء الكبير	للعقيلي	٤	ح. عبدالمعطي أمين قلعه جي	بيروت ١٩٨٤م
- كتاب الإيمان	لابن منده	٢	ح. علي بن محمد ناصر الفقيهي	بيروت ١٩٨٥م
- الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعر المئة الثامنة	لسان الدين بن الخطيب	١	ح. إحسان عباس	بيروت ١٩٦٣م

الكتاب	المؤلف	عدد الأجزاء	المطبعة او المحقق	بلد الطبع وتاريخه
– كشف الأستار عن زوائد البزّار	للهيثمي	٤	ح حبيب الرحمن الأعظمي	بيروت ١٩٨٤م
– كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس	إسماعيل بن محمد العجلوني	٢	ح. أحمد القلاش	بيروت ١٩٧٩م
– كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون	لحاجي خليفة	٢	دار الفكر	بيروت ١٩٨٢م
– الكشكول	للعاملي	١	دار الأعلمي	بيروت ١٩٨٣م
– كنز العمال	لعلاء الدين الهندي	١٨	ح.جماعة من الباحثين	حلب ١٩٧٧م

اللام

الكتاب	المؤلف	عدد الأجزاء	المطبعة او المحقق	بلد الطبع وتاريخه
– اللباب في تهذيب الأنساب	لابن الأثير	٣	مطبعة القدسي	القاهرة ١٣٦٩ هـ
– لسان العرب	لابن منظور	١٥	دار صادر	بيروت بلا
– لسان الميزان	لابن حجر العسقلاني	٧	مؤسسة الأعلمي	بيروت ١٩٧١م
– لزوم ما لا يلزم	للمعرّي	٢	دار صادر	بيروت ١٩٦١م

الميم

الكتاب	المؤلف	عدد الأجزاء	المطبعة او المحقق	بلد الطبع وتاريخه
– المجروحين من المحدثين والضعفاء المتروكين	محمد بن حيان التميمي	–	ح. محمد ابراهيم زايد	بيروت بلا
– مجمع الأمثال	الميداني	٢	مصورة عن طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد	بيروت بلا
– مجمع الزوائد ومنبع الفوائد	لنور الدين الهيثمي	١٠	دار الكتاب العربي	بيروت ١٩٦٧م
– محاضرات الأدباء	للأصبهاني	٢	الطبعة الأولى	القاهرة بلا
– المحمدون من الشعراء وأشعارهم	للقفطي	١	ح. رياض عبد الحميد مراد	دمشق ١٩٧٥م
– المخصص	لابن سيده	٥	دار الفكر	بيروت ١٩٧٨م
– المدوّنة الكبرى	عبد الرحمن بن القاسم	٤	المطبعة الخيرية	القاهرة ١٣٢٤هـ
– مرآة الزمان في تاريخ الأعيان	لسبط بن الجوزي	١–٢	حيدر آباد	حيدر آباد ١٩٥١م
– مروج الذهب	المسعودي	٤	ح.محيي الدين عبد الحميد	القاهرة ١٩٥٨م
– مسالك الأبصار	فضل الله العمري	١	ح. أحمد زكي	القاهرة ١٩٢٤م
– مسالك الأبصار	فضل الله العمري	١	ح. دوروتيا كرافولسكي	بيروت ١٩٨٥م

الكتـــــاب	المؤلف	عدد الأجزاء	المطبعة أو المحقق	بلد الطبع وتاريخه
– المستطرف في كل فن مستظرف	للأشبيهي	٢	ح. عبد الله أنيس الطباع	بيروت ١٩٨١م
– مستفاد الرحلة والاغتراب	للقاسم التجيبي	١	ح.عبدالحفيظ منصور	ليبيا – تونس ١٩٧٥م
– المستقصى في أمثال العرب	للزمخشري	٢	دار الكتب العلمية	بيروت ١٩٧٠م
– مسند الإمام أحمد	أحمد بن حنبل	٦	دار الفكر	بيروت بلا
– مسند أبي يعلى الموصلي	لأبي يعلى	٩	ح. حسين سليم أسد	بيروت ١٩٨٤م
– مشارق الأنوار على صحاح الآثار	للقاضي عياض	٢	المكتبة العتيقة ودار التراث	تونس بيروت ١٩٣٣م
– المصنف	عبدالرزاق الصنعاني	١١	ح.حبيب الرحمن الأعظمي	بيروت بلا تاريخ
– المصنف في الأحاديث والآثار	لابن أبي شيبة	١٥	ح مختار أحمد الندوي	بومباي ١٩٧٩م
– المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية	لابن حجر العسقلاني	٤	ح. حبيب الرحمن الأعظمي	بيروت بلا
– مطالع البدور في منازل السرور	علاء الدين الغزولي	٢	مطبعة إدارة الوطن	القاهرة ١٢٩٩هـ
– المطرب من أشعار أهل المغرب	لابن دحيه	١	ح. إبراهيم الأبياري وآخرون	القاهرة ١٩٥٤م
– مطمح الأنفس ومسرح التأنّس	للفتح بن خاقان	١	ح. محمد علي شوابكة	بيروت ١٩٨٣م
– معالم الإيمان	لأبي زيد الدباغ	٤	المطبعة العربية التونسية	تونس ١٣٢٠هـ
– معاهد التنصيص على شواهد التلخيص	عبدالرحيم العباسي	٤	ح. محمد محيي الدين عبد الحميد	القاهرة ١٩٤٧م
– المعجب في تلخيص أخبار المغرب	عبدالواحد المراكشي	١	ح. محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي	الدار البيضاء ١٩٥٠م
– معجم الأدباء	ياقوت الحموي	٢٠	ح . مرجليوث	القاهرة ١٩٣٨م
– معجم أعلام الجزائر	عادل نويهض	١	مؤسسة نويهض	بيروت ١٩٨٣م
– معجم البلاغة العربية	بدوي طبانة	٢	جامعة طرابلس	طرابلس ١٣٧٧هـ
– معجم البلدان	ياقوت الحموي	٥	دار إحياء التراث العربي	بيروت بلا
– معجم الشعراء	المرزباني	١	ح.عبدالستار أحمد فراج	القاهرة ١٩٦٠م
– المعجم الصغير للطبراني	الطبراني	٢	دار الكتب العلمية	بيروت ١٩٨٣م
– المعجم في شيوخ أبي علي الصدفي	لابن الأبّار القضاعي	١	دار الكاتب العربي	القاهرة ١٩٦٧م
– المعجم الكبير للطبراني	الطبراني	٢٥	ح.حمدي عبدالمجيد السلفي	بيروت
– معجم ما استعجم	لأبي عبيد البكري	٤	ح. مصطفى السقّا	بيروت ١٩٨٣م
– معجم المؤلفين	عمر رضا كحالة	١٥	مكتبة المثنى	بغداد بلا
– المعيار في أوزان الأشعار	للشنتريني	١	ح.د. رضوان داية	دمشق ١٩٧٩م
– المغرب العربي تاريخه وثقافته	رابح بونار	١	الشركة الوطنية	الجزائر ١٩٨١م

الكتـــــاب	المؤلف	عدد الأجزاء	المطبعة أو المحقق	بلد الطبع وتاريخه
- المغرب في حلى المغرب	لابن سعيد الأندلسي	٢	ح. شوقي ضيف	القاهرة١٩٧٨م
- المغرب في ذكر إفريقية والمغرب	لأبي عبيد البكري	١	مصورة عن طبعة دي سلان	بغداد بلا
- مقامات الحريري	لأبي محمّد الحريري	١	دار صادر	بيروت بلا
- المقتضب من تحفة القادم	لابن الأبار القضاعي	١	ح. إبراهيم الأبياري	القاهرة١٩٥٧م
- المقتطف من أزاهر الطرف	لابن سعيد	١	ح . د سيِّد حنفي حسنين	القاهرة١٩٨٣م
- ملء العيبة	لابن رشيد	٢و٣	ح.محمد الحبيب بن الخوجة	تونس ١٤٠٢هـ
- المناسك وأماكن طرق الحجّ	لأبي إسحاق الحربي	١	ح. حمد الجاسر	الرياض ١٩٦٩م
- الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية	عبد العزيز بن عبدالله	١و٢	وزارة الأوقاف	الرباط ١٩٧٥م
- الموضوعات	لابن الجوزي	٣	ح.عبدالرحمن محمد عثمان	المدينة المنورة ١٩٦٨م
- الموطأ	الإمام مالك	١	ح.أحمد راتب عرموش	بيروت١٩٨٢م
- مؤلفات ابن الجوزي	عبدالحميد العلوجي	١	-	بغداد ١٩٦٥م
- المؤنس في أخبار إفريقية والمغرب	لابن أبي دينار	١	ح. محمد شمّام	تونس ١٩٦٧م
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال	للذهبي	٤	ح. علي محمد البجاوي	القاهرة١٩٦٣م

النون

- النبوغ المغربي	عبد الله كنون	٣	دار الكتاب اللبناني	بيروت١٩٦١م
- نثير الجمان	لابن الأحمر	١	ح. رضوان الداية	بيروت١٩٧٦م
- نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان	لابن الأحمر	١	ح. رضوان الداية	بيروت١٩٦٧م
- النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة	لابن سعيد	١	ح. حسين نصار	القاهرة ١٩٧٠م
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة	لابن تغري بردي	١٤	دار الكتب	القاهرة بلا
- نسب قريش	المصعب بن عبد الله الزبيري	١	ح. ليفي بروفنصال	القاهرة١٩٥٣م
- نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض	شهاب الدين الخفاجي	٤	-	القاهرة١٣٢٧هـ
- نضرة الإغريض في نصرة القريض	المظفر العلوي	١	ح.د نهى عارف الحسن	دمشق١٩٧٦م

الكتـــــاب	المؤلف	عدد الأجزاء	المطبعة او المحقق	بلد الطبع وتاريخه
– نفاضة الجراب في علالة الاغتراب	لسان الدين بن الخطيب	١	ح. أحمد مختار العبادي	القاهرة بلا
– نفح الطيب	المقري	٨	ح.د. إحسان عباس	بيروت ١٩٦٨
– نكت الهميان	خليل بن أيبك الصفدي	١	ح. أحمد زكي	القاهرة ١٩١١م
– نهاية الأرب	شهاب الدين النويري	٢٧	دار الكتب المصرية	القاهرة
– نهج البلاغة	علي بن أبي طالب	١	ح. صبحي الصالح	بيروت ١٩٨٠م
– النوادر	أبو علي القالي	١	ح. عبدالعزيز الميمني	القاهرة ١٩٢٦
– النوادر في اللغة	أبو زيد الأنصاري	١	ح. سعيد الخوري الشرتوني	بيروت ١٨٩٤م
– نور القَبس المختصر من المقتبس للمرزباني	اختصار أحمد بن محمود الحافظ اليغموري	١	ح. رودلف زلهايم	فيسبادن ١٩٦٤م
– نيل الابتهاج بتطريز الديباج	أحمد بابا التنبكتي	١	دار الكتب العلمية	بيروت بلا

الواو

الكتـــــاب	المؤلف	عدد الأجزاء	المطبعة او المحقق	بلد الطبع وتاريخه
– الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى	محمد بن تاويت	٣	دار الثقافة	الدار البيضاء ١٩٨٢م
– الوافي بالوفيات	خليل بن أيبك الصفدي	١٣	ح. مجموعة من الباحثين	فيسبادن
– الوجيز في علم الحديث	د. محمد عجاج الخطيب	١		دمشق ١٩٨١م
– الوسيط في الأمثال	للواقدي	١	محمد عبدالرحمن	الكويت ١٩٧٥م
– وصف إفريقيا	ليون الإفريقي (الحسن الوزان)	٢	ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر	بيروت ١٩٨٣م
– وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى	نورالدين السمهودي	٤	ح. محمد محيي الدين عبدالحميد	بيروت ١٩٨٤م
– وفيات الأعيان	ابن خلّكان	٨	ح. إحسان عباس	بيروت ١٩٧٧م
– وفيات ابن قنفذ	ابن قنفذ القسنطيني	١	ح. عادل نويهض	بيروت ١٩٨٣م

الياء

الكتـــــاب	المؤلف	عدد الأجزاء	المطبعة او المحقق	بلد الطبع وتاريخه
– يتيمة الدهر	الثعالبي	٤	ح. محمد محيي الدين عبدالحميد	القاهرة ١٩٣٤م

- المجلاّت

١- مجلة حوليات الجامعة التونسية. الأعداد ٤- ٩ .
٢- مجلّة دعوة الحق السنة الخامسة العددان ٢ - ٤.
٣- مجلة معهد الدراسات الإسلامية : المجلّدان ٩ و ١٠ عام ١٩٦١-١٩٦٢.
٤- مجلّة المناهل : العددان ٥ و ١٠.
٥- مجلّة هسبرس تمودا العدد ١١ عام ١٩٧٠.



فهرس المحتويات

الفهارس

